تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي

الجزء الأول « المتن »

تأليف

م . رستوفتزف

ترجمة ومراجعة

زكي علي   محمد سليم سالم



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا القاهرة

فهرس الكتاب

الفصل الأول

إيطاليا والحرب الأهلية

الصفحة

الفصل الثانى

أغسطس وسياسة التعمير والبناء على نحو جديد

الفصل الثالث

طغيان اليوليين والكلوديين العسكرى

الصفحة

الفصل الرابع

حكم الفلاڤيين وملكية الأنطونيين المستنيرة

الصفحة

الفصل الخامس

الامبراطورية الرومانية على عهد الفلاڤيين والأنطونيين

المدن ثم التجارة والصناعة

الصفحة

الفصل السادس

المدن والقرى فى إيطاليا وفى الولايات الأوربية التابعة لروما

الصفحة

الفصل السابع

الامبراطورية الرومانية فى زمن الفلافيين والانطونيين .

الحضر والريف فى الولايات الرومانية فى آسيا وأفريقية

الفصل الثامن

السياسة الخارجية للامبراطورية الرومانية

الصفحة

الفصل التاسع

الملكية العسكرية

الفصل العاشر

الفوضى العسكرية

الصفحة

الفصل الحادى عشر

الامبراطورية الرومانية طوال عصر الفوضى العسكرية

الفصل الثانى عشر

الاستبداد الشرقى ومشكلة انحلال الحضارة القديمة

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير المترجمين

مؤلف هذا الكتاب عالم روسى جليل ، يعتبر من أئمة المؤرخين ، قضى الشطر الأول من حياته فى وطنه ، ثم هاجر الى أمريكا حيث شغل وظيفة أستاذ التاريخ القديم بجامعة « ييل » بالولايات المتحدة . وقد توفى أخيرا بعد أن زود الدراسات التاريخية القديمة بمؤلفات عديدة باللغات الروسية والألمانية والانجليزية ، ترجم الكثير منها الى شتى اللغات الأوربية الأخرى ، وقد تعددت نواحى نشاطه العلمى ، واختص مصر ودول العالم الهيلينستى بكثير من المؤلفات والبحوث القيمة ، فكان من آخرها كتابه الفذ عن التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للعالم الهيلينستى الذى صدر بالانجليزية فى سنة ١٩٤١ .

ويتميز كتابه تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى والاقتصادى الذى قمنا بترجمته ، بأنه من أعمق البحوث الحديثة التى تعالج الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية فى الدولة الرومانية ، ولا سيما فى عصور الأباطرة . وقد نهج فيه المؤلف نهجا جديدا فى دراسة التاريخ القديم الذى كان يعنى من قبل بسرد الحوادث التاريخية والوقائع الحربية دون الاهتمام بأحوال الأجناس والشعوب من هاتين الناحيتين الهامتين . وقد عرض المؤلف فى مقدمته لبيان المنهج الذى سار عليه ، فأغنانا بذلك عن التعرض فى هذا التصدير لطرائقه الخاصة فى البحث .

وسيتبين المتصفح لهذا الكتاب بجزأيه ، مبلغ اعتماد المؤلف على

الوثائق والمصادر الأصلية على مختلف أنواعها ، والمامه الوثيق بالنقوش وسعة اطلاعه على الآداب القديمة وما أسفرت عنه الحفريات فى جميع أنحاء العالم الرومانى بشقيه الشرقى والغربى من نتائج علمية ، ثم عزوفه عن مناقشة آراء المؤرخين الا فى القليل النادر ؛ وقد نتج عن ذلك بروز شخصية المؤلف فى كل فصل من فصول الكتاب .

ونظرا لضخامة هذا المؤلَّف فقد عمدنا الى اخراجه فى جزأين ، يحتوى الأول منهما على المتن ، والثانى على الحواشى والهوامش والتذييلات والصور وشرحها والتعليق عليها . وهذه هى الطريقة بعينها التى اتبعتها أخيرا مطبعة جامعة اكسفورد فى الطبعة الثانية التى صدرت حديثا لهذا الكتاب دون تعديل فى المتن ، فيما عدا الصور فقد وردت فى هذه الطبعة فى الجزء الأول .

وانا لنرجو أن يبدأ بعد صدور هذا المؤلَّف باللغة العربية ظهور آفاق جديدة فى مجال البحث العلمى الدقيق ، وأن يكون نواة قيمة لدراسات وبحوث جدية أخرى ، يسير فيها المشتغلون بالتاريخ القديم والدراسات القديمة فى مصر والعالم العربى على النهج نفسه الذى اتبعه العالم رستوفتزف من الاعتماد على المصادر الأصلية فيما يكتبون ويؤلفون .

القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٥٧

مقدمة المؤلف

ليس غرضى من تصنيف هذا المؤلف أن أضيف كتابا آخر فى تاريخ الامبراطورية الرومانية الى ما هو موجود منها من قبل ، وانما الغرض الذى أبغيه أكثر تواضعا وأضيق نطاقا جدا ، فلدينا بحوث شاملة قيمة فى السياسة الخارجية التى انتهجها أباطرة الرومان وفى التاريخ الدستورى للامبراطورية الرومانية والنظام الادارى بكل من شقيه المدنى والعسكرى ، ثم فى تكوين الجيش ونظامه ، وقد بذلت جهود موفقة فى وصف الحياة البلدية فى ايطاليا وفى بعض الولايات ، كما عملت محاولات من أجل ابراز صور كاملة عن التطور التاريخى فى بعض المناطق الاقليمية ابان الحكم الرومانى ، ومع ذلك فليس لدينا مؤلف واحد أو رسالة مفردة عرضت لموضوع الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الامبراطورية الرومانية باعتبارها وحدة كاملة فتناولت الخطوط الرئيسية فى تطور تلك الحياة ، وتوجد بحوث قيمة عرضت لاحدى المشاكل الجزئية أو لعصر بذاته ، ومع ذلك فمعظم هذه المؤلفات (ومنها على سبيل المثال المؤلف القيم لفريدلندر (L. Friedlânder)) كتبت من وجهة النظر الأثرية لا التاريخية ، ولم يحاول أحد أن يربط بين التطور الاجتماعى والاقتصادى فى الامبراطورية وبين ما شهدته الامبراطورية من تقدم دستورى وادارى أو السياسة الداخلية والخارجية التى انتهجها الأباطرة. والمؤلف الحالى هو أول محاولة من هذا النوع ، وانى واثق تماما أنه أبعد ما يكون عن أن يفى بالمراد ، فالمهمة كانت شاقة ومعقدة ، والمادة طفيفة وغير كافية ومبعثرة ولا سبيل الى الحصول على احصائيات ،

وتفسير المادة القليلة التى فى متناولنا موضع نقاش وجـدال ، ومعظم النتائج التى وصل اليها العلماء الحديثون قائمة على الحدس ، وهى فى أغلبها تحكمية ، ومع ذلك فالمهمة جذابة فى حد ذاتها ، مع كل ما يكتنفها من مصاعب ؛ وانى موقن أنه من غير اجراء بحث دقيق عن الأحـوال الاجتماعية والاقتصادية يصبح مصير أية محاولة لكتـابة تاريخ عام للامبراطورية الرومانية مقضيا عليها بالاخفاق .

ولتوضيح وجهة نظرى وأسلوبى ، أستبيح لنفسى تلخيص النتائج الأساسية التىهدتنىاليها الدراسةالدقيقةللظاهرة الاجتماعية والاقتصادية فى تاريخ الامبراطورية ؛ وقـد يستعين القارىء بمثل هـذا المجمل على أن يتبين الطريق ويترسم خطاه فى فصول الكتاب .

فالتحالف بين « البورچوازية » الايطالية والطغام من الايطاليين تحت زعامة الساسة الطموحين والقادة العسكريين ، أدى الى القضـاء على السيادة التى كانت للطبقتين المتمتعتين بالامتيازات فى روما وهما طبقتا أعضاء السناتو والفرسان ؛ وكانتا قد ألفتا طبقة من كبار ملاك الأراضى شبه الاقطاعيين ومن رجال الأعمال الذين يرجع الفضل فيما أصابوا من نجاح مادى الى استغلالهم موارد الدولة ؛ وينسب نفوذهم السياسى الى ما توافر لديهم من ثروة ، وقد ساعد نشاط أغسطس على اظهار مدى هذا النصر الذى أحرزته الطبقتان الوسطى والدنيا من المواطنين الرومان وعمل على التوفيق بين القـوات المتعارضـة ثم عاد الكفاح واستأنفه اليوليون والكلوديون : فكانت سياستهم تستهدف بناء دولة قوامها بورچوازية المدن فى الامبراطورية قاطبة ؛ وبفضل الارهاب الذى لا هوادة فيه ولا رحمة عنده ، وجهوا ضربتهم القاصمة الى نفوذ الأشراف واطماع ذوى الجاه العريض وجشعهم فى أخريات عهد الجمهورية ، وقد أقصى الفلاقيون البقية الباقية من هذه الطبقة وكذلك من كانوا بديلا عنهم

بصفة مؤقتة — وهم محسوبو الأباطرة وذوو الأثرة لديهم — وتم هذا الاقصاء عندما تبين عقب اندلاع حرب أهلية جديدة أن الاستقرار قد كتب لنظام الحكم الجديد الذى تؤيده الطبقة الوسطى فى جميع مدن الامبراطورية ، فكونت هذه الطبقة الوسطى القوية ، الدعامة الاقتصادية والعمود الفقرى فى الدولة . وقد عمل الأباطرة على تأييد هذه الطبقة ونصرتها ، واتبعوا سياسة ثابتة من أجل تشجيع الحياة الحضرية فى الولايات الغربية والشرقية على السواء ؛ ولكن عن طريق الهيئة التى كانت تمثله فى العاصمة — وهى مجلس السناتو الامبراطورى الجديد على عهد الفلافيين — وبوساطة أرستقراطية البلديات فى الولايات أظهرت هذه الطبقة الوسطى عدم استعدادها لتأييد نظام الحكومة الذى آلت فيه الزعامة الأغسطية فى صورة ممسوخة على أيدى اليوليين الكلوديين — وهى الطغيان العسكرى الشخصى الذى استحال ، عقب محاولة ڤسباسيان أن يعيد عهد الزعامة الأغسطية ، الى الحكم الاوتوقراطى الذى فرضه دوميشيان ، وكانت النتيجة تأسيس الملكية الدستورية فى عهد الانطونينيين ، وكانت هذه الملكية تعتمد على تأييد الطبقة الوسطى الحضرية فى جميع أنحاء الامبراطورية وعلى الحكومة الذاتية فى المدن . وكان الملك على الرغم من حكمه الأوتوقراطى ، يعتبر بمثابة الموظف الرئيسى لدى الشعب الرومانى ، ويقوم السناتو الى جانبه، كمجلس استشارى يمثل « البورچوازية » البلدية ، وقد تم التوافق والانسجام بين البيروقراطية الامبراطورية والجيش وبين الهيئات المتمتعة بالحكم الذاتى فى ايطاليا والولايات .

وان تكييف دستور الامبراطورية حتى يلائم القوى الاجتماعية ذات الهيمنة والنفوذ ، كان يكتنفه نقطة ضعف واحدة ، فتأسيس الامبراطورية ، أو على الأصح الطبقة الوسطى الحضرية ، لم يكن

ذا كيان قوى يستطيع معه أن يحتمل بناء دولة عالمية ، «فالبورچوازية» البلدية التى كانت تعتمد فى التأييد على الجهد والكد الذى تبذله الطبقات الدنيا — من الفلاحين فى الريف والطغام فى المدن — كانت غير مستعدة لتقبل الطبقات الدنيا فى صفوفها ، وكان شأنها فى ذلك شأن الأرستقراطية والبيروقراطية الامبراطورية ؛ وجميع هذه الفئات الثلاث أصبحت على توالى الزمان منطوية على نفسها ، والمجتمع فى الامبراطورية آل به الأمر شيئا فشيئا الى أن ينقسم الى طبقتين أو طائفتين — ألا وهما البورچوازية وجماهير العامة ، أو الأفاضل (honestiores) والوضعاء (humiliores) ، وقد نشأ عن ذلك عداء مستحكم اتخذ شيئا فشيئا صورة عداء بين الريف والمدن ؛ وقد بحث الأباطرة عن وسيلة لازالة هذا العداء بالعمل على تشجيع السكنى فى الحضر ومساعدة الفلاحين فى الريف والعمال فى المدن ، ولكن ضاع جهد الأباطرة سدى ، فكان هذا العداء هو السبب الأخير فى أزمة القرن الثالث عندما عبر الجيش عن الآمال التى كانت تجيش بصدور الطبقات الدنيا ؛ وبتأييد الأباطرة لتلك الآمال شدوا من أزرها ، وعقب أن منيت بالفشل تلك الجهود التى بذلها الأباطرة « السيڤيريون » فى العمل على اقامة أسلوب يكفل الوفاق فى المعيشة بين الطبقتين ، تحول النزاع الى حرب أهلية واجتماعية والى نشوب الفوضى السياسية التى عمت فى النصف الثانى من القرن الثالث ، وكان فى هذا القضاء على البورچوازية والطبقات العليا فى المجتمع ، ونشأت حكومة ذات طابع جديد يلائم الى حد ما ، الأحوال السائدة — وتلك هى الطغيان الشرقى الذى قام فى القرنين الرابع والخامس ، وكان مؤيدا من قبل الجيش والبيروقراطية القوية وتسنده طبقة الفلاحين .

ولا حاجة لتوكيد الاتصال الوثيق بين التطور الاجتماعى والتقدم

التدريجى فى الحياة الاقتصادية ، وان اتسم هذا بالبطء ، وانى لأبعد الناس عن المبالغة فى تقدير الأهمية التاريخية للأوضـاع والحقـائق الاقتصادية ، ومع ذلك فلا يسـعنى الا الظن بأن أى صورة للحيـاة الاجتماعية من غير أن يصاحبها صورة للأحوال الاقتصادية التى تكون أساسا لها ، لا بد أن تجىء ناقصة ومضللة كذلك ، والى جانب دراستى لتاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعى حاولت بناء على ذلك أن أقدم صورة مقابلة لها ، تكون بها الخطوط العامة التى سارت عليها الحياة الاقتصادية فيما صادفته من تقدم ، وفى هذا المجال كذلك ، لم تكن لى بأحد أسوة . وقد كانت الأحوال الاقتصادية فى الامبراطورية موضوع دراسة متوالية وقد تم عمل له قيمة كبيرة فى مختلف النواحى الخاصة ولكن لم يتصد أحد لمحاولة تتبع الخطوط الرئيسية التى سار عليهـا التقدم الاقتصادى فى الامبراطورية بوصفها مجموعة كبرى ، ولم يحاول أحد أن يبين كيف أن المظهر المادى انتابه التغيير شيئا فشيئا ، ويفسر لماذا حدث هذا التغيير وكيف أن الحياة المشرقة فى صدر الامبراطورية أصيبت بالاضمحلال التام فاستحالت الى الحياة الفطرية والشبه البربرية فى العصر المتأخر .

وها هى ذى باختصار النتائج التى هدانى اليها البحث والتقصى : يقابل المرحلة الأولى فى التطور الاجتماعى — نهاية ما كان من سيطرة لطبقة كبار ملاك الأراضى ورجال الأعمال — فى المجال الاقتصادى ، انهيار تلك الصورة المثالية التى كانت عليها الرأسمالية الاقطاعية التى كانت الطابع المميز للعصر الأخير من الجمهورية وكانت عقبة كأداء فى سبيل التقدم الاقتصادى السليم فى العالم القديم ؛ وبانهيار الثروات الهائلة التى كانت لدى الارستقراطية الامبراطورية وانتقال ما كان لديها من ثروات الى أيدى الأباطرة ، انتعشت مرة أخرى الأشكال والأوضاع فى رأسمالية

المدن على نحو ما كانت عليه فى العصر الهيلينستى ، والعماد فى تلك الرأسمالية كان على التجارة والصناعة والزراعة التى كانت تجرى على أسس علمية ، وتقدمت بخطى سريعة بفضل الأثر الحميد الذى كان للسلم والهدوء المخيم الذى أعاده أغسطس . وكان ممثلو هــذا الطراز من الرأسمالية هم « بورچوازية » المدينة التى كانت أعدادها فى تزايد مطرد وأهميتها الاجتماعية والسياسية فى تقــدم حثيث . وما لبث التمــدن والتحضر فى الامبراطورية أن أصبح على الفور هو العامل الأساسى فى هذا التطور وكان أوضح صورة لهــا . وكانت النتيجة تقدما سريعا بدرجة لم يسبق لها نظير وبصورة تدعو الى العجب فى التجارة والصناعة والزراعة ، ثم كان ازدياد رأس المال على هذا النحو المستمر وتكدسه فى المدن حافزا جديدا على الازدهار اليانع الذى شهدته الحياة فى المدن فى جميع أرجاء الامبراطورية .

ومع ذلك فالرأسمالية فى المدن أخذت فى التدهور شيئا فشيئا وكانت دلائل المستقبل ، التى تطلعت اليها البورچوازية البلدية بصفة غالبة هى ضمان دخل أو ايراد ثابت : فكانت الغاية الأساســية من وراء ذلك النشاط الاقتصادى هى توفير الضمان للفرد أو للأسرة فى حياة راضية وديعة يسودها التراخى ، والعماد فيها على دخل مضمون ، ولو كان معتدلا ؛ على أن قوى الانشاء والابتكار التى أتاحت فى صدر العصر الامبراطورى نمــوا سريعا فى النشــاط الصــناعى فى كل ركن من الامبراطورية وشجعت على بلوغ مستوى عال من التقدم الفنى فى المجال التجارى والصناعى والزراعى على حد سواء — أخذت تعانى الذبول والضمور شيئا فشيئا مما أدى الى ركود متزايد فى الحياة الاقتصادية؛ فنشاط الطبقة الوسطى الحضرية انحط الى حد الاستغلال لقوى الطبقات الدنيا الكادحة بطريقة منظمة ، وكان أغلب ما لديها من ثروة مكدسة

مستغلا فى الأرض وأصبحت التجارة والصناعة موزعة وليست مركزة حتى آل بهما الأمر الى أن أصبح الناس يباشرونهما على أساس أنهما وسيلة لزيادة الدخل الأساسى المستمد من الزراعة ، وان انطواء طبقة «البورچوازى» على نفسها وعدم السماح لغيرها بالدخول فى صفوفها ثم نظام الاستغلال الاقتصادى قد حال دون السماح للطبقات الدنيا من بلوغ مستوى عال وتحسين الأحوال المادية ورفاهية العيش لديهم ، ومن الناحية الأخرى كانت الدولة تتطلب المزيد من المال والجهد للمحافظة على السلام والطمأنينة فى الداخل ، وبقصر عناية الحكومة واهتمامها على نحو ما فعلت ، على مشاكل الحياة العامة فى الدولة دون أن تعبأ بالتقدم الاقتصادى ، لم تحرك ساكنا من أجل تشجيع التقدم الاقتصادى والنهوض به ، بل انها ساعدت على التعجيل بحالة الركود بما أسبغته من حماية على بورچوازية المدينة وعدم اكتراثها برفاهية السواد والجماعات . وعلى ذلك كان على الطبقات العاملة وحدها أن تعول الحياة فى الدولة ، فعبء ذلك كان يقع عليها ، وأدى هذا الى تدهور سريع فى الرفاهية المادية لدى هذه الطبقات . ونظرا لأنها كانت المستهلك الأساسى للبضائع المصنوعة التى تنتجها المدن فان تناقص المقدرة الشرائية التى كانت لديها كان له صداه وأثره السيىء على تقدم التجارة والصناعة ، وضاعف هذا كثيرا من الفتور والسبات الذى خيم عليها ، على أن ذلك التدهور قد دب على سبيل التحديد منذ بداية القرن الثانى ، فالحروب التى نشبت فى ذلك القرن أظهرت مبلغ ما حل بالامبراطورية من ضعف اقتصادى الى حد يدعو الى اليأس ، وأيقظت فى الأباطرة الاهتمام بالمشاكل الاقتصادية ، ولكن حتى عندما أدرك الأباطرة الخطر المحيق ، كانوا عاجزين عن وصف العلاج لهذا المرض ، فكانت الاجراءات الانشائية التى اتخذوها تافهة لم تؤد الى العون والنجدة . ولتخليص الدولة من ورطتها ، عمد الأباطرة الى ذلك الاجراء

البالى التقليدى فى العالم القديم وهو انتهاج سياسة العنف والاكراه فطبقت هذه السياسة على كل من « بورچوازية » المدينة والطبقات الدنيا ، وتأهب كل فريق ضد الآخر ، وكانت النتيجة انهيار رأسمالية المدن وقيام أزمة اقتصادية حادة فى القرن الثالث جلبت التدهور السريع فى نشاط الأعمال بوجه عام واحياء الأشكال البدائية فى الاقتصاد ثم نمو رأسمالية الدولة . تلك كانت مظاهر الحياة البارزة فى القرن الرابع وما تلاه من قرون .

وانه ليؤسفنى ألا أستطيع أن أضمن هذا المؤلف دراسة المظهر الثالث لهذا التطور نفسه — وهو الحياة الروحية والفكرية والفنية فى الامبراطورية — فبدون دراسة وافية لهذه النواحى من الحياة لابد أن تكون الصورة التى نخرج بها بالطبع من جانب واحد وغير وافية ، ولكن لو كنا أحطنا بهذه النواحى كان معنى هذا ألا يقتصر حجم الكتاب على الضعف فحسب ، بل كان هذا يستلزم الانتقال بصفة دائمة من مظهر فى هذا الموضوع الى آخر فى ذلك من غير أن نحيط احاطة تامة بأحد منها ، وقد يكون مجال مثل هذا العرض فى مؤلف يكون الهدف منه تقديم صورة تامة عن الامبراطورية الرومانية — وهذا كما أسلفنا ، ليس الهدف من هذا المؤلف ؛ وحقيقة الأمر أن الحياة الروحية والفكرية والفنية كانت تتطور فى الامبراطورية فى نفس الخطوط التى تطورت فيها الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وقد أخرجت الحقبة الأخيرة من الجمهورية وصدر الامبراطورية من أعمالها المبتكرة ، حضارة راقية ودقيقة وارستقراطية الى أقصى حد ، وفيها غرابة على الطبقة الوسطى الحضرية والجماهير على حد سواء . ويصدق مثل هذا القول على الديانة الفلسفية الرفيعة عند الطبقات العليا ، وعلى مضى الزمان عمدت الطبقات الوسطى الناهضة الى امتصاص تلك الحضارة العالية شيئا فشيئا واقتباس

ما يتفق منها مع ما لدى هذه الطبقات من المعايير والحاجيات . فلما عمَّ انتشار تلك الحضارة على هذا النحو ، كان مصير هذا الابتداع الدقيق فى القرن الأول ، أن يصبح أكثر تبسيطا وأقرب الى عناصره الأولى ، وأكثر مادية على مضى الزمان ، بل ان هذه الحضارة ، مع ذلك ، بقيت غريبة على الطبقات الدنيا التى قضت عليها قضاء مبرما عند هجومها على المدن وعلى ما بها من بورجوازية . وكانت الثقافة الجديدة السائدة فى العهد الأخير من الامبراطورية ، من ناحية ، لا تعدو قشرة رقيقة جدا هى خلاصة ثقافة أقدم ، قد عم انتشارها بين جماهير الناس بفضل الكنيسة المسيحية ؛ وكانت من الناحيـــة الأخرى ثقافة الطبقات العليا من وثنيـــة ومسيحية على السواء دخيلة وغريبة ، بلغت أسمى مراتب الرقى ولكنها جوفاء وعتيقة .

وقد تغنى كلمات قليلة فى أمر توزيع مادة هذا الكتاب ومعالجـــة موضوعها ، لعلها تجدى القارىء ، فالفصل الأول الذى يتناول أواخر عهد الجمهورية هو مجرد اجمال ، وقد تتطلب الدراسة على نطاق أكثر شمولا ، مجلدا كاملا ، وآمل أن أحقق هذا وشيكا ، وذلك فيما يتصل بدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية للعصر الهيلينستى بوجه عام(*). والفصـــلان التاليان ، عن أغســـطس والطغيان العســـكرى لليوليين والكلوديين ، ليسا شاملين على جميع التفاصيل ، مثل الفصول التى تعالج القرنين الثانى والثالث ، والسبب فى ذلك أننى أستطيع أن أحيل القارىء بشأن النقاط الأساسية الصميمة فى موضوعى ، الى الكتب الحديثـــة حيث يجد الأمر معالجا أحسن علاج والمصادر مذكورة باستيفاء ؛ ولب كتابى هو الجزء (من الفصل الرابع الى الحادى عشر) الذى يتناول

(*) بر المؤلف بوعده هذا اذ أخرج كتابا فى ثلاثة اجزاء عن الحياة الاجتماعية والاقتصـــادية فى العـــالم الهيلينستى ، فى سنة ١٩٤١ ويعتبر الكتاب مرجعا مهما فى هذا الموضوع . (المترجم) .

القرنين الثانى والثالث ؛ والفصل الأخير هو مجمل آخر قصد به أن يوضح بصورة عامة جدا ، التباين بين الكيان الاجتماعى والاقتصادى فى صدر الامبراطورية الرومانية ونظيره فى العصر الأخير من تلك الامبراطورية .

وينقسم المجلد الى قسمين هما : المتن والحواشى . وفى المتن حاولت أن أقدم صورة عامة من اليسير قراءتها عن التطور الاجتماعى والاقتصادى فى الامبراطورية ، ويفهمها كل انسان له شغف بهذا الموضوع ؛ وتقع الحواشى فى طائفتين ، فحيث أستطيع أن أشير الى كتاب حديث جيد أو مقال جامع لجميع التفصيلات ، وحيث يكون حكمى مستندا الى عمل الآخرين ، فانى أعطيت للحواشى بوجه عام طابع الثبت الخالص للمراجع ، وانى أعلم أن ثبت المراجع أبعد ما يكون عن بلوغ حد الكمال . وليس هذا المؤلف كتابا مدرسيا ولا هو من المختصرات ، وكقاعدة عامة ، آثرت الامتناع عن تكديس المراجع والاشارات الى الكتب والمقالات العتيقة ، أما الكتب والمقالات التى ذكرتها ، فهى التى قرأتها بعناية واستندت عليها فى معلوماتى . أما تلك التى لم تساعدنى فلم أذكرها لأنها من غير المحتمل أن تساعد قرائى . وقد أمسكت بوجه عام ، عن نقد الكتب الحديثة فى الحواشى وعمدت الى ذلك فقط فى الأحوال التى ذكرت فيها كتابا باعتباره مرجعا أساسيا فى الموضوع ، ويكون هذا الكتاب قد وصل الى نتائج مغايرة لتلك التى استنبطتها من نفس البينة . ومع ذلك فأغلب الحواشى ليست من النوع الذى يقتصر على ذكر المراجع ، وفى تلك الأجزاء حيث لم أجد مؤلفات حديثة كى أستعين بها وحيث كنت مضطرا الى جمع البينة وشرحها بنفسى ، أضفت بصفة عامة بعض الحواشى التى هى فى واقع الأمر مقالات قصيرة فى مختلف النقاط الخاصة وهى من شاكلة الملاحق أو التزييلات ، على أن بعض هذه الحواشى طويل ومثقل

بالاقتباسات ، والمتخصصون وحـــدهم هم الذين يحتمل أن يقرءوها كاملة ؛ وليس المقصود من وسائل الايضاح التى أضفتها الى متن الكتاب، أن تكون للتسلية أو ادخال السرور على القارىء ، وانما هى جـــزء ضرورى من الكتاب ، مساوية فى لزومها فى الحق ، كالحواشي والاقتباسات من المصادر الأدبية أو الوثائق ، وقد استمدت من المعين الكبير الخاص بالبينة الأثرية التى هى بالنسبة للباحث فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية على قدر كبير من الأهمية ، ولا سبيل الى الاستغناء عنها ، شأنها فى ذلك شأن البينة المكتوبة . وبعض ما وصلت اليه من استنباطات ونتائج كان العماد فيه الى حد كبير على المادة الأثرية . وانه ليؤسفنى ألا أستطيع تقديم عدد أكبر من الصور ووسائل الايضاح ولأنى اضـــطررت الى الاقتصار على ابراز عينـــات من الفن الواقعى فى الامبراطورية ، مع استبعاد الانتاج الذى كان ثمرة النشاط الصناعى مثل الأوعية والقدور والمصابيح والآنية الزجاجية وبقايا النسيج والحلى والمنتجات المعدنية وما الى ذلك ؛ ولما كان من المستحيل أن أقدم مجموعة لائقة من اللوحات الشاملة على هذه الأنواع فانى آثرت أن أستغنى كلية عن هذا النوع من وسائل الايضاح .

وفى نهاية المقدمة يستبيح المؤلف عادة لنفسه فى شىء من الغبطة ، حق ذكر أولئك الذين تفضلوا بتقديم العون له فى مؤلفه ، وان قائمة الأسماء التى سأذكرها طويلة . وهى تدل على مبلغ ما بذلت من جهـــد خالص فى سبيل جعل معلوماتى وافية بقدر المستطاع ، وكيف أثرت نكبات الحرب والثورة الى حد قليل فى أن تعوق ذلك التضامن العالمى والتماسك بين العلماء ، وقد كانت الحكومة الروسية القائمة هى الاستثناء الوحيد بكل أسف ، اذ جعلت من المستحيل علىّ ، على الأقل أن أستخدم الكنوز المحفوظة فى روسيا فى تحقيق الأغراض العلمية .

وهـذا المؤلف مهـدى الى صـديقى العزيز مستر أندرسـون (J. G. Anderson) على سبيل التعبير (وان كان متواضعا) عن تقديرى العظيم لما قدمه من معونة ، والشكر الخالص منى على هذه المعونة . فلم يقتصر مستر أندرسون على مراجعة أصول هذا الكتاب فحسب ثم صقل لغته حتى تصبح مستساغة لدى القراء ، وهو عمل استلزم الكثير من الجهـد والعنـاء (magni sudoris opus) ، بل انه قرأ جميع التجارب وقام بتصحيحها وأدخل نظاما معقولا روعى فى الاقتباسات وقام بتحقيق عدد كبير منها ، وأخيرا ، وليس هذا بأقل الخدمات ، جعلنى أجزم برأى قاطع فى كثير من الأحـوال حيث كنت أجنح الى التردد والغموض : وجلى أن العقل الانجليزى يكره عـدم الدقة فى التفكير أو الغموض فى التعبير ، على عكس العقل الصقلبى فى هذا الشأن . وفى أغلب الأحوال كذلك ، كان يمنعنى من الوصول الى نتائج قد يكون فيها تعجل أكثر مما ينبغى ، وعلى ذلك تجىء خاطئة . وأخيرا انه قدم العون لى فى حالات كثيرة بعلمه الغزير واقتراحاته النيرة فأوضح نقاطا كانت غامضة فى نظرى ، وغايتى وبغيتى الوحيدة هى أنه عقب الفراغ من الجهد والمشاق التى صرفها فى كتابى هذا ، قد يقول : (Forsan et haec meminisse iuvabit) «ربما سيسرك (يوما ما) أن تذكر هذه الجهود» ؛

وفى أثناء مرحلة تصحيح التجارب ، استمتع مستر اندرسون بالمعونة الصادقةالتىقدمها الدكتور چورچماكدونالد (Dr. George Macdonald) خالصة وعن طيب خاطر ، فالى هذا العالم الجليل أزجى جميل شكرى .

ثم انى أرى من واجبى أن أتقدم بالشكر الى مطبعـة كلارندون (Clarendon) وانه لامتياز كبير وفخر عظيم أن يتم نشر كتاب فى هذه المؤسسة : فسعة الأفق والروح العلمية التى يتصف بها ممثلو هـذه المؤسسة ، مسلم بها فى جميع أنحاء العالم ، وقد عرتنى الدهشة مع مزيد

من الغبطة عندما وجدت مؤلفى المتواضع قد تم اخراجه على هذه الصورة القشيبة من الطباعة وذيل بمثل هذه الثروة من الصور ووسائل الايضاح .

وفى كتابة الفصول الخاصة بالولايات الرومانية وعند جمع المادة اللازمة لوسائل الايضاح فى هذا المجلد ، حصلت على مساعدة سخية الى أقصى حد من عدد كبير من زملائى وأقرانى ؛ ففى انجلترا : السير فردريك كينيون (Sir Frederic Kenyon) و (السير الآن) هارولد ا . بل (H.I. Bell)، ا . م . دالتون(O.M. Dalton)، هـ . ر . هول (H.R. Hall)، ج . ف . هل(G. F. Hill)، هـ . ماتينجلى (H. Mattingly)، ا . هـ . سميث (A. H. Smith) وهم من رجال المتحف البريطانى ؛ د . ج . هوجارث (D. G. Hogarth)، ا . ثيرلو ليدز(E. Thurlow Leeds) والآنسة م . ف . تيلر (M. V. Taylor)، ب . اشمول (B. Ashmole) من المتحف الأشمولى فى اكسفورد ؛ ا . كاولى (E. Cowley) وهيئة الموظفين فى مكتبة بودليان (Bodleian) باكسفورد ، وفى فرنسا : ا . بابيلو (E. Babelon) المتوفى ، ر . كاجنا (R. Cagnat) ، ج . كاركوپينو (J. Carcopino) ، ر . ديسو (R. Dussaud) ، ا . اسپرانديى (E. Espérandieu) ، پيير چوجيه (P. Jouguet) ، ا . ميرلان (A. Merlin) ، ا . ميشو (E. Michon) ، پ . پردريزيه (P. Perdrizet) ، ل . پوانسو (L. Poinssot) ، ا . پوتيه (E. Pottier) ، م . پرو (M. Prou) ، وفى ألمانيا : ج . رودنقلت (G. Rodenwaldt) ، ك . شوماخر (K. Schumacher) ، ر . زان (R. Zahn) ، وفى ايطاليا : و . اميلونج (W. Amelung) ، س . اوريجما (S. Aurigemma) ، ج . بروسان (G. Brusin) ، ج . كالزا (G. Calza) ، م . ديلا كورتى (M. Della Corte) ، ا . مينتو (A. Minto) ، ر . پاريبينى (R. Paribeni) ، ا . سپانو (A. Spano) ، پ . ستيكوتى (P. Sticotti) ، وفى النمسا : ر . ايجر

(R. Egger) ، ج . كايــل (J. Keil) ، ا . رايش (E. Reisch) .
وفى بولنده : پ. بيانكوسكى المتوفى(P. Bienkowski)، وفى الصرب :
ن . ڤوليك (N. Vulic) ، وفى بلغاريا : ب فيلوف (B. Filow) ، ج .
كازاروف (G. Kazarow) وفى رومانيــا : ڤ . پارڤان (V. Parvan) ،
وفى بلجيكا : ف . كومون(F. Cumont) ، ف .ماينس (F. Mayence) ،
وفى الولايات المتحــدة : ا . روبنســون (E. Robinson) والآنســة
ج . ف . ريختر(G. F. Richter) من متحف متروپوليتان ومتحف فيلد
للتاريخ الطبيعى فى شيكاغو وجامعة وسكونسن(Wisconsin) ومكتبتها
— وجميع هؤلاء أسهموا بأكبر قسط من جهودهم فى سبيل تيسير مهمتى
وعملى فى هذا السفر وتخفيف العناء والمصاعب علىّ ؛ وانى أطلب اليهم
أن يقبلوا خالص شكرى وعاطر ثنائى ؛ وأخيرا انى مدين لزوجتى السيدة
س . رستوڤتزف لاضطلاعها بالقيام بعمل الفهارس .

الفصل الأول

إيطاليا والحرب الأهلية

كانت الامبراطورية الرومانيـة كما أسسها أغسطس ثمـرة عصر الاضطراب والارتباك اللذين سادا فى أثناء الحرب الأهلية التى اشتعلت فى كل من ايطاليا والولايات الرومانية مدة تربى على ثمانين عاما ؛ على أنه قد تخلل ذلك فترات هدوء طالت أم قصرت . ويرجع اندلاع تلك الحروب الأهلية نفسها الى عاملين رئيسيين ، تحكما بدورهما فى مجرى هذه الحرب : أحدهما أن روما وايطاليا سيطرتا على شئون العالم المتحضر فى القرنين الثالث والثانى قبل الميـلاد ، مما أدى الى تكوين الدولة الرومانية العالمية ؛ وثانيهما أن العداء المتزايد استحكمت حلقاته واندلعت حرب بين الطبقات فى روما وايطاليا ، وكان هذا تطورا مرتبطا أشـد ارتباط بنمو الدولة الرومانية العالمية .

ولهذا فان وصف التطور الاجتماعى والاقتصادى فى الامبراطورية الرومانية يتطلب البدء بعرض سريع يلخص الأسـباب التى أدت الى اخضاع بقية العالم المتحضر لسلطان ايطاليا ، وبالتالى كان من نتيجتها نشوب الحروب الأهلية فى روما وايطاليا وفى الولايات .

ويمكن أن نصف المظهر الذى كان عليه العالم القديم قبل نشوب الحروب الأهلية فى روما وايطاليا على الوجه الآتى : ففى أثناء الفترة التى يطلق عليهـا اسـم العصر الهيلينسـتى (Hellenistic) أخـذ مركز

الحضارة فى التحول تدريجيا من الغرب الى الشرق ، فحلت الاسكندرية فى وادى النيل ، وأنطاكية على نهر العاصى ، وبرغامة على نهر كايكوس (Caicus)، محل أثينا فى الصدارة والأسبقية فى المدنية . وكانت بلاد اليونان ، وبخاصة أثينا ، فى القرنين الخامس والرابع قد تقدمت من الناحية الاقتصادية وأصبحت دولة رأسمالية ذات تجارة مزدهرة[1] ، ثم أخذت بعد ذلك تفقد أهميتها شيئا فشيئا ، وكان السبب الرئيسى فى ذلك التدهور المطرد فى الحياة الاقتصادية فى بلاد اليونان نفسها هو تتابع الحروب التى دارت رحاها بشدة واستمرار حتى كادت لا تنقطع بين المدن اليونانية فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد . وعلى الرغم من الجهود التى بذلت للتخفيف من ويلات تلك الحروب المدمرة واخضاعها لبعض القواعد التى جرى عليها العرف بين الولايات ، فانها أصبحت أمر وأقسى وأكثر دمارا عن ذى قبل على جميع المشتركين فيها ، سواء أكانوا من المنتصرين أم من المقهورين . وكان الأسلوب المتبع هو تخريب أراضى العدو وتدمير محصولاته وكرومه وبساتين زيتونه وحرق مساكنه الريفية وأسر رجاله وسلب ماشيته وبيعها على أنها أسلاب حرب ثم اطعام الجند من موارد البلاد المقهورة — حتى أصبحت تلك الأمور شائعة وفى ازدياد مطرد . وقد تخصص بعض هذه الولايات — كالحلف الايتولى (Aetolian) والمدن الكريتية — فى شن حروب كان الغرض منها السلب والنهب فى البر والبحر ، وقد حذت الولايات الأخرى حذوها دون استثناء الممالك الهيلينستية العظمى ، واقتفت أثرها فى هذا السبيل المشؤوم [2] .

وبينما كانت الحروب الخارجية مستعرة ، اشتعلت فى الوقت نفسه فى المدن اليونانية ، سواء فى بلاد اليونان الأصلية أم فى معظم الجزر ، حرب اشتبكت فيها الطبقات ولم يخمد أوارها . وكان منشؤها نهضة

وئيدة الخطى بين الطبقة الوسطى من ذوى الثراء وما قابل ذلك من العوز والفقر بين الدهماء ، وقد جعلت هذه الحرب بين الطبقات قيام نظام رأسمالى ، ثم تطوره على أسس سليمة — أمرا صعب المنال . حقا انها جعلت قيام حياة اقتصادية خالية من أية شائبة داخل المدن المستقلة يكاد يكون مستحيلا ، فالكفاح فى المدن اليونانية اتخذ فى مظهره شيئا فشيئا طابعا يكاد يكون فى جوهره نزاعا اجتماعيا واقتصاديا ، ولم يكن القصد الرئيسى من ذلك الكفاح هو العمل على زيادة الانتاج بتحسين أحوال طبقة الأيدى العاملة وتنظيم العلاقات بين العمال وأصحاب رءوس الأموال ، وانما كان هدفه الرئيسى اعادة توزيع الثروة العقارية ، وهو أمر كان يتم فى العادة باللجوء الى أساليب فيها العنف والثورة . وكانت صيحة الحرب هى الصيحة القديمة التى كانت تجأر منذ الأزل مطالبة باعادة توزيع الأراضى والغاء الديون (γῆς ἀναδασμὸς καὶ χρεῶν ἀποκοπή) وكانت هــذه الصيحة تتجاوب أصداؤها على أفواه الناس منذ نهاية الحرب البليبونيزية ، حتى ان الآثينيين أضافوا على اليمين التى يقسمها قضـاة محاكم الهيـاليا (Heliasts) فى عام ٤٠١ فقرة تحرم عرض هذا الموضوع للتصويت . وفى القرن الرابع كان الخوف من قيـام ثورة اجتماعية ماثلا على الدوام فى ذهن أرسطاطاليس وايسوكراتيس . وفى عام ٣٣٥ ق . م . كون حلف كورنثة شبه رابطة لحمايته من ذلك الخطر . ومما له دلالته على الأحوال السائدة فى بلاد اليونان فى القرن الثالث وما بعــده اضافة فقرة على القســم الذى يؤديه المواطنون الأحـرار فى بلدة ايتانا (Itana) فى كريت ، تحرم اعادة توزيع الأراضى والغـاء الديون[٣] .

وكانت تلك الثورات التى ترمى الى اعادة توزيع الأراضى على هذا الوجه ذات ضرر وبيل على بلاد اليونان فكانت كل ثورة يعقبها رد فعل

بعد قيامها بفترة قصيرة . وكانت هذه الحركات تتميز بمذابح شاملة ، أو نفى أفاضـــل المواطنين . وفى الحقيقـــة وواقع الأمر كان المنفيون يحاولون العودة والأخذ بالثأر من أعدائهم ، أو الهجرة الى الممالك الشرقية والانضمام الى جيوشها كجند مرتزقة والاستقرار فى هذه البلاد طلبا للعيش فى المدن الجديدة التى أسسها ملوك ذلك العصر الهيلينستى فى أنحاء الشرق والعمل كموظفين اداريين فى هذه الدول الهيلينستية أو كتجار ورجال أعمال . وبقيت قلة من المدن مثل أثينا لم تتأثر الى حد ما بتلك الأزمات التى كانت تعرض من وقت لآخر ، وعلى ذلك أصابت نجاحا لا بأس به بالقياس الى غيرها (٤) .

ولكن ما فقدته المدن اليونانية فى بلاد اليونان الأصلية ومعظم الجزر كان كسبا للملكيات الهيلينستية ، وعلى الأخص للمـــدن اليونانية فى الشرق(٥) وهى التى كان معظمها خاضعا لاشراف مباشر أو غير مباشر مما فرضه الملوك الذين خلفوا الاسكندر فلم يبق لها أية حرية سياسية تتمتع بها ، وكان من نتيجة ذلك أن كل محاولة للقيام بثورة اجتماعية داخل نطاق تلك المدن كان مصيرها الاخفاق على أيدى أولئك الملوك الهيلينستيين الذين كانوا يبطشون بسكانها حتى أصبح اشتراك المدن فى الحروب الخارجية أمرا نادرا . وعلى ذلك فان تكدس رءوس الأموال وتناول أساليب التجارة والصناعة بالتحسين أصبح أمرا سهل المنال وتم بنجاح فى الشرق بدرجة أعظم منه فى المدن اليونانية فى بلاد اليونان نفسها. ومن ثم بلغت الرأسمالية التجارية فى المدن اليونانية فى القرن الرابع درجة من التقدم أعظم من ذى قبل ، مما جعل تلك الدول الهيلينستية فى ذلك العصر المتأخر تصل الى مستوى قريب جدا من مستوى الرأسمالية الصناعية الذى تميز به تاريخ أوربا الاقتصادى فى القرنين التاسع عشر والعشرين . وكان لدى المدن الهيلينستية فى الشرق سوق داخلية فسيحة،

كما كان لها تجارة خارجية هامة ، اطرد نموها بسبب التنافس الذى قام بينها ، وقد أخذت بأسباب التحسين الفنى فى الانتاج الزراعى والصناعى بفضل استخدام العلوم البحتة والتطبيقية التى كانت قد تقدمت بخطى سريعة فى كل الممالك الهيلينستية ، واتبعت طرق الاقتصاد الرأسمالى البحت القائم على استخدام العبيد فى كلتا الصناعة والزراعة (بما فى ذلك تربية الماشية) ، فاستحدثت لأول مرة نظام الانتاج الجماعى للسلع تغذى بها سوقا غير محدودة المدى ، وتوسعت فى نظام المصارف والائتمان ، ولم توفق الى ايجاد قواعد عامة للتجارة البحرية (عرفت بالقانون البحرى الرودى) فحسب ، بل أوجدت كذلك نوعا من القانون المدنى المشترك ، كان مطبقا فى جميع أنحاء العالم الهيلينستى ، ويمكن تتبع نفس هذا الاتجاه نحو التنظيم والتوحيد فى تلك المحاولات التى بذلت من أجل تثبيت العملة ، أو على الأقل اقامة علاقات ثابتة بين العملات المستعملة فى مختلف الولايات التجارية المستقلة . وان الدور الرئيسى الذى قام به الملوك الهيلينستيون فى صميم الحياة التجارية والصناعية فى بلادهم ، وما كان للاعتبارات التجارية من شأن عظيم فى تشكيل السياسة الخارجية التى انتهجوها ، لتحفزنا الى أن نقارن الأحوال الاقتصادية السائدة فى هذه الممالك بنظيراتها السائدة فى العهد الذى ازدهرت فيه التجارة البحرية فى تاريخ أوربا الحديث .

ومع ذلك فسرعان ما اعترى ذلك التقدم الاقتصادى القائم على أسس سليمة على النحو الذى وصفناه ، جمود عطله عن النمو ، ثم أصابه بعدئذ وعلى توالى الزمان شلل مرده الى أسباب مختلفة كثيرة . وكما حدث فى القرن الرابع ق . م . كان أحد هذه الأسباب الرئيسية نشوب الحروب المستمرة التى اشتعلت نيرانها دون انقطاع الا فى القليل ، فى جميع أنحاء العالم الهيلينستى . ولا سبيل لنا فى هذا المقام الى الافاضة

فى هذا الموضوع ، فتلك حقيقة لا تنكر وأسباب وجودها بينة . فمن الناحية الاقتصادية أصبحت تلك الحروب المستمرة كارثة حقيقية على العالم الأغريقى استفحل شرها على توالى الزمان ، فلم يقتصر الأمر على تخريب مساحات فسيحة من الأرض وعلى نهب مدن كان سكانها يباعون فى أسواق النخاسة ، وانما أدهى من ذلك وأمر أن تلك الحروب اضطرت تلك الولايات الهيلينستية ، العظيمة منها والصغيرة ، الى اكراهها على تركيز جهودها فى الاستعداد الحربى ، وتجييش أضخم الجيوش الممكنة، وبناء أعظم الأساطيل ، واختراع أحدث الفنون والمبتكرات فى الهندسة الحربية ، وبذلك أنفقت أموالا طائلة ضاعت هباء منثورا ، مثلما حدث عندما طوق ديمتريوس المحاصر(Demetrius Poliorcetes)جزيرةرودس.

وقد كان دخل كل تلك الدول موقوفا على العدة الحربية فأدى هذا أول الأمر الى بذل جهود صادقة مثمرة قام بها أولئك الملوك الهيلينستيون كيما يضاعفوا من الانتاج فى بلادهم ، مدفوعين الى ذلك بوازع المنافسة بعضهم بعضا ، وذلك باستغلال موارد بلادهم الطبيعية استغلالا قائما على أسس علمية سليمة ، ومع ذلك فقد حل شيئا فشيئا محل أشباه تلك الأساليب التقدمية السليمة ، التى ترمى الى مضاعفة دخل الولايات ، سلسلة من الاجراءات اتسمت بطابع من السهولة واليسر ، وكانت غايتها النفع العاجل ، وكان أهم هذه الاجراءات اخضاع كل من الانتاج والمبادلة لاشراف الدولة (التأميم) على بعض المرافق ، وهو نظام طبق فعلا فى بعض الملكيات الهيلينستية ولا سيما فى مصر ، ونعنى بهذا التأميم قصر الادارة والاشراف التام على معظم أفرع الانتاج والنشاط الاقتصادى وتركيزه فى أيدى الدولة ، أعنى الملك وموظفيه ، ولكن هذا النظام الذى جلب فى أول الأمر للدولة فوائد جلى ما لبث أن جر الى الخيانة وخروج الموظفين على القانون ، كما أدى الى اطراح المنافسة حتى كادت تختفى تماما ، وسد فى وجه السكان سبيل النشاط الفردى الطليق .

وصاحب هذا الميل من قبل الدولة نحو الاشراف والتركيز أن عمدت الى صياغة نظام دقيق للضرائب ، تجلى فيه الابداع والاتقان ، فتأثرت به جميع مناحى الحياة الاقتصادية . وكان أساس هذا النظام ما أوتيته تلك الملكيات الشرقية من خبرة وما عرفته من تجاريب ، ولكن هذا النظام ذهب الى أبعد مدى فى ايجاد موارد جديدة صالحة لفرض الضرائب عليها ، ثم فى تحسين الأساليب المتبعة فى جباية الضرائب التى كان عبئها فادحا على كاهل سكان العالم الهيلينستى . ومما زاد فى ثقل هذا العبء على العنصر الوطنى من السكان اللجوء دائما الى نظام معروف منذ القدم كان يطلق عليه العمل الاجبارى أو السخرة ، ونظام السخرة هذا ، مثله مثل نظام الضرائب ، قد تناولته يد الصقل البديع الذى أوحى به العقل المنطقى الانشائى الذى أوتيه أولئك الاغريق حتى أصبح نظام السخرة على توالى الأيام وقد استحال الى بند يرد باستمرار فى ثبت طويل شامل للالتزامات التى فرضت على الرعايا فى الممالك الهيلينستية ، يؤدونه بانتظام للدولة وللملك .

ولم تكن وطأة سياسة الاقتصاد القومى والنظام المالى الذى صيغ فى أشكال بديعة على عهد أولئك الهيلينستيين على أشدها على كاهل المستقرين الجدد فى البلاد الشرقية وهم المهاجرون الذين كانت كثرتهم الغالبة من الاغريق ، فهؤلاء عرفوا كيف يتخلصون من هذه الأعباء أو يرفعونها عن كواهلهم ويلقونها على أكتاف الوطنيين من السكان ، وفى الحقيقة كانت الغالبية العظمى من المهاجرين من السكان قد استخدمها الملوك أداة لاستعباد العنصر الوطنى ، اما جباة للضرائب ، أو مشرفين على نظام السخرة ، أو ملتزمين للدولة فى شئون التجارة والصناعة ، أو مديرين لضياع شاسعة ، أو ماشابه ذلك .

وقد نجم عن هذا النظام الاقتصادى الوخيم فى الملكيات الهيلينستية سخط متزايد بين جماهير الأهالى . ومنذ نهاية القرن الثالث وما تلاه ، تعددت ثورات الشعب المصرى ، على سبيل المثال ، ضد الظلمة الأجانب الذين أذلوه ، وكان زعماء هذه الثورات عادة من الكهنة الوطنيين الذين كان غرضهم الأسمى طرد أولئك الأجانب بما فيهم الملوك ، وكان هذا هو نفس الغرض والمقصد الذى استهدفه المصريون من قبل . وقد أصابوا فى ذلك نجاحا فى الكثير الغالب وقت أن كانوا يرزحون تحت نير الأشوريين والفرس . وقد أكرهت هذه الثورات الملوك على زيادة جيوشهم من المرتزقة وعلى منح امتيازات جديدة لأولئك الظلمة من الأجانب وعلى زيادة أعباء الضرائب وأعمال السخرة بدرجة أكثر من ذى قبل . وعندما نهجت الحكومات المتعاقبة نهجا مخالفا للسياسة السابقة بمنح اعفاءات وترضيات للشعب المصرى — وهى الطريقة التى جربها البطالمة من وقت لآخر — تضاعفت الشرور ؛ اذ شجع ذلك على الاعتقاد بأن الحكومة أصبحت عاجزة عن تنفيذ رغباتها ؛ وقد وقفت هذه التطورات عائقا حال دون أن تصير الملكيات الهيلينستية حكومات وطنية ، فبقيت — فيما عدا حالات قليلة — محتفظة بطابعها الذى حملته منذ البداية : أعنى حكومات عسكرية مستبدة ، تحكم شعوبا مستعبدة ، عمادها وملاذها الأخير جيوش مرتزقة (٦) .

وعلى ذلك فان حضارة العصر الهيلينستى لم تصبح فى أى وقت مزيجا من الحضارة الشرقية اليونانية ، وانما بقيت أو كادت اغريقية صميمة فى جوهرها ، مع اضافة شىء قليل جدا من العناصر الشرقية اليها؛ ولم يكن المظهر الرئيسى الجديد لتلك الحضارة الاغريقية فى العصر الهيلينستى هو طابعها الشرقى الاغريقى وانما كان طابعها العالمى ، وهذا ما جعلها مستساغة مقبولة لدى مختلف الحكومات الوطنية الجديدة التى

ظهرت فى كل من الشرق والغرب . ومع ذلك ففى الشرق لم تتخذ احدى الدول الجديدة — ومنها پارثيا ، باكتريا ، الهند ، ارمينيا وغيرها — الثقافة الاغريقية تماما ، بل بقيت العادات والأفكار الاغريقية طلاء رقيقا يكسو بناء محليا ذا طابع شرقى صميم . وبالاضافة الى ذلك فان الأثر الاغريقى فى الشرق قد اقتصر وجوده على المدن وعلى الطبقات العليا من السكان ، ولم يكن له أى أثر على الاطلاق على سواد الناس وعامتهم. وكان تغلغله أعمق فى حياة الأمم الغربية من الايطاليين والكلتيين وأهل ايبيريا والتراقيين ، ولكن الحضارة اليونانية بقيت هنا أيضا وفية لنشأتها الأولى ولطابعها الحقيقى ؛ فكانت هى حضارة المدن وساكنيها واستمرت محتفظة بهذا الطابع ؛ وعلى ذلك كانت الحضارة الهلينستية لا تعدو أن تكون مظهرا جديدا فى تطور حضارة المدينة الاغريقية فحسب ، بل انه فى الممالك الهلينستية التى قامت فى آسيا الصغرى وفى سوريا ومصر وعلى ضفاف البحر الأسود ، لم تتأثر الجماهير المقيمة فى الريف بالحضارة الاغريقية مطلقا ، وانما حرصت على التمسك بعاداتها القديمة وسجاياها وعقائدها الدينية الموروثة .

وان تدخل روما فى فترات متقطعة فى شئون العـالم المتحضر أثناء الحروب الپونية وما بعدها لم ييسر الحال وانما أدى فى أحوال كثيرة الى تعقيد الأمور (٧) ؛ اذ ساعد على نجاح القوى الهدامة . وان الهدف الذى كانت ترمى اليه الجمهورية الرومانية الناهضة كانت غايته العمل على الحيلولة دون قيام أى نظام سياسى قوى فى الشرق يخشى أن يكون خطرا على الدولة الرومانية ، وكلما زادت القلاقل والمتاعب فى الشرق كلما كان هذا أفضل لصالح روما ، وكلما تضاعف عدد الدول المستقلة كلما كان هذا أجدى وأنفع لروما ، وكلما زادت الارتباكات وتعقدت الأمور فى الشئون الداخلية لكل دولة من دول الشرق كلما تضاعف أمل

روما فى أن تصبح سيدة الموقف والقوة المتحكمة فى مصير الشرق بأسره. وكانت الحرية التى أعلن منحها للمدن اليونانية عقب الحرب المقدونية الأولى (وتوصف هذه أحيانا بالثانية) والتى شملت المدن اليونانية بآسيا قبل الحرب السورية الأولى وفى أثناء اشتعالها وعقب انتهائها ، عاملا من عوامل اليأس المتفشى فى الأحوال الداخلية بهذه المدن . وكانت المدن الاغريقية بآسيا الصغرى تعانى نفس ذلك التدهور الاقتصادى الذى كان فى ازدياد مطرد فى بلاد اليونان الأصلية نفسها . ومن الناحية الأخرى كان ازدياد الخطر الرومانى قد ضاعف فى ميل الدول الهيلينستية العظمى الى الاستمرار فى التوسع فى تجهيز قواتها الحربية ، وذلك على حساب التقدم الاقتصادى السليم فى أغنى أراضى الشرق الأدنى وأكثرها نجاحا وتقدما . ومع ذلك فاذا استثنينا مقدونيا فان الموارد المكدسة فى الممالك الهيلينستية قد استنفدت ، لا فى كفاحها ضد روما وانما فى حروب طاحنة مستمرة بين هذه الممالك . على أن الممالك الصغرى المشتبكة فى هذا الكفاح كانت تلقى العون والحماية من روما لشن هذه الحروب والعمل على اضعاف قوات الممالك العظمى ولا سيما مقدونيا وسوريا ومصر .

وقد مر التدخل الرومانى فى شئون الشرق فى أثناء تطوره بمراحل عدة ؛ فالمظهر الأول الذى وضح فى الحرب المقدونية الأولى (أو الثانية) وفى الحرب السورية الأولى كان (كما بينا آنفا) ابان الحروب الواقية التى اندلعت ، وكان الغرض الرئيسى منها يقوم على الدفاع عن روما وايطاليا ضد ميول استعمارية رمت بها روما كلا من مقدونيا وسوريا . وجاء المظهر الثانى على اثر تلك الضربات القاصمة التى لحقت بمقدونيا وسوريا ؛ وفيه قامت حماية منظمة فرضت على المدن الاغريقية وبعض الممالك الهيلينستية الصغرى ، والقصد من هذه الحماية هو الحيلولة دون

بعث القوتين اللتين أذلتا كيلا تقوم لهما قائمة من جديد ، وكانت الحرب المقدونية الثانية (أو الثالثة) هى أبرز حوادث ذلك العصر ؛ فمقدونيا وهى تحاول جاهدة أن تحرر نفسها من وطأة التدخل الرومانى فى شئونها قد سحقت تماما وتوارت عن الأبصار ولم تعد دولة ذات كيان سياسى ، معقودة لها الزعامة فى العالم الهيلينستى . ومن نتائج ذلك أن تحولت الحماية الرومانية فى الواقع الى طراز مقنع من السيطرة ، وكان هذا هو المظهر الثالث للتدخل الرومانى فأصبحت روما تعامل المدن الاغريقية والممالك الهيلينستية على السواء على أنها ولايات تابعة لها ، وجبت عليها اطاعة أوامرها .

ولما عم السخط مقدونيا وبلاد الاغريق بسبب تلك المعاملة التى لا تعرف الرحمة والتى عمدت اليها روما فى استخدام سلطانها ، حاول كل منهما أن يتخلص من نير الحكم الرومانى وأن يستعيد استقلاله ، فاعتبرت روما ذلك عصيانا قاومته بمنتهى القسوة والوحشية . ولقد نجم عن معاملة روما لهاتين المملكتين أن فشت الفوضى وساد عدم النظام بدرجة كانت خطرا ، لا على روما وحدها بل عليهما كذلك ، فأصبحت الكراهية لروما هى الشعور السائد بين الشعوب اليونانية فى أرجاء الشرق . وفضلا عن ذلك فلم تعد القوات الوطنية فى بلاد اليونان ومقدونيا كافية للدفاع عن حدودها الشمالية لصد البرابرة من كلتيين (Celts) وتراقيين (Thracians) وايلليريين (Illyrians) وكانت الأمور تجرى على هذا النحو شيئا فشيئا فى آسيا الصغرى ثم آخر الأمر كانت الحياة الداخلية فى المدن اليونانية تزداد سوءا وتعقيدا فأخذت الحرب بين الطبقات تنشب فى طول بلاد اليونان وآسيا الصغرى وتطورت فى صورة نزاع قاس بين الأرستقراطية التى ناصرتها روما وأخذت بيدها وبين سائر السكان الذين كانوا يقفون من الارستقراطية والسيطرة الرومانية موقف المناوىء المنازع .

وأدت هذه الظروف الى المرحلة الرابعة فى تطور العلاقات بين روما والعالم الاغريقى فى الشرق ، وتتسم هذه بمظهر الخضوع التام ، فاستحدثت روما حينئذ فى الشرق نظام الولايات ؛ وهو النظام الذى كانت روما قد اتبعته من قبل فى حكم ممتلكات قرطاجة — وهى صقلية وسردينيا وقرصقه وأسبانيا — وكذلك أراضى قرطاجة نفسها ؛ وهى (ولاية أفريقيا) . وكان لهذا النظام مظهر احتلال حربى دائم يتولاه أحد الموظفين السنويين ، فأصبحت مقدونيا أولى الولايات الرومانية فى الشرق الاغريقى . وبعد انقضاء بضع سنين على ذلك رأى أتالوس (Attalus) الثالث آخر ملوك برغامة ، وهو على فراش الموت ، أن من الحكمة وأصالة الرأى أن يخضع ملكه لهذا النظام نفسه ، ولعله كان مقتنعا بأن تابعا وملكا ذليلا مستعبدا ليس لديه من القوة ما يكفى لحماية بلاده ضد عوامل الفوضى السائدة فى آسيا الصغرى وعلى ذلك أوصى بمملكته ارثا لمجلس الشيوخ والشعب الرومانى ، وعقب موته اندلعت ثورة اجتماعية دامية أقمعتها روما وحولت مملكة برغامة الى ولاية آسيا .

وبذلك تحول جزء من العالم الاغريقى الشرقى الى ولايات رومانية وفرضت روما حكما صارما على الولايات الهيلينستية الباقية وكانت هذه لا تزال مستقلة فى نظر القانون ، فأتاح كل ذلك هدنة مؤقتة ، استراح فيها الشرق الاغريقى قليلا ما واستطاعت روما بيد من حديد أن تضع حدا أوقفت به مرة واحدة تلك الحروب الخارجية والكفاح الداخلى الناشب بين الطبقات ، فبدأت الحياة الاقتصادية فى بلاد اليونان والشرق المطبوع بالطابع الهيلينى ، فى الانتعاش والازدهار فى نهاية القرن الثانى قبل الميلاد ؛ ولكن سرعان ما برهنت أداة الحكم الرومانى وادارة روما للولايات على أنها بعيدة كل البعد عن الكمال ، فلم تعن بمستقبل

أملاكها الجديدة ولا بتقدمها . ولنضرب لذلك مثلا : هو انتشار القرصنة فى بحر ايجة والبحر الأسود بطريقة دائمة ، فكان ذلك الوباء عقبة كأداء فى سبيل تقدم الأحوال الاقتصادية الصحيحة فى العالم الاغريقى . وفضلا عن ذلك فان حكم روما لهذه البلاد كان مشوبا بالأنانية البالغة حدا مطرد الزيادة ، فقد أطلقت أيدى الحكام الرومان وطبقة الرأسماليين فى استغلال تلك الولايات ، وعمد هؤلاء الى ذلك بروح ملؤها الأنانية الضيقة التى تهدف الى مراعاة صوالحهم ومنافعهم الذاتية ، وأدى مسلكهم هذا الى تفشى السخط المتزايد بين الاغريق والى تأييدهم التام — ولو لأمد قصير — لميثراداتيس (Mithradates) ملك بنطش المشهور الذى انبرى لنصرة الحرية الاغريقية ضد العسف الرومانى .

وقد صادف اندلاع الحرب الميثراداتية قيام الحروب الأهلية العنيفة فى ايطاليا وسوف نتناول هذه الحروب فيما بعد ، وكان فيها زعماء الأحزاب السياسية فى روما ، على ما بينهم من تنافس وتنازع ، ينظرون الى الشرق على أنه منطقة استغلال فحسب وموردا لا ينضب معينه يستطيعون الحصول منه على ما يلزمهم من أموال . ولما كانت تلك الحروب الأهلية قد دارت رحاها الى حد كبير فى أرض اغريقية فان بلاد الاغريق وآسيا الصغرى هى التى قاست الأهوال ، فكان اكراه الناس على تقديم الغذاء للرجال والخيول التابعة للجيوش المتقاتلة وتسخير الأهالى فى الأعمال الحربية واستخدام وسائل النقل واسكان الجند والضباط فى بيوتهم ، أضف الى ذلك تلك الغرامات الباهظة المفروضة على المدن التى أيدت مكرهة زعيما قدر له الهزيمة — كل هذه الأمور جلبت دمارا كاد أن يكون تاما على المدن الاغريقية فى شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى . وزاد الرأسماليون الرومان من هذا الخراب باظهارهم الاستعداد لتقديم الأموال للمدن ، بشرط أن ترضى

هذه دفع أرباح باهظة لهم . وفى نهاية الحروب الأهلية أصبح الشرق الاغريقى ، وقد خيم عليه الدمار وصار فريسة تحت أقدام الرأسماليين من الرومان ، وضحية للاستغلاليين منهم .

وبينما كان ذلك التدهور الاقتصادى يعم شيئا فشيئا أرجاء الشرق، كانت ايطاليا قد أصبحت أغنى أقطار العالم القديم [٨] . وان معلوماتنا لطفيفة عن الأحوال الاقتصادية السائدة فى ايطاليا قبل هذه الفتوح الشرقية التى قامت بها روما وقبل ظهور أول عرض سريع للشـئون الاقتصادية الرومانية (وبخاصة الزراعة الرومانية) قدمه كاتو (Cato) فى كتابه عن الشئون الريفية (De re rustica) . بل انه من ذلك الدليل البسيط أصبح من اليسير أن نستنبط أن ايطاليا فى هذا العصر الأول من تاريخها لم تكن بالمملكة الفقيرة ، فجنوب ايطاليا وسردينيا وصقلية كانت جميعا أغنى أسواق الغلال فى العالم زمنا طويلا ، وكانت المدن الاغريقية فى شبه الجزيرة الايطالية تصدر مقادير عظيمة من الحبوب الى بلاد اليونان بينما كانت الأملاك القرطاچينية (وهى سردينيا وجزء من صقلية) واتروريا (Etruria) تغذى بغلالها المدن البونية فى أفريقيا التى كرست جهودها على التجارة وانتاج النبيذ وزيت الزيتـون والفواكه للأسواق الغربية بما فى ذلك اتروريا نفسها .

وفضلا عن القمح فان بعض أقاليم ايطاليا وبخاصة أپوليا (Apulia) وبعض صقلية كانت تنتج من أقدم العصور بعض أنواع الصوف الجيدة جـدا ، وفى كمپانيـا (Campania) واتروريا ازدهرت الزراعة واشتهر الأقليمان الأخيران باحراز تقدم كبير فى الصناعة كالأدوات المعدنيـة والفخار . ومن المحتمل كذلك أن تكون المدن اليونانية بجنوب ايطاليا وصقلية قد مارست من قديم زراعة الكروم وشجر الزيتون على نطاق واسع ، منافسة فى ذلك بلاد اليونان الأصلية والمدن البونية فى أفريقيا .

وفضلا عن ذلك فان هذه المدن الاغريقية ، وكذلك المدن البونية فى أفريقيا والأملاك البونية فى الخارج ، قد شاركت فى التطور الاقتصادى لبلاد الاغريق حتى أصبحت بالتدريج مراكز للنظام الهيلينستى ، أو بالأحرى الرأسمالى . وان النظام الاقتصادى فى صقلية على عهد هيرو الثانى (Hiero II.) ، كما يتجلى فى خطب شيشرون ضد ڤيريس (Verres) حيث جاءت اقتباسات عديدة من القانون المالى الأساسى الذى فرضه هيرو الثانى ، لا ينطوى على اختلاف كبير عن النظام الاقتصادى الذى كان سائدا فى غيرها من الدول الهيلينستية المعاصرة . واننا لعلى علم كذلك بمبلغ ازدهار أراضى قرطاجة والمدن البونية الأخرى وشدة اعتماد الزراعة فيها على أسس قوية من الانتاج الواسع النطاق فى أظهر أشكاله ، ولنا معرفة بالأسلوب الذى كان القرطاجيون يرقبون به رعاياهم ومواليهم وحلفاءهم فيرمقونهم بعين الغيرة والحسد كيما يحولوا دون تطبيقهم نظم الانتاج وأساليب الزراعة فى أشكالها الواسعة النطاق وقصرها على انتاج القمح الذى كان يورد الى المدن البونية ؛ وتبدو سياسة قرطاجة هذه واضحة من الاجراءات التى كانت تتخذها فى كل من سردينيا وصقلية بقصد تشجيع انتاج القمح ، كما تبدو واضحة من الطابع السائد فى رسالة ماجو (Mago) عن الزراعة ، وما هذه الا تطبيق اقتبسه البونيون من الرسائل العلمية الاغريقية فى هذا الشأن راعوه فى أحوال افريقيا الشمالية .

أما فى وسط ايطاليا وشمالها فالحال مختلفة . وبقدر ما فى وسعنا أن نصل الى رأى ، كانت الشعوب الكلتية الساكنة فى شمال ايطاليا تعيش عيشة الرعاة والفلاحين على الفطرة وكانت الغلبة للمراعى على المزارع ، كما كانت تربية الخنازير والأغنام احدى الحرف الرئيسية . وليست لدينا أسانيد تدلنا على أن الكلت الضاربين فى شمال ايطاليا

شاركوا فى ذلك التقدم والتطور الذى حققته القبائل الكلتية الأخرى فى بلاد الغال . فقبل أن يشرعوا فى هذا المضمار غزا الرومان بلادهم وأخرجوا أكثرهم من أعظم الأقاليم خصوبة . وكان النظام الاقتصادى فى اتروريا مماثلا للنظام السائد فى بعض المدن الأغريقية فى آسيا الصغرى فى أقدم العصور ؛ وبقدر الأسانيد التى بين أيدينا كانت مدن اتروريا موطنا لطبقة أرستقراطية من الاتروسكيين تتألف من كبار ملاك الأراضى وأصحاب الحوانيت والمصانع وكبار التجار ؛ وكان ثراؤهم ونعيمهم ثمرة جهود السكان المستعبدين — من أقنان كانوا يقومون بفلاحة ضياعهم ورعاية قطعانهم ومن عبيد وأرقاء كانوا يكدحون فى مصانعهم . وانه ليخالجنى كثير من الشك فى أن أساليب الزراعة الحديثة قد أدخلت فى اتروريا فيما عدا حدائق الطبقة الارستقراطية الكائنة بالضواحى . وليس هناك دليل ينهض على أن الأحوال العتيقة التى ربما كان منشؤها راجعا الى زمن الغزو قد تناولها أى تغيير جوهرى فى مدى القرون الستة التى عمر خلالها التحالف الفدرالى بين المدن الاترورية . وان النقوش المصورة على حوائط المقابر الاترورية والتى توضح بعض مظاهر الحياة الاترورية كادت فيما يتصل بموضوعاتها تبقى دون تغيير طوال ثلاثة قرون على الأقل (من القرن الخامس الى الثالث قبل الميلاد) وهى تصور نفس حياة الدعة والفراغ طوال تلك الحقبة .

أما مالدينا من معلومات عن الحياة الاقتصادية فى العصور الأولى عند اللاتين وفى مدينة روما وعند الجنس الأمبرى — السابى والسامنى فضئيلة جدا ؛ وانه لمن البين كذلك أن المسائل الرئيسية الخاصة بالحياة الزراعية عند جماعة الرومان فى العصور الأولى هى أمور احتدم فيها الخلاف الشديد ولن يتوقع قارىء ما أى تفصيل مستفيض عن هذه

الموضوعات فى مجلد خصص لتاريخ الامبراطورية الرومانية ، ويكفى أن نقدم عرضا سريعا للأحوال التى نعتقد أنها ربما سادت فى لاتيوم والأجزاء الأخرى فى وسط ايطاليا . ومهما كانت بواكير الحياة الاقتصادية فى لاتيوم فى العصور الأولى فما من ريب فى أن سيطرة اتروريا عليها كانت حاسمة فى توجيه التقدم والتطور فيما بعد ، فالاتروريون وبعض الأسر من الطبقة الارستقراطية الرومانية كانوا يؤلفون الطبقة العليا من كبار ملاك الأراضى والتجار فى روما ، أما جمهرة السكان الأصليين فقد أكرهوا على الكدح والنصب من أجل سادتهم الجدد . ولم تتغير الأحوال الاقتصادية السائدة عقب قضاء الطبقة الارستقراطية فى روما على الأسرة الاترورية الحاكمة . وكان أهم ما يشغل بال روما هو انشاء نظام حربى قوى والحرص على تقدمه وتطوره حتى تتمكن من الدفاع عن نفسها ضد أى هجوم قد يأتى من الشمال أو ينجم عن منافسة المدن اللاتينية الأخرى .

وقد حدث فى أثناء هذه الحقبة الحالكة الظلمة من تاريخ روما أن وضعت الأسس لبناء دولة رومانية قوامها الفلاحون ، ولسنا نعرف كيف ومتى أصبح الأقنان السابقون من موالى الأرستقراطية فلاحين أحرارا بل وملاكا لقطع صغيرة من الأراضى وأعضاء فى الطبقة البليبية أو العامة . ومن المحتمل أنه لم يكن هناك اصلاح شامل أو تغيير أساسى ، أشبه بذلك الذى قام به الاسكندر الثانى فى روسيا ، ولكن الأمر لا يعدو تطورا تدريجيا كان يحمل فى طياته تحرير الأرقاء السابقين ، صحبه ازدياد فى أعداد ملاك الأراضى من أحرار العامة الذين لم يتواروا قط من الحياة الاقتصادية الرومانية حتى فى عصور السيادة الاترورية . ولعل من المحتمل تفسير كلا التطورين فى ضوء المطالب الحربية للشعب الرومانى ، ولا سيما فى أوقات المحن من حياته مثلما حدث ابان الحرب ضد ڤياى (Veii) وفى أثناء غزوات الغاليين وكفاح روما مع المدن اللاتينية والشعوب الفلسكانية

والايكوينية ،وأخيرا فىالحروب اللاتينية والسامنيةفىنهاية القرن الرابع . وما اصـــلاح سرڤيوس فى صـــورته المألوفة لنا — وهى ترجع الى القرن الرابع — الا تبويب وتسجيل لنتائج تمخضت عن تطور اقتصادى واجتماعى تم فى ظلمات القرن الخامس .

ومهما كانت الصورة التى تحقق بها ذلك الأمر فان روما فى القرن الرابع ، لا سيما فى نصفه الثانى ، كانت مدينة قوامها الفلاحون ، ولست أرى سبباً يحدونى إلى الشك فى أن القوانين الليســـينية (Licinian laws) (٣٦٧—٣٦٦ ق . م .) قد أسهمت فى تقدم هذه الدولة التى تقوم على أكتاف الفلاحين ، من وجهتى النظر السياسية والاقتصادية على السواء ، وذلك بالحد من المقدرة على الزيادة المطردة فى مساحة الأنصبة الزراعية التى تمتلكها أو تستأجرها أسرة واحدة . وان تعيين عدد الأفدنة الرومانية (iugera) التى حـــددها قانون ليسنيوس لأكبر الأنصـــبة العقارية قد يكون انتحال تاريخ سابق لقرارات تضمنها قانون زراعى متأخر صدر فى القرن الثانى ، ولكن من المحتمل جدا أن يكون هناك تقنين صدر على هذا النهج فى العصور الأولى ؛ وان وجود مثل هذا القانون ليوضح كلا من طابع ذلك الدستور المنسوب الى سرڤيوس ويعلل ظاهرة أخرى وهى أنه عندما حدثت زيادة جديدة فى رقعة الدولة الرومانية فى القرن الرابع نتج عن ذلك زيادة فى أنصبة الزراع يقابلها ازدياد فى سكان روما من الفلاحين . وليس هناك فيما يبدو أى سند يقوم عليه نبذ الآراء التىنجدها فى بعض مصادرنا والتى تصور بعض الأسر الأرستقراطية فى روما على أنها أسر من الفلاحين الأثرياء تحيـــا الحياة عينها التى يعيشـــها سائر المواطنين الرومان .

وعلى ذلك فان الأساس الذى كانت تقوم عليه الحياة الاقتصادية فى روما فى القرن الرابع هو الفلاحة وحرث الأرض وانتشار نظام زراعى فطرى هو عماد الحياة ، يسهم فيه جميع أفراد الأسرة الذين يكدحون

بالعمل فى الحقول ويستعينون فى الأحوال الاستثنائية ببعض العبيد والأتباع ممن كانوا قد التصقوا منذ أقدم العصور بالأسر الأرستقراطية وارتبطوا بها بروابط دينية . ففلاحة الأرض وقوامها المزارعون ، والتخصص فى انتاج القمح ، كانا الطابعين الرئيسيين فى حياة « لاتيوم » الاقتصادية بوجه عام ، وكذلك فى الحياة الاقتصادية السائدة فى جميع البقاع الجديدة التى استقرت فيها القبائل الجديدة (tribus) وفى المستعمرات الجديدة، رومانية كانت أم لاتينية وهى التى اندمجت تدريجيا وأصبح يطلق عليها الاصطلاح المعـــروف بالأرض الرومانيـــة (Ager Romanus) فكل مستعمرة رومانية جديدة كان قوامها من الفلاحين المستقرين ، وكل مركز جديد نشأ فى حياة الحضر ، وكل مستعمرة جديدة ان هى الا قرية حصينة من الفلاحين .

وان القليل مما نعرفه عن الأحوال السائدة فى المرتفعات الواقعة بين « لاتيوم » و « كمپانيا » وفى الجبال السابينية وفى « أومـــبريا » وپيكينـــوم (Picenum) وسامنيوم (Samnium) ليـــدل على وجـــود تشابه وثيق الصلة بينها وبين ما يجرى فى لاتيوم مع فارق يرجع الى تلك الزيادة الغالبة فى الحياة الرعوية القبلية على الملكية الفردية والأحوال الزراعية . وفى هذه المناطق كان التوسع والتقدم فى الحياة الحضرية بطىء الخطى واقتصر هذا فى الغالب على الأقاليم المتاخمة للأراضى التابعة للمدن الاغريقية والمدن المتأغرقة فى كمپانيا ، بل انه فى كمپانيا نفسها جاءت صورة مدينة پمپيى (Pompeii) بمساكنها الفطرية ذات الشكل المعروف ببهوه (حوشـــه) (atrium) وحديقته ، مثلا على المدينة المؤلفة من أثرياء الفلاحين ذوى اليسار أكثر منها مدينة قوامها أغنياء التجار وكبار ملاك الأراضى .

وكلما زاد التقدم فى نفوذ روما كلما اتســـعت فتوحها وكثر عدد

مستعمراتها وانتشر الفلاحون فى كل أرجاء ايطاليا يفلحون أراضيها . وفى الوقت نفسه اضمحلت المراكز النائية التى كانت موطنا للفلاحة ذات الطابع الرأسمالى . ولسنا فى حاجة الى سرد تاريخ المدن اليونانية التى ازدهرت فى جنوب ايطاليا حتى نعيده من جديد فهذه كلها ، الواحدة تلو الأخرى — فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة — خرت فريسة لجاراتها من السامنيين ؛ كما دمر البعض وفنى ، على حين أن البعض الآخر — ويشمل هذا كل مدن كمپانيا فيما عدا ناپولى وقليل غيرها — تقبل حياة جديدة جلبتها المدن السامنية ، أعنى تلك المدن التى كان قوامها من الفلاحين مثل پمپيى ؛ وهناك قلة من هذه المدن احتفظت بطابعها الاغريقى الصميم ؛ أما مصير المدن الاترورية عقب الغزو الرومانى لها فلا سبيل الى معرفته ، والكثير الغالب منها استعمره سكان لاتينيون واتخذوه مستقرا لهم ، ولربما درج بعضها الآخر على حياته القديمة فلم يغير أسلوبه ويعرف غير الحياة القائمة على ملاك الأراضى والموالى .

وقد عجلت الحروب البونية من ناحية باضمحلال المراكز القليلة التى قام عليها التقدم المطرد فى الحياة الاقتصادية فى ايطاليا وفى أملاك قرطاجة (وكذلك فى الجزء الاغريقى من صقلية) ؛ ومن الناحية الأخرى زادت الحروب البونية فى نطاق الاستعمار الرومانى ، فانتشر المستعمرون الرومان واللاتين فى الأراضى الواقعة فى شمال ايطاليا مما كان يسكنه الكلت من قبل ، كما ذهب البعض الآخر ليستقر ويستوطن الأقاليم التى خربتها الحروب فى وسط ايطاليا وجنوبها . وان الولايات الرومانية الجديدة، وهى صقلية وسردينيا ولعل أسبانيا كذلك ، وجدت اعراضا من المستعمرين الرومان فلم تجذب اليها فى الحال أعدادا غفيرة منهم فظلت هذه الولايات محتفظة بطابع الحياة الاقتصادية ومظاهرها على النحو الذى كان سائدا فى أرجائها قبل الغزو الرومانى ، فمملكة هيرو (Hiero) القديمة استمر

يجرى الحكم فيها طبقا للروح التى أوحى بها ذلك الملك والأساليب التى رسمها ، أما الأجزاء اليونية من صقلية وسردينيا وأسبانيا فبقيت بالنسبة للدولة الرومانية مثلما كانت عليه بالنسبة لقرطاجة — « شون » للغلال ومحاط لتخزين مختلف المعادن . وفى الحقيقة جاءت الصورة التى وصفها لنا شيشرون مطابقة للواقع ؛ اذ أصبحت صقلية — بما فى ذلك الجزء الاغريقى منها — بفضل الرومان فى منزلة دنيا لا تعدو « شونة » للغلال لتموين روما ؛ وعلى الرغم من ضم الممتلكات والفتوح الأولى لسلطان مجلس الشيوخ والشعب الرومانى فان الدولة الرومانية بقيت حينا ما دولة عمادها الفلاحون . وكان جيش روما المؤلف من الفلاحين هو صاحب الفضل فى قهر الفينيقيين ، بل ان الفلاحين أنفسهم هم الذين اكتسحوا الشرق وأخضعوه . وقد سبق سرد قصة تلك الفتوح الشرقية .

وهنا نعرض للسؤال الآتى : ما هى النتائج الاقتصادية التى ترتبت على انتصارات روما على قرطاجة ثم على دول الشرق ؟ ويجب ألا يعزب عن بالنا أن هذه الانتصارات كانت انتصارات كسبتها لأول وهلة الدولة الرومانية ، وأعنى بها سكانها الفلاحين والزعماء الحربيين والسياسيين المتولين شئون تلك الدولة ؛ وهم الذين كانوا أعضاء يمثلون تلك الهيئة الأرستقراطية التقليدية ، الحاكمة فى روما ، ألا وهى مجلس الشيوخ الرومانى ، ولما كانت هذه الانتصارات من صنع الدولة فان معناها بالنسبة لدولة هذا شأنها تدفق هائل فى الثروة لا ينضب له معين . وفضلا عن استيلاء روما على مبالغ طائلة من العملة المسكوكة ، ومقادير هائلة من الأشياء الثمينة من ذهب وفضة ، فان روما أصبحت صاحبة أملاك واسعة الأرجاء ؛ فمن مساحات شاسعة من أراض زراعية ، ومراع وغابات ، ومصايد أسماك فى البحيرات والأنهار ، ومناجم للتعدين ، ومحاجر فى

كل من ايطاليا والأملاك التى كانت لقرطاجة ثم أصبحت اذ ذاك ولايات رومانية — كل هذه آلت الى أملاك الدولة الرومانية . وكانت الأراضى الصالحة للزراعة آخذة فى التزايد المستمر ويجرى تقسيمها وتوزيعها فى الغالب على الرومان الأحرار الذين أسكنوا فى مستعمرات زراعية جديدة. ومع ذلك فان الزيادة فى عدد الرومان واللاتين لم تساير التوسع فى مساحة الأرض الرومانيــة وهى المعروفة باســم Ager Romanus ، حتى فى ايطاليا نفسها — وبخاصة عقب الحروب الغالية والپـونية . وكان لتأسيس المستعمرات الجديدة اعتبارات أملتها الظروف السياسية أكثر منها الأحوال الاقتصادية . وليس من عجب أن معظم تلك المستعمرات كانت وجهتها شطر الجزء الشمالى من ايطاليا وذلك لحماية شبه الجزيرة ضد الغزوات الخطرة الآتية من ناحية الشمال ؛ فلم تنس روما قط قصة وقوعها فى أسر الغاليين ، كما لم تنس أن الغاليين أنفسهم زودوا هانيبال بخيرة جنده ورجاله ؛ أما جنوب ايطاليا — وهى على ما كانت عليه من تخريب ودمار مصحوب بانهيار — فانها كانت أقل تعرضــا للأخطار وبالتالى أقل استهواء للمستوطنين من الرومان واللاتين وذلك فيما عدا كمپانيا التى كانت مع ذلك فى بعض أجزائها قد استوطنها مستعمرون رومان واحتفظت بوجه عام بطابعها السامنى ، ولا بد أن نسلم بأن أكثر مدن كمپانيا قد بقيت على ولائها للرومان فى أثناء الحــروب الپونية .

وتتيجــة لذلك دخلت مساحات فسيحة من الأراضى الخصــبة الصالحة للزراعة فى حوزة الدولة الرومانية ، ولم يكن لأحد من الفلاحين الرومانيين ملكية عليها ، ولم تكن الدولة وحدها هى التى أثرت نتيجة للحروب الپونية والشرقية ، وانما شارك الأحرار فى روما فى هذا الثراء ، وقد خص قواد الجيش الرومانى وأعضاء طبقة السناتو نصيب الأسد فى هذه الغنائم . وكان هؤلاء منذ الأزمنة القديمة جدا أغنى الناس بين

الفلاحين الرومان ، مثلهم مثل طبقات أخرى فى المدن اللاتينية وغيرها من المدن الحليفة . ففى أثناء حروب الفتح والتوسع استطاع هؤلاء أن يضاعفوا من ثرائهم وكان يحدث فى هذه الحروب أن يقع فى أيديهم أعداد كبيرة من الرجال والماشية [٩] . وعندما كانت تسلب المدن كان يؤول اليهم أكبر نصيب من الغنائم والأسلاب ، فاذا ما رجعوا الى ايطاليا عادوا وقد امتلأت طيات أحزمتهم (أو انتفخت جيوبهم على حد قولنا) بالأموال وتبعهم فى أعقابهم جموع من العبيد وقطعان الماشية ما لم يكونوا قد أنفقوا تلك الأموال فى الحال . وفضلا عن ذلك فان مجلس الشيوخ كان يكل الأمر الى أفراد من طبقة السناتو فيبعث بهم الى تلك الولايات التى كانت من قبل من أملاك قرطاجة لتولى ادارتها . ولقد رأينا أن هذه الممتلكات والجزء الاغريقى من صقلية أو بالأحرى مملكة هيرو الثانى (Hiero II.) — قد حافظت على مركزها القديم ، أو بمعنى آخر قد اعتبرها الشعب الرومانى جزءا من أملاكه الخاصة ومزرعة له (praedia populi Romani) ، لأنها كانت بلادا فتحت عنوة فحق أن يحكمها ضباط حربيون يتولى الشعب الرومانى اختيارهم ويمنحهم سلطات تكاد تكون غير محدودة . وقد طبق هذا النظام بعينه — كما ذكرنا آنفا — على الأراضى التى ضمت فى بلاد الشرق . وعلى ذلك أصبحت طبقة أعضاء السناتو تجد فى تولى حكم الولايات الرومانية موردا جديدا للثراء . وأخيرا بحكم الظروف القاهرة وبفضل الثراء المتزايد الذى تجمع فى أيدى هؤلاء ، أصبح أفراد هذه الطبقة يشتركون فى عمليات الائتمان جميعا ؛ وهى التى كانت نتيجة طبيعية للفتوح الشرقية كما رأينا ، وكذلك أسهموا فى النشاط التجارى الذى صحب تركيز رءوس الأموال فى أيدى أحرار الرومان والايطاليين على الرغم من تحريم ذلك عليهم تحريما باتا [١٠] .

والى جانب طبقة السناتو فى روما والطبقة المقابلة لها فى المدن

الحليفة بايطاليا أسهمت جموع غفيرة من المواطنين الرومان والايطاليين فى المشاركة فى المغانم التى نجمت عن تبوء روما مركز الدولة صاحبة السيطرة والسيادة فى العالم المتحضر . ولقد نشأت طبقة كبيرة من رجال الأعمال ذوى النفوذ والجاه العريض فى كل من روما وايطاليا ؛ وكان أعضاء هذه الطبقة يبدأون حياتهم الاقتصادية الناجحة بتقديم العون للدولة وما فى نطاقها من مدن حليفة ، على استغلال العقار الثابت والضياع الشاسعة التى كانت فى حوزتها — من أراض خصبة ، ومناجم ، وغابات، ومصايد أسماك ، وبيوت ، وحوانيت ، وغير ذلك . وفى أثنــاء عصر الفتوح والحروب كانوا يمدون الجيوش بالغذاء والكساء ويقدمون لها ما يلزمها من أسلحة . وكانوا يقومون بشراء الأسلاب والمغانم الحربية من الدولة ، بل ومن القواد والضباط وسائر الجند ، كما كانوا يبيعون مختلف السلع الى أولئك الجند فى أثناء المعارك الحربية وما الى ذلك ؛ فاذا ما وضعت الحروب أوزارها كانوا يستخدمون الأموال التى حصلوا عليها فى ميادين نشاطهم هذه ، باقراضها الى حلفاء روما وأتباعها ، سواء أكانوا ملوكا أم مدنا . وكانوا يقومون بالتزام جباية الضرائب والايرادات الأخرى المستحقة للدولة على الولايات ، ووفد على تلك الولايات أعداد مطردة الزيادة اتخذوها مستقرا لهم وضربوا بسهم وافر فى معترك الحياة الاقتصادية فى الشرق — وكانت على درجة عظيمة من التقدم والرقى —. فكان منهم مرابون وتجار وأصحاب أراض وقطعان وذوو أملاك وعقار من مساكن وحوانيت فى المدن (١١) .

ومن رجال الأعمال هؤلاء ، نفر لم يبرحوا ايطاليا قط ، ومنهم من ذهب الى الشرق وبقى فيه أمدا طويلا واندمج فى جموع الســكان المحليين شيئا فشيئا (١٢) ؛ ولكن من المحتمل أن أكثر هؤلاء الباحثين عن الذهب — وقد أوتوا حظا من الفطنة وسعة الحيلة والنشاط — عادوا

بعد كسب ثرواتهم فى الشرق الى ايطاليا ثم استغلوا رءوس أموالهم فيها . وعندما آلت صقلية وسردينيا وأجزاء من أسبانيا وبلاد الغال وأفريقيا الى سلطان الدولة الرومانية وأصبحت ولايات فيها ، ازداد نشاط رجال الأعمال من الرومان حتى شمل هذه الولايات كذلك . وأغنى أفراد هذه الطائفة الجديدة من الرأسماليين ، وهم طبقة الفرسان، قد عاشوا غالبا فى روما نفسها وطمعوا فى شرف الانضواء فى طبقة أعضاء السناتو وذلك عن طريق انتخابهم لتولى احدى الوظائف العامة ، ولكن أغلبهم بقوا فى مدنهم الأصلية سواء أكانت مستعمرات رومانية ولاتينية فى ايطاليا أم مدنا ايطالية تربطها بروما محالفة . وهناك أنزلوا منزلة تلى طبقة السناتو فى هذه البلدان والمدن وتؤلف مع هؤلاء الطبقة العليا من السكان .

وكان تدفق الأموال وكثرة الرقيق والماشية وورود البضائع على اختلاف أنواعها من الولايات حافزا على بعث النشاط فى الحياة الاقتصادية فى ايطاليا ، وبقى فى الولايات الرومانية جزء من رأس المال الذى أصبح محصورا اذ ذاك فى أيدى الرومان وسكان المدن الايطالية ولكن أكثره جلب الى ايطاليا ؛ وحصل أكثر الأغنياء الجدد على ثرواتهم عن طريق المضاربات التجارية ، وبعد كسب تلك الثروة كانوا بالطبع فى حاجة الى ابتكار وسيلة لاستثمارها بأضمن الطرق التى تكفل لهم حياة هادئة وعيشة رغدة فى جو ملائم يألفونه ويطمئنون اليه ؛ وأضمن وسيلة للاستثمار يتيسر لهم فيها حياة راضية يقضونها فى المدن دون عناء هى تملك العقار ، ثم يلى ذلك فى الأفضلية استغلال الأموال فى الصناعة الايطالية . وكانت الدولة ترحب بهذه الرغبة من جانب كبار الرأسماليين ، وقد شاهدنا الدولة الرومانية اذ ذاك وهى مستحوزة على ثروة عقارية طائلة فى كل من ايطاليا والولايات ؛ وما لم تبق هذه الموارد الهائلة معطلة، وليس هذا بالطبع من المصلحة العامة فى شىء ، فى وقت اشتدت فيه

الحاجة الى الأموال لتشييد الأبنية العامة واقامة الجسور وقناطر المياه وفى بناء الطرق الحربية وللانفاق على المراسيم العامة لعبادة الآلهة بما فى ذلك الألعاب العـامة — فانه كان لابد من استغلال هـذه الموارد بطريقة ما من هذه أو تلك ؛ وكانت الطريقة المثلى هى اجتذاب رءوس الأموال الخاصة واستثمارها فى هذا السبيل . فلا غرو اذاً أن الدولة شجعت الرأسماليين الجدد على استغلال أموالهم بصفة خاصة فى تلك المساحات الفسيحة من الأراضى الصالحة للزراعة وفى المراعى التى تركت بورا فى شمال ايطاليا وجنوبها بوجه خاص ، عقب أهوال وفظائع الحروب الغالية والپونية ، ولم تكن هناك وسيلة أخرى لزراعة هذه الأراضى مرة ثانية فعدد الرومان والايطاليين القاطنين فى ايطاليا والمشتغلين بالزراعة كان فى تناقص ، لا بسبب ضحايا الحروب فحسب ، بل مرد ذلك الى الهجرة الى الخارج ، وهى التى كان سيلها فى تزايد مستمر ، وكان هؤلاء المهاجرون ينزحون فى بادىء الأمر الى الشرق ثم اتجهوا بعد ذلك شطر الغرب أيضا ، فلم يكن هناك فلاحون يمكن اسكانهم فى تلك الأراضى المجدبة . ومن الناحية الأخرى كان من اليسير الحصول على أعداد جمّة من العبيد الذين كانوا فى متناول جماعات من الناس ممن رغبوا فى استخدامهم فى فلاحة الأرض ، فلا غرو أن أتاح السناتو الرومانى لأولئك الأفراد جميع الفرص لاعادة كيان الحياة الاقتصادية المنهار سيرته الأولى اما عن طريق تأجير مساحات شاسعة من الأراضى لهم وفق الأسلوب المرعى بوساطة السناسرة (censors) ؛ وهم المكلفون بمثل تلك الأمور ، واما بالسماح لأولئك الأفراد بالاستيلاء على تلك الأراضى بطريقة عرفية مع قبولهم التزام اعطاء الدولة قسطا من المحصول النـاتج من تلك الأرض التى استصلحت على هذا النحو .

وهذا هو سبب ما جرى فى القرن الثانى قبل الميلاد من تركيز الثروة

العقارية واتخاذ خطى ثابتة فى سبيل سرعة تجميعها ؛ وكان ملاك هذه الأراضى اما من بين طبقتى السناتو والفرسان فى روما أو من طائفة هى أكثر السكان نشاطا وفطنة ومعرفة بشئون الاقتصاد فى المدن الايطالية سواء أكانت مدنا حليفة أم مستعمرات رومانية وايطالية ، وهؤلاء الأفراد لم يجل بخاطرهم اطلاقا أن يعمدوا الى حياة الاستقرار فى مزارعهم والعمل بأيديهم فى أراضيهم ؛ فمنذ اللحظة الأولى أثبتوا أنهم كانوا ملاكا للأراضى وليسوا فلاحين لها ، وعلى ذلك يرجع اليهم الفضل فى ازدياد عدد ملاك الأراضى فى المدن على حساب الفلاحين الذين كانوا يعيشون فى الريف ويقومون بفلاحة الأرض حقا ؛ ومن الناحية الأخرى قامت نفس هذه الطبقة من الرجال باستغلال أموالها فى الشئون الصناعية وايجاد حوانيت ومصانع جديدة ، تستخدم العبيد للعمل فيها ، لاحياء الصناعات القديمة فى كمپانيا وفى اتروريا ، وفى هذا اضرار بمصالح الأحرار من صغار أصحاب المهن والحرف (١٣) .

وأعضاء الطبقات الأرستقراطية القديمة والجديدة فى روما وايطاليا، وأكثرهم ممن جمع ثروته فى الشرق واطلع على النظام الرأسمالى السائد هناك ، قد استحدثوا هذا النظام فى أساليب الزراعة والصناعة الايطالية، وساعدهم على تحقيق جهودهم نشر الكتب اليونانية عن الزراعة العلمية والرأسمالية ، وقد ترجمت هذه الكتب الى اللاتينية عن الفينيقية والاغريقية فأصبح الاطلاع عليها أمرا سهلا ميسرا وفى متناول كل شخص فى ايطاليا . وفى وسعنا أن نقول فى شيء من الطمأنينة أن كتبا مماثلة لتلك قد ألفت فى موضوع الصناعة ، وهى كتب قصد بها على الأقل أن تيسر للناس بوجه عام عرض التطورات فى الأساليب الفنية الاغريقية فى هذا المجال الخاص . ففى الشرق الهيلينستى كان النشاط الرأسمالى فى النطاق الزراعى يكاد يكون وقفا على انتاج النبيذ وزيت الزيتون ،

وهما السلعتان الرئيسيتان اللتان كان يقوم ملاك الأراضى الهيلينستيون بتصديرهما . وكان أولئك الذين يعنون بتربية الماشية وفق الأســس العلمية الصحيحة ينتظرون أن يحصلوا على دخل وايراد وافر . أما انتاج القمح فيكاد يكون مقصورا على الفلاحين وحدهم وهم اما من صغار ملاك الأراضى أو المستأجرين والأرقاء الذين يكدحون من أجل كبار ملاك الأراضى ، فلا غرو أن كان هذا النظام قد اقتبسه من جاء بعد ملاك الأراضى من العصر الهيلينستى من تلامذتهم وورثتهم ، وهم الطبقــة الأرستقراطية والطبقة الوسطى فى روما والمدن الايطالية ، فطبقوا نظام الادارة الرأسمالى على أعمالهم ومشروعاتهم الصناعية أيضا ، لا سيما فى روما واتروريا وكمپانيا .

وفى أنحاء كثيرة من ايطاليا لم تكن الاتجاهات الرأسمالية فى القرن الثانى بدعا ولم يكن استحداث أساليب هيلينستية فى الزراعة الايطالية كما رأينا فيما سبق ، من قبيل التجديد وانما كان ذلك نهضة وعودا الى القديم . وقد أصبح تطور النظام الرأسمالى وتقدمه أمرا ميسرا لعــدة عوامل ، بخلاف ما فى ذلك من احتفاظ بالتقليد القــديم وبقاء الموارد الطبيعية الفنية التى جعلت من ايطاليا مجالا حسنا لتحقيق هذا الهدف ، ومن أهم هذه العوامل وفرة المجال للعمل والأيدى العاملة ورخصها ؛ فأعداد غفيرة من الأقنان (الموالى) — وأكثرهم من بلاد اليونان وآسيا الصغرى — انسابوا الى ايطاليا وكان بعضهم ماهرين فى الحرف الفنية ، وبعضهم رجالا ألفوا العمل فى المزارع الخاصــة بالملوك الهيلينستيين والطبقة الوسطى الهيلينستية ، وهذه المزارع كانت تدار على أسس علمية. ولم يقف هذا السيل القوى عن الانسياب طوال القرنين الثانى والأول .

ومن الناحية الأخرى أتيحت اذ ذاك فرص طيبة لتصريف البضائع التى كانت تنتجها ايطاليا ؛ وذلك بالبيع ، وأخص هذه زيت الزيتون

والنبيذ والمصنوعات المعدنية والفخار . وكانت الأسواق الرئيسية المفتوحة أمام ايطاليا هى الأجزاء الغربية من العالم القديم — وهى بلاد الغال وأسبانيا وأفريقيا من ناحية ثم الشمال وولايات الدانوب من الناحية الأخرى — ولم تعد قرطاچة عقب الحرب البونية الثانية هى الدولة التجارية الأولى فى الغرب اذ اقتصر نشاطها على تحسين زراعتها وبخاصة غرس الحدائق على نطاق واسع وزراعة الكروم وشجر الزيتون (١٤). وقد آل تراث قرطاچة الى منافسيها القدامى وهم اغريق صقلية ، وجنوب ايطاليا وهم الذين أصبحوا اذ ذاك الحلفاء المخلصين لروما ، أما الجزء الشرقى من العالم الاغريقى ، وكان اذ ذاك يقاسى دمارا اقتصاديا مطردا فلم يكن له نصيب فى ذلك الارث ، وقد نجم عن تخريب قرطاچة اقصاء تلك المدينة البونية اقصاءا تاما وبصفة نهائية من الميدان التجارى والاقتصادى . ولا شك أن هذا التخريب يرجع الى الرأسماليين وكبار ملاك الأراضى من الايطاليين وكان «كاتو» أشدهم اصراراً عليه ، وقد كان هؤلاء اذ ذاك ينتجون قدرا كبيرا من النبيذ وزيت الزيتون ، وكانت لديهم كل الأسباب التى تحفزهم للسعى وراء التخلص من تلك المنافسة الخطرة وتحويل أراضيها من بلاد مزدهرة تحيط بها البساتين والكروم وأحراش الزيتون الى حقول واسعة تنبت الغلال (١٥) .

ويجب ألا نقلل من أهمية الأسواق الغربية والشمالية وما كان لها من مقدرة شرائية ؛ فبلاد الغال دولة غنية وشديدة الحرص على شراء النبيذ وزيت الزيتون والمصنوعات التى لم تكن المدن الاغريقية فى بلاد الغال وذلك الجزء من الغال الذى كان يحتله الرومان فى الربع الأخير من القرن الثانى ينتجها بكميات وافرة ؛ وفى أسبانيا وبريطانيا كادت الأحوال المعيشية أن تكون مطابقة لما كانت عليه الحال فى الغال ؛ فالطبقة

الحاكمة فى بريطانيا وفى جزء من أسبانيا كانت تنتمى الى نفس الأصل الكلتى ، أما الجزء الايبيرى من شبه جزيرة أسبانيا فانه كان قد اعتاد ، مع كر الأجيال ، على الواردات الاغريقية والفينيقية — وحتى فى ألمانيا وأراضى الدانوب ما لبثت المنتجات التى كانت ثمرة النشاط الاقتصادى الذى كان يبذله الاغريق والايطاليون ، أن أصبحت مألوفة شيئا فشيئا(١٦).

وكان لتلك التطورات التى عرضنا لها بالوصف والتى حدثت فى ايطاليا فى القرن الثانى قبل الميلاد ، نتائج بعيدة المدى فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى البلاد ؛ فروما لم تعد بلدا زراعيا يحكمه طبقة أرستقراطية من ملاك الأراضى الذين كانوا فى الكثير الغالب مزارعين من ذوى اليسار ، وقد نشأ اذ ذاك فى جميع أرجاء ايطاليا طبقة ذات نفوذ من رجال الأعمال ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب ، بل نشأت كذلك طبقة وسطى من سكان المدينة من ذوى اليسار حقا ، وأصبحت ايطاليا فى الواقع فى القرن الثانى تعرف الحياة الحضرية لأول مرة بكل ما تنطوى عليه من معان فى الاصطلاح الاغريقى وأخذت كثير من المدن القديمة ، بعضها اغريقى أو اترورى ، تتمتع بانتعاش غير منتظر ويسود فيها النجاح والفلاح . ولم يقتصر الأمر على منح كثير من البلدان والقرى والأسواق والكفور دستور المدينة فحسب ، بل عمدت هذه البلدان والمحلات الى اتخاذ مظهر المدن الحقيقية من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية . ويرجع هذا الى اطراد الأهمية التى كانت تشعر بها تلك الطبقة التى سبقت الاشارة اليها من أصحاب الحوانيت فى تلك البلدان ومن ملاك العقار الذين درجوا فى أثناء وجودهم فى الشرق الهيلينستى على حياة المدينة وألفوا ما بها من وسائل الترف واقتبسوا المثل العليا لدى طبقة « البورجوازى » ثم عادوا يروجون لحياة الحضر وينتصرون فى ايطاليا للمثل العليا السائدة بين أفراد هذه الطبقة .

ولم يشترك عنصر البورجوازية الجديد فى المدينـة بأى نصيب حقيقى فى معترك الحياة السياسية فى الدولة وانما كانت الأرستقراطية الرومانية لا تزال تحتل مكان الصـدارة وانصرف عنصر البورجوازى عن ذلك الى الاشتغال بتنظيم الحياة الاقتصادية والى انشـاء المدن (مثل پمپيى (Pompeii)، ذات المنازل الجميلة من العصر التوفى (Tufa) وقد حلتها واجهاتها الفنية البديعة ذات الرسوم والصور الحائطية الفخمة والفسيفساء) ، شغلهم كل هذا عن الطموح الى الحصول على أى قسط فى الحياة العامة فى العاصمة الرومانية ؛ وفضلا عن ذلك فان هذه الطبقة كانت راضية تمام الرضا عن السياسة التى انتهجها قادة الدولة الرومانية، فمصالحهم المادية ومثلهم السياسية كانت مطابقة فى أكثرها لمصـالح الأرستقراطية الرومانية ومثلها العليا ؛ فقد كانوا فى العادة ، مثلهم مثل أعضاء هذه الطبقة ، يستغلون أموالهم فى الأراضى الايطالية التى كانت تزرع بصفة أساسية كروما وزيتونا أو تتخذ للرعى . وعلى ذلك لقيت سياسة روما المنطوية على قسوة ووحشية نحو قرطاچة ، التأييد الضمنى من هؤلاء ووافقت هوى فى نفوسهم أمثال تلك الاجراءات التى اتخذها مجلس الشيوخ الرومانى كتحريم زراعة الكروم فى الولايات الرومانية الغربية التى كانت حديثة الضم الى روما [١٧] ، واتخذوا من أعضاء مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان من الرومان قدوة فى أنهم استغلوا كذلك أموالهم فى أراضى الكروم والزيتون فى بلاد اليونان وفى آسيا الصغرى [١٨]، وعلى ذلك أيدوا سياسة السناتو فى الشرق ، كما كان لهم كذلك القدح المعلى فى ذلك الاستغلال المالى والاقتصادى للولايات بوجه عام ، وكانوا على ذلك يؤيدون الحكومة فى اصرار وقوة عندما خطت خطوتها الأولى فى سبيل التوسع واتباع السياسة الاستعمارية .

وكان للثراء الفاحش لدى الطبقتين العلويتين من أحـرار الرومان

وطبقة البورجوازى الايطالية أثر عميق على الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى الدولة الرومانية ؛ وقد ضاعف استغلال رءوس الأموال الكبيرة فى أراضى الكروم والزيتون ، من أثمان هذه الأراضى فى أقاليم عديدة فى ايطاليا وأغرى الكثيرين من الفلاحين على بيع أنصبتهم فيها والاختيار بين السكنى فى المدن أو الهجرة والرحيل الى الولايات . وقد أخذ يتناقص شيئا فشيئا عدد السكان المشتغلين بزراعة الأرض فى الأقاليم الصالحة لزراعة الكروم وأشجار الزيتون ، أو لرعى الماشية على أسس رأسمالية ؛ وكانت الحروب المستمرة بلا هوادة ولا انقطاع — وهى التى شنها السناتو الرومانى عقب الهزيمة التى منى بها هانيبال — قد أضعفت من المقدرة الاقتصادية التى كانت لدى الفلاحين الايطاليين وفتت فى أعضادهم . وكان هذا أحد الأسباب الأساسية فى أنه بفضل رءوس الأموال أمكن الاستحواز على مساحات شاسعة من الأرض ، لا فى جنوب ايطاليا فحسب ، بل فى وسطها كذلك حيث كان الحصن الحصين للفلاحين الايطاليين كما كان أحد الأسباب فى أن فريقا كبيرا من الفلاحين الساكنين فى وسط ايطاليا تحول من مالك للأراضى الى مستأجر لها ، يقوم بفلاحة ضياع يملكها الرأسماليون من الرومان وسكان البلديات؛ وفى اتروريا كان هذا الشر الوبيل آخذا فى التسرب والانتشار وذلك منذ النصف الأول من القرن الثانى . ولعل تفسير هذه الحالة بالذات يرجع الى الأحوال الخاصة السائدة هناك . فمنذ أقدم العصور كانت اتروريا بلاد الضياع الشاسعة والجموع الهائلة من الأرقاء (١٩) .

وقد نجم عن جميع هذه التطورات الهامة — كما هو معروف وذائع — أزمة مستعصية فى ايطاليا ، فبتناقص عنصر المزارعين من السكان وتزايد أعداد العبيد والمستأجرين وتضخم رءوس الأموال وتراكمها — وبخاصة فى مدينة روما — أصبحت الجمهورية الرومانية مهددة

بأخطار جسيمة ؛ فالنظام الأرستقراطى الرومانى على نحو ما صورته التقاليد ، وهو القائم على جيش مؤلف من المزارعين ، أخذ فى المسخ والتحول شيئا فشيئا الى أليجاركية مكونة من الأسر الشريفة ذات الغنى واليسار ، بينما اعترى القوة الحربية فى ايطاليا ، وعمادها الفلاحون الايطاليون ، الضعف والانهيار . وعلينا أن نذكر أن ملاك الأراضى هم وحدهم الذين كان يقع على كواهلهم عبء الخدمة فى الجيش الرومانى ، وهذا سبب آخر نذكره عرضا لنفسر به كيف أن الفلاحين الذين أحسوا أن الخدمة العسكرية قد ناءت بها كواهلهم ، فضلوا بيع أراضيهم الى كبار الملاك وقنعوا بالبقاء عليها بوصفهم مستأجرين لها .

وان الفصل الأول فى هذه المأساة السياسية والاجتماعية التى بدأ تمثيلها اذ ذاك فى ايطاليا هو تلك المحاولة فى اجراء اصلاح شامل له طابع سياسى واقتصادى واجتماعى ، شرع فيه تيبريوس جراكوس وتابعه بعد مماته أخوه جايوس ، وقد لقى كل من تيبريوس وجايوس التأييد من سكان الريف فى ايطاليا والعوزة من طبقة الرعاع فى المدن الايطالية ، وهم الذين لا أرض لديهم . وهناك وجه للشبه بين مقصدهما الأساسى وبين الغرض الذى كان يرمى اليه كثيرون من زعماء الانقلاب والثورة فى المدن الاغريقية ، وكان أول ما بدىء به فى هذا البرنامج هو اعادة توزيع الأراضى وما يصحب ذلك ويستلزمه من اعادة حال الفلاحين الى سيرتهم الأولى ، وما ينجم عن ذلك من اصلاح الجيش . وفى هذا كله يتمثل الهدف من اصلاحاتهما بينما كان استحداث حكومة شعبية تدين بالولاء والزعامة لفرد واحد هو النتيجة الطبيعية المترتبة على مثل تلك الحركة الثورية ، فلا غرو أن كان هؤلاء المستأجرون والعوزة من السوقة الذين لا يملكون عقارا ، من المؤيدين للجراكيين بكل ما فى وسعهم من قوة [٢٠].
وليس هنا المجال الذى يسمح بوصف الاضطرابات الداخلية التى نجمت

عن أول محاولة فى سبيل القيام بثورة سياسية واجتماعية ؛ ويكفى أن نشير فى بضع كلمات ، الى القوى الكمينة التى صبغت تلك الحـــركة بطابع خاص وجعلتها ذات مظهر يشوبه التعقيد .

ولم يصاحب التوفيق الأخوين الجراكيين فى التغلب على تلك الأزمة الكبرى التى أحاطت بالدولة الرومانية ، بل ان نشاطهما لم يحقق اعادة توزيع الأراضى على نطاق واسع . وأدنى من ذلك بكثير لم ينجم عنه تغيير كلى فى أساس النظام السياسى للدولة الرومانية أو بعث من جديد لطبقة الفلاحين من الرومان ؛ فالدولة الرومانية التى كان عمادها فى الماضى طبقة المزارعين ، لا سبيل الى اعادتها سيرتها الأولى ؛ اذ أنها على هذه الصورة قد انقضى عهدها الى غير رجعة ؛ حقيقة ان بعض الاقطاعات الزراعية الجديدة قد جرى بالطبع تكوينها ، وبعض العوزة الذين لا عقار لهم من الطبقة الدنيا قد وهبوا أنصبة زراعية ، وبعض الضياع الشاسعة قد تم مصادرتها ، ولكن ما لبثت هذه الحركة أن اعتراها الشلل وهى لما تزل فى مراحلها الأولى ، ثم صرف النظر عنها نهائيا ازاء تلك المقاومة العنيفة التى أبداها رجال الاليجاركية الحاكمة . وكانت النتيجة الوحيدة لذلك الانقلاب الجراكى هى أنها نبهت أذهان جموع كبيرة من الايطاليين وأثارت ثائرتهم، ولأول مرة فى تاريخ روما خلقت حدا فاصلا فى هوة عميقة بين الأغنياء والفقراء أو بين الظالمين والمظلومين ؛ ومتى بدأ الكفاح بين هاتين الطبقتين فانه لا يمكن أن نجد له نهاية .

والموضوع الأساسى الذى احتدم عليه الخلاف فى هــذا الكفاح — وهو قضية الأرض — قد بدأ يتوارى الى حد ما فى المرحلة التالية من سلسلة التطور الذى مرت به الاضطرابات الأهلية فى ايطاليا ؛ فبدلا من مشكلة الأراضى أو بالاشتراك معها ظهر للعيان موضوع آخر له الصدارة وذو طابع سياسى بحت، شغلت به الأذهان وقتا ما ، ذلك هو موضوع

الحقوق السياسية التى كان يطالب بها حلفاء روما وبخاصة طبقة البورچوازى فى المدن الايطالية . وكانت آمالهم وأطماعهم التى تستهدف أن يصيروا أعضاء فى الجمهورية الرومانية ، لهم من الحقوق مثل ما كان يتمتع به الأحرار فى روما ، قد أيقظتها وعود الجراكيين ثم ما لبثت أن حطمت ، كما يبدو ، فى شىء من القنوط بفضل ما حدث من رد فعل أليجاركى؛ ولكن الحلفاء لم تلن لهم قناة فقد تلا ذلك حرب ضروس دامية ، جلبت معها الدمار والخراب الى وسط ايطاليا وبخاصة فى الأراضى الخصبة التى كان يسكنها القبائل السامنيــة الشماليــة ، ثم انتهت تلك الحرب بالتراضى بين الفريقين فتخلى الحلفاء من جانبهم عن مشروعهم فى اقامة دولة جديدة فدرالية ايطالية ، أما الرومان فقد منحوا الرعوية الرومانية الى كل المواطنين الأحرار بوجه خاص فى المدن الحليفة ، اذ لا سبيل الى تجاهل مطالب الحلفاء خشية أن يصبح مصير كيان الدولة الرومانية الايطالية الى الزوال (٢١) .

وتلا هذا الفصل من القصة استئناف الكفاح الأساسى على نطاق أوسع ؛ فكان انضواء الايطاليين فى هيئة المواطنين الأحرار من الرومان سبيلا الى تضخم أعداد الساخطين ،ومن بينهم جموع غفيرة ممن لا عقار لهم من العامة وأفراد الطبقة الدنيا ، كانت تزخر بهم الصفوف ويكاد جلهم يكون على أتم أهبة واستعداد للاشتراك بنصيب فعال فى هذه المعركة؛ ومن الجانب الآخر كانت طبقة البورچوازى فى بلدان ايطاليا قوة يعتد بها فى صفوف المؤيدين للنظام القائم ؛ ولم يقتصر الأمر على أن ذلك الكفاح قد اتسع نطاقه وتعقدت أموره بانضواء هؤلاء الشركاء الجدد ، وانما كاد مظهره أن يتغير تماما ؛ ولما وقع الغزو المريع الذى قامت به بعض القبائل الكلتية — الجرمانية على ايطاليا قبيل الحرب الأهلية وكشف عن أمور أكدتها الحرب الأهلية نفسها وأظهرت أن هناك استحالة فى

التمسك بمبدأ قصر الانضواء فى الجيش على ملاك الأراضى من الرومان وحدهم أخذ عندئذ طابع الجيش الرومانى والصورة الاجتماعية التى كان يتألف منها يعتريها التبديل شيئا فشيئا الى أن تناولها تغيير جوهرى. وبعد الاصلاح الذى ابتدعه ماريوس لم يعد الجيش قوة عسكرية مؤلفة من الفلاحين الايطاليين ولكنه احتفظ بطابع الاحتراف لحد ما ، ويؤدى الخدمة العسكرية فيه لآجال طويلة جند من العوزة من الطبقة الدنيا ومن الفلاحين المتكففين ؛ وهناك من الجانب الآخر مجلس الأحرار فى روما ، الذى أصبح يتألف بعد الحرب الأهلية من أقلية ضئيلة من أحرار الرومان الى درجة تدعو الى السخرية ، فلم يعد يمثل الآمال التى تجيش بصدور أحرار الرومان تمثيلا حقيقيا بل صار ألعوبة فى أيدى الكيّسين من الساسة ، وبذلك أصبح الجيش الجديد أداة ذات أهمية كبرى فى التعبير عن رغبات عدد كبير من الرومان ووسيلة ذات كفاية وأثر فعال اتخذها الزعماء الطامحون ألعوبة فى أيديهم .

ولا يرجع أصل ذلك الجيش الجديد الى الخطر البربرى والحرب الأهلية فحسب ، بل ان هذا مرده بصفة خاصة — شأنه فى ذلك شأن الحروب الأهلية نفسها — الى الامبريالية الرومانية والسلطان الرومانى (Imperium Romanum) أو الدولة العالمية الرومانية ، فبدون مثل ذلك الجيش لا سبيل الى بقاء تلك الدولة العالمية وانما يكون مصيرها المحتوم الانهيار والتفكك . وقد ثبت صحة هــذا جليا فى كل حرب شنتها روما فى الفترة بين نهاية الحروب الشرقيـــة العظمى واصلاح ماريوس . أما تلك الحروب الصغرى مثــل الحرب ضـــد چـوجرثا (Jugurtha) فى أفريقيا والحرب ضد الكلت الايبيريين فى أسبانيا فانها كلفت الدولة الرومانية خسائر فادحة فى الرجال والأموال ولم تضف شيئا من الفخار للقوات والأسلحة الرومانيــة ؛ ولقد سبب غزو القبائل الكلتية والألمانية

لايطاليا ابراز مشـــكل على جانب من الخطـــورة ؛ اذ أظهر آخر الأمر ما كان عليه الجيش الرومانى من ضعف وما عرف عن غير المحترفين من القواد من عدم كفاية وعجز عن تحويل تلك القوة العسكرية الى جيش محارب حقا ، وعلى ذلك تطلب الأمر أن يتناول التحسين شقين ، يتصل أحدهما بالآخر أشد اتصال : وهما جيش محترف جديد وقواد محترفون جدد من واجبهم أن يكرسوا حياتهم كلها ويركزوا نشاطهم بأجمعه فى المسائل الحربية .

ولما كان الجيش فى صورته الجديدة أعظم هيئة منظمة فى روما فان قواده كانوا ملزمين لا أن يمثلوا القوة الحربية فى الدولة فحسب ، بل أن يصـــبحوا كذلك زعمـــاءها الســـياســـيين ، وعلى ذلك كان مصيرهم أن يخلفوا شيئا فشيئا كلا من طبقـــة السناتو ومجلس الأحـــرار فى روما — وهمـــا اللذان يعرفان باســـم السناتو والشعب الرومانى (Senatus Populusque Romanus) وينحوهما عن المركز الذى كانا يشغلانه حتى ذلك الحين . وكان العبء الأساسى الذى واجهه هؤلاء الزعماء الجدد هو تشكيل نظام المدينة الدولة وتكييفه حتى يصـــبح صالحا للوفاء بحاجات تلك الدولة العالمية ومطالبها وتحويله الى صورة جديدة من المدينة الدولة القادرة على حكم بلاد شاسعة ، أصبحت تتألف منها الدولة الرومانية اذ ذاك ؛ وعلى ذلك فالكفاح الذى كان قد بدأ على أيدى الجراكيين فى صورة نضال من أجل اعادة الدولة القديمة وقوامها من الفلاحين ، مؤيدا من جماهير العامة من طبقة الرعاع الذين لا عقار لهم ومن فقراء الفلاحين الذين كانوا يحاربون دفاعا عن صيحة الحرب القديمة ، المطالبة « باعادة توزيع الأراضى » — أصبح كفاحا من أجل اعادة تشكيل نظام الدولة من أساسه وصياغة دولاب الأعمال الحكومية

فيها حتى يصبح أداة أكثر صلاحية وملاءمة لمواجهة مطالب امبراطورية عالميـــة .

وكان أول من أدرك هذا الطابع الجديد فى الكفاح وأول من استغل هذا العامل الجديد فى الحياة السياسية فى روما فى تنفيذ سياسته هو لوكيوس كورنيليـــوس ســـــلاّ (L. Cornelius Sulla) أحـــد قواد الرومان فى الحرب الأهلية . أما الفكرة السياسية الأساسية التى حفزته الى القيام بحركة ثورية عنيفـــة ضد مؤيدى البرنامج الجراكى المتضمن « حصر السلطان كله فى مجلس روما السياسى بزعامة موظفين منتخبين من قبل طبقة الرعاع فى المدينة واعادة الدولة الى ما كانت عليـــه قديما ، وقوامها من الفلاحين » ، فانها كانت ترمى الى جعل حكم الأقلية من الســـناتو ملائمـــا ومتمشيـــا مع مطالب الامبراطـــورية وحاجاتهـــا . وكان دوره فى تلك الدولة الجـــديدة هو دور المعين والمدبر الساهر على تلطيف حدة الخلاف ، يقوم نفوذه وتأثيره فى تسيير دفة الشئون العامة على شخصيته المحبوبة الى كل من الجيش وعدد كبير من أحرار الرومان ، وبخاصة بين الطبقات العليا . وقد يبدو من الغريب أنه فى كفاح هذا لونه وطابعه ، كان سلاّ يحظى بالتأييـــد من جيش مؤلف من الرعاع والفقراء من الفلاحين ، وهذه عناصر قد يبدو أنها ملزمة بأن تكون نصيرة لخصومه وأعدائه . ولكن علينا أن نذكر أن ذلك الجيش الجديد كان رائده دائما مصلحته الذاتية ، يضعها نصب عينيه دون غيرها . وقد منّى سلاّ جنده بمزايا أعظم وأكثر مادية مما فعل خصومه — ومن ذلك أسلاب الحرب فى حمـــلاته ضـــد ميثراداتيس (Mithradates) ، وأراض وأموال ، توزع عليهم بعد عودتهم الى ايطاليا ، ومركز اجتماعى رفيع مدى حياتهم فى مدنهم الأصلية التى اســـتوطنوها (وهذا الأمر الأخـــير ليس بأقل استهواء لهم) ؛ وعلينا أن نذكر كذلك أن جيش سلاّ كان لا يزال مؤلفا

من العنصر القـديم من المواطنين الرومان الأحـرار ، وهؤلاء كانوا يتوجسون خيفة من جموع الأحرار الجـدد الذين منحوا حق الانتخاب أثر الحرب الأهلية ، وكان ماريوس وأنصاره وخلفاؤه يؤيدون هؤلاء الأخيرين فى مطالبهم .

وعقب موت سلا مباشرة استعرت نيران الحرب الأهلية مرة أخرى . وأصبح من ضروراتها أن تصير كفاحا من أجل الاستحواذ على السلطان ونضالا بين أقدر العناصر التى كان يتألف منها أرستقراطية السناتو ، وأوسعها أطماعا وأبعدها طموحا فى الاستئثار بالغلبة والحصول على الصوت المرجح فى حكومة الدولة ؛ ولم يكن للمتخاصمين برنامج سياسى معين ولا اصلاح اجتماعى أو اقتصادى ذو قيمة جوهرية ، وانما كان الكفاح يدور من أجل النفوذ الشخصى وتحقيق الأطماع الذاتية سواء أكان فى العاصمة أم فى ميدان القتال ، وكان فى قيادة حربية فوق العادة المخرج الوحيد من تلك التعقيدات الشديدة التى كانت تنشأ بين حين وآخر من الحياة السياسية والحربية المتداخل بعضها فى بعض فى تلك الامبراطورية العالمية ، وفيها وسيلة أتاحت لأفضل رجال الارستقراطية فرصة الاتصال الوثيق بالجيش وضمه اليهم وربطـه واياهم بروابط شخصية من هبات ووعود ؛ وهذا بدوره جعل من قائد الجيش سيد الدولة طالما حافظ على محبة الجند وولائهم له . وقد عمد منافسوه الى اتخاذ نفس الأساليب والسبل عينها ؛ وعلى ذلك أصبحت الحرب الأهلية فى الواقع حربا بين جيوش منظمة أحسن تنظيم ومدربة على أحدث الطرق ، يقودها سياسيون طموحون . أما غالبية أحرار الرومان ، ومعهم بالطبع سكان الولايات ، فانهم لم يشتركوا اشتراكا فعليا فىهذه الحرب، وكل ما كانت تصبو نفوسهم اليه هو استقرار السلم واستتباب النظام . وكان المقـاتلون هم جنـود محترفون فى الامبراطـورية الرومانيـة ،

وكان غرضهم من الحرب أنهم يتطلعون عقب انتهاء الأعمال العدوانية الى الحصول على جزاء وفير فى صورة عطاء جزل من الأراضى والأموال (٣٢) .

وهذا هو السبب فى أن الفصل التالى فى مأساة الحروب الأهلية ، وهو النزاع بين قيصر وپومپى ، كان مشوبا بالتعقيد والغموض الكثير فى مقاصده وأغراضه الأساسية وما وصل اليه من نتائج . وكانت الغلبة لقيصر فى هذه المعركة لأنه أوتى من المقدرة على التنظيم ما يفضل به على منافسه ، ولأنه كان عبقريا فى الحرب ويتمتع بنفوذ شخصى عظيم ومحبة لدى جنده . وكان تاريخ حياة پومپى السياسى لا يختلف الا قليلا عن تاريخ حياة منافسه قيصر . ولكن أوجه الاختلاف بينهما كانت بالطبع فوق مدارك الجند من الجيشين المقاتلين . أما التأييد الذى أسبغه پومپى على نظام الحكم السناتورى فانه لم يقابل أبدا بالعناية الجدية الواجبة، حتى من جانب أعضاء السناتو أنفسهم ؛ اذ راعى هؤلاء فى اختيارهم زعيما لهم الرجل الذى توسموا فيه أنه أقل خطورة من قيصر وكانوا ينتظرون أن يجدوا فيه سيدا أكثر اعتدالا لو أنه كتب له النصر . أما جمهرة الأحرار من الرومان فانهم آثروا ألا يضلعوا مع أحد الجانبين الا اذا أكرهوا على ذلك .

ولقى قيصر حتفه على أيدى فئة من المتآمرين ؛ وذلك قبل أن يوشك عمله المدنى على البدء فى الظهور ، وليست لدينا أية وسيلة للحكم على مدى ما كان يخفيه القدر فى طياته لو أن الفرص أتيحت لقيصر كيما يعيد تنظيم الدولة ؛ وتوجد بعض الدلائل على أنه جال بخاطره برنامج معين من الاصلاحات ولكنه من العسير علينا أن نتعرف على تفاصيله على أى صورة ما ؛ « فملكيته » ، على ما بها من تعارض مع « امارة » پمپى وزعامته ، تبدو لنا حلما جال بخاطر العلماء الحديثين الذين تأثروا بالدعاية

التى نشرها أعداء قيصر طوال حياته وبعد مماته ، فقيصر فى نظر قتلته كان بالتأكيد « ملكا » و « طاغية »[٢٣] .

وان سلسلة النزاع والصراع الذى تلا ذلك بين قتلة قيصر من ناحية وبين القواد وربيب قيصر من الناحية الأخرى لتدل على الطابع الفوضوى الذى يصحب عادة أى كفاح من أجل النفوذ والسلطان ؛ فجنود قيصر القدامى كانوا من المؤيدين لأنطونيوس واكتاڤيوس لأنهم كانوا ينتظرون أن يتحقق على أيديهما وحدهما وعود قيصر من الحصـــول على أرض ومال . على أن بعض الغيورين المتحمسين ، وجلهم من ذوى العقول الراجحة الذين كانوا يعتقدون أن قيصر كان مستبدا حقا ويترحمون على نعم الحرية وأفضالها ، ممثلة فى السناتو وفى قتلة قيصر ، حاربوا وناصروا جانب بروتس وكاسيوس ؛ أما الباقون ممن انحازوا فى الحرب الى أحد الجانبين فانهم اشتركوا فيها لأن التعبئة شملتهم ، ولأنهم وُعدوا بالأرض والمال ، ولأنهم اعتقدوا أنهم يخوضون الحرب من أجل اعادة السلم واستقرار النظام .

ولم يسفر انتصار اكتاڤيوس وانطونيوس على القتلة عن انجـــلاء الموقف ؛ وكان اكتاڤيوس فى الوقت نفسه بعد تبنى قيصر له وتسميه أحيانا باسم اكتاڤيانوس ثم اتخاذه لقب أغسطس فيما بعد — قد حاول شيئا فشيئا أن يشعر سكان ايطاليا بالطابع الذى كان قد اتخذه من قبل القتلة وسيلة لدعايتهم وهو أن قصد قيصر كان ينطوى على اقامة ملكية خالصة ، وأن أنطونيوس كان يسعى جهـــــده الى الوصول الى تحقيق هذا الهدف نفسه . ولما كان اكتاڤيوس قد قضى تقريبا أغلب وقته فى ايطاليا بينما قضى أنطونيوس الشطر الأكبر من وقته فى خارج ايطاليا ، مقيما فى ربوع الشرق فان هذه الدعاية لقيت نجاحا الى حد كبير ؛ وان

الأخطاء التى ارتكبها انطونيوس وعلاقته الغرامية بكليوباترة ثم زواجه منها بعد ذلك ، جعلت الاشاعات التى كان اكتاڤيوس يعمل على ترويجها ؛ وفحواها أن أنطونيوس كان ينوى أن يجعل من ايطاليا ولاية تابعة لمصر — وهـذا أمر كان ينطوى بالطبع على سخف كبير — كل هـذا جعل تلك الاشاعات أكثر قبولا وتصديقا لدى جمهرة الأحرار من الرومان فى ايطاليا ؛ وقد تأكدت هذه الخرافة بما نشره اكتاڤيان من الوصية الأخيرة التى شاع الزعم بأن أنطونيوس كان قـد أودعها لدى عذارى الالهـة ڤستا (ربة الموقد والمحراب عنـد الرومان) ؛ ومن الصعب أن يجزم الانسان بصحة هذه الوثيقة ويصدق ما جاء فيها ، ما لم نفترض أن أنطونيوس كان مصابا بالفعل بالغفلة فاقد الرشد .

ومع ذلك فالذعر كان يستولى على المواطنين الرومان الأحرار كلما تصوروا المستقبـل الذى كان ينتظرهم وقد سلبوا امتيازاتهم وغمرهم سيل من سكان الولايات ؛ وعلى ذلك حدث فى الصراع بين اكتاڤيان وأنطونيوس أن المواطنين الأحرار فى روما ، وبصفة خاصة الطبقة المتوسطة فى المدينة ، أى طبقة البورچوازية وهى قوة يعتد بها ، انتشرت فى أرجاء ايطاليا ، بل وأكثر أفراد الطبقات العليا من أعضاء السـناتو والفرسان ، كل أولئك كانوا على أتم استعداد لنصرة اكتاڤيان ضد انطونيوس ؛ على أن ذلك التأييد لم يكن قط من أجل الحصول على أرض ومال فحسب . فموقعة اكتيوم كانت فى الحروب الأهلية أولى المواقع التى تم النصر فيها لا بفضل طبقة الرعاع المسلحة وهى تحارب من أجل تحقيق الكسب المادى لنفسها ، وانما كتب النصر فى هذه الموقعة لجمهرة المواطنين الأحرار من الايطاليين ، تحفزهم فكرة استولت عليهم وهى انهم يكافحون من أجـل المحافظـة على كيـان الدولة الرومانية وينصرون الحرية ضد الوحشية والاستعباد فى صورهما الشرقية ؛ وقد خاض اكتاڤيان المعركة

الأخيرة من هذه الحرب الأهلية لا بوصفه زعيما من زعماء الثورة ، يحارب من أجل سلطانه ونفوذه الشخصي وانما كان نصيرا للأفكار الرومانية ومدافعا عن التراث الروماني فى الحاضر والمستقبل ؛ انه اختار أن يحارب من أجل كل ذلك ضد شبح الملكية الشرقية . واذا كان قد قدر لسلطان اكتاڤيان الذى كسبه بفضل موقعة اكتيوم ، أن يعمر طويلا فانه كان من الواجب عليه ألا ينسى كيف تم له النصر ولماذا كتب له على هذه الصورة فى موقعة اكتيوم .

وكانت فترة الحروب الأهلية عصرا مليئا بالفواجع الأليمة ، معذبا فيها كل فرد تقريبا من أعضاء الدولة الرومانية ، لا فى ايطاليا وحدها بل فى كل الولايات ؛ ففى ايطاليا خر كثيرون صرعى فى ميدان القتال أو فتكت بهم الأمراض فى أثناء المواقع وقتل كثيرون من الزعماء المبرزين خلال عصور الفزع والارهاب السياسى الذى كان ينتاب البلاد بين حين وآخر ، وكثيرون من الأغنياء والفقراء على السواء سلبوا أملاكهم وقام الزعماء ببيعها لملء خزائنهم الخاوية ، أو كانوا يقسمون هذه الأملاك المسلوبة بين الجند المظفرة الذين أصبحوا يؤلفون فى جيوش عصر الثورة عنصرا من الجنود قد حنكتهم التجارب ؛ ولم تعرف الأحوال الاقتصادية الاستقرار على حال مطلقا ولم يكن فى وسع أحد أن يتكهن بما يأتى به الغد اليه فأصبحت ايطاليا من الوجهة النفسانية تتأرجح تماما لما أصابها من خلل فى توازنها وينقصها شىء واحد وواحد فقط وهو أن يسود السلم .

وتظهر شدة هذا الحنين والاشتياق الى السلم فى الأشعار الأولى التى نظمها هوراس وڤرچيل مثلا ؛ وانه لمن المجدى غاية الجدوى ، ومما له دلالته الخاصة ، أن ننحو النحو الذى كان يسلكه الناس عادة فى تتبع ذلك التطور النفسانى عند هوراس فى تلك السنين الحالكة بعد موقعة فيليپاى . فمثل هوراس كمثل الملايين من سكان الامبراطورية الرومانية

وبخاصة أولئك الذين كانوا مواطنين أحرارا رومانيين ، قد وجه وجهته فى النهاية بعد فترة ساد فيها القنوط واليأس ، نحو تركيز آماله وعقدها على ذلك النصر الأخير الذى أحرزه أغسطس وأخذ به المواثيق على نفسه أن يضع حدا للحرب الأهلية . وكان أغسطس على علم تام بمدى الشعور السائد بين سكان الامبراطورية حيث كان السلم هو الصيحة العامة التى تتجاوب أصداؤها فى كل الأرجاء . وكان الناس جميعا على أتم استعداد لتقبل أغسطس وحكمه على شريطة أن يعيد اليهم السلم والهدوء ، وعلى ذلك كانت اعادة السلم فرضا واجبا على أغسطس ؛ فهذا السلم — اذا صح لنا القول — كان شرطا لا غنى عنه لضمان بقاء سلطان أغسطس ، وسوف نرى فى الفصل التالى أن أغسطس أدرك فهم مشاعر الناس وأحاسيسهم ثم سلك السبيل المؤدى الى تحقيق ذلك الهدف (٢٤) .

ومهما كان التغيير فى مشاعر السكان وميولهم تاما — حتى اذا قارناه بالفترات السابقة على مقتل قيصر واللاحقة له — فانه من الجلى أن الموقف فى ايطاليا لم يتغير من وجهتى النظر الاقتصادية والاجتماعية ، الى حد كبير فى أثناء الحروب الأهلية ، فظلت ايطاليا مركزا للحياة الاقتصادية فى العالم القديم ، يكاد الازدهار والانتعاش فيها يحتفظ بطابعه كما كان من قبل ؛ وقد وصف ڤارو (Varro) ايطاليا فى النصف الأخير من عصر الحروب الأهلية فقال انها أكثر بلاد العالم ازدهارا وانتعاشا من حيث مواردها الطبيعية والزراعية (٢٥) ، وانه لعلى حق ويقين تام فيما قال ، فالحروب الأهلية لم تقوض أسس الحياة الاجتماعية والاقتصادية القديمة فكانت تسطع على التلال وعلى شواطىء البحر فى لاتيوم واتروريا وكمپانيا نفس «الفلات» البديعة ذات الأروقة والدهاليز الرخامية وقد أحاطت بها البساتين الوارفة الظلال ؛ وفى جميع أرجاء

ايطاليا الجنوبية والوسطى انتشرت نفس هذه المزارع النموذجية وهى تدار على أسس وقواعد رأسمالية ويجرى تنظيمها طبق نماذج هيلينستية وتزخر بالعبيد من السكان وهم يعجون فيها ويكدون فى مزارع الكروم وأحراش الزيتون والبساتين والحقول والمراعى تحت اشراف مديرين مخصصين لهؤلاء العبيد . وأصحاب هذه البيوت « الفلات » الريفية (villae rusticae) هم كبار الرأسماليين فى روما وأغنياء الطبقة الوسطى من البورچوازى الساكنة فى مدن ايطاليا . ومنذ القرن الثامن عشر تم الكشف عن عشرات من أمثال هذه «الفلات» بالقرب من پمپيى (Pompeii) وستابياى (Stabiae) وهركولانيوم (Herculaneum) وربما يرجع العهد ببعض هذه الى القرن الأول قبل الميلاد على أقل تقدير[٢٦] . وكانت تربى فى أراضى المراعى مئات الألوف من الغنم والمعاز والثيران والبقر ، ويتولى حراستها جماعات من رعاة العبيد المسلحين حتى أصبحت هذه المراعى من المظاهر البارزة التى تتميز بها الحياة الاقتصادية السائدة فى اپوليا (Apulia) وسامنيوم (Samnium) وبعض أجزاء لاتيوم وقسم كبير من صقلية ومن سردينية ومن قرصقة[٢٧] ؛ وكانت القرى والمزارع المبعثرة هنا وهناك ، وأصحابها من صغار ملاك الأراضى ، لا تزال هى الطابع المميز لجزء من اتروريا وأومبريا وپيكينوم ووادى نهر الپو ؛ وفى القرى والمزارع التى من هذا الطابع كان يعيش مستأجرون تابعون لكبار ملاك الأراضى ، وعملهم التوفر على انتاج القمح اللازم لهم ولأسواق المدن المجاورة . وفى هذه البقاع من ايطاليا كان أمثال دوميشيوس اهينوبا ربوس (Domitius Ahenobarbus) المعاصر لقيصر وپمپيى ، يمتلكون مساحات فسيحة من الأراضى لدرجة أنه كان فى مقدورهم أن يَعِدوا آلافا من الجند الذين ينضوون تحت لوائهم ممن لا عقار لهم ، بمنحهم أنصبة من تلك الأراضى ، تكفل لهم سبل العيش

الرغيد ؛ وقد استطاع أهينو باربوس هذا ويمبى أن يؤلفا جيوشا نظامية كبيرة من بين صفوف أولئك الأتباع والمستأجرين للأرض (coloni) ومن العبيد . ولم يكن يمبى يبالغ عندما قال انه لا يلبث أن يطأ بقدمه أى بقعة من الأرض حتى ينضوى تحت لوائه آلاف الجند ، ولا ريب أنه كان يقصد بوجه خاص أولئك الجنود القدامى الذين كانوا من زبانيتــه وأتباعه ، والقوم الذين كانوا مقيمين بضياعه (٢٨) .

وكانت مدن ايطاليا آهلة بالسكان من الطبقة الوسطى من البورچوازى ، وهم ذوو اليسار ، بل فى بعض الأحيان ممن أوتوا بسطة فى العيش وسعة فى الرزق ؛ وأغلبهم من ذوى الأملاك والبعض منهم من أصحاب المساكن التى تؤجر بأجر معلوم ، ومن أصحاب الحوانيت المختلفة ، كما أن البعض كان يباشر عمليات اقراض المال ويقوم بأعمال المصارف . وكانت روما أكبر المدن وأغناها ، ازدهرت واتسعت فى أثناء القرنين الثانى والأول قبل الميلاد بسرعة أشبه بسرعة المحموم ، وفى أحسن البقاع والمواقع بها أقيمت أجمل القصور التى كانت ملكا لعظماء روما والشخصيات البارزة فيها من أعضاء السناتو وطبقة الفرسان . وكان يجرى كل يوم التعامل والتداول فى البورصة الكائنة على مقربة من معبد كاستور (Castor) فى الساحة العامة الكبيرة بروما ؛ وهى السوق أو « الفورم » (Forum) حيث كانت أفواج من الناس تتداول بالبيع والشراء الأسـهم والصكوك الخاصة بشركات التزام جباية الضرائب ، كما تتعامل فى مختلف البضائع اما بالنقد أو على حساب اعتمــاد خاص . ومن ذلك المزارع والضياع فى ايطاليا وفى الولايات والمساكن والحوانيت فى روما وفى غيرها والسفن والمستودعات ، ثم العبيد والماشية . وفى تلك الحوانيت الكائنة بالسوق العامة والشوارع القريبة منها كانت آلاف من الأحرار ذوى الحرف

وأصحاب الحوانيت وآلاف غيرهم من العبيد والمندوبين والعمال من طرف الرأسماليين الأغنياء ، يتوفرون على انتاج البضائع وبيعها للراغبين فى شرائها . أما فى أطراف روما ومشارفها فكانت تغشاها جموع المتعطلين أو المتواكلين من الغوغاء ، يقبعون فى ربوع واسعة مؤلفة من عدة مساكن ويقنعون بكسب قوتهم وعيشهم ببيع أصواتهم ولكمات أيديهم الى أى شخص يتوافر لديه من المال ما يكفى لدفع الأجر لهم (٢٩) .

وكانت موجات الارهاب وفورات الحرب الأهلية تغدو الواحدة تلو الأخرى وتروح ، وكلما اجتاحت البلاد اكتسحت أمامها بعض أفراد الجماعات ممن أشرنا اليها آنفا ، ولكن الجماعات بوصفها هذا بقيت كما هى دون تغيير فيما عدا الاستعاضة عن المفقودين بورثتهم ومن يحل محلهم من العناصر الجديدة ؛ وقد حدث أن جماعة من ملاك الأراضى ممن يقيمون باحدى مدن ايطاليا سلبوا أراضيهم التى ورثوها عن أجدادهم وآلت هذه الأراضى الى قدامى المحاربين من جيوش الثورة ، وهؤلاء الأخيرون أنفسهم من مواليد ايطاليا وفيهم المزارع ، والفلاح ، ومالك الأرض ، فاستولوا على ما لدى أسلافهم من مساكن ريفية وحقول وأحيانا على محال اقامتهم بالمدن - فكان ملاك الأراضى الذين سلبت أملاكهم على هذا النحو وضاعت بالطبع مواردهم ، يهاجرون الى المدن الكبرى أو يرحلون الى الولايات الرومانية فتتضخم بهم أعداد المتعطلين من طبقة العوزة وينتظم بعضهم فى صفوف جيوش الثورة ونحو ذلك ؛ ولكن هذا التغيير كان يتم دون أن يشعر به أحد فى ايطاليا بوجه عام ؛ فقدامى المحاربين كانوا جميعا من المواطنين الرومان الأحرار وكلهم أو جلهم نشأوا فى الحقول أو على سفوح جبال ايطاليا ، فأجيال من رعاع المدن كاد ألا يكون لها وجود حتى فى روما ، فمن كان بالأمس أحد ملاك الأراضى أصبح فى الحال من الرعاع أو آل به الأمر فى الغد الى أن

يصير جنديا أو وكيل أعمال أو من ذوى الحرف أو أجيرا يكسب قوته من كد يديه . وكانت مناطق بأكملها من أمثال أولئك المستوطنين الجدد محاطة على هيئة جزر بأراض مأهولة بالسكان الى حد الاغراق ومن السهل امتصاصها وابتلاعها فى كل من الريف والمدن . وللدلالة على مبلغ سهولة ذلك الامتصاص ما حدث فى حالة پمپيى حيث اندمجت شيئا فشيئا جالية من محاربى سلا" القدامى فى السكان الأصليين بالمدينة .

وفى الحق أنه لا ينبغى أن نقلل من أهمية اعادة توزيع الأراضى مما كان يجرى بين حين وآخر خلال الحروب الأهلية ، وبحسب الاحصائيات الدقيقة بلغ عدد الذين استولوا على اقطاعات عقارية فى ايطاليا فى أثناء الخمسين السنة الأخيرة من ذلك العصر المضطرب ما لا يقل عن نصف مليون من الرجال (٣٠) ؛ وبعد التغييرات الهائلة التى صاحبت الحرب الأهلية فى المجتمع الايطالى ، لعل ما تم من اعادة توزيع الأراضى كان أقوى عامل فى تاريخ تحويل ايطاليا وطبعها بطابع رومانى ولاتينى وفى پمپيى دليل أى دليل ؛ اذ كادت اللغــة اللاتينيــة تحل تماما محل اللغة الأسكانية فى القرن الأول قبل الميلاد . ومن الجانب الآخر يجب ألا نبالغ فى ابراز أهمية هذا التغيير فى الملكية من وجهة النظر الاقتصادية المحض؛ بل لو أننا سلمنا جدلا بأن معظم المحاربين القدامى أصبحوا فلاحين نظاميين واتخذوا من فلاحة الأرض وزراعتها بأيديهم ســبيلا للرزق — وهو أمر كان بالطبع لا يصدق الا على بعض منهم فقط — فانه كان من العسير أن يغير انشاء أمثال هذه الملكيات الزراعية الجــديدة من الاتجاه الاقتصادى العام الذى كان يسير نحو تكوين ضياع يتملكها أناس لم يسكنوها قط وانما اعتبروها أحد مصادر ايرادهم ودخلهم ؛ وعلى أى حال فمن اليقــين أنه كلما تقادم العهــد بالحروب الأهلية فان

منح الأراضى نفسها للمحاربين القدامى صار الاتجاه فى أمرها شيئا فشيئا ، لا الى انشاء اقطاعات جديدة توزع بين الفلاحين ؛ بل الى ايجاد ضياع عقارية جديدة يستحوز عليها سكان الحضر ، ويتضح هذا من الزيادة المطردة فى مساحة الاقطاعات التى كانت تمنح للمحاربين القدامى. وعلى ذلك كان أغلب أولئك المحاربين لا يمثلون زيادة فى عدد الفلاحين، وانما يضخمون سكان المدينة ، ولا يترتب عليهم أية زيادة فى عدد الطبقات العاملة فى ايطاليا وانما تزخر بهم صفوف الطبقة الوسطى من البورچوازية فيها(٣١) . كما أن اعادة توزيع الأراضى لم يؤثر فى نمو الضياع الكبيرة فبعض هذه الضياع الواسعة التى صادرها القواد العسكريون فى أعقاب الحروب الأهلية ربما جزئت الى اقطاعات صغيرة جرى توزيعها بين صغار الملاك ، ومع ذلك فالقاعدة العامة كانت تقضى بأن هذه الضياع اما أن يحتفظ بها حكام الدولة المؤقتون وتصبح سندا يقوم عليه نفوذهم الشخصى الذى كان العماد فيه على عدد من تابعيهم الذين يتوقف مصيرهم عليهم أو أن هذه الأراضى كانت تباع بالنقد لملء خزائنهم التى كانت على الدوام خالية الوفاض .

أما التغييرات التى وقعت فى الولايات فانها ذات أهمية كبرى ، فلو أن تلك الولايات ، فيما عدا المواطنين الأحرار من الرومان المقيمين بها ، لم تشترك بنصيب فعال فى الحروب الأهلية ، فانه قد وقع عليها الغرم الحقيقى اذ كان عليها أن تتحمل المصروفات الباهظة التى تطلبتها تلك الحروب . وقد وقع أثقل الأعباء على الولايات فى الشرق وقد تكلمنا عنها من قبل ، ودعنا نلق نظرة عاجلة على ماجريات الأحوال فى الغرب .

ولأول مرة فى تاريخ روما تعرضت الولايات الغربية لاستعمار منظم من جانب ايطاليا وكان مصير المحاولات التى بذلها جايوس جراكوس وبعض خلفائه من أجل تنفيذ برنامج يتضمن انشاء مستعمرات على هذا

النحو فى نطاق الغرب وبخاصة فى افريقيا ، هو الفشل وبرهنت الظروف
على أنه لا جدوى من تلك المحاولات التى لم يتحقق من ورائها شىء ذو
أهمية ، ولكن فى أثناء الحروب الأهلية أخذت تتسرب الى بلاد الغال
وأسبانيا وأفريقيا ، الموجة تلو الأخرى من المهاجرين الرومان . وأشهر
حالات التوطن والاستعمار تلك المستعمرات الرومانية الجـديدة التى
دعا الى تنظيمها زعماء الحركة الثورية ، ونخص بالذكر منها مستعمرات
ماريوس فى أفريقيا (أنظر الفصل السابع من هذا الكتاب) ، ومستعمرات
قيصر وانطونيوس وأغسطس فى بلاد الغال وأسبانيا وأفريقيا ، بل وفى
بعض أجزاء الشرق وبخاصة آسيا الصغرى ؛ ومع ذلك فلم تكن هذه
الأمثلة على حركة التوطن والاستعمار المنظم هى الوحيدة التى ظهرت فى
الولايات فى أثناء الحروب الأهلية فهناك جماعات ذات أهمية من بين
الايطاليين آثرت الهجرة والاستقرار فى تلك الولايات بمحض ارادتها ؛
وهؤلاء بوصف كونهم تجارا أو مرابين أو مندوبين عن جمعيات احترفت
التزام جباية الضرائب ، يسرت لهم سبل الاتصال بالمستعمرين من الرومان
والأهلين من سكان المدن ببلاد الغال وأسبانيا وأفريقيا ونوميديا ؛ وقصة
كثير من المدن بأفريقيا ونوميديا تدل على مدى الأهمية التى كانت لهذا
العنصر من هيئات الرومان الأحرار فى الحياة المتمدينة فى هذه البلاد ،
وكمثل على ذلك نستطيع أن نسوق مدينة ثوجا (Thugga) بأفريقيا
ومدينة كيرتا (Cirta) بنوميديا وهى عاصمة ملوكها ، وما كانت احدى
هاتين المستعمرتين مهجرا حربيا فى أصل نشأته ولكن فى كلتا الحالتين
كان السكان من أحرار الرومان يضطلعون بالدور الرئيسى فى الحياة
الاقتصادية والاجتماعية ولا يمكن أن يكون هناك أقل ريب فى أنه قامت
هجرات مماثلة الى المدن اليونانية بأسبانيا الجنوبية وبأقدم ولاية غالية
لروما والى المدن الأهلية شبه المتأغرقة بهما . وعلى الرغم من عدم وجود

أدلة مباشرة لدينا ففى وسعنا أن نفترض أن بعضا من المهاجرين الايطاليين، وهم من المستأجرين رقيقى الحال فى محيط الضياع الكبيرة بايطاليا ، كانوا على أتم استعداد لتقبل ما يسديه اليهم أسيادهم من نصح وتوجيه بشأن وجوب الهجرة الى أراضى أفريقيا السعيدة حيث تتاح لهم فرص الحصول عن طريق الايجار من ملاك الأراضى الأغنياء بهذه الولاية ، على مساحات من الأراضى هى أفضل نوعا وأكبر مساحة .

وعلى ذلك تحول الى الغرب فى القرن الأول قبل الميلاد تيار المواطنين الأحرار من الرومان بعد أن كان ينساب أغلبه نحو الشرق فى العصور الأولى ، وكانت الأحوال السائدة فى الشرق قد ساءت واستفحلت الأخطار التى كانت تهدد المتوطنين من الرومان فى أرجائه ، كما يستدل على ذلك من تلك المذبحة التى دبرها ميثراداتيس (Mithradates) ، حتى أصبحت حقيقة مؤكدة ، وتضاءلت الفرص المتاحة ، بسبب سوء الادارة الرومانية الى حد أن الكتلة الكبرى من المهاجرين كانت تؤثر الرحيل الى البلاد الجديدة فى الغرب لعل الحظ يواتيها هناك . واذا كانت بلاد الغال وأسبانيا وأفريقيا قد انطبعت بالطابع الرومانى لحد ما ، فمرجع ذلك الى حركة الاستعمار الشديدة التى اجتاحت تلك البلاد فى أثناء الحروب الأهلية فتسربت من ايطاليا الى هذه الولايات الغربية رءوس أموال جديدة ، وعمها نشاط جم مستحدث واعترى أسلوب الحياة فيها عادات جديدة ؛ ونحا نحو الايطاليين اغريق وأقوام شرقيون وفدوا اليها ؛ ولسنا نعرف كم من أولئك المستعمرين الجدد ممن رحلوا الى هذه الولايات كانوا عمالا يكدون بأيديهم وكم منهم كانوا فلاحين ، ولم يكن أكثرهم بالتأكيد من عامة الفلاحين والمؤاجرين وذوى الحرف والصناعات وانما كان الجزء الأكبر فيهم من ملاك الأراضى والتجار ورجال الأعمال الذين استقروا هناك مؤثرين حياة المدن على الريف [٣٢] .

واذا نقبنا عن اصطلاح عام يصلح للتعبير عن الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة فى الدولة الرومانية فى القرن الأول قبل الميلاد فمن الصعب أن نوفق الى صيغة تكون موجزة ، ومفهومة واضحة . فالدولة الرومانية كانت من وجهة النظر السياسية امبراطورية يتحكم فى مصائرها من الناحية القانونية جمهرة من المواطنين الأحرار من الرومان ، وهم الذين كان يمثلهم فى الحقيقة والواقع هيئة حاكمة من المواطنين الأحرار ذوى الغنى والحسب ، ألا وهم أعضاء السناتو ، وتعتبر الولايات بمثابة ضياع لهذه الهيئة الحاكمة ، وفى داخل اطار هذه الجماعة ومحيطها كان نظام المدينة الدولة لا يزال قائما لا يكاد يمس كيانه أى سوء فيما عدا بعض تغييرات طفيفة ، وكانت تلك الجماعة من وجهة النظر الاجتماعية ، تتألف من طبقة صغيرة نسبيا هى الحاكمة ومقرها مدينة روما والكثير الغالب من أفرادها من كبار ملاك الأراضى فى ايطاليا وفى الولايات . والى جانب طبقة السناتو نشأت طبقة أخرى من رجال الأعمال ومن ملاك الأراضى ، وهى وفيرة العدد ويتمتع أفرادها بالجاه والنفوذ . وكان يتألف من كلا العنصرين الطبقة العليا من السكان فى كل من العاصمة ومدن ايطاليا ، وكان فريق من رجال الأعمال هؤلاء على درجة عظيمة من الثراء بينما البعض الآخر منهم كان أقل ثراء وأكثرهم كان يعيش عيش أصحاب الايراد الثابت . أما الطبقة العاملة حقا فكانت تتألف من تجار التجزئة وذوى الحرف فى المدن ومن العبيد فى دواوين وحوانيت الطبقة الوسطى من البورچوازية ومن ملاك الأراضى الفلاحين الأحرار فى الريف ومن جم غفير مطرد الزيادة يضم شمل العبيد والمستأجرين المستقرين بالضياع التى فى حوزة أصحاب الأراضى من طبقة البورچوازى ، وكان نفس هـذا التوزيع فى نظام الهيئات والجماعات يتكرر ويراعى تطبيقه بين جموع المواطنين الأحرار من الرومان المنتشرين فى الولايات .

أما من حيث وجهة النظر الاقتصادية فاننا نكاد نجد نفس النظام الرأسمالى السائد فى بلاد الشرق قبل العصر الهيلينستى ثم فى خلاله ، فكان تداول السلع والبضائع يجرى فى يسر وحرية فى داخل نطاق الدولة الرومانية ومع جيرانها ؛ ولم تكن أهم أفرع التجـارة هى التى كانت تختص بالكماليات وانما كان ذلك التبادل يشمل السلع الضرورية جدا من غلال وأسماك وزيوت ونبيذ وكتان وقنب وصوف وكتل من الأخشاب ومعادن ومنتجات صناعية ، أما المأكولات والمواد الخام فانها كانت ترد من جهات نائية متطرفة فى العالم اليونانى الرومانى ، وكان الزيت والنبيذ والسلع المركبة والمجهزة ترد من المدن اليونانية ومن ايطاليا ، أما شئون النقد ومعاملاته وأعمال المصارف فقد أصبحت امتيازا خاصا كاد أن يكون مقصورا على ايطاليا وبصفة خاصة على روما وذلك لأن معظم العملة المسكوكة كانت محصورة فى أيدى الرأسماليين من الرومان وقد ساعدت الظروف السياسية الى حد كبير ، لا على جعل هذا العمل احتكارا فى أيدى روما — وبخاصة أصحاب المصارف فى العاصمة نفسها فحسب — بل ساهمت فى اتخاذها طابع المراباة الذى كان من شأنه أن يعرقل بشدة أى تقدم سليم لنظام رأسمالى كان آخذا بأسباب التطور الطبيعى. وكان ذلك التقدم البطىء نوعا ما فى الصناعة عقبة أخرى كأداء نجم عنها تعطل وتوقف عن التطور فى أساليب الفن الصناعى وعن الانتقال من مرحلة المصنع الصغير الى المصنع الكبير حقا فاستمر المصنع الصغير هو عماد الأداة الانتاجية الأساسية ، بل ان وجود عدة مصانع من نفس النوع يملكها فرد واحد ، لم يكن حافزا على تحويلها الى مصنع كبير بالمعنى الذى نفهمه الآن من منطوق تلك الكلمة ، ومع ذلك فيجب ألا يعزب عن بالنا أن العمل فى هذه المصانع الصغيرة كان متنوعا الى أقصى حد ، وأن معظم هذه المصانع — وبخاصة ما كان منها فى المراكز الصناعية الكبرى —

كان ينتج السلع لا بحسب الطلب وطبقا لمواصفات خاصة وانما لسوق شاسعة لا حصر لها . ومن بين المراكز الصناعية الكبرى فى العالم القديم أخذت بعض المدن الايطالية تقوم بدور رئيسى وتساهم بقسط كبير فى هذا المضمار ومن هـــذا دور كاپيوا (Capua) وكاليس (Cales) فى السلع المعدنية والفخار ودور تارنتوم (Tarentum) فى المنسوجات الصوفية والأوانى المعدنيةالمطلية بطبقة فضية ودور أريتيوم (Arretium) فى نوع خاص من الفخار اللامع ذى اللون القانى ، هذا مع آن ايطاليا لم تعقد لها الزعامة فى ميدان التقدم الصناعى على الاطلاق ؛ اذ احتفظت مدن الشرق الاغريقى بقصب السبق فى هذا المضمار [٣٣] .

الفصل الثانى

أغسطس وسياسة التعمير والبناء على نحو جديد

تباينت آراء العلماء الحديثين الى حد كبير بشأن الطابع الذى اتسم به نشاط أغسطس ومبلغ أهمية ذلك النشاط . ومما لا ريب فيه أنه كان رجلا عظيما وأن الدستور الذى منحه للدولة الرومانية استمر فى تطوره وتقدمه طوال قرنين على الأقل وفق الأسس الأولى التى كان أغسطس أول من وضعها ؛ ومما لا ريب فيه كذلك أن عهدا جديدا فى تاريخ العالم القديم بدأ بأغسطس، وقد ألفنا أن نطلق على هذا العهد عصر الامبراطورية الرومانية ، وفى الحق لسنا فى هــذا متوخين جادة الصــواب ؛ اذ أن الامبراطورية الرومانية (بمعناها المستمد من السلطة والسيطرة الرومانية Imperium Romanum) كانت موجودة قبل أغسطس بزمن طويل . وقد اتفقت تماما كلمة العلماء الحديثين جميعا فى هذه الموضوعات ، ولكن بمجرد أن نحاول فى شىء من الدقة تعــريف طابع ما نســميه بالاصلاحات التى تمت على يدى أغسطس تتشعب الأمور ويبدأ الخلاف فى الرأى الى درجة لا يرجى معها — فيما يبدو — أى اتفاق ؛ فبعض العلماء مصر على قوله بأن عمل أغسطس كان يتسم بطابع التعمير والبناء واقتصر جهده على هذا دون غيره وأن غرضه الأساسى كان يرمى الى اعادة الدولة الرومانية سيرتها الأولى ، على حين انبرى آخرون يخلعون على أغسطس لقب المصلح الثورى الذى كتب له التوفيق فى ابتــداع

دستور جديد تماما فى ثوب تستره بعض الأوضاع والأشكال القديمة ، وما هو الا حكم ملكى بحت أقامه قائد الجيش الرومانى ، وهناك فريق ثالث نحا نحوا خاصا ، هو وسط بين الفريقين (١) .

ولست أروم مناقشة جميع هذه النظريات وكل ما يحيط بها من ملابسات ، وانما أبغى استنباط بعض الحقائق ثم ابداء رأيى الخاص فى تفسيرها مع تركيز جل عنايتى فى الظواهر الاجتماعية والاقتصادية لهذا الموضوع . وقد بينا فى الفصل السابق أن انهاء الحروب الأهلية كان أمرا محتوما أملته تلك الارادة شبه الاجماعية التى أبداها سكان الامبراطورية الرومانية — وبخاصة أكثر العناصر نشاطا وتأثيرا فيها وهم الجموع الهائلة من المواطنين الأحرار الرومان فى ايطاليا وفى الولايات — فكل طبقات هذا المجتمع من المواطنين الأحرار أصروا على أمر أساسى واحد ؛ ألا وهو ضرورة وضع حد للحرب الأهلية واعادة السلام ؛ فان شـاء أغسطس توطيد سلطانه وتثبيته فانه كان لزاما عليه أول الأمر أن يحقق اعادة السلام ؛ والعالم بأسره قد أصبح على أتم أهبة واستعداد لقبول ذلك السلام والمحافظة عليه فالمتاعب قد نالت من كل انسان واستولى عليه السخط والسأم وأصبح ينتظر بفارغ الصبر وكبير الأمل أن تكون موقعة اكتيوم هى خاتمة الحروب الأهلية .

ومع ذلك فان فريق القادة وأولى الرأى فى شعب الامبراطورية لم يكن مستعدا لقبول أى حل أو كل حل يعرض لهذا الاشكال ، فالمواطنون الأحرار فى روما انما خاضوا غمار الحرب من أجل اعادة الدولة الرومانية سيرتها الأولى ، وليس من أجل احياء ملكية شرقية حتى ولو كانت فى صورة مقنعة ، انهم كانوا فى مسيس الحاجة الى السلام ولكن على أن يكون هذا السلام للدولة الرومانية ، وكان معنى هذا أنهم على أتم استعداد لتأييد أغسطس طالما كان ، متى عاد السلام ، مستعدا وكفيلا

بالاحتفاظ لهم بجميع الامتيازات التى كان ينعم بها أحرار الرومان من جميع الهيئات فى الدولة . ولما توجه أغسطس الى أحرار الرومان داعيا ومثيرا فيهم روح الوطنية عندما احتدم النزاع بينه وبين انطونيوس كان قد أخذ العهد والمواثيق على نفسه بأن يكون بارا بوعده الضمنى لهم فلا ينتقص من حقوق الرومان الأحرار وامتيازاتهم ، بل يسعى الى زيادتها، أو على أى حال يحدد من معالمها بطريقة أفضل من ذى قبل ثم يوطد من أركانها ؛ وطبقا لهذه الشروط كان المواطنون الأحـــرار بروما على أتم استعداد لقبول الاعتراف بأغسطس على أنه زعيمهم وأنه هو الرئيس الدستورى للمجتمع الرومانى وللسناتو والشعب الرومانى (Senatus Populusque Romanus)

والى هذا القدر كانت مهمة أغسطس واضحة يسيرة الى حد ما ، وكانت فى أكثرها عملا من أعمال التعمير واعادة البناء . فلم يكن الأمر يستدعى اصدار اصلاحات ذات نتائج بعيدة المدى ولم يكن شىء من هذا متوقعا ؛ وأكثر الاصلاحات التى كانت لازمة للملاءمة بين الدستور الرومانى — وهو دستور المدينة الدولة — وبين الحاجات والمطالب التى تتطلبها دولة عالمية ، كان قد تم استحداثها من قبل على أيدى أسلاف أغسطس وهم قواد حربيون كانت بيـــدهم مقاليد الأمـــور فى الدولة الرومانية فى أثناء الحروب الأهلية ، ومن هؤلاء ماريوس وسلاّ وپمپى وقيصر وأنطونيوس ثم أغسطس نفسه ؛ وكل ما كان يتطلبه الأمر هو السماح لدولاب الأعمال فى الدولة الرومانية بالحركة والسير مرة أخرى على ألا يعوقه عائق عن العمل .

ولكن اذا اقتصرت الحال على اعادة الأمور الى ما كانت عليه والأخذ بأسباب التعمير والبناء فلا ضمان لانتعاش أحوال الدولة الرومانية بصفة دائمة ، وكانت الحرب الأهلية قد أوجدت عنصرين جديدين فى الأداة

الحكومية ، ولا سبيل الى تجاهلهما أو التخلى عنهما فى أى عمل اصلاحى عماده التعمير البحت ؛ نظرا لأنهما كانا الدعامات الأساسية والقوة المحركة فى ذلك البناء . وهذان العنصران هما الجيش المقيم بصفة دائمة اذ ذاك، وقائده الأعلى وهو الامبراطور أغسطس الملقب بقائد الجيش قيصر أغسطس بن الاله (Imperator Caesar divi filius Augustus) .

فالجيش قائم ولا سبيل الى تسريحه ؛ لأن الحاجة كانت ماسة اليه لضمان السلام الخارجى والأمن الداخلى ؛ فلا طمأنينة ولا هدوء ولا نظام ولا سلام ولا خير يرجى من غير جيش قوى يسوده النظام التام ويجزل له الأجر والعطاء . على أن هذا الجيش — أو على الأقل نواته — لابد أن يتألف من المواطنين الأحرار الرومان اذا قدر لهؤلاء أن يحافظوا على مراكزهم كسادة الامبراطورية وحكامها . ومن الناحية الأخرى كانت الحرب الأهلية قد أظهرت أن جيشا قائما بصفة دائمة ويسوده النظام التام لا تتجلى كفايته على أتم وجه الا اذا كانت مقاليد الأمر فيه فى يد قائد يدين له الجيش بالولاء ويعترف له بالزعامة ، على ألا يكون ذلك القائد مفروضا عليه من قبل الشعب الرومانى ومجلس السناتو الرومانى ، بل يكون شخصا محبوبا من الجند والضباط وموضع ثقتهم ، اذا لم يكن مختارا من قبلهم من حيث الشكل . ومن هنا يأتى التناقض الكبير فيما اعترى الامبراطورية الرومانية وطرأ على أحوالها من أمور ؛ فالوضع الجديد كان يتطلب اعادة نظام الدولة القديمة وارجاع الحياة الدستورية فى الدولة على النحو الذى كانت عليه فى عصر الجمهورية ولكن فى الوقت نفسه كان لابد من الاحتفاظ بالعناصر الأساسية فى العصر الثورى وهى عماده ، وتتألف هذه من جيش الثورة وزعيم الثورة وقائدها . وقد سبق أسلاف أغسطس بالتقدم بكثير من الحلول لفض هذا الاشكال ؛ ومن بين هذه الحلول ما اقترحه سلا — وربما پمپى من

بعده — ويتضمن ذلك أن يدخل الجيش فى نفوذ السناتو وأن يتحتم على قائده أن يباشر سلطانه ويتولى الحكم بوصفه موظفا عاديا من موظفى الدولة الرومانية ، والحل الآخر ، ويبدو أنه هو الذى ارتآه قيصر وأزمع عليه ، هو أن يبقى الجيش تحت امرة أسمى موظف من قبل الشعب الرومانى ، وبذلك يحول دون أن يكون للسناتو أية صلة أو علاقة به ، وقد وجد أغسطس فى الحل الثانى بوجه عام بغيته فوقع عليه اختياره .

ولم يكن هناك محل للتفكير فى اخضاع الجيش ثانية لنفوذ السناتو، ولو حدث هذا لكان ايذانا بعودة الحروب الأهلية من جديد نظرا لعدم استعداد الجيش لقبول مثل هذا الوضع ، والحل الوحيد الذى كان فى استطاعة أغسطس هو أن يحرص على بقائه على رأس الجيش ، قائدا أعلى له وألا يسمح لأى شخص أن يشاركه على قدم المساواة فى هذه الرياسة . ويتضمن هـذا من الناحية العملية انشاء حكومة استبدادية عسكرية الى جانب النظام الدستورى الذى أعيـد الى الدولة ، ثم الاحتفاظ بهيئة ثورية الى جانب النظام الادارى العادى فى الدولة ؛ ومعنى هذا كذلك أن يصبح من حق الجيش نظريا أن يستبدل بقائده قائدا آخر اذا انفض الجند من حوله وفقدوا ثقتهم فيه ، أو عجز عن أن يوفى ما عليه من التزامات قبل الجيش ، وهذا أمر له خطورته .

وعلى ذلك لم تكن المهمة السياسية التى اضطلع بها أغسطس تنطوى على اعادة الحالة التى كانت قائمة قبل الحروب الأهلية الى ما كانت عليه، بل كان يرمى الى توطيد الأوضاع التى جاءت بها الحروب الأهلية ، ثم العمل على اصلاحها وتنظيمها من جديد ، فاتخذت بعض الاجراءات التى كان من شأنها أن تحول بقـدر الامكان دون أن يكون الجيش معاديا ومصدر ايذاء من حيث وجهة النظر السياسية ، فلم يجعل مقر الأورط فى ايطاليا ، بل نحاها الى الحدود فى أطراف الدولة الرومانية ومشارفها ،

ولم يبق فى ايطاليا سوى عدد قليل من الجند وهم الحرس البريتورى لحماية الامبراطور ؛ وكانت الأورط والحرس تتألف من أحرار الرومان وحدهم ، وهؤلاء يأتمرون بأمر ضباط ينتمون الى أفراد الطبقتين الأولين من أحرار الرومان دون سواهم من طبقتى السناتو والفرسان ، أما القوات المساعدة وهى التى كانت تقدمها الولايات فليست معتبرة من الفرق النظامية ، بل هى حليفة يقوم بالاشراف عليها ضباط رومان . أما الأسطول الذى كان يتخذ مرساه فى مياه ايطاليا فكانت تجرى تعبئة صفوفه من بين أحرار الرومان ممن ينتمون الى الطبقات الدنيا ومن الموالى وسكان الولايات . وكان الموالى ينضوون كذلك فى خدمة الفرق السبع المخصصة لمطافى المدينة ، والى جانب الكتائب الحضرية فان هذه الفرق كانت تقوم بخدمات بوليسية لحفظ الأمن فى مدينة روما . ومع ذلك فان جميع هذه الاجراءات كانت عديمة الجدوى ، ففى الحق كان الجيش صاحب السيطرة فى الدولة ؛ وفى الجمهورية الرومانية بصورتها الجديدة كان الامبراطور يحكم كلية عن طريق الجيش طالما كان هذا الجيش راغبا فى الاحتفاظ به وفى اطاعة أوامره ؛ فأصبح الجيش من المحترفين الذين كانت تتراوح مدد خدمتهم بين ست عشرة أو عشرين أو خمس وعشرين سنة (بحسب انتماء الجند الى أفرع الخدمة من الحرس الامبراطورى الى الكتائب والفرق المساعدة) ؛ وان جيشا مؤلفا من أحرار الرومان فعلا أو ممن كان يرجى أن يصبحوا أحرارا ومن أعضاء حقيقيين فى الحال أو فى الاستقبال ، ولهم كيان فى هيئة الشعب الرومانى صاحب السيطرة والسيادة — لم يكن من اليسير اقصاؤه وتنحيته عن المساهمة فى الحياة السياسية فى الدولة ، فاذا كان الأمر كذلك من استحالة اقصائه لزم أن يكون فى الواقع (مع ما فى هذا من مجافاة للروح الدستورية) مصدر القوة السياسية المتحكمة فى تقرير مصائر الأمور .

وما كان هناك من سبيل أخرى لحل هذا المشكل ، فاذا تعين أن يبقى أولئك الذين كسب أغسطس الحرب بفضل سواعدهم ، أصحاب السلطان والطبقة الحاكمة فى الامبراطورية فانه كان لزاما عليهم أن ينهضوا بأداء واجبهم الأول وهو الدفاع عن الدولة من غائلة الأعداء ، ثم المحافظة على سلطانهم فى داخل الامبراطورية ؛ فكان لابد أن يكون الجيش قائما بصفة دائمة وأن تكون تعبئته من المحترفين ، اذ لم يكن فى وسع عساكر الميليشيا الدفاع عن حدود الدولة الرومانية ؛ فالمهارة الفنية فى أساليب الحرب فى ذلك العصر أصبحت شديدة التعقيد ولا يمكن كسبها فى وقت قصير، كما أن الخدمة القصيرة فى الجيش فى الامبراطورية الرومانية أصبحت أمرا مستحيلا لأن القوة المحاربة ذات الكفاية كانت تتطلب قضاء سنين عديدة فى المران والمثابرة على التدريب . واذا كان مقدرا للجيش أن يصبح من المحترفين فانه لم يكن فى الاستطاعة الاعتماد فى تعبئته على الاكراه والقسر واتخاذ ذلك الأسلوب قاعدة عامة ، بل تحتم أن تجرى تعبئته الى حد كبير من المتطوعين طالما وجد العدد الكافى من الرجال القادرين والراغبين فى الانضواء فى الجيش أما أولئك الذين يكرهون على الالتحاق بالجيش فهؤلاء لا يمكن أن يصبحوا جنودا محترفين صالحين وعلى أتم أهبة واستعداد لتكريس حياتهم للخدمة العسكرية ؛ فاذا كان الأمر كذلك فانه قد أصبح لزاما أن يجزل العطاء للجيش وأن تصبح الخدمة فيه محببة ومغرية بقدر المستطاع ، ومن أجل ذلك كان عبء الانفاق على الجيش ثقيلا جدا على مالية الدولة وميزانيتها .

ومع ذلك فقد بقى الجيش فى الحقيقة خالدا الى السكون طوال حكم أغسطس المديد ، بل الى قرب نهاية عهده عندما أصبحت الخدمة العسكرية محفوفة بأشد المخاطر بسبب المشاكل العويصة التى ظهرت على ضفاف الطونة والرين — من ثورة البانونيين (Pannonians) والدالماشيين

(Dalmatians) وقيام جبهة متحدة من القبائل الجرمانية ؛ فصار ملء الصفوف فى الأورط والكتائب والأجنحة (alae) من الأمور الصعبة المنال وتعذر زيادة اعدادها . ومع ذلك فحتى فى هذه الأوقات الحرجة التى كان يعمد فيها الى التعبئة الاجبارية فان الهدوء فى الجيش كاد أن يكون شاملا ولم يحاول الجيش أن يساهم بأى نصيب فى الحياة السياسية . ولتفسير هذه الظاهرة يمكن الرجوع الى طابع تكوين الجيش فى عصر أغسطس .

فالجيش فى عصر أغسطس لم يعد قوامه من الرعاع ، والخدمة العسكرية وبخاصة فى السنين الأولى من ذلك العهد ، كانت مجزية نسبيا ولا تكتنفها المخاطر الشديدة ، وأداء فترة الخدمة على الوجه المرضى هو السبيل الى التقدم والرقى المطرد بعد بلوغ الخدمة العسكرية حدها العادى . فضباط الصف الذين لم يدركهم حظ الترقى فى سلك الجندية كان أمامهم اذا حسنت سيرتهم اما أن يبقوا فى الجيش نظير أجور أعلى أو يلتحقوا باحدى الوظائف المدنية بوصفهم مندوبين عن شخص الامبراطور ، وكان عامة الجند على ثقة من منحهم فى نهاية مدة خدمتهم قطعا من الأرض أو هبات طيبة من المال تكفيهم لاقامة المسكن اللازم وتربية أسرة لهم . وعلى ذلك أظهر كثير من الناس ، حتى من كان منهم على منزلة اجتماعية رفيعة ، رغبتهم فى الانضواء فى صفوف الجيش ؛ وفضلا عن ذلك فان الجيش لم يصبح اذ ذاك مقصورا على من ولدوا فى ايطاليا من الرجال دون غيرهم ، فايطاليا وحدها لم تصبح بعد الحروب الأهلية قادرة على أن تزود الجيش بالمدد اللازم من الأنفار . وعلى ذلك فالولايات التى اصطبغت بالصبغة الرومانية ، بل وبعض أجزاء الشرق ، سارعت الى انقاذ الموقف بتقديم العون وتزويد الجند من خير العناصر التى يمكن الاعتماد عليها والتى لم تكن فى الغالب من الطبقات الدنيا ؛ وليس جل هؤلاء من أحرار الرومان

وانما أبدى أغسطس استعداده ، كلما اقتضت الضرورة ، الى منح الحرية المدنية لكل مجند صالح ، تثبت أهليته وكفايته وقدرته على أن يصبح رومانيا قادرا على فهم اللغة اللاتينية كتابة وحديثا أو يكون على حظ من التحضر يكفيه لتلقين اللغة اللاتينية بسرعة واتقان ؛ وفى أغلب الظن كان هؤلاء الجند من سكان الولايات أكثر ولاء وأشد اخلاصا وأقدر على الركون اليهم من الايطاليين ؛ لأن الانضواء فى سلك الجندية كان معناه بالنسبة لكثير من هؤلاء تقدما عظيما فى المستوى الاجتماعى . ومن الذين يعتد بهم كذلك الفرق المساعدة التى كانت تتألف من سكان الأقاليم الذين كانوا على حظ ضئيل من الحضارة الرومانية ، أو لم تكد تصل اليهم الحضارة الأغريقية أو الرومانية ، وكان معنى الانضواء فى سلك الجندية بالنسبة لهؤلاء ضمان تمتعهم بالحرية الرومانية عقب الانتهاء من خدمتهم العسكرية وفى هذا شرف رفيع ، فلا عجب اذا كانت الأمور السياسية والأطماع السياسية فى نظر هؤلاء لا محل لها فى نطاق تفكيرهم ولا شأن لهم بها فى الواقع (٢) .

ومع ذلك فان أهم نقطة أساسية فى الموضوع هى أن ذلك الجيش كان يتألف من عناصر السكان فى أرجاء الامبراطورية بوجه عام وانه كان يمثل جميع طبقات السكان — من أعضاء السناتو الى طبقة الفرسان ، الى أحرار الرومان المنتشرين فى ايطاليا وفى الولايات ثم الى السكان المصطبغين بصبغة رومانية وهيلينية ممن كانوا مقيمين فى الولايات الغربية والشرقية (سواء أكانوا من سكان الحضر أم الريف) ويضاف الى كل هؤلاء قبائل لا تعد ولا تحصى وشعوب لم تشارك بعد فى تذوق الحضارة القديمة التى كانت من مقومات المدينة . وعلى هذا الوضع كان الجيش مرآة تنعكس فيها أمزجة السكان وطباعهم . وفضلا عن ذلك فان الرومان الأحرار كانوا قد تعلموا منذ أقدم العصور اطاعة الدولة التى كانت تتمثل

فى ذلك الوقت فى شخص أغسطس الذى كان الرئيس الشرعى لها باعتراف كل من السناتو والشعب الرومانى له بهذا الوضع ، فأصبحت لذلك طاعته واجبة على كل مواطن رومانى وفى ، بل وأكثر من هذا ، على كل حليف وكل فرد من سكان الولايات . وليس هناك أقل ريب فى أن أغسطس كان محبوبا جدا من جمهرة العامة فى مختلف أرجاء الامبراطورية ، وذلك اذا جاز لنا أن نستعمل تلك الكلمة الحديثة الدالة على المحبة لوصف شعور المهابة والرهبة المقرونة بشىء من التبجيل الدينى الذى كان يكنه الرومان نحو الحاكم الجديد ، اذ كان أغسطس فى نظرهم فى الواقع مخلوقا فوق مستوى البشر ، يفوق سائر الكائنات ؛ فهو المنقذ والمجدد وبشير السلم والجالب للخير والسعادة . وقد نستطيع أن نجد تفسيرا لانهاء الحروب الأهلية على النحو الذى نشاؤه ، وقد يكون فى وسعنا أن نسوق القول بأن الحرب قد توقفت لأن شعوب الامبراطورية الرومانية كان قد تملكهم الاعياء والضجر واستولى عليهم السخط الى حد أنهم أصبحوا لا يرغبون فى المزيد من الحرب بعد ذلك . ولكن علينا أن نعترف بأن شخصية أغسطس قد قامت بأهم دور رئيسى ؛ اذ جعلت من المستحيل أن يتكرر وقوع الحرب الأهلية كرة أخرى . بل اننا لو آمنا بأن نصيب أغسطس اقتصر على جنى الثمار التى كانت قد نضجت وأينعت فى عهد أسلافه (وهذا ما لا أدين به) فيجب ألا ننسى أن جمهرة من الشعوب الساكنة فى الامبراطورية كانت ترى صلة وثيقة بين عودة السلام وانتشار الرخاء وبين شخص أغسطس .

وفى رأيى أنه ليس هناك ظل من الشك فى أن الاصطلاح الذى أطلقه بعض العلماء الحديثين وهو « مكتب الدعاية » على وصف نشاط شعراء عصر أغسطس به خطأ بالغ . ولكن اذا أجزنا أن ڤرچيل (Vergil) وهوراس (Horace) كانا يعملان بالاتفاق مع مايقيناس (Maecenas)

وأغسطس ، وأنهما قد أخذا على عاتقيهما نشر أفكار هــذين الرجلين والدعوة الى مشروعاتهما — وهو رأى يبدو لى أنه يتسم بضيق الأفق — فان من واجبنا أن نقول بأن دعايتهما أصابت نجاحا عظيما ، فشهرتهما التى طبقت الآفاق لدى جماهير العالم الرومانى ما هى الا دليل بليغ (على صدق ما نقول) ، فلا نجاح لأية دعاية قائمة ما لم تتملك الشعور السائد عند الجماهير وتصادف هوى لديه . وعلى ذلك لا يجوز أن يخالجنا أدنى شك فى أن الأفكار الأساسية التى جاءت على لسان ڤرچيل وهوراس هى صدى للأفكار التى كان يدين بها الألوف المؤلفة من سكان الامبراطورية الرومانية الذين كانوا يشاركون هوراس فى رأيه واعتقاده (وقد يكون هذا بلا ريب فى نظر هوراس شخصيا لا يعدو مجرد نزوة شعرية) بأن أغسطس أحد الآلهة ذوى البطش والجبروت العظيم ، فهو عطـارد (Mercury) أو هـرقل (Hercules) أو أپولون (Apollo) قد تجلى على النـاس (ἐπιφανής) وأنه هو « المسيح » و « المخلص » للامبراطورية الرومانية العظيمة المقدسة .

وكانت التحف الأثرية الجميلة التى تبارى فى تشييدها السـناتو والشعب الرومانى وبعض الأفراد من أحرار الرومان تكريما لأغسطس تقوم مقام مكتب آخر للدعاية والنشر ؛ اذ أن هذه الآثار كان لها وقع بالغ فى نفوس الناس ، لا لأنها كانت جميلة فحسب ، بل لأنها حملت لهم بلغتها التصويرية الرائعة نفس المعانى التى عبر عنها الشعراء . فأدرك الناس جميعا بأن هذه الأمور جاءت مطابقة للحقيقة تمام المطابقة ؛ ولنضرب مثلا واحدا على ذلك من بين أمثلة كثيرة غيره . ذلك هو المحراب أو الهيكل الذى أقيم لعشيرة أغسطس (Gens Augusta) والذى عثر عليه حديثـا فى معبد خاص بناه مواطن رومانى فى قرطاچة ومن المحتمل أنه جاء صورة مطابقة لنظير له فى مدينة روما ، وأحد التماثيل المنحوتة على هذا الهيكل

تصور روما كالهة قوية ، وقد جلست على كومة من الأسلحة واتكأت بذراعها اليسرى على درع ، ومدت يدها اليمنى وقبضت بهـا على عمـود به درع مسـتدير (Clipeus) وهـذا الدرع هو الذى كرسه السناتو والشعب الرومانى من أجل أغسطس وكان يزين منزله على تل البلاتين وقد أحضرت الهة النصر هذا الدرع بعد أن حلقت به من السماء ووضعته فى يد الالهة روما ، ومن أمام الالهة يرى مذبح أقيم عليه قرن كبير رمز الكثرة والخـير الوفير (Cornucopiae) وعصا المشـترى (Caduceus) ومن أمامهما ترى الكرة الأرضية (Orbis terrarum) .

أليست هذه صورة صادقة ورمزا جميل التعبير للدلالة على روما فى عصر أغسطس وعلى الامبراطورية العالمية ذات الدعائم القوية التى شيدها ووطدها أغسطس ؟ وقد بقى تمثال روما رائعا فى عظمته وفخامته وأثرا خالدا ، فالحرب قد ولت وخرجت منها روما منتصرة مظفرة ولم تعد بعد ذلك فى حاجة الى حراب وأسلحة ، وان كانت هذه الأسلحة قد تنفع عمادا قويا لدعم سلطان روما ؛ قـد عاد السلم مخيما وأصبحت روما تنظر فى تيه وزهو الى دلالات امبراطوريتها العالمية ورمزها : فالأساس الذى تقوم عليه هو الولاء والاخلاص والقاعدة فى هذا البناء هى الدين الذى يرمز اليه قيام ذلك المذبح ، فهذا الدين هو الدعامة التى يقوم عليها رخـاء العالم ممثلا فى قـرن الكثرة والخـير الوفير (Cornucopiae) وعصا المشترى (Caduceus) والكرة الأرضية .

وتتكرر هذه الأفكار بعينها فى عالم النحت الكلاسيكى ، الذى جاء معبرا عن أسمى المشـاعر الرومانية فأقيم مذبح السـلم (Ara Pacis) المشيد فى روما فى ساحة الاله مارس ثم هناك بصفة خاصة مناظر الرعاة مع صـورة « أمنا الأرض » (Terra Mater) وقد أحاطت بها العناصر

الأولى ممثلة لقوى الطبيعة المبدعة ، وقد أعادها أغسطس الى نشأتها الأولى وحباها بعطفه وروح من عنده [٣] .

وان ما قيل عن تصوير مشاعر سكان الامبراطورية الرومانية بوجه عام لا يراد به أن يتضمن أن كل فرد كان يدين بنفس الأفكار ، فظهرت بالتأكيد حالات شاذة من أهمها وأبرزها أكثر طبقة السناتو ، اذ لم يكن متوقعا من أولئك الذين يدينون بمذهب العقل والتعقل ومن الابيقوريين أن ينظروا الى أغسطس على أنه اله وابن ليوليوس الذى رفع كذلك الى مصاف الآلهة ، وانما اعتبروه فردا من طبقتهم ، صادف من التوفيق أكثر مما لقوه هم أنفسهم ، على أن بعضا منهم كان يبغض أغسطس لأنه قضى على سلطان السناتو وانفرد به أما البعض الآخر فكانت تحركهم المآرب والأهواء الشخصية أو تدفعهم الغيرة والحسد والكراهية فاعتبروا أنفسهم أصحاب حق ، شأنهم شأن أغسطس فى أن يصبحوا قادة الدولة وزعماءها (principes) . وعلى ذلك كانت تحاك المؤامرات باستمرار وتدبر الدسائس لاغتيال حياة أغسطس ، ومع ذلك فلم يكن موقف طبقة السناتو بذى بال ، وفضلا عن ذلك فأكثر أعضاء السناتو ومن على شاكلتهم من رجالات تلك الطبقة قد سرهم عودة السلام مرة أخرى فتباروا لا فى اظهار الروح الجمهورى بأجلى معانيه ، بل فى شدة حرصهم على اعلان الولاء واظهار الخضوع بأساليب فيها الدناءة والاحتقار .

وان ما أظهره الجيش من مسلك ينم عن الهدوء وينعكس فيه شعور الشعب بوجه عام قد جعل من اليسير على أغسطس — على الرغم مما كان كامنا فى النظام السياسى للدولة الرومانية من تناقض — أن يمضى فى تنفيذ أعمال الانشاء دون أن يكدر صفوه اشتعال نيران النزاع الأهلى من جديد . وكان الوفاء بوعده لأحرار الرومان ليس معناه الابقاء على امتيازاتهم السياسية فحسب ، بل قبل كل شىء تجنب الافتئات على

مركزهم الاجتماعى والاقتصادى ، ثم فى الواقع العمل على تهيئة الفرص السانحة لهم بطريقة مطردة اذا ما قورنوا بطبقات الأحرار من سكان الامبراطورية ؛ وفى هذا النطاق كذلك لم يكن عمل أغسطس مقصورا على مجرد اعادة نظام قديم بال وانما تدعيم نظام قائم موطد الأركان فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للدولة الرومانية ، وكان الى حد كبير من مخلفات الحروب الأهلية .

وفى أثناء هذه الحروب لم تمح الاختلافات الموجودة بين طبقات أحرار الرومان ، فبقيت طبقة السناتو نائية بجانبها كما كانت من قبل ، وأدرك الفرسان مبلغ ما كان لهم من أهمية كبرى بالنسبة للدولة واعتبروا من لم يصل الى مثل مستواهم ومن لم يتوافر لهم مثل مواردهم مخلوقات تنقص عنهم بكثير . وفى المدن الايطالية كانت نفس هذه الطبقات على هذا الوضع . فأرستقراطية طبقة السناتو وهم أعضاء المجالس البلدية ، وبعضهم من فرسان الرومان ، كانوا يؤلفون الطبقة العليا ؛ وظهرت جماعات من أثرياء البورجوازية الى جانبهم وان كانوا أقل منهم منزلة ، بل ان بعض رجالهم ونسائهم لم يكونوا من الأحرار بحق المولد ، وكان التباين شديد الوضوح بين مختلف الجماعات فى هذه الطبقات العليا ، سواء أكان فى مدينة روما أم فى البلدان الايطالية (municipia) ؛ ففرسان الرومان الذين وفقوا فى سد الثغرة فى ذلك الحائط الذى كان يفصل بينهم وبين أرستقراطية السناتو كانوا أنفسهم معتبرين دخلاء محدثين ، وكان أعضاء السناتو والفرسان فى العاصمة يسخرون من الطابع الريفى الخشن الذى كان عليه الأعيان والوجهاء فى المدن الريفية ، وهؤلاء بدورهم كانوا ينظرون شذرا الى أغنياء المحررين وغيرهم ، وقد بقيت بمنأى من كل هؤلاء وفى عزلة تامة عنهم ، الطبقات الدنيا من السكان الذين ولدوا أحرارا وجماهير الفلاحين الأحرار وذوو الحرف من الأحرار

وأنصاف الأحرار من المزارعين والعمال الكادحين بأيديهم . وفى محيط الطبقات الدنيا كذلك كان الساكنون فى حضر المدينـة ينظرون باحتقار الى الفـلاحين أو القـرويين (pagani & rustici) . وفى خلفيـة تلك الصورة تأتى جموع هائلة من العبيد — وبعضهم من الخدم وذوى الحرف والزراعيين والمشتغلين بأعمال التعدين والبحارة ونحو ذلك . ولسنا نعرض هنا للحالة القائمة فى الولايات وانما نتناول التقسيم الاجتماعى بين أحرار المواطنين الرومان فى ايطاليا .

ولم يدر بخلد أغسطس استحداث أى تغيير فى هذه الأوضاع وانما قبلها على أنها قضية مسلم بها ، وكل ما فعله هو شحذ الهمم وتوسيع الهوة بين الطبقات وتخصيص دور لكل واحدة منها فى حياة الدولة . واذا كان قصد أحرار الرومان أن يصيروا سادة العالم وحكامه فعلى كل هيئة منهم أن تضطلع بالاعباء والتكاليف الخاصة بها فى سبيل أداء تلك المهمة الصعبة ، ألا وهى حكم تلك الامبراطورية العالمية . وعمل أغسطس فى هذا الشأن معروف ومشهور ولا يحتاج الى كبير عناء فى وصفه باسهاب. فطبقة السناتو تقدم للدولة أعضاء المجلس السامى فى الامبراطورية ، ألا وهو السناتو والموظفون فى مدينة روما وحكام الولايات (سواء أكانوا معينين من قبل السناتو أم ممثلين للامبراطور فى الولايات التى كانت تخضع لسلطانه) ، والقواد ورهط كبير من ضباط الجيش المؤلف من أحرار الرومان . أما طبقة الفرسان فكانت تقدم قضاة المحاكم الرومانية وضباط القـوات المساعدة والى حـد ما ضباط الأورط الرومانية ، وأخيرا جماعة استمر نموها وتقدمها باطراد من الموظفين المدنيين الذين انضووا فى خدمة الأباطرة شخصيا . وكان على المدن الايطالية — فيما عدا طبقة الارستقراطية العالية فيها وهى التى كانت تنتمى فى الغالب الى طبقة الفرسان — أن تمـد الدولة بخيار الجنـد اللازمين للحـرس

الامبراطورى والفرق الرومانية وضباط الصف اللازمين للحرس وللأورط وللقوات المساعدة.أما العتقاء فكانوا يعملون بحارة فى الأسطول وفى مطافىء العاصمة ، وأخيرا كانت طبقة راقية من العبيد والموالى ممن يتبعون الامبراطور ، تعمل فى الادارات والدواوين الملحقة بالبيت الامبراطورى الذى كانت له أفرع منتشرة فى جميع أنحاء الامبراطورية .

وليس أمر التمييز بين مختلف الطبقات بجديد ، وانما كان نظاما أملته العادات المرعية والتقاليد السائدة فى أواخر عهد الجمهورية وكانت المظاهر والعلامات المميزة ذات طابع مادى بحت ، وكان لحق المولد الى حد ما شأن فى وضع الفواصل والفوارق والتمييز بينها . ولكن الاعتبار الأساسى كان عماده الرفاهية المادية ومقدار الثروة ، صغر أم كبر ، ونصابا عقاريا ذا احصاء وقدر معلوم . وبالطبع لم يتطلب آحد اشتراط مستوى معين من التعليم وانما كانهذا أمرا مسلما به كأحد الاشتراطات والعلامات المميزة للطبقات العليا بوجه عام ، والشرط الوحيد الذى كانت تتطلبه الدولة من حيث التعليم والتدريب من شباب الارستقراطية ومن ولدوا أحرارا فى العاصمة والمدن الايطالية ، هو قسط معين من التربية البدنية والتدريب العسكرى . ولما كان الترقى من طبقة لأخرى فى أيدى الامبراطور فى الواقع فان الولاء لشخصه كان أمرا لازما وشرطا أساسيا لأقصى حد (٤) .

تلك كانت الأوضاع فى ايطاليا ، انها كانت تنطوى على توطيد الأحوال السائدة فى فترة الحروب الأهلية وصياغة النظم والعمل على استقرارها . ولقد نهج أغسطس هذا النهج بعينه فيما يتعلق بالولايات فلم يستحدث أمرا ذا بال من أجل منح الولايات أى قسط فى ادارة الدولة

فبقيت تلك الولايات على حالها الأولى بمثابة ضياع للشعب الرومانى ؛ فكان لا يزال من العسير كما كانت الحال من قبل ، على سكان الولايات الحصول على الجنسية الرومانية ، وكانت سياسة أغسطس فى هذا الصدد رد فعل اذا ما قرنت بسياسة پمپى وقيصر وأنطونيوس . أما ما تم من أجل ترقية المدن الاقليمية والنهوض بها حتى تصل الى مستوى أعلى وتصبح ذات منزلة مساوية للبلديات فالجهد فيه قليل جـدا كذلك ، والمعنى المطلوب هو أن تصبح حقوقها مماثلة لحقوق المدن الايطالية وحقوق المدن الاقليمية التى حصلت من قبل على الحقوق الايطالية سواء بسواء . والاستثناء الوحيد الملاحظ ينصب على معاملة روما لأقدم ولاية فى الامبراطورية الرومانية وهى صقلية التى كانت من الناحية العملية جزءا من ايطاليا ، مثلها كمثل وادى نهر البو فاتسم التقدم فى هذا الاتجاه بأنه كان بطىء الخطى لحد ما فى عصر أغسطس عقب انتهاء الحـروب الأهلية ، أما ما حققه فقد تم أغلبه فى أثناء الاضطرابات والفوضى التى صحبت الحروب الأهلية ثم عقب نهايتها مباشرة (٥).

ومع ذلك فان الولايات — وبخاصة ولايات الشرق — كانت أولى البلاد التى حظيت بالنعم التى أسبغها العهد الجديد ، فان أغسطس دون أن يعمد الى احداث أى تغيير فى النظم القائمة فى ادارة الأقاليم ، قد وفق الى ادخال تحسينات جوهرية فى نظام حكومة تلك الولايات التى استمر يحكمها أعضاء طبقة السناتو ، اما باسم الامبراطور أو تحت اشرافه الدائم. ولكن حكم طبقة السناتو بوصفهم طبقة خاصة قد انتهى زمانه وأصبحت أساليب الحكومة فى آن واحد أكثر عدالة وأقرب الى الانسانية من ذى قبل . وباستقرار السلم انتهى عهد اكراه الناس على تقديم المغارم والهبات، وانتهى كذلك عهد سيطرة المرابين من الرومان ، واستقر نظام الضرائب المباشرة شيئا فشيئا ، وباستقرار هذا النظام ورسوخ أقدامه لم يعد هناك

مجال لاغراء الجمعيات المؤلفة من جباة الضرائب من الرومان واستهوائها فأخذت هذه الجمعيات تتوارى عن الأنظار وحل محلها شيئا فشيئا مندوبون عن الحكومة ، كانوا على اتصال مباشر بدافعى الضرائب(وهذا على سبيل المثال كان مرعيا فى حالة الضرائب الجديدة التى كان يدفعها أحرار الرومان وحدهم وهى التى استحدثها أغسطس) . ولم يجر تخفيض فى الضرائب بل انها زيدت فعلا على بعض طبقات الشعب ولكن ابتداع نظام أفضل فى طريقة جبايتها كان له دلالته وأهميته الكبرى بالنسبة للولايات [٦]؛ وفضلا عن ذلك فان سكان هذه الولايات كانوا اذ ذاك واثقين تمام الوثوق أنهم اذا ما تقدموا بشكاية للامبراطور أو للسناتو عن طريق ممثلى المدن الذين كان ينتظم جمعهم فى كل عام للاحتفاء بعيد خاص بعبادة الامبراطور ، فانهم لا شك يجدون آذانا مصغية أكثر من ذى قبل ؛ وفى حالة الاختلاف والاحتكاك بالحاكم ، فانه كان فى وسع المجالس الاقليمية دائما أن ترفع الأمر الى الامبراطور نفسه ؛ وهناك أمر على جانب غير قليل من الأهمية وهو أن سكان الأقاليم كانوا يدركون تماما أن كل ما كان يجرى فى الولايات كان يصل الى سمع الامبراطور عن طريق مندوبيه الشخصيين ومراقبيه الذين كانوا يديرون شئونه المالية الخاصة فى الولايات التابعة للسناتو ويجبون الضرائب فى الولايات الأخرى [٧] .

وكانت المدن فى الولايات الشرقية (فيما عدا مصر) تتمتع بمثل الاستقلال الذاتى الذى كانت تتمتع به من قبل فى تصريف شئونها الداخلية ، ولعلها أصبحت أكثر استقلالا عما كانت عليه من قبل ، ولم يحاول أغسطس استحداث أى تغيير فى الأوضاع الاجتماعية القائمة فى هذه الولايات التى كان يتألف أكثرها من مجموعات من المدن الاغريقية أو المتأغرفة ؛ وكانت السلطة الادارية فى تلك المدن ، متجمعة فى أيدى

موظفين سنويين ومجلس الشورى (βουλή) ، هى خير وسيلة للاتصال بجمهرة السكان حتى ان أية محاولة لتغيير هذا النظام كانت تنطوى على حمق ومغامرة لما فيها من انحراف عن مجرى التطور الطبعى

وفى عصر أغسطس لم تحلم مدن الشرق الاغريقى بامكان استعادة حريتها القديمة التى كانت تتمتع بها المدينة الدولة ، وقد أذعنت هذه المدن ودانت للأمر الواقع ؛ وهو أن حريتها السياسية قد ولت الى غير رجعة ،فابتهجت واستبشرت باستعادة حكومتها الذاتيةفى تصريف شئونها المحلية ؛ أما الحكومة الرومانية فكانت تروم من جانبها أن يسود الهدوء والنظام فى المدن فعهد الثورات الاجتماعية والسياسية قد ولى ، وأفضل وسيلة لضمان الاستقرار فى الشئون الداخلية فى تلك المدن هى ترك مقاليد الحكم فى أيدى أكثر المواطنين الأحرار ثراء فيها وكانت السياسة التقليدية التى جرت عليها روما منذ ظهورها على المسرح السياسى فى الشرق تقوم على حماية هذه الطبقة الاجتماعية ، ونحت سياسة أغسطس على هذا النحو أيضا .

والمظهر الوحيد الجديد — ان صح أن فى هذا جدة — مما نلحظة فى سياسة أغسطس نحو الولايات الشرقية هو فى تلك القوة الدافعة من جديد لتأييد الحركة التى كان قد بدأها بعض الحكام الهيلينستيينوالتى كانت ترمىالىاجراء تغيير شامل وعاجل فىتلك البقاع غير العامرة بالحضر الى دويلات من المدن علىالنحو المألوف ؛ وقد حذا أغسطس حذو پمپى وقيصر وأنطونيوس دون أى انحراف فى جميع أرجاء الشرق . وكان فى هذا المسلك على النقيض منالسياسة التىاختطها السناتو ، فأنشأ دويلات جديدة من المدن ، أقامها على أنقاض قرى ودساكر وأراض تابعة للمعابد. وبذا أصبح مستقبل الامبراطورية الرومانية أن تصير دولة قوامها مدن متمتعة بالحكم الذاتى (٨) .

وكانت مصر هى الاستثناء الوحيد من تلك القاعدة ؛ فهى بلد له نظام خالد فريد ، يختلف كل الاختلاف ويبعد كل البعد عن نظام المدينة الدولة ، المألوف عند اليونان [٩] .

ولقد طبق أغسطس المبدأ الذى انطوت عليه هذه السياسة بعينها على الغرب — من بلاد الغال وأسبانيا وأفريقيا ، فما كان له أن يقنع بتأسيس مستعمرات جديدة من أحرار الرومان وانما سعى الى تطبيق حياة الحضر على النظام القبلى الذى كان سائدا بين الشعوب الكلتية فى بلاد الغال وأسبانيا وعول على احيائه وتشجيعه فيما كان من قبل الدولة القرطاچينية وأصبح أفريقيا . وليس هنا مجال تفصيل هذا الموضوع ومعالجته باسهاب ؛ فأهمية اتباع سياسة الحضر ومراعاتهـا فى مناحى الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالنسبة لمستقبل الولايات الغربية تبدو واضحة جلية لكل قارىء ؛ ففى المدن الجديدة كانت الطبقة المتزعمة فيها هى بالطبع جماعة الأثرياء من المواطنين الأحرار الذين كانوا شـديدى الاخلاص فى تأييد نظام العهد الرومانى[١٠] .

وأهم ما ترتب على انتهاج هذه السياسة أن بدأ تغيير كاد أن يكون شاملا فى المظهر الخارجى لممالك عديدة ، أما فى آسيا الصغرى وسوريا فان التغيير كان ملحوظا بدرجة أقل لأنه فىهذه البلاد (كما ألمحنا من قبل) كانت قد بدأت عملية تحويل القبائل والقرى وأراضى المعابد الى مناطق حضرية منذ عهد الاسكندر الأكبر بل ومن قبل ذلك ، ولكن فىالولايات الغربية كانت الحال تدعو الى الدهشة والعجب الشديد فالبلدان الكلتية على قمم التلال والجبال ثم المعاقل الحصينة ومحلات الأسواق قد زالت، وآثرت الأرستقراطية الحاكمة بين القبائل الكلتية أن تستقر فى السهول على مقربة من الأنهر العظيمة فى فرنسا وفى أسبانيا حيث ابتنت لها المساكن

وشيدت المبانى العامة على النحو المعتاد ، وجذبت مراكز الحياة الجديدة التجار وذوى الحرف والبحارة اليها . وهكذا نشأت المدينة الحقة . أما فى أفريقيا فان مدينة قرطاجة العظيمة قد أعيد بناؤها وبدأت تدب فيها الحياة ويسودها الرخاء . أما الجماعات الفينيقية القديمة تجاه الشاطىء فقد اختطت لها حياة جديدة وكانت العشائر الخليطة من القرطاجيين وأهل البربر ، الساكنة فى سهول أفريقيا ونوميديا الخصيبة ، والتى كان بعضها يأوى جماعات من المهاجرين الرومان ، قد بدأت تفيق من النتائج الوخيمة للحروب الأهلية وتستعيد نشاطها الاقتصادى فتكونت من جديد مجموعات من المساكن فى الجنوب والشرق والغرب فى ظل حماية جند روما ثم ما لبثت هذه أن اتخذت أشكال مدن منتظمة . وفى أفريقيا — شأنها شأن غيرها من ضفاف الرين والطونة وبلاد أسبانيا — نشأت مساكن كثيرة كان يطلق عليها أكواخ (canabae) حول القلاع التى احتلتها أورط الجند والقوات المساعدة وكان مصيرها أن تكون نواة لمدن فيما بعد ، ولقد ضاعف الجند المسرحون فى عدد سكان هذه المهاجر والمحلات أو جرى منحهم أراضى استقروا فيها كجماعات وبنوا عليها مدينة .

وهكذا تحولت الامبراطورية الرومانية شيئا فشيئا بفضل الجهود الواعية التى كان يبذلها حاكمها ، الى مجموعة من دول المدن ، وقد برز أغسطس للعالم فى ثوب الزعيم ، لا على أحرار الرومان الساكنين فى روما وايطاليا والولايات وحدهم ، وانما كذلك على كل العناصر التى تسكن المدن ، أو بالأحرى المتحضرة فى الامبراطورية ؛ فكان يمثل الزعيم الواثق من تأييدهم ، وقد جاء التعبير عن هذا المعنى بطريقة جازمة فى تأليف الحرس الامبراطورى الرومانى وتكوين أورط الجيش فى الامبراطورية الرومانية ؛ فكانت هذه وتلك تمثل كلا من أحرار الرومان

وســكان الحضر فى الامبراطورية ، ولو أن العنصر الأول كان بالطبع صاحب الغلبة . أما العناصر غير المتحضرة من القبائل والقرى الملحقة بالمدن فقد خصص لها دور ثانوى فى حياة الامبراطورية فكان عليها أن تكد وتكدح وأن تدين بالطاعة وان لم تشعر بالحرية على النحو الذى كانت تتضمنه هذه الكلمة من معنى قديم .

ولننتقل الآن الى سياسة أغسطس الاقتصادية . ان جهوده الأساسية كانت تدور حول الوفاء بعهده من اعادة السلم والطمأنينة ، وقد صادف توفيقا لا بأس به فى هذا الشأن ولكن يجب ألا يعزب عن بالنا أنه من وراء أغسطس كان الماضى الرومانى حافلا بالتقاليد الموروثة ، وأنه كان يحمل فى طياته أعمالا مجيدة وفتوحا باهرة وان صدور الأغلبية من أحرار الرومان كانت تجيش بالآمال العريضة — انهم كانوا يتطلعون الى السلم، على أن يكون سلما مصحوبا بالكرامة ومعنى هــذا بالنســبة للرومان الاستمرار فى سياسة الفتح والتوسع فى ضم الأملاك ، كما لا يجب أن ننسى أن أغسطس نفسه كان من رجال الارستقراطية الرومانية وان هذا بالنسبة له ولقادة الرأى فى روما كان معناه أن المجد العسكرى وأكاليل الغار نتيجة الانتصارات الحربية هى أحب الأعمال الى النفس البشرية ؛ وفضلا عن ذلك فان صرح الامبراطورية الرومانية لم يكن قد اكتمل بناؤه بعد ، فأغسطس هو ربيب قيصر وابنه بالتبنى والناس جميعا على علم بأن قيصر كان له مأربان رئيسيان عمل على تحقيقهما ، وهما توطيد أركان السيطرة الرومانية فى الشمال والشمال الشرقى وانقاذ سمعة الشرف الرومانى الذى كان قد تلطخ الى حد بعيد فى الشرق والجنوب الشرقى بهزيمة كراسوس ، أما الانتصارات التى كسبها أنطونيوس فكانت غير حاسمة وتحمل فى طياتها الهزيمة .

ويجب أن نقتصر على بضع كلمات فى معالجة سياسة أغسطس الخارجية ، فعهده لم يعرف الراحة والهدوء ، اذ لم يصبح السبيل الى ضمان السلم للامبراطورية الرومانية هو انتهاج سياسة المقاومة السلبية وانما استلزم هذا اتباع سياسة تنطوى على بذل جهود حربية طويلة ومضنية ، فالمشكلة الأساسية كانت تتطلب ايجاد حدود معلومة تضمن للامبراطورية الاستقرار والاطمئنان وبذلك يصبح دوام السلم أمرا يسيرا (١١) . وبفضل جهود أغسطس نفسه ومعاونة صديقه ورفيقه أجريپا (Agrippa) وربيبيه تيبريوس ودروسوس ، أمكن تحقيق السلم الشامل لأقاليم الألب الجبلية وبلاد الغال ثم أسبانيا . وقد أرجىء بالطبع غزو بريطانيا وانحصرت الجهود بشكل أجدى فى ايجاد حل لعقدة مستحكمة وهى تدعيم حدود الامبراطورية فى الشمال والشمال الشرقى على ضفاف الرين والطونة ولم يتحقق من هذه المهمة سوى جزء واحد وهو نشر ألوية السلم فى الأراضى الواقعة جنوبى الطونة ، وتم ذلك بعد كفاح مضن أريقت فيه الدماء ضد جماعة الپانونيين (Pannonians) والدالماشيين (Dalmatians) . أما الشق الثانى من هذا البرنامج وهو امتداد الحدود الرومانية حتى نهر الالب (Elbe) فلم تكلل الجهود فيه بالنجاح ، فكانت هزيمة ڤاروس (Varus) فى ألمانيا فاجعة ولكنها لم تكن قاضية بخيبة الأمل التام ، وأكرهت أغسطس على التخلى عن فكرة ضم ألمانيا الى الولايات التى طبعت بالطابع الرومانى — على أننا يجب أن نذكر أن تلك الكارثة وقعت فى النصف الثانى من حكم أغسطس حينما كانت قد تقدمت به السن . أما الخطوة الحاسمة فى تقرير مصير العلاقات بين روما وألمانيا فلم يتخذها أغسطس وانما تمت فى عهد ربيبه وخليفته تيبريوس.

ولم تبذل أى جهود حربية ذات بال فى ميادين الشرق من أجل الانتقام ومسح الخزى والعار الذى حل بالرومان بسبب الهزيمة التى

أنزلها البـارثيـون (Parthians) بكراسوس ؛ ولكى يرضى الرأى العام ويطمئن خاطره خضع البارثيون تحت تأثير التهديد باحتمال قيام حرب جدية ضدهم فأذعنوا وقبلوا أن يعيدوا الى روما تلك الأعلام التى كانوا قد استولوا عليها . وقد كان هذا هو الهدف بعينه من وراء الحملة التى شنها حفيد أغسطس وهوجايوس قيصر (Gaius Caesar) ضد أرمينيا . والعوامل الأساسية فى التوسع وتدعيم النفوذ الرومانى وتوطيده فى الشرق كان قوامها الدبلوماسية والتجارة ، ولكنها كانت مؤيدة بقوات حربية عظيمة ونشاط حربى مضن . وفى مصر وبلاد العرب وشمال أفريقيا اتبعت هذه السياسة بعينها ؛ ولم تكلل حمـلة أيليوس جالّوس (Aelius Gallus) على بلاد العـرب بالنجـاح التـام ولكنها على أى حال ضمنت للتجار الرومان الحصول على مرافىء آمنة ، وهم فى رحلتهم من مصر الى موانى الهند [١٢] .

وبهذه الوسائل أصبح أمرا محققا أن يرفرف السلم الدائم على أرجاء الامبراطورية الرومانية ؛ وكان المذبح الفخم الذى أقيم رمزا للسـلم الأغسطى (Pax Augusta) فى ساحة الاله مارس (Campus Martius) للدلالة على تلك الحقيقة ، وهى أن السلم كانت له الغلبة على الحرب حتى أصبح السلم من المعالم الظاهرة فى حكم أغسطس ؛ وقد رمز الى نفس هذه الفكرة بتكرار غلق أبواب معبد يانوس (Janus) (اله البداية) وباقامة الألعاب احتفاء « بالعهد الذهبى الجديد » الذى أشرق بظهور أغسطس على العالم المتحضر ، وعندئذ آن لروما فى صورة الهة أن تجلس على أكمة من الأسلحة التى تصون السلم وتضمن التقدم والفـلاح ، والعماد فى كل ذلك على الورع والتقوى .

وليس بنا من حاجة الى الاصرار على ذكر الحقيقة الآتية ، وهى أن

سواد السلم واستقرار أحواله فى البر والبحر كان له أهميته القصوى بالنسبة للحياة الاقتصادية فى الامبراطورية ؛ وبعد انقضاء قرون توالت فيها الحروب دون انقطاع تمتع العالم المتحضر لأول مرة بسلم حقيقى . وأخيرا تحقق الحلم الذى كان يجول بخاطر القادة من مفكرى العالم القديم جيلا بعد جيل . فلا عجب أن كانت بوادر الانتعاش المثمرة قد بدت على الحياة الاقتصادية فى جميع أرجاء الامبراطورية طولا وعرضا . فعادت أزهى أيام العصر الهيلينستى الى الظهور ، مع فارق واحد وهو أنه بدلا من وجود نظراء وأنداد عديدين يسود بينهم التنافس الدائم ويتمثل هذا فى دول مستقلة عديدة قد اتخذت من مواردها الاقتصادية سبيلا لتحقيق أغراضها السياسية ، فان العالم المتحضر قاطبة قد أصبح اذ ذاك دولة واحدة ضخمة ، تضم كل الممالك التى ظهرت فى العالم الهيلينستى . وتوارت عن الأبصار الدول المتنافسة وأصبحت المنافسة مقصورة على المجال الاقتصادى البحت بين رجال الأعمال وبقيت هذه الروح سائدة لا تعوقها ولا تؤثر فيها أية اعتبارات سياسية .

ولم تتدخل الحكومة الرومانية ولا الامبراطور فى هذه المنافسة وانما تركت الحياة الاقتصادية وشأنها من حيث تطورها وخضوعها لمؤثرات العوامل الطبيعية . والعائق الوحيد فى سبيل التجارة فى داخل الامبراطورية هو تلك المكوس التى كانت تجبى على حدود كل ولاية من الولايات الرومانية وان لم تكن هذه المكوس باهظة . ولسنا نعرف مبلغ ثقل عبء الضرائب التى فرضتها الحكومة على الصناعة والزراعة . ولكن مقدار الضرائب التى كان يدفعها أحرار الرومان على التركات مثلا وعلى عواتق العبيد (وتبلغ فى كلا الحالين ٥٪) — والأولى كانت ضريبة مستحدثة والثانية أعاد أغسطس تنظيمها — لا يمكن أن نسميه باهظا . ويجب أن نأخذ فى الاعتبار بالطبع أنه — فيما عدا الضرائب التى كانت تجبيها

الحكومة — كانت هناك ضرائب أخرى تحصلها السلطات البلدية وهى على أنواع مختلفة ، وان كان مبلغ ما نعرفه عنها لا يعدو قدرا ضئيلا . ولكن ما صادفته المدن من التقدم والنجاح المطردين فى كل من ايطاليا والولايات يدل على أن هذه الضرائب لم يكن وطؤها ثقيلا لدرجة أن تصبح عائقا حقيقيا فى سبيل تقدم الجهود الفردية والنشاط الاقتصادى. وفيما عدا الضرائب يتعذر أن نهتدى الى أى اجراء له طابع اقتصادى تكون الحكومة قد عمدت الى اتخاذه . وان عهد أغسطس ومن أتى بعده مباشرة من خلفائه لهو عهد سادت فيه حرية تكاد تكون مطلقة فيما يختص بالتجارة ؛ وقد تهيأت للأفراد فيه الفرص السانحة ، يعملون فيها بمحض اختيارهم وقوة ابتكارهم . ولم تتبع روما ، لا فى عهد الجمهورية ولا فى العهد الذى كانت فيه تحت ارشاد أغسطس وخلفائه ، تلك السياسة التى انتهجتها بعض الدول الهيلينستية ، ومصر بوجه خاص ، وهى سياسة تضمنت تأميم الحكومة لشئون التجارة والصناعة وجعلهما من المسائل القومية التى أصبحت شبه احتكار فى أيدى الدولة ممثلة فى شخص الملك . فأطلق أغسطس كل شىء وترك للأفراد حرية تدبير تلك الأمور ، بل انه فى مصر ، وهى البلد التقليدى الذى كان يسود فيه نظام اقتضى اشراف الدولة على الموارد العامة بما يستلزم ذلك من تعقيد اضطر الحكومة الى التدخل فى كل أوجه النشاط والحياة الاقتصادية — ذلك البلد الذى احتفظ به أغسطس على أنه ولاية تخضع لاشرافه الشخصى عقب انتصاره على كليوباترة وانطونيوس — استلزم الأمر استحداث بعض التغييرات فيه ؛ والمأرب الأساسى من وراء ذلك هو التخفيف من العبء الذى فرضته الحكومة لضمان اشرافها . وعلى ذلك فمن قبيل المثال عمد أغسطس الى تشجيع الملكية العقارية الخاصة فى مصر واسباغ حمايته على تقدمها فقامت الحكومة بتقديم الضمانات لهذه الملكية مثلما

فعلت فى الولايات الأخرى ، وبذلك ظهرت فى مصر ضياع عديدة ازدهرت فيها الحياة وكانت تتفاوت فى مساحتها من حيث الكبر والصغر وتخص أفرادا عاديين كان من بينهم المتقاعدون من جند الرومان بوجه خاص(١٣).

وفى نطاق الحياة الاقتصادية فى الامبراطورية يبـدو أن السيطرة بقيت فى أيدى الرأسماليين الكبار الذين كانوا ينتمون الى عصر الجمهورية، وكان بعض هؤلاء من طبقة أعضاء السناتو بينما البعض الآخر من طبقة الفرسان . ولكن عددا كبيرا من هؤلاء الرأسماليين كان من عتقاء العبيد السابقين . والامبراطور هو أحد هؤلاء الرأسماليين وأعظمهم شأنا على الاطلاق ؛ وكان أغسطس على النقيض من ملوك العصر الهيلينستى الذين تصوروا أملاك الدولة وثروتها على أنها من أملاكهم وثروتهم الخاصة ، وادعوا لأنفسهم حق تملك جميع أراضيها ومواردها ؛ ومثله فى ذلك مثل غيره من أقطاب الماليين فى ذلك العصر فكان يدبر أمر ثروته الخاصة الطائلة بوساطة عبيده ومواليه ولكنه ، على الرغم مما كان يجيش فى صدره من رغبة خاصة ، لم يستطع الفصل تماما بين ثروته الخاصة وبين تلك الأموال والثروات التى كان يملكها بوصفة أكبر موظف فى الجمهورية الرومانية وواليا على أقاليم عديدة وحاكما على مصر وخليفة عليها بعد البطالمة مباشرة ، وما لبث أن أصبحت شئون بيته الكبير وجيبه الخاص (arca) مختلطة أشـد اختلاط بخـزانة الدولة (fiscus) التى كان له الاشراف عليها بوصفه موظفا عموميا ؛ وكان من الأجدى والأيسر أن يجرى تدبير شئون الخزانتين على وتيرة واحدة وأن يشرف عليهما نفس الأشـخاص . وعلى ذلك كان الأمر والنهى فى أيدى العبيـد فى بيت الامبراطور وكاتمى أسراره الخصوصيين وبخاصة « رئيس حساباته » (a rationibus) فآل لكل هؤلاء الاشراف على الشئون المالية الخاصة بالبيت الامبراطورى ، وكذلك مالية مصر والولايات الأخرى .

وفى نظر السناتو كانت أيسر السبل للخلاص من تلك الالتزامات التى اكتنفتها الادارة المالية للولايات التابعة للامبراطور — حيث كان يعسكر الجـزء الأكبر من الجيش الرومانى — هى نقـل تلك الادارة الى الامبراطور ، على أن تكون حريته مكفولة فى جمع الضرائب والتصرف فى المتحصل منها حسبما يشاء ، واذا حدث ما كان فى الحسبان من أن ولايات كالغال مع تخوم الرين وولايات الطونة وما اليها من تخوم ثم سوريا وتخوم الفرات ، تزيد نفقاتها كثيرا على ما كان يجبى منها ، فان ادارتها المالية ، بما يستلزم ذلك من دفع رواتب الجند ، تحملت عجزا دائما كان يغطى من الجيب الخاص التابع للامبراطور .

وعلى ذلك حدث — بحكم الظروف القاهرة وبفضل الثروة الشخصية الطائلة التى تكدست بين يدى الامبراطور فى أثناء الحروب الأهلية — أن نشأت أحوال فى الامبراطورية الرومانية شديدة الشبه بتلك التى سادت فى الملكيات الهيلينستية . وكلما توسع الامبراطور فى الانفاق على الأغراض العامة — من اطعام الفقراء والمحرومين من عامة الرومان وتهيئة المسرات لهم ، ومن تحويل روما الى عاصمة العالم ، ومن تنظيم مجرى التيبر ، ومن بناء طرق حربية جديدة فى طول الامبراطورية وعرضها — كلما أصبح من العسير التمييز بين الموارد الخاصة وبين الدخل العـام للدولة . وليس معنى هذا أن مصالح الدولة استنزفت ثروة الامبراطور وانما تضمن هذا حق الامبراطور فى التصرف فى موارد الدولة بنفس الطريقة التى يتصرف بها فى موارده الخاصة . ولقـد ورث تيبريوس وخلفاؤه هذا الوضع من الأمور حتى أصبح أولئك الأباطرة وقد ألفوا على مضى الزمان اعتبار موارد الدولة كما لو كانت دخلا خاصا ولهم حق استخدامها فى تحقيق الأغراض التى يريدونها (١٤) .

ولم يكن الامبراطور وحده المالك لثروة خاصة طائلة ، ولسنا على علم بعدد الأسرات الارستقراطية القديمة التى حافظت على ثروتها بعد ذلك الهرج والاضطراب الذى أحدثته الحروب الأهلية . وحقيقة الأمر أن أغسطس كثيرا ما عمد الى الاسراع بانقاذ بيوتات أرستقراطية كان الفقر قد عضها بنابه ، وفى هذا دليل على أن أسرا كثيرة من هذه البيوتات حل بها فقر مدقع وأصبحت تعتمد كلية على ما يسبغه عليها الامبراطور من عطف واحسان ، ومع ذلك فاننا نعرف أن أغنى الناس من الأرستقراطية فى روما كانت تربطهم بالامبراطور أغسطس أشد الأواصر ، ومنهم أعضاء أسرته وأصدقاؤه الشخصيون مثل أجريپا ومايقيناس . ويمكننا أن نفترض بحق أن عشرات من الرجال ذوى منزلة أقل ، ممن بذلوا لأغسطس بعض العون والتأييد كانوا من أصحاب الثروة الطائلة والجاه العريض ، ويرجع الفضل فى كل هذا الى العلاقات الوثيقة التى كانت تربطهم بالامبراطور (١٥) .

ولكن هؤلاء الرجال ، مع أنهم قد يتخذون أمثلة ، لا يمثلون الطراز الوثاب ممن برزوا فى الحياة الاقتصادية فى عصر أغسطس ولم يكن عدد المحسوبين والمقربين لدى الامبراطور كبيرا جدا ، ولعل هؤلاء كان عمادهم فى حياتهم على مواردهم الخاصة غالبا أو أنهم اذا كانوا قد ضاعفوا من ثروتهم فانما يكونون قد وفقوا الى ذلك بانتهاج نفس السبيل الذى اتبعته طبقة رجال الأعمال ذوى النشاط والانتاج المطرد ، وهم الذين كانوا سباقين الى الاستفادة من عودة السلم والنظام . ولم يقتصر النشاط الذى أظهره رجال الأعمال هؤلاء على مدينة روما ، فأغلبهم اتخذوا فى الحقيقة لهم مقاما ، لا فى روما بل فى المدن الايطالية وفى الولايات — أولئك هم طبقة البورچوازية الحضرية التى سبق أن أشرنا اليها فى الفصل الأول والتى نشأت شيئا فشيئا فى القرنين الثانى والأول

قبل الميلاد فى ايطاليا وفى الغرب . ولم تكن الحروب الأهلية قد أصابت منها مثلما فعلت مع الأرستقراطية العليا فى روما — أى طبقة السناتو والقسم العلوى من طبقة الفرسان — وبمجرد عودة السلم والنظام الى نصابه استأنف أولئك الرجال نشاطهم على نطاق واسع فى ميادين الأعمال وصادف أغلبهم بلا ريب نجاحا وتوفيقا فى هذا المضمار .

ولنضرب مثلا دالا على هذه الطبقة برجل ثرى متقاعد من رجال الأعمال من سكان احدى المدن الايطالية فى الجنوب وهو العتيق « تريمالخيو » (Trimalchio) ولقد صوره پترونيوس (*) ووصف لنا حالته بوضوح تام ؛ وبالتأكيد كانت الفترة التى أبدى فيها نشاطا جما من حياته تقع فى عصر أغسطس وقد أدركه پترونيوس بعد أن كان قد بلغ من الكبر عتيا ، وكانت مهمته فى الحياة قد أوشكت على التمام ؛ انه بدأ حياته عبدا عزيزا على سيده ثم ورث عنه ثروة طائلة ، استثمرها فى مشروعات تجارية وبخاصة فى تجارة رابحة هى تجارة النبيذ ؛ وفى آخريات حياته قضى البقية الباقية منها فى قصره الجميل فى احدى مدن كمپانيا ،

(*) پترونيوس هذا (Petronius) هو أحد رفاق نيرون المختارين وكانت منزلته بمثابة المدير العام المسئول عن تنظيم المسرات الامبراطورية (Elegantiae arbiter) ، وقد كان النفوذ الذى حصل عليه پترونيوس مثار حسد تيجلينوس (Tigellinus) ذى الحول والطول فى سنة ٦٦ م . وقد أنهى پترونيوس حياته بقطع شريانه عندما اتهم بالخيانة العظمى (أنظر المؤرخ تاسيتوس فى حولياته (XVI., 18, 19) ، وقيل أن پترونيوس أرسل فى ساعته الأخيرة خطابا الى الامبراطور يعيره فيه بانهماكه وافراطه الوحشى، وليس من المؤكد اذا كان پترونيوس هو مؤلف الرواية التى وصلت أجزاء منها الينا وعنوانها : (Petronii Arbitri Satyricon) وهى نوع من الروايات الهزلية، فيها خلاعة فى بعض أجزائها ولكنها فى الغالب شديدة فى روح التهكم والسخرية ، وأكمل قطعة وصلت الينا هى القطعة المشهورة وعنوانها مائدة تريمالخيو (Cena Trimalchionis) (المترجم) .

يعيش على دخله من أملاكه الواسعة ومن الأرباح الناجمة من أمواله التى كان يقرضها بضمانات وثيقة (١٦) . فكان تريمالخيو أنموذج عصره وعنوان زمانه ؛ لقد عاش فى كمپانيا وليس فى روما ، وهذه ظاهرة تميز بها ذلك العصر . وسوف نرى أن كمپانيا كانت اذ ذاك تفضل روما بكثير فى أنها خير مجال لجمع ثروة طائلة وانه لجدير بالتنويه كذلك أن عمله الرئيسى كان منصرفا أول الأمر الى التجارة ثم تلا ذلك الزراعة وأعمال المصارف . ويحتمل أنه كان رمزا يمثل الموالى ولو أنى أميل الى الظن أن پترونيوس اختار شخصا من طبقة الموالى بالذات كيما تتاح له الفرصة ليسخر من طبقة الأغنياء الجدد ما شاء له أن يفعل ؛ ولا أشك أن الكثيرين ممن يقيمون فى مدن كمپانيا مثل « پمپيى » ممن ولدوا أحرارا ، ولعلهم كذلك حصلوا على قسط من التعليم قد نهجوا فى حياتهم على منوال تريمالخيو من احتراف أسلوب رجال الأعمال ، فكانوا أصحاب المنازل الفسيحة الجميلة ولهم « ڤيلات » من طراز العصر الأغسطى فى « پمپيى » وستابياى (Stabiae) وهركولانيوم (Herculaneum) ــ وهو العصر الذى ازدهرت فيه أدق طرز النقش الزخرفى وأقواها وأبدعها من حيث المهارة الفنية . ولا بد أن أولئك الذين ازدانت مساكنهم بنقوش من الطراز الثانى والثالث كانوا على قسط وافر من التعليم ، وكانوا فى الوقت نفسه من رجال الأعمال المبرزين الذين صادفوا نجاحا . وان ما لدينا من معلومات عن الطريقة التى تكونت بها تلك الطبقة التى كانت بيدها مقاليد الأمور فى پمپيى فى العصر الأغسطى لهو قدر لا بأس به ، فأغلب هذه الطبقة من سلالة جنود سلاّ القدامى وبعضهم كان ينتمى الى الارستقراطية السامنية القديمة فى پمپيى ، أما القليلون منهم فكانوا محررين (١٧) . ويصدق مثل هذا القول على المدن الكبرى كپوتيولى (Puteoli) كما يصدق على الشرق الهيلينستى (١٨) . وانى لواثق أن

الحياة الاقتصادية كانت ذات نبضات سريعة فى دقاتها وحركاتها فى كل من ايطاليا وفى الولايات فى العصر الأغسطى ؛ فلم يعتر طبقة البورچوازية الخمول فى ذلك العصر وكانت المثل العليا عند صاحب الدخل والايراد شائعة بين أفراد هذه الطبقة على النحو الذى هى عليه فى أيامنا هـذه بين نظرائهم من أفراد هذه الطبقة .

وفى وسعنا أن نستنبط أفضل برهان على ذلك من عرض شامل لآثار المدن الايطالية ، وهى مدن كانت على حالة لا بأس بها فى القرن الأول قبل الميلاد ، وان كان بعضها قد قاسى كثيرا فى أثناء الحروب الأهلية . ولكن عصر أغسطس يمثل فترة الرخاء الحقيقى بالنسبة لايطاليا . ويكفى أن نلقى نظرة سطحية على آثار كل المدن الايطالية ، وبخاصة تلك التى تقع فى وسط ايطاليا وفى شمالها لنستدل منها على أن معظمها اتخـذ صورته النهائية فى ذلك الوقت ، وعلى أن أكثر الأبنية رونقا وأعظمها فائدة تم تشييده فى هذه الفترة ولست أعنى بذلك الاشارة الى مدن من أمثال تورين وسوسا وغيرها فى شمال ايطاليا وهى التى أنشأها أغسطس ، بل ولا الى اكويليا ؛ ولكن اذا ألقينا نظرة الى مدن أومبريا — وهى مراكز ازدهرت فيها الحياة الزراعية وكادت أن تكون محرومة من التجارة والصناعة — والى بيروسيا (Perusia) وآسيسيوم (Asisium) وهسپيلوم (Hispellum) واكوينوم (Aquinum) وغيرها أو الى بعض المدن الواقعة فى پيكينوم (Picenum) وفى اتروريا (Etruria) ثم قرأنا وصف آثارها التى لا تزال باقية — تبين لنا أن معظم أبنيتها الفخمة كانت من ثمار العصر الأغسطى ، ومع ذلك فهى ليست من أعمال أغسطس نفسه ؛ ولقد أسهم أغسطس بنصيب فى انشاء شبكة عظيمة من الطرق الايطالية ولكن الفضل فى انشاء المدن يرجع الى جهود البورچوازية الساكنة فى الحضر وهى مؤلفة من كل من الأسر القديمـة المستقرة فى

البلديات ومن المتوطنين الجدد وهم قدامى المحاربين فى الحروب الأهلية. وفى خلال القرن الأول أضيفت بعد ذلك بعض الأبنية الجديدة ، وكان الرخاء فى بعض المدن لا يزال سائدا فى القرن الثانى ولكن كما قلنا من قبل كان العصر الزاهر بحق فى حياة المدن وحياة منشئيها من البورچوازية (وهم الذين كانت غالبيتهم لا تزال تتألف من العناصر الحرة المولد)، هو عصر أغسطس الذى يبدأ من سنة ٣٠ ق.م. الى ١٤ ميلادية (١٩) .

والبرهان الآخر نجده فى التطور السريع فى الحياة الاقتصادية فى عصر أغسطس ، وهذا يبدو جليا من عرض سريع لهذا التطور حسبما ترد الاشارة اليه فى المصادر المعاصرة ؛ على أن معلوماتنا فى الحقيقة تكاد تكون مقصورة على ايطاليا وعلى الأحوال الاقتصادية السائدة فيها ، فهل هذا من قبيل المصادفة البحتة ؟ أم أن ذلك يدل على أن ايطاليا أحرزت قصب السبق فى عالم السياسة والشئون الاقتصادية ؟ كان الشرق بطيئا فى اصلاح ما تحطم من موارده وقواه ، وكانت الولايات الغربية لا تزال فى طور النشوء والتكوين بحيث لا تستطيع أن تنهض فيها فى الحال حياة اقتصادية مزدهرة ، ومع ذلك فان الشرق كما سنتبين فيما بعد ، سوف ينهض من عثرته فى عالم الصناعة والتجارة بدرجة أسرع منها فى عالم الزراعة .

ولقد رأينا أن الحروب الأهلية لم تؤثر فى تقدم الزراعة فى ايطاليا ؛ اذ أن الحياة الزراعية وظروفها بقيت على حالها عقب انتهاء تلك الحروب وذلك فيما عدا أنها أصبحت أكثر استقرارا من ذى قبل . ولم يطرأ على السياسة العقارية فيما يختص بمظاهرها الأساسية أى تغيير جوهرى فكانت الضياع الكبيرة فى ازدياد مطرد ، وذلك على حساب أنصبة صغار المزارعين بوجه خاص ؛ والى جانب تلك الضياع الواسعة أخذت الأنصبة الزراعية ذات المساحة المتوسطة والصغيرة ، تزداد من حيث أهميتها

شيئا ما ، وكانت كل من الأملاك الواسعة والأنصبة ذات المساحة المتوسطة تشترك فى أمر واحد وهو أنها كانت تدار على أسس علمية ورأسمالية وانها ملك لأناس آثروا ألا يقيموا فى محيطها بل اتخذوا المدن لهم مقاما ، ويكاد كل المحاربين القدماء الذين استولوا على أنصبتهم من الأرض فى عهد سلا " وپمپى وقيصر وأغسطس ، ينتمون الى هذه الطبقة .

وان خير وصف يوضح ادارة الملكيات العقارية ذات المساحة المتوسطة نجده فى شعر هوراس الخاص بضيعته السابانية ، وكان قد تسلم هذه السابانية على صورة هبة من مايقيناس (Maecenas) ، وعلى ذلك كان هوراس ينتمى الى فئة من ملاك الأراضى كان مثلهم مثل المحاربين القدامى الذين تم تسريحهم على أيدى قواد عصر الثورة . وان البحث الدقيق الذى قام به ا . جريفز[٢٠] (I. Greaves) خاصا بالاشارات المتناثرة التى جاءت فى هوراس عن هبته هذه ، ليدل على أنها كانت نصيبا من الأرض تكفى مساحته لتموين صاحبه ومده بدخل محترم ، ولقد بذل الشاعر عناية كبيرة بضيعته هذه وحول جزءا منها الى مزرعة نموذجية تدار على أسس علمية ولكنه لم يقض فيها أبدا وقتا طويلا ولم يكن يتولى ادارتها بنفسه بل وكلها الى نائب عنه وهو ما يعرف بالخولى (vilicus) وكان من عبيده ، كيما يديرها له . وكانت هذه الضيعة من الناحية الاقتصادية تتألف من جزءين هما مزرعة نموذجية يديرها المالك لها عن طريق ثمانية عبيد ثم خمسة أنصبة من الأراضى ، مؤجرة الى خمس عائلات من المزارعين المتوطنين الذين ربما كانوا أصلا ملاكا لنفس هذه الأنصبة التى كانوا يزرعونها لحساب هوراس بوصفهم مزارعين عنده . وقد خصص جزء من تلك المزرعة النموذجية لزراعة الكروم ، وجزء آخر للفواكه والخضراوات ، والجزء الأكبر كان حقولا للغلال ، أما المراعى والغابات التى كانت ملكا لهوراس فكان يرعى عليها قطيع كبير من الثيران والغنم والمعز والخنازير .

ومما لا ريب فيه أن ضياعا ذات مساحة مماثلة وطابع مشابه ويملكها أناس مستقرون فى المدن ، كانت مظهرا تتميز به أواسط ايطاليا ؛ وربما وجدت الملكيات الصغيرة التى كان أصحابها من صغار المزارعين فى هذه الضياع ذات المساحة المتوسطة منافسا أشد خطرا من تلك الضياع الشاسعة (Latifundia) التى كانت فى حيازة كبار ملاك الأراضى .

أما المزارع الكائنة بجنوب ايطاليا فكانت تختلف عن ذلك الى حد ما ، ونحن على علم بأحوال بعض منها مما يقع فى نطاق پمپيى وستابياى (Stabiae) وهركولانيوم (Herculaneum) ؛ اذ أن الكشف عن آثارها يكاد يكون تاما وعلى أسس علمية ، ولا ريب أن معظم هذه الدور الريفية (الڤيلات) لم تكن تؤلف جزءا من احدى هذه الضياع الشاسعة (Latifundium) ، فالمزارع المملوكة لكبار أصحاب الأراضى ممن لم تستهوهم الاقامة بها أبدا ، لم تكن تشتمل على مجموعة من الحجرات المريحة ، أو ما قد يبدو عليها أحيانا من مظاهر الأبهة ، مما هيىء لاستقبال ملاكها واقامتهم عليها . وعلى ذلك فان هذا قد يدعو الى الاستنباط بالطبع بأن أغلب ملاك هذه المزارع كانوا منذ البداية مواطنين أحرارا ، استقروا واستوطنوا بپمپيى وستابياى وهركولانيوم ، وليسو من أعضاء السناتو ولا من طبقة الفرسان الذين ألفوا الاقامة بروما ؛ وعلى قدر ما فى وسعنا أن نستشفه من الدراسة الوافية للآثار الباقية من هذه الدور الريفية (الڤيلات) ، فان مزارع كمپانيا كانت قريبة الشبه من بعض الوجوه من ضيعة هوراس فكانت تشتمل على المراعى والغابات الممتدة على سفوح « ڤيسوڤيوس » ، ولا بد أن مساحتها كانت كبيرة بالمقارنة الى غيرها ، كما تدل عليه تلك المخازن الرحبة والمستودعات المخصصة لحفظ النبيذ والزيوت . وكان النبيذ وزيت الزيتون هما المنتجات الرئيسية وقد

خصصت هاتان السلعتان بلا ريب للتـداول بالبيع . ولما كان تخطيط المساكن وتوزيع الحجرات فى هذه المزارع مطابقا تمام المطابقة للمواصفات التى جـاءت فى كل من فـارو (Varro) وكولوميلا (Columella) فانه من الجلى أن ادارتها كانت تجرى وفق ما جاء فى الكتب العلميـة المتداولة عن موضوع الزراعة ، وأن العمل فى فلاحتها كان يتم على أيدى العبيد وكاد ألا يكون فيها محل للأنصبة التى يفلحها مزارعون من طراز الفـلاحين المستقرين فى ضـيعة هوراس . فالمزارع فى كمپانيا كان عمادها نظام رأسمالى ولا أثر فيها لما كان مرعيـا فى الماضى من نظـام اقتصادى قائم على صغار المزارعين [٢١] .

وليس هناك مجال للشك فى أن تلك الأقسام من الضياع الكبيرة التى كانت تنتج النبيذ والزيت ، كانت تتألف من مزارع صغيرة الى حد ما ولها نفس الطابع الذى كان متوافرا فى المزارع التى تم الكشف عنها على مقربة من پمپيى ، وعلى التحقيق كانت ضيعة كمپانيا الشاسعة خليطا من مزارع كثيرة (fundi) ودور ريفية (ڤيلات) عديدة . أما فى ابوليـا (Apulia) وكالابريا (Calabria) واتروريا (Etruria) وسردينيا وافريقيا فكان جليا أن هذه الضياع الشاسعة ذات طابع مغاير اذا كان حكمنا عليها مستمدا من الاشارات الى الضياع الكبيرة فى هذه الأقاليم، مما كان يرد فى هـوراس ، وتيبولوس (Tibullus) وپروپرتيـوس (Propertius) . وفى نظر هؤلاء الشـعراء كانت المظاهر البـارزة فى مثل تلك الضياع وجود الآلاف من العبيد والثيران والمحاريث المستخدمة فى زراعة الأرض . وعلى ذلك وجب علينا أن نفترض أن دارا ريفيـة واسعة كانت مقرا لتلك الضيعة ، وان من حولها نشأت قرية مأهولة بالعبيد والعمال المأجورين [٢٢] .

وان توارى المزارعين عن الأبصار شيئا فشيئا وتحول الكثرة الغالبة

منهم الى عناصر نازحة استقرت لدى ملاك الأراضى ، كان من الظواهر البارزة التى عرفها المعاصرون لأغسطس وأدركوا كنهها جيدا ؛ فايطاليا القديمة قد أصبحت فى خبر كان ، وهذا أمر أسفت له النفوس الشعرية المتألقة فى خيال الشعراء أمثال ڤرچيل ، وهوراس ، وپروپرتيوس ، وتيبولوس . ولكن لم يقتصر الأمر على الذعر الذى تملك تلك المشاعر السامية فحسب ، اذ أن التغيير التدريجى الذى اعترى المظهر الاجتماعى فى ايطاليا ، وتزايد جموع العبيد والموالى حتى فى الحقول الواقعة فى شمال ايطاليا ووسطها ، وهذه كانت فى الماضى معاقل طالما اعتصم بها الفلاحون الايطاليون ، ثم التحول الذى انتاب طبقات المزارعين حتى صاروا نزلاء متوطنين (coloni) — ليس فى كل هذه المظاهر من جديد مستحدث ولكنها تقض المضاجع حقا ؛ انها كانت بوادر تدل على بداية عصر جديد فى تاريخ البلاد ؛ واذا كان لنا أن نعتمد فى حكمنا على ما جاء فى القصائد الشعرية العديدة التى جادت بها قريحة هوراس ، والتى كانت تردد بلا ريب صدى الأحاديث التى تجرى حول موائد ما يقيناس وأغسطس ، فان موضوع اختفاء المزارعين كان حديثا شائعا تلوكه ألسنة الناس ويتناوله قادة الرأى فى عصر أغسطس بالتمحيص (٢٣) . وكان الرأى العام — كما عبر عنه الغيورون من الرومان والمخلصون منهم لوطنهم — ينادى ويطالب بالاستغاثة بأغسطس كيما ينقذ الفلاحين من وهدتهم .

ولكننا فى الحقيقة لم نجد صدى لذلك ولم نسمع شيئا عن تدخل من جانب أغسطس فى الأحوال السائدة الخاصة بنظام الأراضى فى ايطاليا . وكانت الحملات التى يشنها القراء على تدهور الحالة الخلقية فى ذلك المجتمع المعاصر وعلى ترف الأغنياء متمشية مع بعض القوانين التى أصدرها أغسطس ؛ ولكننا لم نعد نسمع شيئا عقب انتهاء الحروب الأهلية عن أى قانون خاص بنظام الأرض والعقار ، فأى قانون عقارى

كان من العلامات والمظاهر الواضحة التى تميز بها عصر الحروب الأهلية الدرجة أنه ما كانت الظروف لتسمح بالعودة الى شىء من هذا حتى ولو كانت البلاد فى مسيس الحاجة اليه .

وفيما عدا الزراعة ، فالعامل الرئيسى فى الحياة الاقتصادية فى العصر الأول من الامبراطورية الرومانية هو بالتأكيد التجارة ، فقد تفتحت الآفاق وتعددت الفرص العظيمة أمام النشاط التجارى الذى كان يبديه شعب الامبراطورية عقب انتهاء الحروب الأهلية . وتوحيد العالم المتحضر وتحوله فى الواقع الى دولة عالمية واحدة ، وسواد السلم فى الداخل والخارج وتأمين الملاحة فى عرض البحار تماما ، وحمايتها بفضل الأسطول الرومانى الذى أصبح قوة فعالة يعتد بها ، واطراد الزيادة فى عدد الطرق والمسالك المعبدة أحسن تعبيد ، وهى وان كانت قد شيدت من أجل تحقيق أغراض حربية فانها استخدمت كذلك فى التبادل التجارى، وعدم وجود تدخل من قبل الدولة فى النشاط التجارى الذى كان يبديه الأفراد ، والتدرج فى فتح أسواق تجارية جديدة آمنة فى ولايات الغال وأسبانيا والطونة ، وتهدئة الخواطر وتأمين الحياة فى مناطق الجبال الألبية، واعادة قرطاجة وكورنثة الى سيرتهما الأولى وما شاكل ذلك من اجراءات — كل هذه العوامل مجتمعة ساهمت فى ايجاد حالة انتعاش وازدهار وحركة احياء باهرة وزيادة ملحوظة فى النشاط التجارى فى الامبراطورية.

أما التجارة مع الجيران ومع أقصى البلاد النائية مثل الصين والهند فلم تبلغ من الأهمية شأنا عظيما جدا فى مضمار الحياة الاقتصادية فى صدر عصر الامبراطورية ؛ فمثل هذا النوع من التجارة داعب خيال المعاصرين كما يداعب الآن خيال بعض المحدثين من العلماء فعمد كلا الفريقين الى المبالغة فى اظهار أهميته ، حتى ان الصفيح كان يرد بوجه خاص من أسبانيا وليس من بريطانيا ، وفضلا عن ذلك فالبرونز الذى

كان الصفيح لازما لصناعته ، لم يعد له من الأهمية فى حياة الامبراطورية الرومانية مثلما كان له فى العصر الهيلينستى. وكان يرد من ألمانيا الكهرمان وبعض الفراء والعبيد وكان جنوب الروسيا لا يزال يمون بلاد اليونان بالقمح ويصدر قدرا معلوما من القنب والفراء والشمع ، ولعل العسل كذلك ويحتمل أن بعض الذهب كان يرد من جبال الأورال وربما كان بدو الصحراء يصدرون البلح وعددا كبيرا من الزنوج كعبيد . وكانت تجارة مصر مع وسط أفريقيا أهم من ذلك ، وعماد هذه التجارة وأهم سلعها العاج وبعض أنواع الخشب الثمين والذهب والمواد العطرية ثم مختلف أنواع التوابل ، وقد نشطت تجارة من هذا النوع بعينه مع بلاد العرب ؛ وفى عهد أغسطس وجهت حملة حربية خاصة الى بلاد العرب كيما تضمن لروما الاستحواذ على بعض الموانى البالغة الأهمية فى جنوب شبه الجزيرة . وكانت أهم الصادرات من هناك العطور والتوابل والأحجار الكريمة والجمال ، ونشطت تجارة مماثلة فى مواد الترف بين الهند ومصر وبين الهند والصين (فى الحرير) والشام .

وتكاد جميع أثمان السلع التى كان يجرى شراؤها فى البلاد الأجنبية تدفع فى الشمال عن طريق تصدير الزيوت والنبيذ والسلع المصنوعة ، أما البضائع الآتية من الشرق فكانت تدفع أثمانها بلا ريب بعضها نقدا من الفضة أو الذهب كما يذكر پلينى ، ولكن كان ثمن أغلبها عينا من بضائع وسلع تم انتاجها فى الامبراطورية وبخاصة فى الاسكندرية . واذا نظرنا الى الموضوع نظرة شاملة فالتجارة الخارجية فى مجموعها كادت تنحصر فى تبادل مواد الترف ، ولم تكن ذات أهمية حقيقية بالنسبة للحياة الاقتصادية فى الامبراطورية (٢٤) .

أما التجارة الداخلية فى الامبراطورية فكانت أهميتها تفوق ذلك بكثير ، وهى تشمل التجارة المتبادلة بين ايطاليا والولايات ثم تجارة تلك

الولايات بعضها مع بعض [٢٥] ؛ وكان أغلبها كما كانت الحال فى العصر الهيلينستى ، يتناول المتاجرة فى المنتجات ذات الضرورة القصوى فالقمح يجرى استيراده وتصديره بكميات وافرة ولم تكن ايطاليا بقادرة على أن تعيش على القمح الذى كانت تنتجه ، ويصدق بالتأكيد هذا القول بعينه على بلاد الاغريق وجزر بلاد اليونان فيما عدا صقلية التى يبدو عليها مع ذلك أنها أصبحت لحد كبير بلاد المراعى والكروم وبساتين الزيتون والحدائق[٢٦] . وكان كثير من المدن التجارية والصناعية المطلة على الشاطىء تفضل أن يرد لها القمح عن طريق البحر خير من أن تتكبد النفقات الباهظة فى نظير نقله اليها عن طريق البر ، وكان الخشب بلا ريب يصدر ويستورد بكميات هائلة لاستخدامه فى بناء السفن . وها هو ذا كاتولّوس (Catullus) قد بنى قاربه المشهور من خشب جلب من جبل ايدا (Ida) بآسيا الصغرى ، ولم يكن من اليسير انتاج الشمع والقنب والزفت والقطران بكميات وفيرة فى كل مكان ، وهذه مواد كانت الولايات التى تشتغل ببناء السفن التى تجوب البحار والأنهار ، فى مسيس الحاجة اليها . أما المعادن التى كانت ايطاليا تستخدمها فى سك العملة وتلزم كذلك لجميع المراكز الكبرى والصغرى لصناعة التعدين فلم يتوافر انتاجها بكميات كافية لا فى ايطاليا ولا فى محيط أكثر المدن التى اشتهرت بالصناعات المعدنية . (ومن أمثلة ذلك كاپيوا (Capua) وتارنتوم فى جنوب ايطاليا والاسكندرية فى مصر وربما بعض مدن آسيا الصغرى وبلاد اليونان وبعض المراكز فى بلاد الغال) . وكان يجرى تعدين المعادن بصفة خاصة فى أسبانيا وفى الغال وولايات أقليم الطونة ، أما مناجم الشرق فيبدو أنها كانت أقل أهمية فى عصر الامبراطورية . وكان معدن الكبريت لا يستخرج الا من المناجم الصقلية ، وهو مادة لا غنى عنها فى البلاد التى تعنى بزراعة الكروم .

وكانت التجارة فى زيت الزيتون والنبيذ تقوم بدور رئيسى فىالحياة الاقتصادية بايطاليا وبلاد اليونان وآسيا الصغرى مثلما كان عليه الحال من قبل ، وكان الجيش الرومانى بلا ريب من بين كبار المستهلكين لهذه السلع ، وكانت بلاد الاغريق وآسيا الصغرى تمون الولايات الشرقية التابعة لروما وشواطىء البحر الأسود وبخاصة الشمالية منه ، بالزيت والنبيذ وكانت ايطاليا هى المورد الرئيسى لتموين ولايات الطونة وألمانيا وبريطانيا وأفريقيا ، ومن المحتمل أن بلاد الغال وأسبانيا كذلك كانت لا تزال الى حد ما تستورد هذه المحصولات من ايطاليا .

وكان تبادل البضائع المصنوعة والسلع التى ليست من مواد الترف ، بل هى لازمة للاستعمال اليومى يجرى على نطاق واسع وفى شىء من الهمة والنشاط ، فبقيت مصر المركز الوحيد لانتاج ملابس الكتان وورق البردى وكانت كميات عظيمة من المنسوجات الصوفية تستورد من آسيا الصغرى وايطاليا وبلاد الغال . وكان الفخار الأحمر اللامع هو الشائع فى جميع الأسواق ، ولم يكن للأوانى المعدنية المصنوعة فى كاپيوا وفى الاسكندرية أى نظير ، وكان الزجاج يصنع فى سوريا وفى الاسكندرية ويجرى انتاجه بكميات وفيرة فى جنوب ايطاليا ، وكانت المصابيح الخزفية احدى الخصائص الرئيسية التى اشتهرت بها ايطاليا ، وانفردت اكويليا (Aquileia) بصناعة أدوات الزينة من الكهرمان ، وكانت تستورد من ألمانيا المواد الأولية وتصنع منها مرايا صغيرة دقيقة الصنع وصناديق وقنينات وغير ذلك بقصد التصدير ، ولا سبيل فى هذا المجال الى تعداد المراكز القليلة الأهمية فى أنحاء الامبراطورية الرومانية ، وهى التى اشتهرت بانتاج مختلف السلع وتصديرها بكميات وفيرة الى أجزاء أخرى من الامبراطورية .

وعلى سبيل المقارنة والموازنة مع هذا التبادل فى البضائع ذات

الضرورة القصوى كانت التجارة فى مواد الترف تبدو كما قيل آنفا ، أقل أهمية ، ولو أن بعض مصادرنا ومنها على سبيل المثال شعراء عصر أغسطس ، عنيت عند معالجة موضوع الترف الرومانى ، بالاشارة بصفة خاصة الى هذه السلع بالذات . ولكن مما يستحق التنويه به فيما يختص بأحوال التبادل التجارى البالغ درجة قصوى من التقدم ، أن خبراء ايطاليا فى المأكولات والمشروبات كانوا يحصلون من غير كبير عناء على باكورة المنتجات فى كل فصل وعلى مواد الترف الخاصة ، من أقاصى الأماكن النائية ، ولم يكن هؤلاء فى حاجة الى طلب هذه السلع بصفة خاصة ، اذ أن الحوانيت الكبيرة التى تتعامل فى هذه السلع كانت تحتفظ بأكداس متراكمة منها .

وفى نطاق الحياة التجارية السائدة فى الامبراطورية على عهد أغسطس كان لايطاليا دور مبرز ، بل ان هذا الدور كان يفوق نظيره الذى قامت به فى القرن الأول قبل الميلاد ؛ ولم يكن هذا نتيجة فحسب لتلك الأهمية المطردة التى بلغتها روما بوصفها احدى المدن الرئيسية التى تستهلك تلك المواد فى العالم ؛ فايطاليا بوجه عام بما فيها من مدن عديدة كانت سوقا هائلة مزدهرة لبقية العالم المتحضر ؛ وقد يكون من المجدى حقا أن نبحث من وجهة النظر هذه ، الآلاف المؤلفة من الموجودات التى عثر عليها المنقبون فى پمپيى وذلك بقصد معرفة ما كان منها من المنتجات المحلية على سبيل التحديد وما جلب من الخارج ، وفى الحالة الأخيرة تقصى ما اذا كان قد جلب من المدن الايطالية الأخرى أم من الولايات الواقعة عبر البحار . ومع ذلك فان من الصعب أن نقرر على سبيل التأكيد أن روما وايطاليا كانتا تدفعان أثمان السلع والبضائع المستوردة مما تحصله روما من اتاوة وخراج من الولايات فليست لدينا احصائيات عن هذا الموضوع ، ولكن

كل ما أمكن جمعه من معلومات عن المقدرة الانتاجية لايطاليا فى ميدان الصناعة يدل على أن الجزء الغالب من الواردات كان يغطى ثمنه بما يقابله من صادرات مماثلة .

وكان النبيذ والزيت الايطالى يشغل أكبر حيز فى قائمة هذه الصادرات ، وليس فى وسعنا أن نفسر الظاهرة التى كانت تنطوى عليها كمپانيا من أنها كرم واحد شاسع ، ولا نحن بقادرين على تعليل ذلك التقدم السريع الخطى فى زراعة الكروم فى شمال ايطاليا ما لم نفترض أن ذلك النبيذ والزيت الايطالى كان يجرى تصديرهما بكميات هائلة الى الولايات الغربية والشمالية من الامبراطورية بل والى الشرق كذلك. فكانت پوتيولى (Puteoli) بوصفها المرفأ الرئيسى فى جنوب ايطاليا وكذلك المرافىء الأخرى فى كمپانيا ، تتجر الى حد كبير جدا فى النبيذ والزيت ، وكذلك فعلت اكويليا (Aquileia) فى الشمال . ويجب ألا يعزب عن بالنا أن تريمالخيو (Trimalchio) قد جمع لنفسه ثروة طائلة من تصدير النبيذ ، وأن الصلات بينه وبين أفريقيا كانت على قدم وساق [٢٧] . والى جانب النبيذ والزيت كانت ايطاليا تصدر مقادير هائلة من المصنوعات والمنتجات الى الغرب . وقد سبق أن أشرنا الى آن الفخار المنسوب الى اريتيوم (Arretium) والأوانى الفخارية المعروفة باسم تيرّا سيجيلاتا (terra sigillata) فى صورتها الأولى كانت شائعة فترة ما فى السوق العالمية من بريطانيا شمالا الى شواطىء البحر الأسود شرقا (*) . وهناك مقادير هائلة من الأوانى ذات القشرة

(*) الفخار الاريتينى (Arretine) نسبة الى مدينة أريتيوم (Arretium) احدى مدن أتروريا الداخلية بوسط ايطاليا ، وقد اشتهر أعيانها بحبهم للفن واقتنائهم للآيات البديعة من ذلك الانتاج الفنى . فلما جاء القرن الأول قبل الميلاد أصبحت مدينة أريتيوم تتمتع بشهرة عالمية فى انتاج فخار أحمر كان يصب فى أشكال وقوالب ويخرج فى صور تمثل أبدع ما أنتجه الفن فى العصر الهيلينستى المتأخر . =

المعدنية مما انتجته كاپيوا (Capua) عثر عليها فى بلاد القوقاز النائيـة وعلى ضفاف نهر كاما [٢٨] (Kama) ؛ وان دبابيس الأمن الفـريدة التى تميزت بها أوكيسا (Aucissa) والتى كانت من خصـائص العصر الأغسطى ، انتقلت الى جميع الولايات فى الغرب ، بل والى شواطىء البحر الأسود [٢٩] . وان المصابيح التى كان ينتجها مصنع « فورتيس » (Fortis) فى المحيـط المجـاور لموتينـا (Mutina) احتفظت بطابع المنتجات المبتكرة (ولم تكن مقلدة محليا) وكانت تخرج منها كميات هائلة فى العصر الأغسطى عثر عليها فى كل جزء من أجزاء الامبراطورية الرومانية . وفى كمپانيا كانت الصور المقلدة من الزجاج السورى الأصل ، وهى على أشكال وعينات فى غاية الدقة ، موجودة بكميات وافرة جنبا الى جنب النماذج السورية الأصلية فى عدد كبير من القبور الكائنة فى جنوب الروسيا والتى ترجع الى العصر الأغسطى [٣٠] ؛ فهل نستطيع القول ، على ضوء هذه الحقائق ، أن الانتاج الايطالى كان أقل بكثير من

= أما الفخار المعروف باسم (terra sigillata) فكان يصـنع على صـور وأشكال من الأوانى الفخارية ذات اللون الأحمر اللامع المصقول وكان شائع الاستعمال فى الامبراطورية الرومانية، ولا يقتصر على الاوانى المحـلاة بالصـور مما كان يصب فى قوالب فحسب، بل اشتمل كذلك على مختلف الأنواع غير الملونة مما كانت تصنعه عجلة الفخرانى . والفخار الذى يحمل هذا الاسم (terra sigillata) كان يحاكى الأوانى المعدنية فيما يزينها من محليات وزخارف بارزة وفى أشـكالها الموحدة سواء ما كان منها محلى أو خال من المحليات والمحسنات، وهى ذات أحجام مناسبة وكانت فى الغالب من مستلزمات المائدة من أطباق وأوانى وأكواب للشراب من غير عروة .

وكان أصل هذه الصناعة ومنشؤها فى شرق البحر المتوسـط حيث شاعت صناعة صب القوالب ذات النقوش منذ أواخر القرن الرابع ثم بدأت التجارب فى صناعة الفخار الأحمر اللامع فى القرن الثالث قبل الميـلاد ؛ والمنتجات التى صنعت من هذا الفخار فى غرب البحـر المتوسـط ذاعت شـهرتها ومنها ما أخرجته مدينة أريتيوم فى أتروريا بعد سنة ٣٠ قبل الميلاد بقليل . (المترجم)

أن يغطى تكاليف الواردات ؟ فاذا كانت روما والحكومة الرومانية قد دفعت جزءا من ثمن الغلال المستوردة وثمن الحيوانات المفترسة التى كانت تخر صرعى فى ساحات الملاعب والمدرجات وثمن ذلك الترف والبذخ الذى كان عليه الأباطرة ، مما كان يرد من مصر وسوريا وبلاد الغال وأسبانيا من ذهب وفضة ، فان طبقة البورچوازية فى ايطاليا كانت تسد العجز وتوفيه بالانتاج ، فمعظم السفن التى كانت تستورد البضائع وتجلبها من الولايات كانت تؤوب محملة ببديلتها من أنفس البضائع .

ولو أن النبيذ وزيت الزيتون والقمح والمواد الخام ومنها الأخشاب والمعادن وما أشبه ذلك ، قامت بدور كبير فى التبادل التجارى بين الولايات فى داخل نطاق الامبراطورية ، فانه على نحو ما شاهدناه ، لا ينبغى اغفال شأن المنتجات الصناعية فى تقدير ما كان لتجارة العصر الأغسطى من أهمية . وفيما يتعلق بالصناعة كانت أكثر أجزاء الامبراطورية الرومانية نجاحا هى ايطاليا بلا ريب ، وكمپانيا واتروريا هما الاقليمان المعنيان بالذات فى ايطاليا نفسها . وقد ساق الأدلة على ذلك الأستاذ تينى فرانك (Tenney Frank) ، ولا حاجة بى الى تكرار ما جاء فى الصفحات المخصصة لهذا الموضوع فى كتابين حديثين له . وقد أبرز ما للفخار الأحمر المصقول الذى كانت اتروريا تنتجه بكميات هائلة لتسد به حاجة الاستهلاك الضخم وتصدره بالجملة ، من أهمية مطردة ، وقد ذاع كذلك ما كان للأوانى البرونزية والفضية المصنوعة فى كاپيوا (Capua) من جودة وصيت [٣١] ، وقد سلفت الاشارة منذ حين الى مصنع المصابيح الذى راجت صناعته وازدهرت فى شمال ايطاليا ، ويمكن أن نضيف الى ذلك أنه فى العصر الأغسطى أحرزت مدن كمپانيا تقدما فى مجالى التقليد والمنافسة مع الاسكندرية فى كثير من أفرع الصناعة مما لم يكن ملحوظا فى كمپانيا فى العصر السابق ، وبصفة خاصة الصناعات الزجاجية الجميلة

ومنها الأنواع الملونة والآنية المحلاة بالنقوش البارزة . وفى هذا الفرع من التجارة بزت كمپانيا تماما كلا من سوريا والاسكندرية كما تدل على ذلك الكشوف التى عثر عليها فى جنوب الروسيا ؛ وفى الوقت نفسه فان مدن كمپانيا بدأت بلا ريب فى استخدام ما توافر لديها من زيوت جيدة فى تجهيز العطور وأخذت فى احياء صناعة الحلى ، تلك الصناعة القديمة التى كانت مزدهرة فى اتروريا فى العصر الهيلينستى ، ثم انتقلت الى كمپانيا فى عصر الامبراطورية ، ولنا عود لهذا الموضوع فى الفصل التالى؛ وأهم من ذلك كله التقدم السريع فى صناعة الملابس الصوفية حيث كانت تستخدم لهذا الغرض الأصناف الجيدة من الصوف المجلوب من جنوب ايطاليـا (٣٢) .

ولم تنفرد كمپانيا واتروريا وحدهما فى النهوض بالصناعة الايطالية فى العصر الأغسطى ، اذ ظهرت فيه پوتيولى (Puteoli) أخرى فى صورة اكويليا (Aquileia) التى ما لبثت أن أصبحت مركزا مزدهرا لقيام كل من الحياة التجارية والصناعية فى الشمال ، وقد سبق أن عرضنا للحديث عن الأهمية التجارية التى توفرت لهذه المدينة وتناولنا تجارتها فى النبيذ مع أقاليم الطونة ثم مع البلاد المطلة على الشواطىء الغربية للبحر الادرياتى. واكويليا هذه بوصفها مستعمرة مؤلفة من المحاربين الرومان القدامى وهم من ملاك الأراضى المعروفين بالنشاط الجم والأخذ بأسباب التقـدم والسباقين الى العمل على تحويل الأراضى المحيطة بمدينتهم الى كروم يانعة والجامعين لثروات طائلة من وراء تصدير النبيذ للبلاد الواقعة على ضفاف الطونة — سارعت الى انتهاز الفرص التى تهيأت لها بسبب موقعها الفريد ، من أجل الحصول على كسب مطرد فى تجارتها ، على أن انتشار السلم ودوام الاستقرار فى نوريكوم (Noricum) قد يسر للمواطنين الأحرار من أهل أكويليا ، الوصول الى مناجم الحديد الواقعة

فى ذلك الأقليم ، وجلب تصدير النبيذ مقادير كبيرة من الكهرمان الى المدينة ، وبفضل الخصائص الفريدة الموجودة فى رمال اكويليا وطفلها ، تفتحت آفاق واسعة من الامكانيات أمام تصدير الزجاج المصنوع محليا (وليس المستورد) والصناعات الخزفية الى زبائن من سكان اقليم الطونة ؛ وقد ساعدت صناعة البرونز القديمة فى شمال غربى ايطاليا ، ثم وفرة النحاس والفضة فى المناجم المتاخمة فى نوريكوم وريتيا(Raetia) ودالماشيا ، على حفز النشاط لدى صناع البرونز والفضة كما أتاح كشف الذهب على مقربة من ڤيرونوم(Virunum) ، الفرص السانحة أمام الصائغين الذين كانوا يستخدمون كذلك ما كانوا يعثرون عليه فى ذلك الاقليم من الأحجار الشبيهة بالكريمة . وعلى ذلك تحولت اكويليا شيئا فشيئا من مدينة اقتصر سكانها على الاشتغال بزراعة الكروم وانتاجها والعناية بالتجارة الى أن صارت أحد مراكز الصناعة الرئيسية ؛ واذا أتيحت للانسان فرصة زيارة متحف تلك المدينة عرته الدهشة مما يجده من منتجات زجاجية راقية ومبتكرة بكثرة وفيرة ، ومما يسترعى النظر بصفة خاصة تلك الأحجار المقلدة المحلاة بالنقوش والصدف الموشى بالنقش البارز والأوانى ذات الأشكال المختلفة ، كما يعجب الانسان لما يشاهده من أدوات من الكهرمان بكميات كبيرة ومقادير هائلة من العدد والأدوات الحديدية وبعض المنتجات القيمة من برونز وفضة هى ثمرة من ثمار فن النقش على المعادن الذى يرجع بعض أصله الى العصر الأغسطى ؛ ومما يسترعى النظر كذلك ، ذلك العدد الكبير من الحلى الذهبية ، على أنه فى كل حالة من هذه الحالات نجد أن أقدم النماذج ترجع الى العصر الأغسطى وبذلك أصبحت أكويليا بلا ريب هى « پوتيولى » شمال ايطاليا منذ عهد قديم يرجع الى عصر أغسطس ؛ ولعل هذا كله كان بفضل جهود أغسطس نفسه وبعض أفراد أسرته ممن كانوا يقيمون فى الغالب

فى تلك المدينة ، وهناك من الرجال أمثال الباربيين (Barbii) والاستاتيين (Statii) من كانوا على سبيل اليقين روادا شقوا طريقهم لا فى مجال التجارة الأكويلية فحسب ، بل فى نطاق الصناعة الاكويلية كذلك (٣٣) .

والظاهرة الأخرى المهمة فى تقدم الصناعة فى ايطاليا هى تصنيع الحياة شيئا فشيئا ، وليس هذا فى المدن الكبرى فحسب من أمثال بوتيولى واكويليا اللتين كانتا مرفأين عظيمين للتصدير ومركزين تلتقى عندهما طرق التجارة الهامة ، بل كذلك فى مراكز وموانى صغيرة محلية ، وأفضل مثل لذلك بمبيى (Pompeii) التى استمرت بلا ريب مركزا لاقليم زراعى مزدهر ومرفأ له بعض الأهمية بالنسبة لعدد من المدن الداخلية الواقعة فى محيط بمبيى القريب . ومع ذلك أصبحت شيئا فشيئا مركز صناعة محلية تقوم بتصريف البضائع التى تصنع فى مصانعها لعملاء لا يقيمون فى المدينة فحسب ، بل فى المدن المجاورة والبيوتات فى الريف القريب ، ومنذ عصر كاتو (Cato) كانت بعض الأدوات الزراعية يجرى صنعها فى تلك المدينة ، ثم فى العصر التالى لسلا، وبخاصة فى عهد أغسطس بدأت تنهض وتتقدم أفرع أخرى من الصناعة ، ومن الأمارات الواضحة على تصنيع تلك المدينة تطور نوع جديد من المسكن المحاط بالحوانيت التى كان يملك بعضها ويديره أصحاب تلك المساكن وان كان البعض الآخر مؤجرا للصناع وتجار التجزئة . ويبدو كما لو أنه منذ النشأة الأولى ، كانت احدى خصائص بمبيى التوفر على انتاج مختلف أنواع المنسوجات والملابس الصوفية ، وسوف نرى فيما بعد كيف تقدمت تلك التجارة وكيف ازداد التصنيع فى المدينة شيئا فشيئا ويكفى أن نشير هنا الى أن تاريخ البدء فى هذه العملية يرجع الى عهد أغسطس ويحتمل أن خاصية أخرى عرفت بها بمبيى ترجع الى هذا العهد كذلك اما من

حيث ابتكارها أو احياء ظهورها وهى حساء السمك الذى ذاعت شهرته وتفردت به پمپيى واسمه جاروم (garum) (*)

وتنظيم الصناعة فى پمپيى على النحو الذى وصفه « فرانك » من حيث الجمع بين مصنع صغير وحانوت للبيع بالتجزئة — قد يكون طابعا مميزا لمركز محلى صغير من مراكز التجارة والصناعة ، كما كان الدهليز أو الحوش (atrium) فى پمپيى والبيت ذو الرواق طابع مـدن الريف من طراز قـديم نوعا ما . وقد دلت الحفريات فى أوستيا على نشـأة نوع معين من المسكن والحانوت وتطورهما ولهذا النوع جدته وطرافته ويرجع عهده الى القرن الأول الميلادى . ولهذا دلالته فى تباين الظروف المحيطة بنشأة هذه المساكن والحوانيت القريبة الشبه بتلك التى نشاهدها فى أيامنا هذه . وليس فى وسعنا أن نكون صورة للحياة الاقتصـادية السائدة فى أوربا أو الولايات المتحدة الأمريكية من مجرد دراسة حوانيت فولينو (Foligno) أو اوربينو (Urbino) بايطاليا أو حوانيت ماديسون (Madison) بالولايات المتحدة [٣٤] .

وانه لمن سوء الحظ أن البينة التى لدينا عن الحياة فى المدن الكبرى سواء أكانت فى ايطاليا أم فى الولايات مما يرجـع عهـده الى العصر الأغسطى ، ضئيلة للغاية ، اذ لم يجر الكشف بعد عن احدى هذه المدن التجارية والصناعية الكبرى ، بل ان الكثير منها لا سبيل الى الكشف عنه ، وقد بدأت أوستيا منذ قليل فى أن تكشف لنا عن معالم العصور القديمة من حياتنا ، أما فى پوتيولى وناپولى وبرنديزى فلا مجال للشروع فى عمل كشوف على أى نطاق واسع ، على أن الفرص تبشر بالخير فى

(*) جاروم كلمة لاتينية مأخوذة عن اليونانية (γάρον) ، وهى حساء دسم ، يستخدم فى تحضيره سمك صغير ، ويبدو أن پمپيى اشتهرت بتحضـير هذا الصنف . (المترجم)

اكويليا وان كان العمل لم يبدأ بالفعل . ويصدق هذا على الولايات حيث دبت الحياة فى النهضة الصناعية فى مراكز كثيرة واستعادت ما كان لها من تقدم وفلاح . فالصناعة فى الاسكندرية لم تتوقف فى الحق أبدا عن انتاج كميات من السلع والبضائع للاستهلاك المحلى وللبيع فى مصر ثم للتصدير الى الأصقاع الخارجية ، ولكن ما نعرفه عن النظم الصناعية التى كانت سائدة فى تلك المدينة يكاد يكون فى حكم العدم . ويجب أن نعترف انه طالما أن مبلغ علمنا قليل الى هذه الدرجة فانمعلوماتنا عن الصناعة القديمة بوجه عام لابد أن يعتورها النقص والقصور الى درجة تدعو الى اليأس. وان دراستى لما أسفرت عنه الكشوف الأثرية فى جنوب الروسيا دلت على أن الحياة الاقتصادية فى الاسكندرية لم تشهد من التقدم والنجاح مثلما توافر لها عقب الحروب الأهلية ، فقد كانت الاسكندرية تنتج للعالم المتحضر كله الورق وبعض أصناف الكتان ثم العطـور وبعض السلع الزجاجية (وبخاصة الخرز) والعاجية ونوعا خاصا من الحلى والجواهر ومقدارا كبيرا من الأوانى الفضية التى أخذ استعمالها يعم فى العالم القديم ، الى غير ذلك من مختلف الأشياء . وقد سبق أن تناولنا بالوصف ما بذلته كمپانيا من جهود للعمل على ادخال بعض أفرع هذه الصناعة فى مدنها (٣٥) .

ولم تنفرد الاسكندرية وحدها فى الشرق اليونانى بجهودها هذه فى النهضة الصناعية فقد وفقت سوريا الى معرفة النفخ فى الزجاج واتقان هذه العملية ، ثم ما لبثت معظم الدوائر الصناعية فى ايطاليا أن اقتبست عنها هذا الاختراع . وأخذت سوق الحلى والكتان من انتاج سـوريا تنافس المنتجات السكندرية وبدأت الصناعة الصوفية القديمة تزدهر مرة أخرى فى آسيا الصغرى ولم يقتصر الأمر على مجرد تصدير الأبسطة والسجاجيد من هناك وانما كانت خاصية البلاد التى اشتهرت بها هى

صناعة الأقمشة والمنسوجات ذات الصبغات الملونة . وسوريا هى المنافس الوحيد فى هذا المضمار . وبالطبع انتجت ايطاليا بعض الأصناف الجيدة من الأقمشة الصوفية ذات الألوان الطبيعية . وكما هو الحال فى ايطاليا ، كان فى وسع الصناعة المنزلية فى أجزاء أخرى من الامبراطورية الرومانية أن تزود الأسر بما يلزمها من ملابس بسيطة للاستعمال العادى ، ولو انى أميل للاعتقاد بأن مثل هذه الملابس كانت تشترى من السوق ومن الحوانيت . ولكن لم يظهر لمصر وآسيا الصغرى وسوريا منافس فى انتاج المنسوجات والسلع الصوفية والكتانية الملونة ؛ وما على الانسان الا أن يتذكر المقدار العظيم من المنسوجات الملونة المصنوعة فى موسكو والمصدرة الى وسط آسيا بل والى الهند حيث كانت الصناعة المنزلية لاتزال فى ازدهار وانتعاش ، حتى يقدر ما كانت عليه صناعة المنسوجات ذات الصبغة فى آسيا الصغرى وسوريا من أهمية [٣٦] .

وتتميز الحالة الاقتصادية فى العصر الأغسطى بطابعين يتعين ابراز أهميتهما ؛ وقد تناولنا الحديث بشأن عدم تدخل الحكومة فى الحياة الاقتصادية فى الامبراطورية ، ويجدر بنا أن نعيد القول بأن أغسطس لم تكن له سياسة اقتصادية معلومة ولم تواجهه على الاطلاق مشكلة العمل ، واذا كان قد اتخذ بعض الاجراءات التحفظية بقصد الحماية أو فرض القيود فانه عمد الى ذلك مدفوعا بأسباب ذات طابع سياسى أو أخلاقى ، ومن أمثلة ذلك القوانين التى تحد من البذخ (leges sumptuariae) أو الاجراءات التى كان مزمعا اصدارها لحماية المزارعين الايطاليين وهم صغار الملاك فى ايطاليا وهى اجراءات نسبها هوراس الى أغسطس وجاءت الاشارة اليها فى احدى قصائد هذا الشاعر (Odes) ولكن هذه الاجراءات لم تخرج الى حيز التنفيذ . وسادت السياسة التى تقضى بترك الأمور تجرى فى أعنتها (ويكنى لها بالاصطلاح الآتى (laissez faire)

والنقطة الثانيـة التى يجب توكيـدها هى أهمية ايطاليـا بالنسـبة للحياة الاقتصادية فى الامبراطورية ، فايطاليا بقيت أغنى بلد فى الامبراطورية دون منافس وأعظم مركز فى الغرب لشئون الزراعة والتجارة والصناعة . ويبدو أن الوقت كان قد حان أو قرب لامكان تحدى سيادتها الاقتصادية كما تحدت هى من قبل سيادة بلاد اليونان والاسكندرية وآسيا الصغرى. ولكننا نلحظ فى شيء من المشقة بعض الأمارات الطفيفة الدالة على ايذان هذا العصر الجديد ، فانتاج السلع ذات القيمة العظيمة فى عالم الزراعة والصناعة كان لا يزال مـركزاً ، كما كان الحال فى العصرين اليـونانى والهيلينستى ، فى بضـعة أماكن قليلة وبخاصـة فى آسـيا الصـغرى والاسكندرية وسوريا وفينيقيا وايطاليا ، أما بقية أجزاء الامبراطورية فقد توفرت على انتاج المواد الخام ولكن حتى فى الولايات القريبة أخذت الحياة الاقتصادية بوجه عام تتعقد أمورها عن ذى قبل واقترب اليوم الذى تستطيع فيه تلك الولايات أن تتحرر وتتخلص من القيود التى كانت تغلها . وفى احجام أغسطس عن تنظيم الحيـاة الاقتصـادية فى الامبراطورية الرومانية سلك الامبراطور نفس السبيل والمنهج بالنسبة للحياة السياسية والاجتماعية باعتبار ذلك خيرا وأبقى ، فكان يقبـل الأوضاع الراهنة فى هـذا الصدد ، محاولا أن يدخل بعض التغييرات الطفيفة كلما اقتضت الضرورة . وكانت سياسته فى المجال الاقتصادى كذلك تقوم على التدعيم واعادة التنظيم وهذه كانت فى الحق سياسة قوامها التوفيق بين الأوضاع القائمة وتقبل الملائم منها .

الفصل الثالث

طغيان اليوليين والكلوديين العسكرى

لما مات أغسطس انتقل سلطانه الى ربيبه تيبريوس (Tiberius) الذى كان قد تبناه فى أواخر سنى حكمه ، ثم خلف تيبريوس هذا ، ابن أخيه الامبراطور كاليجولا (Caligula) وهو أحد أبناء جرمانيكوس (Germanicus) ، ثم خلف كاليجولا هذا عمه كلوديوس (Claudius) ، وتولى بعد كلوديوس نيرون (Nero) ابن أجريبينا (Agrippina) زوجته الثانية وهى احدى أخوات كاليجولا ؛ وهكذا بقى السلطان فى أسرة أغسطس طوال قرن تقريبا ؛ ومع ذلك فلا نستطيع القول بأن الامارة فى تلك الامبراطورية كانت اذ ذاك ملكا وراثيا . وفى الحق كان انتقال السلطان من أحد أفراد أسرة أغسطس الى فرد آخر يقوم فى أساسه على محبة خالصة متبادلة بين جنود الجيش الرومانى وبين أغسطس وما خلفه من ذكر ؛ فتعيين جميع أباطرة القرن الأول كاد أن يكون فى يد الجيش ، فتيبريوس جرى تعيينه على أيدى جيوش الولايات ، على حين كان تعيين الباقين فى أغلب الأحوال عن طريق الحرس البريتورى أو الامبراطورى . على أنه من الناحية القانونية والدستورية كان الأباطرة يتسلمون سلطانهم من أيدى مجلس الشيوخ وشعب روما ، وفى حقيقة الأمر كانت امارة خلفاء أغسطس منطوية على طغيان عسكرى .

أدرك هذا تماما ووعاه كل شخص فى الامبراطورية الرومانية ، وبخاصة الأباطرة أنفسهم وهم الذين كانوا يعلمون تمام العلم أن حكمهم

كان يقوم من أساسه على العلاقة التى كانت تربطهم بأغسطس وعلى التأييد الذى كانوا يلقونه من الجيش ، وفوق ذلك فانهم كانوا على بينة من أن أى عضو من أعضاء طبقة السناتو كان له ، من الوجهة النظرية ، نفس الحق فى ارتقاء وظيفة الامبراطور وهو أسمى موظف فى الامبراطورية . فكانوا يعرفون هذا ويعملون بمقتضاه ويسلكون السبيل الى ذلك ، ومن أجل هذا كان طابع حكمهم فى العاصمة ، استبداديا قاسيا ، لا رحمة فيه ، وكان الخوف من وقوعهم فريسة احدى المؤامرات مسلطا فوق رقابهم ، ومن أجل ذلك عملوا على القضاء بطريقة منتظمة على جميع أفراد أسرة أغسطس والشخصيات البارزة من أرستقراطية السناتو . ووقعت الاضطهادات الدموية التى وصفها تاسيتوس (Tacitus) وصفا رائعا مؤثرا ، وكاد موقفهم بعد ذلك أن يكون موقف الذلة والمسكنة ازاء الحرس البريتورى وشعب مدينة روما ؛ وما كانت حياتهم الخاصة كذلك الا مليئة بالفحش والمجون ، فأخذوا يدركون أنهم هم « الخلفاء الى أمد قصير » .

وكان جميع أباطرة الأسرة الأغسطية يشعرون بمسيس الحاجة الى توطيد أركان سلطانهم وتأسيسه على دعائم أقوى من مجرد الأسس القانونية التى ارتكزت عليها ، وكان الاقرار الشرعى الدال على تمتع الامبراطور بالسلطان يجىء بالطبع عن طريق موافقة السناتو على منح الرئيس الجديد (princeps) كل السلطات التى كانت مخولة لأغسطس والتى أصبح بمقتضاها الحاكم الأول فى مدينة روما وفى الامبراطورية الرومانية . ولكن الأباطرة كانوا فى حاجة الى اقرار أهم من ذلك وأكثر ثباتا يتوافر فيه البعد عن سلطان مجلس السناتو ويكون ملازما ومتصلا لا بنظام الرياسة (principate) فحسب ، ولكن بشخص الامبراطور كذلك . وهذا هو السبب الذى حدا بخلفاء أغسطس — وبخاصة كاليجولا

(Caligula) ونيرون (Nero) — الى بذل جهود متواصلة من أجل التطور بعبادة الامبراطور وجعلها فرضا ونظاما من أنظمة الدولة . وعلى هذا بذلت الجهود كذلك كيما ترتبط المشاعر الدينية لدى سكان الامبراطورية بشخص الامبراطور فى حال حياته ؛ وذلك بأن تسبغ عليه أسماء مقدسة وأن ينعت بصفات الآلهة فيعترف به كواحد من مجموعة الآلهة اليونانية الرومانية ولا سيما أپولو وهرقل ، وكلاهما كان من المشجعين الحافزين على الحياة المستقرة التى عرفت لون الحضارة والعاملين على حماية الجنس البشرى من الظلمات الغاشمة . كان لتيبريوس وكلوديوس حظ عظيم من الثقافة والتعليم ، وقد دربا على التفكير الفلسفى ، فأدرك كل منهما تماما مبلغ ما كان عليه مثل هذا الادعاء من سخف ، وقاوما فكرة عبادتهما وابراز مراسم العبادات والمظاهر التى تنم عن شعور دينى حقيقى صادر بصفة خاصة من الولايات الشرقية . وان موقف كلوديوس ازاء تأليهه ورفعه الى مصاف الآلهة ليبدو جليا فى بردية جديدة كشفت حديثا فى فيلادلفيا ، وهى عبارة عن رسالة بعث بها الى أهل الاسكندرية وفيها رفض الامبراطور رفضا باتا قبول الطقوس الالهية أيا كانت ، ولكن الاعتبارات السياسية أكرهت تيبريوس وكلوديوس نفسيهما على قبول قدر معين من العبادة وبخاصة فى الولايات الشرقية وفى الولايات الغربية التى ألحقت حديثا بالدولة الرومانية [1] .

ومع ذلك كان الطابع القاسى الملطخ بالدماء فى مظاهر حكم اليوليين (Julii) والكلوديين مظهرا واحدا من مظاهر الحياة فى الامبراطورية الرومانية عقب موت أغسطس ، فمن وراء الستار استمرت الاجراءات البطيئة بقصد اعادة بناء الدولة وصياغة نظام الامبراطورية الذى وضعه أغسطس دون أن يكدر صفو هذه العملية ما يجرى فى مدينة روما من

كفاح وما يراق فيها من دماء . وكان أهـم مظاهر تلك العملية تطـور البيروقراطية شيئا فشيئا وابعاد السناتو عن الاشـتراك فى الادارة ثم تركيزها فى أيدى الأباطرة ، وكانت أهم ظاهرة فى هـذا العمل تولى الامبراطور الاشراف على جميع موارد الدولة الرومانية وانفراده بحق التصرف فى دخل الامبراطورية الرومانية وتنظيم انفاقه . وعلى مر الزمن تركز فى أيدى الادارة التى يشرف عليها الامبراطور تقـدير الضرائب المباشرة وغير المباشرة وجمع الضرائب غير المباشرة وادارة أملاك الدولة الرومانية ، واحتفظ السناتو آخر الأمر بالاشراف وحده على المبالغ التى كانت تدفعها المدن فى الولايات التابعة للسناتو الى خزانة الشعب الرومانى.

وفيما يتصل بهذا المعنى كان عهد تيبريوس بل وبالأصح حكومة كلوديوس الجديرة بالتنويه ، على درجة قصوى من الأهمية ، وليس من الضرورى أن نكرر ما ذكره هرشفلد (O. Hirschfeld) وكثير غيره من العلماء على أنه من ثمار أعمال الامبراطور كلوديوس ، ففى كثير من النواحى قام بالخطوات الحاسمة وسن السوابق التى بنى على أسسها تطور البيروقراطية فيما تلا من عصور الامبراطورية ، ولا سيما فى عهد الفلافيين (Flavians) والانطونينيين (Antonines) . وان العناية التى وجهها كلوديوس الى أدق التفاصيل فى التنظيم الادارى الذى تناول شئون الامبراطورية كلها لتبدو ماثلة فى ذلك العدد الكبير من النقوش وأوراق البردى الباقية من عصره ، حيث نجد فيها الأوامر التى أصدرها وخطاباته مسجلة ، وفى الاشارات العديدة الى مثل تلك الوثائق فى مصادرنا الأدبية . وربما كان أكثر هذه الوثائق لفتا للنظر تلك البقايا من أمر أصدره الامبراطور خاص بنظام البريد الامبراطورى (cursus publicus) وقد عثر عليه فى تيجيا (Tegea) ، وذلك الخطاب الصادر من الامبراطور الى الاسكندريين ، وقد سلفت الاشارة اليه ؛ وعندما تناول فى الوثيقة الأخيرة المشكلة المعقدة الخاصـة بنظام مجلس شـورى الاسكندرية

(ألا وهو البولى (Boulé)) ، ثم فى معالجته الموضوع الدقيق الخاص بالعلاقات بين اليهـود واليونانيين فى الاسكندرية ، أظهـر كلوديوس أنه ذو حظ كبير من العلم والمعرفة ببواطن الأمور ، مع التقـدير التام للظروف والأحوال السـائدة والاحاطة الشـاملة بوجهـة النظر العملية بصرف النظر عن الناحية النظـرية ، كما أبدى لبـاقة وكياسـة فى معالجة هـذه الأمور . وإنه لمن العسير أن نفهم كيف أصبح مثـل ذلك الرجل ألعوبة فى الوقت نفسه فى أيدى أزواجه ومواليه ؛ وكل الوثائق التى كان يمهرها باسمه كانت على التحقيق اما من انشائه واما أنه توخى الدقة فى مراجعتها بنفسه . وذلك لأن هذه الوثائق كلها تدل لا على أسلوبه الخاص فحسب ، بل كذلك على ذلك المنطق الخاص الذى تميز به وعلى طريقته التى عرف بها فى التفكير . وحقيقة الأمر أنه — على حد قول مستر اندرسون (Anderson) — فى سنى حياته الأخيرة فقط عندما أخذت قواه العقلية فى الضعف المستمر ، سيطرت عليه ارادة المقربين اليه وتحكمت فيه قوة شكيمتهم ، وربما كان الأمر لا يعدو — حتى فى تلك الفترة — أن اعترى الوقائع بعض التحوير والمبالغة على أيدى تاسيتوس وغيره من الكتاب الذين ينتمون الى طبقة الشيوخ (٢) .

ولم يعترض السناتو على هذا الافتيات على حقوقه من جانب السلطة الامبراطورية ، والسبب هو عين ما كان فى عصر أغسـطس من خـوف السناتو من تحمل مسئولية النفقات الهائلة الضرورية للدولة . وكان ما لدى السناتو من ايرادات آخذا فى النقصان ومقدار ما يكفى لتغطية تلك النفقات أصبح اذ ذاك أقل من ذى قبل عند قيام الامبراطورية . أما الأباطرة فكانوا على العكس من ذلك ؛ اذ أنهم خرجوا من الحروب الأهلية وهم أغنى الناس حالا فى الامبراطورية ، فورثوا عن أنطونيوس وكليوباترة كنوز مصر ومواردها وكانوا على الدوام يضاعفون ثرواتهم بما يحصلون عليه من مصادرات وبما يؤول اليهم من ارث وتركات ،

فساعدهم كل ذلك على قبول تقديم العون للدولة من ايرادهم الخاص بتحمل الانفاق عن سعة فى سبيل اعادة بناء العاصمة والتعهد بصيانتها ؛ ثم اطعام سكان روما وتهيئة وسائل اللهو لهم وتوزيع الهدايا على الجند وايجاد رصيد خاص للصرف على معاشات الجند والقيام بدفعها لهم فى نهاية مدة خدمتهم ، وبناء الطرق فى ايطاليا وفى الولايات ، وتحمل غير ذلك من المطالب . وفى كل هذه الأعمال كان الأباطرة يقتفون خطوات أغسطس ، وهم بمساعدتهم الدولة على هذا النحو أخذوا على عاتقهم مسئولية جسيمة جدا وأصبح من حقهم أن يدّعوا لأنفسهم حق الاشراف على ادارة أموال الدولة . وان اضطلاعهم بهذه التبعات كان من شأنه أن يؤدى الى تقدم مطرد فى النظام الادارى ، وبخاصة فى الولايات ، مما جعل العهد الجديد محببا الى جماهير الشعب الى حد متزايد ، وقلل هذا بالتبعية من سلطان السناتو ؛ وبهذه الطريقة أصبحت أسبقية الامبراطور وسيادته نظاما دائما صالحا للحكم موطد الأركان .

ولتوضيح ذلك المظهر الأساسى فى تاريخ الامبراطورية الرومانية سوف أختار موضوعين أرى الاسهاب فى معالجتهما الى حد ما وهما وان كانا مألوفين ، الا أنه قد يكون من المجدى أن نعيد تناولهما زيادة فى التأكيد .

كان الاشراف على مدينة روما عبئا ثقيلا على الدولة الرومانية ؛ ففضلا عما توجبه الضرورة من تزيين روما حتى تصبح مدينة جميلة جديرة بالمركز الذى تبوأته كعاصمة للعالم ، وفضلا عن التزام الضمان لسكانها الآخذين فى الزيادة ، بالحصول على ضرورات الحياة الأساسية كتوفير مورد لجلب المياه وايجاد نظام للمجارى وكفالة الوسائل الصحية وضمان سلامة المدينة من أخطار الحريق والفيضان والعمل على شق شوارع واسعة مرصوفة واقامة الجسور على نهر التيبر وتنظيم شرطة كافية لصيانة الأمن — وكلها أمور كانت مكفولة من قبل فى كل المدن ذات الشأن

الرفيع فى العالم الاغريقى خلال العصر الهيلينستى فانه فوق كل ذلك كان هناك مصدر باهظ للانفاق وهو اطعام سكان روما والترفيه عنهم . ولم يكن مئات الألوف من أحرار الرومان القاطنين فى روما يأبهون كثيرا بالحقوق السياسية ، وسرعان ما قبلوا ما طرأ من تحول تدريجى فى مصير مجلس العامة فى عهد أغسطس حتى أصبح هذا المجلس مجرد صورة لا روح فيها ، ولم يعترضوا عندما عطل تيبريوس مجرد هذا الاجراء الشكلى ؛ ولكنهم أصروا على حقهم الذى كانوا قد حصلوا عليه من قبل فى أثناء الحرب الأهلية وهو أن تتكفل الحكومة باطعامهم والترفيه عنهم ، ولم يجرؤ واحد من الأباطرة — بما فيهم قيصر وأغسطس — على الافتئات على هذا الحق المقدس لعامة الشعب الرومانى ، وقصروا جهودهم على التقليل من عدد المنتفعين والمستحقين لتوزيع الغلال عليهم، فتركز عملهم فى ابتداع خير الوسائل وأدقها لحسن توزيع تلك الغلال ، كما عينوا كذلك عدد الأيام التى يحق فيها لسكان روما أن يستمتعوا بمشاهدة المناظر الرائعة فى المسارح وساحات الملاعب « السيرك » والمدرجات . ولكنهم لم يهاجموا النظام نفسه على الاطلاق ، لا لأنهم كانوا يخشون بأس سوقة الرومان وطغامهم، فقد كان الحرس الامبراطورى تحت تصرفهم لقمع أية ثورة قد يحاول اشعالها أى نفر من هؤلاء ، ولكنهم آثروا عدم تعكير مزاج سكان روما وعدم تكدير صفوهم . وبالاحتفاظ بجمع كبير بين أحرار الرومان من أرباب المعاشات الذين لهم الحق فى أن تعولهم الدولة — ويبلغ عددهم نحو مائتى ألف رجل من أفراد القبائل الرومانية القديمة ، استطاع الأباطرة أن يضمنوا لأنفسهم الترحيب والاستقبال الحار فى الأيام التى كانوا يظهرون فيها بين جماهير الشعب ، اما للاحتفاء بنصر واما لتقديم قرابين أو لتولى الرياسة فى حفلات السباق الذى يجرى فى ساحات الملاعب « السيرك » أو فى حلبات المصارعة

والمثاقفة ، ومع ذلك فمن وقت الى آخر كانت الضرورة تقضى بوجه خاص أن يكون الاستقبال حارا ؛ فكانوا ينظمون لهذا الغرض حفلات خارج البرنامج العادى ، توزع فيها هبات اضافية من غلال وأموال ، وتقام الولائم التى يشترك فيها مئات الألوف ويوزع عليهم مختلف العطايا . وبمثل تلك الوسائل أمكن الاحتفاظ للشعب بصفاء المزاج « وتنظيم رأى عام » فى مدينة روما ؛ وكانت النفقات لتوجيه الرأى العام مضافا اليها ما تتطلبه صيانة روما واحتفاظها بحالة طيبة ، باهظة بلا ريب ، ولم يكن السناتو الذى اقتصرت موارده المالية ، فيما نعلم ، على الضرائب المباشرة التى كانت تجبى من الولايات التى اختص بالاشراف عليها ، بقادر على مواجهة هذه المطالب ، وكان الأباطرة على استعداد لتحمل هذه المسئولية على شرط أن يتخلى السناتو فيترك الأمر كله فى أيدى الأباطرة، وقد كان هذا — شأنه شأن الاشراف على أمور الجيش — أحد أسرار الحكم وأركانه (arcana imperii) فى صدر الامبراطورية [٣] .

والى جانب تركيز الاشراف علىموارد الدولة منايرادات ومصروفات فى أيدى الامبراطور ، صحب ذلك ازدياد فى اشراف الامبراطور على ادارة الولايات التابعة للسناتو . ومنذ اللحظة الأولى كان للأباطرة فى الولايات التابعة للسناتو — وهى التى كان يعين السناتو حكامها — مندوبون عنهم ، أو وكلاء شخصيون ، يشرفون على ادارة أملاكهم الخاصة . وكان هؤلاء المندوبون بمثابة «العيون والآذان» للامبراطور فى هذه الولايات فكانوا يطلعونه على كل ما يجرى هناك ، لكى يتمكن اذا اقتضى الأمر ، من أن يثير فى مجلس الشيوخ موضوع سوء الادارة، وتحت تأثير الرأى العام بالطبع كان السناتو غير راغب فى التستر بنفوذه على سوء ادارة الحكام المعينين من قبله .

وكلما ازداد عدد المندوبين عن الامبراطور نتيجة لزيادة الأملاك

الامبراطورية وانتقال جباية الضرائب غير المباشرة الى أيديهم ، كلما أصبح اشراف الأباطرة على الحكام من طبقة أعضاء الشيوخ فعالا . ومن ناحية أخرى كلما عظم نصيب الأباطرة فى تعيين أعضاء الشيوخ الجدد والاستغناء عن القدامى منهم — وذلك عن طريق تقديم التزكية للمرشحين ومراجعة ثبت الأعضاء بين الحين والآخر — كلما كان رأى الأباطرة حاسما فى موضوع اختيار أعضاء السناتو لتولى حكومة الولايات . وفى الحق كان حكام الولايات جميعا منذ القرن الأول الميلادى ، معينين فعلا من قبل الامبراطور عن طريق مباشر ، على الولايات التى اختص بها الامبراطور وعن طريق غير مباشر على الولايات التى كانت من نصيب مجلس السناتو (٤) ؛ وبهذه الطريقة أصبح مصير الادارة الامبراطورية أن تتحول شيئا فشيئا الى بيروقراطية ، مما أدى الى نشأة طبقة اجتماعية جديدة من الموظفين الامبراطوريين — وجلهم من العبيد والموالى التابعين للأباطرة — ولا يرجع أصل هذه الطبقة ونشأتها الى ما قبل عهد أغسطس ولكنها زادت بسرعة واشتد نفوذها فى عهد خلفائه ، وبخاصة فى عهد كلوديوس .

ولا يقل عن ذلك أهمية ما قام به الأباطرة من جهد فى سبيل « تحضير » الامبراطورية ، وأعنى بذلك الولايات الرومانية فى الشرق والغرب ، وقد صنفت المجلدات الكثيرة فى تنظيم الامبراطورية ونشأة البلديات (municipia) فى أرجائها ولكن لم يتعرض أحدها لمشكلة « تحضيرها » وتمدينها ، ونعنى بذلك تأسيس مدن جديدة كانت فى أصلها قبائل وقرى ومعابد وما الى ذلك ، واننا لفى حاجة عاجلة الى ثبت كامل ينتظم أسماء المدن فى مختلف الولايات حسب الترتيب الزمنى لنشأتها . ومن بينها قد يتكشف الأمر ولا ريب ، عن وجود عشرات المدن فى كل ولاية وقد بدأت تدب فيها الحياة الحضرية فى أعقاب الحروب

الأهلية وان كان أغلبها منشآت تدين بوجودها الى عصر أغسطس ، على أن بعضها قد أضيف فى عهد خلفائه وبخاصة فى عهد كلوديوس الذى كان فى دأبه ونشاطه فى هذا الميدان لا يقل عنه فى العمل على النهوض بالبيروقراطية الامبراطورية . وعلى سبيل المثال يمكن توضيح هـذا بما أسسه من مستعمرات جديدة وبسياسته الكريمة القاضية بأن تضم الى المدن تلك القبائل التى كانت « تعزى اليها » وهى بهذا الوصف لا نصيب لها فى حياة تلك المدن وحضارتها ، ومما لا ريب فيه أن عملية « تحضير » الولايات منذ بدئها فى عصر أغسطس قد خطت خطـوات واسعة فى عهد كلوديوس . والمثل الرائع على ذلك هو أسبانيا التى سوف نعرض لها فيما بعد عندما نصل الى مناقشة الموضوع العـام المتعلق بالحضر والريف فى الامبراطورية الرومانية ..

وفى معالجة مشكلة « تحضير » الامبراطورية وتمدينها على عهد خلفاء أغسطس يجب أن نحسب حسابا لتلك الحقيقة ؛ وهى أن هـذا التحضير كان يمثل مرحلة طبيعية من مراحل التطور فى الولايات — اذ أن سكان الولايات كان يروقهم ذلك المستوى العالى الذى بلغته الحياة المتحضرة من حيث اتصاله بنظام المدن — كما أنه كان سياسة مرسومة انتهجها الأباطرة الذين كانوا قد شغفوا بتشجيع هذا التطور وصـبغه بصبغة رسمية كى يقوى الأساس الذى يقوم عليه سلطانهم ، نظرا لأن هذا السلطان كان العماد فيه على ذلك الجزء المتحضر من الامبراطورية وقوامه سكان الحضر ، وأيسر سبيل هو ترسم الخطى فى الطريق الذى رسمته حرب « الحلفاء » ثم سلكه معظم الزعماء فى عهود الانقلاب وهم سلاّ وپمپى وبخاصة قيصر ، وبعد ذلك منح الجنسية الرومانية لكل العناصر الساكنة فى الحضر فى الامبراطورية . ولكن بقى أن نتذكر أن انتصار أغسطس كان مرده بوجه خاص الى تأييد المواطنين الرومان فى

ايطاليا ، وأن أولئك المواطنين كانوا جد حريصين على امتيازاتهم ومركزهم المسيطر على شئون الدولة الرومانية ، وهذا يفسر ما أظهـره كل من أغسطس وتيبريوس من البطء والاعتدال فى منح الحرية الرومانيـة لسكان الولايات ، ويوضح المعارضة القوية التى قامت فى وجه كلوديوس فأكرهته — مع ما قد يكون فى هذا من معارضة لعقيدته — على التمسك الى حد ما بالتقاليد الموروثة عن أغسطس واتخاذ الحيطة بوجه خاص فى منح امتيازات الجنسية الرومانية . وهناكذلك عمد مؤسسو الامبراطورية وهم المواطنون الرومان ، الى فرض ارادتهم على مرشحيهم ونجحوا فى أن يجعلوا من تحقيق المساواة السياسية التى كانت كامنة فى نظـام الامبراطورية ، عملية تسير بخطى وئيدة على قدر المستطاع .

وقد كان للأباطرة مطلق الحرية فى النهوض بالحياة الحضرية فى داخل الامبراطورية وتشجيعها على التقدم المطرد ، لأن هذه السياسة لم تجد معارضة لدى الطبقات العليا أو بين المواطنين الرومان بوجه عام . وهذا هو السبب فى أن أغسطس ، بل وتيبريوس ، وبخاصـة كلوديوس كانوا على استعداد لتأسيس مدن جديدة ، وعند عدم توافر عدد كبير من المواطنين الرومان الجدد استعاضوا بعدد مطرد الزيادة من سكان الحضر، وكانوا على ثقة من أن هؤلاء بمجرد تنسمهم مبادىء الحياة الحضرية سوف يكونون أفضل دعامة فى تأييد النظام الذى أتاح لهم فرصا هامة واسعة المدى ، ويجب أن نذكر أنه بالاشتراك مع المواطنين الرومان كانت كتلة سكان الحضر، وبخاصة أفراد الطبقة الوسطى «البورچوازية» من سكان الولايات هى التى أيدت أغسطس وكانت على اسـتعداد لنصرة خلفائه ، على شرط أن يضمن هؤلاء لها مركزها الممتاز بين عامة سكان الريف فى الولايات ، مع توفير السلم وحفظ النظام الى جانب ذلك ، وعلى أى حال فتلك المدن التى تكونت فى أصل نشـأتها من

مستعمرات رومانية أو لاتينية ، كانت كاجراء مؤقت فى مركز يحتم عليها أن تقنع الى حد كبير بمنزلة من الحرية هى فى المرتبة الثـانية فترضى بمركز المدن « الحليفة » أو التابعة ؛ ولكن كاد يحين الوقت الذى يجرى فيه فى الحال تطبيق سياسة أكثر ثباتا واتساقا فى عهد الفلافيين ، على مدن الامبراطورية ، قديمها وحديثها على السواء (٥) .

وكان من نتيجة هذه الحركة أن بناء الامبراطورية الرومانية أصبح قريب الشبه بنظائره فى الممالك الهيلينستية ، ولكن استمر كثير من أوجه الاختلاف الأساسية باقيا ، فسيد الامبراطورية الرومانية كان ، مثله مثل الملوك الهيلينستيين ، طاغية ذا طابع عسكرى ، يعتمد فى نفوذه على الجيش ، ولكنه لم يكن أجنبيا ولم يرتكز فى سـلطانه على الأجانب والمرتزقة من الجند ، بل كان رومانيا وعضـوا من الأمة الحاكمة فى الامبراطورية ، ثم انه كان المواطن الأول بين المواطنين الرومان ، وجيشه يتألف من الرومان الأحرار ويؤدى الخـدمة العسكرية لا لشـخص الامبراطور بل للدولة الرومانية ولآلهة الرومان ؛ والامبراطور كان بحق الها فى ذاته وانما كانت عبادته ينقصها بعـض ما كان لعبـادة الملوك الهيلينستيين من الطابع الشخصى . فكان الها ما دام سيد الدولة ويتولى الحكم فيها ، وتتمثل فى شخصه قدسية الدولة ، وعقب موته قد يرفع الى مصاف الآلهة فى السماء وقد لا يتحقق له ذلك على حد سواء ؛ اذ أن كل هذا كان متوقفا على الطريقة والأسلوب الذى كان يسوس به شئون الدولة .

وبلغ حكم أسرة أغسطس من اليوليـين والكلوديين نهايته بانتحار نيرون عقب قيام ثورة عسكرية ونجم عن ذلك اشتعال حرب أهلية دامت نحو عام يعرف « بعام الأباطرة الأربعة » . ولا يكتنف الغموض أسباب هذه الأزمة الجديدة فى حياة الدولة الرومانيـة ، فتيبريوس وكاليجـولا

وكلوديوس ونيرون كانوا جميعا من الناحية العملية مرشحى الجيش الرومانى وصنائعه ؛ وبحكم الظروف القاهرة ، أصبح الدور الرئيسى فى ترشيح امبراطور جديد لا من حق الجيش كله بل اختص به الحرس البريتورى المقيم فى روما والذى كان يضطلع بدور رئيسى فى الحياة السياسية ، فمن وقع عليه اختيار رجال هذا الحرس قبلته فى العادة جيوش الولايات بلا تردد ، ومع ذلك فقد أخذ الفساد يتطرق الى هذا الاجراء شيئا فشيئا حتى أصبح صورة من صور الدكتاتورية فى أيدى الحرس البريتورى الذى كان يمنح تأييده لأولئك الذين كانوا على أتم استعداد لدفع ثمن هذا التأييد . ولما بانت هذه الحقيقة وأصبحت جلية لكل انسان خيم جو من الشك والكراهية والحقد على رجال هذا الحرس وعلى مرشحيهم فى طول الامبراطورية وعرضها . واشتد أثر هذا الحقد فى نفوس الجنود المرابطين فى الولايات بصفة خاصة . وفضلا عن ذلك فان الأباطرة الأخيرين من أسرة أغسطس أغفلوا توطيد علاقاتهم بالجيش . وقل ، أو ندر ، ما كانوا يظهرون بين قواتهم حتى أصبحوا أباطرة على مدينة روما لا يكاد يعرفهم أحد بين جمهرة رجال الجيش ولا بين جموع السكان المدنيين فى ربوع ايطاليا وسائر الولايات ؛ وأخيرا كانت الحياة الخاصة التى درج عليها أولئك الحكام وهى مليئة بالفضائح والجرائم الفظيعة والاستهتار المشين مما لايتفق والصورةالتى كانت فى أذهان الرومان ، وبوجه خاص جنود الجيوش المقيمين فى أرجاء الولايات ، عن المواطن الأول وزعيم الدولة الرومانية ، وفوق كل ذلك فان نيرون بقتله أمه وأخيه ، وبولعه بالفنون وشغفه بسباق العربات ، وهو الامبراطور الذى لم يعن مطلقا بزيارة جيوشه فأمضى حياته الصاخبة يرتع فى أحضان غوغاء مدينة روما وطوائف الاغريق ، قد قضى قضاء تاما على كرامة أسرة أغسطس وأهدر ما كانت تتمتع به من سمعة طيبة .

وعلى ذلك كانت حركة العصيان الحربى الذى اندلعت نيرانه بين عامى ٦٩،٧٠م ، بمثابة احتجاج من قبل الجيوش الاقليمية وسكان الامبراطورية بوجه عام ضد ذلك الطغيان العسكرى الفاسد الذى ساد فى عصر خلفاء أغسطس ، وقد بدأت تلك الحركة فى صورة ثورة شنها الكلت ضد سلطان نيرون وبغيه ، ولكنها ما لبثت أن اتخذت صورة ثورة عسكرية قام بها كل من جيوش أسبانيا وألمانيا ضد الامبراطور ، فنادى جند الأسبان بـ « جالبا » (Galba) امبراطورا على روما واعترف به الجيش والسناتو فى أول الأمر ثم سرعان ما أعدمه الحرس البريتورى وباع العباءة المزركشة التى كان يتحلى بها الامبراطور الى « اوتو » (Otho) ، وكان هذا صديقا حميما لنيرون . وقد أثارت هذه المحاولة الجديدة ، التى قام بها الحرس البريتورى من أجل السيطرة على شئون الدولة ، سخط فصائل الجيش الرومانى فى ألمانيا ولقى مرشحها « ڤيتليوس » (Vitellius) نجاحا فى سحق « اوتو » هذا ومن معه من رجال الحرس البريتورى ، ولكنه أظهر عجزا بينا عن حكم الدولة واضطر أن يواجه اعلانا رسميا جديدا صادرا فى هذه المرة من الشرق حيث قامت القوات الشرقية بتقديم تاج الامبراطورية الى « ڤسباسيان » (Vespasian) الذى اعترف به جيش الطونة ونجح فى سحق قوات « ڤيتليوس » .

وانى لعلى يقين تام بأن هذا الرأى فى قيام الحرب الأهلية عام ٦٩ م . لا يتفق مع الفكرة السائدة ؛ فمعظم العلماء الذين عالجوا هذا الموضوع الخاص بعام الأباطرة الأربعة ، يميلون — فى تعليل تلك الثورة الدامية والبحث عن سبب أو هدف بعيد لها — الى افتراض وجود ما يشبه الحركة الانفصالية من جانب الولايات والجيوش المرابطة فى محيطها بوصفها أداة للتعبير عن مشاعر سكان تلك الولايات ، ولست أرى أقل

أثر لتلك الميول الانفصالية المزعومة من ناحية جند الرومان . وعلى التحقيق استغل الغاليون تلك الثورة كأداة فى تحقيق أمانيهم الوطنية مع ما تنطوى عليه من غموض شديد ، ولكن أول اجراء قام به الجيش الرومانى كان يتركز بالضبط فى العمل على سحق ثورة الغاليين المحلية ، على الرغم من ارادة زعماء تلك الثورة ، وفضلا عن ذلك فان السلاح الرئيسى فى القـوات الرومانية كان لايزال هـو الأورط المؤلفة الى حد كبير من رجال ينتمون الى أصل ايطالى ، بل ان أغلبهم ولدوا بالفعل فى ايطاليا وشبوا وتعلموا فى ربوعها . ومن العسير أن نصدق أن أولئك الرجال قد تنكروا لماضيهم بمثل تلك السهولة ، وأنهم فقدوا الشعور بأنهم كانوا أسياد تلك الولايات واعتقدوا بأن لتلك الولايات الحق فى أن تفرض ارادتها على الدولة الرومانية .

وانما الذى جرى بالفعل ، طبقا لما تواتر به القول ، هو أن الجيش الرومانى أعلن سخطه على الصورة التى آل اليها أمر الزعامة ممثلة فى أشخاص الحكام الأخيرين من الأسرة اليولية الكلودية وأظهر الجند أنهم سادة الموقف ، وأنه لا رابطة تربطهم ببيت معين بالذات من الأسرة اليوليـة الكلودية ، فشاءت ارادتهم أن يكون زعيمهم (princeps) المختار هو أفضل رومانى من طبقة أعضاء السناتو ويصبح الرجل الأول المقدم على غيره فى الامبراطورية ويتولى قيادة الجيش الرومانى . وكانوا فى هذا الشأن على أتم وفاق مع الرأى العام السائد بين جمهرة الرومان الأحرار ، ولم يجل بخاطرهم على الاطلاق أن يستغنوا عن نظام الزعامة فاتفقوا فى هذا الرأى مع الرومان الأحرار وقاوموا بشدة وعارضوا فى حماسة واصرار أى اتجاه نحو تفكك الامبراطورية الرومانية على النحو الذى دعا اليه فى أول الأمر الكلت فى غاليا ثم من بعدهم بعض القوات المساعدة وأغلبها من الألمان فى جيش الرين . وهذه الحركة فى حـد

ذاتها هى رد فعل صادق ضد الطغيان العسكرى المفكك الأوصال ، الذى اصطنعه نيرون ، والحياة الخاصة المليئة بالفضائح التى تردى فيها مثل ذلك الطاغية الشرقى ، مع ما عرف عنه من اهمال لواجباته العسكرية والمدنية ، وعطفه البين على كل شىء لا يمت بصلة لكل ما هو رومانى فكان فى كل هذا ، بحق ، مقتفيا خطى كاليجولا ، على الرغم من غفلته عن ذلك ؛ وقد استحال الكفاح ضد نيرون شيئا فشيئا الى حرب أهلية نظامية بسبب تلك الأطماع السياسية التى كانت تنطوى عليها نفوس الزعماء والمنافسة الشديدة الى حد التناحر بين العناصر المختلفة التى كان يتألف منها الجيش الرومانى [٦] .

ولكن هذه الحرب الأهلية بلغت نهايتها العاجلة بفضل ضغط الرأى العام ، اذا جاز لنا أن نفترض هذا الظن ، وحدث ذلك بصفة خاصة فى ايطاليا التى كانت ساحة قتال بين الجيوش المتنافسة ، ووطنا لأعداد كبيرة من الجند . ويجب أن نذكر أن غالبية هؤلاء الجند كانوا لا يزالون رومانيين ، دربوا وثقفوا طبقا للأسس نفسها التى اتبعها أصحاب الأملاك من الايطاليين ، والفلاحون ، وأنهم كانوا لا يزالون يتكلمون نفس اللغة اللاتينية الصحيحة التى كانت مستعملة فى ايطاليا ، وأنهم التقوا فى ايطاليا بكثيرين من المحاربين القدامى الذين احتفظوا بالتقاليد المتوارثة عن جيش أغسطس . وفى وسعنا أن نسوق حالتين على سبيل المثال للتدليل على مبلغ الاستياء والحرج الذى نجم عن الحرب الأهلية وكانت له آثاره البعيدة المدى فى نفوسهم وفى نفسية الشعب الايطالى بوجه عام . وهذان المثالان مستمدان من تلك الصورة البديعة للحرب الأهلية كما وصفها لنا أعظم عالم نفسانى كتب فى التاريخ ؛ فقد ذكر تاسيتوس (Tacitus) فى مؤلفه « التصانيف التاريخية » (الكتاب الثالث فصل ٢٥) ما يلى :

« بعد أن انخرط أسبانى يسمى يوليوس مانسويتوس (Julius Mansuetus) فى سلك الجندية فى الأورطة المسماة راپاكس (Rapax) أى المرعبة

ترك ابنه الصغير مع أهله فلما اشتد ساعد الابن التحق بدوره بالجيش فى خدمة جالبا (Galba) بالأورطة السابعة والتقى بأبيه فى ساحة القتال ونازله فأرداه جريحا ، وبينما هو يجرده ويسلبه ما لديه ، تعرف أحدهما على الآخر فمد الابن ذراعيه وطوق أباه الجريح والدم يقطر منه وأخذ يناجيه بصوت خنقته العبرات ، متوسلا الى روح والده أن تهدأ وألا تضمر له البغض بوصفه قاتل أبيه ثم صاح قائلا ان هذا الا حال جميع الناس : فما الجندى الواحد الا قطرة فى محيط خضم من الصراع الأهلى ! وبهذه العبارات حمل جثة أبيه وحفر قبرا لها وواراها فيه ليكون مثواه الأخير بعد تأدية الطقوس والمراسم الأخيرة لوالده ، وقد استرعى هذا كله نظر من كانوا على مقربة منه ثم اهتمام الآخرين حتى سرت بين جميع رجال الجيش روح الدهشة واستولى عليهم الفزع والهول لما شاهدوه وعلموه فأخذوا يصبون اللعنات على تلك الحرب الغاشمة » ثم أضاف تاسيتوس « ومع ذلك فلم يتسرب اليهم الوهن فى أعمال الذبح والسلب لذويهم وأقربائهم واخوتهم » وكان تاسيتوس مصيبا فى قوله ان الجند لم يكفوا عن القتال على الرغم من شعورهم بالاشمئزاز والاستنكار ولكن هذا الشعور أخذ بلا ريب يتزايد ويستفحل وكان الجند يذكرون بمسئوليتهم عن هذه الحرب ومبلغ ما ينطوى عليه الاستمرار فيها من سخف وعدم جدوى بذلك المسلك الذى كان يتخذه منهم اخوانهم من الأحرار فى ايطاليا وموقفهم ازاء أعمالهم . أما المثل الثانى فهو مقتبس كذلك من تاسيتوس ، فبعد موقعة فاصلة وحصار قصير سقطت كريمونا (Cremona) فى أيدى أنصار فسپاسيان وتلا ذلك مناظر بشعة تجلت فيها أعمال النهب على نطاق واسع من تقتيل وعدوان وسلب ، وقد أخذ شعور الرأى العام فى ايطاليا يغلى وينحى باللائمة على مقترفى هذه الجرائم ويقول تاسيتوس فى هذا الشأن : « ان أنطونيوس عندما اعتراه الخجل من جراء بشاعة

الجرم وأدرك مبلغ استنكار الجمهور الشديد وامتعاضه ، أصدر أمرا يقضى بأنه لا يجوز الابقاء على أحد مواطنى كريمونا أسير حرب . وفى الحق أن مثل هذه الغنيمة قد أصبحت من قبل عديمة الجدوى بالنسبة للجند تحقيقا لاتفاق عام فى كل ايطاليا كان يقضى بعدم التعامل بأمثال هؤلاء العبيد بيعا وشراء ، وعندئذ شرع الجند فى قتل أسراهم ، فلما عرف هذا وذاع أمره أخذ أصهار أولئك الأسرى وذوو قرباهم يفتدونهم سرا » (أنظر التصانيف التاريخية لتاسيتوس ، الكتاب الثالث ، فصل ٣٤) .

ومن الجلى اذا ، أن الحرب الأهلية فى عام ٦٩ — ٧٠ م.كانت فى صميم جوهرها انقلابا سياسيا ، ومع ذلك فقد تداخلت فيها العوامل الأخرى حتى جعلتها خطرة جدا على مستقبل الامبراطورية ، وان مرارة الكفاح وقسوته والمأساة التى تمخض عنها نهب كريمونا وتذبيح الأغنياء جملة فى ايطاليا وفى روما [٧] على أيدى الجند سواء أكانوا منتصرين أم مهزومين — كل أولئك يدل على أن العداوة تفشت بين جند الأورط — بله جند الاحتياطى والفرق المساعدة — ازاء الطبقات الحاكمة فى ايطاليا وأنصارها من رجال الحرس البريتورى الذين كانوا يمثلون طبقة سكان المدن فى ايطاليا وبخاصة الطبقة الوسطى من البورجوازية فيها ؛ ولا ينبغى أن ننسى أن من بين الاجراءات الأولى التى عمد ڤسپاسيان الى اتخاذها عقب انتهاء الحرب الأهلية هو العدول عن تجنيد رجال الأورط من بين شباب ايطاليا [٨] ؛ فهل كان هذا ميزة منحت لايطاليا لتقصيرها فى تأييد ڤسپاسيان فى كفاحه من أجل الاستئثار بالسلطان ؟ أو هل كان هـذا اعترافا واقرارا بعجز ايطاليا عن أن تمد الأورط بالعـدد الكافى من الجند ؟ وانى لأميل كثيرا الى الاعتقاد بأن البحث عن السبب يقتضى الاتجاه صوب ناحية أخرى .

وعلى النحو الذى شاهدناه لم يكن الاجـراء المرعى فى حشـد الأورط الرومانية يتبع القاعدة العـامة ، من حيث الاجبار ، بل كانت تتألف من متطوعين . والواقع أن مسلك ڤسپاسيان القاضى باقصـاء المتطوعين الايطاليين عن الأورط — على خلاف ما جرى عليـه العرف السـائد — مع السماح لهم بحرية الانضـواء فى كتائب الحـرس البريتورى دون غيرها ، ليدل على أن هذا الاجراء لم يكن امتيازا منح لايطاليا ، فكيف اذا يفسر هذا العمل ؟ انى لأميل الى الرأى القائل بأن ڤسپاسيان الذى كان يعـرف تمام المعرفة تاريخ الحـرب الأهلية وأسباب قيامها ، أصبح يخشى أطماع المتطوعين الايطاليين ومزاجهم السياسى ، فلم يشأ أن تضم الأورط جندا ممن ولدوا فى ايطاليـا خشية أن يكون هؤلاء الجند مجلوبين من بين عناصر السكان المعروفين بشدة المراس وتفشى السخط فيهم والميل الى الانفعال وسرعة التأثر الشديد ، وهؤلاء هم غوغاء الحضر وطغمة الريف فى ايطاليا . وكان فى الأفق خطر يهدد بأن يصبح الجيش مرة أخرى وقد غلب عليه عنصر الرعاع والحثالة من المواطنين كما كانت الحال فى أواخر عهد الجمهورية الرومانية فيعيد عصر الحروب الأهلية ، والظاهر أن أفضل العناصر فى ايطاليا نجحت فى أن تضمن لنفسها المناصب العليا فى الجيش ، وكانت الخدمة فى كتائب الحرس البريتورى هى السبيل الموصل اليها ، ويظهر أن العناصر الفقيرة من السكان الايطاليين كانت وحدها التى تلتحق بالخـدمة فى الأورط ، وبينـما خفض ڤسپاسيان عـدد المتطوعـين الايطاليين ، اذا به يترك كيان هيئة الضباط وكتائب الحرس البريتورى على حاله كما كان من قبل ، ولكنه طبع الأورط — الى حد بعيد — بطابع اقليمى ، وسوف نرى فيما بعد أن هذا الرأى متفق تماما مع النشاط الذى كان يبديه ڤسپاسيان فى الولايات الغربية بوجه عام . فالذين انضووا فى سلك الجندية من العناصر المجلوبة من مدن الأقاليم

المصطبغة بطابع رومانى ، لم يمثلوا طبقة الغوغاء والعامة بل انهم كانوا عنوانا للطبقات العليا من السكان .

ومع ذلك فقد يعرض السؤال الآتى ، وهو : كيف نعلل وجود عدد كبير نسبيا من بين طبقـة العامة وطغامهم فى ايطاليا ؟ وللاجابة على هذا السؤال يجب علينا أن نبحث فى التغييرات التى حدثت فى الحياة الايطالية والتى نجمت عن التقدم الاقتصادى فى الامبراطورية فى عهد أباطرة الأسرة اليولية الكلودية .

وليس من اليسير عقد مقارنة بين الأحوال الاقتصادية السائدة فى عصر أغسطس وبين نظائرها مما تميز به عصر اليوليين والكلوديين ، ولا يزال من الصعوبة بمكان وضع حد فاصل بين العصر الأخير وعصر الفلافيين . ومع ذلك فمثل هذا التمييز أمر ضرورى اذ بدونه نصبح عاجزين عن تفهم تطور الحياة الاقتصادية فى الامبراطورية الرومانية ، ويجب أن ندرك أن أكثر من نصف قرن كان قد انقضى بين موت أغسطس واعتـلاء فسپاسيان عرش الامبراطورية ، وأن نصف قرن ليس بالفترة القصيرة وبخاصة فى عصر كالقرن الأول الميلادى ، كان مفعما الى حد كبير بالحوادث والظواهر الجديدة . والصعوبة فى تقصى الظـروف الاقتصـادية السائدة فى العصر اليولى — الكلودى منشؤها طبيعة المصادر التى فى متناولنا وضآلة ما تسوقه من أدلة وشواهد ، فالمؤرخون لم يعنوا بالحياة الاقتصادية فى الامبراطورية ، والمصدر الثـانى الذى نستقى منه معلوماتنا يجىء مما ينتجه الباحثون فى علم الأخلاق والكتاب المشتغلون بالمسائل العلمية ، فتصانيف هؤلاء جميعا تحتوى على مادة لها قيمتها العظيمة . وقد قدمت الظروف الاقتصادية السائدة فى القرن الأول ، للفريق الأول مثلا طيبا لتوضيح ذلك الضلال الخلقى وما كان ينطوى عليه من شذوذ تردى فيه معاصروهم ، فى حين كان الفريق الثانى اما معنيا

بالمشاكل الاقتصادية عن طريق مباشر أو مضطرا الى الاشارة الى بعض الحقائق الاقتصادية فى أثناء معالجة مختلف المسائل العلمية . وعلى ذلك فبينما لا يذكر لنا تاسيتوس وسويتونيوس وكاسيوس ديو الا القليل من المعلومات عن الحالة الاقتصادية فى الامبراطورية بين عام ١٤ م ، ٧٠ م ، فلدينا دليل قوى فيما يسوقه كتاب من أمثال سينيكا الحكيم وأبيه وپرسيوس (Persius) ، ثم لوكان (Lucan) كذلك ؛ وما يعرض له بصفة خاصة پترونيوس (Petronius) من ناحية وپلينى الأكبر (Pliny) وكولوميلا (Columella) من ناحية أخرى . ولكن لسوء الحظ لم يحاول واحد من هؤلاء أن يجمع هذه المادة ويستنبط منها النتائج سوى پترونيوس وكولوميلا [١٩] . والباحث فى التاريخ الاقتصادى لهذا العصر قد يستمد العون من الفحص الدقيق للنقوش والآثار وبخاصة ما كان منها مستقى من پمپيى (Pompeii) ، ومن المستحيل فى مثل هذا الكتاب المحدود الحجم أن اضطلع بمهمة الاستقصاء التام على النحو المطلوب ، فالواجب يقضى علىّ أن أقتصر على ذكر الأثر الذى تركته فى نفسى هذه المصادر السالفة الذكر بعد قراءتها للمرة الثانية .

ويبدو لأول وهلة كما لو أن الأمر ليس فيه تباين بين الظروف الاقتصادية السائدة فى عصر أغسطس ونظيراتها فى العهد اليولى — الكلودى . وفى وصف ذلك العصر الأخير نجد أنفسنا منساقين من غير أن نشعر ، الى الاستفادة بلا تفرقة أو تفضيل ، من ڤرچيل وهوارس وتيبولوس (Tibullus) وپروپرتيوس (Propertius) وأوڤيد (Ovid) من ناحية ثم پرسيوس (Persius) وپترونيوس (Petronius) وسينيكا وپلينى وكولوميلا (Columella) من الناحية الأخرى ثم كتاب العصر الفلاڤى كذلك من رومان واغريق على السواء . وانه لحق أن الظواهر الأساسية بقيت على حالها مطابقة لما كانت عليه من قبل وانحصر الاختلاف

فى مبلغ تطورها وتقدمها وفى ظهور بعض العوامل الجديدة ؛ وقد بقى موقف الأباطرة حيال الحياة الاقتصادية : أكانت لهم سياسة اقتصادية معلومة أم كانوا مفتقرين الى وجود سياسة مرعية ، على حاله الذى كان عليه فى أيام أغسطس ، فسادت سياسة تقضى بترك الأمور تجرى فى أعنتها ؛ وفى أوقات الملمات والشدائد كانت الدولة تشعر بأنها مضطرة الى مساعدة المنكوبين ، كما حدث مثلا عقب الزلزال الهائل فى آسيا الصغرى فى عهد تيبريوس ؛ واتخذت بعض الاجراءات التى ربما كان لها تأثير فى الحياة الاقتصادية بوجه عام . ومن أمثلة ذلك الاجراءات التى كانت تستهدف تحسين نظام جباية الضرائب وأخرى لفرض ضرائب جديدة أو متعلقة بأحوال النقل وغيرها . ولكن أمثال هذه الاجراءات كان المرعى فيها أن اتخاذها كان دائما لتحقيق أهداف مالية صرف ، والغاية من ذلك تحسين مالية الدولة وليس الهدف اصلاح الأحوال الاقتصادية وتحسينها أو اعادة تنظيمها ؛ وهكذا مضى التقدم الاقتصادى وهو لا يكاد يكدر صفوه أى تدخل من جانب الدولة ، ومظاهره الأساسية هى بعينها تلك التى كانت طابع العصر الأغسطى مع فارق وهو أن اتاحة الحرية المطلقة لتلك القوى الطبيعية فى العمل كان من شأنه أن يجعل هذه المظاهر واضحة المعالم أكثر من ذى قبل .

وان أعظم هذه المظاهر أهمية ما أفادته الولايات من نهضة اقتصادية دبت فى حياتها فأيقظتها من سباتها شيئا فشيئا ، وقد أصبح هذا الانتعاش ظاهرة ملحوظة تماما فى الشرق ، بل ان نظرة عابرة الى آثار المدن وخرائبها وعرضا سريعا للنقوش الموجودة فى آسيا الصغرى وسوريا والمامة عاجلة بأوراق البردى فى مصر لتكفى للدلالة على مبلغ السرعة فيما صادفه الشرق من تقدم اقتصادى على عهد أغسطس ثم على عهد خلفائه بدرجة أكثر وضوحا[١٠] . وقد استردت الولايات الغربية كذلك ، وبصفة خاصة

بلاد الغال وأسبانيا وأفريقيا ، نشاطها الاقتصادى الذى توقف فى أول الأمر بسبب الحروب التى شنتها روما لغزو تلك البلاد ثم بعد ذلك بسبب الحروب الأهلية بين قادة الرومان أنفسهم . ومن أمارات حركة الاحياء والنهوض التى دبت فى تلك البلاد ، التقدم الواسع الخطى فى انتشار حياة الحضر وسكنى المدن وقد لقيت من الأباطرة كل تشجيع . على أن عماد هذه النهضة كان يقوم بصفة خاصة على تطور تلك البلاد والنهوض بمواردها الطبيعية . ففى أسبانيا وأفريقيا ، على الأقل ، كانت حركة « التحضير » والتمدين استمرارا لعملية التطور والارتقاء التى بدأت قبل الرومان بأمد طويل ؛ فأسبانيا كانت دائما غاصة بالمدن ، مثلها فى ذلك مثل ايطاليا وبلاد اليونان ، وفى أفريقيا كانت حركة « التحضير » والتمدين قد خطت خطوات واسعة المدى من قبل بفضل القرطاچيين وأهالى تلك البلاد ، الذين عاشوا فى ظل حكم قرطاچة وتحت سلطان ملوك نوميديا وموريتانيا [11] .

ومعنى « التحضير » والتمدين من وجهة النظر الاقتصادية تكوين طبقة وسطى من سكان المدينة هم «البورچوازى» وأخرى من ملاك الأراضى والتجار والمشتغلين بالحرف والصناعات وهم الذين يقطنون فى المدينة ويظهرون نشاطا ملحوظا فى الميادين التى يقوم فيها العمل على قواعد وأسس رأسمالية ، وعلى ذلك كان معنى « التحضير » والتمدين اعادة تنظيم الزراعة على أسس رأسمالية فى أفريقيا وتطبيقها على أجزاء شاسعة من أسبانيا وبلاد الغال أسوة بنظيرتها السائدة فى ايطاليا وفى بلاد الشرق. وفى نطاق الزراعة كان هذا يتضمن الانتقال من الاقتصاد الذى كان قوامه صغار الفلاحين الى بديله القائم على ملاك الأراضى الذين اعتمدوا فى ادارة أملاكهم الكبيرة وضياعهم على قواعد رأسمالية وعلمية . وتضمن هذا كذلك الاستعداد للاستعاضة عن زراعة الحبوب بأنواع أخرى من

المحصولات ، يجنون من ورائها خيرا جزيلا ونفعا كبيرا ، ومن هذه بصفة خاصة الكروم وأشجار الزيتون ؛ وليس فى هذا جديد ما دام هذا يتناول مساحات شاسعة من أسبانيا وأفريقيا وكذلك المدن الاغريقية فى الغال . ولكن هذا التطور الطبيعى نحو هذه الغاية اعتراه الشلل أولا بسبب سياسة الاستئثار التى درج عليها الأعيان وكبار المزارعين فى القرن الثانى قبل الميلاد ، ثم ثانيا بسبب اشتعال الحروب الأهلية فى القرن الأول. وفى عهد أغسطس وخلفائه تقدمت زراعة الكروم وأشجار الزيتون بخطى سريعة فتوسعت الأولى بصفة خاصة فى بلاد الغال والثانية فى أسبانيا أول الأمر ثم فى أفريقيا بعد ذلك ، وكانت مراحل ذلك التقدم فى ازدياد بفضل هجرة الايطاليين الى الولايات الغربية على النحو الذى جاء وصفه فى الفصل الأول (١٢) .

وثمة ظاهرة أخرى من نفس الطابع هى نزوح الصناعة شيئا فشيئا وانتقالها الى الولايات ، وكانت بلاد الغال قد أظهرت منذ العصور الأولى مقدرة منقطعة النظير على التوسع فى الصناعة ، فلما أصبحت تحت الحكم الرومانى تابعت المسير فى هذا المضمار على أوسع نطــاق ، وسرعان ما بدأت بلاد الغال — بوصفها منافسة جدية لايطاليا — فى انتاج السلع التى كانت من خصائص ايطاليا ، ومن ذلك أوان من الفخار والخزف البارز الزخرفة ، وأدوات معدنية . وكان من شأن تلك الشبكة البديعة من الأنهر الفرنسية ووسائل الاتصال القديم العهد بين الغال وايطاليا وألمانيا أن جعلت التقدم السريع فى صناعات بلاد الغال أمرا ميسرا وذا نفع كبير . وعندئذ بدأت المنتجات الايطالية تتوارى من الأسواق الكلتية والألمانيــة(١٣) .

وكذلك اتخذ تقدم التجارة شيئا فشيئا من المظاهر الجديدة ما لم يكن فى الحسبان وبخاصة فى الشرق ، وقد شاهدنا كيف أن التجارة مع

بلاد العرب والهند ، وهى التى كادت تنفرد بالاتجار فى مواد الترف والكماليات ، بدأت تقوم بدور ملحوظ فيما كان للامبراطورية الرومانية من علاقات تجارية فى عصر أغسطس وكيف أن حملة أيليوس جالوس (Aelius Gallus) كان أحد الدوافع اليها ضرورة تأمين هذه التجارة الناهضة والعمل على حمايتها (١٤) . وقد أطرد تقدمها بخطى ثابتة طوال عصر اليوليين والكلوديين . واتخذت من مصر مركزا لنشاطها لأن الطريق القديم المار بالخليج الفارسى وپالميرا قد أصبح غير آمن بسبب سوء العلاقات السياسية بين روما وپارثيا (Parthia) على الدوام . وفى الحق أنه لا سبيل الى انكار ما كانت تلقاه تجارة رائجة بين مملكة پارثيا وولاية سوريا الرومانية من انتعاش لا بأس به (١٥) ، ولكن لا وجه لمقارنة هذه التجارة من حيث أهميتها ، بالتجارة البحرية بين مصر وبلاد العرب ثم عن طريق بلاد العرب مع الهند ، والدليل على التقدم السريع الذى لقيته تلك التجارة البحرية كتيب شيق لتاجر اسكندرى عنوانه « رحلة بحرية للطواف حول شواطىء البحر الأحمر » (Periplus Maris Erythraei) أخرجه مؤلفه فى عصر دوميشيان (Domitian) ، أما الدليل الآخر فيرجع الى پلينى الأكبر (١٦) (Pliny the Elder) ولدينا من الناحية الأخرى مقادير وفيرة من العملة الرومانية التى تم الكشف عنها فى بلاد الهند وهى تعيننا على التثبت من صحة المعلومات التى ترد فى المصادر الأدبية (١٧) ؛ وكأنما كانت التجارة فيما يلوح ، قد اتخذت من الموانى العربية مركزا لنشاطها الى عهد كلوديوس ونيرون ، وكان التجار الأعراب يقومون بدور الوسيط بين التجار المصريين وزملائهم فى الهند ، وكانت هذه التجارة الى حد كبير تقوم على الكماليات كما قيل آنفا ، وكان الرومان يدفعون أثمان هذه الكماليات فى غالب الأحيان من ذهب وفضة ولم يكن ثمة بد من القيام بهذا الضرب من المبادلة فى تجارة تجرى فى الكثير الغالب عن طريق الوسطاء .

وكشف هيپاركوس (Hipparchus) السكندرى للرياح الموسمية في العصر البطلمى المتأخر ، أو أوائل العصر الرومانى وكذلك الاستعداد الطبيعى فى تجارة ناهضة آخذة بأسباب التطور والرغبة فى أن تصبح تجارة غير مقصورة على الكماليات ، بعيدة عن أن تكون مجرد تجارة سلبية من طرف واحد — كل هذا أدى الى شق طريق بحرى مباشر بين مصر والهند ، وكان المركز الرئيسى لهذه الحركة التجارية فى ذلك الوقت هو الاسكندرية ، أما الموانى العربية فانها فقدت أهميتها واحتل الرومان بعضا منها (عدن وربما سوقطرة) واتخذوها محاط سقاية وملاذا للبحارة، وكانت تقوم كذلك بحماية التجار من غائلة القراصنة ، شأنها فى ذلك شأن المحطات العسكرية والبحرية بالقرم . ويرجع الفضل فى هذا التقدم الى جهود التجار المصريين فى عصر الامبراطورية بما حصلوا عليه من معونة فعالة من الحكومة الرومانية فى عهد أغسطس أول الأمر ثم من بعده فى عهد كلوديوس ونيرون . وقد انتظم هذا الطريق الجديد واستقرت أوضاعه تماما فىالعصر الذى صدر فيه كتاب الرحلة البحرية (Periplus) أعنى فى عهد دوميشيان ؛ وقد نمت تجارة الهند نموا مطردا حتى غدت تبادلا منتظما فى المتاجر على مختلف أنواعها بين مصر من ناحية وبلاد العرب والهند من ناحية أخرى . وكان القطن من أهم السلع الواردة من الهند ولعل الحرير كان احدى السلع الأخرى . وكلا هاتين السلعتين كان يستخدم فى المنتجات التى تخرجها مصانع الاسكندرية التى كانت تصدر فى مقابلها الزجاج والأدوات المعدنية ولربما النيل [١٨] .

ولم تشعر ايطاليا فى بادىء الأمر بالنتائج التى تتمخض عنها تلك الحركة البطيئة التى تستهدف تحرير الولايات من الناحية الاقتصادية ، وبقى حال ملاك الأراضى فيها على سابق عهدهم ، ينتجون النبيذ وزيت

الزيتون بكميات كبيرة في مزارعهم التي كانوا يديرونها على أسس رأسمالية ، وكانت مصانع كمپانيا وايطاليا الشمالية تبدى نشاطا له أهميته مثلما كانت تفعل من قبل [١٩] . على أن بوادر القلق أخذت تبدو في الأفق؛ فكولوميلا وپليني كانا لا يزالان يحضان على التوسع في زراعة الكروم على أوسع نطاق ممكن ، غير أن كلاً منهما كان يشعر مع ذلك بضرورة استنهاض همم الايطاليين من ملاك الأراضي الذين لم تكن بهم رغبة قوية في استثمار أموالهم في الاحتفاظ بما كان لهم من كروم ولا في زراعة أخرى جديدة ، ويذكر پليني قصصا مثيرة عما كان يلقاه بعض زراع الكروم في ايطاليا من نجاح يكاد لا يصدقه العقل [٢٠] ، ومع ذلك فلم يبد ملاك الأراضي تحمسا لما كان يسدى اليهم من نصح ، بل كانوا أميل الى ترك أراضيهم في أيدي مستأجرين (coloni) ، وبذلك عادت بهم الحال شيئا فشيئا الى نظام من الزراعة كان قوامه صغار الفلاحين والى التوفر على انتاج الحبوب[٢١] ، فكيف يسوغ لنا أن نفسر هذا الاتجاه ؟ والرأى السائد هو أن هؤلاء الملاك لم تكن بهم رغبة في أن يتولوا بأنفسهم الاشراف على ادارة مزارعهم فاتهموا بالتواكل والخمول ، ولا أكاد أصدق أن هذا هو السبب الأساسى ، كما أنى لا أستطيع أن أتصور أن النقص في الأيدى العاملة كان السبب الرئيسى في تأخر الزراعة التي تجرى وفق طرائق وأساليب علمية ؛ اذ كان لا يزال هناك وفرة في عدد الأرقاء الذين كانوا يستخدمون على نطاق واسع في الدور الكبيرة وفي الحوانيت الصناعية وفي التجارة وأعمال المصارف والشئون الادارية الخاصة بالامبراطورية ولم تكن الزراعة كذلك تشكو من نقص في الأرقاء ، فاذا كان جلب العبيد من مواطن النخاسة العادية قد أصبح صعب المنال فان الارتباطات بعقود الزواج بين العبيد قد أصبحت أكثر شيوعا ، وانجاب الأطفال أمرا محببا اليهم[٢٢] .

والسبب الحقيقى الذى وعاه جيدا ملاك الأراضى ، على الرغم من تجاهل كولوميلا وپلينى له ، هو أن الأحوال المحيطة بالسوق أخـذت تزداد سوءا يوما بعد يوم نتيجة للتقدم الاقتصادى الذى بلغته الولايات الغربية ، وكان وسط ايطاليا وكمپانيا همـا الضحيتين الأساسـيتين ؛ فالسوق الدانوبية كانت لا تزال مفتوحة أمام شمال ايطاليـا وازدادت أهميتها يوما بعد يوم . وعلى ذلك فشمال ايطاليا لم يشعر بوطأة تغير الظروف بقدر ما شعر به وسط شبه الجزيرة وجنوبها ، وبدأت زيادة الانتاج فى النبيذ عن الحاجة تصبح حقيقة ملموسة من وقت لآخر — وتلك ظاهرة معروفة حق المعرفة لدى ايطاليا الحديثة ، بل ولدى فرنسا ، ولم يكن الأمر قد وصل بعد الى حد يهدد بوقوع كارثة ولكنه كان خطيرا ؛ وسوف نرى فى الفصل السادس كيف أن هذه الظروف أدت الى أزمة خطيرة فى عهد دوميشيان[٢٣] .

ولازم هذا التغيير تركيز مطرد فى الملكية العقارية فى أيدى فئة قليلة من أثرياء الملاك ، واستمرت عملية التركيز هـذه فى كل من ايطاليـا والولايات وبخاصة أفريقيا . وقد يكون هناك شىء من المبالغة فى قول مأثور عن پلينى متضمن أنه فى عصر نيرون كان ستة من ملاك الأراضى يمتلكون نصف أراضى أفريقيا (التاريخ الطبيعى ؛ ١٨ ، ٣٥) ولكن الواقع أن ضياعا واسعة كانت المظهر البارز فى النظام العقارى السائد فى تلك الولاية ؛ وكان تزايد الضياع الواسعة طابعا مميزا لمصر كذلك ، اذ تكونت الضياع الشاسعة (οὐσίαι) (*) فى مصر على عهد أغسطس وتزايد عددها أكثر من ذى قبل فى عهد كلوديوس ونيرون ، وأغلبها

(*) ان هذه الكلمة اليونانية مرادفة لكلمة « وسيات » ومفردها وسية، بل هى تعريب لفظى للكلمة اليونانية بنصها ، ودلالتها فى العرف الحديث هى الضياع الواسعة « الشفالك » . (المترجم)

كانت هبات قدمها الأباطرة الى أحبابهم وذوى الحظوة لديهم من النساء والرجال على السواء .ومع ذلك فيجب ألا نبالغ فى أهمية هذه الحقائق ولا يصح أن نتخذ من الظروف والأحوال السائدة فى أفريقيا وما كان يسود فى مصر نتيجة تطور تدريجى ، وسيلة للتعميم ، فأفريقيا كانت منذ القدم بلاد السعد ، ترعرعت فيها الضياع الواسعة وراج فى أرضها نوع خاص من الزراعات التى كانت تستثمرها الشخصيات الرومانية البارزة فى القرن الأول قبل الميلاد . وفى مصر كانت الضياع الواسعة ثمرة مبتكرة من صنع الأباطرة الذين وهبوا أو باعوا مساحات واسعة من الأرض لأفراد أسرهم والمقربين اليهم ، ونسمع القليل جدا عن وجود ظاهرة مماثلة فى بلاد الغال وأسبانيا . ويبدو أن هذا التطور سار بخطى بطيئة الى حد ما فى ايطاليا ، ومع ذلك فمما لا ريب فيــه أنه فى ايطاليا كذلك أخذت الضياع الكبيرة تتسع حتى ابتلعت شيئا فشيئا المزارع المتوسطة والمســاحات الصغيرة من أراضى المزراعين . وفى هذا الصدد كان « سينيكا » صريحا كل الصراحة وهو لابد مطلع وعارف ببواطن الأمور لأنه كان أحد الأثرياء، ان لم يكن أثراهم جميعا فى ايطاليا على عهد كلوديوس ونيرون ، وكان هو نفسه يمتلك العقارات والأملاك الواسعة ، ونجد تفسير ذلك للمرة الثانيــة ، فيما كان يحيط بالزراعة من ظروف جاء وصفها فى الصفحات السابقة وقد تقوضت أركان الضياع المتوسطة الحجم شيئا فشيئا نتيجة لما كان يسود السوق من ظروف ، فبيعت فورا الى كبار الرأسماليين الذين عملوا بالطبع على تبسيط الاجراءات فى ادارة أملاكهم . ولما كانوا قانعين بالاستيلاء على ايجار مضمون على الرغم مما قد يكون عليه من ضآلة ، فانهم آثروا ترك أراضيهم فى أيدى مستأجريها ، وفضلوا التوفر على انتاج الغلال بوجه خاص (٢٤) .

وعلى ذلك شهدت ايطاليا تحولا وانتقالا فى شىء من التدرج حتى

أصبحت مرة أخرى بلدا ينتج الغلال ؛ وليست هـذه النتيجة متفقة مع الآراء المتعارف عليها ؛ فقد يتساءل الانسان : كيف استطاعت ايطاليا أن تعتبر انتاج الغلال عملية تدر من الربح أكثر من انتاج النبيذ ؟ ألم يكن من اليسير دائما الحصول على غلال رخيصة الثمن من الولايات ؟ وهل كان فى وسع ايطاليا أن تدخل فى هذا المضمار من المنافسة ؟ ان الشك يداخلنى كثيرا فيما اذا كانت ولايات كثيرة بعد اصـلاحات أغسطس وتيبريوس استمرت تدفع ما عليها من اتاوة مقدرا بالغلال[٢٥] ، وكانت ترد الغلال الى ايطاليا ، وبخاصة الى روما ، من الأملاك والضـياع الامبراطورية فى مصر وفى أفريقيـا ، ومن هـذه كانت تتألف الموارد الرئيسية للأباطرة الذين كانوا يستخدمونها فى أغراض كانت فى اعتقادهم لا غنى عنها فى المحافظة على ما لديهم من سلطان — وذلك بتموين الجيش واطعام الغوغاء والطغام فى روما — أما ما تبقى بعد ذلك فكانوا يبيعونه بنفس الطريقة كسائر ملاك الأراضى الآخرين ، وكانت الظروف المحيطة بالسوق هى التى تقضى بتحديد الأسعار ، وتلك الظروف فى صـالح المتعاملين من تجار الغلال ولم يكن ثمـة فائض من انتاج الغـلال فى الامبراطورية الرومانية ؛ ومن بين أفرع الادارة الرئيسية فى جميع المدن وبخاصة فى الشرق هيئة تتولى الاشراف على توريد الغلال اسـتيفاء لحاجات السكان تسمى يوثينيا (εὐθηνία) (*) ؛ ومع ذلك فان المجاعات كانت من الأحداث الشائعة فى حياة المدن فى الامبراطورية[٢٦] ، وكان الأباطرة على علم بذلك فشجعوا انتاج الغلال وقيدوا حـرية التصرف والتعامل فيها بالتجارة وبخاصة فى مصر . وفى مثل هذه الظروف كان

(*) انمدلول هذه الكلمة اليونانية لغويا هو الخير العميم ووفرة الغلال، ويسمى الموظف المختص بذلك فى المدينة يوثينيارك (eutheniarch) (المترجم)

انتاج الغلال عملية مربحة بالتأكيد فى ايطاليا ، ولعل ذلك كان أجـدى وأنفع ، وعلى أى حال أضمن من انتاج النبيذ .

وقد صاحب اتساع الضياع الواسعة فى ايطاليا والولايات حصر كثير منها وتركيزه بسرعة فى أيدى الأباطرة . وكان مصير ذلك النزاع المرير بين الأباطرة وأرستقراطية السناتو أن ينتهى فى عهد نيرون بالقضاء التام تقريبا على أغنى الأسر وأعرقها من طبقة السناتو فلم يبق منها الا القليل ، وما بقى كان ذا نفوذ ضئيل ، وقد توارت كذلك كثير من الأسر بسبب بغض رجال الارستقراطية وزهدهم فى أن يكونوا أصحاب أسر وانصرافهم عن انجاب أبناء ، وترتب على هذين العاملين تكدس الأملاك الشاسعة فى أيدى الأباطرة عن طريق المصادرة والارث . وعلى الرغم من أن الأراضى التى كانت تصادر من أملاك من ثبتت عليهم تهمة الخيانة العظمى ، كانت تؤول قانونا الى الدولة الا أنها من الناحية العملية كانت تقع فى حوزة الأباطرة فيستولون عليها ، وفى هذا الاجراء احتفاظ بنوع من التقليد المرعى منذ عهد الحروب الأهلية . وكان معظم الأثرياء — وبخاصـة « العزاب » منهم — يتركون جزءا كبيرا من ثرواتهم الى الأباطرة كيما يضمنوا أيلولة الجزء الباقى الى ورثتهم الطبيعيين أو المختارين . وهذه الحقائق متداولة ومعروفة جيدا الى حـد أنها لا تحتاج الى توكيد . وتتألف معظم الأملاك المصادرة والموروثة من العقار ، فمن المستحيل اخفاء بيت أو التستر على قطعة من الأرض على حين كان من الهين نسبيا التصرف فى العملة والنقد ، وعلى ذلك أصبح ملاك الأراضى فى الامبراطورية الرومانية هم الأباطرة . ولهذه الحقيقة أهميتها ودلالتها ، لا من وجهة النظر السياسية فحسب ، بل لها شأنها كذلك بالنسبة للتاريخ الاقتصادى . ولو أن الضياع الواسعة بقيت من المظاهر الرئيسية فى الحياة الاقتصادية فى الامبراطورية فان التغيير أصاب الأشخاص الذين كانت تتألف منهم

طبقة ملاك الأراضى ، فاختفت الشخصيات العريقة ذات الجاه العريض، وحل محلها الأباطرة والمقربون اليهم فى بعض الأحوال ، ولو أن أولئك المقربين تواروا بدورهم . والى جانب هؤلاء كانت هناك طبقة جديدة من ملاك الأراضى ذوى الثراء ، وهم الذين كانوا ينتمون الى صفوف الأرستقراطية فى المدائن والبلدان ، وعلى رأس هذه الطبقة كلها كان يجىء الامبراطور ، وقد تسبب عن الاشراف على ادارة الضياع التابعة للامبراطور مشكلة عويصة واجهها الأباطرة وهى : كيف يضمنون الحصول على ايجار من هذه المساحات الواسعة من الأرض ؟ وكيف يتيسر لهم حل مشكلة الأيدى العاملة فيها ؟ وسوف تثار كل هذه الأمور وتعرض على بساط البحث فيما بعد . وقد شهد عصر اليوليين والكلوديين مصادرات وتركيز للثروات ولم يتسع به الوقت للتنظيم [٢٧].

ومن اليسير أن ندرك كيف أن مثل هذه الظروف أسفرت عن تغيير جوهرى فى المظهر الاجتماعى فى الامبراطورية . فالارستقراطية القديمة فى مدينة روما توارت عن الأبصار وحل محلها أناس جدد : بعضهم من الأشراف النازحين من البلدان الايطالية ، وبعضهم من الولايات التى اصطبغت الى حد ما بصبغة رومانية ، على أن هناك فريقا آخر كان من بين عناصر المغامرين والمقربين الى الأباطرة . ولدينا من الاحصائيات — على ما يعتورها من نقص — ما يبين مدى التطور التدريجى فى هذه العملية ، فأخذ عدد الأشراف من طبقة الفرسان فى كل من ايطاليا والولايات يزداد الى حد بعيد ، وكانت كثرة الفرسان مستقرة فى ايطاليا والولايات وفريق منهم كان من ملاك الأراضى الذين كانوا ينعمون برغد العيش ، أما الفريق الآخر فكان من ضباط الجيش والموظفين التابعين للأباطرة [٢٨] .

وان ما صادفته ايطاليا من نجاح مطرد وما ظهر فى الولايات الشرقية

من انتعاش ونهضة وطابع التحضير والتمدين فى الولايات الغربية وبعض الشرقية — كل أولئك ساعد على ايجاد طبقة وسطى من البورچوازية فى المدن فى جميع أنحاء الامبراطورية الرومانية كانت قوية الجانب وفيرة العدد ، وكانت القوة المهيمنة فى شئون الامبراطورية ؛ فالمسنون منهم كانوا أعضاء فى مجالس المدينـة وفى هيئات موظفى الدولة والكهنة ، أما الجيل الناشىء من الشباب فكانت وجهته الالتحاق بخدمة الجيش والحرس البريتورى ؛ فكان منهم الضباط وصف الضباط والجند ، وكانوا يعدون لتحمل هذه الأعباء اعدادا خاصا فى نواديهم الكائنة ببلدانهم وهى التى تعرف بجمعيات ومنظمات الشـباب (collegia iuvenum) وهـذه لم تشهد فى عصر ما مثل ما شهدته من القوة وحسن النظام فى عصر الأسرة اليولية الكلودية . وعلى سواعد هـذه الطبقـة البورچوازية بالتعاون مع الجيش كان يقوم سلطان الأباطرة كملاذ أخير(٢٩) .

وفى روما وايطاليا والولايات نشأت طبقـة من الرجـال المدبرين النشيطين وهم الموالى ، الى جانب أولئك الأوساط « البورچوازية » الأحرار ، ولا سبيل الى المبالغة فى تقدير أهمية هذه الطبقة بالنسبة لحياة الامبراطورية ؛ ففى الادارة قام هؤلاء بدور هام جدا بوصفهم من أعوان الامبراطور ومنـدوبيه ، وذلك بالتعاون مع العبيـد الذين سلكوا فى خدمة الامبراطور . وكان الأباطرة لا يزالون يعتبرون أنفسهم من أقطاب الرومان سواء بسواء ، من حيث أسـلوب معيشتهم ، فنظموا بيتهم (domus) على الطريقـة نفسها التى اتبعها غيرهم من أشراف الرومان ، أعنى أنهم استعانوا بما لديهم من عبيد خصوصيين وعتقاء ، ولكن على الرغم من أن بيتهم لم يكن مطابقا لبيوت الدولة مثلما كانت عليه الحال عند الملوك الهيلينستيين ، فانه فى الواقع كان لا يقل عنه شأنا ، بل ربما

يفوق الديوان الحكومى من حيث نظام العمل . وعلى ذلك فعبيـــدهم، وعتقاؤهم المعروفون « بعبيد قيصر » و « عتقاء أغسطس » (Caesaris servi liberti Augusti) — كانوا يؤلفون ما يشبه الارستقراطية المحدثة التى تبلغ فى الثراء منزلة تدانى طبقات الشيوخ والفرسان الذين ولدوا أحـــرارا « والبورچوازية » القاطنة فى بلدان الريف ، بل انها بالتأكيد وصلت فى نفوذها فى ادارة شئون الحكومة الى درجة لاتقل عنهم .

ومع ذلك فلم يكن أولئك العبيد والمحررون الذين سلكوا فى خدمة الامبراطور يؤلفون سوى فئة قليلة من العبيد والمحررين فى العـــالم الرومانى ، وكان العبيد هم عصب الحياة الاقتصادية فى الامبراطورية، وعمادها الرئيسى ، وبخاصة فى شئون التجارة والصناعة ، حيث كانوا يقومون بالأعمال التى يتطلبها أصحاب المصانع على مختلف طوائفهم . وفى الحق أن أصحاب تلك الحوانيت أنفسهم كانوا الى حد بعيد عبيدا سابقين استطاعوا الظفر بحريتهم اما هبة واما مكاتبة « شراء » (*) ولازمهم التوفيق فى جمع ثروة طائلة ؛ وكان المحررون القاطنون فى بلدان الريف يؤلفون الطبقة الدنيا من الأرستقراطية المحلية أو أرستقراطية المـــال (plutocracy) مثلهم مثل الموالى فى خـــدمة الامبراطور ، الذين كانوا يمثلون الطبقة الدنيا فى أرستقراطية ديوان الامبراطور ، وبوصفهم طبقة ذات نفوذ تبوءوا مركزا فى المجتمع فى بلدان الريف بانشاء هيئات من الموظفين والأعوان (magistri & ministri) (والأخيرون كانوا أحيانا حتى من العبيد) للأشراف على مختلف الطقوس المحلية ، ثم بايجاد هيئة من الكهنـــــة كان يطلق عليها كهنـــــة أغسطس (Augustales) للقيام بمراسم عبادة الأباطرة ؛ ومهمة هؤلاء تدبير الأموال اللازمة للانفاق على

(*) العبد المكاتب هو الذى يعتقه سيده بعد أداء جعل معين . (المترجم).

هذه العبادة ، وعلى سبيل المكافأة كان الواحـد منهم يمنح لقب كاهن أغسطس (Augustalis) كما تسبغ عليه بعض الامتيازات فى حياته التى يقضيها فى أحضان حضر الريف [٣٠] .

وان الاضطراب البادى الظهور فى الحياة الاقتصادية فى ايطاليا ، ثم انتشار الضياع الواسعة واطراد الزيادة فى أعداد المستأجرين ، كان من شأنه أن يوجد أو يضاعف فى اعداد طبقة العامة فى المدن والريف ، وهؤلاء هم المتعطلون فى المدن والمستأجرون والأجراء فى الريف ، وأغلب هؤلاء — مثلهم مثل فريق من « البورچوازية » والعامة فى مدينة روما وكثيرين من المقيمين فى المدن الايطالية وغيرها من الولايات — لاينتسبون الى أصل ايطالى ، ولا ينتمون الى أهل الولايات الأصليين وانما كانوا أغلب الظن من الشرق ، جلبوا على أنهم عبيد واحتفظوا بمميزاتهم الهيلينستية على مدى قرون طويلة [٣١] . فلا غرو أن الجم الغفير من هؤلاء كانوا حريصين على الالتحاق بالخدمة فى الجيش ، كما أنه ليس بمستغرب ان فئات كثيرة منهم أثبتت عدم كفاية من وجهة النظر الحربية والسياسية على السواء ، وكان من الطبيعى والحالة هذه أن يرحب ڤسپاسيان بالخلاص منهم .

الفصل الرابع

حكم الفلافيين وملكية الانطونيين المستنيرة

بانتصار ڤسپاسيان على ڤيتلّيوس (Vitellius) ، انتهت مهزلة الحرب الأهلية فيما يبدو تحت تأثير ضغط الرأى العام فى ايطاليا ، ولأن الجند كانوا على ثقة بأنهم حققوا مآربهم ووصلوا الى بغيتهم آخر الأمر . وقد أظهروا أنه لا يجب أن يكون الامبراطور مجرد مرشح الحرس البريتورى بل يجب أن يتحقق فيه أن يكون خير رجل فى الامبراطورية من بين المشهود لهم بذلك على السواء من رجال الجيش وأعضاء السناتو وعامة الشعب فى روما ، وذلك بصرف النظر عن علاقته وقرابته بأسرة أغسطس . وعلى ذلك كان عام الأباطرة الأربعة حادثا عارضا ولكنه كان ذا نتائج خطيرة فى مستقبل الامبراطورية وأدى الى طور جديد فى تاريخ الزعامة .

بدأ هذا الطور الجديد بعهد التعمير والتدعيم فى حكم ڤسپاسيان وابنه تيتوس (Titus) ، وتشبه حكومتهما فى مظاهرها الأساسية حكومة أغسطس وحكومة تيبريوس فى السنين الأولى من ذلك الحكم. وكانت المشكلة الكبرى هى اعادة السلم ونشر ألويته ؛ وليس من قبيل الاتفاق ومحض الصدف ، وانما هو الدليل الهام على ما كان يجول بخاطر ڤسپاسيان من أفكار تهديه فى تصرفاته أن أفخم بناء له على الاطلاق هو « ساحة السلم » (forum Pacis) وهى خير بديل لمذبح السلم (ara Pacis) الذى شيده أغسطس ، وان من أول أعماله ايصاد معبد يانوس

(Janus) ، وأنه أعاد صورة السلم الأغسطى (Pax Augusta) الى الظهور على ظهر العملة الخاصة به [1] .

والشرط الأساسى لكى يسود السلم أن يخلد الجيش للهدوء ويمتثل للطاعة ، وليست مهمة اعادة الهدوء والنظام الى صفوف كل من القوات البريتورية والجيوش المرابطة فى الولايات بالأمر الهين ، وقد يسر هذا الى حد ما شعور اليأس والقنوط الذى استولى على رجال الجيش من هول فظائع عام الأباطرة الأربعة وقوة شعور الرأى العام فى ايطاليا من ناحية ، وفى الولايات من ناحية أخرى ، ولكن ليس من اليقين أن يقدر لتأثير هذين العاملين البقاء طويلا ، وهــذا هو السر فى اصــلاحات ڤسپاسيان الحربية ، ولست أعنى بهذه الاصلاحات اعادته توزيع الجيوش من جديد وتسريحه بعض الأورط وحشد فرق أخرى جديدة ، فهذه التغييرات — على أهميتها — لا يمكن أن تضمن بقاء السلام والهدوء فى الجيش فى مستقبل الأيام ، وانما النقطة الأساسية هى عمله على صياغة دستور الجيش من جديد حتى يتفق مع وجهة النظر الاجتماعية [2] . وقد سبق أن أوضحت الأمر الذى يبدو أنه كان المبدأ الذى ســـار ڤسپاسيان على هديه فى هذا الصــدد : ألا وهو استبعاد طغام الايطاليين من صفوف الجيش وبذلك أصبح مصير الجيش — فيما عدا فريق من البريتوريين ، أن يكون ذا طابع اقليمى ، العماد فيه على سكان الولايات ، ولكن ليس معنى هذا أن يصبح تجييش سكان الأقاليم المجلوبين من جميع أطراف العالم الرومانى بصرف النظر عن أصل نشأتهم ومستواهم الاجتماعى . ولدينا فعلا أدلة طفيفة جدا حتى فيما يختص بالمصدر الذى كان يجلب منه هؤلاء الجنود فى عصر الفلاڤيين ، بله الطبقة الاجتماعية التى كانوا ينتمون اليها ؛ ولكن القول بأن جميع أولئك الجند عنــد ذكرهم موطنهم الأصلى عمدوا الى تسمية مدينة ينتسبون اليها ، وان

ڤسپاسيان — شأنه شـأن أغسطـس وكلوديوس — كان دائم الحرص على النهوض بالامبراطورية وتحضيرها بالتوسع فى انشاء المدن وساعد الى أقصى حد ممكن على السخاء فى منح الجنسية الرومانية واللاتينية للمناطق المتحضرة والعامرة بالمدن وبخاصة فى الغرب[٣] — كل هذه الحقائق تنهض دليلا على أن سياسته فى طبع الجيش بطابع اقليمى لم يكن معنـاها جعـله خليطا أعجميا . ولدينـا من الأسـباب ما يحملنا على الظن بأن منحة دستور المدينة اذا أسبغت على جماعات ريفية وقبلية ومنحة الجنسيـة الرومانيـة واللاتينيـة الى المدن القائمة ، لم تتضمن امتيازات فحسب بل اقتضت واجبات كذلك ، وافترضت أن يسبق ذلك وجود قسط معقول من التحضر وفق الأسلوب الرومانى أو الهيلينى . وكان أول واجب على المدن الحديثة النشأة يحتم عليها أن تبعث بشبيبتها للانتظام فى سلك الفرق الرومانية . ومما هو جدير بالذكر أنه فى عهد الفـلاڤيين بعثت من جـديد مؤسسات جمعيات الشـبيبة (collegia iuvenum) ، وهى منبت جنود المستقبـل ومدارسهم فى ايطاليا ، ثم انتشرت هذه الجمعيات فى جميع أنحاء الولايات الغربية [٤] .

وعلى ذلك كان قوام الجيش الرومانى المؤلف من الأورط فى العصر الفلاڤى ، وكيانه من الطبقات العليا وهى أكثر العناصر تمدنا وأفضلها ثقافة وتعلّما فى المناطق المتحضرة من الامبراطورية ؛ فكان جيشا أفراده من عنصر الأوساط «البورچوازية» ، اذا جاز لنا اقتباس هذا الاصطلاح الحديث الذى أساء علماء الاجتماع استعماله فى كثير من الأحـوال ، مؤلفا من طبقة الملاك فىمدن الولايات وهم ملاك الأراضى ومزارعوها — سواء أكانوا مقيمـين فى المدن أم حريصـين على أن يقطنوا فى مزارعهم ومساكنهم فى الريف . وعلى ذلك لم يكن جيشا مؤلفا من صـعاليك الحضر والريف ؛ وفى معظم المدن بالولايات — سواء منها القـديم

والحديث — لم يكن أولئك الصعاليك ينتمون الى هيئة المواطنين الأحرار ، مما سيأتى تفصيله فيما بعد ؛ وعلى ذلك كان من السهولة واليسر بمكان — فى الولايات أكثر مما هو فى ايطاليا — اقصاء هذه الطبقة عن صفوف الجيش ومراتبه .

وهناك اصلاح آخر تم على يدى ڤسپاسيان بتلك الروح نفسها ، ألا وهو النظام الجديد المتبع فى تعبئة الفرق المساعدة فى الجيش ، ومن المحتمل جدا أنه تخلى عن السياسة التى بمقتضاها كادت تعبئة هذه الفرق أن تكون مقصورة على الشعوب والقبائل التى لم تتذوق طعم الحياة الحضرية على الاطلاق ، وهى بهذا الوصف تؤلف أقل العناصر تحضرا بين سكان الولايات . ومنذ عصره أخذ الفارق الأساسى بين القوات التى تؤلف الأورط الرومانية ونظيراتها من القوات المساعدة يتلاشى شيئا فشيئا : فكلتا الطبقتين كانتا تعبآن فى محيط الولايات ، وفى كلتيهما أصبحنا نجد بعض الجند الذين كانوا مواطنين رومانيين بحكم المولد ، وكلتاهما تنتظم عددا كبيرا نسبيا من الرجال (على أن هذا الفريق كان فى الأورط الرومانية ذا كثرة واضحة ولكنه فى القوات المساعدة كان أقل نسبيا) وكان هذا الصنف من الرجال ينتمى الى الطبقة المتحضرة من السكان بحكم النشأة والثقافة . وفضلا عن ذلك فعلى الرغم من تسميتهم بالأسماء الدالة على سلالاتهم وأجناسهم فان هذه الفرق المساعدة لم تتألف من عنصر واحد مقصور على رجال ينتمون لقبيلة واحدة أو موطن معين ، ولنضرب لذلك مثلا كتيبة التراقيين (cohors Thracum) التى لم تكن تشتمل على التراقيين وحدهم بل ضمت غيرهم ممن ينتمون الى أصل آخر ؛ وسياسة مزج الشعوب والقبائل على هذا النحو فى السلك العسكرى هى بعينها السياسة التى اتبعتها روسيا الحديثة طوال ستين عديدة ، وهى سياسة حكيمة فى دولة تنتظم أجناسا متعددة . ومنذ

عصر ڤسپاسيان كذلك لم تصبح الفرق المحليـة من القوات المساعـدة تؤلف الغالبية فى تلك القوات المرابطة فى أية ولاية ، فالكتائب (cohortes) « والآلايات » (alae) والفصائل (numeri) المحلية فى مصر أو أفريقيا كانت دائما أقل عددا من تلك التى تحمل أسماء غير مصرية أو افريقية ، والتى تتكون من جند كان القليلون منهم — لو وجدوا — من مواليد الولاية .

وان سياسـة ڤسپاسيان التى كانت ترمى الى ضمان حيـدة الجيش (من وجهة النظر السياسية) لم تكن أقل تأثيرا من تلك التى اتخذت منذ سنين عديدة من قبل ذلك على أيدى أغسطس لتحقيق الغرض نفسه ، وفى هذا الصدد كان ڤسپاسيان مرة أخرى وفيا لأستاذه أغسطس ومقتفيا باخلاص خطى سياسته ؛ فعودة النظام الى صفوف الجيش الرومانى ومقدرته على القتال وضعت على محك التجربة فى أثناء الحروب القاسية التى وقعت فى عهد دوميشيان وخلال الأزمة التى تلت أثر مقتله . فالجيش — فيما عدا الحـرس البريتورى — لم يقم بدور فعال فى الحوادث السياسية التى توالت فى هذا العصر المضطرب واستسلم للأمر الواقع دون أن يحرك ساكنا عنـدما اختار مجلس الشـيوخ نرڤا (Nerva) وعندما تبنى نرڤا تراچان ليكون خليفته ؛ ومن الأمثلة البينة التى توضح الظروف السائدة فى ذلك العصر تلك التجربة المشهورة التى مر بها ديو ذو الفم الذهبى (Dio Chrysostom) فى قلعـة لاحـدى الأورط المعسـكرة فى مويسـيا (Moesia) ، ومن العسـير أن نصـدق أن خطابه الرائع (ولا ندرى أألقاه باللغة اليونانية أم اللاتينيـة) أطفأ نيران الثورة المتأججة هناك لدى شبوبها ؛ ويحتمل جدا أن هذه الاضطرابات كانت ذات طابع سطحى بحت [٥] .

ولم يكن ڤسپاسيان ، شأنه شأن أغسطس ، مجرد مصلح فحسب ، بل انه أقدم بشجاعة على تنفيذ البرنامج الذى بدأه أغسطس وكلوديوس فى أهم فرعين رئيسيين من الادارة الامبراطورية ؛ أعنى فى نطاق المالية حيث واصل العمل فى التوسع فى البيروقراطية وفى تشجيع التحضر وسكنى المدن فى الولايات ، وليس فى وسعنا الخوض فى التفاصيل الخاصة بهذين الموضوعين . أما الأمر الأول فان الموضوعات الأساسية قد عالجها بوضوح هيرشفلد (Hirschfeld) فى كتابه الذى لاغنى لأحد عنه ، فلا حاجة بنا لأن نعيد ذكرها هنا (٦) . وهناك فقط موضوع واحد متناول لبعض التفاصيل ، ومن الواجب زيادة العناية به نظرا لأهميته البالغة بالنسبة للتاريخ الاقتصادى فى القرن الثانى ، ألا وهو العناية التى أسبغها ڤسپاسيان على الأراضى التابعة للامبراطور ثم على الأراضى العامة . وان المصادرات التى جرت على نطاق واسع فى عهد نيرون من ناحية ، والاضطراب الشامل فى عام الأباطرة الأربعة من ناحية أخرى عندما راح كثيرون من أعضاء السناتو ذوى الثراء ، وأعيان الريف فى المدن الاقليمية ضحية الاغتيال على أيدى الجند وهم فى ثورة الغضب ، وعلى أيدى حكامهم المعينين من قِبل الامبراطور — كل هذا أوجد ظروفا شبيهة الى حد ما بتلك التى خلفتها الحروب الأهلية لأغسطس (٧) . ولم تكن مهمة ڤسپاسيان هينة بحال ما ، ومع ذلك فقد نجح فى الوصول الى ابتداع نظام حالفه فيه التوفيق ، فأصلح بمقتضاه تلك الضياع الشاسعة التابعة لكل من الأباطرة والدولة ، ثم وُفق فى الوصول بطريقة عملية الى ادماج هذين الفرعين من الادارة فى فرع واحد ؛ وقد نجم عن هذا المزج زيادة طائلة فى موارد الأباطرة المالية ، ففى ايطاليا وفى الولايات كانت الدولة لا تزال تمتلك رقعا فسيحة من الأراضى الصالحة للزراعة كما تستحوذ كذلك على مناجم ومحاجر

ومصايد للأسماك وغابات وغير ذلك . وكان تركيز هذه الموارد فى أيدى الأباطرة مدعاة الى انتهاج سياسة واضحة المعالم لاستغلالها . وان نظام الاشراف والادارة الذى كان يتحتم على أكبر مالك عقارى فى الامبراطورية أن يتخذه منهاجا له ، بدلا من أن يكون من الموضوعات التى يقف الناس منها موقف عدم الاكتراث ، كان فى واقع الأمر على أعظم جانب من الأهمية بالنسبة لمستقبل الحياة الاقتصادية فى العالم الرومانى بوجه عام . وسوف نعرض لهذا الموضوع بالمناقشة فى الفصلين السادس والسابع فنصف الخطوط الرئيسية لسياسة الفلاڤيين وأهميتها بالنسبة لاطراد التقدم فى الحياة الاقتصادية فى الامبراطورية بوجه عام .

وقد أبدى ڤسپاسيان من الهمة والنشاط ما لا يقل عن ذلك فى تنفيذ سياسته التى قصد بها تشجيع الحياة الحضرية فى الولايات ؛ وسوف نعود الى معالجة هذا الموضوع مرة أخرى فى اسهاب كبير فى الفصلين السادس والسابع ، ومن الجلى أن غرضه كان ينصب بصفة خاصة على التوسع فى الأسس التى كان يرتكز عليها سلطان الأباطرة فى النهاية . وقد أظهرت الحوادث التى وقعت للأباطرة الأربعة فى عام الدماء مبلغ الضعف الذى كان ينطوى عليه التأييد الذى يقدمه أحرار الرومان — وبخاصة من كانوا يقطنون منهم ايطاليا — حتى أصبح هذا التأييد لا يؤبه له ولا يعول عليه . فالزعامة التى يكون الأساس فى قيامها على تأييدهم وحدهم لابد أن يكون مصيرها الى التفكك والانحلال ، ويؤول بها الأمر الى عهد من الفوضى كالتى سادت فى عصر الحروب الأهلية . وقد رأينا أن ڤسپاسيان كان ملما بأطراف الموقف تماما ، وأن اصلاحاته الحربية كان يمليها عليه تقديره للحقائق ، ولكنه كان يدرك جيدا أنه من المستحيل فى الظروف الراهنة أن ينحرف عن المبدأ الدستورى الذى استنه أغسطس ، وأن سادة الامبراطورية وحكامها هم أحرار الرومان

أو أولئك الذين كانوا يمتون من الناحية القانونية الى أصل ايطالى ، وكان من المستحيل عليه أن يسوى بين جميع سكان الامبراطورية وأن يتوسع فى منح الحرية المدنية حتى تشمل الجميع على السواء . ومن الناحية الأخرى كان مما لا تؤمن عاقبته أن يتمسك بالسياسة الضيقة التى نهج عليها اليوليون والكلوديون فيما يتعلق بمنح الرعوية الرومانية واللاتينية ، فاختار ڤسپاسيان،كما سنرى ، طريقاوسطا، وعجل بتمدين الولايات التى اصطبغت الى حد ما بالصبغة الرومانية وبخاصة تلك التى كانت مناطق رئيسية لتعبئة الجند واتخذتها جماعات كبيرة من جند الرومان مستقرا لها وهذه هى أسبانيا وألمانيا وولايات الطونة ، وكان قصد ڤسپاسيان من انشاء بلديات جديدة (municipia) وسط الأراضى التابعة لقبائل وعشائر نصف متحضرة ، أن يشجع على تكوين ارستقراطية تأثرت بالثقافة الرومانية وهى مؤلفة فى أغلبها من جنود سابقين كانوا قد وقعوا تحت تأثير الحضارة الرومانية أثناء خدمتهم العسكرية ، وقد منح هذه المراكز التى كانت بمثابة نواة للحضارة الرومانية حقوقا وامتيازات اقتصادية واجتماعية مكنت أفرادها من أن يصيروا حكاما على من يحيط بهم من بقية السكان . وان تمدين أسبانيا وألمانيا والليريا وتحقيق هذا بدرجة أقل فى أفريقيا وبلاد الغال وبريطانيا كان معناه اذا تركيز بعض عناصر السكان فى المدن مما يسر على الحكومة الاشراف على هذه العناصر وبالتالى الهيمنة عن طريقهم ، على جمهرة سكان الولاية . وفى الولايات التى تأثرت بالثقافة الرومانية أكثر من غيرها كانت روما تمنح حقوق الرعوية الرومانية أو اللاتينية لتلك المراكز المتحضرة الجديدة . أما فى أنحاء الامبراطورية التى كانت أقل تأثرا بالصبغة الرومانية وفى الأجزاء التى استجابت لمؤثرات الثقافة الهيلينية فان روما حبست عنها هذه المنحة ولو على الأقل بصفة مؤقتة .

وفى جميع الأرجاء كان التحضر يخطو خطى سريعة الى الأمام ويصل الى نفس المراحل التى كان مقدرا فى الواقع أن يبلغها .

وعلى ذلك وُجد عماد جديد تستند اليه الزعامة فى الامبراطورية ، وفيه بصفة خاصة تأييد لسلطان البيت الفلاڤى ؛ ولما كانت العناصر الجديدة تدين بتقدمها الاجتماعى الى ڤسپاسيان وأبنائه بصفتهم الشخصية — وهى المعين الذى تعتمد عليه أورط الجيش ، والى حد ما القوات المساعدة فى سد ما ينشأ بها من فراغ — فان الزعامة الفلاڤية قامت فيما يبدو على أسس وطيدة وقواعد ثابتة أكيدة .فالمستعمرات والمدن الجديدة كان المقدر لها أن تمثل الدور الذى قامت به مستعمرات قيصر وأغسطس عقب الحروب الأهلية . وكانت سياسة ڤسپاسيان تنطوى على روح التحدى للمدن الايطالية القديمة ولمراكز الحياة الحضرية القديمة فى الولايات ، وفيها تحد كذلك للهيئة العتيدة المؤلفة من أحرار الرومان وهى التى أخفقت فى تأييد الزعامة على النحو الذى أراده أغسطس ، وتتضمن تلك السياسة التماس العون والتأييد بطريقة مباشرة من الولايات ضد ايطاليا ،وفيها اعتراف بالمساعدة التىقدمتها هذه الولايات للزعامة بوصفها هذا وكذلك لڤسپاسيان بصفته الشخصية خلال سنة الأباطرة الأربعة . وبعد الاصلاح كانت الزعامة لاتزال تمثل هيئة المواطنين الرومانيين ولكن هذه الهيئة لم تعد مقصورة على نطاق محدود بحدود ايطاليا .

وكانت سياسة ڤسپاسيان وتيتوس نحو السناتو على جانب عظيم من الأهمية بالنسبة للتطور الاجتماعى فى الامبراطورية ، وليس يعنينا فى هذا الصدد المظهر الدستورى لهذا الموضوع الذى درسه وأسهب فيه أعلام الباحثين والذى لا يتصل الا بصلة طفيفة بالمسائل التى نعالجها فى

هذا المجلد ، وانما الذى يعنينا هو التجديد والتدعيم اللذين أدخلهما فسپاسيان على مجلس الشيوخ والنشاط الذى أبداه بوصفه رقيبا (censor) على هذا المجلس ، فأقصى بعض أعضائه وملأ هذا الفراغ بأعضاء جدد ، وقد جاء فى الفصل السالف أن هذا الموضوع بحث بعناية ، [٨] ودلت نتائج البحث على أن السناتو — بالوضع الذى نظمه فسپاسيان — أصبح يختلف كثيرا عن السناتو فى عصر اليوليين — الكلوديين ، فلم يعد يمثل الأرستقراطية القديمة فى روما الجمهورية ، ولا الأسر التى رفعها أغسطس الى مرتبة الأشراف ومنحها عضوية مجلس الشيوخ ، وأغلب هذه الأسر كان ينتمى الى مدينة روما نفسها كما كانت حال الأشراف القدامى ؛ وقد كادت اضطهادات أباطرة البيت اليولى — الكلودى وسباق الانتحار الذى عمدت اليه الأسر المنتمية الى طبقة أعضاء السناتو ، أن تستأصل تماما المعين القديم ، أما من حلوا محلهم من رجال جدد فكانوا من أصول مختلطة وغير معروفة أحيانا . ولكن الاتجاه العام الذى استهدفته تلك السياسة على طول الخط ، كان يرمى الى الاستعاضة عن الارستقراطية القديمة بأعضاء من الارستقراطية الناشئة فى البلديات بايطاليا والولايات الغربية ، وهؤلاء كانوا يكونون أكثرية طبقة الفرسان ، وقد أظهرت سيرتهم وتاريخ حياتهم من الناحيتين الحربية والمدنية أنهم أخلصوا فى خدمة الأمبراطورية وكانوا من الراسخين فى تأييدها ونصرتها ، وقد تم هذا التحويل على يد فسپاسيان وبلغ بفضله حد الكمال ، ففى عهده كان السناتو يستمد جميع عناصره تقريبا من الطبقات العليا فى « بورچوازية » البلديات ، وكان أغلب العنصر المستمد من الولايات من الناطقين باللاتينية ، على أن الشرقيين — بما فى ذلك الاغريق — لم يسمح لهم ، طبقا للقاعدة العامة ، بالانخراط فى سلك السناتو . واذا لم تكن مشاعر الفلاڤيين وميولهم رومانية وايطالية بأضيق

معانى الكلمة ، فانها كانت على أى حال لاتزال لاتينية فعلا ،مثلهافىذلك مثـل ميول أغسطس ، وكان الفلاڤيون يؤكدون أهمية العناصر الناطقة باللاتينية وما كان لها من مركز وسلطان مسيطر فى الأمبراطورية (٩) .

وان مركز الامبراطور الجديد — بصفتـه امبراطورا — كان أكثر دقة من مركز أغسطس ، ولم تستمر الحرب الأهلية الا عاما واحدا فقط ولم يمتد أثرها الى الشرق ، بل ان الغال وأسبانيا وأفريقيا لم تقاس من ويلات هذه الحرب كثيرا ، وانما عانت ايطاليا أهوالا وبخاصة الأجزاء الغنية منها وهى المناطق الشمالية والوسطى ؛ وعلى ذلك فان ڤسپاسيان لم يكن له فى نظر أكثر سكان الأمبراطورية ذاك الجلال والتبجيل الذى كانت تضفيه الهالة التى أحاطت بأغسطس فأكسبت شخصيته من المهابة والروعة ما كان يبلـغ حدا يشبه التقـديس ، فلم يـكن ڤسپاسيان هو المخلّص (Saviour). ومما لا ريب فيه أن أغسطس نفسه لقى معارضـة من بعض أعضاء السناتو الذين ناصبوه العداء شخصيا وانه كان يضطر بين حين وآخر الى مصانعتهم والتوفيق بين مطالبهم والصالح العام وهذه هى الحـال مـع ڤسپاسـيان ، بل تزيد . وقد خبرنا « تاسـيتوس » « وسويتونيوس » « وكاسيوس ديو » أن ڤسپاسيان كان له بين أعضاء السناتو أكثر من خصم جسور عنيد ، وأنه كان يضـطر — فى شىء كثير من الغضـاضة — أن يشتط فى معـاملة هؤلاء الرجـال وأن ينكل بنفر قليل منهم فيوقع عقوبة الاعدام عليهم .

ومعلوماتنا عن عصر ڤسپاسيان من القلة والضآلة بحيث يصعب أن نتعرف على المقاصد التى كان يكنها رجال المعارضة بين أعضاء السناتو نحو ڤسپاسيان فلم تكن تلك المعارضة ذات طابع شخصى كما كانت فى عهـد اليوليين الكلوديين ؛ وانا لنعلم أنه منذ عصر نيرون استعيض عن

المعارضة الشخصية بأخرى من طابع فلسفى ، ومن دعاتها المبرزين « ثراسياپايتوس (Thrasea Paetus) ، ولما كانت هذه المعارضة فى صورتها الجديدة تستند الى أسلوب نظرى من التفكير الفلسفى فانها اتسمت فعلا بطابع من القوة والعناد والاصرار أشد مما كان يواجه أسلاف نيرون ، وكانت المعارضة التى تزعمها « هلڤيديوس پريسكوس » (Helvidius Priscus) ضد ڤسپاسيان من هذا الطابع . والمصادر التى فى متناولنا قد تحملنا على الظن ، أسوة بما وصل اليه المؤرخون الحديثون بوجه عام ، بأن المعارضين من طبقة أعضاء السناتو لڤسپاسيان كانوا راغبين فى اعادة تأسيس الجمهورية وأن « حديثهم كان ينطوى الى حد ما ، على نزعة جمهورية سافرة » [١٠] ومن الصعب أن نصدق أن معارضة خطيرة يمكن أن تقوم على مثل هذه الأفكار الخيالية، ولا يزال أصعب من ذلك الاعتقاد بأن السناتو الرومانى ، وهو بتكوينه الاجتماعى لم يكن فى وسعه أن يكون ضالعا حقا بالآمال التى جاشت بخاطر السناتو الجمهورى العتيد ، لم يتعلم شيئا من سنة الأباطرة الأربعة ، بل ان ذلك الطابع الفلسفى نفسه الذى اتسمت به معارضة السناتو ، لا يؤيد الرأى القائل بأن النزعة الجمهورية كانت هدف المعارضة والغاية السياسية المثلى ، فالمذهبان الذائعان أوسع ذيوع فى هذا العصر فيما يتعلق بالفكرة الفلسفية وهما الرواقية (Stoicism) والكلبية (Cynicism) كانت نزعتهما الأساسية غير جمهورية .

وهناك شخص واحد ينتمى الى ذلك العصر نعرفه أكثر من غيره ، بل انا لنعرفه أفضل من أولئك الذين صورهم لنا تاسيتوس ، ذلك هو ديو (Dio) من أهل پروسا (Prusa) وهو الذى سمى فيما بعد بذى الفم الذهبى (Chrysostom) . وقد وفد الى روما فى عصر ڤسپاسيان وكان سفسطائيا فى مقتبل عمره ، ولكن شهرته سبقته الى روما وقد أتاحت له ظروفه — بوصفه من أثرياء قومه ومن الشخصيات الأرستقراطية

فى مدينته — أن يرتبط بعلاقات ودية مع شخصيات بارزة كثيرة فى العاصمة ، بل ومع أعضاء الأسرة الامبراطورية ؛ ويبدو أنه فى أول مقامه فى روما لم يكن على طرف نقيض مع فسپاسيان بل على العكس من ذلك كان « ديو » فيما يبدو مؤيدا ، حتى فى الاجراءات التى اتخذها فسپاسيان ضد الفلاسفة ، وكذلك فى نضاله مع موسو نيوس (Musonius) الشهير أحد القادة المتزعمين جبهة المعارضة من الفلاسفة (١١) ، ومع ذلك فان « ديو » أخذ يتصل شيئا فشيئا بزعماء المعارضة من طبقة أعضاء السناتو ، ومن الجلى أنه أخذ يعتنق آراءهم رأيا اثر آخر ، وهذه الآراء السياسية التى دعا اليها « ديو » جد معروفة لدينا ، وليس فى احدى مقالاته أدنى اشارة الى النزعات الجمهورية ، وخطابه الرودى الذى يرجع فى الغالب الى ما قبيل منفاه ، وعلى ذلك ينتمى الى فترة كان فيها على أوثق الصلات بالمعارضين للحكم الفلافى من طبقة أعضاء السناتو ، لا يحتوى على استحسان للديمقراطية بوصفها ديموقراطية ، وعلى ذلك فمن المستحيل أن نصدق أن حديث المعارضة فيما بين أعضاء السناتو كان ينطوى على نزعة جمهورية خالصة وأن هذه الفئة كانت تسعى الى اعادة الحكم الجمهورى وعصره الذهبى ؛ ومن الجلى أن حديث هذه المعارضة كان عن شىء آخر .

ولم تكن المعارضة التى تبديها طبقة أعضاء السناتو هى وحدها معاول هدم ، تناضل ضد فسپاسيان ، فالظاهرة العجيبة فى حكمه أنه وجد نفسه مضطرا الى طرد من كانوا يطلقون على أنفسهم فلاسفة ، من المدينة . وفى خطاب مشهور لديو ذى الفم الذهبى (وجهه الى أهل الاسكندرية ، وهو رقم ٣٢) قسم فيه فلاسفة عصره الى أربع طبقات : الطبقة الأولى : الفلاسفة الذين لا يعلمون على الاطلاق ، والطبقة الثانية أولئك الذين كانوا بحق أساتذة ، يعنى من كانوا يحاضرون جماعة خاصة من الطلبة ، والطبقة الثالثة من كانوا يقومون بدور خطباء الجماهير

فيغدون ويروحون من مكان الى آخر لالقاء محاضرات عامة . والطبقة الرابعة — وهم الطبقة الشائقة جدا ، يصفها على النحو الآتى(*) « ويوجد عدد كبير فى المدينة ممن يسمون بالكلبيين ..... ويتجمع هؤلاء الناس فى مفارق الطرق والمنعطفات وعند أبواب المعابد فيخدعون العبيد والبحارة ومن على شاكلتهم وينشرون النكات ومختلف الشائعات والأجوبة البذيئة ، وعلى ذلك فهم لا يسدون من الخير شيئا ، بل انهم مصدر شر مستطير الى أبعد غاية » وهذا الفريق الأخير من الفلاسفة مألوف للناس ، ويعرفه كل طالب يتوفر على الدرس فى الامبراطورية الرومانية ، فهم أبرز المظاهر فى مدن الشرق الرومانى فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد وكان أمرا طبيعيا جدا أن يرحل الكثيرون منهم الى روما حيث يلقون عددا من الناس ممن يستطيعون فهم اللغة اليونانية ولهم شغف بتعاليمهم ، على أننا لا نعرف عن هذه التعاليم الا النزر اليسير ولكنها كانت على التحقيق متمشية مع روح المذهب الكلبى بوجه عام ، وهى التى هاجمت ما اصطلح عليه العرف فى الحياة ودعت الناس الى العودة الى الطبيعة (١٢) . ومع ذلك فاذا كانت هذه هى خلاصة تعاليمهم وكنهها فلماذا ضاق بها فسپاسيان واعتبر وجود هذه الطائفة عبئا ثقيلا برم به ؟ ولماذا طورد أفرادهم من روما مع غيرهم من الفلاسفة بوجه عام — أولئك الفلاسفة الذين كانوا الأساتذة والمحرضين لأعضاء السناتو الذين عارضوا حكم فسپاسيان ؟ وانه ليبدو من المستحيل أن نجد أى تفسير آخر سوى أن جميع الفلاسفة — الكبار منهم والصغار سواء — حملوا لواء دعوة سياسية واجتماعية مغرضة رأى فيها فسپاسيان نذير خطر مؤكد على حكمه (١٣) .

ففيم كانت دعايتهم ؟ وفيم كانت تعاليمهم بوجه خاص ؟ والمظهر الاجتماعى لمواعظهم كفاه بغضا أنه يثير مشاعر السوء والبغضاء فى

(*) الخطبة رقم ٣٢ فقرة ١٠ .

نفوس الدهماء والطغام ، ومع ذلك فهذا المظهر الاجتماعى لا يكفى فى حد ذاته لتفسير تصرف ڤسپاسيان . وفضلا عن ذلك فان هذا المظهر كان خاصا بالفلاسفة الذين يحاضرون فى الشارع ؛ فلا بد أنه كان فى دعاية الكلبيين الذين اتخذوا الطريق العام مجالا لنشاطهم أمرا سياسيا ؛ والموضوع الوحيد المشترك بين التعاليم الكلبية والرواقية ، من حيث اتصاله بالمسائل السياسية ، ويحتمل أنه كان ينطوى على أمر ربما بدا فى نظر ڤسپاسيان ذا خطر محقق ، هو موضوع الطاغية وما فيه من تعارض مع الملك ، وكثيرا ما عرض لهذا الموضوع بالبحث كل من الكلبيين والرواقيين ، ثم توسع « ديو » ذو الفم الذهبى فى معالجته بعدئذ فى خطبه المشهورة عن الطغيان والملكية ، وكان من أهم أسباب الخلاف الأساسية بين الملك والطاغية هو أن الملك يستمد سلطانه من الله وأن الله اختاره باعتباره أفضل الناس ، وعلى ذلك فلا يمكن أن يكون سلطانه وراثيا ، واذا كانت هذه هى حلقة الاتصال بين المعارضة التى كان يبديها أعضاء «السناتو» مستندين فيها الى دعاية الفلاسفة وبين المواعظ التى كان يلقيها الكلبيون على قارعة الطريق — أمكننا أن نفهم سر الاضطهاد الذى وقع على كل من أعضاء السناتو وفلاسفة قارعة الطريق، وكذلك الملاحظة التى أبداها ڤسپاسيان فى مجلس الشيوخ عقب كشفه بعض المؤامرات التى كانت تحاك ضده ، متضمنة انه اما أن يكون الخلف لأبنائه من بعده والا فلا يكون لأحد ، وهذه الملاحظة — وان كنا نسوقها عرضا — لا تحمل فيما يبدو أية اشارة ولو من طريق خفى ، الى الميول الجمهورية المزعومة لدى أعضاء مجلس الشيوخ ، وانما هى بمثابة جواب فظ على أولئك الذين كانوا يدعون الى المذهب القائل بأن أفضل الناس هو الذى يحق له أن يكون ملكا — وذلك هو مذهب التبنى (١٤) .

والى جانب تيار الرأى العام الجارف الذى كان يندد بحكم

ڤسپاسيان ويعتبره طغيانا مبينا لأن الامبراطور كان يبغى أن يخلفه أبناؤه من بعده ، كان هناك تيار آخر أقل خطرا ولكنه أصبح طابعا مميزا جدا للظروف الاجتماعية السائدة فى ذلك العصر . وانا لنعلم من سويتونيوس (*) أن بعض الولايات الاغريقية والمدن الحرة وكذلك بعض الممالك التابعة لروما كانت نهبا للاضطرابات طيلة هـذا الحكم (اذ تفشى فيها الشغب = tumultuosius inter se agebant) وانهـا عوقبت على ذلك بفقد « حريتها » وقد ذكر سويتونيوس فى هـذا الصـدد أسماء آخيا (Achaea) وليكيا (Lycia) ورودس (Rhodes) وبيزنطه (Byzantium) وساموس (Samos) وكلهـا بـلاد مزدهرة ، وبعضها مـدن تجارية وصناعية ذات أهمية قصوى . وفى الوقت نفسه أظهر السكندريون سخطهم على ڤسپاسيان واستياءهم منه # ، فكيف نفسر مثل هـذا المسلك من جانب الشرق الاغريقى ؟ ومن الواجب أن نبين أن هـذا المزاج السقيم وشعور التبرم لم يكن خاصا بعصر الفلاڤيين وانما استمر حتى عصر تراچان ، بل انه امتد الى ما بعد حكم هادريان وبخاصة فى الاسكندرية . ومن الخطب التى كان يلقيها « ديو » ذو الفم الذهبى فى بعض المدن الشرقية فى عهد تراچان ، ومن رسالة پلوتارك عن « كيف يكون حكم الدولة » — وهى التى ترجع فى الغالب الى نفس هـذا العصر — نعرف على وجـه التقريب مدى الشعور السائد فى المدن الاغريقية ؛ وفيما عدا المنافسة والمناهضة التى كانت سائدة بصفة عامة بين هذه المدن (وهذا تراث آل اليها من العصور التى كانت تتمتع فيها بالحرية السياسية) فانه كانت هناك ظاهرتان مروعتان فى تلك الحياة المدنية التى كانت مصدر قلق لكل من سـلطات المدينة والحكومة

(*) حياة ڤپاسيان ، ٨ ، ٢ .

سويتونيوس ، حيـاة ڤسپاسيان ، ١٩ ، ٢ ؛ اسـترابون ، الكتاب السابع عشر من جغرافيته ، قسم ٧٩٦ .

الرومانية — وهما النضال الاجتماعى المستمر بين الأغنياء والفقـراء والمعارضة الشـديدة من جانب السكان جميعا سـواء منهم الأغنياء والفقراء ، ازاء ما كان يتبعه حكام الرومان من أساليب ادارية ؛ وعلى ذلك فالحركة الاجتماعية التى اجتاحت هذه المدن ، وبخاصة بين طبقة العامة والغوغاء ، اتخذت بالضرورة مظهرا عدائيا نحو الرومان ، ذلك لأن الرومان بوجه عام كانوا من المؤيدين للطبقات الحاكمة ، وهى تتألف من العناصر التى كان العامة والطغام يزعمون أنهم بغاتها وظلمتها[١٦] .

وانى لعلى يقين أن هذين العاملين ، السياسى والاجتمـاعى ، كانا السببين الرأسيين فى نشوب تلك الاضطرابات الدورية التى كانت تندلع فى الاسكندرية . ولدينا معلومات تكاد تكون وافية عن هذه الاضطرابات ، استقيناها من كل من المصادر الأدبية ومن بعض الوثائق أو النتف الباقية من رسالة سياسية يطلق عليها « أعمال الشهداء الوثنيين (Acts of the Heathen Martyrs) ، وهى مجموعة عجيبة ذاعت شهرتها بين سكان مصر من اغريق وعناصر مصطبغة بصبغـة هيلينيـة . وان كانت هـذه الاضطرابات قـد اتخذت طابع « المـذابح » اليهودية ، الا أنها كانت بالتحقيق موجهة ضد الحكومة الرومانيـة ، وكان لها طابع يكاد يكون سياسيا بحتا . وفضلا عن ذلك فمما لا ريب فيه أنه كان لأولئك الفلاسفة الكلبيين الذين اتخذوا من قارعة الطريق ميـدانا لنشاطهم ، تأثير قوى على العناصر المشاغبـة من أهل الاسـكندرية وبخاصة الغوغاء مثلما كانت عليـه الحال فى مـدن آسيا الصغرى . ويبـدو هـذا التأثير من موضوعات الفلاسفة الكلبيين التى تكرر ظهورها فيما يسمى « أعمـال الشهداء » فى الاسكندرية مثال ذلك « الملك والطاغى » « والحـرية والاستعباد » وما الى ذلك[١٧] .

وهنا قد يتساءل الانسان : كيف نشأت هـذه الحـالة ؟ بدأت

الاضطرابات تنشب فى الاسكندرية منـذ عهد كاليجولا (Caligula) ومع ذلك فلم يظهر على بقية الشرق أية بادرة تدل على الاستياء فى أى تاريخ سابق على عهد الفلاڤيين ؛ ولتفسير هذه الظاهرة أحب أن أذكّر القارىء بما قيل فى الفصل السابق عن النهضة الاقتصادية الرائعة التى بدأت فى الشرق عقب انتهاء الحروب الأهلية (١٨) . وقد صحب هـذا الانتعاش الاقتصادى نهضة ثقافية مما لم يتيسر للغرب مثيل لها ولم تتح له ظروفه مناهضتها غالبا . وعادت الحضارة الاغريقيـة والفن والأدب سيرته الأولى فكان الرومان أنفسهم يعتبرونها الحضارة الحقة والفن والأدب الصميمين . وكان نيرون أول من أعلن « الى مدينة روما والى العالم قاطبة » (urbi et orbi) الدين الجديد الذى سار علي سننه ، وكان التقدير الذاتى للمدن الاغريقية ، وبخاصة للعناصر الرشيدة بها ، ذات العقول الراجحة ، قد بلغ مبلغا عظيما ، بل انه فاق بالتأكيد الحد المعقول . فلما جاء عهد ڤسپاسيان حدث رد فعل ، فالشرق الذى سارع قبل غيره بالاعتراف بسلطان ڤسپاسيان كان يتطلع الى تحقيق مآربه من كسب مختلف أنواع الامتيازات التى كان يروم تحقيقها على يديه وينتظر عصرا ذهبيا جديدا : من حرية مطلقة ، الى تمتع بحقوق المواطنة والرعوية الرومانية ، الى كسب مقاعد فى مجلس الشيوخ الرومانى والى غير ذلك . وكان لتبخر هذه الآمال وقع أليم عليهم حقا . وڤسپاسيان كما رأينا ، كان أبعد ما يكون عن انتهاج الطريق الذى سلكه نيرون ، فلم يكن ذا أفق عالمى كما لم يكن اغريقى النزعة فهـو بحكم مولده الايطالى قد توافرت فيه كل الخصائص والميول الانحيازية التى اتسم بها الايطاليون ، ولم يكن مؤمنا بتفوق الاغريق . وفضلا عن ذلك فانه كان يعلم تمام العلم أنه ما لم يؤيده الغرب فمصيره الى التهلكة ، وان معارضة بلاد الشرق له جعلت منه جبهة مناوئة ، كان يضيق بها ولكن ليس

فيها خطر حقيقى عليه ، ولعله اشتط فى تنفيذ سياسته فأضاف الى صفوف خصومه أعداء ألداء فى روما نفسها . وفى الخطبة الرودية يدلل « ديو » على انه هو وآخرون غيره ممن على شاكلته (فهو لم يكن بالاغريقى الوحيد ذى الشهرة والجاه فى روما) متفقون فى الرأى والايمان بنهضة العالم الاغريقى ويطالبون بمزيد من الاحترام له . وفى الحق انه لم يكن أمثال « ديو » مطلقا من دعاة الثورة والمحرضين على قيام الاضطرابات، وانما كان اعتدالهم يوازن من الناحية الأخرى ذلك النشاط الجم الذى كان يبديه فلاسفة قارعة الطريق وهم يعملون بجميع الوسائل على التحبب الى جماهير الشعب — وهذا هو سبب آخر دعا ڤسپاسيان الى أن يبغضهم فى روما الى أقصى حد مستطاع ويجعل اقامتهم فيها جحيما. ومع ذلك فانه من العلامات المميزة لاصرارهم وعنادهم أنهم على الرغم من نفيهم ، نجحوا فى العودة الى روما مرة أخرى وفى استئناف دعايتهم بالخطابة فى الأماكن العامة [١٩] .

وكان حكم تيتوس (Titus) يمثل حلقة قصيرة فى تاريخ العلاقات بين الأباطرة وسكان الامبراطورية ، وان الترضيات التى منحها للسناتو وسياسة الاعتدال المعقول التى جرى عليها ، لم تقف تيار السخط المتفشى فى كل مكان ، وبخاصة فى أرجاء الشرق وانه لجدير بالذكر أنه ظهر فى عصره (ولعل هذا كان فى عام ٨٠ م .) نيرون « الكذاب » فى آسيا الصغرى، فالتف حوله جمع كبير من الأتباع والأنصار [٢٠] . وقد تأزمت الأمور عندما تولى دوميشيان (Domitian) بعد تيتوس . ولاحاجة بنا الى اعادة سرد الحقائق المشهورة عن حكمه . وفى نظر خصوم الاستبدادية العسكرية وخصوم الطابع الشخصى والأنانى الذى اتسم به نظام الامبراطورية الذى أقامه اليوليون والكلوديون ، وفى نظر أعداء الملكية الأسرية التى بدت اذ ذاك وطيدة الدعائم فى روما ، كان حكم دوميشيان

استبدادية سافرة أو طغيانا بكل ماتتضمنه تلك الكلمة من معنى فى نظر الرواقيين والكلبيين . ولم يخف دوميشيان مطلقا آراءه عن سلطان الامبراطور وسلطته ، بل كان صريحا حقا ومخلصا لعقيدته ، ولم يطف بخلده مطلقا أن يقبل الفكرة الرواقية عن « الملك » المثالى وأصر على أن تطاع كلمته وأن يتمتع بالسلطة الاتوقراطية كاملة بوصفه سيدا والها . وليس معنى هذا أن يلتزم ادخال أى تغيير فى المظهر الخارجى للامبراطورية كما أسسها أغسطس وخلفاؤه . ومن الممكن أن دوميشيان اضطر أن يكشف عن نواياه نتيجة للهجوم الذى شنه من جديد خصوم النظام القائم . وليس خافيا على أحد ما طبعت عليه الاجراءات التى اتخذها ضد المعارضة من صرامة وما كان بها من قسوة حتى عادت أسوأ عصور تيبريوس وكاليجولا ونيرون . ويكاد يكون من المؤكد أن الطبقات العليا فى أنحاء الامبراطورية أجمعت على استنكار سياسته والنيل منها والمطالبة بأن يسود التفاهم والتوفيق بين سلطة الامبراطور ومطالب خصومها . ويبدو كذلك أن الجيش لم يكن مواليا قلبا وقالبا للامبراطور ، وذلك على الرغم مما أسبغه عليه دوميشيان من أياد بيضاء ، وعلى ذلك فان من المحتمل جدا أن مؤامرة البلاط التى قضت على حياته لم تكن حدثا خاصا مستقلا ، بل كان لها ذيولها المتشعبة فى الولايات وبين القوات . واذا كان الأمر كذلك فانه يمكن أن نجد تفسيرا مقبولا للقصص المثيرة عن نبوءة شخص فى ألمانيا اسمه لارجينوس(؟)بروكلوس (Larginus (?) Proclus) (وهو فى أغلب الظن جندى) ورؤيا ابولونيوس من أهل تايانا (Tyana) فى افسوس — وكلها أمور تقبلها « ديو » على أنها حقائق [٢١] .

وعلى ذلك استأنفت المعارضة فى عهد دوميشيان هجومها من جديد وصوبت ضرباتها نحو سلطة الامبراطور بوجه عام ونحو شخص الامبراطور بوجه خاص [٢٢] . ولم يقتصر نطاق الكفاح على مدينة روما ، فانا نعلم علم اليقين أن « ديو » ذا الفم الذهبى — وكان مبعدا

عن روما — قد حرم عليه البقاء فى بيثينيا (Bithynia) مسقط رأسه ، فهام على وجهه وعاش حياة البدو الرحل مستخفيا . ولعله انتحل لنفسه أسماء مستعارة ، داعيا فى كل مكان يحل فيه الى المذهب الرواقى الكلبى الجديد بعد أن أصبح عقيدة يدين بها اذ ذاك ، وقد كرس جل حياته على نشر آرائه الجديدة . وانه لجدير بالذكر أن الدعاية التى كان يقوم بها كانت فى الحقيقة موجهة ضد دوميشيان ونظام حكومته — والعنوان الدال على ما كان يسود الشرق من ظروف وأحوال أن « ديو » لم يسمح له بالاقامة فى بيثينيا خشية أن يكون تأثيره فى مسقط رأسه مصدر خطر على الحاكم فى تلك البلاد .

فماذا كانت طبيعة دعايته وماهيتها ؟ ان خطبه والدليل على ما كان يبديه الفلاسفة من نشاط فى روما يؤيد القول بأن أول مقاصد هذه الدعاية شن الهجوم على الاستبدادية التى كانت منطبقة تمام الانطباق على حكم دوميشيان ، وذلك هو الجانب السلبى ، فهل كان لدى خصوم دوميشيان أى شىء آخر من النوع الايجابى يناوئون به الاستبدادية ؟ فلما جاء بعد ذلك عهد تراچان ذكر «ديو» للامبراطور ولنا ، رأيه فى الدستور المثالى للامبراطورية الرومانية وللدولة المثلى بوجه عام. فاعتبر الملكية ([illegible]) الرواقية والكلبية على أنها النقيض من الطغيان وأضفى على الملكية من الألوان والنعوت ما جعلها تبدو كأنها مستمدة — ولو جزئيا — من ماجريات الأحوال وواقع الحوادث فى حكم تراچان وزعامته[٣٣]. والرأى السائد هو أن «ديو» والمعارضة ، برسمهما مثل هذه الصور ، كانا مضطرين الى النزول على حكم الضرورة وتقبل الملكية وتصنع الابتسام للشدائد وسوء الحظ باعتبار أن حكومة تراچان الملكية هى المرادف المطابق للملكية الرواقية الحقة . وهما — بشق النفس وعلى كره منهما — استطاعا التخلى عن مثلهما العليا فى الجمهورية . وليس عندى من المسوغات اطلاقا ما يحملنى على قبول مثل هذا الرأى . وفى اعتقادى انه منذ اللحظة

الأولى قبلت المعارضة الزعامة وربما شذ فى ذلك بعض الخارجين على هذا الاجماع (اذا صح أن هلفيديوس پريسكوس كان جمهوريا صميما) ولكن اذا أخذنا بوجهة نظر انتيستينيس (Antisthenes) فان الكلبيين المحدثين والرواقيين طالبوا بوجوب تشكيل الزعامة وصياغتها فى قالب الملكية الرواقية الكلبية [٢٤] . ومنهاج تلك الملكية الرواقية الكلبية كما وضعه « ديو » (*) مألوف ومعلوم ولا حاجة بنا لتفصيله هنا ، وها هى ذى النقاط الأساسية : يكون اختيار الامبراطور بوساطة العناية الالهية ويسير على نهج يتحقق فيه الائتلاف التام مع الاله الأعظم ولا يعتبر شخصه فى أثناء حياته الها ، ولا تعتبر سلطته امتيازا لشخصه بل واجبا مفروضا عليه ، وحياته كلها كفاح وجهاد (πόνος) وليست لهوا وترفا (ἡδονή) وهو الوالد والمحسن (πατὴρ καὶ εὐεργέτης) الى رعيته وليس بالسيد الآمر الناهى فيهم (δεσπότης) . ورعاياه قوم أحرار وليسوا عبيدا ويجب أن يكون محبوبا منهم كما يجب عليه أن يكون محبا للمواطنين الأحرار (φιλοπολίτης) ومحبا لجنوده (φιλοστρατιώτης) ويجب أن يكون محبا للقتال (πολεμικός) بقدر ما هو مشغوف بالسلم (εἰρηνικός) بمعنى ألا يترك أى شخص يستحق النزال والقتال . وأخيرا يجب أن يحيط نفسه بالأصدقاء (وهذه اشارة الى مجلس السناتو) الذين يتحتم عليهم أن يشاركوا فى ادارة جميع شئون الدولة بوصفهم من أحرار الرجال (ἐλεύθεροι) وذوى الحسب والنسب (γενναῖοι) . ولا ريب أنه فى هذا البرنامج كما فصله « ديو » وردت أمور كثيرة لا علاقة لها بالنظريات وانما تنطبق على صفات تراجان وميدان نشاطه [٢٥] . ولكن نظرة عابرة الى الخطبة القنصلية التى ألقاها پلينى تكريما لتراجان ثم مقارنتها بالخطبتين الأولى والثالثة « لديو » عن الملكية ، تكشف عن المدى الذى بلغته هاتان الخطبتان من أنهما لم يكونا تسجيلا للحقائق الراهنة فحسب ، بل كانتا أولا وقبل كل شىء عرضا للمقاييس والمعايير الخالدة التى كان من المتعين على تراجان أن يتقبلها أو يرفضها [٢٦] .

(*) ديو ، « عن الملكية » (Περὶ Βασιλείας) ، فصل ١ ، ٣ .

وعلى ذلك فيقينى أن أغلب الذين ناصبوا حكم الفلاقيين العداء لم يختصموا نظام الزعامة على هذا الوصف وانما كان شعورهم نحوه هو على الأرجح شعور « تاسيتوس » . فهم قد قبلوا هذا النظام وانما أرادوا أن يروه أدنى الى الملكية الرواقية بقدر المستطاع وأن يكون مخالفا الى أقصى حد ممكن للطغيان الرواقى الذى جاء مرادفا للاستبدادية الحربية التى أقامها اليوليون والكلوديون بوجه عام ونيرون بوجه خاص ، ومطابقا للاستبدادية الحربية التى فرضها دوميشيان . ولما تولى نرفا الحكم وتلاه تراچان ، عقد سلم بين جمهور الشعب فى الامبراطورية ولا سيما الطبقات المثقفة من « بورچوازى » المدن وبين السلطة الامبراطورية . وان الخطب التى ألقاها « ديو » عن الملكية أمام تراچان والتى أعاد كاتبها القاءها مرارا فى أهم مدن الشرق استجابة لرغبة أبداها تراچان فى أغلب الظن ، لتمثل مبادىء المذهب الرواقى التى قبلتها الزعامة وما جاء به من نظريات ، حورت وشكلت لتحدث الملاءمة بينها وبين المطالب العملية فى الحياة .

وان فى قبول الجيش لهذا السلم وخلوده الى السكينة والطاعة نحو قرن ، لدليل على أن الجنود لم يظاهروا الاستبدادية العسكرية وانما كانوا على استعداد لقبول الحل الذى ارتضاه الرأى العام بين الطبقات المتعلمة فى أنحاء الامبراطورية . فالزعامة فى القرن الثانى بعد الميلاد وهى ملكية الأنطونينيين (Antonines) المستنيرة ، كانت نصرا للطبقات المتعلمة كما كانت الزعامة على عهد أغسطس انتصارا للمواطنين الرومانيين (cives Romani) وان شبح الملكية الشرقية الذى خيم على الاستبدادية العسكرية وطعمت به ، قد وضع فى مرقده مرة أخرى ، وان كان ذلك للمرة الأخيرة كما سنرى بعد قليل .

ولم تكن هناك وثيقة تبين شروط الترضية التى تمت بين الطبقات المثقفة وبين الأباطرة ، فقد بقى دستور الامبراطورية الرومانية غير مسطور كما كانت الحال منذ المراحل الأولى فى التاريخ الرومانى . أما ما حدث

فكان تغييرا جديدا فى السلطة الامبراطورية من مقتضاه أن يوفق بينها وبين الظروف القائمــــة ، فلم يعتر سلطة الأباطرة الرومان أى نقصان ، بل على العكس لقد زاد سطانهم وأصبح حكم الفرد الواحد معترفا به الآن من جميع طبقات السكان باعتباره حقيقة واقعة وضرورة لازمة . وأقر الناس جميعا انه بدون ارادة واحدة موجِّهة،كان مصير الامبراطورية الرومانية المحتوم الى الانهيار والتفكك .

استمر تطور البيروقراطية الامبراطورية يسير قدما ، لا يقف فى سبيله عائق ، ولكن المبدأ الرئيسى فى الرياسة الأغسطية ازداد توكيدا من جـــديد ، فلم يــكن الامبراطور مَلكا كملوك الشرق وانما كان أسمى حاكم فى الدولة الرومانية ، ينبسط حكمه على المواطنين الأحرار الرومانيين وسكان الأقاليم على الســواء . ولم تنتخبه أى هيئة نيابية ولكن لم ينتقل سلطانه من الأب الى الابن كنتيجة لما تقضى به رابطة الدم . فكان الامبراطور يتبنى أفضل رجل من بين أفضل الناس وخيارهم ، أعنى من بين أعضاء طبقة السناتو وهم أقران الأباطرة وأندادهم والمعين الذى أنبت الأباطرة .. وكانت طبقة أعضاء السناتو بهذا الوصف خير من تهيأ للنهوض بهذا العبء نظرا لأنهم كلهم وقفوا حياتهم لخدمة الدولة . وكذلك لم تكن سلطة الامبراطور ينظر اليها على أنها امتياز شخصى ولكن كعبء وخدمة عامة فرضها الله وأوجبها السناتو على من يقوم بتولى هذه السلطة . وكانت الامبراطورية ممثلة — ان جاز لنا أن نقول ذلك — فى شخص الامبراطور .

وعلى ذلك كانت سلطته وشخصه مقدسين ، وهو نفسه موضـــع تقديس وعبادة ، فجلال الامبراطورية تجسم فيه . ولم يكن ســـيد الدولة بل خادمها الأول ، فخدمة الدولة كانت حقا واجبا عليه ، وعندما كان يرافق جنده ، كان عليه أن يتحمل كل متاعب الحيـــاة الحربية ومشاقها ، شأنه فى ذلك شأن أى جندى ، وعندما يكون فى العاصـــمة كان عليه أن يباشر أعباء وظيفته كحاكم فى الدولة وعليه أن يكد ، واصلا

النهار بالليل من أجل سلامة الامبراطورية ورفاهتها . وعلى ذلك وجب أن تكون حياته حياة رئيس الدولة وليست حياة أحد الفانين من عامة الناس ، ومع ذلك يجب أن تكون حياة متسمة بالتواضع والقصد بقدر المستطاع . وكانت ثروته الخاصة تندمج فى ايراد الدولة ودخلها العام . فكل ما كان ملكا للامبراطور كان كذلك ملكا للدولة ، وما كان ملكا للدولة كان للامبراطور أن يدعيه لنفسه . ووجهة النظر هذه وحدها هى التى تفسر قول أنطونينوس بيوس(Antoninus Pius) فى حواره مع زوجه بعـد أن تبناه الامبراطور هادريان(*) : « أيتها الغبية ، أما وقد آل الينا عرش الامبراطورية فقد فقدنا حتى الشىء الذى كنا نملكه من قبل » ، وقد تكون هذه العبارة كذبا لا أصل له ولكنها تؤكد الفكرة التى سادت اذ ذاك على هذا الوضع . ففى أخص حياته العائلية ، كان على الامبراطور أن يسـقط من الاعتبار حبه لأبنائه ، وكان عليـه أن يبحث عن أفضل رجل بين أقرانه ونظرائه ثم يرفعه الى عرش الامبراطورية عن طريق التبنى .

تلك سياسة جميع أباطرة الرومان فى القرن الثانى حتى عهد كومودوس (Commodus) ، ومن الصعب أن يصدق المرء انها كانت سياسة وليدة الاتفاق ، وانها كانت من وحى أشخاص الأباطرة وطباعهم التى كانت شديدة الاختلاف . فتراجان كان محاربا عظيما وفاتحا غازيا ، وكان هادريان راجح العقل والادراك ، ذا ذوق فنى رفيع ، وآخر مواطن حر عظيم يمكن أن يقال عنه انه آثينى وله غرام بالقديم ، أما أنطونينوس بيوس فكان ايطاليا طيب القلب من « بورجوازى » طبقة أعضاء السناتو لم تهبه الطبيعة أى ميزات عقلية ، بل كان له ادراك حسى مرهف ، وسلامة طبـع موهوب ، ثم ماركوس أوريليوس (Marcus Aurelius) وهو الفيلسوف الجاد الذى عاش غارقا فى كتبه ، ومن أجل كتبه ، والذى كان يرى أن التأملات فى عالم الطبيعة أعظم متع الحياة ومباهجها . وكل هؤلاء — على ما فى أخلاقهم من تباين شديد — سلكوا النهج نفسه فى

(*) الكُتاب والمصنفون للتاريخ الأغسطى ، ٤ .

نشاطهم الامبراطورى . ان الحقائق معروفة جيدا والصورة التى قدمناها فى الصفحات الآنفة ليست مستمدة من خطب « ديو » ولا من بحث أو رسالة كتبها « ماركوس أوريليوس » ؛ بل هى من صميم حياة الأباطرة بوصفهم على هذا النحو . فمجرى سلوكهم كان من وحى الرأى العام واملائه عليهم ، فالسنون المديدة من الحكم الامبراطورى والساعات الطويلة فى التأمل ، وعملية اختيار الأصلح ، التى جرت بين أعضاء طبقة السناتو الجديدة — وهى الطبقة التى لم يبق لها غير الاسم كرباط مشترك بينها وبين أرستقراطية أعضاء السناتو فى عصر أغسطس ومن خلفه ، بل كانت تتألف من ضباط وقواد وحكام على الولايات ، أعدوا جميعا أحسن اعداد — كل أولئك كان من شأنه أن يخلق مزاجا تردد صداه وظهر أثره فى حياة الأباطرة العامة ، وقد كانوا جميعا ينتمون الى هذه الطبقة .

كان النظام الصارم والحرص على أداء الواجب وخدمة الدولة هى شعار الطبقات العليا من قادة الشعب الرومانى فى هذا العصر ، واذا حاول الأباطرة أن يسيروا على هذه المبادىء ويعملوا بمقتضاها فانهم طالبوا على الأقل ، الطبقات الحاكمة والجيش أن يسلكوا فى حياتهم هذا النهج الرفيع السامى ، فنادوا بالنظام والطاعة من مجلس الشيوخ ومن طبقة الفرسان ومن ضباط الدولة ، سواء أكانوا عسكريين أم مدنيين ، ومن الجنود ، ولم يكن من عمل الصدف أن تقديس « النظام » وعبادته قد أدخلت أول ما أدخلت فى الجيش الرومانى على يدى هادريان ، وجدير بالذكر أن النظام والطاعة لم يتطلبهما الأباطرة وحدهم ، بل كان الجيش كذلك يعترف بهما كواجب . ولم يحدث من قبل أن كان الجيش على هذا القدر من التدريب وحسن التنظيم ، ولم نعرف من قبل أن الجيش كان يكد وينصب مثلما كان يكد ويعمل فى عهد الملكية المستنيرة فى رضا وطمأنينة . وان تاريخ حملات تراجان أو تاريخ الحروب القاسية فى عهد ماركوس أوريليوس ليظهر لنا الجيش

وقد سمت مقدرته فكان أهلا لتحمل أقسى ما يمكن من المطالب مع ما كان يقاسيه من خسائر ومع ما مر به من فواجع أليمة وخطيرة . ويجب أن يقال مثل هذا عن ادارة الامبراطورية التى لم تكن فى يوم من الأيام على هذا القدر من العدل والاحسان والكفاية مثلما كانت فى عهد الأنطونينيين وحكمهم القوى . والتعليل الوحيد الذى أراه لهذه الحقائق كلها هو أن مزاج سكان الامبراطورية قد تغير وأنه قد حدث رد فعل ضد روح الطيش والاستهتار والمادية التى كانت متفشية فى القرن الأول ، ففاز العالم القديم ببضع عشرات من السنين ساد فيها السلم والهدوء [٢٧] .

وكانت سياسة الأباطرة ازاء الولايات من أهم مظاهر هذا العصر ، فأكثر أباطرة القرن الثانى ولدوا ونشأوا فى الولايات ، وكان بعضهم مواطنين رومانيين أحرارا جاءوا من أسبانيا (تراچان وهادريان) وبعضهم الآخر يمت الى أصل منحدر من مواطنين رومانيين أحرار ممن استقروا فى بلاد الغال (أنطونينوس پيوس وماركوس أوريليوس) [٢٨] . وكانوا ينتمون الى طبقة أعضاء السناتو ويحرصون على الاحتفاظ بامتيازات هذه الطبقة ، كما أبقوا على امتيازات الطبقة الثانية فى الامبراطورية — وهى طبقة الفرسان . ولم يسطوا على حق هاتين الطبقتين فى أن يخدم أفرادها الدولة بتولى أسمى المراتب فيها بعد الامبراطور . ولكن تكوين هاتين الطبقتين انتابه اذ ذاك تغيير جوهرى فلم يصبح أيهما مقصورا بعد ذلك على نطاق ايطاليا ولكن كان يطلب الى جميع أعضائهما على السواء أن يتخذوا لهم محال اقامة فى ايطاليا ، وأن يمتلكوا فيها عقارا ، الا ان القليلين منهم ولدوا هناك . ولنشأتهم من أصل أرستقراطى فى البلديات بالولايات ، قد حافظوا على صلاتهم بموطنهم ومساكنهم القديمة فى كل من الشرق والغرب . وعلى ذلك فالطبقات العليا فى المجتمع الرومانى بعد أن تضخم عددها اذ ذاك بدرجة هائلة لم تعد تمثل الأرستقراطية فى روما أو فى ايطاليا بل أصبحت ممثلة لأرستقراطية

الامبراطورية وهى أكثر طبقات سكان المدن فى أنحاء العالم الرومانى ثراء وأفضلها تعليما . وقد نجد فى هذه الحقيقة تفسيرا وتعليلا لذلك التغيير الخلقى الذى أسلفنا الكلام عنه آنفا . وهؤلاء الأشراف الجدد كانوا ممن وقع عليهم اختيار الأباطرة من بين أكثر الناس ثقافة وتعليما فى طول الامبراطورية وعرضها للاضطلاع بخدمة الدولة . وكانت الدولة الرومانية لا تزال فى الحق محكومة بطبقة أرستقراطية ثرية ، ولكن اختيار أفراد هذه الطبقة لم يكن مستندا الى حق المولد والثروة بقدر ما كان يعتمد على الجدارة والاستحقاق والكفاية الشخصية والمواهب الفكرية (٢٩) .

وهذه الطبقة الأرستقراطية الجديدة ، وجلها من أصل اقليمى ، كانت بالطبع خير من يفهم مطالب الولايات ويقدر تماما حق تلك الولايات فى مراعاتها وحكمها لا على أنها اقطاعات مملوكة للشعب الرومانى ، بل على أنها عناصر أساسية فى تكوين الدولة الرومانية . ولقد عاصر هذا التغيير زمن الفلافيين ، بل لقد اتخذت بعض التدابير فى عين هذا الاتجاه من قبل ذلك فى عهد أغسطس وبعض خلفائه وبخاصة تيبريوس وكلوديوس ، ثم بلغت الذروة فى عهد الأنطونينيين . وانه لجدير بالذكر أنه لم يزر الولايات الرومانية أحد من خلفاء أغسطس الأولين عدا كاليجولا وكلوديوس ، ومع ذلك فكانت زيارتهم لأغراض حربية دون سواها . ولم يحدث لأحد من اليوليين والكلوديين عدا تيبريوس أن حكم ولاية قبل أن يصبح امبراطورا . ولم يتعرف أحد منهم على شىء من مطالب سكان الأقاليم وآمالهم عن طريق تجاربه بنفسه ، وفيما عدا جالبا (Galba) وڤيتيلليوس (Vitellius) وأوتو (Otho) الذين جاء رفعهم الى العرش كرد فعل من جانب الولايات ضد العرف المألوف ، فان جميع الأباطرة قبل الفلافيين كانوا رومانيين ، عاشوا فى روما وكانت روما فى نظرهم مركز العالم . ومنذ عهد الفلافيين ومن تلاهم حدث تغير كلى . لقد قضى ڤسپاسيان أكثر حياته فى

الاضطلاع بقيادة الجيوش وفى حكم الولايات ، وكذلك فعل تيتوس . ولا ريب ان دوميشيان كان صورة أخرى تمثل النوع القديم من أباطرة المدينة ، ولكن كل امبراطور ممن تولوا بعده حتى كومودوس قضى جل حياته قبل اعتلائه العرش فى الولايات ، وبعضهم ، كهادريان حتى بعد توليته ، آثر أن يفعل ذلك .

فى مثل هذه الظروف كان من الطبيعى اذا أن النظرية السلفية والعرف القديم الذى ساد فى حكومة الولايات يجب أن يتواريا تماما ، وانه على أباطرة القرن الثانى أن يشعروا بأنهم ليسوا أباطرة مدينة روما ، أو أباطرة المواطنين الرومان الأحرار وحدهم ، بل هم للامبراطورية جمعاء . ويدل على ذلك أمران : أحدهما التوسع السريع فى منح حقوق الجنسية الرومانية فى كل أنحاء الامبراطورية ، والثانى التساهل فى منح البلدان الاقليمية حقوق البلديات (municipium) الرومانية أو المستعمرات الرومانية أو اللاتينية ، وتثبت السياسة الجديدة التى درج عليها أباطرة ذلك القرن فى النواحى المالية والاقتصادية والاجتماعية نفس هذه الحقيقة. ولكننا سوف نعرض فيما بعد لهذا ، بعد أن نكون قد ألقينا نظرة على شئون الامبراطورية فى القرن الثانى من وجهة النظر الاقتصادية والاجتماعية .

وجدير بالملاحظة انه كان يسير الى جانب التغيير فى موقف الحكومة الرومانية نحو الولايات ، شعور هذه الولايات عامة والطبقات العليا خاصة بالاطمئنان شيئا فشيئا الى الحاكم الرومانى . وان ما نعرفه عن الولايات الغربية جد قليل ، ولكن النقوش الكثيرة التى أقيمت فى مدن الغرب تكريما وتعظيما لأباطرة القرن الثانى واعلاء شأنهم ، تدل على مبلغ اقتناع الطبقات العليا فيها بالأحوال السائدة ورضائها عنها ، بل لقد أخذ موقف السكان فى الولايات الشرقية يتحول شيئا فشيئا ، فنشاط «ديو» وبلوتارك وخطب أيليوس اريستيديس (Aelius Aristides) وحتى مؤلفات لوكيانوس (Lucian) على ما فيها من تشهير وهجاء —

كلها تدل على أن قادة الفكر وأولى الرأى فى أجزاء الامبراطورية التى تنطق باللغة اليونانية ، أخذوا على التوالى فى تقبل الأوضاع الراهنة والموافقة عليها وهجر الأحلام التى كانت تجيش فى صدورهم عن الحرية ، وشرعوا يعملون على توطيد سلطان روما فى الشرق (٣٠) . وكان السكندريون أشدهم بأسا وأكثرهم عنادا واستكبارا ، فأصروا على مناوءة الحكومة الرومانية ومحاربتها والتنديد بأن طابع السلطة الامبراطورية هو الاستبدادية لا الملكية . ولكن يجدر بنا أن نذكر أن هذا الخصام والجدال أثير فى وثيقة ترجع الى عصر كومودوس وانه فى هذه الوثيقة قد عقدت مقارنة بين كومودوس وبين أبيه (٣١).

والحقيقة الأخرى التى يجب ألا نغفلها هى أن أباطرة القرن الثانى لم يضطهدوا الفلاسفة بله الكلبيين ، واضطلع بعبء مناوأتهم والقدح فيهم الموالون من الفلاسفة والسفسطائيين . ولم تر الحكومة أن تتدخل فى هذا الجدل والنزاع الأدبى (٣٢).

ومع ذلك فلا يمكن أن نقرر مطمئنين أنه لم تكن هناك عناصر ساخطة فى الامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى ، بل انه فى الشرق كانت الطبقات العليا مطمئنة اطمئنانا ما الى الامبراطورية ، ولكن هذا لا يصدق على الطبقات الدنيا ، اذ يدل ما حدث فى « بيثينيا » مثلا وما وقع من اضطرابات فى الاسكندرية فى عهد تراچان ، على أن عدم الوئام الاجتماعى الذى أشرنا اليه ، لم تخف وطأته أبدا فى آسيا الصغرى أو فى مصر ، وانه لم يكن من اليسير على الحكومة الرومانية وحكام المدن أن يكبحوا جماح الطبقات الدنيا من سكان المدن (٣٣). ولنا عودة الى هذا الموضوع فى الفصل التالى .

وقد يكون من الخير أن نعقب ببضع كلمات على النظام الاجتماعى فى الجيش الرومانى ابان عهد الانطونيين . وقد تكررت الاشارة فى هذا الفصل الى أن الجيش الرومانى كان العامل الحاسم لا فى الحياة السياسية فحسب ، بل كذلك فى المجال الاجتماعى والاقتصادى فى

الامبراطورية . وقد يعرض هذا السؤال : هل بقى الجيش على حاله فى عهد ماركوس أوريليوس وكومودوس كما كان فى عهد الفلاڤيين وفى حكم تراچان ؟ وهل كان لايزال بوجه عام جيشا من المواطنين الأحرار الرومان فعلا أو الذين قدر لهم أن يصيروا كذلك فى المستقبل ، وهل كان يقوم بالاشراف عليه ضباط من المواطنين الرومان الأحرار المولودين فى روما وفى ايطاليا ؟ ولهذا الموضوع أثره العميق فى فهم حوادث القرنين الثانى والثالث وادراكهما ادراكا صادقا . فالى أى حد نستطيع الاجابة على هذا السؤال ؟ من الجلى أنه من وجهة النظر الدستورية لم يحدث تغيير فى تأليف الجيش . فالضباط طوال القرن الثانى كانوا يختارون من بين صفوف طبقتى السناتو والفرسان ، أما ضباط الصف فكانوا من أحرار الرومان الذين ولدوا فى ايطاليا أو فى الأجـزاء التى اصطبغت بصبغة رومانية من الولايات الغربية وتلقوا تعليمهم فيها . وكان جند الحرس البريتورى من الايطاليين أو الأهالى القاطنين اما فى الولايتين المصطبغتين بصبغة رومانية ، وهما اسـبانيا ونوريكوم أو فى ولاية مقدونيا . وكان جند الأورط جميعا مواطنين رومان بحكم القانون،وكان يفترض فى الجندى فى الفرق المساعدة أن يعرف اللاتينية ، وكان يمنح الجنسية الرومانية عند تسريحه . ومع ذلك فمما لا ريب فيه أنه على الرغم من هذا المؤهل السياسى كان أغلب الجند من سكان الولايات واقتصر الايطاليون على الاندماج فى الحرس الامبراطورى الذى تربى فى أحضانه كذلك ضباط الصف لتدريبهم على العمـل فى سائر الجيش . وبعد عهد هادريان كان على كل ولاية أن تزود نفسها بما يلزمها من الجنـد .

وهذه حقائق قد محصها جيدا علماء محدثون وهى معروفة تماما . أما تأليف الجيش وتكوينه من وجهة النظر الاجتماعية فعلمنا به أقل بكثير مما سبق . فالى أى طبقة أو طبقات من السكان كان ينتمى الجنود؟ وأى جزء من الامبراطورية كان تمثيله فى الجيش بدرجة أشمل وأعم ؟

أهي المدينة أم هو الريف؟ وهل كان أكثر الجنود من سكان المدينة أم من الفلاحين ؟ ان القول بأنهم عند ذكر اسمهم الكامل الذى منحهم اياه الجيش كانوا فى الكثير الغالب يذكرون اسم مدينة على أنه موطنهم الأصلى ، لا يحل المشكلة فربما كان ينتمى الجندى الى النطاق المحيط بالمدينة ، وربما كان فلاحا أو مستأجرا ، ومما لا شك فيه أن الفرق المساعدة كانت تعبأ غالبا من بين الفلاحين والرعاة ، ولكن ما هو الشأن فى الأورط ؟ والرأى السائد هو أنه حتى جنود الأورط كانوا اذ ذاك فى الغالب فلاحين ، اذ أن سكان الحضر لم يكن فى قلوبهم أى ميـــل للانضواء فى الجيش ولم تكن لهم مكانة رفيعة عند الضباط العسكريين ، وفى اعتقادى أن هذا الرأى هو الصحيح . وقد حاول بالطبع أباطرة القرن الثانى أن يجندوا فى الجيش أكبر عدد مستطاع من الشبان ، المصطبغين بصبغة رومانية وكان هؤلاء فى الغالب من المدن . وقد أبدى هؤلاء الأباطرة استحسانهم وتشجيعهم على انشاء جمعيات اقليمية مؤلفة من الشبان الذين عملوا متى اقتضت الحال فى الفرق المحلية . ولكن الواقع والحق أن جمعيات الشباب هذه — وهم جنود المستقبل الذين يغذون الأورط الرومانية ، فقدوا طابعهم المدنى شيئا فشيئا ، وبخاصـــة فى الولايات المتاخمة للحدود . ومن الشائق أن نتتبع تطور هيئات الشبيبة (collegia iuvenum) ومنظماتها فى ولايات الرين فيما بعد العصر الفلافى . فجمعيات الشبيبة فى هـــذه الولايات لم يقتصر نشاطها على بضع مـــدن عادية فى ولايتى ألمانيا ، بل نجدها كذلك فى مدائن متمتعة بالجنسية الرومانية (civitates) وفى القرى (pagi) والدساكر (vici) مما كان ذا صلة وثيقة بالقبائل والعشائر الألمانية والكلتية . على ان هذه الجمعيات نفسها كانت غير الجمعيات والمنظمات فى المدن الايطالية . وفى الولايات الكلتية — الألمانية المتاخمة للحدود قامت هذه المنظمات الايطالية فى محيط طعمت به نظما قومية ذات طابع نصف دينى ، مما كان شائعا بين الشعوب الهندية الأوروبية بوجه عام وكان موجودا كذلك فى

ايطاليا فيما سلف من قبل الرومان . وربما كان شباب (iuvenes) ألمانيا في أول أمره هو الممثل وحده لأفضل طبقات السكان في ولايتي ألمانيا ، أعني طبقة المزارعين الموسرين وملاك الأراضي الأثرياء سواء أكانوا من أصل دخيل أو عنصر أصيل ، ولكن مما لا مراء فيه أن هؤلاء الشباب أخذوا يضمون اليهم شيئا فشيئا مجموعة الشباب الصالح للخدمة العسكرية في أي مكان .

وعلى ذلك فقد الجيش الروماني شيئا فشيئا صلته بالمدن في القرن الثاني ، وآل أمره الى ما كان عليه في العصر القديم من التاريخ الروماني ، فأصبح جيشا من ملاك الأراضي والفلاحين وسكان القرى الذين لم يقطعوا صلتهم بعد بالريف والحياة الزراعية فيه . وسوف نرى في الفصلين السادس والسابع أن هذا العنصر الريفي كان يمثل أكثر سكان الامبراطورية . وكان أفضل الجند بالطبع يجلبون من البلاد التي كان فيها التقدم في حياة الحضر وئيد الخطى فلم تستهو فريقا كبيرا من سكان الريف كما حدث مثلا في بلاد اليونان وايطاليا ، بل وفي بلاد الغال الى حد ما .

ويمكن أن نجد في تكوين الجيش وتأليفه تعليلا لاستعداده الطيب واخلاده الى الهدوء وامتثاله للقانون وهي الروح التي أظهرها طوال القرن الثاني كله ، فكان من الأسهل حفظ النظام وكبح جماح جيش مؤلف من الفلاحين الذين لم يسبق لهم الاشتراك بحال ما في الأمور السياسية ، عن احكام الرقابة على جيش مكون من طغام المدن ، وهم الذين أوتوا حظا أوفر من الثقافة والفكر ولهم دراية أكبر بالحياة السياسية بوجه عام . ويعزز الرأي القائل بأن جيش القرن الثاني ولا سيما في النصف الثاني من هذا القرن (ابان حكم ماركوس أوريليوس وكومودوس) كان يتألف في الكثير الغالب من العناصر الريفية من سكان الامبراطورية ، أنه لم يكن بعد جيشا من المتطوعين . وفي زمن ماركوس أوريليوس عندما اشتبك الأباطرة في كفاح قاس

على الحدود الجنوبية والشمالية وأوشك الألمان أن يغزوا ايطاليا وتفشى الطاعون فى أرجاء الشرق وايطاليا ، لم يعد من المستطاع بعدئذ الاعتماد على التطوع الاختيارى . ومن الذائع أن ضغط الحوادث اضطر ماركوس أوريليوس الى تجنيد العبيد والمصارعين بالسيف ورجال الشرطة فى البلديات وكذلك الألمان ورجال القبائل التى تعيش على السلب والسرقة فى دالماشيا وداردانيا ، وربما كان هذا اجراء شاذا ولكنه يدل على انه حتى فى الأوقات التى يقل فيها الحرج كان من الصعب على ماركوس أوريليوس ألا يملأ صفوف الجيش عن طريق التجنيد الجبرى . ويجب أن نذكر أن الخدمة العسكرية كانت فى كل العصور فرضا على كل من المواطنين الرومان وسكان الولايات وان التجنيد الاجبارى كان الوسيلة العادية فى حشد الجنود اللازمين للفرق المساعدة ، ولما كان الجزء الأعظم من سكان الامبراطورية يتألف من أهل الريف ، ولما كان سكان المدن وبخاصة فى هذه الأوقات العصيبة يحاولون الفرار من الجندية بأى وسيلة ، فمن البين أن جيش ماركوس أوريليوس كان يتألف فى أكثره من الفلاحين ولا سيما فلاحى الولايات الأقل تحضرا فى الامبراطورية الرومانية وهى الولايات التى أخرجت أشجع الجند وأصلبهم عودا (٣٤) .

ولتكوين فكرة جيدة عن تأليف الجيوش الاقليمية اذا ما قورنت بالحرس البريتورى نرجع الى الوصف الذى صوره كاسيوس ديو عندما تكلم عن اصلاح سبتيميوس سيفيروس (Septimius Severus) الذى سرح الحرس البريتورى القديم واستبدله بجند اختارهم من الجيوش الاقليمية وبالأخص من أهالى الطونة . ويقول ديو « انه بذلك قضى قضاء مبرما على شباب ايطاليا الذين انصرفوا الى السلب والنهب واحتراف المسايفة « المصارعة بالسيف » بدلا من الخدمة العسكرية ، وملأ العاصمة بجموع غير متجانسة من الجند ، فى مظهرهم خشونة ، وفى رطانتهم نبوٌ وثقل على الآذان » — ومن الواضح أن أكثرهم لم

يكونوا يعرفون اللاتينية — «وفى سلوكهم وعاداتهم عنجهية وفظاظة»(*)
وعلى ذلك فمما لا ريب فيه أن الجيش الرومانى فى أواخر القرن الثانى ، على الرغم من أنه كان لا يزال يتألف من الرومان أعنى من سكان الامبراطورية الرومانية ، قد أصبح شيئا فشيئا أكثر اتساما بطابع بربرى (أى أجنبى) وأقل تمثيلا للسكان المتحضرين ، وفيما عدا الضباط وضباط الصف فان روح الجيش ونفسيته لم تكن روح الطبقات المتمدينة بل كادت أن تكون روح الطبقات الريفية .

(*) كاسيوس ديو ، فصل ٧٤ ، ٢

الفصل الخامس

الامبراطورية الرومانية على عهد الفلاقيين والأنطونيين

المدن ثم التجارة والصناعة

ان خير صورة عامة وأفضلها للامبراطورية الرومانية فى القرن الثانى، شاملة للتفاصيل الدقيقة الوافية الى اقصى حد جعل من اليسير تناولها، قد نجدها فى خطبة عنوانها « الى روما » (Eἰς 'Pώμην) ألقاها فى روما عام ١٣٤ بعد الميلاد سفسطائى اسمه إيليوس أريستيديس (Aelius Aristides)، وهى لا تنطوى على التعبير عن خالص الاعجاب بعظمة الامبراطورية الرومانية فحسب، بل تعد كذلك تحفة فى التحليل الفكرى والسياسى السليم . وقد أصبح من المعتاد أن نتحدث عن ذلك المديح الذى يزجيه أريستيديس، على أنه انشاء خطبة بليغة « ريطوريقية » يعوزها الابتكار الفكرى وقد جاءت مستودعا جامعا لموضوعات عادية يعرفها الجميع ؛ على أن الحجج التى تنهض دليلا على مثل ذلك الرأى مستمدة من تحليل المصادر التى استقى منها أريستيديس، ويقال ان ايسوكراتيس (Isocrates) كان مصدر اريستيديس الأساسى الذى اعتمد عليه فى المطابقات التاريخية، أما بلوتارك وديونيسوس الهاليكارناسى وپوليبيوس (Polybius) فقد أوحوا اليه أكثر أفكاره الأساسية، ويقوم هيكل خطبته فى أساسه على التعاليم النظرية التى دونها ميناندر فى كتابه عن الخطابة [1] . وفى الامكان الاعتراف بدقة كل هذه الحقائق، ولكن كم من الخطب السياسية الرائعة فى العصر الحديث يحتمل مثل هذا الفحص والتمحيص ؟ غير ان تحليل المصادر التى استقى منها اريستيديس خطبته يعجز عن أن يثبت أهم

نقطة أساسية ، أعنى ان آراءه جـوفاء سخيفة وأن الخطبة بوجه عـام مجموعة من الموضوعات العادية المتواترة ، وربما كان بعض هذه الأفكار يمثل الرأى السـائد فى ذلك العصر ، ولكن ليس معنى ذلك بالضرورة أنها أفكار جوفاء سخيفة ، بل ربما كان بعضها عبـارة عن موضوعات عامة ، وفى الحق أننا لانجد الا القليل من هذا الصنف . ولكن فى وسعنا أن نتحدى النقاد أن يذكروا أى انتاج أدبى آخر يرجع الى القرن الثانى بعد الميلاد وفيه صورة وافية دقيقة عن الامبراطورية الرومانية وبنائها مثلما فعل اريستيديس . هل فى وسعهم أن يذكروا أى مؤلف آخر توافر له مثل هذا الثراء فى صوره الرائعة البهية التى توضح المظاهر المختلفة فى الامبراطورية من سياسية واجتماعية واقتصادية ؟ أضف الى ذلك أن فى خطبة اريستيديس بعض الآراء التى لا يمكن أن توجد فى أى مؤلف آخر ، على الأقل بمثل هذا الوضوح والمقدرة على الافصاح الوافى . ومن ذلك تلك الآراء التى لقيت القبول والتفضيل فى القرن الثانى بشأن الملكية المستنيرة والعلاقات بين الملك وبين مختلف الطبقات فى الامبراطورية وتناولت تعريف الامبراطورية وتخصيصها بأنها مجموعة متماسكة من المدن المستقلة التى تتمتع بحكم ذاتى ، أما ذلك العرض الرائع للدور الذى مثله الجيش فى الدولة الرومانية فلا يقل فى الأهمية عن أى شىء آخر ، وخطبة اريستيديس فى اعتقادى هى أحد المصـادر البالغـة فى الأهمية ، لا عن النظام العام لبنـاء الامبراطورية الرومانية كمـا رآه المعاصرون فحسب ، بل كذلك عن العقلية السائدة فى عصر الأنطونيين والأفكار السياسية الشائعة فى ذلك العصر . وفى اطراء كهذا لا ينتظر أحد أن يجد نقدا للامبراطورية ، فقد انصرف جهد الخطيب الى تنـاول المظاهر الايجابية وابرازها وأداء هذا من غير أى مبالغة وتملق لاداعى لهما . وفى هذا العمل صادف أريستيديس من التوفيق حظا طيبا .

ويجب أن نقارن الخطبة التى تحمل عنوان « الى رومـا » بخطب « ديو » عن « الملكية » (βασιλεία) ، فهذه الخطب شرحت المنهاج

الذى اتفق عليه الأباطرة والقادة المفكرون فى المجتمع الرومانى فى عصر الامبراطورية ؛ وخطبة اريستيديس تبين كيف كان ينفذ هذا المنهاج والى أى حد جاءت الأحوال الواقعية فى عصر الانطونينيين وبوجه أخص فى عصر انطونينوس پيوس (Antoninus Pius) مطابقة للآمال التى كانت تجيش فى صدور خيار الناس فى الامبراطورية . ولا ريب أن اريستيديس عندما ازجى الثناء وأشاد بأعمال الملكية المستنيرة كان على أتم وفاق مع العقول الرشيدة فى عصره ومع جمهرة سكان المدن وهم الطبقة الوسطى (البورچوازية) فى المدن فى جميع أنحاء الامبراطورية ، واليك شاهدا على ذلك : الآف النقوش فى العالم الرومانى بأسره، أقيمت تمجيدا لأباطرة القرن الثانى وبخاصة للاشادة بذكر انطونينوس پيوس والدولة الرومانية الخالدة .

وطبعى ، اذن ، أن هذا الفصل الذى يعالج موضوع مدن الامبراطورية يجب أن يستهل باقتطاف بعض الآراء التى وردت فى خطبة اريستيديس . والامبراطورية الرومانية كانت فى نظر اريستيديس دولة عالمية وروما كانت مركز العالم ؛ ويقصد اريستيديس بكلمة « عالم » بالطبع العالم المتحضر (أى الآهل بالسكان (οἰκουμένη)) ، أعنى بلاد البحر المتوسط . وقد وفقت الامبراطورية الرومانية فى توحيد العالم المتحضر وتحقيق هذه الوحدة ، وهو أمر عجزت كل من الملكيات الشرقية والمدن الاغريقية عن تحقيقه ، ولم يكن أساس هذه الوحدة قائما على العبودية كما كانت الحال فى الملكيات الشرقية بل وفى الملكيات التى أسسها الاسكندر وخلفاؤه .. ورئيس هذا العالم الموحد ليس بالسيد المطلق (δεσπότης) بل هوا الحاكم (ἄρχων) أو الزعيم (ἡγεμών) ، فهو يحكم أحرارا لا عبيدا ، وهو يحكم لأن رعاياه يعترفون له بذلك بمحض اختيارهم ، وهم يشعرون أن خلاصهم فى توائقهم واتحادهم ، فالعالم قد تمخض عن دولة — مدينة واحدة (وما العالم كله المأهول بالسكان الا مدينة واحدة : μία πόλις πᾶσα ἡ οἰκουμένη) .

وفى هذه الدولة لا يوجد فارق بين يونانيين ومتوحشين (برابرة) أو أصيل ودخيل وانما الكل ، اذا جاز لنا أن نقول ذلك ، بشر ، ولو ان أريستيديس لا يصرح بذلك ، فالجميع سواء فى نظر الدولة ، عظيمهم وحقيرهم ، غنيهم وفقيرهم . ومع ذلك فهناك تمييز واحد : هناك خيار القوم وهناك جموع غفيرة . والاخيار هم الحكام وهم مواطنون أحرار رومان ؛ وعلى الجماهير اطاعتهم . ومع ذلك فليس الحكام بالضرورة من مواطنى روما أو ايطاليا وانما هم خيار القوم فى كل جزء من الامبراطورية الرومانية ولأنهم حقا أفاضل الناس ، لذلك هم مواطنون رومان أحرار . ولذلك حق لهم ان يصيروا حكاما فهم يحكمون الأجزاء الرئيسية المكونة للامبراطورية ، ألا وهى المدن ، وعلى الجماهير واجب الطاعة فاذا لم تفعل وأثارت شغبا وحاولت قلب النظام القائم فهناك القوة القاهرة لاكراههم على الخلود الى الهدوء والطاعة .

وفى هذا العالم الموحد عم السلم بفضل ادارة حازمة لشئون الامبراطورية تقوم على نظام مركزى بديع من البيروقراطية وجيش قوى دائم يتألف من جند اتخذوا الحرب حرفة وكانوا فى الوقت نفسه مواطنين رومانيين ، والجيش الرومانى مثله مثل الطبقة الحاكمة عامة ، كان يمثل الامبراطورية جمعاءلا قبيلة واحدة ولا أمةواحدة أو أى اتحاد من القبائل والأمم . وأفراد الجيش مثلهم كمثل الطبقة الحاكمة ، كانوا جميعا أعضاء فى هذه الطبقة من السكان التى آلت اليها مقاليد الأمور : فهم مواطنون رومان ، ويرجع الفضل الى الموظفين والجيش فى أن ساد السلم وعمت الرفاهية جميع أرجاء العالم مما لم يسبق لهما مثيل أو نظير ؛ والسلم الشامل من شأنه ان يجعل المدن تزدهر وتتقدم ، وقد أدى هذا السلم الى ان أصبحت الامبراطورية مجموعة من المدن بلغت أقصى حد من الازدهار والجمال ولا سيما فى بلاد الاغريق وأيونيا (آسيا الصغرى) ومصر .

لقد قدمنا عرضا شاملا مع توخى البساطة والايجاز ، لأهم الآراء التى ضمنها أريستيديس خطبته ولكن حتى فى هذا الوصف الاجمالى يمكن

أن نتعرف على العلاقة الوثيقة بين آرائه وآراء « ديو » . وعندما كان اريستيديس يخطب سامعيه فى روما كان يدرك تماما أنه كان يتحـدث بلسان الملكية المستنيرة وانه كان من السهولة بمكان أن ترد أقواله هذه على لسان الامبراطور أنطونينوس نفسه ، وما لبث السامعون اليـه أن تلقفوا أقواله بشغف ، انهم كانوا متعطشين الى سماع الحديث فى مديح روما ، مديحا صادقا لا مجرد تملق ورياء — والاشادة بذكر الظروف المستحدثة اشـادة مقنعة تزيل عنهم شعورا كئيبا بالدمار المرتقب الذى كان يشير اليه بصراحة تامة أناس كثيرون من أمثـال المؤرخ أنا يوس فلوروس (Annaeus Florus) الذى كان يرى أن عصر الامبراطـورية الرومانية وافق شيخوخة (senectus) الحضارة البشرية .

ولنضع الى جانب الصورة التى رسمها اريستيديس صورة أخرى للامبراطورية الرومانية رسمت وفقا لافكارنا الحديثـة ولها اتصـال لا بتاريخها الغابر فحسب ، بل بتاريخها المستقبل كذلك ، وهذا وحده ما نفضل به أريستيديس .

كان أريستيديس محقـا تماما فى توكيد الحقيقة التى تقـول بأن الامبراطورية الرومانية مجموعة من المدن بين يونانية وايطالية واقليمية ؛ ويسكن الأخيرة منها اهال اصطبغوا الى حد ما بصبغة هيلينية ورومانية ، من هذه أو تلك الولاية المعنية بالذات . ولكل مدينة خصصت مساحة من الأرض ؛ اتسعت أو ضاقت رقعتهـا ، وهى التى نسميهـا فى العـادة « منطقتها » ؛ وهذه المنطقة اما انها كانت لمدينة مستقلة قديمة ، يونانية أو ايطالية ، واما أنها كانت أرضا خصصها الرومـان فى ايطاليـا أو فى الولايات لمدينة جديدة أو قديمة سواء أكانت مهجرا رومانيا أم لاتينيا أو بلدة أصيلة . وقد تناولنا فيما سلف التطور التدريجى الذى صادفته حياة المدن فى الامبراطورية التى أحرزت بعض التقدم على أيدى جميع أباطرة القرن الأول . ولم يقف تيار هـذا التقدم فى عهـد الفلاڤيين

والانطونينيين . وقد سلفت الاشارة الى ما أبداه فسپاسيان من نشاط فى انشاء مدن جديدة أو منح حقوق المدينة الى بلدان أصيلة ؛ وقد اقتفت نفس السياسة « أسرة » الانطونينيين الجديدة وبخاصة تراچان وهادريان، ومنذ سقوط الملكيات الهيلينستية فان عدد البلدان التى تحمل أسماء أسرة حاكمة وبخاصة فى الشرق لم يسبق أن بلغ مثل هذه الدرجة الهائلة التى بلغها فى عهد هذين الامبراطورين ، والى جانب المدن المسماة يوليوپوليس (Juliopolis) وفلاڤيوپوليس (Flaviopolis) فكثير منها مما كان يحمل اسم تراچانپوليس (Trajanpolis) وپلوتينوپوليس (Plotinopolis) وماركيانوپوليس (Marcianopolis) وهادريانوپوليس (Hadrianopolis) (أو مشتقات أخرى مضاف اليها اسم هادريان) ، نشأ فى الشرق الاغريقى والبلاد التى كانت ذات طابع نصف اغريقى .

ويبدو كما لو ان الأمر اقتضى أن تراچان وهادريان كانا يرومان التفوق على السلوقيين والاتاليين (Attalids) والبطالمة فى هذا المضمار ، بل ان هادريان أنشأ فى مصر المدينة الاغريقية الأولى والأخيرة منذ تأسيس بطلمية (Ptolemais) مسميا مؤسسته باسم انطينوپوليس (Antinoupolis) .

والمدن الجديدة التى تحمل أسماء الأسر الحاكمة أو تحمل أسماء وطنية ، كان بعضها قرى فى سابق عهدها وبلدانا صغيرة مأهولة فى الكثير الغالب بالأهلين وبعضها مهاجر للقدامى من جنود الرومان ، على الأخص فى أفريقيا وعلى ضفاف الرين والطونة . بل ان بعض مراكز الضياع الشاسعة التى لم تدخل فى نطاق مدينة ما والتى كان يمتلكها الأباطرة الرومان (وهى التى سنعالجها فى الفصل التالى) جرى الاعتراف بها كمدن واتخذت من الاقطاع الامبراطورى أو من جزء منه منطقة لها . ولم تكن احدى هذه المدن الجديدة خلقا زائفا ، فجميعها كان نتيجة تطور طبيعى وميل من جانب الولايات نحو حياة الحضر والمدينة ، ولكن حركة بناء المدن التى دبت روحها فى الولايات على هذا النحو السريع ،

لم تعمر طوال عصر الانطونيين اذ أصبح من النادر بعد هادريان انشاء المدن ، ولو ان حركة بناء المدن التى أصيبت بالركود لم تتوقف تماما[٢].

وهكذا بدت الامبراطورية فى القرن الثانى ، أكثر منه فى أى زمن مضى ، فى ثوب اتحاد هائل من مدن مستقلة ، وكان لكل مدينة حكومتها الذاتية المحلية وحياتها « السياسية » الخاصة (بكل ما تنطوى عليه كلمة سياسية من معنى قديم) ولها مشاكلها الاقتصادية والاجتماعية الخاصة بها ، تعالج حلها . وفوق المدن يجىء سلطان حكومة مركزية قوية تتولى شئون الدولة — من علاقات خارجية وشئون حربية وماليــة ، ويرأس هــذه الحكومة المركزية الامبراطــور فهــو الحــاكم الأعلى (ἄρχων وهو الزعيم (ἡγεμών)= (princeps) ، وباســمه يباشر المنــدوبون عنه سواء منهم المدنيون والعسكريون ، أعمالهم · والى جانب الامبراطور كان لا يزال « السناتو » معتبرا مصدر السلطة الامبراطورية ، ولكن الدور الذى كان يمثله فى الحقيقة فى حياة الدولة لم يكن الا دورا ثانويا، فكان محكمة عليا ومجلسا للامبراطورية . ومن وجهة النظر القانونية كانت الحكومة المركزية لاتزال هى حكومة « السناتو » وشعب روما ، أما فى واقع الأمر فكانت ملكية مطلقة فيما عدا بعض الامتيازات التى منحت للطبقات العليا من المواطنين الرومان والحكومة الذاتية التى كانت تتمتع بها المدن · وفى الحق كانت الحكومة الذاتية التى تنعم بها المدن ، تكاد تكون كاملة وكانت البيروقراطية الامبراطورية تتدخل فى القليل النادر فى شئون المدن المحلية ، وانما كاد يقتصر عملها على جباية الضرائب (بوساطة المدن غالبا) ثم على ادارة الأملاك التابعة للامبراطور وللدولة وعلى نوع واحد من القضاء والتشريع .

ووجه الاختلاف بين الامبراطورية الرومانية وبين الدول الحديثة التى لها الطابع نفســه ، ينحصر فى أن الحكومة المركزية فى الامبراطورية الرومانية لم يجر انتخابها أو يكون للأجزاء والعناصر التى تتألف منها تلك

الامبراطورية اشراف عليهـا ، فتلك الحكومـة المركزية كانت للهيمنة والاشراف على الحكومة الذاتية التى كانت تتمتع بها المدن ، دون أن يكون لتلك الحكومات الذاتية حق الرقابة أو الاشراف عليها · فالحكومة المركزية كانت ، من حيث قيامها ، ذات كيان مستقل فهى جزء من تراث الماضى عندما كانت الحكومة المركزية هى حكومة مدينة واحدة ، تعتبر سيدة العالم . والامبراطورية الرومانيـة فى القرن الثانى كانت كذلك مزيجا عجيبا من اتحاد يضم شمل مدن متمتعة بحكومات ذاتية ، ومَلكية كادت تكون مطلقة ، فرضت فرضا على هذا الاتحاد الائتلافى · والملك هو قانونا الحاكم الأعلى فى مدينة روما التى لها السيطرة والحكم .

وعـلى ذلك فليس بعجيب ان الأدلـة الأدبيـة التى تشـير الى الامبراطورية الرومانية تكاد تتناول مدينة روما وحدها ونشاط الحكومة المركزية فقط ، ومع ذلك نسمع بين حين وآخر عن الحياة فى مدن أخرى فى الامبراطورية . ويكفينا أن نذكر مؤلفات كتّاب أمثـال سناتيوس (Statius) ومارشال (Martial) وچوڤينال (Juvenal) وپلينى الأصغر عن مدن ايطاليا والنصف الغربى من الامبراطورية ومصـنفات پلينى نفسـه وديو ذى الفم الذهبى ولوكيانوس (Lucianus) وفلاڤيوس يوسف (Flavius Josephus) وفيلون (Philo) وأريستيديس (Aristides) عن مدن بلاد اليونان والشرق اليونانى ، وزد على ذلك أن المدن نفسها كانت كثيرة الثرثرة ، فسردت لنا عن طريق ما أخرجته من عشرات الآلاف من النقـوش وأوراق البردى اليونـانى واللاتينى ، الشىء الكثير عن التفاصيل الهامة وغير الهامة ، التى تمس حياتها ، حتى انه أصبح من السهل نسبيا أن نرد الى هذه المدن معالمها الأساسية . وفضلا عن ذلك فان الحفريات والكشوف الأثرية التى تمت حديثا جرت بالطبع فى خرائب المدن أولا ، وبعض هذه الخرائب ، وبخاصة فى الممالك التى دمرت عقب انتهاء عهد السيطرة الرومانية عليهـا — فى آسيا الصغرى وسـوريا وأفريقيا — تخلب اللب الى أقصى حد ، اذ بقيت آثار تلك المدن فى حالة

رائعة من الحفظ والصيانة . وأخيرا لدينا مئات الآلاف من العملة التى كانت الى حد كبير لا تزال تسكهـا مدن الامبراطورية ، نستمد منهـا معلومات من الدرجة الأولى عن بعض الموضوعات الهامة فى حياة هـذه المدن من سياسية ودينية واقتصادية ؛ ولم تكشف لنا هذه المصادر المظهر الخارجى لكثير من المدن القديمة فحسب ، بل أماطت اللثام كذلك عن الأوصاف الأساسية لكل مظهر من مظاهر الحياة فيها — فمن ناحية : حوائطها وأسوارها وأبوابها وطرقها ومحلاتها العامة والمبانى المملوكة للحكومة وللأفراد ، ومن ناحية أخرى نظام ثروتها ، من دخل وخرج ، وموارد هذه الثروة من عامة وخاصة ، وعقائدها الدينية وملاعبها ونشاطها الفكرى .

والأثر الذى نستمده لأول وهلة من دراسة هذه المصادر ، فياض شامل ، فلم يحدث من قبل أن بدا مثل هذا الجزء الكبير من أوربا وآسيا وأفريقيا بهذا المظهر المتمـدن ، أوقل ان شئت الحديث ، فى معالمهـا الأساسية ؛ فكان بعض المدن كبيرا وبعضها الآخر صغيرا ، وبعضها غنى فيه بذخ ، على حين ان البعض الآخر فقير تتجلى فيه البساطة ولكن هذه المدن كلها تشترك فى أمر واحد وهو أنها بذلت أقصى جهد مستطاع كى تجعل الحياة المتحضرة فيها هنيئة ناعمة ما استطاعت .

وكانت روما ، عاصمة العالم ، الكبيرة والجميلة ، هى بالطبع محط اعجاب واطراء بالغ ، أكثر من أى مدينة فى الامبراطورية وقد استحقت اعجاب المعاصرين كما استحقت كامل اعجابنا ، فروما جميلة جدا حتى فى أنقاضها ؛ وآثارها ومبانيها العامة رائعة جدا — من معابدها وقصور أباطرتها ، بما يحيط بها من « حدائق » فى المدينة وبيوت ريفية لهم فى الضواحى ، وما بها من قصور للشعب : حمامات ومبان عامة (باسيليكا) وممـرات مسـقوفة قيصرية (porticoes) ومبان عامـة وحـدائق للجمهور . وكانت قصبات أغنى الولايات وأكثرها تقدما ونجاحا تنافس

مدينة روما : كالاسكندرية فى مصر وانطاكية فى سـوريا وأفسوس فى آسيا الصغرى وقرطاجة فى أفريقيا وليون فى بلاد الغال [٣] . ويلى هذه فى المرتبة مئات من المدن الكبيرة والجميلة فى أنحاء الشرق والغرب ، ومن الجائز أن نذكر قليلا منها . ففى ايطـاليا : پمپيى وپوتيولى (Puteoli) وأوستيا وڤيرونا واكويليا وايمونا (Emona) ؛ وفى صقلية : تاورومينيوم (Tauromenium) وسيراكيوز وپانورموس (Panormus) ؛ وفى بلاد الغال وألمانيـا : ناربو (Narbo) ، وأريلات (Arelate) ونيماوسوس (Nemausus) وأراوسيو (Arausio) وأغسطا تريڤيروروم (Augusta Treverorum) ومستعمرة أجريپينا (Colonia Agrippinensis) ؛ وفى انجلترا : لندن (Londinium) ؛ وفى أسبانيا والبرتغال : تاراكو (Tarraco) وقرطبه (Corduba) وهسپاليس (Hispalis) وايتاليكا (Italica) وايميريتا (Emerita) واستوريكا (Asturica) ؛ وفى أفريقيا ونوميديا وموريتانيا : هادروميتوم (Hadrumetum) وقرطه (Cirta) وهيپو ريجيوس (Hippo Regius) وقيصرية (Caesarea) ؛ وفى برقة ، قيرينى (Cyrene) وفى دالماشيا ، پولا (Pola) وسالونا (Salona) ؛ وفى مقـدونيا ، تسـالونيكا (Thessalonica) ؛ وفى بلاد اليونان : أثينا وكورنثه ورودس ؛ وفى آسيا : سمرنا (ازمير) (Smyrna) وبرغامه (Pergamum) وميليطه (Miletus) ؛ وفى سيليشيا (كيليكيا) ، تارسوس (Tarsus) ؛ وفى بيثينيا (Bithynia) ، نيقيه (Nicaea) ونيقـوميديا (Nicomedia) ؛ وعلى بحر مرمره والمضائق : كيزيكوس (Cyzicus) وبيزنطة (Byzantium) ؛ وعلى البحر الأسـود : سينوپى (Sinope) وعلى شاطئه الغربى : تومى (Tomi) وايستروس (Istrus) وفى القـرم : پانتيـكاپايوم (Panticapaeum) وهى مدينة صديقة وخرسونيسوس (Chersonesus) ؛ وفى سوريا : بعلبك وپالميرا ودمشق وجيراش (Gerasa) ؛ وفيما بين النهرين : اكتسيفون وفى بلاد العرب : بترا والبصرة ؛ وفى فلسطين : بيت المقدس [٤] .

وما هـذه الا مدن قليلة اختيرت من آلاف ، والسبب فى ذلك اما

لأن المصادر الأدبية أشادت بذكرها واما لأنها اشتهرت بآثارها الباقية فى حالة جيدة من الحفظ والصيانة ، وهـذا الثبت يمـكن زيادته كثيرا ويمكن أن نضيف اليه ، وقد كشفت لنا الحفريات عن آثار قديمة لمدن كثيرة يكاد لم يرد ذكرها فى مصادرنا الأدبيـة ، ومع ذلك فقد كانت مراكز مزدهرة ، دبت فيها حياة هنيئة ، ومن أمثال هذه فى أفريقيا ونوميديا وموريتانيا : ثوجا (Thugga) وثوبربو مايوس (Thuburbo Majus) ، وثوبيرسيكو نوميداروم (Thubursicu Numidarum) ، وبولاريجيا (Bulla Regia) وسوفيتولا (Sufetula) والثيبوروس (Althiburos) وجيجثيس (Gigthis) وتريبوليس وهى أويا (Oea) ، سابراثوس (Sabrathus) وليبتيس (Leptis) ثم ثيفستى (Theveste) ولامبايسيس (Lambaesis) وثاموجادى (Thamugadi) وماداوروس (Madaurus) وكويكول (Cuicul) ثم ڤولوبيليس (Volubilis) ؛ وعلى الطونة تجد كارنونتوم (Carnuntum) واكوينكوم (Aquincum) ؛ وفى سويسرا الحديثة : ڤيندونيسا (Vindonissa) واوغسطا راوريكا (Augusta Raurica) ، وفى نوريكوم : ڤيرونوم (Virunum) ؛ وفى دالماشيا : دوكليا (Doclea) ، وفى انجلترا : كاليڤا اتريباتوم (Calleva Atrebatum) وشيلستر (Silchester) وڤنتا سيلوروم (Venta Silurum) وكارڤنت (Caerwent) واكوايسوليس (Aquae Sulis) وباث (Bath) ؛ وفى آسـيا الصغرى : اسوس (Assos) ؛ وبعض القرى الكبيرة والمدن الصغيرة فى مصر ، وغير ذلك (٥) .

ولم تكن جميع مدن الامبراطورية الرومانية بالطبع ذات نسق واحد ، لقد اختلفت بحكم تطورها التاريخى وظروفها المحلية . وتأتى فى المقدمة بلدان تجارية وصناعية وهى كبيرة وغنية ، وأغلبها مراكز لحركة تجارية واسعة ، بحرية أو نهرية ، وبعضها مثل پالميرا وپترا والبصرة كانت مراكز هامة ، يلتقى فيها التجار المشتغلون بتجارة القوافل التى لا تهدأ ، وينتمى الى

هذا النوع أكثر المدن التى ذكرت آنفا على أنها أجمل مدن فى الامبراطورية وأغناها ، ويلى هذه المدن التى كانت فى الطليعة فى الحياة المدنية والحضرية، عدد وافر من البلدان الكبيرة ذات المبانى الحسنة وهى مراكز أقاليم زراعية شاسعة خصيبة وعواصم ولايات أو أقسام من هـــذه الولايات ،وأغلب هذه المدن كانت فى الوقت نفسه مراكز مهمة للتجارة المحلية فى الولايات نظرا لموقعها عند ملتقى الطرق التجارية المهمة ، وشيد أغلبها على نهر صالح للملاحة . ومن نفس الطراز تقريبا تلك المدن الصغرى التى يرجع الأصل فى نشأتها الى قرى فى أقاليم زراعية غنية الى حد ما ، ثم تطورت شيئا فشيئا ، ومن هذه أكثر المدن الافريقية التى مر ذكرها وعشرات من المدن فى بريطانيا وأسبانيا والغال وألمانيا والولايات الالبية وحوض الطونة وتراقيا ومقدونيا وبلاد اليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر ، وأمثال هذه المدن فى مصر لم ترْق الى مرتبة المدينة من الناحية القانونيـــة على الاطلاق ، بل هى فى حقيقتها قرى على الرغم من أنها كانت مراكز ادارية فى وسط مساحات شاسعة غنية ، وبمقتضى التطور الطبيعى اتخذت مظهر البلدان اليونانية الشرقية العادية التى حظيت بشىء من العناية والرعـــاية .

وعلى الرغم من الاختلاف فى الرقعة والمساحة وعدد السكان والثروة والأهمية السياسية والاجتماعية فان جميع مدن الامبراطورية احتفظت ببعض المظاهر المشتركة ، فجميعها ، كما ذكرنا ، كان يستهدف توفير أكبر قسط مستطاع من الحياة الرغدة لهناءة سكانها ، وكان مظهرها جميعا يبدو أقرب الشبه الى بعض مدننا الحديثة فى الغرب ، منه الى مدن الشرق وقراه فى أيامنا هذه . ولا يخالجنى ريب فى أن بعض المدن الايطاليـــة الحديثة أو أكثرها لا تختلف عن نظيراتها الرومانية الا فى القليل جدا ، ويكاد يكون جميع مدن الامبراطورية وبخاصة ما كان منها فى الشرق

الهيلينستى ، متمتعا بنظام للمجارى يقوم فى أسسه على قواعد علمية سليمة ، وبمورد وافر للمياه بحيث يتيسر وصولها الى الطبقات العليا فى المنازل ، تمدها قنوات مائية تم بناؤها بمهارة فائقة ، وبها سبل الراحة ووسائل الترفيه عن الجماهير وتخترقها الشوارع المرصوفة رصفا جيدا وتتخللها الميادين العامة ، وعلى جانبى الطرق ممرات مسقوفة لتحمى المارة من وهج الشمس وتقيهم الأمطار ، وتتوافر بها الأسواق الفسيحة ذات الشرائط الصحية وبخاصة فى أسواق الأسماك واللحوم التى كانت مزودة بمورد وافر للمياه — وفى مختلف أحياء المدينة كانت تبنى الحمامات الكبيرة الجميلة لتساعد كل مواطن على الاستحمام يوميا لقاء أجر زهيد أو بلا أجر ؛ وكانت هناك المبانى الشاسعة ذات المعدات الكاملة للألعاب والتمرينات الرياضية ومن هذه : الملاعب الرياضية بنواديها (gymnasia) وحلبات المصارعة (palaestrae) ؛ وقد أقيمت لاغراض دينية ، مقابر ومذابح فخمة وغابات مقدسة وصفوف طويلة من أبنية المقابر الجنائزية ذات الروعة والجمال ، وهى تحف جوانب الطرق العامة خارج أبواب المدن . وكانت تقوم المبانى العامة الهائلة الى درجة خلابة ومن هـذه مبانى مجالس الشيوخ (curiae) وهى الأمكنة التى يلتقى فيها الشيوخ المحليون ، ودواوين الموظفين العموميين وأبهاء لاجتماع الهيئات الحكومية ولجانها (collegia) للاشراف على من يعطون أصواتهم فى الانتخابات العامة ، ومحاكم (basilicae) للقضاة وسجون ونحو ذلك. وهناك مبان عامة غير هذه ، شيدت لتحقيق أهداف أخرى من الترفية والرياضة والتعليم العام والمسارح والملاهى والملاعب والمدرجات للنظارة ودور الكتب العامة وأماكن عامة (auditoria) يستمع فيها الناس الى الخطب والتبليغات والاعلانات والمحاضرات العامة ويشاهدون معارض الصور ، وكانت المنازل الخاصة فى الأعم الأغلب فسيحة الأرجاء رحبة

ومجهزة بوسائل الترفيه الحديثة ، فبها الحمامات الخاصة وبها المياه الجارية ومزودة بسلالم حجرية جيدة ليرقى الانسان بوساطتها الى الطبقات العالية ؛ الى غير ذلك من المنشآت ووسائل الترفيه (٦) .

وتلك كلها حقائق معروفة وشائعة ؛ ونستطيع أن نقول انه فيما يختص بوسائل الراحة والترفيه والجمال وشئون الصحة العامة كانت مدن الامبراطورية الرومانية جديرة بأن تكون خير خلف لأسلافها فى العصر الهيلينستى ؛ ولم تكن متأخرة كثيرا عن البلدان الأوربية والأمريكية الحديثة . فلا عجب أن الكثيرين من سكان هذه المدن أظهروا نحوها مثل تلك المحبة العميقة والوفاء والاخلاص الفائق ؛ ويمكن أن نجد دليلا على هذه المحبة فى ذلك الوصف الذى كتبه ودبجه أريستيديس (Aristides) لبلدة سميرنا (أزمير) (Smyrna) ، ولم يكن اريستيديس من أبنائها الذين ولدوا فيها ، وانما كان ابنا اتخذته المدينة ومنحته حريتها — أو فى وصف رودس كما جاء فى « ديو » مع أنه لم تربطه صلة بها أو فى صور أثينا العديدة ؛ وهذه كلها تدل على مبلغ الزهو الذى كان يشعر به سكان الامبراطورية الرومانية ازاء أفضل مبتكراتهم ومنشآتهم ؛ أعنى مدنهم وحضارتها ، ويكاد يرجع كل ذلك البهاء الذى كانت عليه هذه المدن الى سخاء الطبقات العليا وذوى اليسار من السكان. أما نفقاتها العادية فكانت تدفع بالطبع من الايراد المنتظم الذى كان يجمع على شكل ضرائب متنوعة تجبى من السكان ، من مواطنين ونزلاء وغرباء (ففى الشرق اليونانى كان هؤلاء يسمون κάτοικοι ، πάροικοι الى غير ذلك ويقابلهم فى الغرب (incolae, inquilini, populi attributi)

وكان نظام الضرائب بديعا محكما بفضل التجارب التى اكتسبتها خبرة قرون وبخاصة فى العصر الهيلينستى ، فكانت تجبى الضرائب عن الأرض الواقعة فى نطاق المدينة وعن العقار المقام فيها ثم عن الوارد

والصادر (وهذه تسمى بالمكوس البلدية) ثم نظير احتراف التجــارة وابرام العقود والمعاملات التجارية والانتفاع بالأسواق (بدفع أجرة للحوانيت التى تملكها المدينة) وعن مختلف الأملاك الثابتة التابعة للبلدية ونحو ذلك (٧) .

وعلى ذلك كان دخل المدن وبخاصة المدن الكبيرة والغنية ، عظيما جدا فى بعض الحالات ، ولكن ينبغى ألا ننسى أن النفقات العادية لأى مدينة كانت تبلغ مبلغا عظيما ، قد يصل فى الحقيقة ، حسبما يبدو ، الى رقم أكبر مما هو فى المدن الحديثة . وبالطبع لم تكن هذه المدن تدفع مرتبات لموظفيها فالخدمة التى يؤديها الموظفون المدنيون أو الدينيون للمدينة كانت تعد اما شرفا واما تكليفا ؛ وفى كلتا الحالتين كان معنى ذلك أن تلك الخدمة تؤدى من غير أجر ؛ ولكن المدن كانت تدفع أجورا لصغار موظفيها الذين كانوا اما عبيدا للدولة (δημόσιοι - servi publici) ، وفى هذه الحالة لابد من تزويدهم بالمسكن والملبس والغــذاء ، واما أحرارا يتناولون مرتبات (٨) . وكان أجر هؤلاء الموظفين يكلف الدولة مالا كثيرا ؛ بل ان هناك عبئا أعظم من ذلك وهو الاتفاق على اصلاح مختلف المبانى العامة وصيانتها .

ومن أدق الأعباء المفروضة على المدن وموظفيها وأشدها تعقيدا ، ضمان وفرة المـــواد الغذائيـــة (abundantia) وبخاصة الغـــلال اللازمة للاستهلاك العـــام (annona, εὐθηνία) فكان هــذا العبء يقع فى روما على كاهل الامبراطور أما فى المدن الأخرى فانه كان أحد الواجبات الرئيسية الملقاة على عاتق مجلس المدينة وموظفيها ، فالظروف التى كانت تلزم لضمان وفرة موارد المواد الغذائية لم تكن سعيدة ولا موفقة . ففى كثير من الأحوال لم تكن أراضى المدينة تبلغ من سعة الرقعة بحيث تضمن تزويدها بمورد كاف من هذه المواد ؛ وفضلا عن ذلك فان تنوع المحصولات

وتباينها كان مظهرا بارزا فى الحياة الاقتصادية فى العالم القديم ، حتى فى بلاد كمصر ؛ وعلى ذلك فجميع المدن كانت تعتمد الى حد ما على استيراد المواد الغذائية بطريقة عادية منظمة أو بالطرق التى تلجأ اليها فى أوقات الطوارىء ، فلم تتوافر لأحداها كفاية اقتصادية دائمة . وعلى ذلك كان تنظيم السوق وبخاصة نقل كميات عظيمة من المواد الغـذائية أمرا له أهميته القصوى بالنسبة لمـدن الامبراطـورية . ولم يتيسر للحكومة المركزية اتخاذ الاجراءات الكفيلة بمعالجة مشكلة تنظيم السوق، بل على العكس وضعت عدة عراقيل جسيمة فى سبيل حرية التجـارة وتقدمها فيما يتعلق بتبادل المواد الضرورية للحياة . فالدولة ومطالبها كانت على جانب من الأهمية فى نظر الأباطرة ومندوبيهم . بل ان ضمان سلطان الأباطرة وتأمينه كان أشد ضرورة وأكثر الحافا فى نظر الأباطرة أنفسهم . وعلى ذلك احتكروا لأنفسهم مقـادير وفيرة من القمـح ، استخدموها فى تموين مدينة روما وفى تغذية الجيش : وكان تصدير الغلال من مصر لا يسمح به الا لمن حصلوا على اذن خاص وترخيص من الامبراطور ؛ وان أملاك الامبراطور الواسعة فى جميع أنحاء الامبراطورية وما تنتجه من كميات هائلة من القمح ، كانت تستغل فى تحقيق نفس هذا الغرض ؛ فكان من الأمور النادرة جدا أن تظهر الغلال التى تنتجها هذه الضياع فى السوق الحرة ؛ وفوق ذلك فان وسائل النقل كما سنرى فيما بعد ، كانت خاضـعة لاشراف الدولة المباشر فى كل مكان ؛ فلم يكن لأصحاب السفن ودواب النقل مطلق الحرية فى أن يكرسوا كل نشاطهم لحل مشكلة الوفاء بمطـالب السكان وحاجيـاتهم ؛ فمطالب الدولة والامبراطور لابد من سدها أول الأمر . وكانت مشكلة توفير وسائل النقل لا تزال على أعظم جانب من الأهمية والتعقيد ، فعلى الرغم من تأمين البحار اذ ذاك والقضاء على القرصنة ، ووجود شبكة بديعة من

الطرق البرية التى أنشأها الأباطرة ، فان موضوع النقل بقى أمرا خطيرا، تكتنفه المصاعب على نحو ما كان عليه من قبل ؛ وقد نشأت اذ ذاك مدن جديدة عديدة فى كل الولايات وكان بعض هذه المدن يبعد عن البحر وعن الطرق المائية الكبرى ، بل وعن الطرق البرية الرئيسية . وقد عملت تلك المدن جاهدة على تعبيد طرق اقليمية ، وعلى ربط أراضيها بالطرق الرئيسية والأنهار والبحر . ولكن البطء فى التنفيذ اكتنف هذا واقتضى بناء الطرق واستصلاحها نفقات باهظة ، على أن العبء كله فى بناء هذه الطرق الاقليمية وصيانتها كان يقع على المدن ، بل ان تعبيد طرق جيدة مع ذلك لم يحل الاشكال ، فالنقل البرى كان باهظ النفقات اذا ما قورن بالنقل البحرى والنهرى . وعلى ذلك فان نقل كميات كبيرة من المواد الغذائية بالطرق البرية كان أمرا فوق طاقة المدن الصغرى والفقيرة فلم تحتمله مواردها .

وهذا هو السبب الذى من أجله كانت كل مدن الامبراطورية تقريبا، حتى ما كان يقع منها فى أخصب الأقاليم ، بل وأكثر من ذلك تلك التى كانت تقع فى الأقاليم الجبلية من ايطاليا والولايات ، تصادف من وقت لآخر فترات قحط عصيبة جدا ترتفع فيها الأسعار ، وفى كثير من الأحيان نجد سنين عجاف يعم فيها قحط حقيقى . وكان طابع هذه الفترات ومقدماتها بوجه عام ، القلاقل والاضطرابات الاجتماعية الخطيرة المشوبة باتهام الموظفين والحكام ومجالس الشيوخ بالتقصير والاهمال وتوجيه تهمة الاستغلال الى كبار ملاك الأراضى وتجار الغلال . وفى هذه الأحوال كانت الثورات والمظاهرات أمرا شائعا حتى أصبح من الصعوبة بمكان الحيلولة دون وقوع مثل هذه الكوارث بل انه حتى فى الأوقات العادية كان هذا يكلف المدينة مبالغ طائلة من المال ، ولهذا كانت وظيفة الموكل بشراء الغلال (σιτώνης) أشق وأخطر عمل فى حياة الحاكم فى البلديات.

وهذه الوظيفة ترد فى الشرق بدرجة أعلى من الوظيفة المماثلة لها وهى وظيفة المشرف على شئون التموين (curator annonae) أو ما شابهها فى الغرب . وتفسير ذلك هين : فالمدن اليونانية حتى فى بعض أجزاء آسيا الصغرى ، لم تكن تنتج من الغلال ما يكفى لسكانها . والمحصولات كانت أكثر تنوعا فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى بسبب المناخ الحار وندرة الأمطار وعدم انتظامها بدرجة أقل اطرادا مما هى فى البلاد الواقعة فى وسط أوربا ، بل وفى ايطاليا وأسبانيا وافريقيا ؛ وسوف نفيض فى هذا الموضوع فى الفصل التالى (٩) .

وهناك باب كبير آخر فى ميزانية أى مدينة وهو الانفاق على التعليم العام والتدريب الرياضى للشبان والكهول ، وبخاصة فى مدن الشرق التى اصطبغت بصبغة يونانية تامة ، وكان الحصول على قسط من التدريب والتثقيف فى حلبة المصارعة (palaestra) وفى معهد رياضى ثقافى (gymnasium) هو العلامة والعنوان الذى يميز الرجل المهذب المثقف من المتبربر ؛ وفى مصر مثلا كان أولئك الذين حصلوا على قسط من التعليم فى المعاهد الرياضية والثقافية (gymnasia) يكونون طبقة خاصة من السكان ، تتمتع ببعض الحقوق والامتيازات وتعرف بأعضاء النادى الرياضى الثقافى (οἱ ἀπὸ τοῦ γυμνασίου) : وعلى ذلك فان شباب الاسكندرية الأحرار الحاصلين على مثل هذه الثقافة كان لهم فى نظر الامبراطور كلوديوس ما يؤهلهم للتمتع بذلك الامتياز الهام ألا وهو رعوية مدينة الاسكندرية ، ويدل كثير من النقوش على أن مدن الشرق اليونانى لم تنس التقاليد المجيدة وتتنكر لماضيها وانها كانت حريصة كل الحرص على الحصول على الظروف التى تهيىء تعليما حسنا على أسس يونانية لشباب المدينة ، على الأقل طالما كان هذا الشباب ينتمى الى الطبقات الممتازة ، بل انها كانت أكثر حرصا عليه من ذى قبل ، ومع

ذلك فان هذا كان باهظ النفقات فكان الأمر يتطلب أموالا طائلة لدفع مرتبات المعلمين ولاعداد المدارس وساحات المصارعة واصلاحها وصيانتها ولتوزيع الزيوت على أولئك الذين لا يستطيعون شراءه . وكان ضمان الحصول على قدر كاف من الزيوت للمدينة لا يقل فى أهميته عن الحصول على قدر كاف من الغلال بأسعار معقولة ، ونتيجة لذلك شاع وجود المكلفين بشراء زيت الزيتون (ἐλαιῶναι) فى المدن اليونانية كما شاع وجود الموكلين بشراء القمح (σιτῶναι) وكانت لهذه الوظيفة أهمية كما أن عبئها كان ثقيل الوطء كذلك (١٠) .

والى جانب التعليم العام كانت الديانة تتطلب العناية والانفاق ، فكان فى كل مدينة معابد كثيرة ولابد من العمل على صيانتها والمحافظة على بقائها سليمة ، وكان لبعضها أموال خاصة مرصودة عليها ، وان كان الكثير منها لم يتوافر له شىء من ذلك وكان بعض الايراد يستمد من تأجير وظائف الكهنة التى منحت الحق فى الاستيلاء على بعض المخصصات العينية . ولكن المال المستمد من هذا المصدر كان قليلا جدا اذا ما قورن بالنفقات اللازمة للمحافظة على اقامة الشعائر الدينية وفق نظام أعد خير اعداد — فمن ذلك نفقات تقديم الأضحيات للآلهة والأبطال ، وتنظيم المواكب ، واقامة الولائم الدينية والمباريات (agones) والألعاب احتفاء بمختلف الآلهة ونحو ذلك ، فلا عجب أن كان لبعض المدن ادارة مالية خاصة لشئون العبادة العامة ، فخصص أمناء للاشراف على بيوت المال المرصود لهذا الغرض ، ومما هو وثيق الصلة بعبادة الآلهة تلك الألعاب المختلفة التى أصبحت شيئا فشيئا مظهرا له من الأهمية فى حياة المدن ما كان للمواد الغذائية ، وكانت أكثر هذه الألعاب تقام على نفقة موظفى المدينة وذوى الثراء فيها ، ولكن المدينة كانت تضطر أحيانا الى اقامة الألعاب كى تزيل شعور الاستياء وتحول دون تفشى الشغب بين الطغام (١١) .

وليس بعجيب أن المدينة فى مثل هذه الأحوال كانت تنتظر من مواطنيها الأغنياء أن يقدموا اليها المساعدة بتحملهم نصيبا من النفقات وكان يقع بعض هذا العبء على كواهلهم بطريق الاكراه . ولكى ينال الواحد منهم شرف انتخابه لتولى وظيفة عامة فى مدينته ، كان عليه أن يدفع مبلغا من المال (summa honoraria)، وكان يتصل بكثير من مناصب الشرف هذه كوظيفة رئيس الندوة الرياضية والمعهد الثقافى (gymnasiarch) ، التزام بذل قدر معين من المال . وكان المفروض أن يساهم بعض الكهنة فى النفقات الضرورية لإقامة الشعائر والطقوس الدينية الخاصة بإلههم أو دين المدينة بوجه عام . وفى بعض الأحوال كان ينتظر من رعاة هذه الجمعيات الدينية ورؤسائها أن يقدموا نفقات الصرف على عبادة الآلهة الذين يسبغون حمايتهم على هذه الجمعيات . وفى أوقات الشدة والعسر كانت المدينة تعمد الى عقد قرض . وعلى الرغم من أنه كان يفترض أن يساهم المواطنون الأحرار بمحض اختيارهم ، فان كل مواطن ثرى كان يجد نفسه مضطرا فى الواقع الى أن يقدم مبلغا معينا من المال اذا ما أراد أن ينجو من سخط الجمهور ولكى يكسب ثقته وخشية أن يصبح هدفا لغضب يصب الجمهور جامه عليه فى مظاهرات غير ودية . فان حكمت ضرورة فان المدينة كانت تعمد كذلك الى الاجراء القديم وهو الزام الأغنياء بتحمل أعباء والتزامات، أعنى أن يفرض على ذوى اليسار من المواطنين الأحرار تقديم مساعدات اجبارية ، مساهمة منهم فى انجاز بعض الأعمال الهامة ذات الطابع العام .

ومع ذلك فجدير بالذكر أن المدن فى القرن الأول لم تكن تعمد الى الاكراه الا فى القليل النادر جدا ، بل وأقل من ذلك فى النصف الأول من القرن الثانى وذلك فى حالة شغل مناصب الموظفين العموميين والكهنة ورؤساء الملاعب والندوات والمعاهد الثقافية (gymnasiarchs) وغيرها ، أو عند الحصول على مساعدة فعالة فى حالة تزيين المدينة وانشاء معاهد

اجتماعية أو دينية أو صيانتها ، بل حتى فى الوفاء بالمصروفات العادية .
وكان المواطنون الأحرار من ذوى اليسار على استعداد لتقديم العون وقد سخت أيديهم بتقديم المال الوفير لتنفيذ جميع ما تطلبه المدينة ؛ ونستطيع أن نقول ان أكثر المبانى الجميلة العامة فى مدن الشرق والغرب كان ثمرة أفضالهم وما جادت به نفوسهم . وفى السنين العجاف عندما يتفشى القحط ، كان أولئك الخيرون أنفسهم يقدمون الأموال بسخاء لاطعام الجياع من السكان . أما فى الأوقات العادية فانهم كانوا يصرفون عن سعة كى يسبغوا على الألعاب التى تقيمها المدينة حلة من البهاء والروعة ، أو ينظمون الألعاب والمباريات على نفقتهم الخاصة . وفى الكثير الغالب كذلك كانوا يقدمون للأغنياء والفقراء على السواء من سكان المدينة هبات اما فى صورة جُعل مقرر من المال أو مساعدات من ألوان الطعام والنبيـــذ . وكانت اقامة الولائم العامة لجموع كبيرة من المواطنين الأحرار ، من المظاهر الشائعة فى حياة هذه البلديات ، على أن بعض هذه الهبات كان يظهر فى صورة مؤسسات تستغل فيها مبالغ كبيرة من المال بقصد الاستثمار أو عرض أراض أو عقار آخر للتأجير ، وكل ذلك من أجل انشاء احدى المؤسسات الدينية أو الاجتماعية فى المدينة والانفاق عليها (١٢) .

ومما يعجب له الانسان معرفتـــه أن الأثرياء من المواطنـــين الأحرار وبخاصة فى الشرق اليونانى ، كانوا يقدمون عن سعة مبالغ طائلة من المال ، وقد وصل الى علمنا أسماء المئات من أمثال أولئك الكرام من جميع أرجاء بلاد اليونان وآسيا الصغرى ، ولا بد أن نفترض وجود عدد كبير جـــدا كان من أثرياء القوم ، دفعتهم قوة الرأى العام ووطنيتهم الخاصة ، الى البذل عن سعة ، واغداق الأموال على تلك المدن التى كانت مسقط رءوسهم ؛ وكانت عادة السخاء والبذل تقليدا ظهر فى المدن اليونانية الحرة ثم تقدم بخطى واسعة فى العصر الهيلينستى وبخاصة فى القرنين الثالث والثانى

قبل الميلاد اذ دبت فيها الحياة من جديد وأصبحت تقليـــدا مرعيا سائدا فى الامبراطورية الرومانية ولا سيما فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، ومن الشرق تسربت الى ايطاليا عادة البذل ومعها خصائص الحياة اليونانية الأخرى فى البلديات ، ثم انتشرت تلك الروح من ايطاليا الى الولايات الغربية ، وقد انبهر العلماء عندما عثر المنقبون النمساويون فى مدينـــة صغيرة فى ولاية ليكيا (Lycia) على نصب جنائزى أقيم تخليدا لذكرى رجل يســـمى أوپراموآس (Opramoas) من أهـــل بلدة رادياپوليس (Rhadiapolis) ، كان قد بذل الملايين لســـد مطالب مدينته وحاجات غيرها من المدن الليكية ، والمجمع العام (κοινόν) الذى يضـــم شـــمل المدن الليكية ؛ ولم يكن هو الوحيد الذى سلك هذا السبيل من أهل ليكيا ، فقد ظهر أناس على شاكلته فى جميع أرجاء الشرق اليونانى ، وكان من أعظمهم شهرة يوليوس يوريكليس (Julius Eurycles) وسلالته من بعده من أهل أسبرطة ، وهيروديس أتيكوس (Herodes Atticus) من أهل أثينا . ولكليهما شهرة ذائعة فيما وصل الينا من مصادر أدبية ونقوش ، وانه لجدير بالذكر أن أبطال هذه الحركة كانوا أفضل الناس علما وثقافة ومن ذوى العقول المفكرة فى ذلك العصر ، وأثرياء السفسطائيين من أمثال پوليمون (Polemon) وداميانوس (Damianus) وهـــيروديس أتيكوس (Herodes Atticus)، وقد تجلت نفس هذه الروح على أيدى الطبقة الأرستقراطية الجديدة فى روما وأعضاء مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان فى ايطاليا والأقاليم (وكلنا يعرف الهبات والمؤسسات التى قدمها پلينى الأصغر والتى جاء ذكرها فى رسائله) ، كما تجلت هذه الروح كذلك على أيدى الطبقة الأرستقراطية الجديدة فى المدن الاقليمية من أثرياء التجار وملاك الأراضى ورجال الأعمال والصناعة فى مدن بلاد الغال وأسبانيا وأفريقيا والولايات الأخرى ، وعندما نلاحظ أن الاتجاه العام فى تلك الهيئات والمؤسسات

كان الى الزيادة من حيث الكم والكيف طوال القرن الأول ، بل وأكثر من ذلك فى النصف الأول من القرن الثانى ، وان الدافع على أغلب هذه الهيئات والمؤسسات لم يكن مرده الى الاكراه بل الى محض الاختيار ، وان هناك كثيرا من ذوى اليسار كانوا على أتم الأهبة لتولى مناصب الحكام ورجال الدين ورياسة مختلف الجمعيات ورعايتها ، وعلى استعداد لأن يكونوا موظفين وكهنة فى المجالس والمجامع العامة الاقليمية (κοινά)

— يتضح لنا بجلاء من كل هذا أن الروح الحضرية فى النصف الأول من القرن الثانى لم تبلغ أوجها فحسب ، بل ان الثروة التى تكدست فى أيدى الطبقة « البورجوازية » فى المدن فى كل من الشرق والغرب كانت فى ازدياد مطرد [١٣] .

فما هى اذن مصادر تلك الثروة المتزايدة لدى الطبقة «البورجوازية» فى المدن ولدى تلك الآلاف المؤلفة من الناس الذين استقروا فى شتى أجزاء الامبراطورية واستحوذوا لأنفسهم على مساحات شاسعة من الأرض وكدسوا أموالا طائلة وتوافرت لهم المنازل والحوانيت فى المدن والسفن التى تمخر الأنهار ، ودواب النقل التى تقطع الطرق ؟ والنقطة الأولى التى يجب توكيدها فى هذا الصدد هى اطراد الزيادة فى عدد أولئك الأثرياء فى طول الامبراطورية وعرضها ، فلم تعد الثروة مركزة فى أيدى فئة قليلة ومحصورة فى أماكن محدودة كما كانت الحال فى عصر السيطرة التى كانت للجمهورية الآثينية ، وعهد السيادة والسلطان الذى كان لمجلس الشيوخ الرومانى . ومثلما كانت الحال فى العصر الهيلينستى أخذنا نلحظ ظاهرة عدم تركيز الثروة ، ان صح لنا استعمال هذا التعبير . كان بعض أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى لا يزالون يرتعون فى ثراء عريض ولكنهم لم يظلوا « راچوات » وكبراء كأولئك الذين عاشوا فى القرن الأول قبل الميلاد أو كأصحاب الملايين الكثيرة فى عصر اليوليين والكلوديين ،

ومن بين أعضاء مجلس الشيوخ فى القرن الثانى الميلادى (وأكثرهم من سكان المدن الايطالية ومدن الأقاليم) لم يكن الأغنياء هم القلة النادرة ، بل كانوا ، كقاعدة عامة ، على شاكلة پلينى الأصغر — من ذوى اليسار المعتدل وأكثرهم من ملاك الأراضى . وانه لجدير بالذكر أننا فى القرن الثانى لانجد أى اشارة الى أعضاء فى مجلس السناتو ، بلغت ثروتهم ما كانت عليه ثروة من نالوا الحظوة فى الامبراطورية — من أمثال مايكيناس (Maecenas) وأجريپا (Agrippa) وسينيكا (Seneca) واكتى (Acte) (عشيقة نيرون) وناركيسوس (Narcissus) وپالاس (Pallas) وغيرهم. ذلك أن عهد المحسوبين والمحظوظين قد ولى وفات ، وفى الحق ان چوڤينال (Juvenal) كان لا يزال يستخدم التعبيرات العامة المتداولة عن قيام أصحاب الملايين بالدور الرئيسى فى أرستقراطية المدينة ، ولكن هذه أقوال عامة وليست لدينا أسماء تؤيد زعمه أو تشد أزر دعواه ، بل لدينا عشرات منهم ممن ينتسبون الى الحقبة السابقة (١٤) .

وانا لنجد اذ ذاك رجالا من ذوى اليسار العظيم ، بعضهم فى روما (وأغلب هؤلاء ليسوا من بين أعضاء السناتو بل من بين الموالى) ولكن أكثرهم بصفة خاصة فى الولايات لا فى ايطاليا : فقد انقرض أمثال تريمالخيو (Trimalchio) ، ولئن كان له وجود اذ ذاك فهو يعيش لافى كمپانيا بل فى مكان ما بالولايات . وان الثروة التى كانت تتكدس فى أيدى أفراد من المواطنين من سكان المدن الاقليمية ، كانت تبلغ أحيانا قدرا عظيما . وقد ذكرنا أمثلة دالة على هذه الحال منها أسماء اوپراموآس (Opramoas) فى ليكيا ويوريكليس (Eurycles) فى أسبرطة وهيروديس أتيكوس فى أثينا ، وان ماعثر عليه الأخير من كنز فى منزله بأثينا (ان جاز لنا أن نسوق هذا) لم يكن كنزا بالمعنى الصحيح بل كان فى أغلب الظن نقودا خبأها والده هيپاركوس (Hipparchus) فى أوقات الشدة

والمحنة أثناء اضطهاد دوميشيان ؛ ونظرا الى انعدام الاحصائيات فلا سبيل الى تقدير الثروات التى توافرت لاوپراموآس وغيره ممن كانوا على شاكلته ، كما أنه لاوجه لمقارنتها بثروات أغنياء القرن الأول الميلادى أو بالثروات الطائلة فى العصور الحديثة . وهناك حقيقة لها أهمية قصوى وهى أن ذوى اليسار انتشروا حينذاك فى كل مكان وفى أكثرها بعدا عن الاحتمال ؛ مثل رادياپوليس (Rhadiapolis) فى ليكيا أو فى احدى المدن الصغرى فى أفريقيا ، أو الغال ، أو أسبانيا أو حتى فى تراقيا . وللتدليل على ذلك ، ان اقتضى الأمر دليلا ، لانجد تلك الهبات والمؤسسات من القرن الثانى فحسب — وهى فى حاجة الى جمعها وتبويبها بعناية فائقة — بل لدينا كذلك الجمال والبذخ فى الآثار الجنائزية . أليس من المظاهر الدالة على الأحوال السائدة فى ذلك العصر أن أجمل الآثار على الاطلاق لم تعد توجد اذ ذاك فى روما أو فى ايطاليا بل فى الولايات ؟ ومن أمثلة ذلك تلك الآثار الباقية فى أرباض مدينة آسوس (Assos) الصغيرة ، وهى آثار قام بالكشف عنها وترميمها رجال البعثة الأمريكية ، ثم المعابد الجنائزية الجميلة والتوابيت الضخمة فى جميع أنحاء آسيا الصغرى وبخاصة فى ليكيا ، وتلك القبور الهائلة على مقربة من أولبيا (Olbia) وپانتيكاپايوم (Panticapaeum) حيث توجد مقابر ملونة منحوتة فى الصخر ، وكذلك المقصورات (Mausolea) الموجودة فى أفريقيا وسوريا وهى أضرحة حقيقية أقيمت لعبادة الموتى ، ثم المذابح الجنائزية الجميلة والفسطاط التى أقيمت فى اكويليا (Aquileia) والقبور المزخرفة بالنقوش فى طول بلاد الغال وعرضها ، وبخاصة ما كان منها على مقربة من تريف (Trèves) وفى لكسمبرج وقريبا من أرلون (Arlon) . وحتى فى أراضى نهر الطونة الجديدة نجد قبورا ضخمة باهظة الكلف كالمقبرة المزينة بالرسوم والمحلاة بالتماثيل لرجل من أصحاب العقار على مقربة

من ڤيميناكيوم (Viminacium) ؛ وان من كان فى استطاعتهم القيام بنفقات اقامة مثل هذه المبانى ورصد الأموال الكافية للانفاق على هذه الآثار والحدائق التى تحيط بها ، لابد أنهم كانوا أناسا موفقين لجمع ثروات طائلة (١٥) .

وعلى ذلك فان أول شىء يجب توكيده هو أن القرن الثانى كان عصرا ظهر فيه الأغنياء أو الموسرون وانتشروا فى أرجاء الامبراطورية ولم يكونوا ملاكا للأراضى من طراز متواضع على نحو طبقة «البورچوازى» الريفية التى ظهرت فى ايطاليا فى عصر الجمهورية والصدر الأول من عصر الامبراطورية ، بل هم من كبار الشخصيات وأصحاب رءوس الأموال على نطاق واسع ، ممن استطاعوا أغلب الأحيان السيطرة على مصادر الحياة الاجتماعية فى مدنهم ، وكان يعرفهم كل فرد لا فى بلدتهم فحسب بل فى أرجاء الحى ، أو حتى فى الولاية كلها .

أما المصدر الذى استمدوا منه ثراءهم فأمر له أهميته القصوى ؛ فالأثرياء لا يمكن خلقهم طوع ارادة الأباطرة . وقد كانت السياسة التى اتبعها الأباطرة تقتضى بالطبع منح هؤلاء الرجال أعظم قسط ممكن من النفوذ فى شئون مدينتهم ولكن هذه السياسة كانت تمليها عليهم ظروف وجودهم وكيانهم وما كان لهم من منزلة اجتماعية . ومما يؤسف له أنه ليس لدينا أى مؤلف علمى يعالج هذا الموضوع ، كما أنه لم يحاول أى عالم متوفر على البحث ، جمع الأدلة الخاصة بالأثرياء من رجال القرن الثانى ، وموارد ثرائهم والطابع الذى اتسم به نشاطهم الاقتصادى ، وان بحثا دقيقا فى هذا الموضوع لما يأتى بخير الثمرات . وان المعلومات التى لدينا لكثيرة ووفيرة الى درجة لا بأس بها ؛ وبقدر ما أستطيع الحكم من الأدلة التى تجمعت لدى فان التجارة كانت أهم مصدر تجمعت منه هذه الثروات الطائلة اذ ذاك كما

كانت الحال من قبل . والأموال التى جنيت من التجارة ، ربت بفضل اقراضها فى أكثر الأحوال بضمان ورهون ، كما أن هذه الأموال كانت تستغل فى الأراضى . والى جانب التجارة وما يرتبط بها بأوثق الصلات من أعمال النقل ، فان الصناعة كان لها دور ، ولو انه ثانوى ، الا أن بعض الثروات جمعت بلا ريب من هذا الطريق[١٦] . وان موضوع تطور التجارة ووسائل النقل فى القرن الثانى شيق جذاب اذ نتعرف فيه على بعض الظواهر القديمة التى تناولناها بالبحث فى الفصول السابقة ، ولكن الى جانب ذلك نجد مظاهر جديدة لاتكاد تعرف فى القرن الأول .

وكانت هذه التجارة على نحو ما كانت عليه من قبل ، بل وعلى نطاق أوسع من ذلك ، تجارة عالمية ، فالامبراطورية الرومانية كانت مرتبطة بعلاقات تجارية مع جيرانها ومع الشعوب التى كانت تسكن بعيدا عنها وفى خارج نطاقها ، فنشطت حركة تجارية بين بلاد الغال وأراضى الطونة وألمانيا ووصلت منتجات الصناعة الرومانية حتى أراضى اسكانديناوا وشواطىء بحر البلطيق وكان مقدار هذه التجارة وفيرا نسبيا ؛ ومن الطونة انتشرت التجارة الرومانية الى اقليم نهر الدينيبر وبلغت درجة عالية من الأهمية ، حافظت عليها طوال القرن الثانى [١٧] ، كما يدل على ذلك ما عثر عليه من عملة رومانية ومن كثرة ما وجد فى قبور ذلك الاقليم من فخار رومانى وآنية زجاجية ترجع الى القرنين الأول والثانى . فقد عادت الى الازدهار مرة أخرى طوال القرن الثانى تلك المدن اليونانية الواقعة على شواطىء البحر الأسود ، وبخاصة أولبيا (Olbia) وخرسونيسوس (Chersonesus) وپانتيكاپايوم (Panticapaeum) وتانايس (Tanais) ؛ وكانت أولبيا وپانتيكاپايوم على اتصال بجميع الشواطىء الجنوبية والغربية للبحر الأسود ؛ وكانت مملكة البسفور لا تزال تصدر مقادير هائلة من القمح وما اليه من المواد الخام (وبخاصة

الجلود والسمك والقنب) وكانت وجهة بعض هذا التصدير نحو مدن بلاد اليونان ولكن أكثره كان يذهب عن طريق مدن شواطىء البحر الأسود الجنوبية والغربية الى الأماكن التى اتخذت منها الجيوش الرومانية مستقرا لها فى الطونة وفى كاپادوشيا . وكان أمرا طبيعيا أن تزيد مقادير هذه الحاصلات المعدة للتصدير كلما وجد الأباطرة أنفسهم مضطرين الى نقل جموع غفيرة من الجند من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، كما حدث فى عصر كل من الأباطرة ڤسپاسيان ودوميشيان وتراچان وماركوس أوريليوس . وان ما كان لجنوب الروسيا من خطر شأن فى الامبراطورية الرومانية لتدل عليه تلك الحقيقة : وهى أن أولبيا ومدن شبه جزيرة القرم وبخاصة مدينة خرسونيسوس الحرة — وهى التى أصبحت أهم مراكز النفوذ الرومانى فى جنوب الروسيا — كانت تسهر على حمايتها قوات من الجيش الرومانى ضد غزوات شعوب البرارى ، ولسنا ندرى مبلغ خطر الدور الذى كان يقوم به تجار البسفور وأولبيا فى توجيه السلع من وسط روسيا (كالفراء والشمع) وآسيا الى الامبراطورية الرومانية ولكن تبادلا تجاريا كبيرا كان يجرى بالتأكيد وكان سببا فى اثراء القبائل السرمتية التى كانت تسيطر حينذاك على برارى جنوب الروسيا وعلى القوقاز . وكانت تجارة جنوب الروسيا تتركز من ناحية فى أيدى ملوك البسفور والتجار من البسفور وأولبيا ومن ناحية أخرى كانت فى أيدى تجار سينوپى وأميسوس (Amisos) وتومى (Tomi) وايستروس (Istros) (١٨) .

أما فيما يختص بتجارة الجنوب والجنوب الشرقى فان التجارة الأفريقية مع قبائل الصحراء لم تكن ذات بال وليست لها أهمية حقيقية ، وقد حدث أن جلب بعض العبيد الى الولايات الرومانية وهى أفريقيا ونوميديا وماوريتانيا ونقل كذلك بعض العاج . وأهم من ذلك تلك

التجارة الجنوبية بين كل من مصر ومملكة مروى (Meroë) ومملكة الحبشة الجديدة (اكسوم) ، ثم عن طريق هذه الدول نصف المتحضرة كانت تقوم تجارة بين مصر وبين وسط أفريقيا ؛ وان ما عثر عليه فى مروى ليدل على أن الامبراطورية الرومانية كانت تدفع أثمان السلع التى كانت تصدر من وسط أفريقيا ، من منتجات الصناعة المصرية ، بل ان أهم من كل أولئك بكثير رواج تجارة مصر ، وبخاصة الاسكندرية مع بلاد العرب ومع بلاد الهند ، اما عن طريق بلاد العرب واما بطريق مباشر ، ثم بوساطة الهند مع بلاد الصين . وقد سبق أن تناولنا هذا الموضوع فى الفصل السالف ، ولكن ينبغى لنا أن نضيف أن تجارة الامبراطورية الرومانية لم تبلغ اذ ذاك اقليم السند فحسب بل تجاوزته الى الهند الصينية وسومطرة . وان التجارة مع الهند والصين تقدمت بخطى ثابتة وأصبحت منتظمة جدا . وفضلا عن ذلك فانها لم تعد تجارة مقصورة على الكماليات ، ولا ريب أن بعض الواردات من هذه البلاد كانت سلعا من هذا الصنف ولكن الجزء الأكبر منها كان يتألف من سلع مثل القطن والتوابل ؛ ويصدق هذا القول نفسه على السلع التى كانت تصدرها الامبراطورية الرومانية الى الشرق؛ فكان بعض هذه من المواد الخام والمأكولات (مثال ذلك الحديد والقمح) أما البعض الآخر وهو الأكثر فكان من منتجات الصناعة السكندرية . وفى التبادل التجارى بين الامبراطورية الرومانية والهند والصين كان التجار السكندريون عملاء ووسطاء ممن أوتوا حظا كبيرا من النشاط والهمة ، وفى أغلب الظن لولاهم لما قامت قائمة لتلك التجارة مع الهند(١٩) .

ولم يقض تقدم التجارة الخارجية بالاسكندرية على تجارة القوافل التى كانت تقوم بها بلاد العرب وسوريا ، قضاءً مبرما ، فآثار البتراء فى بلاد العرب دليل على أن أكثر عصور هذه المدينة ازدهارا بدأ عقب ضم اقليم البتراء المعروف ببلاد العرب الصخرية (Arabia Petraea)

الى أملاك الدولة الرومانية (فى عام ١٠٦ م) . وهذا العصر كذلك هو أزهى عصور پالميرا (تدمر) فى سوريا وأكثرها رخاء ، وان التقدم الباهر الذى صادفته عاصمة پارثيا وهى بلدة اكتيسيفون القائمة على نهر الدجلة لهو دليل آخر . فأفضل أعمال النحت فى پالميرا والمبانى التى بلغت أسمى آيات الروعة والفخامة والمقابر الجميلة جدا ، وكذلك أغلب النقوش الدالة على وجود نشاط تجارى واسع النطاق — كل هذه تعزى الى القرن الثانى وترجع فى أغلبها الى عهدى هادريان وأنطونينوس بيوس، وليس هذا بعجيب اذ أن حملات تراچان ألقت الرعب فى قلوب الپارثيين كما ضمنت السياسة السلمية التى سار عليها هادريان وانطونينوس لتجارة پالميرا سنين طويلة من الرواج والاستقرار فكانت حركة التجارة فى كل من پالميرا والبتراء فى أيدى التجار من الأهلين وحدهم ، وهم الذين جمعوا ثروات طائلة . وما الآثار الجميلة الباقية فى كل من المدينتين وما بهما من مبان جنائزية غاية فى الروعة والفخامة ، شأنها شأن تلك التى وجدت فى البصرة وجيراش ودورا ، وجميعها كانت مرتبطة بحركة هذه التجارة نفسها ، الا دليل على مبلغ الثراء العريض الذى كان عليه تجار هذه البلدان وقد انتقلت الثروة عن طريق هؤلاء التجار الى انطاكية والى المدن المطلة على الشواطىء السورية والفينيقية والفلسطينية[٢٠] .

ولكن ، مهما كانت أهمية التجارة الخارجية بالنسبة للامبراطورية الرومانية ، فلم يكن هذا هو مصدر ما كانت عليه الولايات من ثراء . فحتى بالنسبة الى مصر وسوريا كان التبادل التجارى بين الولايات على الأقل مصدر دخل وايراد ، بلغ فى أهميته مثل ما بلغته التجارة مع البلاد الأجنبية ، فالتجارة فى القمح وفى الكتان وفى الورق وفى الزجاج وفى تلك المنتجات التى كانت ثمرة الصناعة السكندرية والتى كان بعضها يصنع من المواد الخام التى جلبت من الخارج (من سلع من العاج والأبنوس

ومن عطور وحلى) ، كانت أهم بكثير بالنسبة الى مصر من التجارة العابرة فى السلع المستوردة من الهند والصين ؛ ويصدق مثل هذا القول على سوريا وما كان يقوم بها من صناعة الزجاج والمواد الكتانية والصوفية ذات الصبغة الأرجوانية الحقيقية التى امتازت بها مدينة صور . فالتجارة الاقليمية المتبادلة بين الولايات كانت المورد الأكبر الذى يدر الثروة على المدن الكبرى الساحلية والنهرية فى شتى أرجاء الامبراطورية ، بل ان هذه التجارة كادت تقتصر على مواد وسلع ، لها ضرورتها القصوى . ولدينا من القرن الثانى مئات من النقوش التى تذكر حرف رجال ذلك العصر ؛ وكثير من هذه النقوش يذكر لنا أسماء تجار (mercatores, negotiatores) ، بل تعرض لنا ما يتجرون فيه على وجه التخصيص . واذا استبعدنا من هذه المجموعة الكبيرة تلك النقوش التى تشير الى تجار التجزئة فى مختلف المدن ونظرنا الى تجار الجملة وحدهم — من مستوردين ومصدرين — وجدنا أن أكثرهم يتعاملون فى المواد الغذائية وبخاصة القمح والنبيذ والزيت ، كما يتاجرون فى المعادن والأخشاب والملابس والفخار . وكان القمح يصدر من ولايات عدة ، وعلى الأخص من مصر وأفريقيا وسردينيا وصقلية . وكذلك كانت بلاد الغال وأسبانيا تقوم بتصديره على صورة واسعة ، وكانت بلاد اليونان تعتمد فى قوتها على ما يرد اليها من القمح من آسيا الصغرى وجنوب الروسيا . وكانت أسبانيا تنتج أضخم المقادير من أجود زيت الزيتون وتصدرها الى بلاد الغال وبريطانيا وايطاليا ثم الممالك الأخرى . ولم يكن زيت الزيتون الافريقى يماثل فى جودته نظيره الأسبانى ، ولكنه كان بلا ريب أرخص منه ، وعلى ذلك كان استخدامه فى انارة المصابيح وفى أغراض الزينة. والبلاد التى كانت تنتج أفضل أنواع النبيذ اذ ذاك هى ايطاليا وبلاد اليونان وآسيا الصغرى والغال ؛ وقد يكون من اليسير أن نعدد جميع

المواد والسلع التى كانت موضع تعامل الولايات من تصدير واستيراد ، ولكن الحقيقة الأساسية التى قد تبرز واضحة للعيان من هذا السرد هى أن مواد الترف وحياة البذخ لم يعد لها الا نصيب ضئيل فى ذلك التبادل التجارى الذى كان يجرى بالجملة وعلى أوسع نطاق وكاد يتناول سلعا، اقتصرت فى الكثير الغالب على ضروريات الحياة (٢١) .

فمن هم يا ترى المستهلكون لكل هذه السلع ؟ ولمصلحة من كانت تلك الكميات من القمح واللحوم والزيت والنبيذ تنتقل من مكان الى آخر ؟ يجب أن نسلم بادىء ذى بدء أن الفحص الدقيق للمصادر يدل على أن أعظم مستهلك لها هو التموين الامبراطورى وأن أكثر التجار الذين كانوا فى أغلب الأحيان أصحاب السفن والمالكين لمخازن الاستيداع فى نفس الوقت ، كانوا يعملون فى خدمة الامبراطور وأعنى بذلك فى خدمة سكان مدينة روما والجيش . ذلك هو الأثر الذى تتركه قبل كل شيء دراسة هذه النقوش التى تتناول الكلام عن جمعيات (collegia) التجار وأصحاب السفن التى تمخر عرض البحار ، وهم الذين كانوا يعرفون باسم (navicularii) والبحارة (nautae) فى مياه الأنهار ، وأكثر هذه الجمعيات كان معترفا بها ، بل لقد كانت محل رعاية الدولة ، لأنها كانت ذات فائدة أو بالأحرى لا غنى عنها للدولة . ومما لا ريب فيه أن الرجال الذين اتخذوا حرفة واحدة كان من الطبيعى أن يشعروا بالرغبة فى الاجتماع والتعاون مع نظرائهم والعمل على ما فيه صالح حرفهم المشتركة وتقدمها ؛ وليس هناك من شك كذلك فى أن حكومة الامبراطورية ما كانت لتقدم على الاعتراف مطلقا ، دعك من حماية هذه الجمعيات ، لو لم يكن من وراء ذلك فائدة للدولة . وانها لحقيقة جديرة بالذكر أن أولى الجمعيات التى لم تعترف الدولة بها فحسب ، بل أولتها كذلك حمايتها ورعايتها واختصتها بالمزايا ، كانت جمعيات التجار وأصحاب السفن . ومن قبل

ذلك فى العصر الهيلينستى، وعلى الأقل فى مصر ، كانت أشباه هذه الجمعيات ونظائرها فى خدمة الحكومة ، وقد توارث الرومان هذه العلاقات عن الاسكندرية ، وكان من الطبيعى أن تطبق هذه العلاقات على الجمعيات المماثلة التى كانت قائمة فى روما وأوستيا وپوتيولى واكويليا وعلى أمثالها من الجمعيات التى أخذت فى النمو فى بلاد الغال وأسبانيا وأفريقيا. ولقد كان من الأفضل والأسهل للدولة أن تتعامل مع هيئة منظمة ولها أعضاء معروفون ، عن أن يكون ذلك مع جموع مفككة من أناس لا سبيل الى معرفتهم ؛ وبدون المساعدة التى كان فى مقدور هذه الهيئات تقديمها، كان يعسر على ادارة الدولة الرومانية أن توفق الى حل معضلة استعصت الى أقصى حد ، ألا وهى نقل كميات هائلة من البضائع الثقيلة ، ومنذ عهد كلوديوس تم تنظيم التجار وأصحاب السفن ، كما يدل على ذلك البناء الفخم القائم فى أوستيا حيث كان لمختلف النقابات الاقليمية والمحلية التى كان عملها يتصل بتموين روما ، ادارات تلتقى فيها [٢٢] .

ومع ذلك فعلينا أن نتوخى الحيطة فلا نبالغ فى ابراز ما كان للأوضاع القائمة من مظهر وأهمية . حقا ان التموين الامبراطورى كان العنصر الفعال والقوة المحركة فيما كان قائما من تبادل تجارى بين الولايات من شراء ونقل لكميات هائلة من قمح وزيت ونبيذ ولحوم وأسماك وأخشاب وجلود ومعادن وملابس لسد حاجات الجيوش المرابطة على ضفاف الرين والطونة والفرات ؛ على أن بعض هذه السلع كان يجرى نقله لسد حاجات العاصمة ؛ ولكن التموين الامبراطورى لم يكن وحده فى حاجة الى الخدمات الطيبة التى كان يقدمها كبار التجار والأثرياء من المشتغلين بالنقل . فكثير من المدن الكبرى وبخاصة فى الشرق ، لو انها حرمت من استيراد المواد الغذائية ، لكان مصيرها الفناء جوعا ؛ وكثير من المنتجات الصناعية لم يكن من اليسير انتاجها فى كل مدينة . وان التكرار المرعى فى ذكر كلمة تجار الغلال والموكلين بشرائها (σιτῶναι) فيما يتصل

بحياة المدن اليونانية ليدل على أن أولئك التجار لم يشتركوا فى التكوين الامبراطورى فحسب ، بل كان لهم عملاء آخرون لا يقلون أهمية عن ذلك.

وقد قامت التجارة بين الولايات بالطبع فى القرن الأول ولكنها جرت على نطاق أوسع فى القرن الثانى . فالتجارة الداخلية كادت أن تكون حدثا جديدا أخذت مظاهره فى التطور حينئذ فى كل ولاية تقريبا فى الامبراطورية ؛ حقا انها لم تكن مظهرا جديدا كل الجدة ، فمصر وبلاد اليونان وآسيا الصغرى وسوريا عرفن دائما نظاما بديعا من الطرق البرية والنهرية ، كما استمر تبادل السلع والبضائع فى نشاط جم على مدى الأجيال فى داخل نطاق هذه البلاد بعـد أن أصبحت ولايات رومانية . ومن قبل نشأت التجارة الداخلية فى بلاد الغال كذلك وفيها مجموعة بديعة من الأنهار يقابلها شبكة من الطرق الطبيعية التى روعى الاحتفاظ بها فى حالة جيدة ؛ ولكن بالنسبة للجزء الأعظم من العالم الغربى بما فى ذلك أفريقيا وبالنسبة لأقاليم عديدة فى الشرق ، أصبحت التجارة الداخلية أمرا ميسرا فى عهد الامبراطورية فقط . فالاطمئنان فى الأسفار برا وبحرا ، وقد كاد أن يكون تاما ، وعدم وجود مكوس عالية ، وفوق كل أولئك توافر نظام بديع من الطرق الرومانية[٢٣] — كل هذا نجم عنه ازدهار فى التجارة الأقليمية الى حد لم يسبق له نظير ؛ وهذا التقدم بدوره كان حافزا قويا على نمو التجارة فى داخل المدن كما يدل على ذلك عدد النقوش التى تذكر أسماء تجار التجزئة وأصحاب الحوانيت وكما يدل عليه ما بقى من آثار الحوانيت المخربة فى أكثر بلاد الولايات .

وان نمو التجارة بين الولايات وفى داخل نطاقها لهو علامة فى حد ذاته على اتجاه التجارة الى عدم التركيز : ويبدو هذا الاتجاه واضحـا للعيان ، فايطاليا بدأت تفقد منزلتها وسلطانها فى نطاق الحياة التجـارية وهى المنزلة التى ورثتها عن الشرق اليونانى واحتفظت بها ، فى كثير من النجاح والتوفيق ، حوالى قرنين من الزمان ، كانت فى أثنائهما قد تقدمت فيها الزراعة والصناعة الى جانب التجارة . حقيقة أن التجار الايطاليين

كانوا لا يزالون يحتفظون بسوق الطونة ، وكانوا لا يزالون يقومون بتصدير بعض المنتجات الايطالية ، وكانوا لا يزالون يكونون طبقة كبيرة غنية فى روما ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحولوا دون قيام نهضة تجارية عظيمة فى الولايات وظهور طبقة من التجار فيها ، بل انهم عجزوا عن أن يمنعوا غزو هـذه الطبقة التجارية لأسواق ايطاليا نفسها . وان تدهور التجارة الايطالية — وبخاصة فى جنوب ايطاليا — ليبدو فى أقوى صورة بما طرأ على « پوتيولى » من انحلال تدريجى ، مع أنها كانت أعظم ميناء فى عصر الجمهورية ، ولا سيما فى كل ما يتعلق بتجارة ايطاليا مع الشرق، وأصبحت وريثة ديلوس ومنافسـة الاسـكندرية فى كل من التجـارة والصناعة . وينسب هذا التدهور عادة الى بناء مرفأ صناعى فى «أوستيا» فى عهـد الامبراطور كلوديوس وهو مرفأ قام نيرون بتوسـيعه وأعاد تراچان بناءه . ولكن لا تكفى هذه الحقيقة وحدهـا لتسويغ اضمحلال پوتيولى ؛ ففى صدر عصر الامبراطورية لم تكن أوستيا قط كما مهملا كما بين ج . كالزا (G. Calza) ، بل انهـا كانت أعظم ميناء فى ايطاليـا لجلب المؤن (Annona) التى كانت الدولة حريصة على جلبها فى الغالب من الولايات الغربية الى ايطاليا وروما . فالسفن الآتية من أسبانيا وبلاد الغال وسردينيا وأفريقيا كانت تلقى حسن الاستقبال وخير وسائل المعونة فى مرفأ أوستيا ، كما يدل على ذلك وجود بهو لانعقاد الجماعات والهيئات ومخازن رحبة للايداع فى أول عصر الامبراطورية ، ومما يشـهد على أهمية المدينة تقدمها المستمر خلال القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول الميلادى ، ومع ذلك ففى القرن الأول الميلادى لم تقو أوستيا على منافسة پوتيولى وعجزت عن ان تجذب الى مرفئها أفرادا من تجـار الغرب أو الشرق أو حتى أسطول التموين الآتى من الاسكندرية . والسبب فى ذلك أن پوتيولى كانت المكان المفضل عند التجار وأصحـاب السفن ، ولكن ليس معنى هـذا أنها أفضل كميناء ، وكانت المكان المفضل لأن سـوق كمپانيا كانت أعظم نفعا للتجار من السوق الرومانية ولأنه كان من اليسير وجود بضاعة فى سوق كمپانيا توسق بها السفن فى رحلة الاياب فى حين

لم يكن فى أوستيا شىء من ذلك نظرا لأن روما لم تكن فى أى وقت ما مركزا صناعيا له شأن يذكر .

اما اضمحلال پوتيولى وازدهار أوستيا على حسابها فهو حقيقة تدل على أن هذه الظروف قد تغيرت ، وأفضل دليل على اضمحلال ذلك المرفأ الكمپانى هو ما تقدمه لنا النقوش المشهورة التى تشير الى وجود حى « صورى » (نسبة الى صور) فى المدينة ، فهذا الحى الذى كان فى وقت ما مزدهرا أصبح الآن يعترف بتفوق الفرع الذى كان له فيما سبق فى أوستيا وروما ، ويتقدم فى خشوع طالبا المساعدة المالية . فلا ريب أن تيـــار التجارة الرئيسى قد تحول عن پوتيولى واتجه صوب أوســـتيا . والتفسير الوحيد لهـــذا التغيير هو أن پوتيولى قد فقدت ما ميزهــا فى الماضى على أوستيا ، أعنى مقدرتها على أن تجد لهـــذه السفن حمولة فى رحلة الاياب . فسلع كمپانيا من نبيذ وزيت ومصـــنوعات ، لم تعد فيما يبـــدو ، مطلوبة أو مرغوبا فيهــا الى الحد الذى يجذب عددا كبيرا من التجار نحو هذه الميناء ، والسبب الوحيد لذلك هو أن هذه السلع التى اختصت بها كمپانيا كان فى الامكان انتاجها بطريقة أفضل وبسعر أقل ، من أماكن أخرى أقرب الى المستهلكين . وليس معنى هذا أن روما وأوستيا بدأتا فى انتاج هذه السلع ؛ فالذائع أن هذا لم يكن هو الواقع . وبقيت أوستيا كما كانت أعظم ميناء لاستيراد المواد الغذائية وغيرها من السلع التى كانت مدينة روما فى حاجة اليها [٢٤] .

وبينما كانت أوستيا فى تقدم مطرد ، وذلك على حساب پوتيولى ، كانت التجارة فى الولايات مزدهرة على حساب تجارة ايطاليا بوجه عام بل وعلى حساب تجارة أوستيا نفسها . لقد كان أسهل بكثير على الادارة الامبراطورية المختصة بالتموين (annona) أن تصدر أوامرها للحصول على الغلال والنبيذ والزيوت والأخشاب والجـــلود والحبال والمعـــادن والملابس والأحذية والأســـلحة الخ . مما يلزم الجيش والأسطول ، الى التجار وعمال النقل من الغاليين الذين كانوا على معرفة وثيقة بالأحوال

السائدة فى السـوق المحلية ، وكانوا يتصرفون فى عدد كبير من السفن النهرية والسفن التى تخوض غمار البحار وغير ذلك من وسائل النقل ، وكان هـذا أهون من أن تعمـد تلك الادارة الى اللجوء الى التجـار الايطاليين . فأكثر السلع التى كان الجنود فى حاجة اليها كانت فى متناول اليد فى بلاد الغال وبريطانيا وأسبانيا وفى الأقاليم الألبية (من الأخشاب والقطران والمعادن والجلود) وفى بلاد مثل بلاد الغال حيث توافرت فيها تلك الموارد الطبيعية الى هذا القدر العظيم ، كان من اليسير جدا أن تنهض فيها أفرع جديدة من الانتـاج الصناعى والزراعى مثل زراعة الكروم وتربية النحل والنسيج وصـناعة الأحـذية والصابون وغير ذلك . وان نظام الطرق النهرية الذى رددنا ذكره فى مناسبات عدة والموانى البحرية الصالحة على شواطىء بلاد الغال الجنوبية والغربية والشمالية ، جعـل جهد التجار الغاليين أيسر بكثير من عمل نظرائهم من الايطاليين فى جمع المنتجات لا من بلاد الغال وحدها بل ومن الأقاليم المجاورة ، وبعضها فى ليون وتريف وبعضها الآخر فى مدن الرين الأدنى (حيث كانت تتجمع كذلك منتجات بريطانيا) ثم فى توزيع هذه المنتجات بين المراكز الحربية على الرين ؛ وينبغى أن نذكر كذلك أن بحيرة كونستانس (بريجانتينوس) والاتصال بين سويسرا وأقاليم الطونة كما أن الطابع الكلتى الغالب فى سكان نوريكوم — كل هذا جعل الاتصال باقاليم الطونة أمرا ميسورا لتجار الغال ، وساعدهم ، على الأقل فيما يختص بالسـلع التى كان من اليسير حملها ، على منافسة التجار الايطاليين ومناهضة ميناء اكويليا ومدن دالماشيا .

وعلى ذلك بلغت فى القرن الثانى التجارة فى اقليم الغال بما يتبعهـا من زراعة وصناعة ، درجة لامثيل لها من التقدم والازدهار . ولكى ندرك مدى التقدم الزاهر فى التجارة والصناعة فى الغال ، حسبنا أن نقرأ النقوش فى المجـلدين الثانى عشر والثالث عشر من مجموعة النقـوش المعروفة بالمحيط (Corpus) وأن ندرس المجموعة الفريدة من أعمـال النحت والنقوش البارزة التى عثر عليهـا فى تلك البـلاد والتى قام بنشرهـا

اسپرانديبى (Espérandieu) ؛ وان نقوش ليون على سبيل المثال سواء أكانت مدونة فى أبنية حجرية أم فى مختلف الأدوات التى اعتدنا استعمالها (instrumentum domesticum) وبخاصة تلك النقوش التى تشير إلى مختلف النقابات والغرف التجارية ، لتدل على ما كان للدور الذى قامت به تلك المدينة من أهمية بالغة فى الحياة الاقتصادية لبلاد الغال ، بل وفى حياة الامبراطورية الرومانية بوجه عام . ولم تكن ليون هذه مركزا عظيما للتوزيع والمقاصة فى تجارة القمح والنبيذ والزيت والأخشاب فحسب ، بل كانت كذلك أحد المراكز الكبرى فى الامبراطورية لصناعة أكثر السلع التى كانت تستهلكها الغال والمانيا وبريطانيا ثم تقوم بتوزيعها [٢٥] .

ولم تكن تريف (Trèves)— وهى المدينة الجميلة الواقعة على الموزل — بأقل شأنا من ليون ، فتريف كانت بلدة تجارية خالصة ؛ اذ لم تقم فيها للصناعة قائمة ، وتجارها ، مثلهم فى ذلك مثل تجار ليون وأريلاتى (وهى أرليس (Arles)) ، كان أكثرهم من عملاء الحكومة الامبراطورية ، فكانوا يشترون مختلف السلع من بلاد الغال ويحملونها فى السفن فى نهر الموزل وينقلونها الى المدن الواقعة على الرين والى القلاع على الحدود (Limes) ؛ وكانت تجارتهم التى تخصصوا فيهــا هى الملابس والنبيذ . وان هــذا الدور بالذات الذى قامت به المدينــة فى الحياة الاقتصادية فى بلاد الغــال وألمانيا لنجده مصورا على المبــانى الجنائزية الشيقة جــدا والتى اقتبست من نماذج على شكل أعمدة ، فكانت مظهرا مميزا لبــلاد الموزل ؛ وهذه المبــانى مغطاة كلها تقريبــا بأشكال منحوتة بعضها يمثل مناظر ميثولیجية ولكن أغلبها يوضح بالتفصيل الحياة العــامة والخاصة لبناتهــا ، وقد كان من البين أن عملهم الرئيسى هو تجــارة الجملة وليس الصناعة ، وان الأثر المشــهور فى ايجل (Igel) ، وقد أقيم على قبر أسرة السكندينيين (Secundinii) فى صــدر القرن الثالث بعد الميلاد ليصور فى دقة وتفصيل تجارة الجملة فى الملابس وما كان يستخدم من وســائل فى نقلها من مكان الى آخر ؛ وتوضح مجموعة من اللوحات ما كان لهذا

البيت التجارى الذى يملكه السكندينيون من شأن عظيم فتبرز وظيفته بتصوير العينات والحانوت وعملية تعبئة البضائع ونقلهـا برا فى عربات كبيرة وشحنها فى النهر فى سفن يقوم الملاحون بسحبها وجرها . وبينما كان بيت السكندينيين يعد من كبار تجار الملابس ، فان بعض أصحاب الآثار الضخمة التى كشف عن قطع منها فى نيوماجن (Neumagen) ، توفروا على تجارة النبيذ . وعلى هذه الآثار رسمت نفس هذه المجموعة من المناظر ، كما هى الحال فى آثار مدينة « ايجل » ، ولكن البضاعة فى هذه الحـالة تتألف من براميل خشبية كبيرة من النبيذ ، واستثمر أغنياء التجار فى تريف كما يبدو من مختلف المناظر المنحوتة على آثارهم الجنائزية ، أموالهم على نحو ما فعـل تريمالخيو وغيره من الأثرياء من رجـال القرن الأول ، فى الأرض . على أن بعض هذه الأموال استغل فى أعمال المصارف أو القروض . ولنارجعـة الى هذا الموضوع فى الفصل التالى (٢٦) .

وغير ذلك كانت هناك مدينتان تجاريتان عظيمتان فى بلاد الغال وهما « أريلاتى » «وناربو » ولكن عملهما لم يكن فى أكثره ، متصلا بتموين جيش الرين مثل « ليون » « وتريف » وانما اختصتا بتصدير المنتجات الغالية ولا سيما النبيذ ، الى روما وغيرهـا من مدن ايطاليا وحتى الى الولايات الشرقية . وانا لنعرف الكثيرين من المواطنين الأحرار فيهما ممن عنوا باقتناء ثروات طائلة وذلك بالجمع بين تجارة الجملة وبين المساهمة فى أعمال النقل (٢٧) .

وما كادت الحياة المالية والتجارية تدب فى بلاد الغال حتى صار من المحتوم أن تنهض وتتقدم . فأصبحت البلاد — وقد صادفها الغنى بفضل نمو التجارة والزراعة والصناعة وتقدمها — المستهلك الرئيسى للسـلع المحلية والأجنبية التى وصلت بسـهولة الى أقصى أرجاء بريطانيا . ولم يكن هناك من سبب يحول دون نشاط تجار بلاد الغال وجعله مقصورا على نطاق الولايات الرومانية لا يتعدى حدودها . انهم استأنفوا العلاقات التجارية التى كانت قائمة منذ أقدم العصور مع ألمانيا وأخذت منتجات

الصناعة فى الغال ، على ما هى عليه من رخص ومتانة — ولو أنه كان يعوزها بعض الرشاقة ، تلقى رواجا فى شتى أرجاء الامبراطورية . وبهذه المنتجات وبنبيذها وغلالها دفعت بلاد الغال أثمان ما استوردته من ايطاليا والشرق .

ولم تبلغ الحياة التجارية فى اسبانيا وأفريقيا وبريطانيا مبلغا عظيما من التقدم ، اذا ما قورنت تلك الحياة بنظيرتها فى الغال ، فلم تكن سوق منتجات هذه البلاد واسعة المدى ، أما تجارتها ، اذا استثنينا ماكانت تصدره لروما وايطاليا ، فكانت فى الكثير الغالب داخلية وتتناول المنتجات المحلية . والبلاد التى انفردت بمنافستها للغال فى الجزء الغربى من الامبراطورية هى موانى بحر الادرياتى وبخاصة (اكويليا) ، فخصوبة شمال ايطاليا وموقع اكويليا الفذ حيث تلتقى الطرق الطبيعية المؤدية الى الأنهار الرئيسية فى اقليم الطونة ، كان من شأنه أن يكسب هذه المدينة والاقليم المحيط بها بوجه عام ، ميزة جعلت بلاد الغال تكاد تهجر سوق الطونة وتعرض عنه ، وتوضح هذه الحقيقة السبب الذى جعل شمال ايطاليا ودالماشيا تصادف تقدما ونجاحا مطردين ، على حين أخذ وسط ايطاليا وجنوبها فى الاضمحلال شيئا فشيئا فاكويليا كانت مركزا لتصريف السلع وعمل المقاصة فيما يمس الجيش المرابط فى الطونة كما كانت ليون وتريف تقوم بنفس الدور بالنسبة لجيش الرين ولم يكن فى وسع المدن الواقعة على مصب الطونة ، مناهضة اكويليا ، اذ أنه لم تزدهر فى هذه المدن صناعات ، كما لم تنهض فيها زراعة قائمة على اسس علمية (٢٨) .

وفى الشرق كانت تجرى عملية مماثلة هدفها التحرر من ايطاليا أو بالأحرى اعادة نفس الظروف التى كانت سائدة فى أرجائه قبل السيطرة الرومانية عليه ، وقد ساهمت الدولة كذلك بقسط وافر فى هذا الميدان بالعمل على أن تسترد الولايات الشرقية فى الامبراطورية ، نشاطها الاقتصادى الجم : فجيوش الفرات الأوسط والأعلى كانت خير عميل

يشترى ما يلزمه من سكان سوريا وآسيا الصغرى . وكانت روما نفسها سوقا أخرى على درجة من الأهمية بالنسبة للشرق فامتصت واستوعبت كميات كبيرة من السلع التى كان الشرق يتوافر على انتاجها أو استيرادها من أواسط آسيا والصين والهند ، ويصدق عين هذا القول على مصر ، وبالطبع لم يكن جيش مصر من الضخامة بحيث يكفى ما يستهلكه لأن يصبح بابا كبيرا فى الميزان التجارى لدولة غنية كمصر . ولكن مدينة روما هيأت لمصر سوقا هامة فاستوردت منها الغلال والكتان والورق والبضائع التى كان يجرى صنعها فى الاسكندرية من المواد الخام المستوردة من الهند والصين ؛ ومع ذلك فلم تكن الحكومة والجيش ومدينة روما أكبر مستهلك للسلع الشرقية ؛ فالرخاء المطرد الذى شمل مدن الامبراطورية زاد فى طلب السلع التى من النوع الجيد الفاخر والتى لم تكن من مواد الترف وحده ، بل كان أكثرها سلعا تساعد على راحة المتمدنين من البشر ، مثال ذلك الأنواع الجيدة من الأقمشة الصوفية والكتانية الملونة والبضائع الجلدية والأثاث الفنى نوعا ما ، والأوانى الفضية الجميلة والعطور والأصباغ وأدوات الزينة البديعة والتوابل وما شابه ذلك . وقد ازداد الطلب على هذه المواد التى أصبحت من ضروريات الحياة لسكان الحضر فى طول الامبراطورية وعرضها وليس بمستغرب أن هذه المواد كانت ترد تباعا الى مدن الشرق والغرب بكميات مطردة الزيادة من الأماكن القليلة حيث كانت تصنع . فعدد السلع السكندرية مثلا ، التى وجدت فى المدن التى لم تصطبغ مطلقا بالصبغة اليونانية ، فى جنوب روسيا يدعو الى الدهشة والعجب ، ومع ذلك فلم تكن حال هذه المدن ذا طابع استثنائى ، فتجارة الشرق مع مدن الامبراطورية كانت المورد الرئيسى الذى تنساب منه الثروة وتفيض على الولايات الشرقية وعلى مصر (٢٩) .

ولم تبق هذه التجارة الشرقية بعد ذلك محصورة فى أيدى التجار من الرومانيين والايطاليين ؛ ففى أثناء القرن الأول بعد الميلاد أخذ التجار

الايطاليون فى التوارى شيئا فشيئا من محيط الشرق ؛ أما أسباب تواريهم فقد فصلناها من قبل وذلك أن اليأس استولى على التجار الايطاليين بسبب سوء الأحوال فى الشرق فى النصف الثانى من القرن الأول بعد الميلاد ، واستهوتهم الأسواق الجديدة فى الغرب ، فحدا بهم كل هذا الى التحول شيئا فشيئا من الشرق الى الغرب . ولما خيم السلم فى ربوع الشرق وبدأ الشرق فى النهوض والانتعاش ، لم يستطع الايطاليون ، الذين آثروا البقاء فى الشرق ، منافسة الشرقيين ذوى الذكاء والدهاء ، وهم الذين لم يتخلوا مطلقا للمهاجرين الغربيين ، عن المراكز الرئيسية التى كانت مفتاح التجارة الشرقية وهى الاسكندرية والموانىء السورية — الفينيقية ؛ ومن هذه المراكز أنفذ التجار السوريون والمصريون فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد ، رسلهم ومندوبيهم الى ديلوس ثم الى پوتيولى ، وكانوا قد احتفظوا بمستودعاتهم ومحاطهم طوال الأيام العصيبة فى الحروب الأهلية ، ولما ساد السلم أصبحت هذه المحاط (stationes) بمثابة الوسيط الطبيعى بين الشرق والغرب . ولم يعد للشرق أى جاذبية فى نظر الايطاليين ، اذ ضاع أملهم فى التغلب على منافسيهم . وكانت نتيجة ذلك أن توارى الايطاليون عن هذه الأجزاء كما تواروا عن الغرب ؛ ولم يحتكر الشرقيون التجارة فى الشرق فحسب ، بل أخذ عدد منهم يظهر فى موانىء ايطاليا والولايات الغربية بكثرة مطردة [٣٠] .

ولسنا نعرف سوى القليل عن تنظيم النشاط التجارى فى الامبراطورية الرومانية . لم يحدث أى تغيير فى موقف الحكومة المركزية من التجارة فالسياسة التى انتهجتها فى كل من القرنين الأول والثانى ، كانت قائمة على مبدأ حرية التجارة . وكما أوضحنا آنفا ، احتفظ الأباطرة بالمكوس المعتدلة التى كانوا يجبونها عند تخوم جميع الولايات وشجعوا أولئك التجار وأصحاب السفن الذين كانت الدولة فى حاجة الى خدماتهم ،

بمنحهم امتيازات وبذلك هيأوا لهم الوسيلة لتنمية أعمالهم وتوسيع منظماتهم المهنية . وبذلك قامت سياسة الحكومة على مبدأ التسامح وعدم التدخل فى كل من ميدانى التجارة الخارجية والتبادل التجارى الداخلى سواء أكان ذلك بين الولايات أم فى داخل نطاق كل ولاية .

وكان طابع التجارة فى مصر على عهد البطالمة ، التأميم الى حد ما ، ولكن أباطرة الرومان لم يبقوا على هذا النظام دون تغيير ، بله التوسع فيه . فعمدت الدولة الى الكف شيئا فشيئا عن طريقة منح الالتزامات ، وما لبث مندوبو الدولة فى العصر الهيلينستى أن أصبحوا تجار تجزئة ؛ لهم الحرية التامة فى مباشرة حرفهم ، وتضاءلت التزاماتهم قبل الدولة حتى صارت مجرد الوفاء ببعض الضرائب . وفى الحق لا سبيل للتأكيد بأن النظام القديم قد اجتث من جذوره ولكن الدولة لم تفرضه فكان مصيره المحتوم ، أن يضمحل شيئا فشيئا حتى يموت (٣١) .

وان وجود عدد عظيم من الجمعيات التى تضم شمل كل من تجار الجملة والتجزئة ، ويأتلف فيها أصحاب السفن والقائمون على أعمال النقل ، ربما نهض دليلا على أن تجارة القرنين الأول والثانى بدأت تفقد طابعها الفردى واتخذت شيئا فشيئا شكل التجارة الرأسمالية فى العصر الحديث وقوامها الشركات التجارية الكبيرة ذات الثراء العريض . ولكن هذا الرأى لا يجد سندا من الواقع ولا تؤيده الحقائق ؛ فالحياة التجارية طوال العالم اليونانى الرومانى بقيت مطبوعة تماما بالطابع الفردى ، فيما عدا حالة فردية هى شركات جباة الضرائب بما كان لهم من نظام يشبه النظام الحديث ، ولكن وجود هؤلاء الجباة كان ظاهرة مؤقتة ؛ فنشأتهم كانت بموافقة الدولة التى أسبغت عليهم حمايتها فى وقت كانت الدولة غير راغبة ولا قادرة على معالجة مشكلة جباية الضرائب وما كان يعتورها من تعقيد ، ثم بدأ جباة الضرائب ينقرضون عندما كفت الدولة عن بسط حمايتها عليهم وأخذت تتعقب خطواتهم وتراقب نشاطهم فى دقة لا عهد

لهم بها من قبل . وفى الواقع لم تترك شركات التزام جباية الضرائب أى أثر فى التشريع الذى سنته الامبراطورية الرومانية للشركات التجارية والنقابات التجارية . ففى العصر الامبراطورى لم تكن الجمعيات التجارية بحال ما وليدة شركات تقوم على جباية الضرائب وانما تطورت هذه الجمعيات على أنها مؤسسات مهنية واعترفت بها الدولة على هذا الوضع ؛ لأنه كان أيسر على الدولة كما أسلفنا — أن تتعامل مع هيئات من أن تتعامل مع أفراد . ولست أقرر أنها كانت أندية واتحادات دينية ، ولكنى أعتقد أنه بقدر ما كان لها من أهمية اقتصادية ، اقتصر هذا على تنظيم العلاقات بينها وبين الدولة ، وهى علاقات اتسمت بطابع اجتماعى وفقهى أكثر مما كان لها من طابع اقتصادى ؛ وفى الظروف العادية كانت الدولة تؤثر التعامل مع الأفراد من أعضاء هذه الهيئات ، وما كانت تعمد الى التعامل مع الجماعة بوصفها هيئة الا متى عن لها أن تمنح امتيازا الى جميع أعضاء هذه الهيئة أو تفرض عبئا عليهم جملة . والانتقال مباشرة من الفردية الى الاكراه والتأميم كان النهج الطبيعى فى المجتمع اليونانى الرومانى . فالطابع الفردى فى الحياة التجارية فى العصر الامبراطورى يبدو بوضوح من خصائص التشريع الرومانى الذى يتناول الشركات (societates) . ولا يذكر القانون الرومانى مطلقا ذاك الصنف من الشركات ،الذى ألفناه كثيرا فى العصور الحديثة ؛ لأن من البين أن مثل هذه الشركات لم تكن قد عرفت اذ ذاك ، فالشركات الرومانية هى مجرد جماعات من الأفراد ، كان نشاطهم الفردى محدودا بعض الشىء بسبب قيام الشركة التى تنتظم هؤلاء الأفراد (٣٢) .

وجدير بالذكر أن شركات تجار پالميرا هى وحدها التى شذت عن هذه القاعدة ، فكان لهؤلاء التجار زعماؤهم (ἀρχέμποροι) ولا يمكن قطعا أن يكون هؤلاء هم أنفسهم رؤساء القوافل (συνοδιάρχαι)

فالأخيرون فى أكثر الظن كان اختيارهم بوساطة جمع من رجال القافلة (συνοδιά) فى كل رحـــلة ، على حين أن أولئك الزعمـــاء (ἀρχέμποροι) كانوا فيما يبدو يتولون وظيفة دائمة . ونظرا لقلة المراجع التى لدينا عن تجار پالميرا ، فلا سبيل الى تكوين حكم قاطع عن نظامهم . ومع ذلك فيبدو أنه لا يمكن البحث عن نظائر هـــذه الشركات فى الامبراطورية الرومانية وانما قد نجدها فى التقاليد البابلية المتواترة وبين الجمعيات التجارية البابلية . واننا لنؤمل أن تسفر الحفريات المنظمة التى تجرى فى پالميرا وحولها ، عن العثور على مزيد من صحائف الرق من نفس النوع الذى اهتدى اليه حديثا ف . كومون (F. Cumont) فى « دورا »(٣٣).

ومن هذا العرض الذى تناولنا فيه تطور التجارة فى الامبراطورية الرومانية فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد يتبين أن التجارة ، وبخاصة التجارة الأجنبية منها والمتبادلة بين الأقاليم ، هيأت المورد الأساسى للثراء فى الامبراطورية الرومانية . فاليها يرجع الفضل فيما اقتنـــاه كثير من الأغنياء المحدثين من أموال ، فقد كانت الصناعة والأراضى واقراض المال تعتبر موارد استثمار يتوافر فيها الضمان الكافى ، قل أو كثر ، لاستغلال الثروة التى جاءت عن طريق المشروعات التجـــارية . فأغنى المـــدن فى الامبراطورية (وانى أؤكد هذه الحقيقة ولو فى التكرار بعض الاملال) وهى المدن التى كان يقيم فيها أغنى الرجال فى العالم الرومانى ، كانت هى التى تقدمت فيها التجارة وازدهرت فى مراحل تطورها وكانت تقع قريبا من البحر وعلى الطرق التجارية الرئيسية العظيمة ، أو كانت مراكز لحركة تجارية نهرية رائجة (٣٤) .

وكانت الصناعة من الموارد الأخرى للثروة ، فالسلع التى كانت من منتجات الصناعات المحلية ، وبخاصة ماكان منها متعذرا انتاجه وتقليده فى مكان آخر ، عم توزيعها فى أرجاء الامبراطورية . وقد احتفظ الشرق

وبخاصة آسيا الصغرى وفينيقيا ، بما كان له من شهرة فى انتاج الملابس الملونة الرفيعة والبسط . وكانت آسيا الصغرى المركز الرئيسى لصنع الملابس الصوفية ،كما كانت سوريا ومصرمركزين للملابس التيلية . وكان انتاج أفضل أنواع البضائع الجلدية خاصة امتاز بها الشرق الأدنى كذلك ، فاشتهرت سوريا وبابل وآسيا الصغرى ومصر بتلك المنتجات ولم يكن لورق مصر نظير يدانيه عدا صحائف الرق الذى اشتهرت به آسيا الصغرى وسوريا . وكان لايزال للزجاج السورى والمصرى قيمة عالية فى شتى أرجاء العالم الرومانى . وكانت أكثر الجواهر البديعة كذلك من أصل شرقى . وهناك حقيقة لاتخلو من غرابة : وذلك أن الصناعة هجرت بلاد اليونان نفسها الى الأبد ولم تذكر مصادرنا من بين المواد ذات الأهمية سوى سلعة أو سلعتين جاءت الاشارة اليهما على أنهما من منتجات بلاد اليونان نفسها (٣٥) .

وأهم مظهر فى تطور الصناعة وتقدمها ما عاجلها من لامركزية . فالشرق كان مايزال يقوم بدور رئيسى فى حياة الصناعة ، غير أنه لم ينفرد فى ذلك وحده . لقد أخذ الغرب ينمى صناعة باهرة ، وقدأشرنا آنفا الى جهود ايطاليا فى هذا الصدد . وكان مستقبل الصناعة فى ايطاليا شبيها الى حد ما بمستقبل الصناعة فى بلاد اليونان نفسها ، وبانتشار الحضارة وقيام المدن فى الولايات الغربية ، فقدت ايطاليا ما كان لها من الصدارة بوصفها مركزاً للنشاط الصناعى فى الغرب . وكانت الملابس الصوفية مما يجرى صنعه فى جنوب ايطاليا وبخاصة فى تارنتوم وتلك التى كانت تنتجها شمال ايطاليا ، لا تزال تلقى ما تستحقه من التقدير والاقبال والرواج ، ولكن الدور الذى كانت تقوم به ايطاليا وما توافر لها من سيطرةفى انتاج الزجاجوالفخار والمصابيح، بل والأوانى المعدنية — كل أولئك ولى الى غير رجعة . وطالما استمر انتاج هذه السلع هناك

فان مصيرها كاد أن يكون جميعه الى الاستهلاك فى السوق المحلية .
وكانت بلاد الغال أشد المنافسين خطرا على ايطاليا . فثروتها المعدنية ، وطينتها البديعة ، وغاباتها ومراعيها الشاسعة ، ونظامها العجيب فيما يختص بمواصلاتها النهرية — كل ذلك جعل من اليسير على رجال الأعمال الذين أوتوا حظا من النشاط والهمة الوثابة أن يحرزوا قصب السبق بالتفوق على ايطاليا وأن يطردوها طرداً يكاد يكون تاما من الأسواق الشمالية الغربية . فالفخار الأحمر المصقول الذى كان يصنع فى بلاد الغال وألمانيا ، قضى قضاءا مبرما على الفخار المصنوع فى ايطاليا الذى كان له بالأمس نموذج يحتذيه ، والزجاج المصنوع على ضفاف الرين كان أرخص وأفضل من الزجاج المصنوع فى كمپانيا ، والمعاطف الصوفية التى كانت لباسا يرتدى كل يوم ، وهى من خصائص بلاد الغال ثم بريطانيا فيما بعد ، شقت طريقها لا الى ايطاليا وحدها بل والى الشرق أيضا ، و «دبابيس الأمان» البرونزية التى طليت بطبقة من الميناء وحليت بالصور المحفورة ، والأوانى البرونزية التى جلبت من حوانيت بلاد الغال غمرت سوق ايطاليا وأسبانيا وبريطانيا وألمانيا ، بل ووصلت حتى البرارى فى جنوب روسيا ، وبالجملة احتلت بلاد الغال اذ ذاك مركز ايطاليا فى القرن الأول قبل الميلاد فأصبحت أعظم بلاد الغرب طرا فى الصناعة ولم يعد فى وسع ولايات الطونة وأسبانيا وأفريقيا أن تنافس الحوانيت الغالية [٣٦] .

ولكن لم تقتصر نتائج اللامركزية فى الصناعة على تصنيع بلاد الغال، فكل ولاية فى الامبراطورية بل وكل اقليم فى هذه الولايات سعى الى المحاولة بقدر المستطاع فى منافسة البضائع المستوردة وذلك بالاستعاضة عنها بسلع رخيصة مما وفق المقلدون الى محاكاته محليا . ومن الذائع المعروف أن مصنع (أو حوانيت) فورتيس (Fortis) الكائنة فى شمال

ايطاليا والتى كانت تحتكر فى أول الأمر صنع المصابيح الفخارية ، فقدت سوقها العالمية الواسعة فى القرن الثانى ، اذ استعيض عن انتاجها فى مختلف الولايات بمصابيح على الطراز نفسه من انتاج محلى ، بل ان المقلدين كانوا يحاكون أحيانا العلامات التجارية المميزة لانتاج هذا المصنع ؛ وتاريخ صناعة المصابيح فى أفريقيا بوجه خاص له مغزاه ودلالته . فقد استعيض أول الأمر عن المصابيح الايطالية بأخرى مصنوعة فى قرطاجة ، وما لبثت هذه أن اكتسحت الأسواق الأفريقية المحلية ؛ ولكن المصابيح القرطاجية أقصيت بدورها شيئا فشيئا عن بعض الأسواق وحل محلها مصابيح أخرى من انتاج محلى . وهناك مثل آخر له مغزاه وهو مصنع الزهريات من الفخار وقد حليت من جوانبها بأشكال بارزة ، وكان هذا المصنع ملكا لشخص يسمى نافيجيوس (Navigius) ويقع على مقربة من « الأوزاع » . وما هذه الزهريات الا صورا مقلدة لنماذج جاءت أول الأمر من الشرق الى ايطاليا وما لبثت أن لقيت رواجا واقبالا فى سوق واسعة (٣٧) .

ولم تتخذ الحكومة المركزية أى اجراء من أجل حماية الصناعة الايطالية ؛ فلم يصدر أى تشريع فى عهد الامبراطورية تصح مقارنته بالتشريع الحديث الخاص بالعلامات التجارية وتسجيل حقوق الاختراع . فكان لكل فرد مطلق الحرية فى أن يحاكى منتجات منافسه بل ويدعيها لنفسه بطريق التزييف والتقليد . فهل كان هذا راجعا الى انعدام روح الابتكار أم الى وجود سياسة محددة معلومة اختطتها الحكومة ؟ انها تدل على أى حال ، على أن رجال الصناعة الذين ينطبق عليهم هذا الوصف لم يكن لهم أى نفوذ سياسى على الاطلاق . فكبار أصحاب الأراضى كان فى مقدورهم استمالة الحكومة لحماية انتاج النبيذ فى ايطاليا (مما سنوضحه فى الفصل التالى) ، والتجار الأغنياء وفقوا فى الحصول

على امتيازات هامة تشد من أزر التجارة ، ولكن الصناعة فيما يبدو ، لم تلق من أصحاب الجاه وذوى النفوذ من يهتم بها . والاستنتاج الطبيعى لذلك هو أن الصناعة بقيت فى أيدى صغار أصحاب الحوانيت نسبيا ولم تتخذ شكل الأعمال الصناعية الكبرى التى يجرى فيها استثمار الأموال الضخمة . وكان هذا تحولا ظاهرا وتأخيرا بينا ، حتى لو قارناه بنظام الصناعة فى أثينا ، ولعل الأمر كذلك لو قارناه بحال الصناعة فى الولايات الهيلينستية ، ومن المؤكد أنه كذلك لو قارناه بما ظهر فى ايطاليا من تصنيع تدريجى كنا نلحظه فى القرن الأول الميلادى وبخاصة فى پمپى (Pompeii) ؛ فاللامركزية فى الصناعة حالت دون نمو الرأسمالية الصناعية فى ايطاليا وهى الآن تعرقل نمو المشروعات الصناعية الكبرى فى الولايات . وفى الحق لا نستطيع انكار القول بأن «التصنيع» الذى كان قد بدأ فى ايطاليا ، أخذ يعم بالانتشار فى الأقاليم والولايات ، وانه فى كثير من البلدان الصغيرة فى الأقاليم يمكن أن تتتبع نفس التطور الذى حدث فى پمپى ؛ فأكثر مدن الولايات التى كانت فى أصل نشأتها مراكز لحياة زراعية ومحاط لادارة الأملاك الزراعية ، كبرت أم صغرت ، نهضت فيها صناعة محلية هامة . وكذلك كل بقعة كبيرة من الأرض ، وكل ولاية كان لها مراكزها التجارية والصناعية الخاصة بها والتى كانت تنتج سلعا وبضائع ليست قاصرة على مطالب السوق المحلية وحدها أو حتى على سوق الولاية نفسها ؛ وان القارىء ليذكر ما قيل عن الانتاج الصناعى الناهض فى بلاد الغال والدور الذى لعبته مدينة ليون فى هذا الشأن ، وما ذكر عن المراكز التجارية والصناعية الكبرى فى الشرق ؛ ففى هذه المدن الكبرى لابد أن نفترض وجود التطور نفسه فى سبيل الانتاج الرأسمالى على نطاق واسع على النحو الذى شاهدناه فى كل من الشرق وايطاليا . ومع ذلك فحتى فى هذه المراكز الكبرى لم تكن الفرصة متاحة على الاطلاق لهذه المؤسسات

الرأسمالية العظيمة كي تتوسع وتنظم بدرجة أدق وأعظم مما كانت عليه فى العصر الهيلينستى . فالحوانيت المحلية التى كان يملكها صغار الصناع انبرت لمنافسة تلك المؤسسات الرأسمالية الـكبرى فى كثير من ميادين نشاطها ولازمها التوفيق فى ذلك المضمار . وصغار الصناع لم تكتسحهم الشركات الصناعية الكبرى من طريقها مثلما قضى عليهم فى أوربا وأمريكا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، بل ان ما كان من المنتجات مثل الزجاج والفخار فانه كان يصنع فى المصانع المحلية ويلقى رواجا ، وبسبب منافسة المنتجات المحلية هذه ، لم تستطع البيوتات الصناعية الـكبرى ان تنمو وتتقدم الى مدى بعيد ؛ فالحوانيت المحليـة — كالتى كانت فى تيمجاد (Timgad) — احتفظت بالطابع القديم الذى كان مرعيا فى حوانيت ذوى الحرف والصناعات حيث كان يجرى انتاج سـلع معينة ثم تقوم هـذه الحوانيت ببيعها (٣٨) .

والظاهرة الأخرى الشائقـة فى الحياة الاقتصادية فى الولايات هى منافسة المؤسسات الصناعية الكبرى التى نشأت ونمت فى بعض الضياع الزراعية الكبرى ، لحوانيت المدن ومصانعها ، فبعض هذه الملكيات التى يستحوذ عليها الأغنياء ، أخذت فى القرن الثانى فى انشاء المصانع وتنظيمها لانتاج السلع لا بقصد استهلاكها محليا فى المزرعة ، بل لبيعها وتداولها . وقد تم الـكشف عن مصنع كبير لانتاج الصوف فى منزل ريفى يقع فى جنوب فرنسا على مقربة من «تولوز» ، وعن آخر فى منزل ريفى فى ايطاليا كما كشف عن أفران الفخار فى منزل ريفى فى بلچيكا . ومن المعروف جيدا أن مصنعا للادوات البرونزية المطليـة بالميناء كان يشغل جزءا من منزل ريفى شهير فى « انثى » (Anthèe) فى بلچيكا . والطابع الرأسمالى فى مثل هـذه المشروعات جلى بين ، ولـكن تقدمها وتطورها كان معناه زيادة اللامركزية فى الصناعة (٣٩) .

وفى الوقت نفسه ، كلما اتسم النشاط الاقتصادى بسمة اللامركزية

أخذت سلع الانتاج تدخل شيئا فشيئا فى طور من البساطة واخراجها على نمط واحد ، سواء أكان انتاجها فى مصانع كبيرة أم فى حوانيت صغيرة . أما الجمال الذى سيطرت روحه على الصناعة فى العصر الهيلينستى وكانت لا تزال سائدة فى القرن الأول الميلادى ، فقد اعتراها الذبول ثم خبت هذه الروح فى القرن الثانى ، فلم تبتكر أنماطا جديدة ولم تقتبس مبادىء زخرفية طريفة ، وقد ساد عين هذا العقم فى نطاق المهارة الفنية . وفيما عدا استخدام بعض الأساليب والوسائل المستحدثة فى صناعة الزجاج ، فاننا لا نستطيع تبين أى شىء يعد من قبيل الابتكار فى أسلوب الصناعة فيما بعد القرن الأول . وقد يكون من المجدى والمفيد الى درجة قصوى أن نقارن بين فخار اريتيوم(*) (Arretium) فى صورته الأولى وبين الآنية والكئوس الأولى مما كان يطلق عليه سيجيلاتا (Sigillata) وتنتجه إيطاليا وبلاد الغال . ثم تزداد الفائدة إذا قارنا بين هذه المنتجات الأخيرة وبين نظيراتها فى القرن الثانى الميلادى . فالأوانى الجميلة والأباريق المصنوعة فى أريتيوم لها بهجتها وبهاؤها المتألق ، وآنية المائدة (Terra Sigillata) المحلاة بالنقوش الزخرفية البارزة والمصنوعة فى القرن الأول هى آية فى المهارة الفنية ولا تزال جميلة جذابة ، بينما نظيراتها من الفخار الذى صنع فى القرن الثانى لا روعة فيها ولا جمال ، تعتريها الكآبة ويعوزها الابتكار وفيها تكرار لنفس الرموز والصور من الفن الزخرفى ، جمعت بعضها مع بعض حسبما اتفق ، ومع ذلك فانها كانت ما تزال بضاعة متينة جيدة تفى بالأغراض العادية . وانا لنلحظ نفس هذه الظاهرة فى الحلى ومنتجات فن التطعيم والجواهر والدرر المنقوشة والأثاث والأوانى المنزلية والأسلحة وأدوات القتال وغير ذلك [٤٠] .

(*) اريتيوم إحدى المدن الاثنتى عشرة فى اتروريا بإيطاليا وقد زادت أهميتها وشهرتها بما كانت تنتجه من الفخار الأحمر الذى كان يطلق عليه إسم سيجيلاتا . (المترجم)

فكيف يسوغ لنا أن نفسر هذا التقابل بين اللامركزية الصناعية وبين الانحطاط فى الذوق والمهارة الفنية ؟ سوف نناقش هذه المسألة فى الفصل الأخير وعلى ذلك نكتفى هنا بالاقتصار على ذكر قليل من الاعتبارات . وانه لمن الجلى أن المنتجات الصناعية عم انتشارها بسرعة فى شتى أرجاء العالم المتحضر ولازمها التوفيق فى طرد المنتجات المحلية حتى فى أقصى أطراف الامبراطورية . واذا استعرضنا الاحصائيات الخاصة بما تم الكشف والعثور عليه مثلا فى قرى مصر فانه يندر وجود قطعة واحدة مما عثر عليه فى تلك القرى ، من الانتاج المحلى : كانت الوسيلة شراء كل شىء من حوانيت القرية ومن السوق ؛ ويصدق نفس هذا القول على قبور الطبقات الفقيرة من السكان سواء فى المدن وفى الريف فى جميع أرجاء الامبراطورية . وعلى ذلك لم يكن طلب المنتجات الأفضل صنعا ، يلقى اقبالا عاما فى المدن والريف على السواء ؛ اذ كان طلب هذه السلع مقصورا على الأوساط الفنية من الطبقة الوسطى البورچوازية من سكان الحضر ، أما جمهرة الناس وعامتهم فان وجهتهم كانت الى طلب السلع الرخيصة ، وكلما كانت البضاعة أرخص ثمنا ، كلما كان هذا أفضل وأجدى ؛ وسوف نرى فيما بعد أن المقدرة الشرائية لدى سكان الريف والطبقات الدنيا من أهل الحضر كانت ضعيفة جدا ولكن عدد هؤلاء كان كبيرا . وكان قيام مثل هذه الظروف أدعى الى أن ينجم عنه بالضرورة، الانتاج على نطاق واسع واتباع نظام العمل فى المصانع الكبيرة . وهناك عامل آخر ينبغى ألا نغفل أثره وهو حالة النقل . كانت ترد الى الموانى البحرية كميات وفيرة من السلع الرخيصة ، لأن النقل البحرى كان رخيصا نسبيا ولكن أخطاره كانت كثيرة نوعا ما . وعلى ذلك فحتى فى المدن الواقعة على مقربة من البحر كانت السلع المنتجة محليا أرخص بكثير من نظيراتها المستوردة من مكان قصى ؛ وقد تنتج عن هذه الظروف

المراحل الأولى لقيام اللامركزية الصناعية . أما فى مصر وبلاد الغال فقد يسرت الأنهار نقل البضائع الى الأجزاء القاصية من البلاد .ومن أجل ذلك حدث التطور والتقدم الصناعى الهام فى كل من الاسكندرية وفى المدن الكبرى ببلاد الغال ، ولكن الظروف والأحوال اختلفت عن ذلك فى بعض أجزاء أسبانيا وأفريقيا وفى أقاليم كثيرة من بلاد الطونة وفى آسيا الصغرى وفى سوريا . وكلما امتدت الحضارة اليونانية الرومانية الى بلاد بعيدة عن البحر وفقدت الطابع المميز لحوض البحر المتوسط ، كلما أصبح من العسير ارسال مختلف المنتجات الصناعية الى أقاليم نائية وواقعة على مسافات بعيدة عن البحر وعن الأنهار . وفى هذا تفسير للمرحلة الثانية من اللامركزية . فكل مدينة فى الداخل حاولت جهدها أن توفر لها كفاية اقتصادية ذاتية وأن تنتج محليا تلك السلع التى كان سكانها فى حاجة اليها ، مستعينة فى هذا السبيل بما استحدث من الوسائل الفنية وعاملة على تقليد النماذج المتداولة .

ولما ازداد الطلب على البضائع الرخيصة — مما كان يراعى فى انتاجها مطابقتها لمعايير ومقاييس عامة — فان ذوى الحرف فى المدن الصغيرة ، على عكس أمثالهم فى المدن اليونانية فى العصر القديم الأول ، لم يوفقوا الى انتاج سلع تظهر فيها روح الابتكار ، لأن هذه قد تكون غالية الى درجة لاتمكنها من أن تنافس البضائع المستوردة . وانما اقتصروا على انتاج السلع التى تتفق والمقاييس الشائعة وبالطرق التى كانوا قد تلقنوها فى المصانع الكبرى . ولما كانت الآلات غير معروفة حينذاك ولم تفرض عقوبة على التزييف والتقليد ، فان مجال العمل أمام الصناع من ذوى الحرف فى المدن الصغيرة ، ازدهر وانتعش ، واستطاع هؤلاء منافسة المصانع الكبرى فى أغلب ميادين الصناعة تقريبا ،وقد اضطرت الحوانيت الكبرى ازاء هذا ،الى خفض المستوى فى منتجاتها فجاءت بضاعتها أرخص

جدا وأكثر بالطبع محاكاة للنماذج الشائعة وأقرب الى الجمود وعدم التطور .

وكانت اليد العاملة فى كل من المصانع الصغيرة والمحال الكبيرة التى هى من طابع المصانع الكبرى ، تعتمد فى أغلبها على استخدام العبيد ولو انها لم تكن مقصورة عليهم وحدهم . وهذا يعلل السر فى أنه لم يكن لمشكلة الأيدى العاملة أى وجود ولم يبذل أى جهد فى سبيل تنظيم العمل . وكانت الجمعيات التى ينتظم فيها أناس من ذوى حرفة واحدة ، فى أغلبها هيئات تضم شمل كبار التجار وأصحاب السفن والحوانيت والصناع ، ومع ذلك فان أى تجارة أو حرفة لها ارتباط مباشر بالادارة الامبراطورية ، كانت الحكومة لا تسبغ حمايتها على الجمعيات التى تضم شمل التجار وأصحاب السفن وحدهم بل شملت برعايتها كذلك جمعيات العمال ونقاباتهم ، وذلك لنفس السبب ؛ وهو أن تضمن وجود هيئات منظمة يجرى التعامل معها بدلا من جماعات من الأفراد مفككة الأوصال. فكان العبيد والأجراء الأحرار الذين يكدون وينصبون فى العمل فى صناعات لا صالح للدولة فيها ولا اهتمام ، يستطيعون الاندماج فيما يسمونه جماعات رقيقى الحال والمساكين (collegia tennuiorum) وكانت هذه لا تستهدف أى مقصد أو غرض اقتصادى[٤١].

وهناك استثناء من القاعدة السابقة نجده فى الجمعيات الصناعية فى الشرق وبخاصة فى آسيا الصغرى . ففى جميع المدن الصناعية الكبرى فى آسيا الصغرى نجد جمعيات عديدة لها نفوذ كبير ، مؤلفة من رجال يشتغلون بصناعة ما ، هى فى الغالب من الصناعات المتفرعة عن صناعة النسيج . فمن هم يا ترى أعضاء هذه الهيئات ؟ وهل هم أصحاب الحوانيت أم عمال أم خليط من هؤلاء وهؤلاء ؟ انى أميل الى القول بأن هذه الهيئات لم تضم سوى أصحاب الحوانيت . وكانت تضم رابطات

أو جماعات من الناس توارثوا الاحتراف بتجارة معينـــة . ولعلهم كانوا خلفاء لبعض أسر من الكهنة الذين كانوا يحيطون بالأسرار فى فرع أو آخر من الصناعة . ويبدو أن العمل فى آسيا الصــغرى كانت له ظروفه وخصائصه المحيطة به . ويتحدث « ديو » (Dio) عن صانعى الكتان (λινουργόι) فى تارســوس كأنهم كانوا يؤلفون طبقة دنيــا من سكان المدينة ، وليس لهم حق التمتع بكامل حريتهم وأهليتهم فى المدينة ؛ ومن المحتمل جدا أن صناع الكتان هؤلاء كانوا من سلالة الأقنان الذين كانوا فى أصلهم مرتبطين بالمصانع الملحقة بالمعابد(٤٢). وقد سادت فى مصر أحوال مماثلة لذلك ؛ ففيها كان ملوك البطالمة الأوائل قد حطموا كذلك أغلال احتكار المعابد للمرافق الصناعية ، فنجم عن ذلك أن شهدت مصر عصرا كاد يعم فيه تأميم الصناعة تأميما شاملا ، اذ أن العمال كانوا يلحقون بفرع خاص من الصناعة ، يقومون فيه بالانتاج لحساب الدولة . وفى النهاية تراخت على عهد الرومان عرى نظام الاحتكار الذى كان مفروضا من الدولة ، وأخذ أصحاب الحوانيت يعملون لحسابهم (ولو فى بعض ما ينتجون) واستخدموا من أجل ذلك جهــود أفراد أسرهم ومن كانوا يلوذون بهم من أجل التعليم كما استعانوا كذلك بــكد الاجراء من الأحرار أو بما تيسر لهم من العبيد . وليس فى وسعنا الى الآن أن نحـــدد ما بقى من نظام «التأميم» ولا سبيل الى معرفة نصيب العمال من ذلك العبء الملقى على كاهلهم باستعباد الدولة لهم (٤٣) .

ومن المعالم الدالة على الأحوال السائدة فى آسيا الصغرى ، حيث زال عن العمال طابع الأقنان ولكنهم لم يصبحوا مواطنين فى مدنهم ، أن آسيا الصغرى كانت البلد الوحيد الذى نسمع فيه باضراب ، اضراب حقيــقى لأصـــحاب المهن ، وليس مجــرد هــروب (ἀναχώρησις) الى المعابد للاحتماء بالآلهة ، أو الفرار الى المستنقعات والصحراء كما

حدث فى مصر . وفى آسيا الصغرى كذلك ، نسمع بين حين وآخر عن غوغاء المدينة والطغام الذين يتألفون فعلا من العمال والصناع الذين يعملون ويكدحون فى الحوانيت والمصانع ، وقد نظموا حركات جدية ترمى الى ثورة اجتماعية ، ومن أمثلة ذلك الاضطرابات فى مدن بيثينيا (Bithynia) ، وقد وردت اشـــارة اليها فى « ديو » مرارا ، والثورات التى قام بها عمال مصانع الكتان فى تارسوس والتى أشار اليها المؤلف نفسه ، والقلاقل التى كانت تحدث بين حين وآخر فى المدن اليونانيـــة الأخرى فى آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان وفلسطين(٤٤) .

وفضلا عن التجارة والصناعة والزراعة (وسوف نعرض فى الفصل التالى، لمعالجة هذه الموضوعات وغيرها من أعمال التعدين وقطع الأحجار) كان هناك عنصر هام من عناصر الحياة الاقتصادية وهو احتراف أعمال المصارف واقراض الأفراد العاديين الأموال . وكان الائتمان وعملياته قد اكتمل تطوره فى مدن الامبراطورية . وقد تطلب نمو التجارة والصناعة وتزايد عدد ملاك الأراضى الذين يقطنون المدن ، مقادير من النقـــد استمر تزايدها ، لامكان استغلالها فى انماء أى مشروع أو مؤسسة وفى ادخال وسائل التحسين اللازمة لذلك ؛ ومن ناحية أخرى تكدست فى أيدى كثيرين من رجال المال مقادير كبيرة من النقد ؛ فلا عجب أن أصبح اقراض المال حرفة رابحة يزاولها كل من الأغنياء الذين لم يتخذوا من هـــذا العمل مهنـــة يحترفونها ، ورجال المصارف العاديون . فانتشرت المصارف الحقيقية فى جميع أرجاء الامبراطورية سواء ما كان منها للأفراد أو للبلديات .

ولدراسة هذا العمل المتشعب ، الذى كانت تباشره المصارف العديدة (τράπεζαι) فى مصر ، فـــائدة جليـــــلة ، ففى العصر البطلمى كانت المصارف ، شأنها فى ذلك شأن التجارة والصناعة ، احتكارا فى يد الدولة ولم يكن لنشاطها نطاق واسع ، وقد أطلقت الحكومة الرومانية السراح

لأعمال المصارف، فنشأت عشرات المصارف الخاصة فى مختلف مدن مصر ، غير أن معلوماتنا فى حقيقة الأمر مقصورة على بعض المدن الاقليمية الصغيرة . وعلى ذلك فليس فى وسعنا أن نكون أى فكرة عن نشاط أصحاب المصارف فى المراكز الكبرى للتجارة والصناعة كمدينة الاسكندرية مثلا . ومع ذلك فحتى دراسة هذه المصارف المحلية تمثل موضوعا شيقا جدا . ولا ريب أن هذه المصارف كانت تقبل الودائع من الأموال وتدفع فوائد عن بعض هذه الودائع . ومن الجلى كذلك أنها كانت تقوم بعمليات الدفع بتحويل الأموال من ذمة الى ذمة ، بل ان نقل الأموال من مدينة الى أخرى كان يتم أحيانا عن طريق المصارف المحلية. وهناك ظاهرة أخرى هامة فيما يختص بأعمال المصارف وهى شراء النقد الأجنبى وبيعه ثم فحص العملة الجيدة والزائفة أو المغشوشة . ولسنا نعرف مبلغ اشتغال المصارف المصرية بعمليات الائتمان . ومن الجلى أن الأموال التى تكدست فيها لم تبق عاطلة ؛ غير أنه ، على قدر ما وصل الينا من معرفة ، كان عمل المصارف الرئيسى هو مساعدة عملائها على انجاز أعمالهم ودفع المستحق عليهم من ضرائب ونحو ذلك من أمور .

ومبلغ علمنا بشئون مصارف روما وايطاليا والولايات يدل على انه كان لعملها نفس هذا النطاق . اذ أن نظام المصارف انتقل الى الغرب من بلاد اليونان والشرق اليونانى . وكان يدير مصارف ايطاليا والولايات الغربية ، أناس هم فى الكثير الغالب من أصل يونانى ؛ ومن بين الأسباب الأساسية فيما لقيته العمليات المصرفية من تقدم ونجاح مطرد ، توفر أنواع عدة من العملة حتى فى عصر الامبراطورية ثم ندرة النقود المسكوكة مما حفز على استحداث نظام يتيح نقل الائتمان من حساب لآخر فيما يتعلق بكل من شئون النقد والعين من المنتجات ، وجعل ذلك أمرا مرغوبا فيه غاية الرغبة ، بل لا غنى عنه . وانه لمن دواعى السرور أن نعرف المزيد عن عمليات الائتمان التى كانت تقوم بها المصارف ، ولكن ما نعرفه عنها حق

المعرفة يدل على أنها كانت تسير على أسلوب لا يختلف كثيرا عما كان ينتهجه الأفراد فى اقراض النقود . وعلينا أن نتذكر أن المصارف ، شأنها شأن جميع أفرع الأعمال المالية الأخرى ، كانت من المشروعات التى يضطلع بها الأفراد ، وأنه لم تكن هناك فى العالم القديم ، شركات مصرفية كبرى مساهمة ، ولو أن بعض المصارف كانت بالطبع فى أيدى شركاء يتولون ادارتها (٤٥) .

وقد قلنا ان تقدم العمليات المصرفية كان يرجع الى حد كبير الى الظروف السائدة فيما يتعلق بتداول العملة المسكوكة . ولعل مناقشة هذا الموضوع العسير ، مع ما يكتنفه من تعقيد ، ليس لها مجال هنا ، وحسبنا أن نقول ان فوضى النقد التى كانت سائدة فى المدن اليونانية وفى الممالك الهيلينستية ، قبل عصر السيطرة الرومانية فى الشرق ، خفت الى حد كبير عند استعمال نقد الدولة الرومانية الذى عم وانتشر ، وعندئذ تناقص النقد المحلى بالتدريج ثم توارى عن الأبصار فى بطء ، وفى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، انفردت الدولة الرومانية وحدها بسك العملة الذهبية والفضية ، اذا استثنينا ما كانت تسكه مملكة البسفور التابعة للرومان من نقود . وقد احتفظت الدولة بعملة فضية (*) محلية فى الاسكندرية ولزمن مؤقت فى انطاكية ، وهاتان هما العاصمتان التجاريتان فى الشرق ، بينما كان مجلس الشيوخ فى روما يسك عملة نحاسية وكذلك كانت تفعل مدن كثيرة جدا ولا سيما فى الشرق ، وبقاء عملة فى كل مدينة من هذه سببه أن دار السك الرومانية كانت غير قادرة على تلبية مطالب الامبراطورية المتزايدة من العملات الصغيرة ، وعلى ذلك كان من الطبيعى أن يتسم ضرب النقود بطابع اللامركزية وذلك بالسماح لبعض المدن الشرقية بالاحتفاظ بعملتها وسك نقود نحاسية وهو أمر لاغنى عنه لتقدم

(*) كانت الفضة فى مصر غير خالصة ، يشوبها خلط كثير .

التجارة المحلية . ولقد خفف من الآثار السيئة الناجمة عن وجود أنواع مختلفة من العملة ، تحديد قيمة بعضها بالنسبة الى بعضها الآخر عند التبادل . أما النقود الذهبية والفضية فكانت ، من الناحية الأخرى ، احتكارا فى يد الدولة . ولو أن مقدار النقد لم يكن كافيا حتى فيما يختص بهذين المعدنين ، فان مما هوّن هذا الشر ما قامت به المصارف من نشاط ملحوظ وقد لعبت المصارف كذلك دورا هاما فيما قامت به كوسيط أو كمتعهد عن المدن فى اصدار عملة محلية تولت توزيعها . وكان هذا يؤدى فى الغالب الى المضاربة والاستغلال وينجم عنه أزمات حادة . وقد وصل الى علمنا خبر أزمتين (احداهما فى برغامة (Pergamum) والأخرى فى ميلاسا (Mylasa)) حيث كان اختفاء النقد الصغير من السوق سببا فى حدوث الاضطرابات والقلاقل ، بل والثورات [٤٦] .

ولقد نجم عن ندرة النقود من الفئات الصغيرة بعض النتائج الشيقة التى تدل على تقدم كبير فى الحياة الاقتصادية ، كانت الدولة تواجه مطالبه فى شيء من التراخى والنقص . وعلى عهد كل من كلوديوس ونيرون وبعد ابطال العملات المحلية فى غاليا وأسبانيا ، ظهرت مسكوكات عديدة زائفة قلدت العملة النحاسية التى ضربت فى روما وقد انتشرت هذه النقود الزائفة فى الولايات الغربية بما فى ذلك أراضى الرين وبريطانيا ، وكانت الحكومة تغض الطرف عن هذه العملات المقلدة . وفضلا عن ذلك فانه فى أغلب المدن الكبرى ، بل وفى بعض المدن الصغرى فى الامبراطورية ، كان تجار التجزئة والخمارون وأرباب الفنادق وأصحاب قوارب العبور والبواخر وغيرهم ، يصدرون عملتهم الخاصة بهم على شكل قطع معدنية وعلامات مسكوكة وأحجار النرد . وقد كشف عن عدد كبير من هذه المسكوكات الرمزية (tesserae) وأغلبها مصنوع من الرصاص ، فى نهر التيبر عند روما ، كما عثر على بعضها فى اكويليا (Aquileia) وفى أوستيا وفى ازمير (Smyrna) وفى أماكن أخرى .

ومن الممكن أنه فى بعض المناطق عمدت حتى المدن نفسها الى اصدار هذه المسكوكات الرمزية على نهج منظم ، كما كانت تفعل بلا ريب حواضر الأقسام الادارية فى مصر [٤٧] .

وكان الامبراطور وخزانته (fiscus) بلا ريب أعظم مالكين للنقد المسكوك ، ومما لاشك فيه أن الامبراطور وخزانته كانا يقرضان المال بالربا كما يفعل الأفراد من المرابين وكما تفعل المصارف الخاصة . ولا شك أن عملياتهما المالية كانت متعددة متشعبة ، ولعل تلك الخزانة كانت أكبر مصرف فى الامبراطورية على الاطلاق . وفى أوقات الأزمات نسمع عن بعض الأباطرة الذين ينزلون عن مثل هذه الديون الخاصة التى للخزانة الامبراطورية على الأفراد . وفى بعض الأحيان ولا سيما فى الملمات والظروف الحرجة كان الأباطرة يقومون بالدور الذى تؤديه مصارف الدولة فى الأزمنة الحديثة ، ولدينا مثل على ذلك فى الاجراء المالى الذى اتخذه الامبراطور تيبريوس لمنفعة ذوى الأملاك العقارية فى ايطاليا ؛ ولا يمكن أن تكون الأموال التى أودعها أغسطس فى الخزانة الحربية (aerarium militare) ليدفع منها العطاء للجند المسرحين ، قد بقيت عاطلة فى خزائن بيت المال المخصص لهذا الغرض . وان تلك المؤسسة الكبرى التى أنشأها نرفا وتراجان لتقوم بالتعليم والتغذية (alimenta) والتى تقدمت فى عهد خلفائهما ، كانت تتطلب ادارة حكيمة . ولعل العمليات المالية التى كانت تتولاها تلك الادارة ، يمكن مقارنتها ، مع اجراء بعض التغييرات الضرورية ، بنظيرتها مما تباشره المصارف المركزية فى العصر الحديث من اقراض للأموال برهن عقارى . ومعلوماتنا عن هذا الشق من النشاط الامبراطورى قليلة جدا ، ومما لا شك فيه أن هذه العمليات لم يكن يباشرها الأباطرة قط بطريقة منظمة ولم ينهجوا نهجا يصح مقارنته بما تفعله مصارف الدولة الكبرى فى العصر الحديث [٤٨] .

ومن أروع الأدلة التى توضح مبلغ التقدم العظيم الذى حدث فى الحياة الاقتصادية فى الامبراطورية فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد ، القانون المدنى الرومانى الذى ساد فى هذه الفترة كما اشتملت عليه كل من القرارات التشريعية التى كان يصدرها الأباطرة وحكام الرومان (والى حد ما مجلس الشيوخ كذلك) ، وما جاء فى الوثائق التى تسجل شتى أنواع المعاملات فى ذلك العصر . وهناك مصدر ثالث نستقى منه معلوماتنا وهو تلك الكتب التى ألفت فى الفقه والتى وصلتنا كاملة أو بقيت لنا منها نتف . ولا يستطيع غير عالم اخصائى أن يتناول هذا الموضوع على وجه شامل . ومن سوء الطالع أن العالِم الذى كان له قدر عظيم من العلم والمعرفة يمكنه من عرض تطور القـانون المدنى الرومانى من الناحيتين الفقهية والتاريخية وهو ل . ميتيس (L. Mitteis) ، هصره الموت قبل أن يتم مؤلفه العظيم الذى لم ينشر منه سوى جزء واحد [٤٩] . واليه يرجع الفضل فى ذلك الكشف الأساسى الذى اعتمد فيه على دراسـة مصادر الفقه الرومانى وأوراق البردى اليونانية فى مصر ، والذى أثبت بمقتضاه أنه الى جانب القانون المدنى الرومانى البحت الذى كان ينظم المعاملات التى يقوم بها المواطنون من الرومان ، كانت توجد فى الولايات نظم قانونية أخرى تنظم حياة سكان الولايات ، وأخصها جميعا بالذكر النظام القانونى اليونانى الهيلينستى وهو الذى ابتدعته المدن اليونانية وملوك العصر الهيلينستى . ولسنا نعرف مبلغ تأثر هذه النظم القانونية فى مصر وآسيا الصغرى وسوريا بالقوانين السالفة فى تلك البلاد من مصرية وحيثية وبابلية ، فلا تزال دراسة القـانون المقارن فى مهـدها ومراحلها الأولى ، ونحن نفتقر الى دراسة مستفيضة تتناول النظم الشرقية كما يصورها لنا النظام القضائى فى مصر ومجموعات القوانين البابلية والآشورية والحيثية ، ولكن جهود « ميتيس » وتلاميذه لم تترك مجالا

للشك فى أنه كان يسود الى حد كبير نظام عام من القـانون المـدنى الهيلينستى ، وقد عرفناه من نقوش آسيا الصغرى ومن صحائف الرق فى سوريا ومجموعة القوانين السـورية ولا سـيما من أوراق البردى اليونانية التى ترجع الى عصر البطالمة فى مصر . ويمكننا أن نفترض اذا ، أن فى الولايات الأخرى بالامبراطورية كانت توجد نظم قانونية أقل دقـة وكمالا ، كانت هى العماد فيما يجرى من معاملات فى الحياة الاقتصادية قبل الغزو الرومانى . وعلينا أن نتذكر أن بلاد الغال وأسبانيا وقرطاجة وبلاد ايلليريا وتراقيا قضت أجيالا وقرونا عدة تنعم بالحياة المتحضرة قبل خضوعها لنير الرومان (٥٠) . فكل هذه النظم القانونية المحلية — ولاسيما النظام القانونى الهيلينستى — لم يقض القانون المدنى الرومانى عليها أو يستعيض عنها بما كان يطلق عليه « قانون الشعوب والأمـم » (*) (ius gentium) ، وانما بقيت كل هذه النظم طوال عصر الامبراطورية ، وكانت الأساس الذى قام عليه النظام القضائى الذى طبق فى مختلف الولايات ، وقد تأثرت هذه النظم بالقانون الرومانى كما أثرت بدورها فيه ، ثم امتزجت به آخر الأمر وتألف منها كلها القانون المدنى فى العصر الرومانى المتأخر والقانون المدنى البيزنطى ويتمثل فى مجموعات القوانين البيزنطيـة الكبرى وقانون ثيودوسـيوس (Codex Theodosianus) وقانون جستينيان (Codex Justinianus) ثم الديجست (المختارات) (Digest)

وان دراسة تاريخية دقيقة لهذه المصنفات ، على ضوء الآلاف من أوراق البردى المصرية وبعض الوثائق التى عثر عليها فى ايطاليا والولايات الغربية ، لتكشف النقاب عن التطور التـاريخى الذى مر به كل من القانون المدنى الرومانى والنظم الاقليمية .ومثل هذا التاريخ لمختلف النظم

(*) لعل هذا هو الأساس فى القانون الدولى بشقيه العام والخاص . (المترجم)

القانونية التى سادت فى الامبراطورية لهو أساس حسن لدراسة الأحوال الاقتصادية التى كانت العماد الذى ترتكز عليه هذه النظم القانونية ؛ والى أن تتم مثل هذه الدراسة فعلينا أن نبذل الحرص كله فى استخدام تلك المصنفات والمؤلفات البيزنطية فى تقصى الأحوال الاقتصادية لأى عصر أو لأى جزء من الامبراطورية الرومانية على حدة [٥١] . ومع ذلك فان بعض المجموعات من الوثائق وبعض القرارات التشريعية التى كانت تصدر عن أباطرة الرومان ، لو أنها استخدمت بشىء من العناية والحذر ، قد تعيننا فى دراستنا للأحوال الاجتماعية والاقتصادية التى سادت فى الامبراطورية . وقد استخدمناها فى مختلف فصول هذا الكتاب بهذه الروح وهذا القصد ؛ ولكنها بوصفها مجموعة ، تدل على تقدم عجيب فى مظاهر الحياة المالية وما كان يجرى فيها من معـاملات فى كل من الشرق والغرب ؛ وللبردى اليونانى فى مصر قيمة خاصة فيما يحتوى عليه من معلومات . ونظرة واحدة الى مختارات أوراق البردى التى جمعها « ميتيس » (Mitteis) وڤلكن (Wilcken) ، أو الى تلك المجموعة الطيبة من أوراق البردى القانونية التى قام بنشرها پ . ميّر (P. Meyer) لتكفى للدلالة على مبلغ التعقيد والدقة التى وصلت اليها معاملات الناس فى حياتهم العامة فى مصر الرومانية وما آلت اليـه من ولايات ؛ فمختلف أشكال العقود وصورها وما اتبع من أساليب منوعة فى تسجيلها والاحتفاظ بها مع سهولة التعرف والوصول اليها ، وفوق ذلك نشاط مـوثقى العقود المصريين وجهود دور السجلات فى الاسكندرية ثم تلك المؤسسة البديعة وهى دار الوثائق والسجلات (βιβλιοθήκη ἐγκτήσεων) — وكانت تجمـع بين سجلات الأراضى وصيانة الاحصاءات الدالة على ثروات جميع المقيمين فى مصر — كل هذه أمور تـوحى بمبلغ ما كانت عليه الحياة الاقتصادية من تقدم عظيم ونظام دقيق قد أحكم ابداعه [٥٢] .

وان هــذا الأثر نفسه ليبقى فى نفس الدارس لتطور القانون المدنى الرومانى والباحث فى الوثائق التى توضح هذا التطور — من نقوش وألواح من الشمع عثر عليهـــا فى پمپيى و فى ولاية داكيا (Dacia) ثم الفتاوى والقرارات والخطابات التى كانت تصدر عن الأباطرة ، وقد جمعها برونز وجراد نفتز (Bruns-Gradenwitz) وچيرار (Girard) ، وجدير بالذكر أنه فى بعض نواحى الحياة تَقَبَّل التشريع الامبراطورى تلك الجهود الانشائية التى كانت ثمرة من ثمار العصر الهيلينســتى : وعلى ذلك تَقَبَّل على سبيل المثال القانون البحرى الرودى وطبّقه فى تنظيم التجارة البحرية (٥٣) .

وقــد سبق أن تناولنا فى الفصل الثانى تقسيم شعوب الامبراطورية من الناحية الاجتماعية والسياسية على النحو الذى أملته الحروب الأهلية وجاء تدعيمه على يدى أغسطس ؛ ولم ينل بناء الامبراطورية الاجتماعى تغيير كبير لا فى النصف الثانى من القرن الأول الميــلادى ولا فى القرن الثانى بعــد الميلاد ، فبقى أفراد طبقــة أعضاء مجلس الشــيوخ أندادا للامبراطور وهم رجال لهم حق موروث فى حكم الدولة تحت زعامـــة الامبراطور ؛ وبدلا من أن يكوّنوا طبقة أرستقراطية بحسب المولد كما كان الحال فى القرن الأول ، أصبحوا يمثلون أرستقراطيــة من موظفى الدولة ؛ وكان لا يزال من شروط الانضواء فى هــذه الطبقــة توفر قدر معلوم من الغنى والثراء . ولكن كان من اليسير الحصول على هذا القدر وتدبيره اما عن طريق الخدمة العامة فى مختلف أفرع الادارة الامبراطورية واما أن الامبراطور نفسه كان يقدمه لمن تحظى خدماتهم بحسن تقديره . ولم تكن تلك الأرستقراطية مؤلفة من جميع الموظفين ، بل اقتصرت على من كانوا منهم يكنون الاخلاص للامبراطور ، وكان أعضاء هذه الطبقة يجرى اختيارهم تقريبا بأمر الامبراطور ، على أن هذا الاختيار كان أمرا سهلا يسيرا على الأباطرة ، وذلك راجع لا الى قدرتهم دائما على التخلص

ممن لا يرغبون فيهم ، بل الى أن أعضاء الأسر التى تنتمى لطبقة مجلس الشيوخ — وحتى ما كان منها حديث العهد — كانوا لا يُعمِّرون طويلا . ومنذ عهد أغسطس بدأت الشكوى من اعراض الطبقات العليا عن انجاب أطفال ، ولم تُجد الاجراءات التى اتخذها أغسطس لمعالجة هذا الاعراض والتغلب عليه ، واذا كانت هذه الطبقة على هذا الوصف ، لم يصبها الفناء فمرد ذلك الى أن أعضاء جددا كانوا يختارون باستمرار من بين صفوف البيرقراطية الامبراطورية أى من طبقة الفرسان .

وكانت هذه الطبقة الثانية من الارستقراطية الامبراطورية أوفر عددا وأعز نفرا من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ . كما كانت كذلك طبقة أرستقراطية تتألف من طبقتين ، وكان كل اعتمادها على الامبراطور ، وكان لابد من توفر نصاب معين وان لم يكن بالنصاب الكبير ، واذا قدرنا أنه كان يبلغ فقط ٤٠٠و٠٠٠ سسترسيس (*) (sesterces) وان الطبقة العليا من الموظفين المدنيين الذين كانوا يعملون فى خدمة الامبراطور كانوا يتناولون ٢٠٠ر٠٠٠ سسترسيس سنويا ، استطعنا أن نفهم بسهولة أن أرستقراطية طبقة الفرسان لم تكن « پلوتوقراطية » ، العماد فيها على الثروة ، بل كادت تكون ارستقراطية خالصة من الموظفين البيروقراطيين. وأعضاء هذه البيروقراطية كانو يختارون من بين صفوف الطبقات الغنية التى تسكن المدن والتى كان أفرادها قد عملوا فى الجيش بوصفهم ضباطا . فكانوا يمثلون اذا الطبقات المفكرة والمثقفة فى الامبراطورية ، وهم يشبهون أيضا أعضاء مجلس الشيوخ فى أن أكثرهم لم يولدوا فى روما أو فى ايطاليا مثلهم ، بل كانوا ينتمون الى الطبقات العليا من سكان المدن فى الغرب وفى الشرق (٥٤) .

(*) سسترتيوس (sestertius) عملة فضية صغيرة كانت متداولة بين الرومان ، وقيمتها الأصلية نحو غرش صاغ . (المترجم)

وعلى ذلك كانت الطبقتان الأرستقراطيتان الامبراطوريتان تنتميان من الناحية الاجتماعية الى الطبقة العليا التى كثر عددها والتى كانت تسكن المدن فى ايطاليا والولايات . ولم تكن هذه الهيئة الكبيرة القوية موضع دراسة دقيقة من النواحى الاجتماعية والاقتصادية . ولا بد أن مثل هذه الدراسة تؤدى الى خير النتائج ، لو أن العلماء توفروا على دراسة ما دوّن عن مدينة بعد أخرى فى كل من ايطاليا والولايات . ومع ذلك فاليك ما أحسسته من أثر بعد أن درست ودرس جماعة من تلاميذى بعض المدن دراسة مستفيضة . كان الحكم فى المدن فى أيدى الهيئة العليا من الطبقة المتوسطة (البورچوازية) وكان بعض أفرادها ينتمون الى طبقتى أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ، على حين كان الباقون على الأقل مواطنين رومان وكانوا يؤلفون « پلوتقراطية » كادت تكون خالصة : فلم يكن الاضطلاع بالأعمال الادارية فى البلديات والمدن أمرا ميسورا لأحد سوى الأغنياء لأن تلك الوظائف كانت انتخابية ولا تدفع عنها أجور ، وكانت تتطلب هبات اجبارية يقدمها الموظفون الى المدينة ، وعلى هؤلاء الموظفين مسئوليات مالية بعيدة المدى قِبَل الحكومة المركزية . وكان أصل هذه الطبقة من الأغنياء يختلف باختلاف أجزاء الامبراطورية . ففى ايطاليا كان أصل بعض الطبقة الأرستقراطية فى البلديات ينسب الى العناصر القديمة التى ترجع الى العصور التى سبقت ضم المدن الايطالية الى جماعة المواطنين الرومان ، وفى أثناء الحروب الأهلية حل الجنود القدماء بعد تسريحهم محل بعض هذه العناصر القديمة ، وكان أكثر هؤلاء الجنود القدماء من أصحاب الأراضى الأثرياء ، أما فى المدن الصناعية والتجارية فانه الى جانب هذه الارستقراطية من ملاك الأراضى كانت هناك طبقة جديدة ناهضة ، أخذت تقوى شيئا فشيئا حتى أصبح لها القدح المعلى فى الحياة السياسية ، تلك هى طبقة أغنياء التجار وأصحاب الحوانيت ،

وكان بعضهم من الأحرار بحكم مولدهم ولكن أكثرهم كانوا من الموالى وذريتهم . وفى ولايات الغرب الكلتية كان هناك كذلك عنصر قديم من أبناء البلاد من الطبقة الارستقراطية ، وجل أفراد هذه الارستقراطية تقريبا من ملاك الأراضى الأغنياء . والى جانب هؤلاء ظهرت جماعات من المهاجرين الوافدين من ايطاليا ، اعدادها فى ازدياد مطرد . على أن النواة الأساسية فى هذا البناء الذى كان قوامه جمهرة أجنبية من السكان ، كانت مؤلفة من الجنود القدماء الذين اسكنوا فى المستعمرات الرومانية ، ثم من التجار الايطاليين المرابين الذين وفدوا على هذه البلاد عند غزوها وفتحها ، ثم فى الفترة الأولى التى أعقبت هذا الغزو . وقد ساعد تقدم التجارة والصناعة على اضافة جموع اطردت زيادتها ، من المهاجرين الجدد ومن التجار وأصحاب الحوانيت من أهل البلاد ، وبعضهم من الموالى وذريتهم . وتصدق نفس هذه الصورة على مدن أسبانيا وافريقيا وولايات الطونة .

أما فى الشرق فان طبقة من البورچوازى من طابع هيلينستى كانت لا تزال باقية فى المدن اليونانية القديمة . وهذه الطبقة التى كان بعضها من اليونان وبعضها من الوطنيين المصطبغين بصبغة يونانية ، غلبت على أولئك المهاجرين الايطاليين الذين وفدوا عليهم فى العصر الجمهورى فلم يعد لهم كيان . وفى عهد الامبراطورية كان عدد المهاجرين الجدد الذين جاءوا من الغرب قليلا نسبيا ، وكانت مستعمرات قليلة من جنود الرومان القدماء تقوم فى آسيا الصغرى بمثابة الجزر الايطالية فى بحر هيلينستى لفترة من الزمان . ولكنها ما لبثت أن استسلمت للمؤثرات اليونانية شيئا فشيئا وأصبحت مطبوعة بالطابع اليونانى . وعلى ذلك بقى العنصر الأساسى من أغنياء الطبقة الوسطى من أهالى البلاد .

وليس فى وسعنا الاجابة عما يعرض من أسئلة عن مبلغ استقرار هذا

العنصر الارستقراطى فى المدن وثبات مركزه وكيانه . ولا سبيل الى معرفة عدده ، فنشأة المدن الجديدة ونموها المطرد فى شتى أرجاء الامبراطورية والتقدم الزاهر فى حياة المدن — ذاك التقدم الذى كان عماده ثروة طبقة البورچوازى — كل هذا دليل على أنه فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد زاد عدد طبقة البورچوازى بسرعة فائقة . ولكن يبدو أن الزيادة فى هذه الطبقة ، شأنها شأن طبقتى أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ، لم تكن راجعة الى بقاء العنصر القديم وحده ، بل الى ظهور أناس جدد وبخاصة من السكان الأصليين والموالى — ويبدو أن الطبقات العليا فى البلديات اعتراها فى كثير من الأحوال العقم ، شأنها فى ذلك شأن طبقة أعضاء مجلس الشيوخ فى روما . فبعد جيل أو جيلين كانت الأسر الأرستقراطية فى المدن تنقرض فى الكثير الغالب أو أنها كانت تعمد لضمان بقائها الى التبنى وتعبئة صفوفها الجديدة عن طريق تحرير العبيد وعتقهم. وهذا هو السبيل الوحيد الى تفسير ذلك المستوى المنخفض فى الثقافة الفكرية حتى بين أغنى الأسر من طبقة البورچوازى التى كانت تسكن المدن وكذلك الطابع السطحى الذى كان غالبا على المصطبغين بالحضارتين الرومانية واليونانية فى جميع مراحلها بما فى ذلك أسماها وأرفعها ؛ ويكفى للتدليل على ذلك أن نذكر الحقيقة التالية وهى أن سيپتميوس سيڤيروس لم يكن يتكلم اللغة اللاتينية الفصحى وان أخته لم تكن تتكلمها على الاطلاق . ولا يحق لنا أن نعجب لهذا المستوى الثقافى نظرا لأن عملية الاصطباغ بالحضارة الرومانية واليونانية كانت تتكرر مرة بعد أخرى تبعا لتجدد الأسر من أهل البلاد وظهور الموالى الذين أخذوا مكان الأسر القديمة (٥٥) .

ولا يمكننا أن نبالغ فى تقدير أهمية الطبقة العليا من بورچوازى المدينة . فان هذه هى الطبقة التى اضفت على الامبراطورية المظهر البهيج

الذى كانت تتمتع به ، وكانت هى الطبقة التى قبضت بالفعل على ناصية الأمور فيها . فكانت تمثل من وجهة نظر أباطرة الرومان أرستقراطية الوظيفة ، شأنها فى ذلك شأن طبقتى أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان وبوساطة هذه الطبقة كان الأباطرة يديرون شئون المدن ويشرفون على الأقطار التابعة لها . ويلىذلك فىالمرتبة الاجتماعيةصغار طبقةالبورچوازى من أصحاب الحوانيت وتجار التجزئة والصيارفة وذوى الحرف وممثلى المهن الحرة كالمدرسين والأطباء وأمثالهم . ولسنا نعرف سوى القليل عنهم . فلا نستطيع معرفة مقدار عددهم اذا قارناهم بالارستقراطية فى البلديات من ناحية وبالطبقات الدنيا من رعاع المدينة من الناحية الأخرى. وأطلال المدن القديمة فى ايطاليا والولايات بما فيها من مئات الحوانيت الصغرى والكبرى ومئات النقوش التى تعدد أسماء أفراد من هذه الطبقة وجمعياتهم ، تجعلنا نؤمن أنهم كانوا يكونون العمود الفقرى فى حياة المدن . ولكنه لا سبيل الى معرفتنا ما كان من هذه الحوانيت ملكا لهذه الطبقة الدنيا من البورچوازى وكم منها كان يدار بوساطة العبيد والموالى (institores) نيابة عن أعضاء الطبقة الارستقراطية فى هذه البلدان . وفضلا عن ذلك فليس فى استطاعتنا الفصل بين طبقة « البورچوازى » العليا والدنيا لأن الطبقة الأولى كانت فعلا تخرج من بين صفوف الطبقة الثانية . وكان ينتمى كذلك الى صغار طبقة « البورچوازى » الدنيا ، كتبة الحكومة الذين رتبت لهم المرتبات ، وصغار الموظفين فى البلديات وهم طبقة كبيرة ذات نفوذ له خطره ، وجلها من العبيد وموالى الامبراطور — أعنى من عبيد الدولة ومواليها — ومن عبيد وموالى المدن (servi publici) . أما مقدار رواتبهم ومبلغ الدخل لدى طبقة « البورچوازى » الدنيا فليس فى المصادر التى لدينا أى اشارة ولو طفيفة عن ذلك .

ويجىء زعاع المدينة وطغامها ثم الأجراء الأحرار والعبيد الذين يستخدمون فى الحوانيت وفى الدور الكبيرة . وكل هؤلاء كانوا فى الدرك الأسفل ، وليست لدينا الوسائل التى نستطيع بها أن نتعرف على عددهم أو ظروفهم وأحوالهم المادية . ويندر أن ترد اشارات اليهم فى المصادر التى بين أيدينا . وأطلال المدن التى تم الكشف عنها لا تقدم احصائيات . ولكن لا شك أن استخدام الأيدى العاملة من العبيد جعل أجور العمال الأحرار تصل الى مستوى بخس جدا ، لا يكاد يزيد عن الحد الذى لابد منه لسد الرمق . ومع ذلك فان بعض هؤلاء كان لديهم من المال ما يكفى لدفع جعلهم فى جمعياتهم وهى المسماة بجمعيات رقيقى الحال والمساكين (collegia tenuiorum) التى كانت تضمن لهم ولأفراد أسرتهم كفنا ولحدا لائقين[٥٦] .

ولا سبيل لنا الى معرفة مبلغ اصطباغ الطبقات الوسطى والدنيا من سكان المدن وتغلغل تأثرهم بالطابع الرومانى واليونانى ، ويبدو كما لو أن أكثر هؤلاء السكان كانوا يتكلمون اللاتينية فى الغرب واليونانية فى الشرق ، وكان كثيرون منهم يكتبون اللاتينية فى الغرب واليونانية فى الشرق . وكانت الحياة العامة فى المدن مع ما بلغته من تقدم ورقى والاستعراضات والمهرجانات والتمثيليات فى المسارح والمدرجات والاجتماعات اليومية فى الطرق والأسواق ، كل أولئك كان من العوامل القوية فى نشر اللغتين الرسميتين اللازمتين لفن الحكم فى العالم القديم . وكم كنا نود أن نعرف لمن أقيمت الحمامات والملاعب وحلبات المصارعة والمسارح والمدرجات ومن هم الذين كان فى مقدورهم التردد عليها . ومن العسير أن نفترض أنها لم تكن مفتحة الأبواب لكل انسان ولكن أفضل التعليم على الأسس والقواعد اليونانية الرومانية كان بالتأكيد امتيازا مقصورا على الطبقات العليا وحدها وعندما قرر أباطرة القرن الثانى دفع

مرتبات المعلمين فى المدارس العامة من خزانة الأباطرة الخاصة ، لم يكن قصدهم تثقيف العامة بل معاونة طبقة « البورچوازى » فى المدن فى جهادها على أن يحصل الجيل الناشىء على قسط حسن من الثقافة والتعليم.

كانت مدن الامبراطورية الرومانية على مثل هـذه الحال . فصورة أحوالها الاجتماعية لا تخلب اللب كما تفعل صورة المظاهر الخارجية فيها ، والأثر الذى نحس به عند تصفح مصادرنا هو أن المدن وما توافر لها من بهاء ورواء كان من ثمار قرائح أقلية ضئيلة من بين سكانها ، أخرجته لنفسها وأوجدته لنفعها ، بل ان الخير والسعادة لهذه الفئة الضئيلة كان يقوم على أسس ودعائم متداعية يوما ما وان الجموع الغفيرة من سكان المدن اما أن دخلها كان معتدلا أو كانت تعيش فى فقر مدقع — وبالاختصار علينا ألا نبالغ فى تقدير ثروة المدن : اذ أن مظهرها الخارجى يدعو الى الضـلال .

الفصل السادس

الامبراطورية الرومانية على عهد الفلاڤيين والأنطونينيين
المدن والقرى فى إيطاليا وفى الولايات الأوربية التابعة لروما

ليست لدينا احصاءات تبين عدد سكان المدن بالمقارنة بتعداد سكان الريف . ولكن لما كان لكل مدينة « رقعة » واسعة من الريف ، أعنى مساحة فسيحة من الأرض تكوّن مع المدينة نفسها وحدة سياسية واجتماعية واقتصادية ، ولما كان هناك ، فضلا عن هذه الأراضى التابعة للمدن ، أقاليم شاسعة لم تعرف حياة الحضر ، فانه من العدل أن نقول بوجه عام ان سكان المدن فى ايطاليا وفى الولايات على السواء لم يكونوا يؤلفون سوى اقلية ضئيلة اذا قارناهم بسكان الريف . وبالطبع كانت الحياة المتحضرة تتخذ من المدن مراكز لها . وكل رجل أوتى حظا من المواهب الفكرية وكانت به حاجة الى الالتقاء بالناس لمناقشة ما يعنّ له ، كان يسكن فى مدينة ، ولم يكن ليستطيع أن يتصور نفسه مقيما فى أى مكان آخر : وكان يرى أن الفلاح (γεωργός) أو رجل الريف (paganus) انسان يقل عنه منزلة وله حظ قليل من المدنية أو لا حظ له منها على الاطلاق . فلا عجب أن كانت الحياة فى العالم القديم هى فى نظرنا مرادف الى حد قليل أو كثير للحياة فى المدن القديمة . على أن المدن قد قصّت علينا قصتها ، أما الريف فقد بقى ملتزما الصمت والتحفظ ، وهما يخيمان عليه دائما . ومبلغ علمنا بالريف هو ما جاءنا فى أكثره عن طريق رجال المدن الذين كانوا ينظرون الى أهل الريف من الفلاحين فى بعض الأحيان نظر الاستهزاء والسخرية كما هى الحال فى الكوميديا التى

كتبت عن الطبقة المتوسطة من اليونان والرومان ، وفى بعض الأحيـان الأخرى قرينا مضادا يكشف بوضوح عن شرور الحياة فى المدن وآثامها كما هى الحال فى مؤلفات فلاسفة الأخلاق والهجائين وشعراء الرعاة. ومن وقت الى آخر — ولو أن هذا ليس بالكثير — يعرض رجال المـدن من أمثال پلينى الأصغر فى رسائله وديو ذو الفم الذهبى فى بعض قطع من خطبه الى موضوع الريف ومظهره العملى بالنسبة اليهم أنفسهم باعتباره موردا من مواردالدخل لهم . أما صوت سكان الريف أنفسهم فقلما نسـمع له أى صدى . وبعد أن كتب هيسيود قصيدته ، بقى الريف على صمته الرهيب أجيالا عديدة ، صمت يقطعه من وقت لآخر صوت الشكوى من قسوة الحياة فيه وسوء معاملة المدن والحكومة للريف — تلك الحكومة التى كانت ترى أنهـا تمثلهم . وهـذه الشكايات محفوظة فى بعض الوثائق وأكثرها على أوراق البردى المصرى وبعضها منقوش على الأحجـار فى أجزاء أخرى من العالم القديم ؛ فمن طريق غير مباشر نسمع عن سكان الريف ومركزهم الاقتصادى مما يترددفى ثنايا الوثائق الرسمية والسجلات الخاصة — من قوانين ومراسيم وفتاوى كان يصدرها الأباطرة والموظفون التابعون لحكومة الامبراطور وأوامر للسلطات البلدية وقرارات مجالس الشيوخ المحلية فى البلدان ثم قرارات الهيئات النيابية من سكان الريف أنفسهم ، والأحكام الصـادرة فى القضايا ومختلف المعاملات التجـارية والمالية . وهذه المعلومات هى فى الحق ضئيلة يكتنف تناولها وبحثها صعوبة كبـيرة . وعلى ذلك ليس من الغريب أنه فى أكثر المؤلفات الحديثـة عن الامبراطورية الرومانية لا نجد أى اشارة الى الريف وسكانه على الاطلاق ، وان وجدت اليهما اشارة فانما هى عابرة يصادفها الانسان من وقت لآخر فيما يتصل بأحداث معينة فى حياة الدولة أو المدن . ومع ذلك فموضوع الأحوال المعيشية السـائدة فى الريف لا يقل فى أهميتـه وحيويته عن الموضوعات المتصلة بالدولة والمدن . وبدون بحث هـذا الموضوع بحثا دقيقا لا نستطيع مطلقا فهم التطور الاجتماعى والاقتصادى للعالم القديم .

وهنا يتجلى خطر التعميم وتناول سكان الريف كوحدة واحدة ، الى حد يفوق غيره فى النواحى الأخرى من الأبحاث التاريخية .فالحياة فى الريف كانت تتفاوت فى مختلف أجزاء العالم القديم بحسب الظروف الاقتصادية والاجتماعية السائدة فيها . وحتى عندما ضاع الاستقلال السياسى لهذه الأقسام المتباينة وضمت الى حظيرة الامبراطورية الرومانية ، بقيت على حالها القديم محتفظة باشكالها العديدة المتغايرة . فالطبقات العليا فى الولايات الرومانية وسكان المدن بوجه عام تأثروا الى حد ما بالطابع الرومانى واليونانى ؛ والحياة المتمدينة اتخذت اشكالا وأوضاعا مشتركة فى طول الامبراطورية وعرضها . وبقيت مرافق النشاط الفكرى وميادين الأعمال التجارية متسقة ، يؤلف بينها طابع الوحدة الى حد ما فى مختلف الولايات ؛ أما الحياة فى الريف ، أى الحياة فى القرى والمزارع ، فلم تتأثر الا فى القليل النادر بما كان يجرى حولها من مظاهر التنسيق والتوحيد . وبينما كان التأثر بالحضارة الرومانية أو الحضارة اليونانية يلازمه التوفيق والنجاح فى المدن فان الريف لم يسارع حتى الى تقبل اللغتين الرسميتين فى الامبراطورية ، فكان الريف يستخدم هاتين اللغتين فى معاملاته مع المدن والهيئات الادارية ولكن الفلاحين كانوا لا يزالون يتحدثون فيما بينهم وفى مساكنهم وقراهم بلغاتهم القومية . وهذه الحقيقة معروفة جيدا وليست فى حاجة الى اثبات ؛ كان الفلاحون الفريجيون والجلاتيون فى آسيا الصغرى يتحدثون بلغاتهم الخاصة فى زمن الرسول بولس وبعده ، وكذلك فعل البربر فى أفريقيا ، والكلتيون فى ايطاليا والغال ، والايبيريون والكلتيون الايبيريون فى اسبانيا ، والألمان فى حوض الرين ، والتراقيون والالليريون فى شبه جزيرة البلقان ، والفلاحون فى مصر ومئات القبائل من ساميه وغير ساميه ، الضاربين فى بقاع آسيا الصغرى وسوريا — وهم الآراميون والفينيقيون واليهود والأعراب والكلدانيون من ناحية ثم الليديون والفريجيون والكيريون والپافلاجونيون والكاپادوكيون والارمن والليكيون وغيرهم من الناحية الأخرى [1] . فكل هؤلاء

احتفظوا كذلك فى حرص شديد بعقائدهم الدينية القومية ، وقد تتخذ آلهتهم والاهاتهم أشكالا وصورا وأسماء يونانية — رومانية ولكن هذه الأسماء والأشكال ان هى الا ثمرة للحضارة اليونانية الرومانية ، وعلى ذلك كان لزاما عليها أن تكون يونانية رومانية فى طابعها نظرا لأن حفارى النقوش والنحاتين والرسامين تلقوا تعليمهم فى مدارس يونانية رومانية ولم يكن تحت تصرفهم أى لغة مكتوبة أو أى اشكال مفهومة لدى الجميع سوى ما هو يونانى رومانى . ولكن هذه الآلهة التى عبدت بهذه الأسماء الرسمية وهذه الأشكال والصور غير المألوفة ، كانت لا تزال هى الآلهة الأصيلة القديمة لدى الفلاحين على النحو الذى كانوا يتصورونها منذ أجيال سابقة (٢) . والأمر الذى لم يكن له أدنى أهمية أن سكان الريف احتفظوا كذلك بالأوضاع التقليدية لحياتهم الاقتصادية والاجتماعية ، بعاداتهم الخاصة والعامة التى كانت فى بعض الأحيان أقوى سلطانا حتى من التشريع الامبراطورى .

ولا يسعنا فى هذا العرض السريع للتطور الاقتصادى والاجتماعى فى الامبراطورية ، سوى رسم المعالم والخطوط الهامة فى هذا الموضوع كما تعرض لنا فى الوقت الحاضر . وليس من الهين أن نتتبع حتى هذه المعالم : فهى تتناول مسائل تقدم الزراعة بوجه عام وتطور أشكال الملكية العقارية ونظام الأراضى ؛ على انه يجب أن يعالج كل جزء من أجزاء الامبراطورية على حدة .

ولنبدأ بايطاليا وهى التى لنا بها معرفة وثيقة ، تفضل أى جزء آخر من أجزاء الامبراطورية ، وقد بيّنا فى الفصول السابقة أن ايطاليا كانت لا تزال ، على أى حال فى القرن الأول الميلادى والنصف الأول من القرن الثانى ، من أفضل بلاد الامبراطورية زراعة وانتاجا . فالبضائع التى كانت ترد من الولايات ومن البلاد الأجنبية كانت تدفع أثمانها ، الى حد كبير على الأقل ، نبيذا فاخرا كان لا يزال يجرى انتاجه بكميات وافرة فى شتى أرجاء شبه جزيرة ايطاليا ولا سيما فى كمپانيا وفى الشمال . وقد نظم

انتاج النبيذ على أسلوب علمى وعلى قواعد وطرق رأسمالية ليكون القصد الرئيسى منه البيع والتصدير . وكان ثوران بركان ڤسيوڤيوس (Vesuvius) عام ٧٩ ميلادية طامة كبرى بالطبع حتى من وجهة النظر الاقتصادية .والحق ان اندثار المدن المدفونة وعدم اعادة بنائها ، على الرغم من الجهود والاجراءات التى اتخذتها الحكومة ، لمثل على ما انتاب كمپانيا من تدهور وانحطاط فى قواها الاقتصادية . ولكن ليس لدينا حقا سند يؤيد الفرض بأن فاجعة سنة ٧٩ أثرت تأثيرا بليغا على المقدرة الانتاجية العامة لهذا الاقليم [٣] . ومع ذلك فكما لاحظنا فى الفصول السابقة ، أصيبت زراعة الكروم والاقتصاد القائم فى ايطاليا على تصدير النبيذ ، بأضرار بليغة من جراء تطور آخر برهن على أنه أشد ايذاء بالبلاد واضرارا بمصالحها ، من أمثال تلك الكوارث الأليمة كثوران بركان ڤسيوڤيوس وأعنى بذلك تحرير الولايات اقتصاديا . وان اضمحلال الصناعة والتجارة فى ايطاليا كان معناه حلول الفقر والفاقة تدريجيا بطوائف البورچوازى من سكان المدن ، وهى كما رأينا الدعامة القوية التى قامت عليها الزراعة الفنية والرأسمالية . وهذا يفسر بوضوح أن عملية تركيز الثروة العقارية فى أيدى كبار رجال المال لم يتوقف فى القرن الثانى بعد الميلاد ، بل على العكس اتسعت هذه العملية على نطاق يزيد عما كان عليه من قبل . ثم استمر التركيز يزداد يوماً بعد يوم ، لا على حساب الفلاحين فحسب بل على حساب « بورچوازى » المدن أيضا .ويمكننا أن نتتبع عملية التركيز هذه حتى فى الأقاليم الفقيرة مثل أراضى ڤيليا (Veleia) وبينيڤنتوم (Beneventum) ، وتاريخ هذه الأراضى كما يبدو فى الوثائق التى تتعلق بالتغذية(*) (alimenta) ان هو على العموم الاتاريخ تركيز بطىء لضياع (fundi) هذه الاقاليم فى أيدى فئة قليلة من ملاك الأراضى، كان أكثرهم من غير المواطنين المقيمين فى أراضى ڤيليا وبينيڤنتوم ، على ان بعضهم كان فيما يبدو ، عتقاء اغنياء [٤] . والمصادر الأدبية التى

(*) انظر الفصل الثامن .

بين أيدينا (جوڤينال على سبيل المثـــال) كانت لاتـــزال فى القرن الثانى تتناول الموضوع الذى ألِفه شعراء القرن الأول وعلماء الأخلاق ؛ وهو طرد صغار ملاك الاراضى من حقولهم التى توارثوها عن آبائهم وذلك على أيدى كبار رجال المال الجشعين ؛ ويتحدث پلينى الأصغر وهو أحد كبار المـــلاك ، فى صراحـــة ووضوح عن استثمار أموالة فى الأراضى ، وعن ضياعه (Latifundia) الواسعة وهى تزداد وتتسع [٥] .

ومن الهيّن تخمين المصدر الذى كان يرد منه رأس المال ليستغل فى الأرض الايطالية . وقد رأينا أن الأرستقراطية القديمة فى روما اندثرت وأصبح أكثر الأراضى التى كانت فى حوزة هذه الارستقراطية فى الولايات ملكا للأباطرة ، أما فى ايطاليا فلم يحتفظ الأباطرة بالضياع المصادرة ، بل وهبوها بسهولة فى اكثر الاحيان لافراد الارستقراطية الجديدة من الموظفين وعمال الدولة . ويمثل « پلينى الأصغر » نموذجا دقيقا لطبقة الأرستقراطية هذه ؛ اذ كان من أسرة غنية ، ولعلها كانت تتألف من كبار ملاك الأراضى ، تنتمى الى الطبقة الأرســـتقراطية فى بلدية كوموم (Comum) ؛ وقد ضاعف هو وغيره من أفراد أسرته ثروتهم التى توارثوها (كما فعل عمه پلينى الاكبر) وذلك بما قاموا به من دور هام فى الوظائف الادارية للدولة: فكانت أول مرحلة تبدأ بتوليهم وظائف المندوبين عن الامبراطور ، مثلهم كمثل پلينى الاكبر ، ثم بعد ذلك يكون شأنهم شأن پلينى الاصغر ، عند قبولهم أعضاء فى مجلس الشيوخ ، فينضوون فى خدمة الدولة والامبراطور ، ويصبحون حكاما على الولايات ومديرين لمختلف المصالح فى السلك الادارى التابع للامبراطور ولاسيما فى مدينة روما . وليس معنى ذلك أن پلينى الأصغر ، ومن كانوا على شاكلته ، قد جمعوا ثرواتهم الطائلة عن طريق نهب الولايات وابتزاز أموالها . ولو ان حالات من مثل هذا النهب كان يتكرر وقوعها من وقت الى آخر فى عهد كل من الفلاڤيين والأنطونينيين ، على أن الحكام الذين اتصفوا بالأمانة لم تتوافر لديهم المرتبات الضخمة فحسب ، بل أتيحت لهم مختلف الفرص لجمع الثراء دون تعدى الحدود

واتنهاك حرمة القانون . وهؤلاء الموظفون الذين انضووا فى خدمة الامبراطور والذين كانوامنأهل ايطاليا (كما هى الحالفى شأن پلينى) ، تطلعوا بالطبع الى البحث عن مورد يطمئنون اليه فى استغلال أموالهم ، وقد هداهم البحث ، مدفوعين الى ذلك بعامل الوطنية والحب لبلادهم ومسوقين باعتبارات كانت تمليها عليهم الادارة الرشيدة ، الى تفضيل استثمار أموالهمفى الأرض الايطالية أو فىارتهان تلك الأرض. وقد أصبح استثمار الأموال فى الأراضى وفى الرهون بدرجة أقل ، أفضل وسيلة للحصول على ربح مضمون ومعقول لرأس المال المستثمر . على أن المثل الأعلى الذى كانت تصبو اليه نفوس الأشراف (nobilitas) فى الامبراطورية لم يزل كما كان آنفا ، يقوم على ضمان دخل ثابت ؛ وهو المطمح الذىجعلته نصب أعينها تلك الطبقة التى يسميها الفرنسيونذوى الدخل وأصحاب الرواتب المحدودة (rentiers) ، وينبغى ألانستهين بعدد الموظفين المنتظمين فى سلك خدمة الامبراطور والذين كانوا منأهل ايطاليا : فهؤلاء كانوا لا يزالون يؤلفون الغالبية العظمى فى البيروقراطية الامبراطورية .

ومع ذلك فان عددا كبيرا من رجال تلك البيروقراطية ومن الطبقة الأرستقراطية فى مجلس الشيوخ كان من أهل الولايات ، وكان ينتمى الى تلك الأرستقراطية الغنية فى مدن أسبانيا وبلاد الغال وأفريقيا فى الغرب وآسيا الصغرى ثم سوريا ، فيما بعد ، من بلاد الشرق وكانت المصالح الاقتصادية لأفراد هذه الطبقة تتركز بالطبع فى ولاياتهم ؛ وجلهم ، ان لم يكن كلهم ، كانوا ملاك الأراضى الأثرياء فى أقاليمهم ؛ ومع ذلك فالكثيرون منهم قد أصبحوا بالتحاقهم بالسلك الادارى فى خدمة الامبراطور ، على اتصال بمدينة روما ولهم بها رباط لعله أوثق من صلتهم بمدينتهم ومسقط رأسهم ، فاتخذوا سكنا لهم فى العاصمة واستثمروا على الأقل جزءا من أموالهم فى الأرض الايطالية ، ولو أن رغبة طبيعية كانت بلا ريب تخالجهم وهى أن يعودوا الى الولايات التى نشأوا فيها لقضاء شيخوختهم فى ربوعها ، محاطين بتقدير بنى وطنهم ومظاهر اعجابهم

وقد يبقى هذا الميل أجيالا ولكنه قد يتوارى سريعا ويصبح الجيل الثانى أو الثالث أكثر استجابة لاستهواء حياة العاصمة وزخرفها ، منه الى الرغبة فى توفير حياة هادئة فى ركن صغير فى احدى الولايات . وفضلا عن ذلك ، فكما أسلفنا القول ، أبدى الأباطرة الرغبة فى أن يكون للأسر المنتمية لطبقة مجلس الشيوخ سكن ومقام فى ايطاليا ، كما أصر الأباطرة على أن تستثمر هذه الأسر جانبا من أموالها فى الأراضى الايطالية .

وغير الطبقة الارستقراطية المحيطة بالبلاط الامبراطورى ، نشأ رهط كبير من أثرياء تجار الجملة وأصحاب السفن ومن الموالى المحبين للادخار والذين أعتقهم الامبراطور ، ومن عبيده ومن أغنياء رجال المصارف وتجار التجزئة فى روما وغيرها من المدن الايطالية التى احتفظت بثرائها ورخائها من أمثال اكويليا ومدن شمال ايطاليا بوجه عام . وعلينا أن نذكر أن روما كانت فى تقدم ونمو مطردين وانها كادت تلعب فى حياة ايطاليا ، ان لم يكن فى حياة الامبراطورية كلها ، نفس الدور الذى تقوم به باريس فى الوقت الحاضر فى حياة فرنسا ، ولندن فى حياة انجلترا . فالكثيرون من أثرياء روما ولدوا فى ايطاليا ، وأكثر هؤلاء قضوا حياتهم فى روما واتخذوا مساكنهم فيها ، فلا عجب أنهم عند البحث عن مورد مضمون لاستغلال أموالهم ، انصرف تفكيرهم أول الأمر نحو الأراضى الايطالية وهى فى متناول أيديهم ، ثم ان ادارتها والاشراف عليها أيسر من ادارة أرض بالولايات .

وتحت ضغط أصحاب رءوس الأموال الكبيرة كان المصير المحتوم على كل من نوعى الاقطاعات الصغيرة التى يمتلكها الفلاحون ، وبوجه خاص فى بقاع من ايطاليا ذات تلال وجبال وهضاب ، ومن الضياع المتوسطة المساحة مما كان فى حوزة أعضاء الطبقة المتوسطة فى المدينة ، أن تتوارى وتندمج فى الضياع الشاسعة (latifundia) التى وقعت فى حوزة الطبقة الأرستقراطية المحيطة بالبلاط الامبراطورى والطبقة « البلوتقراطية » الايطالية . وان قول پلينى الأكبر عن مساوىء تلك الضياع الشاسعة فى حياة ايطاليا الاقتصادية لصادق كل الصدق ؛ وعند

اشارة پلینی الی تلك الضياع الواسعة وما جرته على ايطاليا من خراب ودمار (perdidere Italiam latifundia) ، كان لا يقصـــد بالطبع القضاء على الزراعة التى يزاولها صغار المزارعين فحسب ، بل واختفاء تلك المزارع التى تدار على أسس علمية والتى ابتلعتها الضياع الواسعة التى كانت تدار ، كما سنرى ، على نهج مغاير ؛ وكانت عبارة پلینی حديثـــا شائعـــا مترددا لا ينطبق على عصره فحسب ، بل على الأجيال العـــديدة التالية ، وكان الأباطرة على علم بما يقول پلینی ، وعلى دراية تامة بحقيقة الأمر الذى أجمل تلخيصه . وقد حاول هؤلاء انقاذ ايطاليا بشتى الطرق . فكلوديوس ونيرون والأباطرة الفـــلاڤيون دفعتهم الرغبة الصـــادقة فى المحافظة على صالح الخزانة العامـــة (fiscus) فحاولوا أن يستردوا للدولة الأراضى العـــامة التى استولى عليها أفراد من النـــاس بطريق غير شرعى ثم باعوا هذه الأراضى مجزأة قطعا صغيرة الى فلاحين لا يملكون أرضا [٦] . وسوف يأتى الكلام بعـــد قليل فيما اتخـــذه دوميشيان من اجراءات ، أما نرڤا فقد اشترى مساحات واسعة من الأراضى لتقسيمهـــا بين المعوزين من الغوغاء الذين لا يملكون شيئا من الأرض [٧] . وقـــد عمل تراچان على انقاذ ملاك الأراضى من سكان المدينة ، ولعل قصـــده كان ينطوى كذلك على انقاذ الفلاحين ، باعطائهم قروضـــا بربح طفيف لمساعدتهم على تحســـين أراضيهم والأخـــذ بيدهم لتمكينهم من تعليم أبنائهم ، أو بالأحرى اطعامهم ، وتربية بناتهم الى حد ما . وقد أسس كذلك بعض المستعمرات فى ايطاليا وحرم ارســـال مستعمرين من ايطاليـــا الى الولايات [٨] . اما الاجـــراءات التى اتخـــذها هادريان وانطونينوس وماركوس أوريليوس فسوف نتكلم عنها فى الفصل التالى .

وكانت كل هذه الاجراءات عديمة الجدوى لا طائل تحتها . فالتطور الاقتصادى كان أقوى من جهود الحكومة . والسبب الرئيسى — ألا وهو اطلاق حرية الولاية — لم يكن من المستطاع ابعاد أثره أو حتى جعـــله أقل خطورة على رخاء ايطاليا الاقتصادى . وان التدهور الاقتصـــادى الذى حل بايطاليا شيئا فشيئا وكان سببه الأساسى ما أصابها من اضمحلال صناعى وتجارى ، قد تفاقم بسبب الأزمة التى حلت بالاقتصاد الزراعى فى

الريف وهو القائم على أسس علمية رأسمالية ، وذلك فى نهاية القرن الأول كنتيجة لتزايد انتاج النبيذ الذى لم يكن له مشترون . وقد سبقت الاشارة فى الفصل الثالث الى طلائع هذه الأزمة ومقدماتها . وقد أصبح انتاج النبيذ اذ ذاك ، نتيجة للتطور الطبيعى فى هذا المجال ، من عمل أكثر البلاد التى كانت بالأمس أهم عملاء جنوب ايطاليا — وهى أسبانيا وبلاد الغال وأفريقيا . أما فى الشرق فقد وجد النبيذ الايطالى صعوبة فى منافسة النبيذ الذى كانت تنتجه الجزر اليونانية وآسيا الصغرى وسوريا وفلسطين . على أن الأسواق الوحيدة التى كانت لا تزال مفتحة الأبواب أمام النبيذ الايطالى ، هى ألمانيا وولايات الطونة . ولكن هذه كانت بصفة خاصة أسواقا لشمال ايطاليا ، اذ أنه لم يكن من اليسير شحن النبيذ من موانى الشاطىء الغربى لايطاليا الى الموانىء الواقعة على شواطىء دالماشيا وايستريا . وكان عين هذا المصير ينتظر انتاج زيت الزيتون . وقد أوضحنا آنفا أن أسبانيا أصبحت المنتج الرئيسى للأنواع الجيدة من زيت الزيتون ، وأفريقيا للأصناف الرخيصة منه . وفى الشرق حل محل الزيت الايطالى زيت آسيا الصغرى ونوع فاخر كان يأتى من شاطىء سوريا .

وهذه التطورات التى ذكرنا وصفها فيما سبق بايجاز ، كانت تضم أكثر من انذار يهدد رفاهية ايطاليا الاقتصادية ولا سيما الطبقة الوسطى فى البلاد . بل ان هذه التطورات أقضت مضاجع الدولة بوجه عام ؛ فالعالم القديم لم يسبق له الشكوى من زيادة انتاج المواد الغذائية وبخاصة القمح ، وكما ذكرنا مرارا وتكرارا كانت بلاد اليونان وايطاليا ، بل وآسيا الصغرى ، تعتمد فيما تطلب من حبوب على الممالك التى تنتجها بكميات وفيرة . فبلاد اليونان وآسيا الصغرى كانت تعتمد فى غذائها على ما تجلبه من الروسيا ، أما ايطاليا فموردها صقلية وسردينية وأسبانيا وبلاد الغال وافريقيا ومصر . ولم يكن انتشار زراعة الكروم وأشجار الزيتون فى كل من الغرب والشرق معناه الخراب الاقتصادى لايطاليا فحسب ، بل ربما كان ينجم عنه كذلك قحط فى الحبوب فى أرجاء الامبراطورية . وكانت روما بالطبع آمنة مطمئنة ، فالحبوب الواردة من مصر وتلك التى

تنتجها الأراضى التابعة للامبراطور والأراضى العامة فى صقلية وأفريقيا وبلاد الغال وأسبانيا والتى كان يقدمها المستأجرون كايجار عينى ، كفلت موردا كافيا للعامة المقيمين فى العاصمة وللبلاط الامبراطورى فيها . زد على ذلك أن الأباطرة اتخذوا بعض الاجراءات التحفظية ليكفلوا ضمان القمح الكافى لشعب روما بوجه عام باعطائها حق الأولوية والأفضلية على منتجات بعض الولايات التى تزرع القمح ، وبمعنى آخر بتحريم تصدير القمح من مصر الى أى بلد آخر سوى روما الا فى ظروف استثنائية وأحوال شاذة [٩] . ولكن روما لم تكن غير واحدة من مدن الامبراطورية التى تعتمد فى غذائها على الحبوب المستوردة ؛ ولقد ذكرنا فيما مر حال مدن بلاد اليونان وآسيا الصغرى . فهذه الولايات لم تستطع الاعتماد فى حياتها على ما تستورده من جنوب الروسيا اذ أن انتاج الحبوب فيها كان آخذا فى النقصان وكثير من الحبوب التى كانت تنتج هناك كانت تستهلكها الجيوش الامبراطورية المرابطة فى الشرق. وعلى ذلك فقد تسبب عن زيادة الانتاج فى النبيذ وزيت الزيتون فى كل من الشرق والغرب قيام أزمة دائمة فى الشرق . وأصبح الآن شبح المجاعة يلوح دائما فى الأفق ماثلا أمام ناظر المدن اليونانية : ولعل القارىء يذكر الصورة الرائعة فى رؤيا القديس « يوحنا » التى ثبت الآن أنها تشير الى تفشى المجاعة والقحط فى آسيا الصغرى وذلك من نقش لاتينى يرجع الى عام ٩٣ ميلادية ، كشف عنه حديثا فى أنطاكية من أعمال پيسيديا(*) ، وما كان فى مقدور الحكومة الرومانية أن تسمح بأن يعم القحط الولايات الشرقية . فالثورات على النحو الذى قامت به طبقات العامة فى پروسا (Prusa) فى عصر ڤسپاسيان والتى وصفها ديو (Dio) وهو من أهل پروسا ، كانت خطرا مدلهما ، وعلى ذلك عمل الأباطرة على اتخاذ الوسائل التى تؤدى الى تشجيع انتاج القمح والحد من انتاج النبيذ والزيت .

(*) عثر على هذا النقش فى أثناء القيام بحفائر كان يجريها هناك السير وليام رمزى وبعثة من جامعة ميتشيجان عام ١٩٢٤ .

والمعروف عن هذه الوسائل قليل جدا . ويمكننا أن نستنبط من احدى الاشارات العرضية أن ڤسپاسيان حاول عن طريق غير مباشر تشجيع انتاج الحبوب فى آسيا ، ففى نقش من « كبيرا » (Cibyra) يرجع الى عام ٧٣ ميلادية يأمرمحسن ثرى بتوجيه الأموال التى منحها الى المدينة ، فى الاستغلال فى « أرض تنبت الحبوب » ويوصى هذا المحسن باخطار الامبراطور ومجلس الشيوخ بهذا الاجراء . ويبدو أن هـذا النقش لا يمكن تفسيره الا على أنه دليل على وجود نصيحة على الأقل من جانب مجلس الشيوخ والامبراطور ،موجّهة الى مدن آسيا الصغرى، تحثها على استغلال أموال مؤسساتها فى أراض تغل الحب ؛ بل وأكثر من هذا تدخّل أباطرة ليحولوا بالاكراه دون الاستغلال وجنى الأرباح المحرمة فى أوقات القحط والمجاعات . وفى نقش انطاكيا الذى سبقت الاشارة اليه منذ قليل يتخذ الحاكم من قِبَل دوميشيان اجراءات حاسمة، بل وقاسية (وهذه تذكرنا بما يماثلها من اجراءات اتخذت فى جميع أنحاء أوربا ابان الحرب العظمى الأولى) للقضاء على أمثال هذه الأعمال ولكى يكفل للمدينة قدرا من الحبوب بثمن هين نسبيا [١٠] .

ومهما يكن من أمر ذلك فان من المعروف الذائع أن دوميشيان أصدر أمراً عاما ليشجع على زراعة الحبوب فى الولايات وليساعد المنتجـين للنبيذ فى ايطاليا . ووفقا لهذا القرار لم يكن ليسـمح بزراعة كروم جديدة فى ايطاليا أو فى الولايات . زد على ذلك أن نصف الكروم المزروعة كان يجب اقتلاعها ؛ اننا نعلم أن هذا الاجراء لم ينفذ فى جملته فقد استطاع وفد خاص جاء من آسيا الصغرى ، على رأسه الخطيب المشهور سـكوپيليـانوس (Scopelianus) أن ينقـذ الكروم فى ولايتـه وربما فى الشرق بوجه عام . ومن المحتمل كذلك أن غاليا الجنوبيـة وأسبانيا الجنوبيـة على الأقل ، أعنى ولايتى ناربوننسيس (Narbonensis)

وباينتيكا (Baetica) نجحنا فى الابقاء على كرومهما ، وانا لنعرف أن النبيذ كان يصدر من هذه الأقاليم باستمرار . ولكن من المبالغة أن تتحدث عن اجراء دوميشيان على أنه قد منى بالاخفاق التام؛ اذ يبدو أنه نفذ فى أفريقيا والى حد ما فى ولايات الطونة ، وفى شمال الغال ووسطها ، وفى جزء من أسبانيا . ويشهد على هذه الحقيقة الأمر الذى أصدره پروبوس (Probus) بعد ذلك بنحو مائتى سنة ويقضى برفع الحظر السابق واباحة زراعة الكروم فى أراضى الطونة وبلاد الغال وأسبانيا ، بل حتى فى بريطانيا التى لم يكن لها عهد من قبل بزراعة كروم النبيذ . وفضلا عن ذلك ففى أفريقيا كان قانون مانكيوس (Lex Manciana) المشهور (وهو يرجع الى عصر تراچان) لا يسمح بزراعة كروم جديدة الا لتحل محل كروم قديمة . ولم يرد فى قانون آخر من عصر هادريان أى ذكر للكروم عند الكلام عن طرق الانتفاع بالأراضى البكر والأراضى البور فى شتى أنواع الزراعة (١١) .

ولم تتخذ اجراءات من هذا القبيل لحماية استخراج زيت الزيتون فى ايطاليا ، بل على العكس أطلقت الحرية فى ساحل دالماشيا وأسبانيا وافريقيا لزيادة مقدرتها على انتاج الزيوت ، ونحن نعرف أن هذه الأراضى أصبحت على مضى الزمان المركز الرئيسى لهذه الصناعة فى الامبراطورية . وان أهمية استخراج الزيوت فى أفريقيا وشدة حرص الأباطرة على تحويل البلاد الى أراضى تقوم بها بساتين الزيتون ، لتبدو واضحة جلية من قوانين هادريان التى نشرت فى أفريقيا ومن أجل أفريقيا والمتعلقة بالأراضى البكر والأراضى البور ، كما يدلل على ذلك ماأثبتته أعمال الحفر والتنقيب من أن الجزء الجنوبى الغربى فى البلاد كان فى القرنين الثانى والثالث كأنه بستان شاسع من الزيتون ، يمتد ميلا بعد ميل على طول الشاطىء وفى الداخل (١٢).

لقد أنقذت اجراءات دوميشيان الوقائية زراعة الكروم فى ايطاليا ، على الأقــل الى حد ما ، ولكنها لم توفق فى انقاذ الزراعة التقدمية فى ايطاليا بوجه عام ولا أولئك الذين اضطلعوا بأعبائها وهم ملاك الأراضى الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى . وفى تلك الأزمة التى وقعت فى آخر القــرن الأول كانت الطبقــة الوســطى أول ضحية أصابهــا الضرر ؛ فاضمحلال الصناعة والتجارة وتخلى الأباطرة عن تقديم العون والحماية اللازمة لها ، عجل لها بالخراب والدمار . وفضلا عن ذلك فان العمال ولا سيما الأيدى العاملة من طبقة الرقيق ، التى كانت عمــاد الزراعة القائمة على أسس علمية ، أصبحوا يكبدون نفقة طائلة ، أخذت فى الزيادة يوما بعد يوم ، كما أن صنف العبيد ، وجلهم من البرابرة ، أخــذ يسوء كل يوم ، فلا عجب أن طبقــة « البورچوازى » فى مدن ايطاليا أصبحت غير قادرة على منافسة كبار أصحاب رءوس الأموال فى مدينة روما . على أن ظهور هذه الطبقة الأخيرة كان معناه فى الحق القضاء المبرم على الزراعة القائمة على أسس علمية .

ولا حاجة بنا الى الاسهاب فى التحدث عن هــذه النقطة . فملاك الأراضى من أمثال پلينى الأصغر قد يكونون من خيرة رجال الأعمال وممن أوتوا خبرة ودراية واسعة بادارة شئونهم بوجه عام ، والتعامل فى الأراضى بالبيع والشراء واقراض الأموال ونحو ذلك . ولكن التقدم الزراعى لا يمكن أن يقوم على أكتاف رجال من هذا الطراز ، فهؤلاء لم يستقروا أبدا فى ضياعهم وذلك لأن مشاغلهم فى المدينة كانت تستهويهم وتجذبهم الى أحضانها ؛ كما أنهم لم يعتمدوا كل الاعتماد على ما كان يرد اليهم من دخل مستمد من ضيعة واحدة ، كما كان حال كثير من أفراد طبقة البورچوازى فى المدينة فى سالف الأيام . وكان موقفهم ، كما بينا من قبل ، كموقف أصحاب الدخل والمرتبات وانصرفت رغبتهم

الى تجنب المتاعب على قدر المستطاع ، حتى ولو كان ذلك على حساب دخلهم وايرادهم . وأسلم طريقة للحصول على ايراد طيب وان كان معتدلا ، من الأرض ، هى صرف النظر عن اتباع أسلوب علمى فى زراعتها والاعتماد على العبيد فى ذلك ، فهذا يتطلب قدرا عظيما من الاشراف والعناية الشخصية . وعلى ذلك اتجهوا الى تأجيرها . وكانت هذه الطريقة متبعة من قبل عند كبار ملاك الأراضى فى القرن الأول قبل الميلاد . وقد تجدد هذا الأسلوب بعد القضاء على « بورچوازى » المدينة الذين حلوا فى عصر أغسطس محل ملوك المال فى القرن الأول ، على الأقل فى وسط ايطاليا وشمالها ، والذين كان من بينهم المحاربون القدماء من جيوش عصر الثورات . ونظام التأجير هذا معناه ، بالطبع ، الاقلاع عن الادارة القائمة على أسس علمية والانصراف الى حد ما عن زراعة الكروم . والمستأجرون — وبخاصة اذا كان منهم مستأجرون لآجال طويلة — يندر أن يكون بينهم مزارعون مهرة وبخاصة الحاذقين فى غرس الكروم ، زد على ذلك أنه لما كانت الحبوب قد أصبحت سلعة نادرة فى ايطاليا فزراعتها كانت مجزية بقدر لا يقل عن الأرباح التى تجنى من انتاج الكروم ، كما أنها كانت أقل تعرضا للمخاطر وأقل احتياجا الى العناية الشخصية من أصحاب الأرض والمستأجرين على السواء .

وكانت الصعوبة الكبرى هى فى تدبير المستأجرين ؛ والقول بأن ملاك الأراضى قد وفقوا للحصول على العدد الذى هم فى حاجة اليه ، كما دلت عليه تجارب « پلينى » وبعض الملاحظات التى ذكرها عرضا مارشيالوس (Martial) [١٣] ، كان دائما لغزا يثير حيرة العلماء المحدثين . فان طبقة الفلاحين قد اندثرت فى عصر الجراكيين (Gracchi) ، وان كانت قد زالت تماما فى القرن الأول قبل الميلاد وحلت محلها زمر من العبيد ، فمن أين أتى مستأجرو پلينى ؟ واذا كان القارىء قد

تتبع العرض الذى قدمناه آنفا ، فلا بد أنه قد أدرك أننا لا نستسيغ الآراء السائدة عن اختفاء الفلاحين فى ايطاليا . وقد تناقص عدد الفلاحين بلا ريب فى جنوب ايطاليا عقب حرب الأحلاف ، وكان ذلك بصفة خاصة فى أپوليا (Apulia) وكالابريا (Calabria) وبروتيوم (Bruttium) والى حد ما فى كمپانيا وفى سامنيوم . ولكن أكثر السكان كانوا لا يزالون من الفلاحين فى وسط ايطاليا وفى وادى الپو ، وبعضهم لم يصبحوا بعد ملاكا لاقطاعاتهم وأنصبتهم من الأراضى ، ولكنهم كانوا لا يزالون يسكنون فى أحيائهم (vici) وقراهم (pagi) كمستأجرين وعمال كادحين ، وجدوا سبل العيش على مزارع يملكها « بورچوازى » المدينة . لاجرم أنه كان يستعاض عن الفلاحين بالعبيد فى حدائق الكروم ، ولكن القسم الأكبر من ايطاليا لم يتألف من حدائق الكروم ، بل من الحقول والمزارع التى كان يقوم بفلاحتها مزارعون . ولعل الأمر لا يعدو أنه قد استقر الى جانب السلالة القديمة من الفلاحين بعض من العبيد والموالى الذين أسكنهم ملاك الأراضى وأنزلوهم منزلة المستأجرين فى ضياعهم وانه قد زاد على هذا الوجه عدد الفلاحين . ومع ذلك فقد بقى موضوع ايجاد العدد الكافى من الأيدى العاملة الصالحة لضياع كبار ملاك الأراضى ، أمرا فى غاية الأهمية ، تكتنفه المصاعب الجمة . وفى ايطاليا كان هناك فلاحون على أتم الأهبة لاستئجار الضياع الواسعة ، ولكن يبدو أن عددهم كان محدودا جدا ولا يستطيع اجابة الطلب المتزايد . ثم انهم بصفتهم عمالا كانوا ميالين الى الكسل والاهمال ويشوب عملهم طابع عدم الكفاية ، ومع ذلك وحتى فى مثل هذه الظروف فان كبار أصحاب الأراضى كانوا يفضلون استخدام المستأجرين على الرقيق ؛ فپلينى مثلا كان لا ينتفع بالعبيد الا اذا تأزمت الأحوال وفى ظروف الطوارىء وحدها ، فهو يستعين بهم كملاذ أخير . أما العمل الرئيسى فى ضياعه فكان يكله

الى المستأجرين . وفى الحق لن يلق هـذا القول قبولا عند هيتـلاند (Heitland) ، فهو يرى أن أكثر المستأجرين كانوا مشرفين من نوع ما ، قد وكل اليهم مراقبة العمل الذى يؤديه العبيد الذين يقدمهم صاحب الأرض . ولكن يبدو فيما لدينا من مصادر أنه لاتوجد أية دلائل على أن تأجير قطع من الأرض الى مستأجرين والحاق ثبت يشتمل على بعض العبيد ، كان مظهرا عاديا واجراء مألوفا فى القرن الثانى من الميـلاد . ولا ريب أن پلينى كان يعتبر مستأجريه (coloni) لا كوسـطاء بل كحراث للأرض يقومون بالجزء الرئيسى من العمل الذى تتطلبه القطع المؤجرة اليهم . ولسنا ننكر أن المستأجر الذى يحالفه التوفيق قد يشترى عبدا أو عبدين ليعاوناه فى عمله وان بعض القطع كانت تؤجر ومعها ثبت يشتمل على منزل وماشية وآلات زراعية وعلى عبيد ، وان تاجر الريف (mercante di campagna) الحـديث لهـو مثـل كان مألوفا جدا فى العالم القديم . ولكن وجود هذا الطراز فى ايطاليا الحديثة ليس معناه أن ايطاليا الحديثة ليس فيها فلاحون (١٤) .

وعلى ذلك فلزام علينا أن نفترض أنه فى القرن الثانى كان فى ايطاليا طبقة كبيرة من الفلاحين ، أكثرهم من المستأجرين ؛ ومن هؤلاء كان يتألف سكان القرى (pagi) والدساكر ، أو الأحياء (vici) اذا قارناها بالمدن؛ وهم الريفيون (vicani) والقرويون (pagani) اذا قارناهم بمن يقيمون داخل الأسوار (intramurani) ، وان الأوصاف التى ساقها سـتاتيوس (Statius) ومارشـيالوس (Martial) والخصائص التى ذكرها پلينى لتبين أن هؤلاء السكان من أهل الريف فى ايطاليا كانوا يؤلفون طبقة دنيا ذليلة ، وأن حالة هذه الطبقة فى القرن الثانى لم تكن تختلف عن حالة المستأجرين (coloni) فى عصر متأخر أو عن حالة رقيق الأرض فى العصور الوسطى فى شتى أرجاء أوربا . ويجوز لنا مثلا أن

نستعين بالاشارات الواردة فى مارشيالوس لتوضيح ما يقابلها من مناظر منقوشة على الأثر القائم فى ايجل (Igel) على مقربة من مدينة تريف (Trèves) وهو يرجع الى القرن الثالث بعد الميلاد ، وما صور منها على بعض الفسيفساء فى أفريقيا فى القرن الرابع . ولا ريب عندى فى أن هذا الاتجاه لم يكن حديث عهد ، وانى مقتنع أن المستأجرين من پمپيى كان على الأقل مسلكهم نحو مولاهم وولى نعمتهم يماثل مسلك المستأجرين من حاميهم وهو ذلك المحامى الذى كان صديقا لمارشيالوس .

على أن وجود رجال من الفلاحين يؤلفون طبقة السكان فى ايطاليا ليس من وجهة النظر الاقتصادية مظهرا شيقا جدا فى القرن الثانى : فليس هناك عصر من عصور التطور فى ايطاليا لم يوجد فيه فلاحون يؤلفون طبقة السكان . والحقيقة التى تسترعى الانتباه هى أن الفلاحين لم يظهروا بعد بمظهر ملاك الأراضى الأحرار كما كانوا حتى ذلك الحين . وانما أصبحوا مستأجرين تابعين لكبار ملاك الأراضى . وقد مثلوا بوصفهم هذا دورا بارزا أو بالأحرى الدور الرئيسى فى الحياة الزراعية فى ايطاليا . والنوع الغالب فى الزراعة اذ ذاك ليس المزرعة ذات المساحة المتوسطة التى تدار على أسس علمية وليس الضيعة الشاسعة التى يكدح فيها آلاف من العبيد المكبلين بالأغلال ، وانما عاد الأمر الى قطع من الأراضى اختص بها الفلاحون كما كان سائدا فى ايطاليا فى العصر السابق على تطور الرأسمالية. والفرق بين ذلك العصر وبين القرن الثانى بعد الميلاد هو أن تلك القطع من الأراضى التى اختص بها الفلاحون قد أصبحت اذ ذاك مملوكة لسيد لا يسكن فيها ، على حين كان المستأجر لها هو الذى يفلح الأرض . وليس معنى ذلك أن المزارع المتوسطة المساحة والضياع الواسعة التى يقوم العبيد بفلاحتها قد اختفت تماما ، فالذائع المعروف لنا جميعا أن شيئا من ذلك لم يقع . ولكن هذه الأساليب الزراعية أخذت تختفى ويعتريها

الاهمال على مر الزمان وبقيت مجرد تراث لا يمثل الحالة السائدة فى ايطاليا كبلد زراعى كما كانت تمثلها فى عصر ڤارو (Varro) بل وفى عصر كولوميلا (Columella) وكما كان نظام الفلاحين الأحرار يمثلها فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد (١٥) .

ومن الجلى اذا ، أنه كان يوجد فى ايطاليا عـدد كبير من سكان الريف ، يؤلفون من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية طبقة دون طبقة ملاك الأراضى الذين كانوا فى العادة متخذين من مدينة روما أو غيرها من المدن الايطالية مستقرا ومقاما لهم؛ وبالطبع لم يكن هناك فارق من الناحية السياسية : فكل سكان ايطاليـا كانوا من المواطنين الرومان وينتمون جميعا الى هذا الفريق أو غيره من الرومان الأحرار المرتبطين باحـدى المدن . ولم يكن فى ايطاليا تفاوت بين المواطنين فى حقوقهم السياسية ، فيما عدا الجزء الشمالى من ايطاليا حيث كان كثير من القبائل الألبية ملحقا بحسب الاصطلاح الرومانى ، بالمدن الايطالية (وهى بريكسيا (Brixia) وبرجوموم (Bergomum) وكوموم (Comum) ، وتريدنتوم (Tridentum) وترجسـته (Tergeste) ، ولعل اكويليا (Aquileia) كذلك) ومعنى ذلك أن هـذه القبائل لم تشارك البلدان التى كانت ملحقة بها فى التمتع بالحرية المدنية (١٦). ومع ذلك فمن الناحية العملية كان سكان الدساكر والقرى ، وهم فى ذلك أشبه بطغام المدن ، يعتبرون فى الدرك الأسفل بالنسبة الى ملاك الأراضى الذين يعيشون فى المدن ، وعلى ذلك فعندما أصبح « قروى » عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ (decurio) فى بلدة سـولمو (Sulmo) التى تسكنها قبيـلة الپايلينى (Paeligni) ، اعتبر هذا الاجراء حدثا فريدا جديرا بالتنويه(*) ، ولم يكن هناك فرق

(*) المحيط فى النقوش اللاتينية (Corpus Inscriptionum Latinarum) جزء ٩ رقم ٣٠٨٨ ؛ ديسئاو : النقوش اللاتينية المختارة رقم ٦٥٣١ Dessau : Inscriptiones Latinae Selectae)

شاسع من الناحيـة الاجتماعيـة بين القرويين (pagani) والريفيين (vicani) فى تلك القبائل الملحقة « نسبة » الى شمال ايطاليا وبين هذه الطبقات عينها فى الأجزاء الأخرى من شبه الجزيرة [١٧] .

واذا اتجهنا شطر الولايات ، وجـدنا أن الأدلة المتعلقـة بنظامها الاجتماعى ، بل وأكثر من ذلك ما يتعلق منها بنظـم الأراضى وطـرق استغلالها غير موزعة توزيعا عادلا ألبتة ، فلدينا أخبار وافية عن بعض الولايات (وهى مصر وأفريقيا وآسيا) بينما لا نكاد نعرف شيئا عن البعض الآخر . ومع ذلك فمن الضرورى أن نستعرض الحالة فى أهـم الولايات الرومانية جميعها من وجهتى النظر الاجتماعية والاقتصادية . على أن مثل هذا العرض الشامل لأحوال الامبراطورية الرومانية لم يحاوله أحد من قبل ، ولم يتعرض أحد الا فى القليل النادر ، لأحوال الولايات فردية ومعالجة شئونها ، مع أن المظهر السياسى الذى صاحب تطورها من حيث بناء المدن ونشأتها بالتدريج ثم تحول القبائل والعشائر والقرى (pagi) والدساكر (vici) فيها الى مناطق اتخذت من المدينة قصبة لها ، يديرها موظفون جعلوا من المدينة مستقرا ومقاما لهـم — كل هـذا قد كثر التصدى له بين حين وآخر . ومن بين المظاهر والأوضاع التى وضح فيها العداء واستحكمت حلقاته بين الحضر والريف كان للعلاقات بين مجتمع الريف (Gaugemeinde) وبين مجتمع الحضر (Stadtgemeinde) بعض الدلالة والأهمية بالطبع فى هذا البحث الذى نتناوله بصفة خاصة .

ولنبدأ بصقلية وسردينيا وقورصقة . وقد تبين فى الفصول السابقـة أن صقلية طوال عصر الجمهورية المتأخر وصدر الامبراطورية ، فيما عدا فترة قصيرة خلال المراحل الأخيرة من الحروب الأهليـة ، كانت لا تزال مخزنا للغلال تتوفر على تصدير كميات كبيرة من الحبوب الى روما . ويشهد بذلك استرابون والاشارات المتناثرة التى تنتمى الى عصر متأخر ،

فهى تقدم لنا برهانا حاسما لا يُرد فى هذا الصدد . وعلينا الآن أن نبحث عما كانت عليه المظاهر الأساسية للنظام الاجتماعى والاقتصادى السائد فى تلك الجزيرة فى أثناء العصر الأول من الامبراطورية اذا قارناه بالعصر الجمهورى [١٨] .

ومن العسير أن نصدق أن صقلية ، مثلها فى ذلك مثل بلاد اليونان وايطاليا ، كانت مقسمة بأكملها الى مناطق وفى كل منطقة مدينة ، وجلى أن الجزء الفينيقى من الجزيرة والأقاليم الشاسعة فى داخلها لم تكن منظمة على هذا الوجه فى عهد السيطرة الفينيقية واليونانية ، ولم يحاول الرومان اطلاقا بناء المدن على نطاق شامل فى صقلية . فلم يتم تأسيس مدينة واحدة على أيديهم ، بل ولم يحاولوا احياء المدن اليونانية المضمحلة وبعثها الى شأنهـا الأول . وفى القسم الفينيقى حافظـوا حتى على تلك المؤسـسة الغريبة — أعنى معبد ڤينوس الذى يحمل الطابع الأسيوى فى ايركس (Eryx) وما يلحق به من عدد عظيم من رقيق الآلهة ومن أراض شاسعة. وان الصورة التى رسمها شيشرون لهذه الجزيرة لتبين أن روما قسمت المدن اليونانيـة بها الى مراتب وطبقات عديدة بحسب موقفها من روما ودرجـة ولائها لها ، ثم ان روما أظهرت حرصا شـديدا على الاحتفاظ بالأراضى العامة التى لم تلحق بمدينـة أو بأخرى ، سواء أكانت واقعة فى المنطقة الفينيقية أم اليونانية ، بل جعلتها حقلا عاما مملوكا للشعب الرومانى (ager publicus populi Romani) ليتولى قضاة الاحصاء عند الرومان تأجيره الى المواطنين من الرومان والى سكان الاقليم .

أما الأرض التى كانت داخلة فى نطاق المدن (اذا استثنينا مدنا قليلة كانت معفاة من ضريبة الأرض)(*) فكانت تقدم عشر المحصول للخزانة

(*) ولعل الارض العامة كذلك لم تكن تدفع المشور .

الرومانية ، وكانت جباية هذه العشور ينظمها قانون أصدره الملك هيرو الثانى ولم يتناوله الحكام الجدد بأى تغيير . وكانت الأرض فى هذه المناطق فى أيدى طبقة «البورچوازى» فى المدينة وهم الذين أطلق عليهم شيشرون اسم أصحاب الحيازة أو دافعى العشور من الفلاحين : aratores أو (possessores) (*) (γεωργόι) ، وكان عدد ملاك الأراضى قليلا نسبيا ، حتى بما فيهم أولئك الذين كانوا يستأجرون الأراضى الصالحة للزراعة من الحكومة الرومانية (اذ كان يتراوح عددهم بين اثنى عشر ألفا وثلاثة عشر ألفا) ، وبقيت مساحات شاسعة من الأراضى خارج نطاق المدن فى أيدى الأثرياء الذين احتفظوا بقطعان كبيرة من الماشية عليها . ويبدو أن هذه المساحات من الأراضى لم تكن ملكا خاصا للعظماء من الرومان ، ولعلهم كانوا يستأجرونها من الدولة . أما الأيدى العاملة فى فلاحة الأرض ورعى الماشية فلعلها كانت تجىء من بين العبيد والأحرار (يقدمهم صغار المستأجرين) للعمل فى الحقول ، أما فى المراعى فتكاد تكون الأيدى العاملة كلها من العبيد .

وقد استطاعت صقلية أن تنهض بسرعة من عثرتها بعد أعمال التخريب والتدمير الناجمة عن حروب العبيد . ويبدو أن « بورچوازى » المدن لم يتأثروا بهذه الحروب : ففى عصر شيشرون كانت هذه الطبقة لا تزال وفيرة العدد وذات نفوذ وتتمتع بالرفاهية والرخاء ، ثم طرأ تغيير على هذه الأحوال خلال الحرب الأهلية فكانت صقلية مسرحا تمثل عليه فصل من أروع فصول هذه الحرب ألا وهو الكفاح بين سكستوس پمپى (Sextus Pompey) واكتاڤيان (Octavian) ، ذاك الكفاح الذى دام سنين . كان پمپى يستمد أهم عون وتأييد من العبيد ، ومن الطبيعى أن نفترض أنه

(*) (arator) هى الكلمة المفردة ، ومعناها فى لغة القانون الرومانى من يزرع الأرض العامة ، على ان يدفع عنها عشر المحصول . (المترجم)

قد ضحى فى سبيلهم بمصالح « بورچوازى » المدن . ومهما يكن من أمر ذلك فان الحقيقة التى لا مراء فيها أنه بعد أن تم النصر لاكتاڤيان لم يكن فى وسعه ولا مما يرغب فيه أن يبقى على منحة الرعوية الرومانية لكل صقلية على النحو الذى اقترحه قيصر ونفذه انطونيوس « فكل صقلية » كان بالطبع ينطوى على معنى يضم شمل المواطنين فى المدن اليونانية ، أى طبقة ملاك الأراضى المعروفين بدافعى العشور ، وقد طرح أغسطس هذه المنحة وراءه ظهريا عندما كان يعيد تنظيم الدولة الرومانية ، ولعل السبب فى ذلك أن هذه المنحة لم تكن ذات بال ، فبورچوازى المدن ممن كانوا من أصل يونانى ، قد هلك الكثيرون منهم وأصابهم الدمار من جراء الحرب الأهلية . على أن هذا الدمار الذى لحق بهم يفسر كذلك مسلكه ازاء المدن الصقلية ذات الأهمية القصوى فقد دعمها بفريق من المستعمرين الرومان ، واختص بذلك المدن التى كانت مرافىء رئيسية لتصدير القمح والصوف والكبريت ، كما تفسر منحه حقوق البلدية (municipium) أو المستعمرة اللاتينية لعدد قليل من المدن التى كانت فى أغلب الظن تحوى جاليات كبيرة تضم المهاجرين من ايطاليا ، ولكن على النقيض من السياسة التى سار عليها الرومان فى أسبانيا وبلاد الغال وأراضى الطونة وأفريقيا ، لم يحاول أغسطس أو خلفاؤه الذين أتوا من بعده مباشرة ، اعادة الحياة الحضرية سيرتها الأولى وبعث الحياة فى بورچوازى المدن فى صقلية . فالكثرة الغالبة من المدائن (civitates) والبلدان (oppida) فرض عليها دفع جزية (stipendium) وضريبة عن الأرض وربما كان على سكانها كذلك دفع ضريبة شخصية هى ضريبة الرأس ، وبذلك أنزلوا أحط منزلة بين المدن التى منحت حقوق البلدية . ومن المحتمل أنه كان هناك سببان مسوغان ادخال طبقة المدائن التى ضربت عليها الجزية (civitates stipendiariae)

فى صقليــة وهــذا يعنى اسـقاط نظـام العشــور (decumae) وعدم الأخذ بجباية تلك الضريبة النوعية ، نظرا لأن الجزية (stipendium) كانت تدفع نقدا ، وكان السبب الأول يتلخص فى أن نظام العشور الذى كان يقوم على وجود طبقة من ملاك الأراضى ينعمون بالرخاء ، لم يعد مجزيا بعد ذلك ، نظرا لأن هذه الطبقة قد حــل بها الخراب واعتراها الاعياء . أما السبب الثانى فهو أن الدور الرئيسى فى الأراضى التى تدخل فى نطاق المدائن الحرة (civitates) كان فى أغلب الظن يقوم به اذ ذاك السكان الأصليون لا الاغريق وان بعض أهالى البلاد هؤلاء لم يكونوا أهلا لحياة الحضر . ولسوء الحظ جاءت الأدلة التى بين أيدينا عن تلك المدائن الدافعة للجزية (civitates stipendiariae) وعن البلدان (oppida) قليــــلة جدا . ولا تحمل كلمــــة مدينـــــة (civitas) حتما معنى جماعة تسكن فى مدينة ، فقد تدل على مجموعة مختلطة من القرى أو تشير الى منطقة تملكها قبيلة [١٩].

وعلى الرغم مما أصاب « بورچوازى » المدن من انهيار ، فان صقلية بقيت قطرا توافرت له عناصر النجاح ، وقد توسعت بعض المدن (مثل ميســانا (Messana) ، وتاورومنيـــوم (Tauromenium) فى زراعة الكروم حتى ازدهرت فيها ، الا أن البلاد بوجه عام بقيت ، كما قلنا ، أرضا تقوم بها حقول الغلال والمراعى ، ويبدو كما لو أن هــذه الحالة قد حرص الأباطرة على ابقائها عن قصد على ما هى عليه ، وهم اذ يسمحون لبعض المدن بزراعة الكروم وأشجار الفاكهة ، الا أنهم رغبوا فى أن يكون الجزء الأكبر من صقلية حقولا تنمو فيها الغلال ، على حين بقيت الجبال بالطبع موطن الرعاة ؛ ولعل هذا هو السبب الذى من أجله امتنعوا عن انتهاج سياسة فى صقلية من شأنها بناء المدن فى هــذه الجزيرة ، وأبقوا الأهلين من السكان على حالتهم التى فطروا عليها ؛

لقد كانوا فى حاجة الى أن تكون الجزيرة مخزن « شونة » غلال لايطاليا تستمد منها ما تريد ؛ ولم يكن رائدهم الأسمى تقدم البلاد ورفاهيتها العامة . ولهذا السبب عينه احتفظت الدولة بمساحات كبيرة من الأراضى فى أيديها ؛ وفى عصر دوميشيان وتراچان كان فى صقلية ، كما هو فى بايتيكا (Baetica) ادارة خاصة بالأراضى العامة كانت تسمى ادارة « الغلال العامة » (frumentum mancipale) خصصت للاشراف على الغلال التى استولت عليها الدولة ممن استأجروا أراضيها [٢٠] . ويرجع الى نفس هذا السبب كذلك نمو الضياع الواسعة فى الجزيرة وما سار بازائه من زيادة فى أراضى الامبراطور . وقد تكلمنا عن الأراضى الشاسعة التى كان يملكها أجريبا (Agrippa) فى صقلية . وكثير من أسماء الأماكن القديمة المدونة فى كتب الطواف والاسفار مقتبسة من أسماء الأسر الرومانية ، وذلك دليل على أن أجريبا لم يكن هو المالك الوحيد لمساحات شاسعة من أراضى هذه الولاية . وان اشتعال الثورة فى زمن جاليينوس (Gallienus) وهى ثورة لعلها من تدبير الفلاحين — وقد كانت أمثال هذه الثورات طابعا ميز القرن الثالث بوجه عام — ليدل على أن ازدياد الضياع الواسعة لم يقف خلال القرنين الأول والثانى من الميلاد [٢١] .

وخلاصة القول أن صقلية فى القرنين الأول والثانى كانت بلدا يحتوى على بضع مدن توافرت لها أسباب الرخاء ، آهلة الى حد كبير بسكان من المستعمرين الرومان ، كما كانت تشتمل على عشرات من المدائن الحرة (civitates) ، كان البعض منها لا يزال محتفظا بالأوضاع الظاهرية من حياة المدن ، على حين كان البعض الآخر مجرد مجموعات من القرى يسكنها آهل البلاد الأصليون . وكلا النوعين الأخيرين كان لهما على وجه التأكيد طابع ريفى صميم : اذ كانا يتألفان من جماعات من الفلاحين والرعاة .

وكانت ضياع الأمة الرومانيـــة وما كان منها ملكا للأباطرة يدار فى أغلب الظن على نفس النهج الذى كان متبعا فى ادارة الضياع الواسعة فى الولايات الأخرى . فكانت تؤجر الى متعهدين (ملتزمين) وكان يفلحها مستأجرون. وفى الضياع الواسعة التى كانت ملكا لبعض الأثرياء من ملاك الأراضى كان الرعى فى أغلب الظن أهم مصدر للـــدخل ، ويشرف على رعـــاية القطعان عدد كبير من العبيد كما كان الحال فى القرن الثانى قبل الميلاد . وعلى ذلك فأباطرة الرومان حالفهم النجح فى الاحتفاظ بصقلية كمخزن للغلال للأمة الرومانيـــة وبلدا يزخر بالحقول والمراعى ، يتخللهـــا بعض المناطق كأنها واحات ازدهرت فيها حياة اقتصادية كانت أكثر تقدما مما حولها .

وتنطبق هذه الصورة نفسها على ولاية سردينيا التى كانت من قبل مخزنا لتموين قرطاجة بالغلال ، وقد عملت تلك المدينة التى كانت متحكمة فى مصائر الجزيرة ، على أن تبقى سردينيا على هذا الوضع ، بما وسعها من وسائل مفتعلة وأساليب غير طبيعية ، ثم بقيت سردينيا على طول الزمن مخزنا للغلال لتموين روما وايطاليا ولم تتقدم الحيـــاة الحضرية فيها الا بخطى وئيدة فى ظل الادارة الرومانية ، سواء فى عصر الجمهـــورية أو الامبراطورية . وأهم مدينتين فى الجزيرة كانتا كاراليس (Caralis) وتوريس (Turris) ؛ وكلتاهما كانتـــا ميناءين كبيرين ، تصـــدر منهمـــا الغلال التى تنتجها الجزيرة ، والمعادن التى تستخرج منها ، وكانت الأولى تتمتع بحقوق البلديات (municipium) أما الأخرى فهى مستعمرة استقر فيها مهاجرون من الرومان . وكان النظام القبلى هو السائد فى الداخل حتى فى عصر الامبراطورية ، ولم تتقدم القبائل نحو الأخذ بأسباب الحياة الحضرية السائدة فى المدن . ولعل بعض هـــذه القبائل قد كون وحدات ادارية على شكل مدائن حرة (civitates) بينما كان البعض الآخر يعيش ، فيما يبـــدو ، فى الضياع الواسعة سواء منها ما كان ملكا للدولة أو للامبراطور أو للأفراد . وكانوا يقومون بزراعة هذه الضياع

كمستأجرين بلغت منزلتهم درجة وسطا بين الأحرار والأرقاء ، وكان عليهم العناية بقطعان سادتهم . وقد ذكرنا آنفا الضياع الواسعة التى كانت تملكها « اكتى » (Acte) عشيقة نيرون : ويبدو أن هذه الضياع كانت مثلا للحالة التى كان عليها الكيان الاقتصادى فى تلك البلاد . وعلى هذا النحو من استعمار لبعض المدن ومن فرض الخضوع على الأهلين ، أصبحت الجزيرة ، مثلها فى ذلك مثل صقلية ، مطبوعة بالطابع الرومانى — قاطبة فى المدن وعلى نحو طفيف فى الريف .

أما قورصقة فمعلوماتنا عنها تكاد تبلغ درجة من التفاهة ؛ لقد بقيت منطقة غابات ومراع ، كما كانت منذ القدم ، ولم تبذل الحكومة الرومانية أى جهد فى سبيل نشر الحضارة فى هذه الولاية ومساعدة الحياة الحضرية فيها على النهوض والتقدم (٢٢).

وكانت أسبانيا تعتبر دائما معقل الحضارة لكل ما هو رومانى وأكثر الولايات فى الغرب اصطباغا بالطابع الرومانى . وفضلا عن هذه الحقيقة — وهى أن البلاد لا تزال تتكلم لغة مشتقة من اللاتينية وان كانت فى الواقع أبعد عن اللاتينية من لغة رومانيا ، وهى لسان أحدث ولاية فى الامبراطورية وأقصرها عمرا — فان حماة ذلك الرأى والمدافعين عنه يشيرون الى أن أسبانيا كانت أقدم ولاية تابعة لروما (بعد صقلية وسردينيا وقورصقة) وان الرومان قد صبغوها تماما بالصبغة الحضرية فمنح فسپاسيان الحقوق اللاتينية لجميع القبائل الاسبانية وبلدانها ، ومما لا ريب فيه أن جزءا من أسبانيا كان مطبوعا تماما بالطابع الرومانى وقد اكتملت فيه عناصر التحضر والتمدن ؛ فاقليم بايتيكا (Baetica) كان قطعة من ايطاليا فى أسبانيا ، كما كان اقليم ناربونسيس (Narbonensis) جزءا من ايطاليا فى بلاد الغال . ويتحتم أن يقال مثل هذا (الى حد ما) عن شاطىء تاراكونيسس (Tarraconesis) والأراضى الواطئة فى لوسيتانيا

(Lusitania) ؛ ولا ينبغى أن يكون هـــذا موضع دهشتنا لأن هـــذه الأجزاء من أسبانيا كانت قد أخذت بنصيب موفور من التقدم الثقافى على مدى طويل قبل انضوائها تحت السيطرة الرومانية ؛ واننا لنعرف مبلغ قدم الحضارة الأيبيرية وشدة ارتباطها بالحضارات الأخرى فى حوض البحر المتوسط الجنوبى منذ عصر الملك مينوس ؛ واننا لعلى يقين كذلك بأن كلا من اليونانيين (الفوكيين بالذات) والفينيقيين (وكانوا أول الأمر مهاجرين من صور ثم بعد ذلك جاءوا من قرطاجة) قد استقروا فى جنوب أسبانيا واستحدثوا فيها مدنا وحيـــاة متحضرة فى صـــورتها اليونانية والشرقية [٢٣] . وكان الرومان آخر الوافدين على هذه البلاد . فتسلموا ما وجدوه ولم يضيفوا أول الأمر كثيرا من عند أنفسهم ، ومع ذلك فقد أصبحت أسبانيا ، وبخاصة بايتيكا (Baetica) ، شيئا فشيئا البلد السعيد الذى حظى بالاستعمار الرومانى . وقد وفد ألوف من الايطاليين، فضلا عن الجنود القدماء ، واستقر هؤلاء فى المدن القديمة فى بايتيكا وفى أجـــزاء من تاراكوتنسيس ولوسيتانيا ، ومنذ العصـــور الأولى كانت المستعمرات الرومانية تنشأ هناك ؛ وبهذه الطريقة أصـــبحت الأجـــزاء المتحضرة من البـــلاد والتى عمها الرخاء وشملها التقـــدم الاقتصادى ، مصطبغة بالصبغة الرومانية ، وحل الرومان والايطاليون الذين يتكلمون اللغة اللاتينية محل الطبقات القديمة التى كانت مسيطرة على المدن وعلى الريف . أما سائر سكان المدن — مَن تخلف منهم عن اليونانيين والفينيقيين والايبيريين — فقد اندمجوا فى العناصر التى جاءت بعدهم واتخذوا شيئا فشيئا لغة الطبقة المسيطرة واقتبسوا عاداتها .

وان الأساس فى تقدم أسبانيا الجنوبية والغربية هو استغلال موارد البلاد الطبيعية . فالزراعة وبخاصة زراعة الزيتون ونبات الكتان ، ثم التعدين (من فضة ونحاس وحديد وصفيح ورصاص) كانا منذ أقـــدم

العصور أهم موارد الثروة لدى الأسبان . وهذه الموارد الطبيعية أدت الى قيام صناعة ناهضة وبخاصة صناعة الفولاذ ونسج الملابس الكتانية ، وقد لقى هذا النشاط الاقتصادى وبخاصة صناعة التعدين ، من الرومان ما يعينه على التقدم والنماء ، لأن أسبانيا كانت أغنى اقليم للتعدين فى الامبراطورية الناهضة وأقدمها فى الاستغلال ، وقد بذلت عناية كبيرة كذلك لانتاج زيت الزيتون الفاخر فى هذه البلاد ، وكان زيتها أجـود وأرخص من نظيره فى ايطاليا (٢٤) .

وقد بقيت أسبانيا الجنوبية زمنا طويلا ، بما توافر لها من غنى ورخاء، مهبطا يفد اليه المستعمرون الايطاليون . وقد استغل كثيرون من أصحاب رءوس الأموال الرومانيين من كل من طبقتى أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان ، أموالهم فى أرض أسبانيا ؛ وكانت طبقة «بورچوازى» المدينة تتألف من هؤلاء الوافدين الجدد ومعهم سلالة المهاجرين القدماء وبعض أفراد ممن ينتمون الى الطبقة العليا فيما سبق على عهد الرومان ؛ وكان يوجد من بينهم مديرون ينوبون عن رجال المال الايطاليين فى ادارة أعمالهم وعمال الأباطرة ، فاستقر بعض هؤلاء فى هذه الولاية التى تخلب الألباب وأخذ عددهم يزداد وثروتهم تنمو ، وكانت مصادر دخلهـم الرئيسى مستمدة من الزراعة . ونحن على علم بأن المستعمرين من الرومان فى كل من بايتيكا ولوسيتانيا كانوا يستولون على اقطاعات واسعة على غير المألوف ، ومن هذا يتألف مورد ثروتهم الرئيسى الذى أخذ فى الازدياد حتى بلغ الذروة فى القرن الثانى بعد الميلاد . وان الأطلال الجميلة لمدن بايتيكا ولوسيتانيا وجزء من تاراكونسيس — ولا سيما آثار تاراكو (Tarraco) وايميريتا (Emerita) لتشهد على ماحظيت به من اطراد مزدهر فى التقدم والرخاء . وانه لمن المقبول أن نفترض أن الأساس فى هذه الثروة كان يقوم على استغلال الأرض . ومن الأمثلة الحسنة على

وجود الأثرياء من ملاك الأراضى أسرتا الامبراطورين تراجان وهادريان .
ويحتمل أنه كان يشتغل فى هذه الضياع وفى المعادن أهل البلاد الأصليون
الذين ظلوا على حالهم التى كانوا عليها دائما : فلاحين يكدحون فى حرث
الأرض وعمالا فى المعادن (٢٥).

ومع ذلك ففى أسبانيا الجنوبية كانت هناك مساحات واسعة من
الأرض يمتلكها الأفراد ، فمنذ سنى الغزو الأولى كان الشعب الرومانى
يمتلك ضياعا واسعة ويستحوذ على أكثر مناطق التعدين . وكما حدث
فى أفريقيا وفى آسيا ، نافس أباطرة الأسرة اليولية — الكلودية الشعب
الرومانى فى عظم اتساع أملاكهم التى زادت باطراد بالمصادرات وعن طريق
الارث ، وقد تمت أكبر هذه المصادرات على يد نيرون . وفى القرن الثانى
كانت هذه المصادرات تتمثل فى مساحات شاسعة من الأرض الموروثة ؛
على أن نفس هذا المصير قد حل بأكثر مناطق التعدين (٢٦) . ولا ندرى
كيف كان الأسلوب المتبع فى زراعة هذه الأراضى المتوارثة أو أراضى
الدولة ولكن ربما استطعنا أن نفترض فى عدل وانصاف أن هذا الأسلوب
لم يختلف عما نجده فى أفريقيا وآسيا . ولعل الأرض كانت تؤجر لكبار
المستأجرين وصغارهم وهم المعروفون باسم : conductores ، coloni
والأولون ، وهم من المشتغلين بزراعة الأرض على نطاق واسع ، كانوا
من سكان المدن ؛ أما الآخرون فكانوا يعيشون على الضياع ويباشرون
فلاحة مزارعهم بأيديهم .

وكانت نجاد لوسيتانيا وولاية أسبانيا القريبة من ايطاليا ، ولا سيما
أقاليم الكلتيين الايبيريين (Celt-Iberians) والأستوريين (Asturians)
والكالايكيين (Callaecians) ، أقل اصطباغا بالصبغة الرومانية الى درجة
كبيرة ؛ ولم تستهو هذه الأقاليم المستعمرين الذين جاءوا من ايطاليا ولذا
احتفظت بطابعها القومى وخصائص النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد

فيها . وكان اصطباغها بالصبغة الرومانية ونشر المدنية الحضرية غشاء سطحيا رقيقا يكسوها ، أما شعبها فبقى منقسما الى عشائر وقبائل (gentes) ، ولا يتضمن منح ڤسپاسيان الحقوق اللاتينية لجميع القبائل الساكنة فى وسط أسبانيا وشمالها وغربها ، أنها كانت مصطبغة تماما بالصبغة الرومانية قبل حصولها على هذه المنحة ، وانما معنى هذا أن حياة المدن لم تكن غريبة على النظام الاجتماعى السائد فى أسبانيا قبل سيطرة الرومان عليها ، وانه بسبب الانضواء فى سلك الخدمة العسكرية أصبح جزء من السكان المعتصمين بالمناطق القبلية ، مصطبغا الى حد طفيف بالصبغة الرومانية ، وفى مقدوره أن يؤلف هيئة قابضة على مقاليد الأمور وفق النموذج الرومانى المرعى فى البلديات لتحكم بقية أفراد القبيلة وأجزاء من القبائل الأخرى . وكان القصد من اصلاح ڤسپاسيان تقطيع أوصال الوشائج القومية والقبلية مع ضمان مورد يكفل للاورط الرومانية التى لم تعد تعبأ فى ايطاليا ، خيار الجند الذين كانوا — بوصفهم من سلالة الفرق المساعدة القدامى وأعضاء الارستقراطية الحضرية — مصطبغين بالصبغة الرومانية نوعا ما ، وبمنأى عن عشيرتهم وذويهم بما كانوا متمتعين به من مركز اجتماعى سام . وبينما انضوت فئة منهم فى عداد هيئة مدنية ، فان الباقين استمروا فى الوضع نفسه الذى كانوا عليه من قبل ، يعيشون على نمط الحياة القبلية التى ألفوها ، ويقدمون الجند للالايات والفرق المساعدة من الجيش الرومانى ؛ ولعل ڤسپاسيان قد واجه بهذا التقسيم نقد من أنحوا عليه بالملائمة بأنه هو المسئول عن جعل الجيش الرومانى أعجميا (٢٧) .

والأدلة الطفيفة التى لدينا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى النجاد ، تدل على أنه حتى بعد اصلاح ڤسپاسيان ، بقيت تلك البقاع فى حالة فطرية يسودها الفقر والفاقة مثلما كانت عليه فى عصر كل من

پوليبيوس واسترابون [٢٨] . والقول بأنه منذ اللحظة التى بدأت فيها الحياة الحضرية تتشكل وفق نموذج رومانى ، لم يكن من اليسير أن نجد العدد الكافى من المرشحين للوظائف البلدية ، يدل فى حد ذاته على أن عملية تكوين « بورچوازى » المدينة اعتراها بعض البطء وأن الغالبية العظمى من سكان المناطق الداخلية ، حتى من كان منهم مقيما فى المدن ، كانت تتألف من الفلاحين والرعاة[٢٩]. وفى هذه الأجزاء ، طبقا لما أوضحته حفائر شولتن (Schulten) فى نومانتيا (Numantia) ، لم تبلغ المدن أبدا مرتبة من الرفاهية تدانى ما تميزت به مدن الشاطىء والأراضى الواطئة ، وبقيت هذه المدن أقرب شبها بحالها السابقة ، بلدانا ريفية وان كان بعضهاقد هجر التلال فعلا،مؤثرا سكنى السهول،ولكن الشكاوى التى صدرت عن السابوريين (Saborenses) دلت على أن هذا التحول لم يكن على الدوام عنوانا لليسر والرخاء . وبالطبع كانت حواضر تلك المناطق والأراضى الشاسعة تتقدم بخطى أوسع من سائر البلاد [٣٠] .

أما فيما يتعلق بتنظيم القبائل والعشائر التى كانت تعيش فى كنف الأراضى التابعة لهذه المدن الجديدة أو تسكن فى بعض الأحوال فى أراض خاضعة لهذه القبائل والعشائر نفسها ، فليست لدينا أدلة على ذلك . وان تكرار ذكر السكان (incolae) ثم دافعى الضرائب (contributi) فى محيط أراضى تلك المدن ، بل ان بعض هـؤلاء ممن كانوا يقيمون داخـل أسوار المدينة وجدرانها ويعرفون باسم (intramurani) — ليدل على أن أولئك الذين كانوا متمتعين بالحقـوق اللاتينيـة ومطبوعين الى حد ما بالطابع الرومانى ، كانوا يؤلفون أقلية ضئيلة من سكان أسبانيا ، بينما بقى مركز الآخرين على حاله التى كان عليها قبل «التحضير الشامل» الذى طرأ على البلاد [٣١] .

أما الحياة الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى بلاد الغال فمعلوماتنا

عنها أوفى ، والصور الرائعة التى أخرجها حديثا يراع س. چوليان (C. Julian) ثم ف . كومون (F. Cumont) تبرر الاقتصار على وصف فى غاية الاقتضاب [٣٢] . وعلينا كذلك أن نراعى الدقة الى أقصى حد فى هذا الشأن ، فلا نصطنع التعميم ، فبلاد الغال الناربونية (Gallia Narbonensis) شأنها شأن بايتيكا (Baetica) ، كانت أكثر انطباعا بالطابع الرومانى من اكويتانيا والغال اللوجودونية (Gallia Lugudunensis) (بما فى ذلك بلجيكا (Belgica)) . وكان حظ الولاية الجنوبية من الطابع الرومانى يبلغ مبلغ ما أصاب الجزء الشمالى من ايطاليا ، وكما هى الحال فى بايتيكا كان الدور الرئيسى الغالب فى حياتها تضطلع به المهاجر الرومانية وقد خصصت لها بقاع شاسعة من الأراضى ، على أن بعض هذه المهاجر مثل اريلاتى (Arelate) وناربو (Narbo) قد تطورت حالها حتى أصبحت مدنا غنية من الناحيتين التجارية والصناعية . أما البعض الآخر مثل ڤينا ، فكان عبارة عن مراكز تحيط بها أقاليم شاسعة من الريف ، اشتدت العناية بزراعتها ؛ وفى الأراضى التابعة للڤوكوتيين (Vocontii) والألوبروجيين (Allobroges) وهما أهم قبيلتين فى الولاية ، نحا الاصطباغ بالصبغة الرومانية فيهما نحوا خاصا ، جاء منهاجه مطابقا لما سار عليه الهلڤيتيون (Helvetii) فى الغال الكوماتية (Gallia Comata) فبقيت هذه الأراضى أمدا طويلا جدا أقاليم ريفية بها مدن قليلة ، وانحصر ما جرى من تطور أساسى فى الحياة فى نطاق القرى والدساكر . على أن هذه قد تطورت بالطبع حتى بلغت منزلة المدن النظامية الى حد ما ، تحت تأثير النجاح المطرد الذى شمل تلك الدساكر . ومع ذلك فالطابع الذى اتسمت به ادارتها بقى غير حضرى ، ولو أنها فى ادارتها كانت منفصلة عن بقية البلاد [٣٣] .

وقد تركزت الملكية العقارية فى أيدى فئة قليلة من الملاك مثلما كانت الحال فى « بايتيكا » ، بل ولعل هذا كان بدرجة أكبر مما كان سائداً فيها .

أما مبلغ نصيب البيت الامبراطورى من ذلك فلا علم لنابه ؛ ولكن ليس من المستحيل أن قصر شيراجان (Chiragan) الريفى الجميل على مقربة من تولوز (Toulouse) وقد كشف النقاب عنه حديثا ، كان ملكا للبيت الامبراطورى ، وان القدر الكبير من الشقافة الذى عثر عليه فى مونتى تستاكيو(*) (Monte Testaccio) بتلك الولاية ، ليكشف عن مدى استيعاب مساحات شاسعة من الأراضى العامة (٣٤) . وفضلا عن ذلك فقد أخرجت ناربونسيس (Narbonensis) نقوشا تتحدث عن وجود مندوبين عن البيت الامبراطورى ، كانت مهمتهم الاشراف على تلك الأملاك الخاصة (patrimonium) . وليس هذا بالأمر العجيب لأنه مما لا ريب فيه أن أعضاء السناتو من الرومان كانوا فى العصر الجمهورى يستحوذون على أملاك شاسعة هناك . وكان أكثر ملاك الأراضى من حيث الغنى والثراء وممن ينتمون الى أصل بعضه ايطالى وبعضه الآخر محلى ، يتخذون على سبيل التأكيد مقامهم فى المدن الكبرى الناهضة . وقد تناولنا الكلام فى الفصل السابق ، عن التجارة الهامة التى قامت على أكتاف أولئك الأعضاء العاملين من « بورچوازى » المدينة ، ولعلنا على يقين بأن التجار النابهين استغلوا كثيرا من أموالهم فى العقار الأرضى وان المبانى الجميلة التى تقوم فى مدن فرنسا الجنوبية والمقاصير الجنائزية الفخمة التى قامت الارستقراطية الحضرية بتشييدها فيها ، لتدل على الثراء الطائل الذى كان فى حوزة هؤلاء التجار وعلى مبلغ الشعور العام القوى المتأصل فى نفوسهم . أما الى أى حد بلغ تطور الضياع المتوسطة الحجم والصغيرة منها ، الى جانب الأقطاع الشاسع من طابع شيراجان (Chiragan) ، فلا سبيل الى معرفته ولو بطريق الحدس

(*) مونتى تستاكيو تل من الفخار المكون من قطع الشقافة والفخار المكدس بعضه فوق بعض والمجلوب من مختلف البلدان ؛ انظر الامبراطورية الرومانية للمؤلف تشارلزورث صحيفة ١٢٥ ترجمة زكى على . (المترجم)

والتخمين . وقد يخامرنا الشك فعلا وعلى نحو جدى فيما اذا كان ورود كلمـــة ملاك (possessores) فيما يتصل ببلدة اكواى ســـكســـتياى (Aquae Sextiae) ، يمـــكن اعتبـــاره دليلا على وجود جماعة من صغار ملاك الأراضى فى نطاق الأرض المحيطة بتلك المدينة . والراجح أنه كان المقصود بكلمة « ملاك » هذه هم أصحاب البيوت والمساكن وليسوا ملاك الأراضى (٣٥) .

أما ما يمكن رسمه من صورة للحياة السائدة فى الولايات الأخرى من بلاد الغال ، فأيسر ، ومعالمها أوضح ؛ ومما لاريب فيه أن المدن فى هذه الولايات كان تقدمها يسير بخطى بطيئة وان كانت مأهولة بسكان يغلب فيهم الطابع التجارى والصناعى والبيروقراطى ؛ وكانت الأرض هى المصدر الأساسى فيما عم من يسر ورخاء . وانه لمن الشائق أن نقرأ وصف كثير من المستحدثات التى أدخلت على الزراعة بفضل الغاليين من قبل عهد السيطرة الرومانية ثم من بعده . ذلك أن استغلال الأرض فى بلاد الغال كان قائما بوجه شامل على أسس رأسمالية وعلمية . على أن المعنيين بهذه الزراعة كانوا من كبار ملاك الأراضى والارستقراطية القبلية التى كانت الأرض فى حوزها قبل الغزو الرومانى وبعده ، ثم من المهاجرين الذين جمعوا ما لديهم من ثروة عن طريق التجارة والصناعة والأعمال المصرفية. ومما لاشك فيه كذلك أن بعض ذوى الحرف والتجار من الأهالى ، بعد أن اقتنوا ثروات طائلة ، عمدوا الى استغلال تلك الأموال فى الأرض . ولم يؤيد هذه الحقائق ماجاء من أوصاف لتلك البلادفى پوليبيوس واسترابون وقيصر وغيرهم فحسب ، بل أيدتها كذلك مئات المخلفات من الآثار الباقية من القصور الريفية ، كبيرة كانت أم صغيرة ، مما كان يملأ أرض البلاد الغالية ؛ وتوزيع مثل هذه القصور الريفية وانتشارها فى طول البـــلاد وعرضها أصبح حقيقة معروفة جيدا ، ولا داعى للاصرار على توكيدها . وان أعمال الكشف والتنقيب الدقيق الذى تم فى السنين الأخيرة فى كل

من فرنسا وبلچيكا وعلى حافة نهر الرين (وبخاصة الشاطىء الأيسر منه) قد أوضحت تماما الصور المختلفة لهذه الضياع والأراضى : فمن ناحية كان هناك القصور الريفية الرحبة ، يقتنيها الأثرياء من ملاك الأراضى ثم المزارع المنتشرة هنا وهناك وأصحابها من المزارعين ، ثم الدساكر (vici) الشاسعة وقد سكنها عمال كانوا ملتصقين بالقصور الريفية (لا بحكم أى قانون بل بمقتضى الظروف الاقتصادية) ومن الناحية الأخرى نجد قصورا ريفية من نوع أكثر تواضعا ، وهى أشبه بتلك التى وجدت فى پمپيى (Pompeii) . وانه لجدير بالذكر أن كثيرا من أسماء المدن والقرى الحديثة فى هذه البلاد ، مقتبس من أسماء أصحاب هذه القصور الريفية (*) وقد تعد هذه بالآلاف فعلا [٣٦] . وانها لحقيقة هامة كذلك أن كثيرا من معابد الآلهة المحلية فى بلاد الغال الوسطى والشمالية والغربية لم تكن ذات صلة وثيقة بالمدن ، وانما كانت مراكز للعبادة يؤمها أهل الريف الذين كانوا يقطنون فى قرى كلتية محلية ، وقد كشفت أعمال الحفر عن بعض هذه القرى فتبين لنا أنها لا تختلف كثيرا عن القرى الكلتية التى تنتمى الى العصر السابق على عهد الرومان . وهناك حقيقة أخرى لها طرافتها وهى وجود كثير من المسارح المنتشرة فى جميع أرجاء البلاد ، وقد اقترنت فى الكثير الغالب بتلك المعابد الريفية التى ورد ذكرها منذ قليل . ومما لاشك فيه أنها كانت فى أصل نشأتها تستخدم بصفة خاصة فى أغراض مرتبطة بالحفلات الدينية المتعلقة بالعبادات المحلية [٣٧] .

ولننتقل بعد ذلك الى ألمانيا ؛ وانه لمن المعروف جيدا أن الولايتين الرومانيتين الواقعتين على ضفاف الرين — وهما ألمانيا السفلى (Germania inferior) وألمانيا العليا (Germania superior)

(*) فالضياع (fundi) كانت تجرى تسميتها بأسماء أصحابها ، وذلك عن طريق تحويل تلك الأسماء الى صفات باضافة مقطع مكون من acus— أو anus— فى آخرها .

— يرجع تاريخهما الى عصر متأخر نسبيا (٨٢—٩٠ بعد الميلاد) ، وان نهر الرين كان منذ أمد طويل هو الحد الحربى لولايات الغال ؛ ولا سبيل الى العودة الى سرد تاريخ احتلال الرومان لنهر الرين من الناحية العسكرية (٣٨) . ويكفى أن نقول انه بعد أن منى أغسطس بالاخفاق فى تكوين ولاية من ألمانيا والوصول بالحدود الى الألب ، بقى الرين حدا للامبراطورية زهاء ستين عاما . وكانت الاعتبارات العسكرية من ناحية وتزايد عدد السكان فى الغال من الناحية الأخرى ، يضاف الى ذلك ضرورة ايجاد أرض طيبة صالحة للزراعة ، يستغلها الجند المسرحون — من أجل ذلك كله ، اضطر ڤسپاسيان وأبناؤه الى البدء بغزو ألمانيا من جديد ، تحدوهم نفس الغاية والغرض الأساسى من ضرورة مد طرق أقصر وأفضل لتربط بين جيش الرين وجيش الطونة . ومن أجل تحقيق هذا الغرض كان من الضرورى ضم القطاع الواقع بين الرين والطونة على شكل زاوية — وهو يشتمل على الأراضى الخصبة المطلة على الضفة اليمنى من نهر الرين الأوسط والأعلى والواقعة على قطاع من نهر الرين وعلى نهر النيكر ، كما حتمت الضرورة احاطة جبال التاونوس (Taunus) والغابة السوداء (Schwarzwald) بسلسلة متصلة من المعاقل والحصون العسكرية . وبفضل الجهود التى بذلها ڤسپاسيان وتيتوس (Titus) ودوميشيان (Domitian) وتراچان (Trajan) ، أمكن تنفيذ هذا البرنامج شيئا فشيئا ، وبناء سلسلة من المعاقل الحصينة يربط بينها حائط متصل أقيم بوساطة تكديس الأتربة ، وعلى مسافة بعيدة منه الى الجنوب أقيم حائط آخر من الحجر وذلك لحماية تلك الأراضى الجديدة وتلك الشبكة البديعة من الطرق الموصلة بين الرين والطونة .

ولو أن البينة المستقاة من المصادر الأدبية والدالة على قيام هؤلاء الأباطرة بذلك العمل العظيم ، ضئيلة للغاية ، فان البحث الأثرى الدقيق

كشف لنا عن جميع التفاصيل المتعلقة بالاحتلال العسكرى . بل ان الأمر تعدى ذلك بكثير ، اذ أنه مكن لنا من أن نتتبع الخطوط الرئيسية للتقدم الاقتصادى ومعالمه فى بلاد الرين والنقاط البارزة فى مظاهر الحضارة الرومانية فى عهدها المتأخر ، وكانت قد أخذت فى الازدهار شيئا فشيئا على كلا جانبى النهر فى مجراه الأوسط والأعلى . على أن معرفتنا بدقائق أحوال ألمانيا الرومانية وتفاصيلها تمثل أحد مظاهر النصر البارزة التى توجت علم الآثار . فلولا أعمال الكشف الدقيقة التى قام بها العلماء والباحثون من الألمان لما تيسر لنا سوى الوقوف على قليل من المعلومات عن تاريخ بلاد الرين فى صدر عصر الامبراطورية وتاريخ ألمانيا الأولى بوجه عام (٣٩) .

وبعد ضم الأقاليم الواقعة على الضفة الشرقية من نهر الرين الأوسط والأعلى ، الى حظيرة الامبراطورية ، لم تعد الحكومة الرومانية تعامل بلاد الرين بوجه عام باعتبارها تمثل الحدود الحربية لبلاد الغال ، بل بوصفها ولايتين متميزتين هما ولاية الرين الأدنى وولاية الرين الأعلى . واقتصرت ولاية الرين الأدنى على الأراضى الواقعة على الضفة اليسرى من النهر ، أما ولاية الرين الأعلى فاشتملت على مساحات شاسعة من الأراضى المطلة على جانبى النهر وكانت تمتد الى نهر المين (Main) والموصل (Moselle) . أما مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى هاتين الولايتين فانها تتطلب وصفا موجزا .

ومن وجهة النظر هذه يبدو أن تقسيم بلاد الرين الى ألمانيا السفلى والعليا كان أمرا صناعيا بحتا . وفى الحق أن الأراضى الواقعة على الضفة اليسرى من النهر تؤلف وحدة قائمة بذاتها كما أن الأراضى الواقعة على الضفة اليمنى تمثل وحدة أخرى . ولم تختلف الأولى كثيرا وبخاصة فى الجنوب ، عن سائر بلاد الغال وهى التى كانت تنتمى اليها فى أول

الأمر . وفى الحقيقة كانت جميع المدن الكبرى الواقعة على الضفة اليسرى فيما عدا أوجستا تريڤيروروم (Augusta Treverorum) تمت الى أصل حربى ؛ فكولونيا أجريبيننسس (Colonia) Agrippinensis) وكاسترا ڤيتيرا (Castra Vetera) (أوكولونيا أليبيا تراچانا Colonia Ulpia Trajana) ونوڤايسيوم (Novaesium) وموجونتياكم (Moguntiacum) وبون (Bonna) الخ — ترجع نشأتها جميعا وما أصابها من تقدم الى المساكن التى كانت تقوم حول المعاقل الحربية الكبرى ، مما كان يطلق عليه اسم (canabae) ، واتخذت هذه شيئا فشيئا صورة قرية أو بضع قرى (vici) . ولكن هذه المدن بوصفها ذات طابع نصفه حربى وكله رومانى ، استأثرت بحياتها الخاصة التى ميزتها عن حياة الريف فيما ورائها ثم ما لبثت هذه المدن شيئا فشيئا — وان كان هذا بطىء الخطى — ان حصلت على الدستور المألوف لدى الجماعة الرومانية ، بينما بقى الريف مثلما كانت عليه الحال فى بلاد الغال ، مقطع الأوصال ومقسما الى أقطار قبلية كبرى بدت فى صورة جماعات (civitates) ، فجاءت هذه الأقطار مطابقة فى الواقع للاقليم المأهول بقبيلة ألمانية أو كلتية بمفردها ، وفى أحوال كثيرة كانت أخلاطا من الألمان والكلت على السواء مثل جماعة الأوبيين (Ubii) الذين اتخذوا من كولون عاصمة لهم ، أو التريڤيريين (Treveri) الذين اتخذوا من تريڤ (Trèves) عاصمة لهم .

وفى زمن الاحتلال الرومانى لم تكن الأرض المطلة على الشاطىء الأيسر من نهر الرين بلدا لا صاحب لها ؛ وانما كانت جزءا من الدولة الكلتية وبها مدائن خاصة بها وقرى ومعابد ونحو ذلك ؛ كما لها حياتها الاجتماعية والاقتصادية المتعلقة بها مما سبق وصفه . ولكن اعادة توزيع السكان بعد عصر قيصر واستقرار كثير من القبائل الألمانية فى هذا الاقليم والاتصال المباشر بالحدود الحربية — تلك كانت عوامل جديدة،

لها شأنها وأهميتها فى التقدم الاقتصادى والاجتماعى السائد فى جميع أنحاء هذه البلاد ، وما لبثت هذه البلاد أن أصبحت من وجهة النظر الاقتصادية فردوسا بالنسبة لصاحب رأس المال وبخاصة اقليمى الموصل (Moselle) والميوز (Meuse) . فكان مصير هذه البلاد أن أصبحت بفضل ما توافر لها من غنى وخصوبة فى التربة ، مخزنا « شـونة » للغلال تمد جيوش الرين باعتبارها المورد الرئيسى لمواد التموين من نبيذ وملابس وأحذية وكتل الأخشاب والمعادن والفخار وما أشبه ذلك . ومنذ البداية جذبت البلاد اليها جموعا غفيرة من المهاجرين الذين كان همهم الرئيسى العمل على تموين الجيش وامداده بالعتاد وما اليه مما تمس اليه حاجته . ولم يكن هؤلاء الرجال بالبدالين الذين يلحقون بالمعسكرات ، بل هم تجار على نطاق واسع ومتعهدون للنقل . وفيما عدا ليون التى كانت محطة تفريغ الواردات الآتية من جنوب الغال ووسطها ثم من ايطاليا ، كانت المراكز الرئيسية لهؤلاء التجار هى تريف على الموصل وكولون ونيجميجن (Nigmegen) وهى نوفيوماجوس (Noviomagus) الواقعـة على الرين الأوسط والأدنى . وكانت تريف أعظم هذه المدن شأنا وأقدم مدينة على نهر الموصل ، ولم تكن مركزا عظيما للتجارة فحسب بل أصبحت المركز الاقتصادى لكل البلاد المحيطة بها ، وأحرى بها أن تكون كذلك [٤٠] . على أن التجار فى هـذه المدينة وهم الذين جمعوا ثروات طائلة بفضل بيع البضـائع لجيش الرين ، استغلوا أموالهم ، كما هـو المنتظر ، فى مشروعات مربحة فى المحيط القريب منهم ، وحذا حذوهم تجار من كولون وغيرها من المدن التجارية على نهر الرين . وفكرة انتاج الغلال وتربية الماشية وعصر النبيذ محليا ، بدلا من جلب تلك السلع من الخارج ، وكذلك فكرة نسج الصوف وصناعة المعادن وسلع الجلود وغيرها من البضائع فى المحيط القريب

بدلا من جلبها عن طريق البحر من أقطار نائية — كل هذه أمور كان اخراجها الى حيز التنفيذ متمشيا مع طبيعة الأحوال الى حد ما . وان أيسر سبيل لضمان تحقيق هذه الفكرة يجيء عن طريق تشجيع الزراعة وتربية الماشية وزراعة الكروم على نطاق واسع وطبقا لقواعد رأسمالية. وعلى ذلك أصبح الشاطئ الأيسر لنهر الرين وكذلك واديا الموصل (Moselle) والميوز (Meuse) ميدانا فسيحا تركزت فيه شيئا فشيئا مشروعات رأسمالية ، كانت فى أغلبها ذات طابع زراعى . فأصبحت هذه المناطق على حد قول كومون (Cumont) بلدا « ليس به مدن ، بل كله قصور ريفية » ، وتتمثل أحواله الاقتصادية فيما جاء من صور على تلك الآثار الجنائزية الرائعة التى كان قد أقامها الأثرياء من التجار وملاك الأراضى فى بلچيكا الحديثة ولوكسمبرج وبصفة خاصة فى محيط تريف (Trèves) حيث ابتنوا لأنفسهم تلك الآثار فى جميع أنحاء بلادهم ؛ وقد جاء من قبل ، ذكر النقوش الغائرة التى تحلى تلك الأعمدة المشيدة لتكون أثرا ، عند الكلام على تطور تجارة الجملة وما صادفها من تقدم فى بلاد الغال وعلى ضفاف الرين ، وليست هذه النقوش بأقل أهمية بالنسبة لما تضفيه من ضوء وما تقدمه من بينة على مدى التطور السريع فى شئون الزراعة . ولدينا دليل آخر على تقدم هذا الاقليم برمته وما حققه من نجاح ، فى تلك المخلفات البديعة الباقية من تلك القصور الريفية الواسعة مما يمكن مشاهدته فى كل مكان . وأغلب هذه القصور الريفية كانت اما مقار فاخرة أعدت للسكنى كيما ينزل بها تجار المدن أو كانت مؤسسات زراعية وصناعية كبرى تجمع بين مقر صيفى فخم ثم ألحق به عدد من الابنية ذات طابع يوحى بأنها لأغراض عملية بحتة (٤١).

على أن تلك الآثار الجنائزية وبقايا القصور الريفية تنبئنا كذلك

بما كانت عليه الأحوال الاجتماعية السائدة فى تلك البلاد . وكان العبء الأكبر من الأيدى العاملة اللازمة لتلك المؤسسات الزراعية الكبرى ، يقع على كاهل السكان من الأهالى وهم جماعة الأوبيين (Ubii) والتريڤيريين (Treveri) وغيرهم ممن اتخذوا من القرى مقرا لهم وسكنوا فى أكواخ متاخمة لتلك القصور الريفية الكبرى ؛ وتدل النقوش العاثرة على أثر ايجل (Igel) على مقربة من تريف وما بقى من آثار القرى المندثرة بالقرب من بعض القصور الريفية البلچيكية ، على أن أهالى تلك البلاد قد أصبحوا شيئا فشيئا زبائن التجار الأغنياء فى المدينة ، بل وفى بعض الأحيان مستأجرين عندهم . ولو أن النقوش العاثرة فى نيوماجن (Neumagen) ، وهى التى تصور الفلاحين وهم يقومون بدفع أموال الى رجل من سكان المدينة ويعاونه كاتب أو أكثر ، لا تمثل بالضرورة حالة فلاحين (coloni) لدى صاحب عقار كبير وقد جاءوا يؤدون اليه الايجار المستحق عما استأجروه ، فان المنظر الذى جاء على أثر « ايجل » حيث نجد الفلاحين يقدمون الهدايا العينية الى سيدهم ، يذكرنا مع ذلك الى حد بعيد بالأوصاف التى ساقها ستاتيوس (Statius) ومارشال (Martial) ، وقد جاء ذكرها من قبل . هذا وانه لا يسعنا الا أن نعتقد أن الفلاحين الظاهرين فى النقش العاثر ليسوا مجرد زبائن ومدينين فحسب ، بل انهم كانوا فى بعض الأحوال، مزارعين (coloni) يفلحون الأرض لأصحاب هذه الآثار الخالدة [٤٢] .

وانه لمن العسير أن نجيب عن السؤال الخاص بالكيفية التى أمكن بها للرأسماليين فى المدينة أن يصبحوا أصحاب الحقول الغنية اليانعة ويتملكوا أراضى المراعى فى اقليم الرين ، وهؤلاء بلا ريب لم يكونوا ينتمون الى الأرستقرطية المحلية القبلية ، اذ كادت هذه الأرستقراطية ألا يكون لها وجود وكيان بين الاوبيين (Ubii) والتريڤيريين (Treveri)

الذين كانوا من المستوطنين الجدد من ألمان أو كلتيين ألمان على شاطىء النهر الأيسر . على أن بعض النقوش الغائرة من هذه المجموعة نفسها قد تكشف عن تفسير وايضاح لهذه الظاهرة . وفضلا عن المشروعات التجارية والزراعية فان الأغنياء من سكان بلاد الرين كانوا يباشرون اقراض المال على نطاق واسع فكانوا أصحاب المصارف فى مجتمع جديد يتألف من رجال الأعمال الذين نشأوا فى كنف ظروف اقتصادية جديدة. وانى لأميل الى تفسير ما يسمى بالمناظر التى تمثل دفع المستحق من الايجار ، على أنها عمليات مصرفية أما القصور الريفية فليست مؤسسات زراعية وصناعية كبرى فحسب ، بل هى مصارف محلية كذلك ؛ ومن السهل علينا أن ندرك كيف ان رجال الأعمال هؤلاء ، بما جبلوا عليه من لباقة ودهاء ، استطاعوا باقراضهم المال الى القرويين والفلاحين فى المحيط القريب منهم ، أن يكونوا راعين لمصالح أولئك المدينين ثم ما لبثوا أن صاروا بعد قليل سادة عليهم ، وهكذا استطاعوا شيئا فشيئا أن يجعلوا من أولئك الذين كانوا من قبل فلاحين وملاكا للأراضى، يتمتعون بكيان ذاتى واستقلالى ، مستأجرين تابعين . وفى سبيل تحقيق غرضهم هذا والوصول الى هدفهم ، كان النظام الرومانى الجديد فى جباية الضرائب خير عون لهم ، كما ساهمت الأحوال الجديدة فى نظم الحياة الرأسمالية التى أخذت فى التطور شيئا فشيئا على الضفة اليسرى من الرين ، فى الوصول الى نفس هذه الغاية (٤٣) .

على أن أحوالا أخرى مغايرة سادت على الضفة اليمنى من الرين ، فالأراضى التى ضمها الرومان كانت غنية وخصبة ولكنها قليلة السكان جدا ، فقد كانت ساحة للقتال بين الألمان والرومان لمدى سنين عديدة . ولم تكن الأحوال السائدة فيها مستقرة الى حد أن تستهوى جموعا كبيرة من المستوطنين الراغبين فى قضاء حياة رغدة ، فلم يبال الكثيرون بالسكنى

فيها . وللمرة الأولى جلب الرومان معهم الى هذه البقاع السلم والأمن فبنوا الحصون وشيدوا الطرق ويسروا استخدام الأنهار فى حركة النقل والتجارة ، وكانت الحصون العديدة تشغل المواقع ذات الأهمية على الأنهار وفى ملتقى الطرق ، فنشأت القرى من حولها وبدأ الناس يفلحون الأرض فى همة ونشاط أكثر من ذى قبل وهبط عليها نزلاء من بلاد الغال لسكنى تلك الأراضى الجديدة وحصل الجنود القدامى على أنصبة من الأرض فى المحيط القريب من تلك الحصون ، على أن الأرض الواقعة فى هذا المحيط كانت تؤلف المنطقة التى تستغلها السلطات العسكرية بتأجيرها الى الجنود الذين كانوا بالتأكيد يؤجرونها بدورهم من الباطن الى المدنيين من الأهالى والمهاجرين على السواء . على أن هذه المنطقة من الأرض ، المخصصة للحصون لم تكن كبيرة الرقعة بحال ما . وعند تقدم تلك الحصون الى الأمام ، كان الأهالى من المدنيين يبقون فى مواطنهم ويؤلفون قرية هى التى تعرف باسم ڤيكوس (vicus) ، وتعتبر الدولة مالكة لجميع هذه الأراضى ويدار الجزء الأكبر منها على أنه ضياع (saltus)(*) تابعة للبيت الامبراطورى ويتولى الاشراف عليها موظفون من قبل الامبراطور . وبعض هذه الضياع كانت الدولة تتركه فى أيدى الأهالى والبعض الآخر تمنحه الى الجنود القدامى المسرحين أو تبيعه الى المهاجرين أو الى الأغنياء من الجنود والضباط .

وكلما أصبحت الأحوال أكثر هدوءا واستقرارا ، أقبل الناس متهافتين على سكنى هذه الأراضى الجديدة ، فنشأت المزارع الجديدة ونهضت القرى المستحدثة التى اتخذ بعضها طابع المدن العادية ، وقد سلمت الحكومة بهذا الوضع وأقرته وقسمت البلاد بدورها على نسق بلاد

(*) (saltus) كلمة لاتينية معناها أرض الغابات والاحراش والمراعى والدروب . (المترجم)

الغال الى مقاطعات ومدائن (civitates) وأصبحت عاصمة كل واحدة منها هى أكثر القرى نجاحا وفلاحا وقد أحل لهذه فى الوقت المناسب ، تنظيم أحوالها على شكل مدينة ؛ ومع ذلك فان هذا الاقليم احتفظ بوجه عام بطابعه الريفى ، وعلى نحو ما أظهرته الكشوف المتوالية ، لم يكن الطابع المميز له هو القرى بل المزارع ؛ على أن بعض هذه المزارع المتاخمة للحدود (limes) كانت من نصيب الجند العاملين وبخاصة ابان القرن الثالث،فأصبحت حقلا لتخريج الجنود وتزويد الدولة بهذا العنصر المحارب. على أن الكثرة الغالبة فى هذه المزارع كانت مؤسسات زراعية كبيرة نسبيا وتدار وفق قواعد رأسمالية ولكنها ليست من نفس طابع ضياع الموصل ، بل كثيرة الشبه بالقصور الريفية فى پمپيى . وهذا القصر الريفى فى صورته الرمزية كان عبارة عن بيت كبير توافرت فيه وسائل الراحة وان لم يكن على شىء من الفخامة فهو أقرب الشبه الى المزرعة الكبيرة فى ريف أمريكا فى العصر الحاضر . وأصحاب هذه القصور الريفية كانوا بلا ريب فى بسطة من العيش وان لم يكونوا من سادة الأرض وأصحاب الثراء الذين وفدوا من المدن ولكنهم أصبحوا بمثابة الملاك الغائبين ؛ وكانت بعض هذه المزارع بحسب طبيعة أرضها تنتج قمحا ، على أن بعضها الآخر كانت عزبا تربى فيها الماشية والأغنام على نطاق واسع . وقد نشطت التجارة والصناعة وصادفت نهضة فى تطورها فى حواضر هذه الأقسام وفى المصايف التى كان يؤمها الناس للسباحة وللاستجمام وكذلك فى القرى الفسيحة (٤٤) .

وتطبيقا لتلك الأهداف الاقتصادية ، أصبح أغلب الأهالى بالطبع مستأجرين ورعاة يعملون فى خدمة المزارعين الأجانب ؛ وبين حين وآخر نسمع عن جماعة من المزارعين (coloni) الذين كانوا فى أغلب الظن ينتمون الى واحدة أو أخرى من هذه الضياع الكبرى . وعلى ذلك كان

السكان على الضفة اليمنى من الرين مثلهم مثل اخوانهم على الضفة اليسرى ، ينقسمون الى طبقة عليا من المزارعين الذين أوتوا بسطة فى العيش ومن طبقة دنيا من الفلاحين والمستأجرين (٤٥) .

وكانت بريطانيا من الناحية العملية ملحقا مكملا لبلاد الغال. واخضاع السهول والأراضى المنبسطة وهى تتمتع بالحماية بفضل الاحتلال العسكرى للمرتفعات القريبة من ناحية وباقامة الحدود الرومانية الفاصلة بينها وبين اسكوتلندة على نسق ما كان متبعا فى الحدود الألمانية ، من ناحية أخرى ، كان معناه فى الحق امتداد من ناحية الشمال فى ولايتى الغال وألمانيا وتقصير الحدود العسكرية فى أضيق نطاق ممكن . وفى تطور بريطانيا الرومانية وتقدمها من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية ظهرت أوجه شبه كبير تربط بين هذه البلاد وبين أراضى الرين وبخاصة ما كان واقعا منها على الضفة اليمنى من ذلك النهر . وان الصورة البديعة التى أخرجها ف . هاڤرفيلد (F. Haverfield) المتوفى ، وما صوره فيها من اصطباغ تلك الولاية بالصبغة الرومانية ، قد يسرت لى السبيل فى أن أقتصر على قليل من الملاحظات العابرة (٤٦) .

فأسلوب الحياة على التخوم العسكرية كاد أن يكون مطابقا لنظيره على الرين ، وهذه الحياة وان كانت لها خصائصها وتستحق دراسة عميقه الا أنها لاتمت لموضوعنا الا بصلة طفيفة . وقد تقدمت حياة الحضر فى السهول والأراضى المنبسطة وفق أسلوب وثيق الصلة بغزو البلاد واحتلال الجزيرة احتلالا عسكريا . ويرجع الأصل فى نشأة المستعمرات الأربع جميعها فى بريطانيا الى ظروف عسكرية ، وهذه المستعمرات هى (كامولودونوم : (Camulodunum) ، جليڤوم (Glevum) ، ابوراكوم (Eburacum) ، ولندوم (Lindum)) وهى بهذا الوصف جديرة

بأن تقـــارن بنظيراتها فى ألمانيا ، وهى كولونيا اجريبيننسسن (Colonia Agrippinensis) وكاستراڤيترا (أى المعسكر القديم) (Castra Vetera) أوكولونيـــا أولپياتراچانا (Colonia Ulpia Trajana) ونوڤايســـيوم (Novaesium) وبون (Bonna) وموجونتياكوم (Moguntiacum) وغيرها . وكانت لونديnيوم (لندره) (Londinium) أغنى مدينة تجارية ، قامت بدور فى حياة بريطانيا يشبه دور تريڤ وليون فى حياة الغال وألمانيا . ويمكن مقارنة باث (Bath) التى كانت ملاذا للاستجمام والراحة ، بكثير من الأماكن التى اشتهرت بحماماتها على الرين . أما المدن الرومانية الأخرى فى بريطانيا فشأنها شأن أغلب المدن فى وسط الغـــال وشمالها وفى ألمانيا العليا ، اذ كانت بلدانا مأهولة بالعناصر الكلتية ، يؤمها المزارعون باعتبارها أسواقا أو اتخذت حواضر ومراكز رئيسية للأقسام القبلية والريفية ، تلتقى فيها مظاهر النشاط الادارى والدينى والتجارى والصناعى فى حياتها العامة ؛ وقد تم الكشف الدقيق عن اثنتين من تلك الحواضر وهما كاليڤا اتريباتوم (Calleva Atrebatum) وفنتاسيليروم (Venta Silurum) فتمخض هـــذا الكشف عن اخراج صورة قرية واسعة فى كل واحدة منهما ، محتوية على بعض المبانى والمنشآت العامة .

ومثل بريطانيا كمثل شمال الغال وألمانيا فى أنها كانت بلداً غير عـــامر بالمدن ، بل تزخر بالمزارع والضياع الزراعية ، كماكانت بـــلد القصور الريفية والاعيان من رجال الريف أكثر منها بلد الفلاحين وصغار الملاك ؛ ومن بين هؤلاء كان بعض ملاك الأراضى مهاجرين رومان ومحاربين قدامى وسلالاتهم ، وبعضهم الآخر ممثلا للأرستقراطية الكلتية المحلية . وقد تأكد هذا الطابع الذى كان عنوانا على تلك الأراضى المنبسطة ، بالآثار الباقية من القصور الريفية التى كانت مـــوزعة فى أرجاء البلاد على نطاق واسع . ولو أنه لم يتوافر لأحد هذه القصور الريفية من الكبر والفخامة

مثلما كانت عليه القصور الريفية فى تريف ، تبعا للنطاق الضيق الذى كانت الحياة فى بريطانيا تتقدم بمقتضاه ، فأن طراز « الحوش » (البهو) يمثل بيوتا لكبار ملاك الأراضى وقد ألحقت بها مزرعة كبيرة تخضع فى ادارتها لأسس وقواعد رأسمالية ؛ أما أمثلة الدهليز « الممشى » والمخزن « الشونة » فهى من الناحية المعمارية وكذلك من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية ، شبيهة بمزارع ألمانيا العليا على الضفة اليمنى من الرين (٤٧) .

وانه لأمر طبيعى أن نفترض أن تقدم بريطانيا اقتصاديا واجتماعيا كان كثير الشبه بتقدم الأحوال فى الغال ، بل وأقرب من ذلك شبها بالنسبة الى تقدم الحياة فى الولايتين الألمانيتين ، على أن النشاط دب فى أرجاء بريطانيا بفضل الاحتلال العسكرى وبقيت الحياة منتعشة فيها طالما كان الاحتلال العسكرى حقيقة واقعة، والحماية التى أسبغها على البلاد فعالة ؛ وبدأت السهول المنبسطه تزاول الحياة الاقتصادية فى ظل السلم الرومانى وتحت رعايته فكانت بالنسبة للجيوش بمثابة الظهيرة أو الأرض الخلفية (Hinterland) ، وكان الجيش المستهلك الأساسى لمنتجات هذه الأراضى المنبسطة ثم أصبح الريف نفسه فيما بعد يزود سوقا محلية ولكنه لم يقم مطلقا بدور حاسم فى الحياة الاقتصادية فى الجزيرة البريطانية . وقد أصبح التوسع فى زراعة الأرض مجزيا بسبب ضمان سوق دائمة فى الشمال والغرب ، يصرف فيها المنتجون محصولاتهم ، وسرعان ما أدرك شعب بريطانيا الفرص التى أتيحت له فعمل على انتهازها، وقد عنى أصحاب الأراضى من الكلتيين الذين احتفظوا بضياعهم ، بالزراعة وتربية الماشية وفق القواعد والأسس المرعية لدى أصهارهم وذوى قرباهم فى الغال ، ومع ذلك فكما كانت الحال فى وادى الموصل ، أصبح أصحاب الضياع الكبيرة فى أغلبهم من أثرياء التجار وهم رجال الأعمال فى

لوندينيوم (Londinium) الذين كانوا يقومون بتوريد السلع اللازمة للجيش من القارة طوال السنين الأولى من الاحتلال الرومانى ؛ وهؤلاء هم الذين كانت تنتمى اليهم القصور الريفية ذات الأبهاء « الأحواش » الواسعة . وغير هؤلاء كان هناك جنود قدامى استولوا على أنصبة من الأرض واشتروها ، وكلتيون عرفوا الاقتصاد والتدبير واقتبسوا الأسلوب الحديث فى مباشرة الزراعة على نطاق واسع ، ومستوطنون جدد وفدوا من القارة . وكان هؤلاء أصحاب البيوت الريفية ذات الدهاليز «المماشى» والمخازن « الشون » (٤٨) .

ولم يكن أحد من ملاك الأراضى هؤلاء يفلح الأرض بيديه أو يبعث بأبنائه وبناته لرعى ماشيته وخنازيره وبقره فى المراعى والغابات ، فالعبيد كانوا يؤدون بعض هذا العمل ، على أن أغلب هذا العبء كان يقع على كاهل الأهالى الذين كانوا يسكنون قرى من نوع تلك التى كشف عنها الجنرال پت ريفرز (Pitt-Rivers) على مقربة من سالسبرى (Salisbury) والمستر د . اتكنسون (D. Atkinson) فى تل لوبيرى (Lowbury Hill) ويحتمل أن القرويين الساكنين فى الأجزاء التى اشتد بها الفقر من تلك المنخفضات ، كانوا يملكون ما بأيديهم من أراض ومراع ، ولكنهم فى الأقاليم الأكثر خصوبة أصبحوا بالتأكيد رعاة ومستأجرين يعملون فى خدمة ملاك الأراضى ، كبارهم وصغارهم . ثم انهم تعلموا استخدام الأوعية الرومانية واستعمال « دبابيس » الأمان ؛ أما أولئك الذين سكنوا المدن فانهم تعلموا اللغة اللاتينية وربما تذكروا تلك الاقتباسات التى نجدها مأخوذة من ڤرچيل (Vergil) ولكنهم بقوا فى مجموعهم — شأنهم شأن الفلاحين فى مصر — غرباء فى معزل عن روح الحضارة اليونانية الرومانية الحقة — بما فى ذلك حياة المدينة وكل ما يتصل بها . أما مقدار

عدد هؤلاء بالنسبة الى عدد الجند وسكان المدينة وأعيان الريف فلا سبيل لنا الى الحكم عليه (٤٩) .

ولا محل لأن نطيل الكلام عن الولايات الألبية التابعة لروما . وتعتبر راتيا (Raetia) ونوريكوم (Noricum) من أكبر هذه الولايات وأعظمها شأنا . ومن وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية كانت بعض أجزاء هذه الأقاليم التى غلب عليها الطابع الجبلى ، تكاد تتوافر فيها نفس المظاهر التى نجدها فى الأجزاء المجاورة من ايطاليا ، بما كان فيها من مدن كبرى هى أوجستاتاورينوروم (Augusta Taurinorum) وسيجوسيو (Segusio) واوجستا برايتوريا (Augusta Praetoria) وايپوريديا (Eporedia) وكوموم (Comum) وبرجوموم (Bergomum) وبريكسيا (Brixia) وفيرونا (Verona) وڤيكيتيا (Vicetia) وكونكورديا (Concordia) واكويليا (Aquileia) ، وجميعها كانت فى أصل نشأتها مستعمرات حربية رومانية ثم أصبحت مراكز زراعية كبرى ذات أراض شاسعة وارتباط وثيق بقبائل كلتية عديدة وأخرى من راتيا أما الأجزاء الأخرى من الأقاليم الألبية فانها كانت فى الحق تنتمى الى المناطق الجبلية فى جنوب الغال ، ولم تكن راتيا (Raetia) وهى ثانى اقليم كبير فى الأراضى الألبية ، تختلف كثيرا من حيث نظمها الاجتماعية والاقتصادية ، عن الأجزاء المجاورة من البلاد الواقعة فيما وراء حدود ألمانيا العليا ، وعلى أى حال فمن راتيا التى تم الكشف عنها ، لم يظهر بها من الخصائص البعيدة المدى ما يميزها عن مدن ألمانيا العليا (٥٠) . وفيما يتصل بأعالى الطونة والحدود الواقعة عليه ، كانت أوجستا ڤينديليكوم (Augusta Vindelicum) وهى أجزبرج (Augsburg) أكثر مدن راتيا معرفة لنا وأعظمها أهمية ، ولعلها قامت بنفس الدور الذى كان لتريڤ وموجنتياكوم فيما يتعلق بحدود الرين . والدليل على ذلك يبدو ، على

سبيل المثال ، فيما كان للتجار وبخاصة تجار الملابس والفخار ، من دور في حياتها العامة . وهناك حقيقة أخرى لها طرافتها ، وهى أن كاسترا ريچينا أو « ريجنزبرج » (Regensburg) وهى أكبر قلعة حربية فى راتيا ، كانت مستحوذة على رقعة واسعة من الأرض ، نشأ سكان الحصن على جزء منها شيئا فشيئا ؛ وقد أشير الى هذه المنطقة العسكرية فى نقش مؤرخ عام ١٧٨ م . فوصفت بأنها الأرض الملحقة (territorium contributum) ، وفى وسعنا أن نفترض أن هذه المنطقة لم تكن خالية من السكان قبل أن تلحق بالحصن ؛ ومن المحتمل أن أولئك الذين كانوا يشغلونها من قبل عهد الرومان ، كانوا يؤلفون عنصرا من الشعوب العديدة التى كانت تقطن فى راتيا وانه بعد أن أصبحت هذه المنطقة رومانية ، استمر هؤلاء السكان يفلحون أرضها بوصفهم مستأجرين لها وتابعين للحصن (٥١) .

وولاية نوريكوم (Noricum) التى كانت من قبل مملكة نوريكوم ، هى أكبر الولايات الألبية ؛ وكان سكانها من الكلتيين وكانت تضم من الأراضى أفضلها وأيسرها سبلا للاتصال فى الشمال الشرقى من ايطاليا ؛ وقد بقيت لأمد طويل تحت تأثير نفوذ اكويليا ؛ وكان تغلغل العناصر الايطالية فى مدن نوريكوم ووديانها ميسرا بفضل ما أتيح لتلك البلاد من بقائها متحدة ، ترفل فى عيشة هادئة أمدا طويلا تحت سلطان ملك من أهلها . وقد استطاع أغسطس من غير كبير عناء تحويل هذه المملكة الى ولاية ، عين عليها واليا للاشراف عليها ، كان لقبه « بروكوراتور » (Procurator) وبفضل اتحادها مع ايطاليا سرعان ما بلغت وديانها وسهولها مرتبة عالية نسبيا من التقدم والنجاح . وفى كثير من بلدانها القديمة التى كانت مراكز لمختلف القبائل الكلتية ، خطت الحياة الحضرية خطوات الى الأمام من غير أن تعوقها الحروب ولا الثورات . وأكبر هذه المراكز ڤيرونوم

(Virunum) (وهى العاصمة) وكيليا (Celeia) وتورنيـــا (Teurnia) ويوڤانوم (Iuvanum) وقد توافرت لها جميعا رقع فسيحة من الأراضى وكان سكانها يتألفون من عناصر بعضها أهلى وبعضها ايطالى ؛ وقد نظم الامبراطور كلوديوس هذه الجماعات الكلتية الرومانية وفق نماذج مطابقة للبلديات الايطالية ، ومنح المراكز ذات الأهمية الكبرى حيث تبلورت الحياة الحضرية ، دستورا جعـل منها بلـديات (municipia) أما سكان المدن الذين لم يكونوا متمتعين بالرعوية الرومانية فقد منحوا الرعوية اللاتينية على حين أن أهل الريف من فلاحين ورعاة ظلوا أجانب (peregrini) محتفظين الى أجل غير مسمى بعاداتهم القومية وطباعهم ، وبخاصة فى الأطراف النائية من البـلاد مثل ينـا (Iuenna) ووادى اللاڤان (Lavan) .

وكان أهم موارد نوريكوم الاقتصادية هى المناجم الغنية فى الحديد والرصاص ثم الغابات وأراضى المراعى الغنية وبعض الحقول اليانعة ؛ وأغلب هذه الموارد كانت فى أيدى « بورچوازى » المدن من أصحاب الثراء . وكانت المناجم فى حيازة الدولة بوجه خاص ويقوم بادارتها ملتزمون (conductores) لهم قيمتهم ووزنهم ، مثلما كانت الحال فى دالماشـيا وأسبانيا . أما الغابات وأراضى المراعى والحقول فكانت حصة بالمواطنين من سكان المدن ، على أن أجزاء الأرض التى كانت أقل روعة حتى انصرف الناس عنها فانها تركت فى أغلب الظن فى أيدى الأهالى المعروفين لدى الرومان بالأجانب (peregrini) [٥٢] .

ولننتقل الآن الى أراض من اقليم الطونة مأهولة بشعبين رئيسيين ؛ وهما الالليريون والتراقيون ، وقد أصبح قسم من الالليريين ممن امتزجوا بالدم الكلتى ، وأعنى بهم سكان هيستريا (Histria) ، يكوّن جزءا من

ايطاليا فى تاريخ مبكر . وهناك قسم آخر كان مشتركا فى الأرض مع القبائل التراقية والكلتية ، تم ضمه الى الامبراطورية الرومانية باعتباره اقليم الليريكوم (Illiricum) ثم قسم فيما بعد الى ولايات كان الطابع الالليرى هو الغالب فيها ؛ وهى دالماشيا وولايتا پانونيا (Pannonia) والى ولايتين أخريين كان يغلب عليهما الطابع التراقى ؛ وهما موسيا العليا (Moesia Superior)وموسيا السفلى (Moesia Inferior) والأولى تراقية الليرية والثانية كادت أن تكون تراقية صميمة ؛ وان عدم وجود أى مؤلف حديث الاخراج ، يعالج بطريقة عامة موضوع الولايات اللاالليرية والتراقية ، مما يمكن مقارنته بالأجزاء التى ألفها س . چوليان (C. Jullian)، ف. هڤرفيلد (F. Haverfield) ، ف. كيمون (F. Cumont) ثم ك . شوماخر (K. Schumacher) عن الأقسام الكلتية والألمانية من الامبراطورية ، تقتضينا وصفا أكثر تفصيلا واسهابا عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التى سادت فى هستريا (Histria) وعلى شواطىء البحر الادرياتى ونهر الطونة وروافده (٥٣) .

ولم تكن هستريا (Histria) فى العصر الأول من حياتها بلدا مأهولا بالبرابرة ؛ فأعمال الحفر والتنقيب التى تمت فى بلدانها الأصلية التى كانت معروفة باسم الحصون والقلاع (castellieri) ، ثم حلت مدن رومانية فيما بعد محل بعض منها ، دلت على أنها بلغت درجة عالية من الحضارة والمدنية فى زمن بعيد يرجع الى العصر الميسينى الأخير وقد استعمر الرومان هستريا منذ عهد قديم جدا (وبخاصة فى القرن الأول قبل الميلاد) ، وبذلك اصطبغت البلاد بصبغة رومانية تامة وكان هذا على الأقل فيما يختص بالمدن الكبرى الواقعة على الشاطىء — وهى ترجستى (Tergeste)ولو أنها لم تكن تتبع هستريا من الناحية الادارية ، وبارنتيوم وبصفة خاصة بولا (Pola) ذات المرفأ الجميل ؛ وكانت

الأراضى فى هذه المدن يمتلكها الى حد بعيد الأباطرة ، ثم الايطاليون الساكنون فيها وهم الذين كان يجرى فى عروقهم دم تسرب اليهم شيئا ما من العناصر الأصلية (ولنترك جانبا العدد المألوف من المحررين الذين كانوا ينتمون الى كثير من الشعوب ، وبعض نفر من اليونانيين والشرقيين). وأسرة اللايكانيين (Laekanii) فى پولا هى احدى الأسر الايطالية البارزة المعروفة بنشاطها الجم ؛ وهذه يمكن مقارنتها بأسرة الباربيين (Barbii) فى اكويليا من حيث أوجه النشاط الاقتصادى فى مختلف صوره ، وكانت پولا ذاخرة بأفراد هذه الأسرة وبعض هؤلاء كانوا من سلالة اللايكانيين الأصلية وبعضهم الآخر كانوا من أبناء المحررين الذين كانوا أتباعا لمختلف أفراد هذه الأسرة (٥٤) .

وقد دخلت الأساليب العلمية والرأسمالية فى زراعة الأرض فى شبه جزيرة هيستريا على أيدى هؤلاء الرجال ، وكادت كل هيستريا الجنوبية تتحول الى مزارع للزيتون وكذلك الحال فى الجزر الواقعة فى خليج پولا وبخاصة الجزيرة الفاتنة : بريونى الكبيرة (Brioni Grande) بما تحتوى عليه من قصر بديع ، توافر فيه الجمع بين القصر الحقيقى والمزرعة الشاسعة ؛ وقد تم حديثا الكشف الدقيق عن هذا القصر على يد ا . جنيرز (A. Gnirs) ويعتبر أفضل مثل لهذا الطابع من القصر الريفى الكبير فى العالم الرومانى سواء فى ايطاليا أو فى الولايات . وقد عثر على كثير من البقايا من قصور ريفية أخرى كبيرة وبديعة ، اتخذت مراكز لضياع كبيرة ، كما عثر على آثار باقية من كثير من البيوت الريفية المتناثرة التى ربما كانت أجزاء من تلك الضياع ؛ وقد ساهم فى التنقيب عن هذه الأطلال أثريون محليون ومعهد الآثار النمساوى . وهناك أوجه شبه تام بين القصور الريفية فى پمپيى ونظيراتها فى ستابياى (Stabiae) فيما عدا أن الانتاج لم ينحصر فى النبيذ وحده (ولم يكن انتاج هذا

النبيذ بكميات وافرة جدا) ، بل كان العماد على زيت الزيتون . ومن بين أوجه الاختلاف الأخرى التى تميز بين القصور الريفية فى پمپيى ونظيراتها فى هيستريا ، أن الأخيرة لم تكن مراكز لضياع متوسطة المساحة وانما (على الأقل فى الأحوال المعروفة جيدا) اتخذت مقار لضياع عادية (latifundia) ذات الطابع الشبيه بتلك التى كانت فى الغال وبريطانيا وبلچيكا وألمانيا وأفريقيا (٥٥) .

وكان الايطاليون المقيمون فى مدن هيستريا يملكون كذلك مصانع للقرميد والجرات ، على مقربة من ترجستى (Tergeste) وپولا ، وكان هذا القرميد وتلك الجرات يتداول استعمالها فى هيستريا وفى دالماشيا وجميع أنحاء أراضى الطونة . ويغلب على الظن أن الايطاليين أصحاب الضياع الشاسعة ، كانوا كذلك يشترون الصوف من انتاج القبائل المحلية الساكنة فى الجبال الواقعة فيما وراء المدن . ومما لا ريب فيه أن سكان المدن كانوا يملكون بعض قطعان الماشية ويكلون الى عبيدهم الاشراف على رعيها . ومن هذا الصوف كانت تصنع الملابس الصوفية الشهيرة فى هيستريا فأصبحت هذه الملابس تنافس السلع المماثلة المصنوعة فى الغال وان كانت الأخيرة مصنوعة من خامات أكثر خشونة وبدائية (٥٦) .

أما المناطق الداخلية من شبه الجزيرة والبلاد الواقعة فيما وراء منطقة ترجستى ، فكانت أقل اصطباغا بالصبغة الرومانية الى حد كبير ، فترجستى نفسها كانت فى أصل نشأتها مستعمرة الليرية ثم بعدئذ قرية يسكنها الكارنيون (Carni) من الكلتيين . وقد سبق أن ألمعنا الى نقش يشير الى الكارنيين والكاتاليين (Catali) بوصفهم مرتبطين بترجستى : وفى أغلب الظن كانت ظروف حياتهم وأحوالهم ذات طابع ريفى فطرى ؛ وقد أصبح « زعماؤهم » رعايا رومانيين . ولكن يحتمل أن جميع أفراد

هذه القبائل لم يبلغوا مطلقا منزلة تؤهلهم للتمتع بالرعوية الرومانية ؛ ويصدق مثل هذا على القبائل الالليرية فى هيستريا بحسب ما تدل عليه النقوش اللاتينية التى تركوها ، ونذكر على سبيل المثال القبائل الساكنة فى نطاق نيسـاكتيوم (Nesactium) وپيكونتـوم (Piquentum) [٥٧] .

والالليريون الساكنون فى دالماشيا وپانونيا وجزء من موسيا العليا ، لم يكونوا شعبا نقيا خالصا ، فكان أقدم سكان هذه البلاد من التراقيين ثم أعقبهم الالليريون الذين استعبدوا تلك البلاد وتلاهم الكلتيون فى الظهور فاختلطوا بأهم القبائل الالليرية وهى جماعات الليبرنيين (Liburnians) والدالماشـيين (Dalmatians) والياپوديين (Iapudians) والمايزايين (Maizaeans) فى البقاع الشمالية من المنطقـة الادرياتية ثم جمـاعة التاولانتيين (Taulantians) والانخيليين (Encheleians) والارديانيين (Ardiaeans) فى البقاع الجنوبية . وعند أول اتصـال بين الالليريين والرومان (ابان القرن الثالث قبل الميلاد) كان للالليريين — شأنهم شأن الايبيريين فى أسبانيا — تاريخ مجيد حافل بالحوادث من قبل ذلك ، ففى أواخر عصر البرونز وأوائل عصر الحديد كان تأثرهم بالحضـارة المينوية شديدا ، ويرجع اتصالهم باليونانيين الى عهد مبكر جدا ؛ وبفضل هذه المؤثرات نشأت وتطورت لديهم حضارة مادية خاصة بهم . وقد تأثرت هذه الحضارة فى الوقت نفسه بحضارة شعوب من ذوى قرباهم ساكنة على الجانب الايطالى من البحر الادرياتى ، وقد كان لهذه الحضارة طابع مميز فى كثير من النواحى ، انفرد بأنه من نوع شائق .

ومن الناحية الاجتماعية عاشت مختلف القبائل الالليرية فى ظروف بدائية الى حد ما ، وكانت المظاهر المميزة لحياتهم قريبة الشبه بنظيراتها لدى الايبيريين ، فالقبائل والعشائر اتخذت من المدن الحصينة الواقعة على قمم التلال والجبال مقاما لها . وكان شغلهم الشـاغل احتراف الرعى

والزراعة ، وفى بعض الأحوال كان يسود بينهم نظام له غرابته ويقوم على اعادة توزيع الأرض كل ثمانى سنوات بين أفراد القبيلة والعشائر . وكان الالليريون ، كما كان الايبيريون فى أسبانيا ، يؤلفون بين حين وآخر ، وحدات سياسية كبرى تخضع للحكم الملكى ، فظهر الانخيليون على مقربة من ابولونيا والتاولانيون بالقرب من ابيدامنوس (Epidamnus) ثم ظهر بعد ذلك الاردیانیون (Ardiaeans) ثم آخر الأمر الدالماشيون (Dalmatians) ، ولكن هذه الولايات لم تعرف الاتحاد والتماسك على حقيقته وانما كانت اتحادات من القبائل والعشائر ، مفككة الأوصال نوعا ما ، أكثر منها ولايات موحدة ذات نظام ملكى (٥٨) .

وقد سلك الرومان مع الالليرين والالليرين — الكلتيين نفس الأسلوب الذى اتبعوه مع الايبيريين والايبيرين — الكلتيين ؛ ففى تاريخ قديم جدا نشأت بين الرومان وبين المدن المطلة على الشاطىء ، علاقات دبلوماسية وتجارية ، اذ أسبغ الرومان حمايتهم على المستعمرات والمدن اليونانية الأولى فى الأراضى الالليرية ؛ وكلما أصبح لمثل هذا النفوذ الرومانى الكلمة المسموعة فى الشئون الالليرية طوال فترة الحروب المتوالية ضد القبائل صاحبة السيطرة والنفوذ ، كلما صارت تلك العلاقات أقوى وأمتن . وعندما تداعت القوة العسكرية لدى الالليريين فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد وأصيبت بالانهيار الى الأبد (ولو أن بعض القبائل كانت لا تزال محتفظة باستقلالها الأسمى) استقرت جماعات كبيرة من التجار والمرابين الايطاليين فى المدن البحرية الأكثر أهمية ، فلما ضمت البلاد الالليرية آخر الأمر ، الى الامبراطورية الرومانية (فى عصر أغسطس من نحو سنة ٣٣ ق.م. ثم على عهد خلفائه الأولين) عمد الرومان الى تحويل هذه المدن الى مستعمرات : فكانت أول المدن استعمارا هى سينيا (Senia) ويادر (Iader) وسالوناى (Salonae) ونارونا (Narona)

وابيداوروم (Epidaurum) ، وقد تضمن الاستعمار انشاء مراكز للحياة الحضرية كادت أن تكون ايطالية صميمة ؛ وقد خصصت لهذه المستعمرات مساحات شاسعة من أفضل الأراضى الصالحة للزراعة وأصبح الكثيرون من أولئك المستعمرين ملاكا للأراضى صادفهم نجاح وتوفيق . ولعلهم استعانوا بالأهالى واتخذوا منهم مستأجرين وعمالا لهم؛ وفى وسعنا أن نتتبع التوسع الرومانى المتواصل فى تملك الأرض فى نطاق سالوناى (Salonae) وناروتا (Narona) . على أن بعض الأسر المقيمة فى هذه المدن كانت فى الحقيقة بمثابة الرواد فى الأراضى الجديدة، فابتنوا لأنفسهم قصورا ريفية فى الأراضى المنبسطة فى دالماشيا وأدخلوا الأساليب الرأسمالية المعروفة فى ايطاليا وفى هيستريا فكان قطع الأخشاب من الغابات والرعى هما أول صور النشاط لدى هؤلاء القوم وبعد ذلك بدأ انتاج الغلال وتلا هذا زراعة الكروم وأشجار الزيتون (٥٩) . وفضلا عن هذه المدن قد أقيم لجند الرومان حصنان فى البلاد ، أحدهما فى بورنوم (Burnum) والآخر فى ديلمينيوم (Delminium) بخلاف عشرات من القلاع والحصون الصغيرة ، ولكن فى عصر ڤسپاسيان انتقلت الأورط الرومانية من دالماشيا الى بانونيا ، ولو أن بعض الحصون الصغيرة بقيت فى أماكنها ؛ ومما لا ريب فيه أن هذه المؤسسات العسكرية ساهمت الى حد كبير فى طبع البلاد بالطابع الرومانى وكانت احدى هذه المؤسسات وهى التى أقيمت فى بورنوم ، مستحوذة على أراض شاسعة صالحة للرعى فى محيطها (٦٠) .

وفى الوقت نفسه كانت الثقافة آخذة فى التغلغل والانتشار شيئا فشيئا فى داخل ولاية دالماشيا ؛ وبفضل تعبئة الجند على نطاق واسع من بين القبائل الالليرية أمكن شيئا فشيئا تكوين أرستقراطية محلية ، مصطبغة الى حد ما بالصبغة الرومانية ومؤلفة من الجنود القدامى بعد الانتهاء

من الخدمة العسكرية فى الفرق المساعدة وعودتهم الى قبائلهم وقراهم . وقد وكل ڤسپاسيان الى هـذه العناصر الأرستقراطية القيـام بالدور الرئيسى فى الحياة القبلية ، وكون منهم ومن بعض المهاجرين الايطاليين ، طبقة وسـطى من « البورچوازية » الجـديدة فى البلـدان المتحضرة وفى الأماكن الحصينة التى يمكن الاعتصام بها فى دالماشيا . وسياسته فى هذا الشأن كانت مطابقة لتلك التى انتهجها فى أسبانيا ، كما كانت تستهدف نفس الغرض . ولم يكن من شأن النظام القبلى أن يقدم من الضمانات ما يكفل الأمن والاطمئنان ؛ على أن روما كانت من الناحية الأخرى ، فى حاجة الى أن تمدها القبائل بعناصر من المتطوعين لاداء الخدمة العسكرية فى القوات المساعدة ، وكان السبيل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو تقسيم القبائل ووضع الاشراف فى أيدى العناصر المصطبغة الى حد ما بالصبغة الرومانية ، أو على الأقل المستعذبة حب النظام عن طريق الخدمة السابقة فى صفوف الجيش الرومانى ، وكان يقع على كاهل هؤلاء ، عبء آخر هو التزام تزويد الأورط الرومانية بالعناصر اللازمة لها ؛ وكان أمرا طبيعيا — ولدينا كذلك فى هذا الشأن أسوة بما كان مرعيا فى أسبانيا — أن كثيرا من المدن الجديدة انتقلت من قمم التلال الى السهل : اذ أن الرومان وجدوا أن الحياة فى المدن الواقعة فى السهل أيسر وأكثر أمنا واطمئنانا بالنسبة لهم من عشش النسور المبنية على قمم التلال الوعرة وحواف الجبال (٦١) .

وقد حصلت البلديات الجديدة بالطرق العادية ، على رقع شاسعة من الأرض ، توافرت فيها الخصوبة واقتطعتها من المنـاطق التى كانت فى حيازة القبائل وقد جرى تقسيم أغلب هذه الأراضى على أولئك الأحرار الجدد ، على حين أن الأرض الباقية لدى القبيلة تركت فى أيدى أصحابها السابقين الذين كانوا يؤلفون سكان الريف ، ولم تكن أسماؤهم مدرجة

فى سجل الأحرار ، بل بقوا على حالهم من الغرباء والأجانب (peregrini) ، وما لبث الكثيرون من هـؤلاء السـكان (incolae) أن أصـبحوا من وجهة النظر الاقتصادية ، على مضى الزمن مستأجرين الأرض من الأغنياء أصحاب الأراضى الذين اتخذوا من المدن مقرا لهم (٦٢) . والى جانب الزراعة قامت تجارة ناهضة فى داخل نطاق الولاية كما نشطت التجارة بينها وبين غيرها من الولايات ونشأت فيها صناعات محليـة ؛ وعلى الشاهد الجنائزى المقام لمواطن فى احدى البلديات الواقعـة فى وادى درينوس (Drinus) الغنى ، بدا المتوفى فى صورتين ، فعـلى أحـد جانبى هذا الأثر الحجرى ظهر فى صورة مالك للأرض وهو قابض بيده على سنابل من الغلال ، وبدا على الجانب الآخر من هذا الشاهد فى صورة الاسكاف الذى يصنع الأحذية (٦٣) . على أن بعض أفراد الارستقراطية الساكنة فى المدينـة أصبحوا على جـانب عظيم من الثراء ، فتملكوا المساحات الشاسعة من الأرض الصالحة للزراعة ومن أراضى المراعى ، وبوصفهم على هذا النحو من الأغنياء ، انضووا فى سلك الوظائف فى خدمة الامبراطور ، وبلغوا فى تسنمهم المجد مرتبة الفرسان ، بل وشغلوا مقاعد العضوية فى مجلس الشيوخ الرومانى (٦٤) .

ودوكليا (Doclea) من الأمثلة الطيبة على احـدى هـذه المدائن المحلية ، وكانت هذه البلدة من قبل هى الحصن الحصين الذى تلوذ به قبيلة الدوكلياتيين (Docleates) ؛ وقد قام عالم أثرى روسى بالتنقيب والكشف عن هذه البلدة وتولى عالم ايطالى من تريسته نشر ما أسفر عنه هذا الكشف . وعلى عهد فسپاسيان وصلت تلك البلدة الى مرتبة البلدية (municipium) ، وكان المواطنون فيها يتألفون من الزعمـاء المحليين (principes) (وهم قادة القبيلة وأولو الأمر فيها) ومن الجنود القدامى والمهاجرين الوافدين من سالوناى (Salonae) ونارونا (Narona)

وما لبثت تلك البلدة أن أصبحت غنية وقد عمها الرخاء : فنجد الأثرياء فيها من ملاك الأراضى يبنون سوقا كبيرة وقد ألحقوا بها باسيليكا (basilica) لا بأس بها وأقاموا بعض المعابد وحماما كبيرا . ويمكن أن يقال مثل هذا عن كثير من البلدان الداخلية فى دالماشيا (ومن هذه على سبيل المثال اسيريا (Asseria) وأينونا (Aenona) الواقعة فيما وراء اليادر (٦٥) (Iader)) ، وجدير بالذكر أنه لم يجر منح واحدة من هذه المدائن مرتبة المستعمرة ، وآخر مستعمرة تم انشاؤها على يد كلوديوس وهى المسماة كولونيا كلوديا ايكووم (Colonia Claudia Aequum) ، وحتى على عهد هادريان الذى أسس سلسلة جديدة من البلديات لم تبلغ واحدة من المدائن الدالماشية تلك المنزلة الرفيعة ؛ فالسياسة التى انتهجتها الحكومة كانت مطابقة لما سارت عليه فى أسبانيا ، ففى كلا البلدين كان واضحا أن اعتبارات ودوافع متماثلة هى التى تملى هذه السياسة ؛ فانشاء البلديات كان القصد منه تقطيع أوصال الحياة القبلية السائدة فى دالماشيا والقضاء عليها آخر الأمر ؛ ومع ذلك فلم تكن الحكومة ترمى من وراء انشائها الى أن عملية طبع البلاد بالطابع الرومانى قد وصلت الى غايتها المرجوة وانما كان انشاؤها خطوة نحو تحقيق هذا الهدف وليس تاجا يراد به الدلالة على بلوغ غاية الكمال فيما تم من تعمير ؛ وفضلا عن ذلك فان التوسع بطريقة شاملة فى طبع الحياة فى الحضر والريف بالطابع الرومانى لم يكن فى صالح الحكومة الرومانية لأنه كان من مقتضيات تلك الحياة أن تحرم الدولة من عناصر ممتازة لاغنى عنها لكل من الأورط الرومانية والقوات المساعدة ؛ ونظرا الى هذه الظروف والاعتبارات ليس بمستغرب أن يكون طبع دالماشيا بالطابع الرومانى من الأعمال التى لم تقترن بالكمال أبدا ، بل ان السكان فى المدائن لم يكونوا على الاطلاق مطبوعين بالطابع الرومانى الصميم ، وكانت

حالة السكان المقيمين بأراضى الريف أقل من ذلك بكثير من حيث انطباعهم بالطابع الرومانى ؛ وفضلا عن ذلك فان كثيرا من القبائل لم تتحضر أبدا وانما بقيت على حالها ، محافظة على أسلوب الحياة الذى ألفته على النحو القديم . ولدينا من الدلائل على ذلك عشرات النقوش على الأحجار الخاصة بالحدود وقد جاء فيها وصف لمختلف حدود الأراضى بين القبائل الدالماشية ؛ والطابع المميز للأحوال السائدة فى تلك البلاد هو أن تقسيمها الى وحدات مئوية أو تحديد التخوم وتخطيطها وفق الأسلوب الرومانى الصميم ، لم يتحقق فيها على الاطلاق على النحو الذى تم به فى پانونيا وداشيا وافريقيا على الأقل الى حد ما . والظاهر أن الأساليب العتيقة فى فلاحة الأرض بقيت مرعية فيما عدا بعض الأحوال الاستثنائية، وأنه لم تكن الحاجة ماسة الى أى تقسيم الى وحدات مئوية (centuriae) على النحو الرومانى : وغاية ما كانت تمس اليه الحاجة هو توزيع الأراضى بطريقة عادلة بين القبائل والبلديات التى كانت حديثة الانشاء (٦٦) .

ومن وجهة النظر الاقتصادية كان من العوامل الكبرى التى استهوت الرومان وجذبتهم الى دالماشيا ، وجود مناجم الحديد الغنية التى كان أهالى تلك البلاد يستغلونها منذ أقدم العصور ، وكان تملك الرومان لهذه المناجم غاية ليس وراءها غاية بالنسبة لهم ، حتى يستطيعوا تزويد الجيوش المرابطة فى حوض الطونة بما يلزمها من أسلحة ومعدات للقتال؛ وكانت هذه المناجم تماثل من حيث أهميتها الحيوية ، نظيراتها فى بلاد الغال بالنسبة للجيش المرابط على الرين . وعلى ذلك كان أمرا طبيعيا أن يتم على وجه السرعة ضم هذه المناجم تحت اشراف السلطة الامبراطورية وأن يتولى ادارتها ملتزمون مخصصون لذلك تحت رقابة موظفين معينين من قبل الامبراطور . أما الأيدى العاملة اللازمة لأعمال التعدين فى هذه المناجم فان القبائل المحلية كانت تقوم بتقديمها وتزويد ما يلزم لهذا العمل

من عمال ؛ وكان أفراد تلك القبائل يألفون هذا النوع من العمل منذ أجيال طويلة ؛ وليس لدينا علم بظروف العمل المحيطة مما كان يخضع له هؤلاء الأفراد ولكن فى وسعنا أن نفترض أنها كانت مشابهة لما كان سائدا فى مناجم أسبانيا من أحوال حيث كان يجرى العمل على منح وحدات من أفراد المعدنين التزام العمل فى حفر مخصصة لهم [٦٧] .

وانه لمما يشبه ذلك ما نعرفه عن التطور الاجتماعى والاقتصادى الذى كان سائدا فى الولايات الواقعة على الحدود حيث كان سكانها من العناصر الكلتية — الأليرية أو التراقية الأليرية ، وهى ولايتا پانونيا (Pannoniae) وولاية موسيا العليا (Moesia Superior) ، وقد تركزت فى هذه الولايات بوجه خاص مظاهر الحياة العسكرية فى الامبراطورية على تخوم الطونة ؛ وليس من همنا أن نتعرض لوصف مراحل غزو هذه البلاد ولا أطوار احتلالها العسكرى ، فقد قام بهذا العمل بأسلوب لا يجارى وطريقة بارعة ، « ممسن » (Mommsen) ومعاونوه فى الجزء الثالث من المحيط الجامع للنقوش اللاتينية (Corpus [Inscriptionum Latinarum]) وقام « ممسن » هذا بتلخيص المعالم الرئيسية فى هذا الموضوع فى الجزء الخامس من التاريخ الذى أصدره عن الرومان ؛ على أن أعمال الكشف والتنقيب التى قام بها العلماء النمساويون فى بعض المعسكرات ذات الأهمية القصوى : وهى پويتوڤيو (Poetovio) ولاورياكوم (Lauriacum) وكارنونتوم (Carnuntum) واكوينكوم (Aquincum) [٦٨] ، قد زودتنا ببعض الأدلة والبينة الجديدة . ولا يتطلب الغرض من هذا الكتاب سوى الاقتصار على اجمال القول فى شأن المظاهر الأساسية فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة فى هذه الولايات .

وان التقدم الذى بلغته حياة الحضر على ضفاف أواسط الطونة وعلى الساف والدراف ، كان العامل الحاسم فيه راجعا الى كبرى المراكز

العسكرية الرومانية ، التى كانت تنتقل بين حين وآخر من الساف الى الدراف ثم آخر المطاف الى الطونة ؛ وسيسكيا (Siscia) وسرميوم (Sirmium) على الساف وپويتوڤيو وموروسا (Mursa) على الدراف وڤندوبونا (Vindobona) وكارنونتوم (Carnuntum) وبريجيتيو (Brigetio) واكوينكوم وسينجيدونوم (Singidunum) وڤيميناكيوم (Viminacium) وراتياريا (Ratiaria) على الطونة وسكوپى (Scupi) الواقعة فى أرض الداردانيين (Dardanians) الشديدى المراس — كانت كل هذه حصونا وقلاعا كبيرة اعتصمت بها الأورط الرومانية ، وبقى البعض منها على حاله هذا الى نهاية عصر السيطرة الرومانية ؛ فموروسا كانت محطة رئيسية اتخذها أسطول الطونة مركزا له ، على أن تلك الأماكن التى اختيرت لاقامة الحاميات والقوات الرومانية لم تكن صحراء بلقعا فكانت القبائل الكلتية والالليرية والتراقية الالليرية تسكن هذه الأقاليم ، ولم يعمل الرومان على ابادة هذه الشعوب وفنائها ؛ وفى الحقيقة كانت أغلب هذه الحصون ، ان لم يكن جميعها ، قد بنيت فى الكنف المحيط من القرى الكبرى الكلتية والالليرية والتراقية ، وعلى مقربة من كارنونتوم وجدت بالتأكيد مثل هذه القرية . وكانت سيسكيا بلدة الليرية مهمة وعاصمة لقبيلة الكولاپيانى (Colapiani) ، كما كانت سكوپى قلعة الداردانيين وراتياريا قلعة الموسيين (وهم التراقيون) ؛ ولمواجهة مطالب هذه القوات العسكرية انتزعت من القبائل المحلية مساحات شاسعة من الأراضى الخصبة والمراعى والغابات وغيرها وخصصت للحصون والقلاع ، وكثيرا ما يرد فى النقوش اللاتينية ذكر مراعى الاورط (prata legionum) وفى أثناء القرنين الثانى والثالث كانت هذه الأراضى تؤجر فى العادة الى الجند ليتوفروا على استغلالها والانتفاع بها [٦٩] . على أن الجزء الأكبر من الأراضى المخصصة للاورط لم يكن يتم استغلاله عن طريق مباشر بوساطة الجند وانما ترك فى أيدى سكان القرى وأهل أحياء الريف (vici)

الذين كانوا مطالبين فى أغلب الظن بأن يتخلوا عن جزء من المحصول الناتج من حقولهم ويسلموا بعض مراعيهم وغاباتهم ومصايد أسماكهم وغير ذلك الى رجال الحصن ، كما كان عليهم معاونة الجند عن طريق القيام ببعض الخدمات الشخصية . ولدينا مثل واضح على استخدام جهود الأهالى على هذا النحو ، فى شاهد جنائزى على شكل عمود (cippus) أقيم لجندى كان ينتمى لقلعة فى كارنونتوم (Carnuntum) وفى الافريز المثلث الشكل فى أعلى الشاهد ، نجد المتوفى وقد بدا فى صورة القابض باحدى يديه على عصا (منسأة) (virga) وهو يسير أمام عربة من عربات الريف وقد جرها ثوران وساقها فلاح اللبيرى ممسك بكرباج وفأس . وجلى أن ذلك الجندى كان يتولى الاشراف على عملية قطع الأخشاب اللازمة للقلعة ، وانه لتحقيق هذا الغرض ، كان يستعين بجهد أحد الفلاحين فى القرية المجاورة (أنظر الصورة رقم ٥٠)[٧٠] .

وعلى ذلك كانت الأراضى الخاصة بهذه الاورط والقبائل المحلية الساكنة فى نطاقها ، خاضعة لاشراف السلطات العسكرية ورقابتها . ولا علم لنا بالمدى الذى كانت تصل اليه رقعة مراعى هذه الأورط (prata legionum) ، ومن العسير أن نفترض أن الأراضى الخاصة بجميع القبائل الساكنة على مقربة من حوض الطونة ، اعتبرت أراضى تابعة لمختلف الأورط بأدق معانى الكلمة . ولكن مهما بلغت مساحة تلك المراعى ، فان تطور الحصون واتساع رقعتها كان يجرى على نهج واحد فى جميع الولايات فى حوض الطونة ؛ فعلى مقربة من هذه الحصون ، أخذت تقوم أسواق المدنيين ومؤسساتهم السكنية وهى المعروفة باسم (canabae) شيئا فشيئا وأصبحت القرى المحلية المخصصة لتكون فى كنف الأورط ، من الجانب الآخر مجالا غمره

الأجانب وانتشروا فى أرجائه شيئا فشيئا وأغلب هؤلاء الأجانب من الجنود السابقين الذين أدوا من قبل الخدمة العسكرية فى الحصن المعنى بالذات ثم آثروا الاستقرار بعد ذلك فى تلك القرى ، والانتظام فى هيئة الأحرار من المواطنين الرومان وجلبوا معهم العادات والطباع الرومانية واستعمال اللغة اللاتينية . وقد وصل الى علمنا ، على سبيل المثال ، أمر جماعة من هذا النوع ، توافرت لديها سبل التقدم والنجاح فى محيط اكوينكوم وكان اسمها «حى ڤندونيان» (vicus Vindonianus) على أن بعض أفراد هذه الجماعة كانوا من الفرسان الرومان [٧١] .

وعلى مضى الزمان تجمعت هذه الأحياء المحلية وانضمت الى الأسواق والمساكن الملحقة بالحصن وتألف منها مستعمرة واحدة اتخذت لنفسها طابع المدينة الحقة ، فبنيت فيها الأسواق (fora) والصالات والأبهاء ذات الأعمدة (basilicae) والحمامات والمسارح والمدرجات ورصفت الشوارع واقتبس الطراز الحضرى المعروف فى المدينة ، فى بناء البيت ، ثم أسبغ آخر الأمر على هذا الجمع المؤلف من الأسواق والمساكن والأحياء الوطنية ، ما كان مرعيا من الحقوق التى يجرى منحها للبلدية (municipium) أو للمستعمرة [٧٢] .

وفى تلك الأجزاء من ولايات حوض الطونة التى لم تكن مخصصة - بحسب الاصطلاح الدقيق لتلك الكلمة — للحصون ، بل احتفظت بنظامها القبلى ، جرى الحكم على نحو ما كان فى دالماشيا ، بترك الأمر فى أيدى ضباط عسكريين ، وذلك على الأقل فى القرن الأول بعد الميلاد ، وكان هؤلاء الرؤساء (praefecti) معينين من قبل الامبراطور أو حاكم الاقليم . وأنطونيوس ناسو الشهير (Antonius Naso) مثل" لحاكم قبيلة الكولاپيانيين [٧٣] (Colapiani) .

ومع ذلك فان الحياة الحضرية فى هذه الأراضى كذلك أخذت

تتطور شيئا فشيئا ، فتحولت بعض القرى الكبيرة الى بلديات (municipia) ، بينما اضطر بعضها الآخر الى قبول نظام يحتم عليها أن تصبح مستعمرة ، قوامها من جند الرومان القدامى ، وعلى هذا النحو نشأت مدن من أمثال سافاريا (Savaria) وسولفا (Solva) واسكاربانتيا (Scarbantia) فى پانونيا ثم ألپيانا (Ulpiana) ومارجوم (Margum) ونايسوس (Naissus) فى موسيا العليا ؛ وقد أرسلت كذلك مستعمرات من جند الرومان القدامى الى پويتوفيو (Poetovio) فى پانونيا وأخرى الى سكوپى (Scupi) فى موسيا العليا ، بعد أن كانتا فى أصلهما حصنين عسكريين هامين (٧٤) . وهذا التغيير الناشىء على مثل هذه البلدان والقرى بتحويلها الى مدن رومانية، كان معناه بالطبع البدء بمراجعة حقوق الملكية العقارية ؛ فمنحت أفضل الأراضى الى أولئك المستعمرين أو الى المواطنين المتمتعين بالرعوية فى المدينة الجديدة ؛ أما أردأ الأراضى فتركت فى حيازة العامة من رجال القبيلة ، على أن الأرض المخصصة لأولئك المستعمرين كانت تقسم فى العادة الى وحدات مئوية (centuriae) وفق الطريقة الرومانية (٧٥) . وفى المناطق التابعة لهذه المستعمرات والبلديات آلت مساحات فسيحة من الأرض الى أيدى فئة قليلة من ملاك الأراضى وتركزت فيهم على مضى الزمان ، وكان بعض هؤلاء من أهل البلاد ومن الجند القدامى ، على أن البعض الآخر كان من الأجانب ؛ ففى منطقة الپيانا (Ulpiana) مثلا كان أحد أفراد طبقة السناتو وهو المسمى فوريوس اكتاڤيانوس (C. Furius Octavianus) يتملك الضياع الواسعة فى القرن الثالث ؛ وعلى مقربة من سينجيدونوم (Singidunum) ابتنى مواطن هو زعيم هذه المنطقة (princeps loci) ، لنفسه ولأسرته مقبرة جميلة وحلاها بالصور والرسوم الفخمة ، وزينها بالتماثيل التى تصور صاحب

المقبرة وأفراد أسرته ، ومما لا ريب فيه أن العمل اللازم لهذه الضياع الشاسعة كان يقدمه من ناحية ، العبيد الذين كانت تجارتهم رابحة ويجلبون من الضفة الأخرى من نهر الطونة ، كما كان يؤديه من ناحية أخرى الأهلون من سكان هذه المناطق (٧٦) .

وليس لدينا من سبيل الى معرفة مقدار الأرض التى كانت لا تزال فى حوزة القبائل المحلية ولا الى التعرف على عدد ما كان يوجد فى پانونيا وموسيا العليا فى القرنين الثانى والثالث من القـرى التى لم تخصص الى واحدة أو أخرى من المدن . فالأقاليم التى على شاكلة داردانيا (Dardania) احتفظت بلا ريب بما كان لهـا من نظـام قبلى قديم لأمد طويل جدا ، بل لعل احتفاظها بهذا الطابع كان الى الأبد ؛ ولكن الحياة احتفظت بطابعها الريفى حتى فى الأقاليم المخصصة للمدن والحصون ، ولم تصبح البلد مطبوعة تماما بالطابع الحضرى والرومانى على الاطلاق . وان نظرة عابرة الى الشواهد والآثار الجنائزية فى پانونيا وموسيا لتكفى للدلالة على مبلغ احتفاظ الأهالى فيهما بعاداتهم وطباعهم الأصـــلية (٧٧) .

على أن الطابع الذى تقدمه ولاية داشيا (Dacia) ، باعتبارها آخر الممتلكات التى استحوذ عليها الرومان على شواطىء الطونة ، كان مختلفا ؛ وعقب الحرب الشنيعة التى شنها تراچان على داشيا فى حملتين وأباد فيهما بطريقة منظمة خير عناصر السكان ، أصبحت داشيا مجـالا للاستعمار الشديد فيما عدا بعض المناطق التى تركت وشأنها للقبائل المحلية . وفى مناجم الذهب فى تلك الولاية كان يجرى العمل بوساطة الدالماشيين من جماعة الپيروستاى (Pirustae) الذين جلبوا من موطنهم الأصلى الى داشيا . أما الأرض الصالحة للزراعة فقد مسحت ووزعت بين المستعمرين الذين جاء أغلبهم من الشرق (من جالاشيا Galatia)

على سبيل المثال) وقد استقرت جموع مختلطة من الجنود السابقين والتجار وذوى الحرف اليونانيين والشرقيين وغيرهم فى المدن العديدة الناهضة وقد أتاح ما كانت عليه البلد من غنى فرصا عديدة أمام أولئك المستوطنين الجدد . ولا داعى لأن يستولى علينا العجب من أنه سرعان ما نشأت طبقة وسطى من البورچوازية الثرية فى المدن ، وعلى ذلك سمعنا عن أسرة فى أپولوم (Apulum) قام أفرادها بدور فى حياة الولاية بوصفهم من التجار وملاك الأراضى ، يكاد يكون مطابقا للدور الذى قامت به أسرة البارببين (Barbii) فى اكويليا وفى ولايات نوريكوم وپانونيا (٧٨) .

ويتألف أغلب السكان الأصليين فى داشيا من التراقيين ؛ وهم أمة كبيرة ذات قوة يعتد بها وتاريخ طويل مجيد ، والتراقيون ، شأنهم شأن الالليرين ، كانوا ينتمون الى الجنس الهندى الأوربى ، وكان ارتباطهم وثيقا من حيث الثقافة والدين بسكان مقدونيا وبلاد اليونان ؛ وتاريخ التراقيين صفحة من الكفاح المتواصل ضد أعداء كانوا يهددون بلادهم من نواحى الشرق والشمال والغرب والجنوب ، فالاسكيذيون (Scythians) والالليريون والكلتيون والمقدونيون ، حاولوا جميعا غزو بلاد التراقيين فباءوا جميعا بالخسران ومنوا بالاخفاق ونجح الرومان ولكن بعد كفاح طويل مرير فى جبال البلقان وفى سهول المجر .

وان ما نعرفه عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية السائدة لدى التراقيين لقليل جدا ، فكل ما خلفوه مدونا لا يعدو وثيقة واحدة وليس فى وسعنا فهم ما جاء فى هذه الوثيقة ، أما البينة الأثرية فلا تزال طفيفة وضئيلة للغاية ، والحقيقة الوحيدة المؤكدة عن حياتهم الاجتماعية والاقتصادية هى أنهم كانوا شعبا زراعيا ، توافرت له سبل الحياة وتركزت أسبابها فى القرى وليس فى المدن ؛ وكان بعض قراهم حصينا ، وربما

كانت واحدة منها مقر الملك وعاصمة لقبيلة أو لعدة قبائل ، على أن هذه القرى لم تكن مراكز حقة لقيام حياة حضرية ، فلم نسمع مطلقا عن وجود أى تطور محسوس فى الصناعة أو التجارة فى نطاق هذه القرى ؛ فسكانها كانوا من الفلاحين الذين يحرثون الأرض والصيادين الذين يبحثون عن الحيوانات والطيور والأسماك والرعاة الذين يقومون بتربية الماشية وظلوا على هذه الحال . وكان نظامهم الداخلى قبليا واتخذ تبادل المتاجر والبضائع بين القبائل صورة أسواق موسمية تعقد ليجرى فيها هذا التعامل ، ولا تزال هى الطابع الأساسى فى الحياة التجارية لدى كثير من الشعوب السلاقية [٧٩] .

وأول اتصال بين التراقيين والرومان تم فى حوض الطونة الأدنى ، فى موسيا السفلى (Moesia Inferior) ، وهذه لم يجر تنظيمها على أنها ولاية بمعنى الكلمة الا بعد ضم التراقيين فى البلقان على يدى كلوديوس ؛ ولكنهم كانوا فى الحق منذ عصر أغسطس وتيبريوس ، يدينون بالولاء والتبعية لروما [٨٠] . وكانت المدن اليونانية الواقعة على الشاطىء الغربى من البحر الأسود أولى من اعترف بالسيادة الرومانية . على أنها كانت من قبل مراكز غنية وقوية ازدهرت فيها الحياة اليونانية، وهذه هى هيستريا (Histria) وتومى (Tomi) وكالاتيس (Callatis) وديونيسوپوليس (Dionysopolis) واوديسوس (Odessos) وميسيمبريا (Mesembria) واپولونيا (Apollonia) [٨١] . وكانت الفرصة الوحيدة السانحة أمام هذه المراكز كيما تسترد بعض ما كان لها فى الماضى من أسباب النجاح والفلاح ، هى قيام قوة سياسية يعتد بها فى حوض الطونة وعلى البحر الأسود ، فلما ضمنت الحكومة الرومانية بسط نفوذها على حوض الطونة الأدنى باقامة سلسلة من الحصون (فى أويسكوس (Oescus) ونوڤاى (Novae) ودوروستوروم (Durostorum) وترويسميس

(Troesmis)) ، أصبحت القبائل التراقية فى حوض الطونة الأدنى وعلى مقربة من شواطىء البحر الأسود بحكم الظروف القاهرة بمثابة التكئة فى ظهير البلاد (Hinterland) بالنسبة لكل من الحصون الرومانية والمدن اليونانية القديمة ؛ وما لم يتوافر قيام نظام اقتصادى واجتماعى مستساغ فى الأراضى الغنية الواقعة فيما بين الطونة والبحر الأسود فان اعتماد كل من الحصون والمدن فى مواردها وجلب المواد الغذائية واستيرادها من الأقاليم النائية يصبح أمرا لا ضمان له . وهـذا هو السبب فى أن الرومان بذلوا قصارى جهدهم فى تنظيم ولاية موسـيا السفلى ، وأظهروا اهتماما بالغا بشئون المدن اليونانية الواقعـة على البحر الأسود فى داخل نطاق الحدود الرومانية وفيما وراء ذلك خارج هذه المنطقة — عند مصب الدينستر (فى تيراس Tyras) والدينيپر (فى ألبيا Olbia) وفى القرم . وطالما كانت داشيا مستقلة فان اسـتغلال موارد دوبريدچا (Dobrudja) نفسها الى أقصى حد مستطاع ، لا يكفل ضمان تزويد كل من الجيش الرومانى والمدن بالمقادير الكافية من المواد الغذائية . وعلى ذلك لقى الاستيراد من جنوب الروسيا ترحيبا وتشجيعا ، وتطلب هذا من الحكومة الرومانية العمل على صيانة الأمن على شواطىء البحر الأسود بكل الوسائل وتقديم المعونة العسكرية للمدن اليونانية فى جنوب الروسيا (٨٢) .

وكان تنظيم الولاية من النـاحيتين الاجتمـاعية والاقتصـادية يتطلب أول الأمر مراجعة حقوق المِلكية فيما يختص بالثروة العقارية ؛ فقسمت الأرض الى مناطق اختصت الحصون ببعض منها والمدن اليونانية ببعض آخر وآل الباقى الى السكان الأصليين ؛ وفيما يتعلق بالأراضى العسكرية كانت الاجراءات التى اتخذت فى موسيا السفلى لا تختلف عما تتبعه مثيلاتها فى دالماشيا وپانونيا وموسيا العليا ، وسار التطور فى

نفس السبيل [٨٣] ؛ وقد حاول الرومان فى المدن اليونانية القديمة أن يعيدوا قبل كل شىء ، الحياة الى النظام الاقتصادى المتداعى الأركان وأن يطعموها بدم جديد ويغـذوها بعناصر جديدة يشجعونها على الاستيطان فيها ؛ وواضح تماما أنهم لتحقيق هذا الغرض وسعوا مناطق نفوذهم وألحقوا بها كثيرا من القرى المحلية وسـخوا فى منح الرعوية الرومانية للمواطنين الجدد والقدامى منهم ، ولم يكن بالطبع لسكان القرى التى ألحقت بالمدن ، أى نصيب فى حكومتها ، اذ كان هؤلاء السكان من وجهة النظر الرومانية أجانب (peregrini) وبقوا كذلك ؛ على أنهم من وجهة نظر المدينة التى ألحقـوا بها ، كانوا شركاء فى الاسـتيطان (πάροικοι) ومن الناحية الأخرى فان سكان المدن عندما يستحوذون على أرض فى نطاق القرى ، يصبحون أعضاء فى الأوساط والمجتمعات القروية ؛ وبما أنهم كانوا أغنى الأعضاء فقد أصبح من المسلم به أنهم بالاشتراك مع المسنين والشيوخ فى هذا المجتمع الريفى ، يؤلفون « مجلس شيوخ » القرية (senate) وكانوا بهذا الوصف ينتخبون أو يعينون الرؤساء والموظفين (magistri أو magistratus) وجميع القرى فى اقليم بذاته ، تختار بدورها كل خمس سنوات ممثلا عن تلك المنطقة كان يلقب بالخاموس (quinquennalis) ، ولعله كان من المفروض عليه أن يوزع على ملاك الأراضى فى القرى ما يفرض عليهم من مبالغ مستحقة للدولة وللمدينة قِبَلهم ، كما كان عليه أن يخصص الأعباء الشخصية الواجبة على كل منهم [٨٤] .

وساد نفس هذا الطابع من التنظيم فى أراضى القبائل المحلية ، ففى نطاقها كذلك كان المواطنون الرومان ، وهـم فى أغلبهـم من قدامى الجنود والمهاجرين من الولايات الأخرى فى حوض الطونة ، يقومون بدور هام فى حياة الجماعات القروية وكان هؤلاء بالطبع بعد استيطانهم،

عاملا أساسيا فى جلب المؤثرات الرومانية ولكنهم فى الحق لم يوفقوا أبدافى تعميم تلك الحضارة وصبغ السكان الأصليين بطابعها الرومانى كاملا. وأصبح يتألف من مجموعة قليلة من السكان والأثرياء ممن استوعبوا الثقافة الرومانية ، قلة كانوا ملاكا للأراضى ، أوتوا بسطة فى العيش ومن حولهم جمهرة من الفلاحين والمستأجرين الذين كانوا يكدون فى فلاحة الأرض لصالح هؤلاء الملاك (٨٥) .

وفى الأنحاء الجنوبية من موسيا السفلى ، فى أراضى التلال والمناطق الجبلية من بلغاريا الحديثة ، أصبح التراقيون الذين كانوا رعايا الأسرة الأودريسية (Odrysian) ، ولكنهم منذ عصر كلوديوس اندمجوا فى ولاية تراقيا الرومانية ، حريصين على الاحتفاظ بكيانهم القديم وحياتهم الجبلية والقروية لفترة تبلغ نحو قرن (٨٦) ؛ فبقيت المئات من القرى متناثرة فى ثنايا التلال والجبال والوديان والسهول وكان سكانها من الفلاحين المجدين وحراث الأرض والرعاة والبستانيين والصيادين ، على نحو الأسلوب المرعى لديهم فى الوقت الحاضر . وزودوا الجيش الرومانى بعناصر من المشاة والفرسان الممتازة ، عرفت بالجلد والبسالة ، ومن أجل الاحتفاظ بهذا المورد الوفير من هؤلاء الجند للخدمة فى الفرق العديدة من التراقيين ، عمدت الحكومة الرومانية الى ترك الكيان الداخلى للبلاد ، على نحو ماكان على عهد الملوك ؛ فكانت الوحدة الأساسية هى القرية ، ومن بين عدد معلوم من القرى كان يتألف ما يعرف بالكومارخية (κωμαρχία) ؛ وتمثل جميع القرى التى تتألف منها القبيلة أو بمعنى آخر مجموعة من الكومارخيات ، الوحدة الادارية والاقليمية وهى الفولى (φυλή) فى القبيلة وفى آخر الأمر كانت قبيلة واحدة أو أكثر تؤلف اقليما (أوقيادة) (στρατηγία) تحت اشراف قائد عسكرى (٨٧) .

وقد تدفقت الثروة الى جيوب الفلاحين التراقيين بفضل ما جلبه السلم الرومانى والفرص السانحة لهؤلاء الفلاحين لبيع محصولاتهم

الزراعية الى مندوبى المؤسسات العسكرية الرومانية والى التجار فى المدن اليونانية الساحلية (وهى ميسيمبريا (Mesembria) وأنخيالوس (Anchialus) ، وابولونيا (Apollonia) على شواطىء البحر الأسود ، وأينوس (Aenus) ومارونيا (Maroneia) وأبديرا (Abdera) على شواطىء البحر الايجى) ، وقد تمخض عن الأسواق القبلية القديمة حيث كانت تقام أسواق موسمية (ἐμπόρια) ، قيام بلدان ثابتة كان يجرى تطورها شيئا فشيئا ، على أن الحكومة الرومانية أنشأت بدورها بعض الأسواق الجديدة مثل سوق (ἐμπόριον) بيزوس (Pizus) ، فكانت تلك الأسواق نواة لمدن فى المستقبل (٨٨) . وكان المواطنون الرومان يرحلون الى أغنى الأقاليم رغبة فى الاستقرار فيها ، وقد آثرت الحكومة الرومانية أن تلتزم موقفا سلبيا نوعا ما مدة من الزمان فلم تبذل كبير جهد فى تدعيم الحياة الحضرية فى تراقيا ، كما أنها لم تتدخل فى مجرى حياة قلة من المدن اليونانيــة القديمة فى الداخــل (فيليپوپوليس (Philippopolis) وپاوتاليــا (Pautalia)) ، وعلى عهد كلوديوس أنشئت مستعمرة رومانية واحدة وفى عهد الفلاڤين ، ثلاث مستعمرات ، وعلى يدى تراچان تمت أولى المحاولات الجدية لتشجيع قيام المدن والنهوض بها لما لذلك من علاقة بعملياته الحربية على الطونة وفى الشرق . ولكى يكون اشرافه على مجرى الحياة فى الولاية أمرا واقعيا ، كان فى حاجة الى مراكز أكثر اتساعا وأفضل تنظيما ، ومن هنا نشأت مدن جديدة (هى تراچانوپوليس (Trajanopolis)، پلوتينوپوليس (Plotinopolis) وتراچــانا أوغســطا (Traiana Augusta) أوبيرويا (Beroea) ثم نيكوپوليس (Nicopolis)) كما أسبغ على بعض القرى نظام المؤسسات البلدية ومنحها حقوق البلديات . ومن الأمثلة على هذه القرى : سيرديكا (Serdica) وقد أصبحت مستقرات مترامية الأطراف،

ازدهرت فيها الحياة . وقد نهج هادريان على هدى سلفه واتبع سياسته . ولا تزال هادريانوپوليس (Hadrianopolis) مدينة قائمة لها جمالها ؛ وتحتفظ بشهرتها وتحمل اسمها القديم .

فهل نجم عن هذه السياسة ما أدى فعلا الى انتشار الحياة الحضرية؟ وهل أدت هذه السياسة الى « تحضير » تلك البلاد وطبعها بالطابع الهيلينى ؟ وقد ذكرنا الطابع الهيلينى لأن النفوذ اليونانى فى البلقان كان ذا دعائم قوية لدرجة أنه لم يفسح أى مجال للنفوذ الرومانى ؛ وانه ليداخلنى كثير من الشك فى أن الحياة الحضرية قد عمت وانتشرت ؛ وانما ترتب على هذه السياسة فصل جزء عن بقية السكان ، يمثل طبقة « بورچوازى » المدينة ، ويتألف من المهاجرين والأثرياء من الأهالى ، كما ترتب عليها القاء أعباء اضافية على كاهل القرى ، وتوارى بعض القيادات (strategiai) لتحل المدائن وأملاكها محلها . ولكن تراقيا ، حتى بما كان فيها من مدن ، استمرت بلد القرى والجماعات القروية تعج بصغار المزارعين من ملاك الأراضى . وكانت المدن بالنسبة لهؤلاء المزارعين نقمة وليست نعمة ، كما يستدل على ذلك من نقش سكاپتوپارى المشهور (Scaptopare) الذى سوف نعرض له فى الفصل الحادى عشر [٨٩]. وقد حرص المزارعون كذلك على شدة الاحتفاظ بجميع خصائص ومميزات حياتهم ودياناتهم ، وقد يوجد الزى التراقى الى اليوم فى الجبال البلغارية ، وقد ترى فى الكنائس المسيحية ، صورة اله عظيم غير مسمى فى شكل صياد ومحارب ممتطيا صهوة جواده التراقى وهو منطلق ، ويقدسه الفلاحون على أنه البطل "Heros" المسيحى العظيم القديس چورچ [٩٠] (St. George) .

والولاية المجاورة وهى مقدونيا (بما فى ذلك پايونيا (Paeonia) والبلاد المطلة على الشاطىء الادرياتى ومنها ديراخيوم (Dyrrhachium)

وابولونيا [٩١] (Apollonia) ، لم تكن أبدا مجالا يسمح باتتشار التمدن والتحضر على نطاق واسع ، وذلك فيما عدا الشاطىء الشرقى لتلك البلاد . والعماد فى قوة المملكة المقدونية يقع على كاهل طبقة الفلاحين المقدونيين وعلى القرى ، وقد منيت البلاد فى أثناء الحروب المقدونية بخسائر فادحة ، ولما خضعت لحكم الجمهورية الرومانية انتابها كثير من غزوات البرابرة المفجعة ثم أصبحت هى وتساليا الساحة الرئيسية فى القتال المحتدم بين قواد الرومان فى أثناء الحروب الأهلية ، فلا غرو أن كانت هذه البلاد المعروفة بخصوبة أرضها ، أقل كثافة من حيث السكان مما كانت عليه فى عهد ملوكها ، على أن تناقص السكان والأهمية الاستراتيجية التى كانت لهذه البلاد — اذ كان يخترقها طريق عظيم يبدأ من ايطاليا عبر شبه جزيرة البلقان ، مارا باجناتيا (Egnatia) الى الشرق — حدا بأغسطس أن يحاول صبغ جزء على الأقل من هذه الولاية بالصبغة الرومانية فيبعث اليها بالمستعمرات المؤلفة بعضها من قدامى الجند وبعضها من المدنيين للسكنى فى كثير من الأماكن المهمة (وهى ديراخيوم وفليباى (Philippi) وديوم (Dium) وپيلا (Pella) وكاسندريا (Cassandrea) وبيبليس (Byblis)) ثم بمنح حقوق البلدية الرومانية (Roman municipium) لأجزاء أخرى من تلك البلاد ، ومن ذلك — على سبيل المثال — بيرويا وهى العاصمة ، وتسالونيكا (Thessalonica) وهى المرفأ الرئيسى ، وستوبى (Stobi) فى بلاد الپايونيين . وكان الرومان ذوى عدد كبير بحيث تكفى كثرتهم لتحول دون أن تبتلعها جماعات السكان المصطبغة الى حد ما بصبغة هيلينية فى المدن المقدونية ولمعاونة الأباطرة فى تعبئة عدد كبير من القوات اللازمة للحرس البريتورى من بين الرومان القاطنين فى الولاية . وقد أصبح أغلب المستوطنين الجدد ، كما جرت العادة ، ملاكا للأراضى ،

وقاموا بدور هام ، لا فى حياة المدن فحسب ، بل كذلك فى حياة القرى ، وقد تملكت أسر كثيرة من طبقة السناتو ضياعا شاسعة فى مقدونيا ومع ذلك فالأثر الذى يخرج به الانسان هو أن الأساس الاقتصادى فى تلك البلاد كان قائما على القبائل المحلية والقرى العديدة وبخاصة الجبلية منها ، المؤلفة من الفلاحين والرعاة (٩٢) .

وليس من الضرورى أن نسهب فى الكلام عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية السائدة فى بلاد اليونان (ولاية آخايا Achaia)) فى عصر الامبراطورية ؛ فالصورة العامة مألوفة ؛ وهى تنم عن الفاقة والفقر والتناقص المستمر فى عدد السكان ؛ ووصف يوبيا (Euboea) المشهور لـديو ذى الفم الذهبى (Dio Chrysostom) هو بالطبع حديث خرافة وخيال ، وبيانه العام فى خطبته فى طرسوس (Tarsus) هو من قبيل المبالغة الخطابية ، ومع ذلك فالمعالم الأساسية التى جاءت فى وصفه عن التناقص والاقفار فى عدد السكان ووجود مساحات كبيرة من الأراضى البور ، فيها بالتأكيد توخ لجادة الصواب (٩٣) . وهناك توكيد بديع للصورة التى وصفها ديو فيما نعرفه عن الحالة الاقتصادية لكثير من المعابد الكبرى فى بلاد اليونان فى عصر الامبراطورية ، وتدل نقوش دلفى (Delphi) على أن دخل هذا المعبد كان مستمدا اذ ذاك بصفة خاصة من الأرض المقدسة والقطعان المقدسة (٩٤) . ويدل نقش من ليكوسورا (Lycosura) فى أركاديا ، تم الكشف عنه حديثا ، على مـدى الفقر المدقع الذى وصلت اليه كل من المـدينة والمعبد حتى عجز كلاهما عن الوفاء بالضرائب المستحقة للرومان من غير المساعدة التى قدمها مواطن غنى (٩٥) . وليس من العسير تعليل هذه الأحوال ؛ فالصناعة والتجارة فى بلاد اليونان قد أصابهما الاضمحلال وانتهى أمرهما وأصبحت بلاد اليونان باعتبارها بلدا زراعيا ، أفقر بلد — تقريبا — فى منطقة حوض

البحر المتوسط ؛ فلا عجب أن اليونانيين ، وأغلبهم ذوو مهارة وحظ من الثقافة والتعليم ، خرجوا فى جماعات للهجرة الى بلاد أتيحت لهم فيها فرص أفضل ، ولكن من المبالغة فى القول أن نتحدث عن خراب كاد أن يكون شاملا للبلاد ، فالمدن كان لايزال بها طبقة وسطى من « البورچوازية » على قدر من الثراء ورغد العيش من أمثال پلوتارك من أهل خيرونيا (Chaeronea) ، وكانت أغنى الأراضى فى بلاد اليونان لا تزال تنتج القمح والزيت والعنب والنبيذ . بل ان بعض هذه المنتجات (زيت اتيكا — ونبيذ بعض الجزر) كانت تصدر الى الولايات الأخرى ، وكانت الثروة العقارية متركزة فى أيدى أسر قليلة تسكن فى مختلف المدن مثلما كانت عليه الحال فى العصر الهيلينستى . أما العمل اللازم للأراضى الخاصة بطبقة « بورچوازى » المدينة فكان ينهض به فى الأحوال العادية — طبعا — العبيد والمستأجرون . وعلى ذلك فالوصف العام المشهور الذى قدمه پلوتارك لابد من تقبله على حذر (cum grano salis) ؛ إذ أن الصورة التى كانت فى ذهن پلوتارك هى بلاد اليونان فى عصرها الذهبى المجيد ، أيام ثيميستوكليس (Themistocles) وبركليس (Pericles) ، وبلاد اليونان على هذه الصورة كانت قد ولت إلى الأبد[٩٦] .

الفصل السابع

الامبراطورية الرومانية فى زمن الفلاڤيين والأنطونيين

الحضر والريف فى الولايات الرومانية

فى آسيا وأفريقية

اذا عبرنا بحر ايجه أو اجتزنا المضايق من الغرب الى الشرق ، جئنا عالما آخر هو دنيا المدنية الشرقية التى تطاولت عليها الدهور والتى تميزت بنظام اجتماعى واقتصادى خاص . فلم تستطع جزر من الثقافة الهيلينية نسقت وسط لجج من أهل المشرق أن تحدث تغييرا شاملا فى مظهر هذه البلاد ، بل بقى هنا نفس التناقض بين نظام الحياة اليونانية فى المدن والمعيشة الشرقية فى القرى ، وظل قائما فى عهد الامبراطورية كما كان من مميزات العصر الهيلينستى البينة. أما فى أفريقية فقد كانت الفوارق أقل وضوحا ، وذلك لأن الحياة فى مدن أفريقية لم تتطور كنتيجة للنفوذ اليونانى ، وانما كان مرد ذلك الى أثر الفينيقيين ، ومن بعدهم الى الرومان .

كانت الولايات الرومانية فى آسيا الصغرى بلاد الغنى والرواج . ولا حاجة بى هنا الى الافاضة فى الكلام عن أحوالها الاقتصادية والاجتماعية ، اذ أنى تناولت هذا الموضوع بالبحث فى مؤلف خاص [1] . ويكفى هنا أن أذكر فى ايجاز النتائج التى وصلت اليها فى ذاك الكتاب ، وأن أناقش الأدلة الجديدة التى ظهرت فى السنوات الخمس عشرة الأخيرة . تعددت أنظمة الملكية فى ولايات آسيا الصغرى . وأول هذه النظم نظام الملكيات الصغيرة والكبيرة الذى ساد فى أراضى المدن اليونانية من عهد

قديم أو حديث ، والذى اعترف به الرومان وأبقوا عليه . كانت الأراضى التى تدخل تحت هذا النوع يزرعها مالكها اما بنفسه ، واما بوساطة عبيده أو المستأجرين منه . وان كنا لا ندرى كم من أراضى المدن كان يستغل على هذا النمط . الا أنه قد وضح من بعض الوثائق التى ترجع الى عصر متأخر أن هذا النظام كان واسع الانتشار فى المدن القريبة من البحر [٢] . وفضلا عن هذه الأراضى التى قسمت بين المواطنين (κλῆροι) ، كان لكثير من المدن اليونانية القديمة مساحات شاسعة يقطن بها ويزرعها السكان الأصليون الذين عاشوا فى قراهم العتيقة . وهذه القرى كانت تعتبر فى نظر الرومان « ملحقة » أو « تابعة » للمدينة . أما اليونانيون فقد دعوا سكان هذه القرى بالجيران (πάροικοι) أو (κάτοικοι) . ولم يكن لهؤلاء السكان ، ولم يقدر لهم أن ينالوا فى يوم من الأيام ، حقوق المواطنين كاملة فى انتخابات البلدية . وقد أثار النهج الذى يجب أن يتبع فى معاملة هذا العدد الجم من القرويين مشكلة واجهت الطبقات العليا فى المدن ولا تقل فى خطرها عن مشكلة الرعاع فى داخل المدن . تمسك القرويون بحقهم فى التمتع برعوية المدينة ، وجهدت الطبقة الحاكمة من بين الأرستقراطيين فى تأخير حل هذه المشكلة ، اذ ربما جر عليهم حلها نتائج مالية بغيضة الى نفوسهم . ويعطينا ديو (من بلدة پروسا Prusa) فى خطبته الذائعة عن « الاتحاد » (συνοικισμός) لمحة ترينا الاضطراب الذى بعثه العداء بين المدن والقرى . وهو كرجل فيلسوف حر التفكير يلح فى وجوب اتحاد المدينة والقرية (συνοικισμός) حتى تتألف منهما وحدة اجتماعية واقتصادية . وقد كانت هذه المشكلة من المسائل الحيوية لكثير من مدن آسيا الصغرى ، نضرب لذلك مثلا مدينة كيلايناى (Celaenae) الغنية ، عاصمة فريجيا ، فقد ألحق بها كثير من القرى [٣] .

وعلى الرغم من التكاثر المستمر فى عدد المدن فى طول البلاد وعرضها ، بقيت هناك مساحات كثيرة من الأراضى لم تصبح قط جزءا من منطقة أى

مدينة . وهذه الأصقاع كانت للامبراطور أو أفراد أسرته — وهم الذين ورثوا ملك الحيثيين والفريجيين والليديين والفرس وما كان للأمة الرومانية وما امتلك منافسو قيصر وأغسطس — أو أفراد من العائلات السناتورية الغنية أو المعابد القديمة المبعثرة هنا وهناك فى شبه الجزيرة والتى شادها السكان الأصليون لآلهتهم والاهاتهم (٤) . وبعض هذه المعابد اندمج فى المدن أو «ألحق» بها ، ولكن كثيرامنها ، لاسيما فى أرمينيا وكاپادوكيا وكوماجين ، كان لا يزال محتفظا بمناطقه الخاصة ، ولم يكن أقل استقلالا من ضياع الأباطرة أو أعضاء مجلس الشيوخ (٥) . كانت الحياة على الأراضى التى لم تتبع أى مدينة من طراز ريفى ساذج . فالفلاحون الذين زرعوا الأرض كمستأجرين أرقاء للأباطرة أو كمستأجرين أحرار من أعضاء مجلس الشيوخ ، أو كعبيد مقدسين ، أو أرقاء لآلهة الأناضول عاشوا فى قرى بعيدة جدا عن المدن ، وكانوا لايدرون شيئا عن حياة المدن وحضارتها . ولقد امتدت بعض هذه القرى وزادت أهميتها الاقتصادية ، ونال بعض الفلاحين غنى ونجاحا . وربما كوفئت القرية على هذا النماء بمنحها دستور المدينة ، غير أن هذا كان نادرا ؛ اذ بقيت قرى آسيا الصغرى الى آخر أيام الامبراطورية الرومانية ، والى عصر الفتح التركى على ما هى عليه الآن ، مجرد مجموعات من أكواخ الفلاحين فى كل منها سوق وضريح و « خان » ودور للسلطات المحلية وبيوت لعمال الحكومة (٦) . وأخيرا ، لقد عاشت فى جبال كيليكيا وايسوريا المتوحشة وفى جبال طوروس وطوروس الأرمينية وفى هضاب كاپادوكيا وأرمينيا المرتفعة قبائل من الرعاة عيشة تشبه حياة البدو ، دون أن يعنوا بالجهة التى سيدفعون اليها جزيتهم السنوية الضئيلة . وكانوا ينهبون ويسلبون أى انسان ان واتتهم فرصة .

ليس من اليسير أن نقول كم من أراضى آسيا الصغرى ضم الى المدن وكم منها أعفى من ادارة المدن . لقد اختلف القدر باختلاف الأقطار . فانتشرت المدن بكل تأكيدعلى السواحل : ونكاد نجزم بأن حوضى نهرى

هرمــوس وميانذر قد وزعا بين المدن . ولكن كلما ابتعــدنا عن البحر والأنهار الكبيرة كلما قل عدد المدن . وفى بعض أجـزاء كيليكيا وفى كاپادوكيا وأرمينيا وكوماجين ندر وجود المدن ندرة حقيقية . وكانت كاپادوكيا لا تزال مقســمة الى قيادات (Strategiai) ، على رأس كل منها شيخ أو ساتراب . وحتى فى المناطق التابعة للمدن سارت الحياة على وجه العموم على النهج الريفى . وجرت الحياة فى خارج المدينة نفسها على الأساليب الشرقية العتيقة فى مئات من كور الفلاحين . وعلى الرغم من أن هناك مدنا كبرت ونمت ونجحت نجاحا مشــهودا ، بقيت آسيا الصغرى بلاد القرى والفلاحين [٧] .

ومنذ عصر أغسطس اندمجت فعلا فى الامبراطورية الرومانية تلك المدن اليونانية الواقعة على الشواطىء الشمالية والشرقية للبحر الأسود وفى بلاد القرم وكذا مملكة البسفور المتأغرقة . ولقد تحدثت فى مؤلف خاص عن تاريخ هذه الأصقاع من الناحيتين السياسية والثقافية فى أوائل عصر الامبراطورية [٨] . ويمكن تقسيم هذه البلاد التى نكتب عنها من وجهتى النظر الاجتماعية والاقتصــادية الى أقســام ثلاثة : مناطق المدن اليونانية (ولا سيما أولبيا وخرسونيسوس والثغور القائمة على شاطىء القوقاز) ، ومملكة البسفور ، والقبائل والحكومات التراقية والايرانية التى كانت تخضع اسميا لملك البسفور . أما اقليم خرسونيسوس فربما كان مقسما الى اقطاعيات (κλῆροι) — كما يتضح من البقايا الأثرية — يملكها مواطنون أكثروا من غرس الكروم [٩] . أما فى اولبيا وفى المــدن الكثيرة المتأغرقة والقائمة على مصب الدنيبر والبج(Bug)، فقد اختلفت أحوالها . ولسنا ندرى شيئا مباشرا عنها . ولكن يمكن أن نفترض أن الأراضى الخصيبة كان يزرعها السكان الأصليون ، وكانوا يؤدون عنهــا جعلا الى سادتهم المدججين بالسلاح . وقد درج هؤلاء السادة على أن يهجروا مدنهم فى فصلى الربيع والصيف ليقوموا بالاشراف على زرع الأرض [١٠] .

ولدينا معلومات أغزر عن الأسس التى قامت عليها الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مملكة البسفور [١١] ، وكانت تضم ما يسمى بشبه جزيرة كرش وجزءا من شبه جزيرة تامان — اقليم پانتيكاپايوم وثيودوسيا ومدن أخرى صغيرة على شاطىء القرم من مضيق كرش ، ومن فاناجوريا والمدن الأخرى التى فى شبه جزيرة تامان . وكان يحمى هذه الأرض الخصيبة ، ولكنها ليست جد متسعة ، من غارات السكان من أنصاف البدو فى القرم وشبه جزيرة تامان أسوار من التراب ، عليها مراقب وقلاع صغيرة (castella) . وتحيط هذه الأسوار بأرض الملك والمواطنين فى المدن اليونانية ، كما تحيط بأراضى المعابد والكهنة . وكان يقوم بفلاحة هذه الأراضى وحراسة دواب أصحابها (وكان أكثرها من الخيول) جماعة من السكان الأصليين يعيشون فى أكواخ وكهوف ، وقد كانوا فى حكم رقيق الأرض ، ان لم يكونوا ملكا لسادتهم [١٢] . وكان ملاك الأراضى وأسرهم وتابعوهم المسلحون يتركون المدن فى فصل الربيع على ظهور الجياد أو فى عربات ثقيلة لكل منها عجلات أربع ويقيمون تحت الخيام فى الحقول يراقبون فلاحة الأرض ورعى القطعان . كانوا مدججين بالسلاح ، يصحبهم خدم مسلحون ، يخرجون من خيامهم فى الصباح ويعودون اليها فى المساء . فاذا ما اقترب من الأسوار جماعة من اللصوص وأرسلت الانذارات من هذه الحوائط تعلن دنو فريق من اللصوص ، خرج الملاك وتابعوهم وعصبة مسلحة من الفلاحين ليقاتلوا العدو ، ولينتقموا دون ريب لأنفسهم بالاغارة على حقول جيرانهم وقطعانهم . ثم انهم يعودون فى الخريف الى دورهم فى المدن ، ومعهم ما جمعوا من حبوب . ومن المحتمل أن الماشية كانت تبقى فى السهول تحت حراسة خاصة [١٣] . أما المحصولات التى جمعها هؤلاء الملاك فكانت تباع لتجار من بلاد اليونان ومن آسيا الصغرى . وكان للملك جزء كبير من هذه الغلال ، أخذه ضريبة من الملاك أو استنبته فى أراضيه الخاصة . وكان الملك حقا أكبر مالك للأراضى وأكبر تاجر للغلال فى مملكته . وكان يبعث بجزء من غلاته الى

الجيوش الرومانيـــة ، وعـــلى الأخص الى جيوش پونتوس وكاپادوكيا وأرمينيا ، ويأخذ ثمنا لهـــذه الغلال نفحة ســـنوية يقبضهـــا من حاكم بيثينيا (١٤) .

وفى سهول القرم اتخذ ملك سكيثيا قصره فى بلدة نياپوليس وهى مدينة تكاد تكون يونانية تقع بالقرب من مدينة سيمفيروپول Simferópol الحديثة ، وعاش حياة لاتختلف كثيراعن حياةملك البسفور . وكان الملاك هنا هم أفراد القبيلة الحاكمة ؛ وكانت الغلال ترسل من ميناء يوپاتريا الى أولبيا ، ومنها الى بلاد اليونان والى جيوش نهر الطونه . وكان جزء من هذه الغلال يباع لتجار من خيوس (١٥) . ومن المحتمل جدا أن حياة مماثلة سادت بين القبائل المايوتية والسارماتية فى شـــبه جزيرة تامان ، وعلى نهر كوبان ، وعلى شواطىء بحر ازوف وعلى نهر الدون . فالسارماتيون مثلا استعبدوا بلا ريب سكان وادى نهر كوبان وأجبروهم على العمل لهم . وكانت المحصولات تحمل على ظهور السفن التى تسير فى نهر كوبان الى المدن اليونانية فى شبه جزيرة تامان ، والتى تشق نهر الدون الى تانيس ، ومن هناك الى پانتيكاپايوم . ويحتمل أن عين هذا النظام كان متبعا — مع تغيير ملائم — فى مصائد الأسماك فى مصبات أنهار روسيا الكبيرة وفى بحر ازوف وفى مضيق كرش . وقد وضع تجار من المدن اليونانيـــة فى النهاية أيديهم على ما تنتج المصائد ، وصدروا كميات كبيرة من السمك المملح والمجفف الى الأسواق اليونانية والرومانية ، بما فى ذلك أسواق الولايات الغربيـــة (١٦) .

وعلى هذا كان أكثر سكان المدن اليونانية من ملاك الأراضى والتجار . وفى مملكة البسفور قام الملك على رأسهم ، بينما ألف المواطنون تحت امرته جيشا حسن النظام شد أزر الحاميات الرومانية فى خرسونيسوس وأولبيا. وقد قدم كبار تجار البســفور السفن التى كونت جزءا من الأســطول الرومانى الذى كان يمخر مياه البحر الأسود . وبجانب الملاك وكبار تجار التصدير (ولعل أكثرهم من الأجانب) عاش فى مدن روسيا الجنوبيـــة

رجال أعمال اشتغلوا بانتاج السلع التى تطلبها بلاد سارماتيا وسكيثيا وبعض التجار الذين أوفدوا ممثليهم ليتجروا مع هذه البلاد وعاشت جموع غفيرة من الرعاع أكثرها من الأرقاء الذين يعملون فى أحواض السفن والموانى ومصانع المدن . وليس من ريب فى أن سكان المدن كانوا قلة قليلة حتى فى مناطق المدن نفسها وأن المدنية الهيلينية وانتشار الحضارة اليونانية كانا فى تقلص لا فى تقدم على شواطىء البحر الأسود ، فقد طغت عناصر ايرانية تدريجا حتى على المدن ، وصبغت سكانها أنفسهم بالصبغة الايرانية (١٧) .

وليس من اليسير تكوين فكرة صحيحة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى البلاد السورية . فيجب أولا أن نحذر من التعميم والتحدث عن البلاد السورية كأنها وحدة واحدة ، بل لابد أن نميز ونفرق بين الأراضى الأرامية فى شمال البلاد السورية على حدود آسيا الصغرى وبين سواحل فينيقية وفلسطين والأراضى المجاورة للصحراء بما فيها الواحات الواسعة ولاسيما واحات دمشق وتدمر . فالأراضى الواقعة فى شرقى نهر الأردن وما يسمى بالمدن العشر (ديكاپوليس) (حوران الحديثة واللجاة) وبلاد العرب الحجرية (Arabia Petraea) كونت وحدة منفردة بذاتها . وقد كشفت الأبحاث الأثرية الحديثة ، لا سيما فى شمال سوريا وحوران وبلاد العرب الحجرية ، عن أشياء جديدة لها قيمتها فى مساعدتنا على تكوين فكرة عن هذه البلاد من الناحية الاجتماعية والاقتصادية حيث تكثر الى حد كبير بقايا الحياة القديمة كأطلال المدن والقرى والمساكن الريفية والضياع . ويجب ألا يعزب عن بالنا أن العصر الرومانى كان فترة قصيرة فى حياة تلك الأقطار وهى حياة امتدت قرونا طويلة قبل الاحتلال الرومانى وبعده . فلم يكن لدى رومة متسع من الوقت ، ولم تكن تملك من القوة ما يمكنها من احداث تغيير أساسى أو حتى مجرد تبديل فى حياة البلاد . ولهذا اكتفت بتغييرات طفيفة غير أساسية . ولا يمكن أن نرسم صورة كاملة للنظم

الاجتماعية والاقتصادية فى سوريا الرومانية (بأوسع معانى الكلمة) دون أن نحظى بمعلومات وافية عن أحوالها فى الفترة التى سبقت الرومان . وعلمنا بهذه الأحوال فى الحقيقة قليل الا فيما يمس فلسطين . ولهذا فالصورة التالية قد تكون بعيدة عن الكمال ، ولكنها قد تفى بتحقيق ما نهدف اليه الآن (١٨) .

تتألف الأراضى السورية فى الشمال على وجه عام من مناطق أربع مدن كبيرة ، أسست كلها فى العصر الذى تلا الاسكندر — وهى أنطاكية وميناؤها سلوقية وأفامية واللاذقية ، ويطلق عليها كلها فى بعض الأحيان مدن سوريا الأربع (تتراپوليس) . ولم تستكشف واحدة من هذه المدن بعد ، وليس بأيها أطلال لا تزال قائمة يراها الزائر . ولهذا كانت أدلتنا التى نستقيها من النقوش والآثار ضئيلة جدا ، الا فيما يخص الأقليم الواقع فى شمال أنطاكية فهو يزخر بأطلال جميلة ، أكثرها من أواخر العصر الرومانى . غير أن أدلتنا التى نأخذها عن المصادر الأدبية تفوق كل ما تعودناه ، على الأقل فيما يخص أنطاكية ولا سيما فى القرن الرابع بعد الميلاد . فلقد رسم ليبانيوس ويوحنا فم الذهب ، ثم من بعدهم مالالاس ، وهم من مواطنى أنطاكية ، صورا تتلألأ عن حياة مدينتهم الجميلة . ويعطينا الامبراطور جوليان كذلك لمحات ممتازة فى كتابه « عدو اللحى » (ميسوپوجون) وفى بعض مؤلفاته الأخرى .

كانت أنطاكية ، عاصمة ملوك السلوقيين فى سوريا وحاضرة ولاية سوريا الرومانية فيما بعد ، من أكبر مدن الامبراطورية وأروعها . كانت تملك منطقة شاسعة الأرجاء . ويتحدث جوليان عن عشرة آلاف اقطاعية (κλῆροι) كان مجلس المدينة يؤجرها حقا الى المواطنين . وفى القرن الرابع أصبح أكثر أراضى البلدة فى أيدى نفر قليلين من أثرياء الملاك (١٩) . فهؤلاء هم الذين كانوا يملكون الدور الريفية الرائعة التى يصفها القديس يوحنا فم الذهب . وتدل أطلالها الباقية فى حالة جيدة ، والتى فحصها المرحوم هـ.ك. بتلر ، على أن هذه الدور الريفية كانت متسعة الأرجاء ، متينة

البناء ، بهـا اصطبلات وحظائر للماشـية وحجرات للعبيد فى الطـابق الأرضى ، وغرف مترفة للملاك والمديرين فى الطابق العـلوى [٢٠] . وفى القرن الرابع كان هؤلاء الملاك الأثرياء يمثلون عشر السكان تقريبـا ؛ وكان العشر الثانى يتألف من الرعاع . أما البقية فكانوا على ما يظهر ملاكا صغارا أو تجارا على جانب من الثروة . وعلى هذا فاننا نشاهد فى أنطاكية عين التطور الذى نراه فى ايطاليا والولايات الرومانية عامة ، ألا وهو تجمع العقار تدريجـا فى أيدى ملاك من المـدن [٢١] . وكانت الأراضى الزراعية أثناء ذلك القرن يفلحها صغـار المستأجرين . أما الكروم فكان يعمل فيها الأجراء . وقد أسهب القـديس يوحنـا فم الذهب فى وصف حياتهم ، ورسم لها صورا رائعة . وكان من المنتظر أن نجـد هنا أيضـا فلاحين (coloni) من الطراز العادى ألحق بالأرض كالأرقاء وأشباه العبيد الذين يدينون بالولاء لملاك الأراضى ، ولكنا لا نعثر على أى اشـارة فى كتابات القديس يوحنا على قيام مثل هذه العلاقة بين المالك وعماله . بل اننا نرى من ثنايا الصورة التى يرسمها لهم أنهم كانوا مستأجرين أحرارا أو أجراء يستغلهم سادتهم ويعيشـون فى فقر مدقع ولكنهم لم يكونوا ملحقين بالأرض ومسـتعبدين [٢٢] . ومهما يكن ، فسـكان الريف من الفلاحين وصفهم على الدوام كتاب القرن الرابع بأنهم طبقة فقيرة معذبة يسـومها الخسف أولئك الأغنيـاء الذين يملكون الأراضى ويقطنون بالمدن [٢٣]. وكان الفلاحون على استعداد أن يعلنوا كراهيتهم لمضطهديهم فى أول فرصة [٢٤] . ولا يحتمل مطلقا أن تكون هذه الحال قد نجمت عن التطورات التى تمت فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد . وانى أميل الى الاعتقاد بأنها وجدت فى العصر الهيلينستى وأوائل العصر الرومانى على السـواء .

ومن المحتمل أن المسـتأجرين والأجراء الذين كانوا يعمـلون على الضياع الواسعة التى يملكها المواطنون فى أنطاكية كانوا ملاكا صغارا يقطنون القرى التى بعثرت فى طول الأقليم وعرضه ، ذاك الأقليم التابع

للمدينة والملحق بها . وكان سكان هذه القرى طبعا هم الأهالى الأصليين الذين أقاموا هنـــاك على مدى العصور . وليس هنـــاك أقل شك فى أنهم حرموا نصيبهم فى حياة المدينـــة ، بل لم يكن يجـــول بخاطرهم حتى فى أحلامهم أنهم سيصبحون مواطنين فى يوم من الأيام . وفى هذه الناحيـــة تأخرت سوريا حتى عن آسيا الصغرى . وبينما لم تبعث المدن بجنـــدى واحد الى الجيش الرومانى ، كانت القرى على الدوام مصدرا أساســـيا لحشد عسكر يوثق بهم فى الفرق المساعدة والكتائب (٢٥) .

ويمكننا أن نفترض ، ونحن مطمئنون ، أن هذه الظروف عينهـــا قد سادت فى أراضى المدن الأخرى فى شمال ســـوريا . ويقـــوم الى جانب المناطق التابعة للمدن فى شمال سوريا أراض تملكها المعابد وتتمتع بما يشبه الاســـتقلال الذاتى . ونجد مثلا لهذا الطراز فى معبد بيتوكيكى (Baitocaece) وكان يملك قرية كبيرة وكان ملحقـــا بمدينـــة أفامية . ونستطيع من نقش كتب باللغتين اليونانية واللاتينية أن نتتبع تاريخه من العصر الهيلينستى الىزمن الامبراطور ڤاليريان وقدبقيت حاله دون تغيير كبير طيلة هذه الحقبة . تمتع المعبد باعفاء كامل ، فكان يملك الأرض ، ويجبىالدخل . وقام« نزلاء» المعبد ويعرفون بالمجذوبين (κάτοχοι) بالاشراف على الحفل السنوى الذى كان يقام كل عام حول المعبد ، وكانوا يمثلون المعبد فى شئونه واتصالاته بسلطات البلدة . وكانت هذه السلطات ترفع بدورها شكاة المعبد الى الهيئات العليا ، وحتى الى الامبراطور نفســـه . ويمكن القول ان عددا كبيرا من المعابد الأخرى كان يتمتع بمزايا مماثلة ، كالمعبد المشهور لجوبتر فى قرية دوليخى (دلوك) (Jupiter Dolichenus) وهى قرية فى شمال سوريا ، أو كمعبد بعلبك . وكانت هناك مناطق تملكها معابد تتمتع باستقلال أكبر . فقد كون الايتورايبون فى اقليمى أبيـــلا وخالقيس منأعمال لبنان دويلات خاضعة لرومة ، بقيت الأولىحتى عصر كلوديوس ، ودامت الثانيـــة حتى زمن تراجان . ويمكننا أن نتخيل أن

المدن هنا لم تكن أكثر من قصبات لمناطق زراعية كبيرة استمرت تحيا حياتها القروية القديمة (٢٦) .

تشابهت الأحوال السائدة فى أراضى المدن التجارية الكبرى كدمشق وحمص وتدمر — لا نقول شيئا عن أراضى مدن كاديسا (الرّها) فى أوسروينى (Osrhoëne) التى لم تندمج قط اندماجا تاما فى الامبراطورية الرومانية ، بل استمرت قرونا عديدة تحكمها أسرتها الملكية الأصيلة — مع تلك الأحوال التى سادت فى مملكة البسفور وعاصمتها پانتيكاپايوم أكثر مما أشبهت أراضى المدن فى الولايات الرومانية . وقد تحدثنا من قبل عن تدمر التى امتد سلطانها فشمل اقليما كبيرا اكتظت فيه القرى كما شمل بعض القبائل البدوية . وقد ورد ذكر هذه القرى التى لم تكن فى بعض الأحيان الا ضياعا يملكها كبار التجار فى تدمر فى « مكوس » تدمر التى ذاع صيتها . ولقد جاء دون ريب من القرى والقبائل الرماة المتازون وراكبو الابل السريعة (dromedarii) من بين أجناد تدمر وجنود الجيش الرومانى . وقد نمت بعض الأماكن كدورا (الصالحية) الواقعة على حدود منطقة تدمر والتى تتحكم فى الطرق الحربية والتجارية المؤدية الى بارثيا فأصبحت مدنا ناجحة تلتف كل منها حول قلعة حربية (٢٧) . وهذه الصورة عينها من المحتمل أنها تنطبق على دمشق ، وكانت أراضيها تتاخم صيداء (٢٨) . أما حمص — فكما هو معروف — ظل يحكمها ملوك كهان من الطبقة الأرستقراطية الأصلية فى المدينة طوال حكم الرومان . وقد اندمج هؤلاء النبلاء — كما حدث فى تدمر ودمشق — فترة قصيرة فى سلك الأرستقراطية الامبراطورية وأظهروا نشاطا ملحوظا فى حمل أعباء الادارة فى الامبراطورية ، وذلك قبل أن يرتقى اثنان من أعضائها عرش الامبراطورية . وفى القرن الثالث عاد سليل من بيت سامپسيجراموس (Sampsigeramus) العتيق الى عرش حمص وقاد رعاياه لمحاربة بارثيا ، كما فعل ملوك تدمر وأسرة أبجر (Abgari) فى اديسا (الرّها)(٢٩) . ولم تختف قط تلك الأحوال التى أوجدت النظم الاقطاعية الشرقية فى سوريا ،

ولم تصبح قط مدن كحمص ودمشق وتدمر والرهاء مدنا يونانية بالمعنى المتعارف كما أصبحت أنطاكية مثلا ، ولكنها بقيت كما كانت موطنا لملوك كهان . وما فتئت هذه الحكومات تقوم كما كانت الحال منذ القدم على الرهبة الدينية التى غمرت أفئدة الفلاحين فى الشرق نحو ممثلى الاله على أرضه وهم الأمراء الكهان .

اننا لا ندرى الا النزر اليسير عن مدن فينيقية فى العصر الامبراطورى فيما عدا الدور الذى لعبتـه فى حياة الامبراطورية من الوجهـة التجارية والصناعية . وقد تحدثنـا عن هذا الدور فيما سـبق . أما فيمـا يخص فلسطـين، فيجب أن نميز ، بل نعزل عن بقيـة القطر تـلك الأمصـار اليونانية الفيليستينية القديمة القائمة على الساحل (كغزة وأنثيدون(تيدة) وعسقلان ويافا وپتوليمايس — عكا) وكذا المنشآت الجديدة التى بناها هيرود فى الداخل وعلى الساحل ، ولا سيما قيصرية على البحر الأبيض وطبرية وسباستى (السامرة) ومدينة نياپوليس الرومانية (نابلس) التى شيدت فى عصر متأخر . وقد لا يكون هنا محل لتتبع تطور المدن «الوثنية» أعنى المدن الفلسطينية التى تأثرت الثقافة اليونانية . ومن المحتمل أنه لم يكن بينها وبين مدن سوريا وفينيقية اختلاف كبير . كان لكل مدينة أراض شاسعة يقيم بها السكان الأصليون الذين كانوا يعتمـدون الى حد كبير على عمل أيديهم كمورد رزقهم . ولكن الجزء الأكبر من جودايا (يهوذا) والجليل والسامرة بقى كما كان من قبل قرى يسكنها فلاحون . ويكفى أن تتصفح الأناجيل واضعين نصب أعيننا وجهة النظر هذه لندرك كم كانت فلسطين بلدا زراعيا وكيف اتسمت حياة العامة من أهلها بالطابع الريفى. أما ما سمى مدنا فى جودايا (يهوذا) — لا نستثنى من ذلك أورشليم — فقد كانت مراكز دينية وادارية فحسب . كانت قصبات لمناطق ريفية أشبهت شبها دقيقا مثيلاتها فى مصر وفى تراقيا وحملت الاسم اليونانى «توبارخيات» . والرجل الذى يضرب به المثل فى الغنى فى جودايا (يهوذا) هو الثرى الذى يملك عقارا أو قطعانا كثيرة من الضأن والمعز أو يعمل فى جباية الضرائب

(τελώνης) . والمثل الذى يضرب للرجــل العادى هو اما الفــلاح الذى يكدح فى حقله أو فى بستانه وكرمه واما الصانع فى قرية صغيرة كالنجار والحداد والاسكاف وأمثالهم .

والصورة التى ترسمها الأناجيل تجد سندا فى الأدلة التى نعثر عليها فى مؤلفات يوسف ولا سيما فى «الحرب اليهودية» وفى كتابه «حياتى» . وقد انتشرت فى جودايا (يهوذا) والسامرة وفى الجليل أكثر من سابقتيها مئات من القرى التى يسكنها الفلاحون وعلى رأسهم — كما فى أواخر العصر الهيلينستى على عهد المكابيين — طبقة عليا أصيلة من كبار الملاك الذين هم سادة القرية، رجال مثــل يوسف نفسه ، أو منافسه يوحنــا القيشالى أو فيليب بن جاكيموس وغيرهم . فهؤلاء ليسوا حكام البــلاد وقادة حياتها الدينيــة فحسب ، ولكنهم أيضا رأسماليون وتجار على نمط واسع . وقد كانوا فى بعض الأحيان ينمون ثرواتهم بمضاربات جريئة (كبيع يوحنــا القيشالى الزيت الى مدينة قيصرية) وكانوا يحفظون أموالهم فى معبد أورشليم الذى كان بمثابة مصرفهم الوطنى . وأكثر من هؤلاء غنى وثروة موظفو الملوك والحكام الرباعيين ثم الملوك أنفسهم وأسرهم والحكام الرباعيون أنفسهم وأسرهم . وأخيرا تأتى ضــياع الامبراطور الرومانى نفســه والأسرة الامبراطورية ، وكذا مستعمرة حربية رومانية أقامها ڤيسپاسيان فى اماوس (عمواس) (Emmaus) بعد الحرب اليهودية . فهذا وصف للحياة فى فلسطين ، بقى دون تغيير يذكر طوال الأزمنة الأخيرة فيما عدا ازدياد عدد من يملكون الأراضى من غير اليهود كليبانيوس مثلا [٣٠] .

وللمناطق الخصيبة فيما وراء نهر الأردن ولحوران الحديثة والأراضى المصاقبة الجدباء التى تسكنها قبائل من العرب صورتها الخاصة . وقد كانت هذه الأراضى الخصيبة مجالا للاســتعمار فى العصر الهيلينستى ، نشأت فيها مدن يونانية كثيرة بناها الاسكندر وخلفاؤه . وقد كانت كل مدينة منها قصبة لاقليم زراعى متسع ، وكان سكانها من ملاك الأراضى . قام أكثر هذه المدن مكان قرى قديمة كان يقطن بها السكان الأصليون .

وعندما بدأت امبراطورية السلوقيين فى الانحلال أخذت هذه المدن تعود شيئا فشيئا الى حالها القديم . وعندئذ قام على حكمها ملوك من السكان الأصليين تأثروا بالثقافة اليونانية . وبمجىء الرومان بدأ عصر جديد فى حياة هذه الأقاليم . وقد عهد أباطرة الرومان ، كما فعلوا فى أكثر أنحاء آسيا الصغرى ، الى رجال مثقفين يمثلون الحياة اليونانية والرومانية فى القيام بنشر المدنية — كالادوماپين المتأغرقين فى فلسطين وهيرود الأكبر وخلفائه . ويعطينا استرابون ويوسف صورة تأخذ بالالباب عن صبغ الأراضى الخصيبة فى تراخونيتيس (Trachonitis) تدريجاً بالصبغة اليونانية نتيجة للجهود المتوالية التى بذلت لاستعمارها واسكان رجال مقيمين يشتغلون بالزراعة واخضاع ، بل اغراق الصنف القديم من السكان الأصليين (وأكثرهم من العرب) من رعاة ولصوص . ولما وطدت الحكومة الرومانية أركان السلام والطمأنينة فى حوران وفى الأصقاع الشاسعة المجاورة من الأراضى القابلة للزراعة والمتاخمة للصحراء ولاسيما بعد ضم بلاد العرب الحجرية ، ولما حلت الطرق الرومانية الجيدة محل طرق القوافل القديمة وحصنت أهم الأماكن فى هذه الطرق وهى موارد المياه ، ووضعت فيها حاميات رومانية ، ازدهرت حياة جديدة فى الاقليم الواقع فيما وراء نهر الأردن . فأصبحت المدن القديمة مراكز تجارية رائجة وازداد ثراؤها ورخاؤها . ولا زالت اطلال بصرى وجرش وفيلادلفيا (عمان) وكاناثا وقرى كثيرة كانت مزدهرة تشهد ببهاء المبانى الجديدة التى تنافس أحسن ما شيد فى المدن التى أسسها هيرود فىفلسطين .وتحت حماية الجنود الرومانيين اتجه السكان حقا الى حياة ريفية مستقرة ، واستبدل كثير من القبائل العربية خيامهم ببيوت من الحجر ومراعيهم بحقول تنبت الحب الوفير . وقد تمسكت طبعا بعض القبائل بطرق معيشتها البدوية القديمة ، ولكنها هجرت ما درجت عليه من سلب وسرقة . ويقول ديسو (Dussaud) : « ان الحضر من السكان عندما أمنوا شر الغارات المفاجئة ورفعت عن كواهلهم الجزية الفادحة التى كان يفرضها عليهم جيرانهم من

البدو دفعوا حدود الصحراء الى الوراء واستغلوا كل ما يمكن زرعه من الأراضى · وقد ضمت قرى عديدة — هى الآن أطلال بالية — خليطا من السكان من سوريين وعرب عملوا على تنمية تجارة رائجة مع البدو وغرسوا أشجار الزيتون والكروم والحبوب ووجهوا جهودهم الى صناعة الأقمشة الصوفية » (٣١) .

ويشهد بهذا التطور مئات من النقوش وآثار كثيرة باهرة للقرى والمزارع . ولما كان أكثر النقوش فى منطقة السافيين مكتوبة بلغة هذا الاقليم ، فقد دل ذلك على بقاء القبائل القديمة واحتفاظها بدينها وعاداتها وحرفها التى اعتادت عليها · ومع ذلك فقد تغير المظهر العام لهذه البلاد تغيرا كاملا · فبنيت معابد من الحجر ، تجاورها مسارح ، لآلهة السكان الأصليين فى القرى الكبيرة . وحملت المياه فى قنوات ، فحلت محل الآبار العتيقة ، وأصبحت الخانات والأسواق المشيدة من الحجر الصلد مراكز تجارية ، دائمة الحركة · وتأثرت النظم القبلية بالأنظمة اليونانية ، واستعارت عند تقنينها مصطلحات يونانية ، فأصبحت القبيلة القديمة تدعى فولى (φυλή) ، والعصبية القديمة كوينون (κοινόν) ، وشيخ القبيلة فى النظام القديم بروادروس (πρόεδρος) أو برونويتيس (προνοητής) ، أو ستراتيجوس (στρατηγὸς) أو اثنارخيس (ἐθνάρχης) · وأصبحت القرى الكبيرة (كوماى κῶμαι) قصبات لأقاليم متسعة (متروكومياى μητροκωμίαι) . وقليل من هذه القرى (مثل فيليبوبوليس فى عهد فيليب العربى) منحت اسم المدينة · وقد امتلك الأرض فى كل قرية سكانها من الفلاحين ، وهم أفراد القبيلة القديمة بعد أن أدخلت النظم الحديثة (٣٢) · وكان المصدر الأول والعمود الفقرى فى هذا التطور هم الجنود القدامى من العرب الخلص الذين عادوا الى قراهم الأصلية ، بعد أن رأوا كجنود أقطاراً نائية ، وهم يحملون عاداتهم الجديدة وأسلوب حياتهم الجديد · وقد جاء معهم كثيرون من الأجانب استوطنوا القرى العربية التى تتبع النهج الحديث (٣٣) .

واننا لا ندرى كم من القرى الجديدة ألحق بالمدن القديمة . ومن المحتمل أن أكثر هذه القرى لم يصبح قط جزءا من أراضى أى مدينة ، ولكنه احتفظ بنظمه القبلية . ومع كل يمكننا التسليم بأمر واحد هو أن هذه القرى لم يسكنها — وهى تتفق فى ذلك مع المزارع والقرى الألمانية — مستأجرون وأرقاء ، وانما قطن بها صغار الملاك ، وهم أعضاء أحرار فى مجتمع قروى حر . لقد نشأت هنا ، كما نشأت فى أماكن أخرى ، طبقة أرستقراطية . ولكن ليس هناك من نقش واحد فى الأراضى المتاخمة للصحراء يشهد بظهور نظام مماثل لنظام رقيق الأرض الذى عرف فى آسيا الصغرى .

وعلى هذا كان عصر السيادة الرومانية فى البلاد السورية عهد سلام وطمأنينة ، ونتيجة لذلك زمن رخاء وازدهار ، ولكنه لم يكن فترة تغيير شامل . فبقى الشرق السورى تحت حكم الرومان ، كما كان قبل دخولهم ، فلم يتقدم بناء المدن تقدما يسترعى النظر ، ولم تتأثر البلاد بالثقافة اليونانية . لقد رفعت عماد مدن قليلة متأغرقة ، واستقر بعض سكان الريف فى المدن ولكن الكثرة عاشوا على نهجهم القديم مخلصين لآلهتهم ولمعابدهم موجهين جهودهم الى حقولهم والى قطعانهم ، وهم على استعداد أن يقتلوا فى أول فرصة أولئك الذين يقطنون بالمدن وأن يعودوا أدراجهم الى حياة الفلاحين والرعاة يحكمهم ملوك كهان وشيوخ من بينهم (٣٤) .

محال أن نبحث هنا بحثا مستفيضا الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التى سادت مصر فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد . فأدلتنا غزيرة جدا ، ومفصلة جدا ، وعدد المسائل التى تثيرها هذه الأدلة كثير جدا ، وهذه المشاكل نفسها جد معقدة ، حتى اننا لنحتاج الى مؤلف خاص ، وربما كان هذا المؤلف من عدة مجلدات لنوفى البحث فى تطور مصر الاجتماعى والاقتصادى من كل وجوهه حتى فى هذه الفترة القصيرة التى امتدت هذين القرنين فحسب . ولهذا يجب أن نقنع بموجز قصير للمعالم الأساسية وليرجع القارىء الى المؤلفات الخاصة التى تبحث فى المسائل المختلفة التى تتصل بحياة مصر فى هذه الحقبة .

كانت مصر آخر بلد دخله الرومان فى الشرق ولقد وجدوا هناك نظاما خاصا للحياة الاجتماعية والاقتصادية ، هو نتيجة تطور استمر قرونا فرأوا ألا أمل فى نجاح أى محاولة لطبع هذه الحياة بطابع جديد ، فتقبلوا مظاهرها الأساسية وبنوا عليها ووفقوا بينها وبين نظامهم الادارى الذى لم يختلف فى الحقيقة كثيرا عن نظام أسلافهم البطالمة . ويرتكز النظامان على السواء على الظروف التى أحاطت بحياة مصر الدينية والاجتماعية والاقتصادية والتى ترجع الى القرون الغابرة ، وهو أمر لم يكن من الممكن تبديله لمجرد رغبة ساورت نفوس السادة الجدد . وفى مصر وجد الرومان السكان مقسمين الى طبقات معلومة ، عينت لكل فئة وظيفة خاصة فى حياة البلاد وقد قام على عاتق السكان الأصليين بناء الحكومة كله . وكان أكثر السكان فلاحين يكدحون فى حرث الأرض . وقد عمل بعضهم فى مصانع القرية ، كبيرة كانت أو صغيرة ، فأبدعوا مختلف أنواع البضائع . وكان البعض الآخر عمالا فى المناجم والمحاجر ومصائد الأسماك والأراضى المخصصة للصيد والقنص . وقد اشتغل آخرون أيضا بسوق دواب الحمل التى استخدمت فى النقل ، كما عملوا كبحارة ومجدفين فى السفن . وبالجملة قاموا بكل عمل يدوى ، لأن الرقيق لم يلعب غير دور محدود فى حياة البلاد الاقتصادية . وقد سكن المصريون قرى اختلفت مساحتها . وقد أطلق على بعضها زمن البطالمة اسم « متروبوليس » ، كما سميت بعض القرى فى سوريا متروكومياى (μητροκωμίαι) . والحقيقة التى لا تشوبها مبالغة أن هذه القرى بقيت طوال العهد اليونانى والرومانى كما كانت من قبل : قرى مصرية متسعة قذرة تلتف حول مدن متحضرة تأثرت قليلا أو كثيرا بالثقافة اليونانية . وسنتكلم عن هذه المراكز فيما بعد .

وفى كل هذه القرى (التى اختلفت أسماؤها فأطلق عليها ايويكيا (ἐποίκια) ، كوماى (κῶμαι) ، متروبوليس (μητροπόλεις)) عاشت جماعات من السكان الأصليين تحترف عين المهن : فلاحون وصناع وعمال فى المصانع وصيادو أسماك وبحارة وسائقو دواب وغيرهم . وكانت كل

مجموعة من هذه المجموعات تكوّن وحدة تقوم أساسا على الخدمة الخاصة التى تؤديها للدولة . وكان من الطبيعى أن يقسر كل امرىء على الانتساب الى واحدة من هذه المجموعات . وكان هجر جماعة والانضمام الى جماعة أخرى خاضعا لرقابة حكومية دقيقة . وتحت اشراف أولئك الذين تقدمت بهم السن من بينهم ، وكانت تعينهم الحكومة ، وتحت رياسة عدد من موظفى الدولة ، عملت هذه المجموعات فى الأعمال التى حددتها الحكومة ، سواء أكانت فلاحة الأرض أم عصر الزيت أم نسج الأقمشة أم أى نوع آخر من العمل . وعلى هذا النهج لم يحصل أفراد كل حرفة على معاشهم فحسب ولكنهم عاونوا الدولة كيلا تتوقف أعمالها . ولم يجل بأذهان المصريين أن يطالبوا بحكم أنفسهم أو أن يشتركوا فى أعمال الحكومة (فيما سوى عملهم المهنى) .

كانت الدولة فى نظرهم عقيدة دينية ، وكانت الدولة ممثلة فى شخص الملك . وكان الملك سليل الآلهة . وكان هو نفسه الها . وكانت عبادته واجبة ، وطاعته لازمة . وكان الملك والدولة — كما كان الدين والآلهة بوجه عام — فوق كل نقد وفوق كل سلطان . كانت لهم الكلمة العليا . وكان اهتمام السكان الأصليين يتجه كلية الى حياتهم المنزلية والى أداء واجباتهم نحو الآلهة والدولة . وفى الحق والواقع منح الآلهة والدولة السكان الأصليين أقل القليل وطالبوهم بأكثر الكثير . فاذا أصبحت الواجبات وقد زادت عن طاقتهم وجعلت من الحياة عبئا يثقل كاهل أى جماعة من السكان الأصليين لجأوا الى المقاومة السلبية أى الى «الاضراب» . والاضراب هو اصرار على عرض الأمر على الاله ليحكم فيه . وكانت طريقته أن يهجر المرء محل اقامته ويلتجأ الى معبد ، وفى المعبد يبقى المضربون فى بطالة وتواكل حتى يرفع الحيف أو تستخدم القوة لاجبارهم على العودة الى أعمالهم . وكان الاضراب يسمى اصطلاحا فى اللغة اليونانية « اعتزالا » (ἀναχώρησις) . ولم يلق السكان الأصليون بالا الى أن الدولة كانت ممثلة فى عصر البطالمة بحكام مقدونيين أجانب ، ثم بعد ذلك بطبقة أخرى من الأجانب هم أباطرة رومة طالما احترم الحاكمون آلهة مصر وطالما اعترف بهم الآلهة على أفواه الكهنة حكاما شرعيين فى مصر . وكان

الكهنة أكثر ذكاء من ألايدركوا أن قوة تستند الى جيش منظم من الجنود المحترفين ولديها أموال طائلة تستأهل الاعتراف حتى ولو لم يكن للكهنة من هذه الناحية الا أضعف الأمل ، كما حدث فى عصر الرومان .

كان بعض السكان الأصليين ينعمون بالثراء ، والبعض الآخر يرزح تحت نير الفقر ، كما كان بينهم أذكياء ، ومنهم أغبياء . وقد حاول أفضل العناصر أن يتسلق — كما هو طبعى — ذرى السلم الاجتماعى ، وأن يحسن أحواله ومعاشه . وكان الطريق الوحيد المفتوح أمامهم اما أن يندمجوا فى سلك الكهنة أو يصبحوا من موظفى الدولة . ولكن كلا من الطريقين لم يك هينا . وعلى الرغم من أن طائفة الكهنة لم تكن مقفلة ، الا أن الكهنة كونوا فئة مختارة من بين الأسر الممتازة ولم ييسروا لغيرهم سبل الاندماج فى صفوفهم . كانت هذه هى الحال فى العصر الفرعونى وقد استمرت كذلك فىعصر البطالمة والرومان . غير أنه فىالعصر الرومانى حينما اعتبرت وظيفة الكاهن خدمة عامة(λειτουργία)(*) قلت جاذبيتها على مر الأيام ، وأصبح الحصول عليها سهلا لكل امرىء أوتى حظا من المال ، وأضحى فى مقدور كل مصرى لديه من المال ما يكفى ، ونال قدرا كافيا من التعليم — اذا أراد — أن يستبدل صناعته كفلاح أو عامل بوظيفة كاهن . ولكن المنصب الجديد لم يكن أكثر رغدا من الحرفة القديمة .

وأصعب من الاندماج فى سلك الكهنة أن يدخل المرء هيئة الموظفين الذين كانوا يعاونون الملك . وقد كان هذا فى العصر الذى سبق السيطرة الأجنبية أيسرنسبيا ؛ اذ كانت لدى كل فرد حصل على قسط من العلم وألم بالقراءة والكتابة وأحاط بلغة الوثائق الأميرية ونظام الحكومة المعقد فرصة أن يصبح موظفا وأن يرقى الى أسمى المراتب [٣٦] . ولكن لما لم يعد الملك مصريا ، وأصبحت لغة الدواوين هى اليونانية تعقدت الأمور . فلم يأت الملوك المقدونيون الى مصر وحدهم ؛ بل أحاط بهم جيش قوى من الأجانب يتألف من جنود من اليونانيين أو من المتأغرقين وعدد كبير من أولئك الذين يبحثون عن الغنى من اليونانيين والمتأغرقين . وكان هؤلاء

(*) أنظر الفصل التالى .

رجالا نشيطين أذكياء نظروا الى مصر نظرتهم الى حقل بديع يظهرون فيه كفايتهم ويجمعون منـه ثروات طائلة . وقد ارتبطت الحكومة بهؤلاء اليونانيين برباط لا تنفصم عراه . ولم يفهم اليونانيون طرائق المصريين فى الحياة . ولم يصب المصريون من اليونانيين فهما أو عطفـا على دينهم أو أفكارهم . وكان المصرى فى نظر اليونانى همجيا متبربرا بالمعنى الحديث لهذا اللفظ ، أى ليس له نصيب من الحياة المتمدينة . وفى عصر متـأخر كالقرن الثالث بعد الميلاد كتب مصرى متأغرق الى « اخوانه » اليونانيين يقول : « ربما نظرتم الى ، يا اخوانى ، على أننى همجى أو مصرى ليس من بنى البشر » . (٣٧) .

لقد شعر اليونانيون فى مصر بأنهم السادة والحكام ولم يكن ليطرأ على أذهانهـم قط أن يشركوا السـكان الأصليين المنبوذين فى الحقوق التى اكتسبوها بالفتح وحافظوا عليهـا بقوة السيف . ولو حاول المـلوك أن يطبقوا مثل هذا الرأى ، لعد اليونانيون القاطنون بالبلاد هذا الاتجاه خيانة واثما وافتئاتا على حقوقهم المقدسة فى مصر . عم هذا الشعور طبعا البطالمة وأباطرة الرومان من بعد . وقد نظر البطالمة الى مصر على أنها ملك خاص لهم غنموه بحق الفتح فكانت مصر فى نظرهم « بيتهم » (οἶκος) أو ضيعتهم الخاصـة . وكان السـكان الأصليون رعايا أذلة ، عليهم أن يكفلوا « بيت » مليكهم بأعمالهم وأموالهم . واذا نظرنا الى الجانب الآخر رأينا اليونانيين رفقاء الملك ينتمون الى عين جنسه ، وينتسبون الى نفس مدنيته . ولهذا كان من الطبعى أن يعهد اليهم الملك بادارة « بيتـه » ، وألا يسمح قط للمصريين باعتلاء المناصب الادارية العليا . لاجرم بعـد أن قام المصريون بثورات فى المدة الأخـيرة ساعد على اندلاعهـا ضعف الحكام أن البطالمة حاولوا أن يجـدوا فى جيش مصرى وكهنـة مصريين ما يحد من التطلع السياسى للجيش اليونانى والسكان اليونانيين ، ولكنهم لم يذهبوا قط الى حد الاندماج فى المصريين والظهور حقا بمظهر ملوك مصر ، خلفاء الفراعنـة .

وعلى هذا كانت أسمى الوظائف الرئيسية فى ادارة البطالمة موصدة الأبواب فى وجوه المصريين الا اذا تشبهوا تماما باليونانيين واندمجوا فى عداد اليونانيين المقيمين بمصر . وكان هذا طبعا نادرا ، واستمر كذلك . ولهذا بقيت الادارة فى مصر فى أيدى اليونانيين ، اذا استثنينا وظائف الكتبة والشرطة . وأحاط اليونانيون بالملك وكان منهم « بلاطه » وكان منهم حكام المديريات ، أعنى الأقسام الادارية فى البلاد ، أى القطر (χώρα) ، وكان من بينهم رؤساء الشرطة والقضاة وكبار المهندسين والمفتشون على مختلف الأنواع ومديرو المصانع الحكومية والمشرفون على التجارة والصناعة وغيرهم . وقد منح اليونانيون أيضا امتياز جباية الضرائب اما كموظفين أو ملتزمين وقد ساعدهم الملوك وشدوا أزرهم فجمعوا فى أيديهم تجارة مصر الخارجية . وكانت هذه التجارة فى نمو وازدهار .

ويعتبر الدور الذى عهد به الملوك الى اليونانيين امتيازا هاما ، لأن مصر كانت بلادا غنية ، وادارة هذا القطر باسم الملك وظيفة مجزية خالبة للألباب . ويجب أن تتذكر أن النشاط الاقتصادى فى مصر كان الى حد كبير فى قبضة الحكومة وكانت كل فروعه تحت اشراف الدولة ، بل كان بعضها احتكارا للدولة . ومن وجهتى النظر الاقتصادية والقانونية كان الملك هو صاحب الأراضى وكان أولئك الذين يكدحون فى زراعة الأرض يستأجرون منه . فنشأ عن ذلك فرض ضرائب فادحة على الفلاحين ، كما خضعوا أيضا لاشراف دقيق على عملهم ومراقبة صارمة لمواردهم . لا حياة لمصر الا بشبكة من الجسور والترع ، كما أن رخاءها يتطلب تنظيم أعمال الرى تنظيما محكما سواء قبل فيضان النيل أو بعده ، ولا بد لها من توزيع عادل للمياه ، ومن تجفيف المستنقعات والبرك وما أشبه . ومثل هذا العمل لا يمكن القيام به الا اذا اشترك فيه الأهلون جميعا ؛ وهذه الجهود التى اتخذت شكل الأعمال الجبرية (السخرة) كان لابد من تدبيرها وتنظيمها . ومنذ أقدم الأزمنة تجمعت الصناعة اما فى المعابد أو حول قصور الحكام : فوضع الملوك والكهنة أيديهم على المواد الأولية

وأحاطوا بأسرار الصناعـة . وقد دامت الحال على هـذا النهج ؛ فعمل الصناع فى مختلف الحرف للملك قبل سواه ، وفى بعض الأحيان للملك دون سواه . وقد احتاج الأمر هنا أيضا الى تنظيم ورقابة . ولقد طبق عين المنهاج على التجـارة وطرق النقل . فكان التجـار أجمعون والمشتغلون بالنقل كلهم ، كبيرهم وصغيرهم ، فى جميع بلاد القطر (مع جواز استثناء الاسكندرية) يمنحون امتيازا من الدولة . وكان أكثرهم من اليونانيين.

واذا تأملنا سعة المجال الذى فتح على هذا النحو أمام نشاط اليونانيين فى هذا القطر ، قطر التركيز والتأميم ، وما سنح من الفرص التى لا تحصى لجلب الغنى ، هذا خلا الأجور العادية ، فلن ندهش ان رأينا طبقـة بورجوازية على جانب من الثراء يزداد عددهـا يوما بعـد يوم فى جميع أنحـاء البـلاد ، وهى بورجـوازية تتـألف من مـوظفين وجبـاة . ولانحطاط حرفة الصانع وتاجر التجزئة تركت هذه المهنـة طبعا لأهالى البلاد الأصليين. وفى الاسكندرية نشأت طبقة أخرى غنية من البورجوازى بفضل التجارة والصناعة التى نمت باطراد فى عاصمة العالم الهيلينستى . فبجانب أعضاء البلاط والملك نفسه وأسرته ، كون التجار والمصدرون فى الاسكندرية أغنى الطبقات فى مصر . وكان أكثر عمال الملك المقربين جدا من مليكهم يشتغلون بلا ريب فى عين الوقت بالتجارة الخارجية فى مصر : وكانت لديهـم سفن ومخـازن وكانوا أعضـاء فى الجمعيات القوية فى الاسـكندرية ، المؤلفة من أصحاب السفن وربابنتها (ναύκληροι) وأمناء الشحن (ἐγδοχεῖς) .

ولم تكن طبقة الجنود الاجانب من الضباط والجنود المرتزقة فى جيش البطالمة أقل عددا من طبقة الموظفين ورجال الأعمال ، بل لقد كانت المورد والمعين الذى يغذى طبقة الموظفين ورجال الأعمال . ولا نستطيع هنا أن نتحدث عن نظام هذا الجيش . ويكفى أن نقول انه بعد تجاريب مختلفة اختار البطالمة نظاما خاصا لدفع أجور جنودهم حينما كانوا فى عداد الجيش الاحتياطى لا فى الخدمة العاملة ؛ بأن مكنوهم من الاستقرار فى الريف وأقطعوهم أرضا يزرعونها . فنال بعضهم أرضـا جيدة فى مصر العليـا

والوسطى والسفلى ، ولكن أكثرهم منحوا أرضا فى الفيوم وفى الدلتـا حيث نجح البطالمة بعد أعمال هندسية بارعة فى اصلاح مساحات شاسعة كانت قبل مستنقعات أو صحراوات . وكان توزيع هـذه الأراضى التى استصلحت حديثا يرمى الى غرضين . فلم ينزل ضررا بمصالح التاج ولم ينقص من موارده ، كما حدث عندما وزعت على الجنود أرض خصيبة أو صالحة للزراعة . لأن أمثال هـذه المنح كانت تعنى أن الزارع الحقيقى للأرض ، أى الفلاح المصرى ، عليه أن يؤدى جزءا من الأجرة الى المالك الجديد بدلا من دفعها الى الحكومة . أما الأصقاع التى استصلحت حديثا فلم يكن بها زارعون وكان على الجند أن يجدوا لها من يفلحها أو يزرعوها بأيديهم . وفضلا عن ذلك فان تربتها لم تكن تصلح كثيرا لزراعة الحبوب وانما كانت جيـدة لغرس الكروم والزيتون . وكان الجنـود ، وهم اما يونانيون أو من أهل آسيا الصغرى ، يميلون أكثر الميل الى ادخال هذه الأنواع الجديدة من المزروعات التى تدر ربحا أكبر والتى كانوا يألفونها فى أوطانهم القديمة . وقد دعتهم الدولة الى ذلك ، وفتحت أمامهم باب الأمل فى أن يصبحوا ملاكا لاقطاعياتهم لا واضعى يد فقط ان هم غرسوها كروما وأشجارا . وقد اغتنم الجنود طبعا هذه الفرصة وزرعوا الكروم والحدائق وبساتين الزيتون ، الواحد تلو الآخر . وقد منح المدنيون عين النهز سـواء كانوا من كبار الرأسماليين فى الاسكندرية الذين أعطوا مساحات شاسعة من الأراضى كهبات (δωρεαί) أو من الموظفين الأثرياء أو من جباة الضرائب السابقين الذين شروا أرضا من الدولة .

وعلى هذا النحو لم يعد سكان مصر من اليونانيين مجرد مجموعة من الجنود والموظفين ورجال الأعمال . فبعـد أن ارتبطوا بالأرض لم يعـد اليونانيون يقيمون فى مصر اقامة مؤقتة ، وانما اسـتقروا بها وأضحوا سكانا دائمين فى البلاد . ولما تم هذا التحول ، بدأ عصر جديد فى حيـاة البلاد الاقتصـادية . كاد تملك الأراضى يكون فكرة بعيـدة عن العقل المصرى فى القرون التى سبقت حكم المقدونيين . ومن المحتمل أن محاولات

بذلت فى العصر الصاوى لخلق ملكية فردية . ولكن كان هناك حقا اثنان فحسب يملكان الأراضى فى مصر : الملك والآلهة . أما الآن فقد نشأ صنف ثالث حينما أصبح هؤلاء الأجانب من اليونان لا يفلحون الأرض (γεωργοί) بل يملكونها (γεοῦχοι) كفرعون أو الآلهة . غير أن البطالمة لم يسيروا فى هذا الاصلاح الى نتيجته المنطقية ؛ فقد قصر تمليك الأراضى على الدار والحديقة فقط . وحتى فى هذه الحالة حفت الملكية بقيود تدل على أن الملكية امتياز مؤقت ، للحكومة أن تبطله ان شاءت .

وقد بعث ازدياد عدد اليونانيين الذين سكنوا مصر ظواهر جديدة فى حياة البلاد . فمما لا ريب فيه أن البطالمة لم يهدفوا قط الى صبغ القطر كله بالصبغة اليونانية . وكان اليونانيون قلة حاكمة فى أرض مصرية . وقد أراد الملوك أن يبقى اليونانيون سادة . فلم يكن اليونانى ليكد ويكدح من أجل الملك كما كان المصريون يفعلون . وهذا هو السر الذى حال بين تدفق اليونانيين وبين النتيجة الطبيعية لمثل هذا التغلغل ، وأعنى بهذه النتيجة الاكثار من بناء المدن فى البلاد . فلم يشيد البطالمة مدنا لليونانيين عدا الاسكندرية وبطليموسية فى الوجه القبلى . ومن المحتمل أن بناء الاسكندر مدينة الاسكندرية ومحافظته على نوقراطيس وربما أيضا على پارايتونيوم (مرسى مطروح) (Paraetonium) ، وتشييد بطليموس الأول بلدة بطليموسية كان الغرض منه الإكثار من بناء المدن تدريجيا فى البلاد وصبغ القطر بالصبغة اليونانية ، كما حدث فى آسيا الصغرى وسوريا . ولكن هذه المحاولة لم تعمر طويلا : لم يبن بطليموس سوتير أو خلفاؤه أى مدينة أخرى . وحتى الاسكندرية وبطليموسية لم تصبحا مدينتين يونانيتين كبقية المدن اليونانية . اذ كانت الاسكندرية المقر اليونانى للملوك من أصل يونانى . واذا كان لها فى أول انشائها أنظمة المدينة العادية على غرار المدن اليونانية الأخرى فسرعان ما أبطل هذا النظام وحد من حكومتها الذاتية الى أن زال الفرق بين العاصمة وبين المراكز الادارية الأخرى فى مصر الا

فى الجمال والبهاء .وكانت بطليموسية أحسن حظا من الاسكندرية ولكنها لم تحظ بأهمية قط فى حياة مصر .

وفى بقية القطر سمح لليونانيين أن ينظموا حياتهم كيف شاءوا على شريطة ألا يطالبوا بأنظمة المدن . ولم تكن لهم — وهم الطبقة الحاكمة — رغبة فى أن يندمجوا فى السكان الأصليين ، ولا أن يعاملوا معاملتهم . ولم يكن لهم غنى عن نظمهم الخاصة ومن الاحتفاظ بخصائص حياتهم . وقد ساعدهم الملوك فى جهودهم هذه الا فيما يخص اقتباس نظم الحكومة الذاتية فى المدن . وقد كان النظام الذى انتهوا اليه فى النهاية غريب المظهر حقا . فلم تؤسس مدن (πόλεις) ، وانما أنشئت هيئات (πολιτεύματα) مؤلفة من مواطنين من نفس البلدة فى طول البلاد وعرضها . وهذه الهيئات نوع من النوادى أو الجمعيات ، وظيفتها المحافظة على جنسية أعضائها اليونانية ، وعليها أن تمهد للنشء تربية يونانية . وقد لقى اليونانيون نجاحا حسنا فى الاحتفاظ بجنسيتهم وحضارتهم ، لأنهم كانوا أغنى سكان مصر ، ولأنهم كانوا يشعرون فى قرار أنفسهم بأن لهم التفوق والغلبة . ولذا كان لهم فى القرى الكبيرة وعواصم المديريات أحياء يونانية ، فيها مبان يونانية من الطراز المألوف تحيط بها القرية المصرية — فكأنها جزر يونانية فى بحر مصرى .

نجح البطالمة نجاحا باهرا فى اجتذاب يونانيين من الطراز المقتصد الى مصر وربطه بالأرض برباط اقتصادى فاستصلحت أراض واسعة فى الفيوم وفى الدلتا . وظهرت ألوف من البيوتات اليونانية الجديدة — التى قامت على فلاحة البساتين وعلى غرس الكروم والزيتون وعلى تربية الماشية والطيور الداجنة بطرق علمية — فكانت كواحات من الرأسمالية الفردية فى بيداء النظام المصرى ، وهو تملك الدولة لكل شىء . وقد نجح بعض هذه البيوتات وازداد ثراؤه . وأصبح من المألوف فى الحياة المصرية وجود أناس يتكلمون اليونانية فى كل بقعة . ولكن النتائج

لم تكن باهرة كما ظهرت لأول وهلة . فقد كان المستعمرون الجدد من اليونانيين ملاكا لم يفلحوا الأرض بأيديهم وانما أمدهم السكان الأصليون بالأيدى العاملة . وسرعان ما وضح أن مثل هذا النظام ليس بسليم ولا بذى فائدة فى النهاية . زد على ذلك أن الحالة الداخلية فى مصر ازدادت سوءا يوما بعد يوم . فقد خلف من بعد الملوك الأكفاء الأول خلف لم يكن له حظ من النشاط أو المقدرة . ونزل مركز مصر الى الحضيض ، وابتلعت الحروب أموالا طائلة ، وخلت الادارة من ذوى الكفاية فاعتورها الفساد . ورزح السكان الأصليون تحت نير الظلم . ولم يكن مركز اليونانيين بأفضل من المصريين . وقد قوضت ثورات اليونانيين فى الاسكندرية والمصريين فى بقية القطر الحكومة المستضعفة . وانتهزت جمعيات الكهنة فرصة ضعف الملوك ، واستغلت نفوذها على العامة ، فزادت على مر الأيام صلفا وكبرا ، وألحت على الدوام فى طلب امتيازات جديدة كحق الالتجاء أو اقطاعيات من الأراضى، وكان النجح يحالفها فى أكثر الأوقات . وفى هذه الظروف ضاعت الأراضى التى استصلحها البطالمة الأول ، فدخلت مساحات شاسعة منها فى حوزة المعابد أو اصبحت قفرا لا يملكه أحد (ἀδέσποτα) وقحلا لا يزرع (χέρσος) [٣٨] .

كانت هذه حال مصر عندما وقعت فى قبضة أول أباطرة الرومان ، بعد أن قاست آلاما شديدة استمرت طوال القرن الأول قبل الميلاد ؛ استغلها ملوكها أنفسهم ، وسلب ساسة رومة بدورهم هؤلاء الملوك لاعتمادهم عليهم . وجد أغسطس فى البلاد عناصر أجنبية قوية وغنية — ثراة الاسكندرية وجحفلا من الموظفين اليونانيين أكثرهم من الأغنياء، وألوفا من رجال الأعمال انتشروا هنا وهناك فى كل أنحاء البلاد وتملكوا فى بعض الأحيان أرضا كأهل الاسكندرية والموظفين ، وعددا كبيرا من

الأعيان فى القرى هم جنود اسما ، ولكنهم ملاك فى الواقع من صنوف مختلفة (جيران (κάτοικοι) وأصحـــاب إقطـاعيـات (κληροῦχοι) وشرطة) . ووجد أغسطس كذلك معابد غنية تتمتع بنفوذ كبير ، ويقوم على خدمتها كهنة كثيرون تحتهم عدد ضخم من السكان الأصليين . وقد سمح لبعض هؤلاء أن يضعوا أيديهم على أراضى الدولة على عين النهج الذى اتبع مع الجنود اليونانيين (μάχιμοι) . وكانت الحالة المالية سيئة . وقد ضج السكان بالشكوى من ابتزاز جباة الضرائب والموظفين. وأمعن الكهنة فى الغطرسة والبطالة ، فعاشوا ، كما فعلوا من قبل ، على كدح الفلاحين والصناع المستعبدين . وقد حل الخراب بأعيان القرى فكاد يقضى عليهم ، وهجرت اقطاعيات كثيرة كانت تزرع فيما مضى فأصبحت يبابا . وعلى العموم كانت الأحوال جد شبيهة بتلك التى سادت مصر قبل الفتح اليونانى (٣٩) .

أكانت مجرد مصادفة أن اتفقت الأســاليب التى اتبعها سياسيان عظيمان ، أم هل كانت سياسة مقصودة انتهجها أغسطس الذى كان يلم طبعا بتاريخ مصر ونظمها فى زمن البطالمة الأول ؛ اذ أن الوسائل التى اتخذها أغسطس ليعيد الى البلاد رخاءها الاقتصادى كادت تكون عين السبل التى سلكها بطليموس فيلادلفوس ؟ لم تكن جهود أغسطس موجهة الى اعادة تنظيم البلاد المصرية تنظيما شاملا ؛ فقد كان مقصده الأساسى أن يعيد الى البلاد مقدرتها المالية التى كانت ، كما نعرف ، أكبر مصدر لدخله كرئيس أعلى للدولة الرومانية . ولكى يصل الى تحقيق هدفه هذا كان لابد له من اتخاذ وسائل ثلاث أساسية : الحد من نفوذ الكهنة السياسى والاقتصادى ، واصــلاح النظام الادارى والقضاء قبل كل شىء على الرشوة وسلب الأموال بطريق غير مشروعة ، والعودة ثانية الى استصلاح الأراضى القابلة للزراعة . وقد أوضحت

سياسة أغسطس نحو المعابد فى مقال خاص ، على القارىء أن يرجع اليه . وقد كان طابع هذه السياسة الأول مصادرة كل عقار يملكه الكهنة وضمه الى الدولة وتأميم المعابد كذلك تأميما يشبه ما حاوله من قبل بطليموس فيلادلفوس وأوشك أن يحالفه النجح فى تنفيذه . ولكن البطالمة فى العصر المتأخر غضوا عنه الأبصار . وكان من نتيجة التنظيم الجديد الذى فرضه أغسطس أن المعابد والكهنة وان تركت حرة طليقة فى نشاطها الدينى ، الا أنها حرمت تماما من سيطرتها الاقتصادية على السكان . وأصبحت أراضى المعابد ومواردها عامة احدى الأقسام الادارية المالية فى مصر ، تديرها الدولة وتشرف عليها كما تفعل فى بقية الفروع الأخرى . وكان المال اللازم لاقامة الشعائر الدينية العامة وما يحتاجه الكهنة يأتى الآن من خزانة الدولة فى آخر المطاف (٤٠) .

أما فى محيط الادارة ، فلم يدخل أغسطس تغييرا ذا بال فبقى النظام الذى كان متبعا فى عصر البطالمة ولم يكد يناله تغيير يمس جوهره . والتبديل الوحيد الذى حدث هو توكيد المسئولية المادية التى تقع على كاهل عمال الحكومة فى دائرة أعمالهم . وقد استدعى ذلك (كما سنرى فى الفصل التالى) تحويل الموظفين والملتزمين تدريجا الى عمال مسئولين أمام الحكومة ، ولكنها لا تدفع لهم أجورا (λειτουργοί) . ولكن أغسطس فى الحقيقة لم يخط هذه الخطوات الحاسمة فى قلب نظام الموظفين ، وانما قام بذلك خلفاؤه فى آخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى . فبقيت الادارة فى مصر فى أيدى اليونانيين . ولم يعين من بين الرومان غير كبار الموظفين كالحاكم العام الذى يمثل الرئيس الجديد — وارث عرش البطالمة — وكبار مساعديه وحكام المديريات . أما جميع المناصب الأخرى من وظيفة حاكم على النوم فما دونها فقد ملئت باليونانيين الذين استوطنوا البلاد . وبقيت اللغة اليونانية هى اللغة

الرسمية فى مصر ، ولم تستخدم اللغة اللاتينية الا فى الشئون الخاصة بالعناصر الرومانية من بين السكان (٤١) . وجه أغسطس جهوده على العموم الى اعادة المقدرة الاقتصادية للبلاد . وهنا أيضا لجأ الى سبل كادت تكون عين الوسائل التى كان بطليموس فيلادلفوس أول من استحدثها فبقى نظام الضرائب والنظام الاقتصادى والمالى كما كانا عليه دون تحوير . واستمر العمود الفقرى للقطر هو ما يؤديه السكان الأصليون من جهد فى الزراعة والصناعة والنقل . وبقى حالهم كما كان من قبل فلم يكن لهم نصيب فى الادارة ، ونظر اليهم كأنهم وحدات منظمة من العمال فقط — من فلاحين وصناع وسواقين وبحارة وأمثالهم . وكما كان أمرهم فى الماضى ، حرم عليهم تملك الأراضى وبقوا يستأجرون من الدولة ويزرعون أرض الملك أو أرض الدولة (γῆ βασιλική) أو (δημοσία) . واستمروا يعملون فى حوانيتهم من أجل الحكومة وتحت امرة موظفيها واشرافهم واستمروا يبيعون المواد الغذائية وينتجون البضائع بتصريح خاص من الحكومة التى تمنحهم هذه الامتيازات .

وقد بذلت جهود جبارة وعلى نهج جديد لاعادة المقدرة الاقتصادية الى العناصر الأجنبية من بين السكان ، وكان منهم الآن رومانيون ، كما كان منهم يونانيون . واتخذت خطوة جديدة حاسمة نحو خلق أعيان أثرياء فى القرى ، أى طبقة من البورجوازى فى الريف . واعترف الرومان اعترافا قاطعا لواضعى اليد على الاقطاعيات التى منحت للجنود الذين خدموا فى جيش البطالمة من أصحاب الإقطاعيات (κληροῦχοι) والجيران (κάτοικοι) بملكية إقطاعياتهم وقد استمدت صفوف هؤلاء الملاك قوة جديدة من مئات من الجنود الرومانيين القدامى ، وقد منح بعضهم إقطاعيات بعد أن فتح أغسطس مصر مباشرة ، وأعطى البعض الآخر فرصة مواتية لتملك أراض قابلة للزراعة بثمن اسمى قدره عشرون درهما لكل اورورا . وقد كان القصد

من ذلك بث التشجيع على اصلاح الأراضى القاحلة والمهجورة على أوسع نطاق ممكن . ولم يقصر ذلك على الجنود القدماء ، بل امتد الترحاب الى كل رجل عنده مال يرغب فى استثماره فى شراء الأراضى . الا أن الأراضى الزراعية الجيدة والأراضى الصالحة للزراعة لم تعرض للبيع، بل بقيت فى حوزة الدولة التى كانت تؤجرها الفلاحين . فشراء قطعة أرض من الحكومة اذن كان يعنى شراء أرض جيدة ولكنها مهملة تحتاج زراعتها الى مال وجهد . وأتيحت فرص حسنة أيضا بابطال الشكليات التى لم تدع اليها ضرورة والتى عطلت حرية التعامل فى الأراضى المملوكة للأفراد ، وكذا بمصادرة مساحات شاسعة من أراضى المعابد . وقد سارع الى اغتنام هذه النهز التى قدمها أغسطس أولئك الذين كانوا يرقبون استثمارا مربحا لأموالهم . وكان عددهم كثيرا ، سواء من الرجال أو النساء . وقد شجع السلام والطمأنينة على ازدهار الأعمال التجارية والمالية فى الاسكندرية . وكان الأثرياء من تجار الاسكندرية ورجال الصناعة فيها يفرحون باستثمار أموالهم فى شراء الأراضى المصرية . وكان كثير من الرأسماليين الرومان ولا سيما أولئك الذين يعرفون مصر على استعداد لأن يجربوا حظهم فى هذا القطر ذى المستقبل الباسم . وفضلا عن هؤلاء كان هناك ألوف من الموظفين السابقين وجباة الضرائب الذين عملوا للبطالمة يتوقون الى تملك أرض زراعية ، عندما أضحت الحياة مستقرة ، وفتحت أسواق كبيرة للحاصلات الزراعية المصرية (٤٢) .

وهكذا عادت طبقة الملاك الى النمو ، بعد أن توقف تطورها فى السنين الأخيرة من حكم البطالمة . وكان أكثر ما يسترعى النظر من المعالم الجديدة فى هذا التطور سرعة نمو الضياع الكبيرة فى أيدى الرأسماليين من الرومان ، وهذا يقابل بدقة كثرة الهبات (δωρεαί) فى زمن بطليموس

فيلادلفوس . وكان أغسطس يشجع هذا النمو لنفس الغرض الذى قصده بطليموس ، ألا وهو اجتذاب رأس مال جديد ونشاط جديد الى مصر وادخال نظم حديثة فى الاقتصاد الرأسمالى فى الحياة الزراعية الراكدة فى هذه البلاد القديمة . ونمو هذه الهبات (δωρεαί) الجديدة أو الضياع (οὐσίαι) كما أصبحت تسمى الآن هو أحد المعالم التى تسترعى النظر فى الحياة المصرية فى القرن الأول بعد الميلاد ، ولا سيما فى زمن أغسطس وتيبريوس . وأول من اقتنى ضياعا كبيرة فى مصر أعضاء البيت المالك . ومن المحتمل أن دروسوس ربيب أغسطس كان أحد عظماء الرومان الذين سبقوا الى تملك أرض فى مصر . وقد آلت ضيعته الى زوجه انطونيا وابنيه جرمانيكوس والامبراطور كلوديوس. وهناك ضيعة أخرى كانت تملكها ليڤيا زوج أغسطس ، اما بالاشتراك مع حفيدها جرمانيكوس ، واما أنهما تعاقبا عليها . وهناك ضيعة ثالثة أكبر من السابقة كانت لجرمانيكوس وحده . وقد ورد ذكر أجريپا الأكبر أو أصغر أبنائه ، أجريپا پوستوموس ، بين من يملكون الضياع . ونجد كذلك اشارة الى الامبراطور جايوس وعمه كلوديوس كمالكين اشتركا فى احدى الضياع . وأخيرا نرى فى وثائق معاصرة أو متأخرة ليڤيا (زوج دروسوس بن تيبريوس) وأبناءها وأبناء كلوديوس من زوجه الأولى ، وانطونيا ثمرة زواجه الثانى ، كما نقابل ميســالينا واجريپينا (الأولى أم الثانية ؟) كملاك لضياع واسعة . وجدير بالذكر أننا لا نجد أحدا من الأباطرة الذين جلسوا على عرش رومة فى هذا الثبت سوى جايوس الذى يحتمل أنه ورث ضيعته من أبيه . وفى بعض الأحيان نسمع أيضا عن ضياع (οὐσίαι) صودرت ، كان يملكها أباطرة جلسوا على عرش رومة (مثل تيبريوس وكلوديوس ونيرون على الخصوص) ولكنى أميل الى الاعتقاد بأن الأباطرة قبل ڤيسپاسيان لم يحتفظوا بهذه

الضياع ، وانما أعطوها لملاك آخرين من الصنف الذى سبق ذكره . ومن الظواهر التى تثير الاهتمام كثرة عدد النساء والقصر فى الفترة التى أعقبت أغسطس . ومن الممكن أن نعلل الظاهرة الأولى بأن مصر كانت الى حد ما ملكا خالصا للامبراطور بوصفه خليفة الملوك الأقدمين ؛ وفى الحالة الثانية ربما خشى الأباطرة حقا عاقبة السماح لأعضاء الأسرة المالكة بالسيطرة على الأراضى ؛ وحرية التصرف فيها كانت من أسرار الحكم (arcana imperii) فى زمن الأسرة اليولية الكلودية . ومن المحقق أن استيلاء أعضاء الأسرة المالكة على الأراضى فى مصر ومصادرة أملاكهم بغتة بين الفينة والفينة من الأدلة الواضحة على طبيعة حكم آل يوليوس وآل كلوديوس ، وهو حكم النزوات الفردية وحدها .

ويأتى فى المرتبة الثانية بعد الأباطرة ملاك الأراضى من بين أعضاء مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان . وبعض ضياعهم (كضيعة فالكيديوس مثلا) ربما يرجع الى زمن أنطونيوس ، ولكن أكثرها يرجع حتما الى عصر أغسطس . وأهم هؤلاء الملاك جايوس مايكيناس وجايوس پترونيوس ، وهما من أخصاء أغسطس ، وكلاهما من طبقة الفرسان . وبجانب هؤلاء نجد كثيرين من الأسر البارزة من أعضاء مجلس الشيوخ — مثل آل اپونيوس وآل اتنيوس وآل جاليوس وآل لوريوس وآل نوربانوس . والى هذه الطبقة عينها ينتمى رجل اسمه سيڤيروس وآخر اسمه يوكندوس جريپيانوس . ويجدر أن نشير هنا أيضا الى أن بعض الملاك كن نساء (جاليا پولا ونوربانا كلارا) ويحتمل أن يكون تعليل ذلك أنه كان من الصعب على أعضاء مجلس الشيوخ شراء أرض فى مصر . وختام هذا الثبت رجل شهير هو لوكيوس انايوس سينكا الفيلسوف ومعلم نيرون .

وكان ينافس الشيوخ والفرسان المقربون من موالى الأباطرة الذين اعتلوا العرش ، نذكر منهم نركسوس الذى ذاع صيته وهو من موالى

كلوديوس ودوريفوروس ذا البطش وأمين الرقاع فى زمن نيرون ، وقد ورد ذكرهما بين ملاك الأراضى فى مصر . ومن هذه الطبقة التى لقيت حظوة لدى الأباطرة أعضاء البيت المالك اليهودى كجايوس يوليوس اسكندر وجوليا برينيكى . ويجىء أخيرا عدد من الأثرياء من أفراد العائلات البارزة فى الاسكندرية — مثل جايوس يوليوس ثيون ، وثيون ابن ثيــون ، وماركوس يوليوس اسكليبيادیس ، واسكليبيادیس بن بطليموس — وكل هؤلاء يمكن أن نتعرفهم وأن ندلل على أنهم من أهل الاسكندرية ومن ذوى المكانة العالية الذين جاء ذكرهم فى النصوص الأدبية التى وصلت الينا . وانى أعتقد أن لكاريون وابنته ثرموثاريون ، وأن جايوس يوليوس اثينودوروس ، وأن تبيريوس كالپورنيوس تريفون وايڤاندر بن بطليموس واونيســيموس وأپيــون وديونيسودوروس وثيونينوس وفيلوداموس وأنثوس يجب اعتبارهم من عظماء الاسكندرية ، وقد ورد ذكرهم جميعا فى وثائق يرجع أكثرها الى القرن الأول كأصحاب ضياع (οὐσίαι) فى مصر (٤٣) .

وأكثر هذه الضياع تكوّن بطريق الشراء لأرض كانت فيما مضى ملكا لجنود فى جيوش البطالمة واستوطنوا مصر ، ولهذا فانها من الوجهة القانونيــة تنطــوى تحت القسم المسمى بالاقطاعيــات (γῆ κληρουχική) أو (κατοικική) . ومن المحتمــل أن بعض هــذه الضياع تمتع بالاعفــاء من الضرائب أو دفع ضرائب مخفضة (ἀτέλεια أو κουφοτέλεια) ولكن أكثرها خضع لنظــام الضرائب التى جبيت عادة من نوع من الأراضى أوجده أغسطس وعرف باسم الأراضى « المشتراة » (γῆ ἐωνημένη) .

ويظهر من الأدلة التى بين أيدينا أن جزءا كبيرا من هذه الأرض غرس كروما وحدائق وزيتونا . وهناك أدلة وفيرة على أن مزارع جديدة وعديدة أنشأها الملاك الجدد . وقد استثمر أهل الاسكندرية أموالا طائلة فى

هذه الأرض « المشتراة » : ويكفى أن نقرأ الفقرات التى تشير الى هذه الأراضى المشتراة فى قرار تيبريوس يوليوس اسكندر الذى وجهه الى أهل الاسكندرية لنرى مبلغ حرص الاسكندريين على الاحتفاظ بأملاكهم هذه ، عندما هاجمتها الادارة الامبراطورية هجوما انتهى بالقضاء عليها قضاء كاد يكون مبرما (٤٤) .

لاقت جهود أغسطس وخلفائه الأول نجاحا طيبا فاستصلحت أرض كثيرة ، ودرت ضياع جديدة كثيرة على أصحابها ريعا حسنا مأمونا . ولكن هذا كان أول فصل فى القصة ، اذ تغيرت سياسة الأباطرة تغيرا فجائيا فى عهد نيرون . وجاء الفلاڤيون فساروا شوطا أبعد فى هـذا السبيل . ولم يكن السبب أن الأباطرة توقفوا عن تشجيع تكوين ضياع جديدة يملكها الأفراد : فهم قد قدموا ، كما فعل الأباطرة السابقون ، كل تسهيل لمن يشترى الأراضى المهجورة الجدباء (٤٥). أما ما رغب الأباطرة فيه فهو أن يكون المشترون ممن يقيمون فى الريف ، وأن لا يكونوا رجالا ذوى نفوذ فى رومة ، ولا أمراء من البيت المالك ولا من الطبقة العليا من أعضاء مجلس الشيوخ أو من الفرسان ، ولا من ذوى الحظوة لدى الأباطرة كالموالى ولا حتى من أثرياء الاسكندرية . ود الأباطرة لو يكون المشترون من الطبقة المتوسـطة من اليونانيين والرومان الذين يقيمون فى البلاد ، أعنى رجالا ارتبطت حياتهم دائما بالأرض واتصلت بها . وتعليل هذا التغيير فى السياسة أمر سهل يسير . اذ لم يكن من الهين على الادارة المحلية فى مصر ، ولا حتى على الحاكم العام ، أن يقسر كبار ملاك الأراضى من الأشراف أو وكلاءهم على اطاعة القوانين طاعة دقيقة فى دفع الضرائب والقيام بما تفرضه الدولة على عمـال هذه الضياع ومستأجريها . ولذا كانت هذه الضياع (οὐσίαι) مصدر متاعب للدولة وللادارة . أضف الى ذلك أن أشراف الرومان

وأهل الاسكندرية الذين كانوا يمتلكون هذه الضياع قضوا حياتهم على نهجهم الخاص وكانت لهم شواغلهم الشاغلة التى تسترعى اهتمامهم. وكان من المستحيل قسرهم على تحمل نصيبهم فى « الخدمات » المحلية التى أصبحت منذ ذاك الوقت المحور الذى تدور حوله الادارة المالية فى مصر . زد على ذلك أن سياسة الفلاقيين والأنطونينيين كانت تقوم على الطبقة الوسطى فى الولايات ، لا على الطبقة العليا فى ايطاليا ، كما كان الأمر من قبل ، وعلى البلديات (municipia) ، لا على الحواضر . وكانت هذه الأسرة الجديدة (ولهذه النقطة أهمية كبرى) تخشى قيام المطالبين بالعرش ، إذكانت أسرة الفلاقيين تعتقد اعتقادا جازما (وقد كان ڤيسپاسيان رأس هذه الأسرة مدينا بالعرش لاستيلائه على مصر) أن وادى النيل أفضل مكان يبدأ منه منافس جديد يطالب بالتاج . وعلى هذا صفيت الضياع الكبيرة بطريقة أو بأخرى . ولم تتكون ضياع جديدة . فان كان هناك شواذ قليلة فهى بمثابة النوادر التى تثبت القاعدة. وآخر امبراطور ملك أرضا فى مصر ملكية خاصة هو تيتوس . ولقد احتفظ قليلون من سلالة الملاك الأقدمين بأملاكهم الموروثة ، اذ لم تكن مصدر خطر على الامبراطور ولا على الادارة . ومن أمثال هؤلاء ماركوس انطونيوس پلاس ، سليل پلاس الشهير . وقد تكونت ضياع جديدة فى القليل النادر وربما كانت من هذا النوع ضيعة جوليا برينيكى خليلة تيتوس وضياع كلوديا اثينايس — وهى تنتمى الى آل أتيكوس الذين ذاع صيتهم فى أثينة وكانوا من أصفياء الأباطرة فى القرن الثانى — وضيعة جوليا پولا . ولكن هذه شواذ (٤٦) .

وعلى الرغم من ذلك لم تتوقف طبقة ملاك الأراضى عن النمو . فكانت هناك أرض تشترى وتستصلح وكروم جديدة تغرس وبساتين جديدة من الزيتون تزرع . كان المشترون أفرادا من الطبقة الوسطى

المحلية التى تتألف من قدماء الجنــود فى الجيش الرومانى وموظفى الادارة الامبراطورية وجباة الضرائب وأصحاب السفن ودواب الحمل وغيرهم . والطراز الغالب بين ملاك الأراضى فى مصر فى القرن الثانى من الأعيان المحليين وهم اما من الجنود القدامى أو من اليونانيين أو أنصاف اليــونانيين الذين ســــكنوا فى حاضرة من الحواضر (metropoleis) . وهناك صورة تخلب اللب لهذا الصنف من الملاك نجدها فى رسائل الجندى القديم لوقيوس بيللينوس جيميلوس ، أحد سكان قرية يوهيميريا (قصر البنات) فى الفيوم ، وهو رجل بلغ من الكبر عتيا ، ولكنه مدبر بارع لضيعته النموذجية . ولدينا مثــل آخر هو ابولونيوس قائد (strategus) هيپتاكوميا فى زمن هادريان . وقد وقف حياته على خدمة الامبراطورية ، ولكنه وجه اهتمامه أيضا الى بلدته الأصلية ، هيرموبوليس الكبرى (الأشمونين) . فجمعت هذه الطبقة الوسطى فى مصر ثروات ضخمة . ويمكن أن نقتطف وصفا لاحداها ولكنه يمثلها جميعا ، وان يكن هذا الوصف حقا من قلم عدو لدود ، غير أنه قد يمكن الاعتماد عليه فى تبيان مقدار هذه الثروات ، لا فى ذكر مصادرها . يقول كاتبه: «ستجدون أنه هو وعائلته كلها لم يكن لهم فى الأصل غير سبع «أرورات» ، أما الآن فهو وحده يملك سبعة آلاف عــدا مائتى « أرورا » من الكروم . وقد أقرض كلوديوس يوتيخيديس اثنين وسبعين « تالنت » . لقد جمع هذا كله من السرقة من المخازن العامة ومن اختلاس أموال الخزانة ، اذ أنه لم يدفع الضرائب » (٤٧) .

وكان هناك مصدر آخر للثراء أتيح لأعيان القطر فى القرن الثانى فترة قصيرة على الأقل ، ألا وهو استغلال الضياع (οὐσίαι) التى صودرت فى القرن الأول والتى أصبحت الآن أرضا أميرية وكونت وحدة خاصة (ratio) هى ادارة أراضى الضياع (γῆ οὐσιακή) ويشرف

عليها ذاك الموظف الكبير الذى عهد اليه بالنظر فى أمر البضائع المصادرة والغرامات على وجه عام ، وأعنى به مدير الخاصة الملكية (ἴδιος λόγος) . كانت هذه الأراضى تؤجر عادة الى أغنياء الرأسماليين قطعا كبيرة — وهذا عين النظام الذى سنجده متبعا فى نفس الوقت فى جهات أخرى فى أفريقية (٤٨) .

وهكذا كان القرن الثانى بعد الميلاد فى مصر ، كما فى الولايات الأخرى فى الامبراطورية الرومانية ، فترة رخاء لتلك الطبقة التى تقابل الطبقة البورجوازية فى البلديات فى الولايات الأخرى . وقد وجدت حقا فى مصر أيضا طبقة بورجوازية محلية كالتى تقطن فى البلديات ، لها كل الخصائص المميزة عدا الاسم . فلقد شهد القرن الثانى تطورا باهرا فى المدن فى طول البلاد وعرضها الا أنها لم تكن مدنا فى دستورها ، لأن الأباطرة فى ذاك القرن اعتصموا بخطة البطالمة القديمة ، وساروا على نهج أغسطس ، فامتنعوا عن منح حقوق بلدية للمدن المصرية . والاسكندرية نفسها لم تنجح ، رغم جهودها المتكررة ، فى أن تحصل من الأباطرة على جمعية تشريعية (βουλή) . فبقيت « المدن » فى مصر من الوجهة القانونية عواصم ادارية ، متروبوليس (metropoleis) ولكنها كانت مدنا من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية . ولم يقطن الأعيان الجدد من ملاك الأراضى عادة فى القرى التى تضم أراضيهم . وفى الحقيقة كانت ضياعهم ، كضياع (οὐσίαι) القرن الأول ، مبعثرة فى مديرية (نوم) واحدة أو فى عدة مديريات . وأقام أكثرهم فى مدينة من المدن الرئيسية (metropoleis) ومنها سهل عليهم أن يشرفوا على قطع أراضيهم وأملاكهم المبعثرة . وعلى هذا لم يعد سكان أى مدينة فى أى اقليم مجرد مجموعة من الموظفين وجباة الضرائب وأصحاب الحوانيت والصناع وتجار التجزئة . كان أكثر سكان هذه المدن من ملاك الأراضى

(γεοῦχοι) . وكانوا يونانيين ، يتمتع بعضهم بالرعوية الرومانيـــة . وكان عدد منهم رومانيين تأثروا بالثقافة اليونانية . وكثيرون منهم كانوا مصريين اصطبغوا بالصبغة اليونانية . وكان هؤلاء هم أكثر السكان الأصليين حبا للادخار والجد . وقد نجحوا فى جمع ثروات طائلة والاندماج فى صفوف اليونانيين المتمصرين وذلك بشراء الأراضى وبالزواج وبما أشبه ذلك . وقد كان القرن الثانى هو الذروة التى انتهى عندها صبغ مصر بالثقافة اليونانية ، وسنرى بعد قليل أنها أخذت فى التدهور . وقد تاق هؤلاء الأثرياء من اليونانيين بلا ريب الى أن يعيشوا لا عيشة نكدة كالمصريين الأصليين ولكن عيشة رافهة كحياة مواطنيهم فى آسيا الصغرى وسوريا وبلاد اليونان . كانوا فى حاجة الى حياة المدن وهم قد خلقوا تلك الحياة . ولم تتدخل الحكومة ، ولكنها على العكس من ذلك شجعت الحركة منذ عصر أغسطس لأسباب ستظهر فى التو . ولهذا اكتسبت الحــواضر (متروبوليس metropoleis) فيما يخص الأحياء اليونانية على الأقل مظهر المدن الهيلينستية ، وحذا حذوها بعض القرى الكبيرة . وأدخلت تحسينات من الطراز المألوف فى جميع أنحاء العالم اليونانى الرومانى : فزيد فى مساحة الملاعب القائمة وبنيت حمامات وأضيئت الطرقات ليلا . وبازاء هذا التقدم المادى سار التطور بخطى ثابتة نحو حكومة ذاتية من نوع ما ، نحو حكومة فيها حكام لا هم بالمنتخبين ولا هم بالمعينين . وأنشأوا حكومات (κοινά) ، وعقــدوا اجتماعات ، وكانت هناك جمعيات تحاكى — الى حد ما — الجمعيات العمومية . ومن الذائع المعروف أن مدينة انتينوبوليس عينها التى ظنها الناس مدينة يونانية جديدة كانت من خلق هادريان الذى جاء اليهـا بسكان من اليونانيين المتمصرين (٤٩) .

هذا هو النهج الذى اتبعته مصر حتى خرجت بالتدرج من عزلتها

وأعادت تنظيم حياتها على نسق الولايات الأخرى . ولكن هذا التغيير الذى لم يعمر الا القليل لم يلمس طبعا غير السطح الخارجى . ففى مصر أكثر من أى قطر آخر كانت المدن شيئا دخيلا . وكان نمو المدن وتطورها يعتمدان على عامة المصريين وكدهم وكدحهم . أما حياة هذه الجماهير الغفيرة فلم تتغير ولم تتحول . وسنتكلم فى الفصل التالى عن محاولات الامبراطور هادريان فى دفع الفلاحين وتشجيعهم على أن يصبحوا طبقة بورجوازية تملك الأراضى ومحاولاته فى توحيد المصريين واليونانيين . ولكن هذه الجهود كانت هزيلة ضعيفة قصيرة الأمد . فاستمر حقا جمهور الفلاحين والصناع المصريين يحيون نفس الحياة التى كانوا يعيشونها ، كما قسم لهم ، منذ فجر التاريخ المصرى . ولم يحاول أحد احداث تغيير فى تلك الحياة . فلم يهتموا بخلق طبقة وسطى فى المدن ، ولم يكن لذلك أى تأثير فى معيشتهم . وكما كان الحال فى العصر القديم، نالهم الاعياء والضجر وهم يمسكون بمحاريثهم البدائية ، وينسجون على أنوالهم التى أدخل عليها بعض التحسين . وكان كدهم وآلامهم ، كما كان الحال فى الماضى ، لا لأنفسهم ، وانما كما قيل لهم من أجل الامبراطورية الرومانية ممثلة فى شخص امبراطور رومة المقدس النائى . ولقد فقدوا حتى عزاءهم الوحيد وهو الالتجاء الى معبد لأن الأباطرة حدوا تدريجا من حق الالتجاء . ولو أنهم حاولوا الثورة ، لكان ذلك عملا جنونيا ، وهناك جنود رومانيون يعسكرون فى البلاد وتقف وراءهم الامبراطورية الرومانية بأجمعها . ولم يكن هناك الا قليلون لا يترددون فى قيادتهم فى أمثال هذه المخاطرات . فلم يبق لهم الا أن يهربوا وأن يعيشوا عيش اللصوص والحيوان الوحشى فى مستنقعات الدلتا . ولم يكن هذا بالشىء الذى يخلب الألباب (٥٠) .

نلتفت بعد ذلك الى ولاية برقة واقريطش فى عصر الامبراطورية .

اننا نسمع القليل والقليل جدا عن الحياة فيهما . ويمكن تعليل ادماج هذين القطرين فى ولاية واحدة بأن كلا منهما بقى زمنا طويلا تحت سلطان البطالمة . لكن الأدلة القليلة التى وصلت الينا منهما لا يظهر منها أن مبادىء الادارة البطلمية التى احتفظ بها دون تغيير يذكر فى مصر قد طبقت فى هذين البلدين مع ما فيهما من نظام متطور لحكومات المدن اليونانية المستقلة . بل لقد حدث عكس ذلك ، فقد نظمتا كولايتين نموذجيتين تخضعان لمجلس الشيوخ كبلاد اليونان وولاية آسيا . والأمر الوحيد الذى نعرفه عن الحياة الاقتصادية فى كريت وبرقة هى محاولة الأباطرة كلوديوس ونيرون وڤيسپاسيان وضع حد للفوضى التى ضربت أطنابها فى نظم امتلاك الأراضى التى كانت سائدة هنالك . فقد وضع الأفراد أيديهم على مساحات شاسعة من الأراضى فى كل من القطرين ، مع أنها من الوجهة القانونية كانت ملكا خالصا للأباطرة بوصفهم ورثة البطالمة أو ملكا للمدن . ويتحدث تاكيتوس وهيجنوس، وتعضدهما الأدلة التى نستقيها من النقوش ، عن قصة النضال الطويل الذى قام به كلوديوس ومن جاءوا بعده ليضعوا حدا لهذا التعدى وليعيدوا الأراضى الأميرية الى حوزة الدولة والهيئات . ويظهر أن جزءا كبيرا من أراضى برقة كان ملكا خالصا لملوكها فى الفترة الأخيرة وأن آخر ملوكها أوصى بهذه الأراضى الى رومة . ومن المحتمل أن هذا نفسه ينطبق على اقريطش . ولسنا ندرى ما فعل الأباطرة بهذه الأرض بعد أن أعيدت الى حوزة الأمة الرومانية (populus Romanus) [٥١] .

وفى تطور البلدان الأفريقية التى تتألف منها الولايات الأربع التى أنشأتها رومة على الشاطىء الشمالى من قارة أفريقية — أفريقية القنصلية ونوميديا وولايتا موريتانيا — تظهر معالم وخصائص غريبة لا نجدها فى أى جزء آخر من العالم الرومانى الا فى سردينيا وقورسيقة وبعض أجزاء صقلية .

ولدينا نسبيا الكثير من المعلومات عن التطور الاجتماعى والاقتصادى لهذه البلاد التى كانت تمثل منطقة قرطاجنة فى سالف الأزمنة ومملكتى نوميديا وموريتانيا . ونحن ندين بما نعرف لما انتاب هذه البــلاد من أحداث سياسية . وعندما وقعت أفريقية ، بعــد زوال حكم الرومان والڤاندال والبيزنطيين ، فى قبضة العرب رجعت ثانية ، كما حدث فى البلاد السورية ، الى حياة بدائية فطرية تشبه المعيشة التى سادت فيها قبل استعمار القرطاجنيين . فاضمحلت أكثر مدنها ، ما عدا ثغورا قليلة على الشاطىء ، واختفت من الوجود تاركة وراءها أكواما من الأطلال . وعاد السكان مرة أخرى الى حياة البدو والرعى فلم يوقعوا الا أضرارا تافهة بالأطلال . ولما دخل الفرنسيون الحلبة ، وجدوا أمامهم مجالا فسيحا للاستعمار الزراعى والحفريات الأثرية سواء بسواء . وبعد سنين ضربت فيها الفوضى وأصيبت فى خلالها الأطلال بتدمير جزئى ، نظمت المحافظة على هذه العاديات وأجريت حفريات علمية على نهج يعتبر نموذجا . وتقف الآن أفريقية بازاء بلاد الرين على رأس الولايات الرومانية التى حسن كشف ما بها من الآثار . فهناك عشرات من المواقع لا سيما مواقع المدن الرومانية قد استكشفت جيدا . أما الأطلال فقــد وجهت عناية فائقة الى المحافظة عليها وفتحت أبوابها لجميع الباحثين . وقد أنشىء عدد كبير من المتاحف ، حفظ فيها كل شىء أخرجته الفأس من جوف الأرض . وقد أذيع لساعته وبكل دقة كل ما عثر عليه سواء أكان وثائق مكتوبة أو بقايا فن أو صناعة (٥٢) .

قبل أن يضع الرومان أقدامهم فى أفريقية اســتعمرها الفينيقيون على مدى واسع وبطريقة مركزة تحت امرة مدينتهم العظيمة قرطاجنة . فلم تكن قرطاجنة وأوتيكا وهادروميتوم والمدن الأخرى مراكز تجارية كبيرة فحسب ، بل كل مدينة منها أظهرت كفاية ممتازة فى استغلال الأراضى

الخصيبة الواسعة التى وضعت يدها عليها تدريجا . ووجه الفينيقيون التفاتا خاصا الى استثمار أمثال تلك الأراضى عن طريق الزراعة ، وعلى الخصوص بعد الحرب البونية الثانية عندما استحال على الفينيقيين أن يبقوا على تجارتهم الخارجية الواسعة مزدهرة على نطـاقها السابق فانصرفوا بكل قواهم الى انماء المصادر الطبيعية فى منطقتهم الخاصة . وقد وصفنا فى الفصل الأول ذالك النشاط الذى قامت به قرطاجنة والمدن الفينيقية الأخرى ، وأبرزنا هنالك حقد الملاك من الرومانيين ، وأشرنا الى أن نمو أفريقية الزراعى كان الباعث الأول الذى حمل كاتو وشيعته على أن يعقدوا العزم على تدمير بلدانها الزاهرة . وقد كان زيت الزيتون والفواكه والنبيذ (الى حد ما) هى المنتجات الرئيسية للمدن . فكان ساحل افريقية فى العصور الفينيقية حديقة غناء فسيحة الأرجاء . وهذه حقيقة تدعمها لا الأدلة الكثيرة المباشرة فحسب ، وانما أدلة غير مباشرة أيضا . اننا نعلم أن واحدة من أشهر الرسائل عن الفلاحة هى كتاب ماجو القرطاجنى . ويحتمل كثيرا أن هذا الكتاب لم يكن الا اقتباسا ، روعى فيه أن يلائم طبيعة الأراضى الأفريقية ، من تلك المؤلفات العلمية التى وضعت فى بلاد اليونان أو ظهرت فى الشرق اليونانى فى القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد . ونحن نعرف كذلك أن الكتب التى ألفها الرومانيون عن الفلاحة استقيت أجزاء منها من كتاب ماجو ، وأجزاء أخرى من مصادره الهيلينستية . ولهذا يمكننا أن نفترض أن أهـم خصائص كتاب ماجو وجدت بعينها فى تلك الرسائل اليونانية والرومانية؛ وبعبارة أخرى كان كتاب ماجو يبحث فى الزراعة العلمية والرأسمالية ، وقد وجه أكثر عنايته لا الى زراعة الحبوب وانما الى غرس الكروم والبساتين ، وعلى الأخص زراعة الزيتون . ومن المحتمل جدا أن اليد العاملة التى استخدمها ملاك الأراضى من الفينيقيين فى مزارعهم كانت على العموم من الأرقاء .

ومن الآراء السائدة أن نظام المزارع الشاسعة انتشر فى منطقة قرطاجنة ، وأن مساحات واسعة من الأراضى كانت تفلحها عصب العبيد وأرقاء الأرض ، وكان أكثر منتجاتها الحبوب . واننى لا أجد دليلا واحدا يعضد هذا الرأى الذى لا يستمد أى سند من الحقيقة الذائعة وهى أن منطقة الحكومة البونية حوت فضلا عن المدن الفينيقية القائمة على الساحل مئات من المدن البربرية الفينيقية (كالمدن الرومانية فى العصور المتأخرة) سكنها أصحاب الأراضى والتجار من الفينيقيين أو من البربر الذين تأثروا بالفينيقيين ، وقد كونوا طبقة أرستقراطية غنية تقطن بالمدن ، أكثرها من ملاك العقار كما كان الأمر فى موطنهم الأصلى فى فينيقية نفسها . وقد يمكن أن نفترض أنه بينما كانت ضياعهم تنتج حبوبا فى أكثر الأحيان كانت اليد العاملة فيها تأتى من السكان الأصليين الذين كانوا فى مرتبة صغار المستأجرين أو رقيق الأرض .

وتحت تأثير قرطاجنة ، ولا سيما بعد الحرب البونية الثانية ، بدأت نوميديا أيضا فى ظل ملوكها وصغار أمرائها تنمى زراعة مزدهرة . ومن المحتمل أن النشاط والرخاء وجدا سبيلهما الى مدنها . وآية ذلك نزولها فى القرن الثانى قبل الميلاد كبائعة الى سوق الحبوب الدولى فى رودس وديلوس ، وكذا فى أثينة ، وازدهار الحياة يوما اثر يوم فى كرتا ، عاصمة نوميديا ، وفى مدن أخرى ولا سيما تلك المدن الساحلية: هيپوريجيوس وروسيكادى وتشوللو . وقد حدث عين التطور والازدهار فى العصور المتأخرة فى مملكة موريتانيا ، وعاصمتها يول التى عرفت باسم قيصرية فى عصر الرومان (٥٣) .

وقد ورثت رومة بعد الحرب البونية الثالثة التى انتهت بالاستيلاء على قرطاجنة تلك الحالة التى خلفتها السيطرة الفينيقية طوال قرون عديدة . وكان أول عمل أتاه الفاتحون هو تدمير كل شىء من صنع

قرطاجنة . فهدمت قرطاجنة نفسها ، وأصبحت مدن أخرى كثيرة مزدهرة أطلالا وخرائب . ومن المحتمل أن الفاتحين دمروا بالطريقة الغاشمة عينها كروما نامية وبساتين الزيتون وحدائق الملاك الفينيقيين ، عدا ما وجد فى مناطق تابعة لمدن قليلة على الساحل كانت فى حلف معهم أثنــاء الحرب البونية الثالثة (أوتيكا وهادروميتوم وليپتيس الصغرى وثاپسوس وأتشولا واوزاليس ومدينة ثوداليس وهى فى الداخل بعيدا عن الشاطىء) . وهذا هو السبب أيضا (ونحن نذكره عرضا) فى أن العاديات الرومانية من العصور الأولى وأحسن الآثار الجنائزية فى آخر عهد الجمهورية جاءت من المدن الساحلية التى مر ذكرها آنفا ولا سيما هادروميتوم . وهذا هو السر فى أن الأرض المحيطة بقرطاجنة وصفها شهود رأوها رأى العين بأنها صحراء جرداء (٥٤) .

ولقد نظمت رومة ولايتها الجديدة أو ضيعتها الجديدة على النسق التالى . أصبحت الأراضى ملكا للدولة الرومانية ، أى مجلس الشيوخ والأمــة الرومانيــة (senatus populusque Romanus) ولم يحدث سوى استثناء واحــد خاص بأراضى المدن الســبع التى عــددناها آنفا وبعض الأراضى التى منحت الى الفارين (perfugae) من الجيش القرطاجنى . أما بقية الأراضى الأفريقية فقد أصبحت أرضا أميرية مملوكة للأمة الرومانية (ager publicus p. R.) . وقد أعطى جزء من هذه الأرض الى المدن البونية القديمة والى المدن التى تأثرت الحضارة البونية . وقد فقدت كل هذه المدن حقوقها البلدية ونظر اليها على أنها مجرد مجموعات من دافعى الجزية (stipendiarii) . ومن هؤلاء مثــلا دافعــو الجزية (stipendiarii) فى القرى (pagi) أو الهيئات الريفية من الموكسيين (Muxsi) والجوسوسيين (Gususi) والزوجيين (Zeugei) الذين أقاموا تمثالا لتكريم الصراف (quaestor) كوتنوس نوميريوس روفوس وهو

من معاصرى سيشرون ، أو حكومات (civitates) قرية (pagus) جوررزينسيس (Gurzensis) أيضا . وقد احتفظ دافعو الجزية طبعا بأرضهم مؤقتا (precario) ، أى دون أن يكون هنا ما يؤمن واضعى اليد على هذه الأرض ويؤمن زارعيها أن الدولة لن تأخذها منهم فتهبها أو تبيعها أو تؤجرها أى انسان آخر . أما بقية الأراضى الأميرية فقد صارت أرضا يديرها قضاة الاحصاء (ager censorinus) لتدر أعظم ريع على المدينة الحاكمة . ولقد أجر أكثر هذه الأرض الى مواطنين رومانيين أو الى سكان البلاد الأصليين ، طبقا لاختلاف الظروف .

ولقد بدأ عصر جديد فى تاريخ أفريقية فى الفترة القصيرة التى قضاها جايوس جراكوس فى الحكم فى رومة . فقد عزم ، كما هو معروف ، على اعادة بناء مدينة قرطاجنة وعلى استعمار المدينة الجديدة والأراضى التابعة لمنطقتها برجال من الرومان ولهذا الغرض عمل تقسيم أو مسح للأراضى الواقعة فى منطقتها السابقة . ومن هذه الأراضى المقسمة منح ستة آلاف مستعمر رومانى قطعا تتراوح بين مائة يوجيرا ومائتى يوجيرا . غير أن الخطة التى وضعها جراكوس لاعادة بناء قرطاجنة لم تنفذ ، وان يكن المستعمرون ، أو على الأقل جزء منهم ، ذهبوا الى اقطاعياتهم التى منحوها من الدولة واستقروا عليها . وكان من نتائج تصفية مجلس الشيوخ لاصلاحات جراكوس الزراعية صدور قانون زراعى فى سنة ١١١ قبل الميلاد . وقد أعطى هذا القانون صبغة قانونية للنظم الجديدة لامتلاك الأراضى فى ايطاليا وبعض الولايات ولا سيما أفريقية . ولا تزال بعض أجزاء هذا القانون باقية وهى تمدنا بمعلومات قيمة عن سياسة رومة الزراعية فى أفريقية . وأهم بنود ذلك القانون التى تسترعى الانتباه هى تلك التى تبحث فى نظم الأراضى التى أطلق عليها اسم الأراضى الخاصة والخراجية (ager privatus vectigalisque)

وهى أرض بيعت الى رأسماليين أثرياء من الرومان على شريطة أن يدفعوا بانتظام الى الدولة ضريبة أو أجرة (vectigal) . ومن المحتمل أن مساحات كبيرة من الأراضى وجدت طريقها على هذا النحو الى قبضة الرأسماليين الرومانيين ، وأن على هذا النهج أيضا وضعت أسس الضياع الشاسعة (latifundia) التى قامت فى أفريقية فيما بعد (٥٥) .

وفى أثناء ذلك صارت أفريقية مجالا للاستعمار الرومانى ، استعمار لم تقم به الدولة ، وانما قام به الايطاليون أنفسهم واحتملوا أعباءه ، فذهبوا ليقيموا بين دافعى الجزية (stipendiarii) فى أفريقية واستوطنوا المدن البونية ولا سيا كتجار ومرابين وأصبحت كرتا (قسنطينية) ، عاصمة مملكة نوميديا ، احدى المراكز المفضلة عند رجال الأعمال من الرومان ؛ فأقام فى هذه المدينة الزاهرة مئات وألوف ، كما فعلوا فى بلاد الغال وفى دالماتيا وفى الشرق . ونزل عدد قليل منهم فى المدن المختلفة فى نوميديا وأفريقية القنصلية . وهم قد استثمروا أموالهم اما فى الأراضى الأفريقية الخصبة أو اقتنوا عقارا بطرق أخرى ، وأكثر ما كان ذلك فى الولاية الرومانية الجديدة . وقد دام سير الاستعمار بخطى سريعة أثناء الحرب الأهلية . ونحن نسمع عرضا أن ماريوس أقطع جنوده القدامى أرضا فى مدينتين على الأقل من مدن أفريقية . ومن المعروف المشهور أن كلا من قيصر والمشايعين لبومبى كان لهم أنصار فى أفريقية من المواطنين الرومان . وكان يرأس أنصار قيصر رجل ذكى نشيط محب لركوب الأهوال هو پوبليوس سيتيوس ، مارس منذ أيام كاتلينا حرفة الجندى المغامر فى أفريقية على رأس عصبة من الروافض كان قد جمعهم من أسبانيا . وقد ذاعت قصة استيلائه على كرتا وتسليمها لقيصر ، فأصبحت على كل لسان (٥٦) .

ويعتبر عصر قيصر فاتحة فصل جديد فى تاريخ أفريقية ؛ فبعد أن غزا أفريقية ، لعبت مدينتا قرطاجنة وكرتا الدور الرئيسى فى تاريخ البلاد .

وقد أعاد قيصر بناء المدينة الأولى وجعل منها مستعمرة رومانية ومنح أتباع سيتيوس اقطاعيات كبيرة فى البلدة الثانيــة وخولهــم حقــوق المستعمرات الرومانية . وأعطيت المدينتان مناطق خصيبة واسعة جــدا وألحقت بهما مدن وقرى أفريقية ونوميدية قديمة ، كان يدبر شئونها حكام ينتدبهم المستعمرون الرومانيون . وكان لكل قســم من مناطقها الشاسعة مراكزه المحصنة لأن الحياة لم تكن بعد آمنة فى هذه الأرجاء . وقد سمى بعض هذه المراكز المحصنة بالقلاع الصغيرة (castella) ، ويظهر أنها كانت حصونا يفزع اليها سكان الريف . كما استرد بعض هذه المراكز نظمه البونية القديمة التى تشبه نظم البلديات ، واتخــذ لنفسه مظهر المدن العادية ، ذاك المظهر الذى كان لهذه المراكز أثناء حكم قرطاجنة ، واسترد فى بعض الأحيان كما كان الحال فى ثوجّا مثلا مظهره الذى كان له فى الفترة التى خضع فيها لملوك نوميديا . وليس من اليسير تحديد عدد المراكز التى تمتعت بنظم البلدية والتى منحها قيصر حقوق المستعمرات — ان كان هناك أمثال هذه المراكز — بينما بقيت ملحقة بقرطاجنة أوكرتا . وانى أظن أن هذه المستعمرات الملحقة ، على أى حال فيما يخص قرطاجنة ، انما هى من نسج خيال الباحثين فى العصر الحديث . ومع ذلك فلقد لعبت قرطاجنة حقا دورا هاما جدا فى حياة هذه المدن التى بعثت بعثا جديدا ، يشهد بذلك بقاء عبادة مدينة قرطاجنة فى بلدان كثيرة فى الولاية القنصلية حتى فى الأزمنة المتأخرة جدا . ومن المحتمل أيضا أنه فضلا عن أولئك الذين استعمروا قرطاجنة وكرتا ، منح كثيرون من قدماء المحاربين فى جيش قيصر قطعــا من الأرض فى أفريقية ، واستقر كثيرون من المهاجرين فى ذاك القطر جريا وراء صالحهم الخاص (٥٧) .

ولكن بناء المدن فى أفريقية بدأ حقا فى عصر أغسطس . ففى أوائل حكمه كان فى أفريقية (بما فيها طرابلس ونوميديا) ، على ما جاء فى

پليني ، ٥١٦ محـــلة (populi) ، منها احدى وخمسون مدينـــة (ست مستعمرات وخمس عشرة بلدية(municipia) وثلاثون بلدة حرة oppida) libera) وأربعمائة وثلاثة وستون اقليما لا مدن فيها تقطنها قبائل من أنصاف البدو (gentes أو nationes) . كان پليني يعتمد فيما يذكر عن الولاية القنصلية على الاحصاء الشهير الذى قام به أجريپا ، وقد قابله فيما يخص موريتانيا ونوميديا (لا فيما يمس الولاية القنصلية) على أخبار حديثة ترجع الى عصر الامبراطور كلوديوس والى عهد الفلاڤيين . غير أن روايته فيما يخص أفريقية ونوميديا على الأقل لاتؤيدها تأيدا تاما الأدلة التى نستقيها من النقوش ،اذ أن النقوش تذكر فضلا عن قرطاجنة وكرتا عشر مستعمرات على الأقل . ولهذا يجب أن نفترض ، اذا لم نقبل وجود مستعمرات اسمية أنشأها يوليوس قيصر وألحقها بقرطاجنة ، أن انشاء المدن استمر بعد أن أتم أجريپا احصـــاءه وأن أغسطس أنشـــأ مستعمرات جديدة ومراكز تلألأت فيها حياة المدن . وكانت أغراضه الأساسية اما حربية — وهذا ظاهر فى تأسيس احدى عشرة مستعمرة على الأقل فى موريتانيا كانت حقا معاقل حربية — واما رغبته فى أن يجد مقرا لا لقدماء المحاربين فى جيشه فحسب وانما لكثيرين من سكان ايطاليا الذين فقدوا أراضيهم فيما صادر أو عندما شرى [٥٨] .

وعلى هذا النحو قامت فى أفريقية مؤسسات سياسية حربية ابتدعها أغسطس ، وكانت أنواعا ثلاثة : (١) مســـتعمرات كان بها فضـــلا عن المستعمرين الرومانيين عدد كبير من أهالى البلاد الأصليين انتظموا فى شكل حكومة (civitas) ، وكان لهم حكامهم الخصوصيون . ومن هذا الطراز مثلا قرطاجنة وثوبوربو الكبرى ، ويحتمل أن تكون منها هادروميتوم وهيپودياريتوس [٥٩] . (٢) هيئات مختلطة كان بها سكان أصليون لهم حكومتهم (civitas) الخاصة ، ومستعمرون رومانيون لهم

منطقتهم ونظام قريتهم (pagus) الخاص . ومن هذا الصنف أخى (Uchi) الكبرى وثيباريس ، حيث التقى المستعمرون الذين استقروا فى عصر أغسطس ويوليوس قيصر بالمستعمرين الأوائل الذين وفـدوا فى أيام ماريوس . ومن هذا النوع أيضا ثوجا ونملوليس وحكومة اڤينسيس وماسكولولا وسوا وثيجنيكاوتيپاسا وسوتونركا وميديلى وغـيرها . وفى مكان واحد على الأقل نعرف أن القـرية (pagus) لم تقتصر على المحاربين القدامى وحدهم . وقد حملت هذه القرى (pagi) فى بعض الأحيان أسمـاء لهـا مغزى واضح مثـل قرية الحظ الحسن (pagus Fortunalis) وقرية المشترى (pagus Mercurialis) : جالت بخـاطر المستعمرين طبعا إلـهة الحظ التى تمنح السلامة فى العودة (Fortuna Redux) والرب الرحيـم المشـترى الذى هبط من السـماء فى صـورة أغسطس . (٣) وأخيرا مستعمرات كبيرة مثل سيكا أو « كرتا الجديدة » التى منحت منطقة شاسعة تزينها قرى وقلاع (castella) تبارى ما أعطى لقرطاجنة وكرتا القديمة [٦٠] . وليس بغريب ألا نجد فى بعض الأماكن أى أثر يدل على وجود الرومان : فهناك عاشت مدن بونية قديمة على نهجها الخاص وازدهرت الحياة فيها على نسق بونى قديم وكان حكامها لا زالوا يحملون ألقابا بونية عتيقة . كانت أمثال هذه المدن كثيرة . وليس هناك من فائدة فى ذكر أسمائها جميعا : وأحسن مثل لها هى مدينة جاليس فى الولاية القنصلية (مجموعة النقوش اللاتينية ، ٢٣٨٣٣ — ٢٣٨٣٤) .

ويظهر أن التهافت على الأراضى كان عظيما فى عصرى أغسـطس وتيبريوس . ولاجابة هذه الرغبات احتمل الامبراطوران المتاعب فى دفع حدود الحكم الرومانى الى الجنوب . وقد دعا ذلك الى حرب طويلة مع القبائل الأصلية ومع زعيمهم تاكفاريناس . وفى أعقاب الجنود جاء مساحو الأراضى (agrimensores) ليقسموا المناطق (التى ضمت

حديثا) الى قطع (كنتورياى centuriae) رومانية . ولا يمكن تفسير الجهود التى بذلها أغسطس وتيبريوس الا بافتراض أنهما دفعا الى ذلك دفعا ، رغبة منهما فى اسكان كثيرين من الذين اشتركوا فى « الهجرة الزراعية الكبرى » من ايطاليا (٦١) .

وفضلا عن المستعمرين الايطاليين الذين أقطعوا أرضا كمنحة من أغسطس أو اشتروا أو استأجروا قطعا صغيرة من الدولة ، كان هناك دون ريب عدد ضخم من كبار الرأسماليين الذين تاقوا الى استثمار أموالهم فى أرض أفريقية ذات الخصوبة العذرية . وكانت الدولة تواقة الى اجابة رغباتهم لأن استثمار الأموال فى أراضى أفريقية يعنى كثرة الانتاج الذى من شأنه أن يدفع بثمن الحبوب الى الانخفاض ، ويضمن كميات وافرة من الغلال لايطاليا ، ويزيد فى دخل الدولة . وعلى هذا النحو أضيف الى ضياع النبلاء من بين الجمهوريين التى تركها أغسطس دون مصادرة ضياع شاسعة (latifundia) جديدة يملكها أفراد من أثرياء الرومان . فتريمالخيو فى كتاب پترونيوس يعتبر أنموذجا لطبقته عندما كان يمنى نفسه بأن يضيف الى ممتلكاته فى ايطاليا وصقلية مساحات مترامية الأطراف من الأراضى الأفريقية .

وهذه الاعتبارات تعيننا على فهم السر فى ضم نوميديا ثم موريتانيا. وقد تطلب ضمهما جهودا حربية عظيمة لم تدع اليها قط ضرورة من وجهتى النظر السياسية والحربية . كان لابد من فتح الأراضى الأفريقية للاستعمار الرومانى . وكان أول واجب على الحكومة أن تشيع الطمأنينة فيها لجعلها صالحة لهذا الغرض . وقد درج الاستعمار على نفس النهج فى عهد خلفاء أغسطس . ويظهر أن الرأسماليين حازوا قصب السبق فى هذا المضمار فأنشئت ضياع كبيرة فى طول البلاد وعرضها . ويرى پلينى أن الضياع الواسعة (latifundia) كانت المظهر الواضح فى حياة

أفريقية الزراعية . ومن الطبيعى أن قوله ان ستة أفراد يملكون نصف مساحتها تعميم هدفه تبسيط الحقائق ولكن من المحتمل أنه تعميم أصاب كبد الحقيقة (٦٢) .

ويمكن فهم تقدم الاستعمار والنهج الذى سلكه فى أفريقية فهما جيدا اذا تتبعنا سبل تطوره فى زمن تراجان وهادريان ولا سيما فى نوميديا وفى الأجزاء المتاخمة لها من الولاية القنصلية . كانت المشكلة الرئيسية التى واجهت تراجان هى كيف يعامل القبائل المغلوبة على أمرها. فلم تكن كلها ترزح فى همجية تامة ، بل كان بعضها قد اعتاد العمل فى الزراعة ، والاقامة فى مدن محصنة . ونكتفى هنا بنماذج ثلاثة لشرح الطريقة التى اتبعها . ولنأخذ أولا تلك القبيلة الكبيرة القوية ، قبيلة الموسولاميين (Musulamii) وهى واحدة من مجموعة قبائل قال عنها پلينى : « ان أكثرها يمكن أن يسمى أمما لا حكومات (civitates) »(*) وقبل خضوع الموسولاميين خضوعا تاما كان يحكمهم ، كما كان يحكم غيرهم من القبائل ، ضباط حربيون يسمون رؤساء العشائر (praefecti gentium) . ويرجع تنظيم هذه القبيلة الى زمن تراجان ، اذ أنشئت مستعمرتان حربيتان فى منطقتها هما أمايدارا ومادورس ومنحتا أرضا واسعة ، وأخذ الامبراطور لنفسه مساحات شاسعة من منطقتها ، ودخلت أجزاء من أرضها فى حوزة أفراد من الملاك ، وترك الباقى لأعضاء القبيلة ليكون منطقتها الخاصة بها . وقد مسحت الأراضى وأقيمت أحجار الحدود . ومن المحتمل أن قسما من تلك القبيلة نقل فى الوقت عينه الى منطقة بيزاكينا (Byzacena) ، وانه أمد ضياعا كبيرة وكثيرة بالأيدى العاملة (٦٣) .

وبالقرب من مستعمرتى مادورس وأمايدارا كانت تقيم قبيلة أخرى كبيرة هى قبيلة النوميديين (Numidae) التى نجدها أيضا فى ثلاثة

(*) التاريخ الطبيعى ، ٥ — ٣٠ .

أماكن مختلفة تفصل بينها مسافات كبيرة فى كيلاى (عين زوارين) وفى ماسكولولا (بالقرب من كيف) وفى موريتانيا القيصرية . وفى الولاية الأخيرة نرى الامبراطور هادريان يمنح النوميديين اقليما خاصا . ومن الواضح البين أن لدينا هنا مثلا لقبيلة كبيرة قوية جزئت الى عدة فرق. نقل بعض النوميديين الى أماكن مست الحاجة فيها الى أناس يفلحون الأرض ، وبقى البعض فى وطنهم القديم . وقد أصبحت قصبة القبيلة ، أعنى ثوبورسيكو النوميديين ، وهى بلدة قديمة من البلاد الأصلية ، أول الأمر حكومة (civitas) ثم رفعت الى مصاف البلديات ، وكونت الأراضى التى خصصت للقبيلة منطقة المدينة الجديدة ، ولكن ممثلى القبيلة ، أى شيوخ القبيلة ، الذين دعوا بالرؤساء (principes) اشتركوا مع حكام المدينة الجديدة فى ادارة دفة الحكومة المحلية (٦٤) .

أما مثالنا الثالث فهو قبيلة النيبجينيين (Nybgenii) التى تقطن فى الأجزاء الجنوبية من ولاية أفريقية . وقد منح تراجان جزءا من منطقة هذه القبيلة الى حكومتين(civitates)رومانيتين بونيتين : كاپسا وتاكاپى اللتين أصبحتا فيما بعد بلديتين ، ثم صارتا أخيرا مستعمرتين(coloniae) ؛ أما بقية الأراضى فقد تركت للقبيلة . وبعد مدة رفعت البلدة التى كانت قصبة القبيلة الى مصاف البلديات . ومن الممكن أن يكون الجزء الذى اقتطع من هذه القبيلة والحق بكاپسا احتفظ برؤسائه (principes) كما حدث مع النوميديين من أهل ثوبورسيكو . ويمكن أن تتتبع عين هذا التطور فى حالة كثير من القبائل الأخرى فى الولاية القنصلية وفى نوميديا وموريتانيا ، مثـال ذلك الموسونى ريجيانى (بين كيلليوم وثيليپتى) والسوبوربوريون (بالقـرب من كرتا) ، والنتابوتيون والنيكيڤيبيون (نجاووس فى العصر الحديث) ، والزيميزيون فى موريتانيا (بين تشوللو وايجيلجيلى) . وقد كانت بعض القبائل ملحقة بالمدن الكبيرة ، وبقيت

كذلك ، فكان السابويديون ملحقين بكورتا والتشينيثيون تابعين لجيجثيس (٦٥) .

وليس هناك من ريب فى أن تاريخ أمثال تلك المستعمرات التى أنشأها المحاربون القدامى فى ثموجادى (تيمجاد) وتلك المدن التى نمت حول المعسكرات المختلفة للفرقة الأفريقية (ثيفستى ولامبايسيس) كان فى أوائله وثيق الصلة بما أصاب القبائل التى فقدت أرضها بسبب المستعمرين الجدد ، واضطرت الى أن تعمل لهم كأجراء أو مستأجرين. ولو أن لدينا أدلة كافية عن تاريخ عشرات من المدن الأفريقية الأخرى التى نمت وازدهرت كهيئات رومانية فى القرن الثانى بعد الميلاد لاستطعنا حقا أن نجد صلات مماثلة بينها وبين القبائل الأصلية . فلقد كان النهج فى كل مكان واحدا . لم يقض الرومان على القبائل ، بل لم يطردوها من ديارها ، ولكنها — ومثلها فى ذلك مثل العرب فى سوريا وبلاد العرب نفسها — استقرت أولا فى أوطانها الأصلية أو نقلت الى أماكن أخرى . لقد منحت القبيلة قدرا من الأرض ، أما الباقى فأعطى اما الى مدينة يقطن بها المهاجرون الرومانيون (قدماء المحاربين والمدنيون) وتقيم فيها الطبقات العليا من السكان الأصليين أو صار ضياعا بيعت الى أثرياء الطبقة الأرستقراطية فى الامبراطورية أو احتفظ بها (تحت اسم حمى : definitio أو defensio) للامبراطور ولأعضاء الأسرة المالكة . ولما كان القدر المخصص للقبائل لا يكفى لسد أود أفرادها الذين كان عددهم فى ازدياد مستمر ، لذلك اضطر عدد من رجال القبائل الى أن يستأجروا أرضا من الملاك الأجانب أو من أهل البلاد أو يعملوا على ضياعهم كأجراء (٦٦) .

وقد تمت عملية مماثلة من انشاء المدن والتخصيص فى المناطق الواسعة فى المستعمرات الثلاث الكبرى التى أنشأها أغسطس ، وأعنى

بها قرطاجنة وكرتا وسيكا . وفى كثير من الحالات تمكننا الوثائق التى بين أيدينا من تتبع تطور قلاع صغيرة (castella) الى مدن حقيقيـــة . ويكفى أن نشـــير الى ثيبليس (انونا) وكويكول (جميـــلا) التى أجريت فيها حفريات منذ وقت قريب . كانت ثيبليس قرية زراعية صغيرة مزدهرة تابعة لمنطقة كرتا ، وقد بقيت تبعيتها لكرتا حتى بعد أن أصبحت ثيبليس مدينة كبيرة رائجة [٦٧] . وكان كويكول أيضا تابعة لكرتا ، وقد حولها الامبراطور نرفا الى مستعمرة لقدماء المحاربين ومع ذلك فقد احتفظت بعلاقاتها الوثيقة مع عاصمتها القديمة [٦٨] . ولم يختلف كثيرا حال المستعمرات الثلاث الأصلية الملحقة بكرتا — وهى روسيكاوى وتشوللو وميليو . وقد فصلت هذه المســتعمرات الملحقة الثـــلاث (coloniae contributae) عن أمها وأصـــبحت مدنا مستقلة بعد زمن اسكندر سيفيروس [٦٩] . وقد وجدت أحوال مشابهة فى منطقة سيكا وقلاعها الصغيرة المختلفة ، وكان أكثر سكانها من الرومان . ولقد برز اختلاف كبير فى المظهر العام لمستعمرات أغسطس المترامية الأطراف . فكان هناك المدينة الحاكمة التى يسكنها كبار الملاك والتجار وموظفو الحكومة على اختلاف درجاتهم ، وكذا الصناع والعمال وغيرهم . وكانت هناك مدن ملحقة كثر عددها وازدهرت الحياة فيها وعاشت على نهجها الخاص ، وكان لها مناطقها الخاصة . وكانت هناك أيضا قلاع صغيرة (castella) لها مناطقها الخاصة . وسكانها من الملاك ، وكان من بينهم مواطنون رومانيون . وأخيرا كانت هناك قبائل انتشرت فى أرجاء منطقة المدينة . وكان لبعض تلك القبائل مناطق خاصة ونظم قبلية مخصوصة .

وهناك نوع آخر من المدن أنشىء تدريجا فى بعض المناطق الريفية . وهو يتمثل فى تطور الضياع الكبيرة سواء أكانت للامبراطور أم للأفراد.

لقد أقام أولئك الذين يقطنون هذه الضياع من صغار المستأجرين وكبارهم فى قرى (vici) وكونوا لهم ، بمعونة الملاك ، هيئات مستقلة استقلالا جزئيا . وهذه الهيئات تشبه الى حد ما الجمعيات الدينية ، وكان لها رؤساء منتخبون (magistri) . وكانت تقوم فى القرى أعياد أو مواسم (nundinae) يقيمها الملاك باذن من السلطات المحلية ، وفى بعض الأحيان بعد استئذان مجلس الشيوخ فى رومة . ثم زادت أهمية القرى وأصبح بعض المستأجرين ملاكا ، وأخذت القرية (vicus) مظهر المدينة ، ونالت فى بعض الأحيان دستور المدينة . وقد تمتع كثير من تلك القرى (vici) ، حتى قبل أن تصبح مدنا ، بالحقوق القانونية التى تجعل منها شخصية معنوية . فكان لها حق قبول الهبات والوصايا وما أشبه . ومما هو جدير بالذكر أن كثيرين من سكان القرى (vici) كانوا مواطنين رومان ، ومن أمثلة ذلك القرويون (vicani) فى قرية أنايوس (vicus Annaeus) ، بالقرب من سيمتا . وكانت هذه القرية تقوم وسط ضيعة لأحد الأفراد . وكذلك كان بعض سكان قرية هاتيريانوس (vicus Haterianus) فى منطقة بيزاكينا علىمقربة منمدينة القيروان الحديثة ، وكذا سكان قرية (vicus) بالقرب من لامبريدى ، وسكان قرية ڤيريكوندينسيس فى منطقة لامبايسيس . وقد كان فى هذه القرى ، كما كان فى المدن ، نوعان من السكان : القرويون (vicani) العاديون والمهاجرون (incolae) [٧٠] .

ولقد زاد نمو الحياة الحضرية وانتشرت المدنية الرومانية فى أفريقية انتشارا يثير الدهشة بعد عصر أغسطس . فحظيت بالتشجيع من جميع الأباطرة — كلوديوس والفلاڤيين فى القرن الأول ، وتراجان وهادريان على الخصوص فى القرن الثانى . وفى أكثر الأحايين أعطى الأباطرة المتأخرون صبغة قانونية لأمر كان قد تم . فمنحوا مدنا قائمة ومزدهرة

حقوق البلدية (municipia) وحقوق المستعمرات (coloniae) . وقد كان تطور المدن يرجع الى حد كبير الى عوامل طبعية ، بدأت بالهجرة الواسعة من ايطاليا أثناء الحروب الأهلية وفى عصر الأباطرة الأول . وكان من الطبعى أن يحاول الايطاليون أن ينظموا حياتهم على طراز ايطالى . ثم جاءت الطبقة المتزايدة العدد من أثرياء البورجوازيين فجهدت ما وسعها الجهد لتحسين حال معيشتها ولخلق جميع أنواع الترف السائد فى المدن . وقد نالت هذه الحركة عطف الأباطرة ووضعوها تحت رعايتهم ، فقد كان يهمهم أن يروا مراكز جديدة للحياة المتحضرة وأن تنمو هناك جماعات من السكان الذين تأثروا بالمدنية الرومانية . ولما عجزت ايطاليا عن مدهم بالجنود والقواد لجيوشهم ، أصبحت الامبراطورية فى حاجة ماسة الى هيئات تأثرت بالثقافة الرومانية لتمدهم بمدد لا ينقطع من الجنود والضباط الذين كان عليهم أن يدربوا جموع السكان الأصليين لينخرطوا فى سلك الكتائب والفرق المساعدة . وفى أفريقية تقابل الظاهرة عينها التى رأيناها فى كل ولايات الامبراطورية ، أعنى تشجيع انشاء المدن ، لا سيما فى الفترة التى احتاجت فيها رومة كل يوم الى مدد جديد من المجندين لحروبها الخارجية . ومما هو جدير بالذكر أننا نجد هنا ما وجدنا على ضفاف الدانوب والرين ؛ ان أغراض الأباطرة بدت واضحة مؤكدة فى تنظيم الشبان فى المدن المتأثرة بالحضارة الرومانية فى جمعيات يرأسها حكام مخصوصون لقبوا برؤساء الشباب (praefecti iuventutis) . وفى كثير من المدن بنى تنظيم الشباب على التقسيم العام للمواطنين الى كورياى (curiae) فكانت فرق الشبان (curiae iuniorum) مهدا لجنود المستقبل فى الجيش الامبراطورى (٧١) .

وعلى كل وبالرغم من انتشار الحياة الحضرية انتشارا واسعا فى

أفريقية ، فان المدن لم تكن الا طبقة علوية أساسها حياة ريفية زراعية قد تطورت ونمت . وكان سكان المدن قلة ، اذا قورنوا بالعدد الجم ممن يكدحون فعلا فى زراعة الأرض من الفلاحين الذين كان أكثرهم من السكان الأصليين ، وندر فيهم من كان من سلالة المهاجرين . ويستند هذا الرأى على الاعتبارات الآتية : فانا نجد فى أفريقية فى القرن الثانى خمسة أنواع من نظم الملكية : (١) كانت هناك أرض يملكها الأباطرة ، ولم تتبع منطقة مدينة ما وهى المراعى (saltus) الملكية التى تمثل الضياع التى كانت لأفراد من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ فى عصر الجمهورية وبعض أراضى القبائل التى اختص بها الأباطرة أنفسهم ؛ (٢) وأرض تملكها أسر من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ ولم تلحق بأى منطقة من مناطق المدن (وهى المراعى الخاصة (saltus privati)) — وقد صادر الأباطرة فى زمن نيرون والفلافيين مساحات شاسعة من هذه الأراضى . ولكن كثيرا منها بقى ولم يصادر . وقد تكونت ضياع جديدة فيما بعد ؛ (٣) أرض كونت منطقة مدينة ما ، سواء كانت مستعمرة (colonia) أم بلدية (municipium) أو حكومة (civitas) تتمتع بحقوق تشبه الحقوق الممنوحة للبلديات ؛ (٤) أرض تألفت منها منطقة عشيرة (gens) ، وهذه الأراضى منها ما قامت الحكومة الامبراطورية بمسحه وتنظيمه ، ومنها ما لم يمسح ، بل استعمل فى أكثر الأحيان كمراعى لماشية السكان الأصليين الذين أشبهوا البدو الرحل (ولا سيما فى موريتانيا) ؛ (٥) بعض مناطق التعدين والغابات ، وكان الأباطرة يملكون بعضها ، أما البعض الآخر فيؤجر الى شركات يؤلفها رجال الأعمال ، كالاخوان التاليين (socii Talenses) أو شركة تالا ، وتالا هذه منطقة هامة للتعدين والغابات على مقربة من لامبايسيس [٧٢] .

ولدينا مصادر جيدة تنبئنا عن طريقة استغلال بعض تلك الأراضى ،

أعنى تلك الضياع الواسعة المملوكة للامبراطور أو الأفراد . وليس هناك فى المصادر التى بين أيدينا والتى ترجع الى القرن الثانى ما يشير الى أن تلك الضياع كان يقوم على زرعها العبيد . ولكن يمكننا أن نفترض أن سبل الاستغلال هذه كانت متبعة فى زمن الجمهورية وأوائل عهد الامبراطورية . ولكن فى القرن الثانى غلبت طريقة تأجير الأرض الى مستأجرين (coloni) كانوا يؤدون الى المالك نصيبا من محصول الأرض وكان عليهم أيضا أن يعملوا له أياما معدودات وأن يعيروه مواشيهم مدة معلومة . وكان بعض هؤلاء المستأجرين مواطنين رومانيين ، ولكن أكثرهم كان من بين سكان القطر الأصليين وكانوا يعيشون فى قرى تقوم داخل حدود الضيعة على مقربة من المزرعة المركزية الكبرى ، أو فى جوار الضيعة ولكن فى خارج حدودها . وكانت أجرة الأرض تدفع الى ملتزمى الضيعة (conductores) وكان هؤلاء الملتزمون يستأجرون فى الوقت نفسه من الملاك تلك القطع التى لم تؤجر الى المستأجرين (coloni) . ويحتمل أن الملتزمين استخدموا الرقيق فى فلاحة تلك الأراضى . ومن المؤكد أنهم استعانوا بالأجراء وبما يؤديه مستأجرو الضيعة من عمل قسرى (operae) . وكان الملتزمون (conductores) يعتبرون من علية القوم ، فقد ألفوا طبقة ذات نفوذ بين سكان المدن التى تقع على مقربة من ضياع الأباطرة الشاسعة . ومن المحتمل أنهم كانوا فى الوقت عينه يملكون أرضا فى منطقة مدينتهم ، وفى مناطق مدن أخرى . وقد كونوا — سعيا وراء تنمية مصالحهم المشتركة — جمعيات من عين الطراز الذى أنشأه التجار وأصحاب السفن ، رغم أن جمعياتهم هذه لم تقرها الدولة ، على مايظهر [٧٤] . وفوق الملتزمين قامت الادارة الامبراطورية بما فيها من موظفين كثيرين ، صغارا وكبارا يعملون فى الخاصة الملكية من فرسان وعتقاء وعبيد [٧٥] .

وفى مناطق المدن كانت الأرض فى أكثر الأحيان ملكا لأثرياء المواطنين الذين انحدروا من سلالة المستعمرين (coloni) الأول ممن بعث بهم الأباطرة أو من الرومان الأول الذين استقروا فى المدن أو من تلك الجماعة التى عظم نفوذها بين الطبقة الأرستقراطية فى الهيئات البربرية البونية . ولقد جرت العادة أن يمنح المستعمرون الحربيون والمدنيون فى الأزمنة الأولى اقطاعيات أكبر مما يستطيع مستعمر واحد وعائلته أن يزرعوه ، وأما المهاجرون من الايطاليين سواء فى الأزمنة القديمة أو العصور المتأخرة الذين تألفت منهم الطبقة الحاكمة فى مدن أفريقية فلم يكونوا طبعا فلاحين (فقد عاش الفلاحون الفقراء فى الريف كمستأجرين للضياع الكبيرة) ولكنهم كانوا ملاكا ، اختلفت ضياعهم فى السعة والضيق . والسكان الأصليون أيضا الذين سكنوا المدن لم يكونوا حقا من تلك الطبقة التى تعيش فى الأكواخ (mapalia) ، ولكنهم كانوا من طبقة الأرستقراطيين الأثرياء من بين البربر والبونيين . وعلى ذلك كان أولئك الذين يملكون الضياع فى مناطق البلديات أعضاء فى طبقة البورجوازى فى تلك البلديات وكانوا يسكنون المدن . وهم قد دبروا شئون ضياعهم اما بأنفسهم واما بوكلاء مخصوصين ينوبون عنهم ، ولكنهم لم يفلحوا الأرض قط بأيديهم . اذ كان العمال يأتون من بين السكان الأصليين ، اما كأجراء أو كمستأجرين . وربما كان هناك بعض صغار الملاك من طبقة الفلاحين فى مناطق البلديات وفى الحكومات الوطنية (civitates) وفى المناطق المخصصة للقبائل ، ولكن الميل العام اتجه نحو حصر ملكية الأراضى فى أيدى عدد قليل من أثرياء الملاك .

وفى كثير من الحالات يمكننا أن نتتبع نمو الأسر فى البلديات وهى تبدأ من أصل متواضع جدا ثم ترتقى الى أن تبلغ الذروة القصوى وتسيطر على المدينة . وقد اندمج كثيرون من أعضاء هذه الأسر فى سلك

موظفى الدولة ووصلوا الى مرتبة الفرسان أو الى أرائك مجلس الشيوخ فى رومة . ونحن نقابل أمثال هذه الأسر فى كل مدينة تقريبا من المدن التى استكشفت جيدا فى ولايات أفريقية . ويمكننا أن نذكر أمثلة قليلة . ارتبط آل اتنيستيوس (Antistii)، وهم من بلدة ثيبليس ، آخر المطاف بالأسرة المالكة ، وكان من آل اتيوس (Attii) الذين يسكنون بلدة ثوبوربو الكبرى واوخى الكبرى اثنان من رؤساء الحرس البريتورى الامبراطورى (praefecti praeterio) [٧٧] . أما بلدة جيجثيس فقد كان من بين مواطنيها خمس عائلات سناتورية على الأقل [٧٨] . ومن الأمثلة البارزة لوكيوس مميوس (بن لوكيوس) كورينوس پاكاتوس . فليس هناك على الراجح من يرتاب فى أن هذا الرجل الثرى الذى رفعه الامبراطور هادريان الى مصاف الفرسان مواطن رومانى من أصل ايطالى ، ومع ذلك فان قبيلة التشينيثيين (Chinithio) تفاخر به قائلة : « للوكيوس (بن لوكيوس) كورينوس پاكاتوس الكاهن الدائم للمغفور له الامبراطور تراجان ، الرجل التشينيثى الذى اختاره المغفور له الامبراطور هادريان فى خمس جمعيات ، أقام التشينيثيون من مالهم الخاص (هذا التمثال) لما قام به من جلائل الأعمال ولبره الفريد بقبيلته » [٧٩] . وهنالك أمثلة أخرى يمكن اقتطافها .

وانها لحقيقة تدعو الى العجب . ففى كل حالة نستطيع فيها استقصاء منبع الثروة الطائلة التى جمعها النبلاء فى المدن التى منحت حقوق البلديات نجد أن تملك الأراضى هو مصدر ثرواتهم ، وكثيرون منهم يفخرون فى النقوش التى وضعت على قبورهم بأنهم اقتنوا ثرواتهم بحسن عنايتهم وتدبيرهم لضياعهم . لقد أشرنا فيما سبق الى لوكيوس ايليوس تيمينينوس وهو من بلدة مادورس [٨٠] . وهناك مثل شهير آخر هو كونتوس ڤينديوس جوڤيناليس من بلدة ثوربورسيكو النوميديين ،

وهو يقول عن نفسه فى النقش الذى أقيم على قبره : « لقد ملأت جميع المناصب ، ولى ثلاثة أبناء من بين فرسان رومة ، وكانت لى معرفة بالقانون فى ساحة القضاء ، وكنت مزارعا نشيطا » (٨١) . وهناك مثل آخر لمزارع نشيط (agricola bonus) هو أحد كبار الملاك الذين ذاع صيتهم فى بلدة ماكتار . ولد فى بيت فقير من أبوين وضيعين وعاش منذ طفولته على الأرض ومن أجلها ولم يمنح الأرض أو نفسه راحة قط . وفى زمن الحصاد كان يعمل رئيسا لعصائب من الحصادين (turmae messorum) ، فاقتنى على هذا النحو ثروة طائلة ونال شرف الجلوس فى مجلس الشيوخ المحلى وهو يقول مفاخرا : « لقد انتخبنى الشيوخ وجلست فى حرم مجلس الشيوخ ، ومن فلاح أصبحت قاضيا للاحصاء » (٨٢) . ويمكننا أن نصل الى عين النتائج ان فحصنا صور الفسيفساء العديدة التى تزين دور الطبقة العليا فى افريقية ، سواء فى المدن أو فى القرى . ففى القرن الأول والقرون التالية تاق أصحاب هذه المنازل أن يصوروا دقائق حياتهم على أرض غرف الطعام وحجر الاستقبال . وهذه الصور تختلف عن تلك التى نجدها على قبور نهر الرين . فليس فى افريقية صور من الفسيفساء رسمت على أرض الحجرات تمثل صاحب الدار كتاجر أو صاحب مصنع ، بل كلها ترينا مناظر من حياة الريف : درس الغلال فى أويا ، وجمع الزيتون وحرث الأرض وما أشبه فى أوثينا ، وتربية الأغنام والدواجن وزرع الكروم وما أشبه فى ثابراكا ، وتربية الخيول بالقرب من هادروميتوم ، وحقول الغلال والدجاج والغنم والكروم والزيتون فى قرطاجنة . ونحن لا نرى المالك فى كل البقاع منهمكا فى ادارة ضيعته انهماكا تاما ، وانما نراه فى أكثر الأحيان يصيد الأرانب والغزلان والكراكى فى آجامه ومراعيه . أما الأرض فيفلحها اما المستأجرون الذين يقيمون فى بيوت كالتى صورت على تابوت وجد فى آفريقية ، وكان بعضهم بكل تأكيد من السكان الأصليين (كالدراسة فى

صورة من الفسيفساء عثر عليها فى أويا) ، واما عبيد من الزنوج (كأولئك الذين نراهم فى صورة من الفسيفساء وجدت فى أوثينا) . وقد ظهر كذلك الفلاحــون من رقيقى الحــال فى صــورة من الفسيفساء وجــدت فى قرطاجنة (٨٣) .

ولهذا فلا مجال للريب فى أن نوع الزراعة الذى ساد فى أفريقيــة هو زرع الأرض بأيدى الفلاحين الذين كانوا اما ملاكا لقطع صــغيرة أو مستأجرين وأجراء فى الضياع الكبيرة التى يملكها الأباطرة والطبقة الأرستقراطية فى الامبراطورية والبلديات . وكان الفلاحون — وجلهم من السكان الأصليين — يكوّنون أكثر السكان ، وكانوا هم العمود الفقرى للبلاد فى الناحية الاقتصادية . أما المدن فقد كان يســكنها الملاك الذين يكوّنون الطبقة الأرستقراطية الحاكمة . وكان الملاك ســواء من قدماء المحاربين أو المهاجرين الآخرين أو السكان الأصليين هم وحدهم الذين يتمتعون فى مدنهم بحق الرعوية القانونية . أما البقية — صغار التجار والصناع والعمال — فقد اعتبروا « سكانا » (incolae) لا مواطنين . ومن هذا النوع نفسه الفلاحون فى مناطق المدن ، وجــدير بالذكر أنهم كانوا سكانا (incolae) من طبقة أحط ، حتى ان قارناهم الى من يسكنون فى داخل المدن (incolae intramurani) . ومما لا يتطرق اليه شك أن تلك الجموع الزاخرة من الفلاحين لم تحظ من الثقافة الرومانية الا بقدر ضئيل جدا ، ولم تتطور حياتها وأحوال معيشتها تطورا كبيرا . فلم ينلها رقى المدن وتقدمها : بل استمرت تعبد آلهتها الوطنية وتعيش فى أكواخها (mapalia) وتتكلم لهجاتها الأصلية (٨٤) .

ولا تكمل النظرة التى ألقيناها على الولايات فى الصفحات السابقة الا اذا استعرضنا الأحوال السائدة فى المناطق الشاسعة ، مناطق المناجم والمحاجر والغابات ومصائد الأسماك التى جاء ذكرها عرضا فيما سلف .

ومن الواضح أن هذه المناطق كانت بالغة الأهمية للامبراطورية الرومانية ، ولم تهمل الحكومة الامبراطورية دون ريب هــذا الجانب من الاقتصاد العام . وليس من المبالغة ان قلنا ان أكثر المناجم والمحاجر ، ان لم تكن كلها التى تستغل فى أيامنا هذه فى تلك الأجزاء من أوربا وآسيا وأفريقية التى ضمت الى الامبراطورية الرومانية — ما خــلا مناجم الفحم وأعمــال التنقيب عن بعض المعادن الأخرى التى لم يعرفها العالم القديم — استغلها الرومان الذين ورثوها عن أصحابها السابقين . اننا لا ندرى كم من الموارد المعدنية الجديدة اكتشف فى عصر الأباطرة . ويظهر أن الرومان اعتمدوا فى هذه الناحية على عمل الأجيال السابقة ولم يضيفوا اليه شيئا كثيرا .

ان ما نعرف عن استغلال الموارد الطبيعية فى الامبراطورية الرومانية ، فيما عدا الزراعة ، قليل حقا ، وما نعلم عنها يتصل فى الغالب بالمناجم والمحاجر . أما تنظيم المصايد واستغلال الغابات والصناعات المرتبطة به ، وتنظيم استخراج الملح فقد كاد جهلنا بهذا الباب يكون تاما . فاشارات پلينى القليلة وبعض النقوش المبعثرة هنا وهناك لا تسمح لنا حتى بمحاولة الالمام بالمميزات العامة لذلك الجانب من الاقتصاد القومى . وفيما يخص المناجم والمحاجر ، فانا نعلم أن أكثر وجــوه استغلالها كله حدثت فى الولايات اذ كانت ايطاليا جد فقيرة فى الموارد المعدنية ، ولم تقم الحكومة بأى مجهود لاستغلال ما وجد فيها من هذه الموارد على نطاق مركز . وهناك مثل يبعث الدهش وهو قطع الرخام فى لونا ، فالمحاجر الغنية التى تنتج الرخام الأبيض الجميل فى كرارا لم تستغل قط على نطاق واسع ، بل لم يبدأ استغلالها قبل انتهاء العصر الجمهورى . وقد فضل الرومانيون أن يجلبوا أنواعا مختلفة من الرخام من بلاد قاصية كبلاد اليونان وآسيا الصغرى ومصر ونوميديا . ومن المحتمل أن الأحوال الشاذة التى تحكمت فى حياة ايطاليا الاقتصادية والاجتماعية على وجه عام تفسر هذه الظاهرة

الغربية . ففى أواخر عصر الجمهورية حاولت الحكومة الرومانية أن تحد من استغلال المعادن فى ايطاليا بانقاص عدد العمال الذين يسمح القانون باستخدامهم فى المناجم . وسبب ذلك على ما يظهر الخوف من أن يصبح تجمع عدد كبير من الأرقاء فى المناجم مصدر خطر وثورات ، بينما قد يؤدى استخدام الأيدى العاملة من الأحرار فى المناجم الى نقص فى عدد الفلاحين وعمال الزراعة الذين مست اليهم الحاجة فى ضياع الطبقة العليا والوسطى فى المدن الرومانية ، ولا سيما بعد حروب العبيد فى صقلية وايطاليا — أضف الى ذلك أنه لم تكن هناك حاجة الى استغلال المناجم والمحاجر فى ايطاليا على نهج مركز فى حين أن الحكومة كانت تملك المناجم الغنية فى أسبانيا ومقدونيا وآسيا الصغرى ، ثم أضيف اليها تدريجيا مناجم دالماتيا ونوريكوم وبلاد الغال (٨٥) . ولم تكن الدولة تحتكر المناجم فى زمن الجمهورية أو الامبراطورية . ولكنها كانت حقا أكبر مالك للمناجم ، اذ أنها ورثت أصحابها السابقين فى الممالك الهيلينستية كما فعلت فى الولايات الغربية حيث كانت المناجم ملكا للدولة . ولكن فى بلاد الغال على ما يظهر لم تضع رومة يدها على كل المناجم ولم تمانع فى كشف مناجم جديدة واستغلالها ان عثر عليها فى الضياع الشاسعة التى ملكها الأشراف فى بلاد الغال . وفى زمن الجمهورية كان أكثر المناجم المملوكة للدولة يؤجر الى أفراد من الرأسماليين الذين ألفوا جمعيات أو شركات قوية . كان هذا هو الحال على الأقل فى اسبانيا وسردينيا ، ويمكن أن نفترض أن عين النظام كان متبعا فى مناجم المشرق وآسيا الصغرى ، وكذلك فى مقدونيا . وكانت الأيدى التى استخدمتها أمثال هذه الشركات فى آسبانيا وسردينيا جلها ، ان لم يكن كلها ، من الأرقاء الذين جىء بهم زرافات ليكدحوا فى المناجم وفى المحاجر . أما فى مقدونيا فعلى العكس من ذلك كان أكثر العمال من الأحرار الذين استأجروا بئرا واحدة اما مباشرة من الدولة أو من شركات التعدين .

وعندما دخلت فى حوزة الدولة والأباطرة مناطق تعدين واسعة فى الولايات الجديدة (بلاد الغال وبريطانيا ونوريكوم ودالماتيا وپانونيا وداكيا فى الغــرب ، والولايات الأسيوية الجديدة ومصر فى الشرق) تنوعت طرق الاستغلال أكثر من ذى قبل لكى تلائم الظروف الخاصة فى كل اقليم . ولسنا نستطيع هنا أن نسهب فى هذا المبحث ، ولكن من الممكن أن نقول بوجه عــام ان أدلتنا على قلتها تشهد باستخدام كل أنواع الاســتغلال فى المناجم المختلفة فى الامبراطورية : التأجــير الى كبار الرأسماليين (فى نوريكوم ودالماتيا وبلاد الغال) ؛ وتأجير آبار منفردة الى صغار المغامرين (entrepreneurs) الذين كانوا يؤدون الأجرة الى جباة الضرائب أو موظفى الحكومة ؛ ومنح مقــاولين (redemptores) حق استغلال المحاجر واعطاؤهم أجرا يتناسب ومقدار ما يقطع من أحجار ، وكان العمل يجرى تحت اشراف ضباط مدنيين أو عسكريين ؛ واستخدام المسجونين (damnati in metallum) أو الأرقاء فى استخراج المعادن وقطع الأحجار تحت اشراف الجنود ؛ والالتجاء الى السخرة لا سيما فى مصر. وبجانب هذه الطرق المتنوعة التى استخدمت فى استغلال المناجم والمحاجر المملوكة للدولة والأباطرة ، وجدت فى جميع أنحاء الامبراطورية مناجم ومحاجر يملكها الأفراد ، وكان هؤلاء يقدمون نسبة معينة مما ينتجون الى الدولة ، ولكنا لا نستطيع أن نعين مقدارها ولا الطريقة التى اتبعت فى جبايتها .

كانت سياسة الأباطرة بوجه عام ، فيما يمس المناجم والمحاجر ، تميل الى ابعاد الرأسماليين تدريجيا وتركيز استغلالها فى أيدى موظفى الدولة . وأصبح النهج المفضل لديهم هو تأجير آبار مفردة الى صغار المقاولين ، لاسيما فى زمن الامبراطور هادريان وخلفائه من بعده . ومثل هذا النظام هو الذى اتبع فى اسبانيا مثلا فى مناجم ڤيپاسكا (Vipasca) ، يشــهد بذلك القانونان (leges censoriae و νόμοι τελωνικοί) اللذان عثر عليهما

هنالك . وقد اقتصر استخدام الوسطاء على جمع الأجـرة والضرائب الأخرى المفروضة على هؤلاء المقاولين الصغار . . وفى العصور المتأخرة استبدل هذا النظام ، على ما يظهر ، بالاستغلال المباشر للمناجم باستخدام السجناء والالتجاء الى السخرة (٨٦) .

هــذه النظرة التى ألقيناها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى ولايات الامبراطورية الرومانية ستعين القارىء على أن يفهم أهمية معالم كثيرة بارزة فى تلك الحياة . ومن أكثر هذه المعالم أهمية ووضوحا الدور الذى لعبته الزراعة . وليس من المبــالغة أن نقــول ان أكثر ولايات الامبراطورية كاد يكون أقطارا زراعية خالصة . كان فى بعضها طبعا نشاط واسع فى التعدين ، كأسبانيا وبريطانيا وبلاد الغال ودالماتيا ونوريكوم وداكيا وآسيا الصغرى . واشتهر البعض الآخر بقطع الأحجار ، خصوصا أنواع الرخام المختلفة — آسيا الصغرى ومصر وافريقية وبلاد اليونان وجزر اليونان . ولكن المناجم والمحاجر كانت جزائر ضئيلة وسط خضم من الحقول والمراعى . ومع أن الاحصائيات لا تسعفنا ، الا أننا نستطيع أن نقدر فى طمأنينة أن أكبر جزء من سكان الامبراطورية كان يشتغل بالزراعة ، اما بالكدح فى فلاحة الأرض ، أو بالعيش من دخل دائم يأتيه من أرضه .

وهناك مميز ثان هام هو امتــداد الزراعة وغرس الكروم وانشاء الحدائق الى بلاد كانت قبل ذلك تعيش على الرعى والصيد أو تتبــع طرقا بدائية فى فلاحة الأرض . وعندما أدخلت هذه البلاد الزراعة لأول مرة ، استخدمت أنواعها المتقــدمة جــدا وعلى الخصوص الزراعة فى شكلها الرأسمالى والعلمى ، قل حظها من العلم أو كثر . ومن الأمثلة الشهيرة حقول الديكوماتيس (Decumates Agri) فى جنوب ألمانيا ، وحقول بريطانيا وبلجيكا ووديان نوريكوم ودالماتيا ، وسهول الاستبس

— مع قلة مياهها — فى دبروجا . ومن الأمثلة فى الشرق بادية الشام القاحلة ، وهضبة تراخونيتيس . ولا يقل عن ذلك فى الأهمية التطور الذى حدث فى الزراعة فى أفريقية . فلقد حول العلم وطرق الرى العلمية السهول والهضاب الى حقول تزخر بالحبوب ، ثم بعد ذلك الى بساتين من الزيتون امتدت أميالا بعد أميال فى أقاليم لا يعيش فيها فى زماننا هذا الا قليل من الغنم والابل لا يكاد يجد ما يسد الرمق فى مراعى الهشيم . وقد تكلمنا آنفا عن النجاح والانتشار الذى ظفرت به زراعة الكروم والزيتون فى جميع ولايات الامبراطورية تقريبا [٨٧] .

والأمر الثالث الذى يظهر من بحثنا هو الميل الذى طغى على جميع أرجاء الامبراطورية ودعا الى تركيز ملكية الأراضى فى أيدى رجال قليلين من سكان المدن ينتمون الى أعلى طبقة فى الأرستقراطية الامبراطورية . وكان الامبراطور نفسه على رأس هؤلاء الملاك . ولقد أضحى ما كان فى الماضى من مميزات ايطاليا وبلاد اليونان فحسب شيئا عاما فى كل ولاية : تملك الأراضى رجال ليسوا أنفسهم خبراء فى الزراعة ، ولكنهم من أبناء المدن الذين نظروا الى الأراضى كنوع من الاستثمار . ومن جهة أخرى قضت الظروف بأن يزيد ما تملكه الدولة من الأراضى يوما بعد يوم وأن تسحب الأرض من التداول وأن تتركز فى أيدى الأباطرة . وقد ساعد هذا التطور الى العودة خطوة فخطوة الى صفوف الملكيات التى كانت شائعة فى بعض الممالك فى العصر الهيلينستى وفى ممالك الشرق .

وقد سار بازاء تركيز ملكية الأراضى فى الدولة وفى أيدى طبقة البورجوازى فى المدن وفى أيدى الطبقة العليا فى الامبراطورية الاختفاء تدريجيا فى جميع أنحاء الامبراطورية للمالك المستقل الصغير الذى يحيا حياة حرة فى قبيلته أو قريته أو مدينته . ففى ايطاليا وبلاد اليونان

اتضع الملاك السابقون فصاروا الى مستأجرين وكونوا طبقة أكثر ضعة من الناحية الاجتماعية والاقتصادية . كانوا فى ايطاليا يتمتعون بالرعوية الرومانية ، ولكنهم من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية نزلوا مكانا فى الدرك الأسفل . وفى بلاد الغال نظر الى تابعى الطبقة الأرستقراطية على أنهم من طبقة أحط ، وجرت معاملتهم على هذا الأساس ، فحرموا كل حق فى الاشتراك فى الحياة العامة لبلدانهم ، وقصر هذا الحق فى القرى ، كما فى المدن ، على أثرياء الملاك . وينطبق هذا الوصف عينه على بلاد الدانوب . ولو أننا نقابل هناك مجموعات عديدة من الهيئات القروية الزاهرة يحرث أفرادها أرضا يملكونها ولم يستأجروها من مالك ثرى فى المدينة . أما فى آسيا الصغرى فالكثرة العظمى ممن يكدحون فى فلاحة الأرض كانت اما مواطنين من الدرجة الثانية فى المدن اليونانية أو مستأجرين من ملاك يقطنون بالمدن ، أو مستأجرين من المدن نفسها (التى كانت لها أرض أميرية) أو كانوا من أنصاف أرقاء الأرض فى ضياع الأباطرة وأراضى المعابد . وقد كانت بعض القبائل الجبلية أحسن منهم حالا ، كما كان سكان القرى فى سوريا وفلسطين . أما فى مصر فمع أن تطورا ظاهرا حدث فى ملكية الأفراد للأراضى فان الملكية اقتصرت ، أو كادت تقتصر على الجزء اليونانى والرومانى من بين السكان ، وبقى الفلاحون المصريون كما كانوا فى عصر البطالمة يرزحون تحت ذل العبودية وضعة المستأجر . وكان الأمر الأخير هو الشائع . وختاما ، لم يقم أكثر الأهلين فى أفريقية على أرض يملكونها ، بل كدوا وتعبوا لصالح الامبراطور ولرؤساء مزارعه أو لأفراد من طبقة البورجوازى فى المدن .

ولم يساعد ، بأى حال ، تزايد عدد الملاك الذين لم يكونوا يقيمون على أرضهم ولا تحول صغار الملاك الى مستأجرين على رفع مستوى

الزراعة الفنى ، بل لم يستطع أن يحافظ على ذلك المستوى الرفيع الذى بلغته فى ضــياع الرأســماليين فى العصر الهيلينستى وأوائل العصر الرومانى ، حينما كانت الأيدى العاملة فى الزراعة من الرقيق . وسرعان ما اضمحلت الزراعة العلمية تدريجيا فى ايطاليا حالما تسربت الأرض من أيدى الطبقة البورجوازية فى المدن وضمت الى الضياع الواسعة (latifundia) التى كان يملكها أعضاء الطبقة الأرستقراطية فى الامبراطورية . أما فى الولايات — فى مصر وأفريقية وسوريا والأراضى الكلتية والتراقية الايليرية — فقد استمرت الغلبة لطبقة المزارع المقتصد ، أعنى المزارع النشيط (agricola bonus) بل لقد نشأت هذه الطبقة حيث لم يكن لها وجود من قبل ، ولا سيما على ضفاف الدانوب وفى مصر وفى أفريقية . اذ ساد هنالك مــدة من الزمن ذاك الطراز من الملاك الذى يتمثل فى أصحاب البيوت الخلوية (villae rusticae) فى پومپيى فى القرن الأول بعد الميــلاد . وقد أوردنا لهم أمثــلة عديدة . ولكن نمو الضــياع الامبراطورية وقيام طبقة وسطى من الأثرياء الذين يسكنون المدن فى جميع أنحاء الامبراطورية وظهور ملاك العقار الذين كانت لهم آمال أكبر من أن يكونوا مزارعين مجدين (agricolae boni) كل ذلك دعا الى امتداد ذلك الانحطاط الذى شاهدناه فى الزراعة العلمية الى الولايات وكان هذا الانحطاط من قبل من المميزات الخاصة بايطاليا .

وأخيرا يتضح من تلك اللمحة ما كان لسكان الريف من أهميــة عظمى للامبراطورية على وجه عــام . فالمستأجرون والزارعون كانوا عمودها الفقرى . واذا أضفنا اليهم الأرقاء والصناع الذين يعيشون فى المدن تكونت تلك الطبقة العاملة فى الامبراطورية الرومانية التى أنتجت تحت اشراف الطبقة الوسطى فى المدن السلع التى مست حاجة

المدن والجيش الامبراطورى اليها ، وكانا على رأس مستهلكيها . ومن ناحية الكثرة العددية زادوا حقا عن سكان المدن بما فيها من بورجوازى وعمال . ليست لدينا احصاءات ، ولكن ان نظرت الى خريطة الامبراطورية الرومانية وحسبت ، وليس ذلك بعسير ، عدد الأيدى اللازمة لاطعام أهل الريف والمدن ، بل ولتصدير بعض المواد الغذائية الى البلاد الأجنبية ، فسيكون فى هذا اقناع كاف لأى انسان بأن أهل الريف الذين اشتغلوا بفلاحة الأرض كانوا كثرة ساحقة من بين سكان الامبراطورية . والحق أن المدن كثر عددها فى الامبراطورية الرومانية الى حد بالغ ، بل اذا نظرنا الى أشكال الحياة الاقتصادية فيها والقوة الشرائية لأهليها أمكننا الجزم بأن المدن قد زاد عددها عن الحاجة . ومع ذلك بقى سكان الريف ولم تبتلعهم المدن بأى حال ، بل لم تنتشر حضارة المدن بينهم ، وبقيت الحضارة قاصرة على المدن . عاش أهل الريف عيشة بدائية ، فلم تكن لهم مدارس ، أو ساحات رياضية ، أو حلبات للمصارعة ، أو دور كتب خاصة . وما وجد منها بالمدن ، كانت الشقة بينهم وبينه نائية . وكل ما كان لهم هيكل متواضع ، أو هياكل متواضعة لآلهتهم المحلية . وفى بعض الأحيان حمام أو ملعب . ومن الطبعى أنهم تعلموا كيف يتكلمون اللاتينية أو اليونانية . وربما استطاعوا أن يكتبوهما ويقرأوهما بصعوبة . ويمكننا الحكم على مبلغ تمكنهم من اللاتينية أو اليونانية بالنظر فى عدد قليل من النقوش التى عثر عليها فى الريف فى ولايات الطونة أو فى آسيا الصغرى . ولكن القرى كانت تتقدم بخطى بطيئة ثقيلة ، ولم تلق الدولة بالا الى حاجات القرى ، وشغلت المدن بما يجلب لسكانها أكبر قسط من الترف ولم يكن لها من المال ما يفيض عن حاجتها لتنفق منه على القرى . وكان القرويون أنفسهم فقراء جدا ، فلم يتمكنوا من تحسين حياتهم وأحوالهم وشاع سوء النظام فى أكثر قراهم . وهذا هو السبب فى أن الريف

بقى يتكلم اللغة الايبرية أو الكلتية أو الايليرية أو التراقية أو الفريجية أو الليدية أو السورية أو المصرية أو الفينيقية أو لهجة البربر ، بينما تكلمت المدن وكتبت باليونانية واللاتينية دون غيرهما ، أو كادت لا تعرف سواهما .

ومن وجهة النظر السياسية لم يكن سكان الريف بأى حال يوضعون على قدم المساواة مع أهل المدن ، مهما كان مركز المدن والقرى القانونى ، سواء أكانت مستعمرات رومانية أم بلديات (municipia) أم حكومات تدفع الجزية (civitates stipendiariae) . ولابد من أن نذكر أن القسم الأخير اختفى تدريجيا من الوجود . وكانت الطبقة الحاكمة على الأقل فى كل الحكومات التى تدفع الجزية (civitates stipendiariae) تتمتع بالرعوية اللاتينية أو الرومانية . أما سكان الريف فى الولايات فكانوا من الأجانب (peregrini) ، اذا صرفنا النظر عن حالات نادرة شاذة هى حالات المواطنين الذى سكنوا القرى اتفاقا وكونوا الطبقة الأرستقراطية فيها ، وكبعض ذوى الحظ التعس الذين انحطوا الى مرتبة المستأجرين . اننا لا نعرف غير القليل جدا عن المركز القانونى لهذه الطبقة . والظاهر أنها كانت تضم فئات عدة . وهذا أمر ذائع مشهور ، لاسيما فيما يخص مصر وفيها كان السكندريون يكوّنون أعلى طبقة من الأجانب (peregrini) ، على حين احتل اليونانيون الذين عاشوا فى الريف المرتبة الثانية ، أما الفلاحون المصريون من أبناء البلاد فقد انحطوا الى الدرك الأسفل . هل كان هذا التمييز خاصا بمصر ، أم هل كان قائما أيضا فى الأنحاء الأخرى من الامبراطورية الرومانية ، ولاسيما فى الشرق ؟ مهما يكن الجواب ، فالمحتمل أن سكان ريف مصر هم الذين أشير اليهم بلفظ المستسلمين (dediticii) ، والذين يحتمل أنهم حرموا فى زمن

كراكلا من منحـــة الرعوية الرومانية التى نالها الأجانب (peregrini) فى مصر . واذا كان من الواضـــح أن فى مصر قصر مركز المســـتسلمين (dediticii) على الفلاحين والعمال من أهل البلاد ، فليس هناك ما يدل على الطبقة التى أطلق اللفظ عليها فى الولايات الأخـــرى . ويستدل من وضع القبائل « الملحقة » فى ايطاليا تدريجيا عـــلى قدم المساواة مع سكان المدن ، واتباع نفس هذه السياسة فى نوريكوم مثلا على أن هذه القبائل الملحقة عوملت فى الغرب معاملة الاسكندريين واليونانيين فى مصر وربما حظوا بالرعوية الرومانية على يد كراكلا . أما فى الشرق فالمشكلة أكثر تعقيدا . ويخيل الى أن أولئك الذين كانوا يوما ما فى عداد رقيق الأرض ، والذين عاش بعضهم فى المدن وعاش البعض الآخر فى المناطق التى لا تخضع لادارة المدن وضـــعوا فى صف المستسلمين (dediticii) فى مصر ، وكونوا طبقة أحط من الأجانب (peregrini) وكان عليهم أن يحصلوا على حرية مدينتهم قبل أن يمنحوا الرعوية اللاتينية أو الرومانية . وكيفما كان الأمر ، فلا ريب أنه فى القرنين الأول والثانى زاد عدد الأجانب (peregrini) على اختلاف طبقاتهم عن عدد المواطنين من اللاتينيين والرومان زيادة كبـــيرة ، وأن أكثرهم سكنوا الريف لا المدن وكوّنوا فى الشرق على الأقل أحط طبقات الأجانب ، وأعنى بذلك المستسلمين (dediticii) [٨٨] .

والسؤال الأخير الذى يواجهنا فيما يمس أهل الريف يخص حالة القرويين المالية . ولا يمكن أن نجيب على هـــذا السؤال اجابة عامة وافية ، لأن الولاية الوحيدة التى نعثر فيها على معلومات مفصلة عن حياة الريفيين اليومية هى مصر . ويدفعنا الشعور الذى تتركه دراسة الأطلال فى بعض القرى المصرية وألوف النصوص التى كشفت هنالك الى القول بأن من الصعب أن نتحدث عن أى تقدم فى أحوال الفلاحين

الاقتصادية فى مصر أثناء السيطرة الرومانية . لقد عاد الرخاء الى مصر فترة قصيرة وازدهرت الحياة فيها فى العشرين سنة أو الثلاثين سنة الأولى من حكم الرومان . ولكن هذا الرخاء لم يدم طويلا . وان يكن قد استمر مدة أطول بين الملاك الجدد من طبقة البورجوازى فى مصر أكثر من دوامة بين الفلاحين فى ضياع التاج وبين المستأجرين من الملاك. فقد استمر حال المستأجرين فى تدهور مطرد . أما نوع الحياة التى رزح تحتها جموع السكان المصريين فكان أبعد ما يكون عن الأحوال الطبيعية . فالضرائب فادحة ، وطرق جبايتها غشومة ظالمة ، والفلاحون يئنون من ثقل السخرة ، وأمانة موظفى الدولة كانت مجرد أمل لم يتحقق الا فى القليل النادر . فلا غرو أن انتشر التذمر واضمحل رخاء البلاد . فمنذ أوائل القرن الثانى ، وحتى فى القرن الأول ، نسمع مرارا عن امتناع القرويين عن دفع الضرائب أو القيام بأعمال السخرة ، والالتجاء الى الطريقة المعتادة التى اتبعت فى مصر القديمة ، ألا وهى الاضراب ، أعنى هجر القرى والاحتماء بالمستنقعات فى الدلتا . فلا عجب أن كان هؤلاء الفارون على استعداد لرفع علم الثورة كلما سنحت فرصة ، ولا غرابة أن لقوا كثيرا من العطف من السكان الذين ما فتئوا يقيمون فى القرى . اننا لا نعرف الا القليل عن ثورة اليهود فى مصر وبرقة فى أثناء حكم تراجان . فالمصادر الأميرية تروى أن المصريين انحازوا الى جانب الحكومة فى مقاتلة الثوار ، ولكنى أميل الى الرأى القائل بأن الحكومة شد من أزرها طبقة البورجوازى ، أى اليونانيين والمصريين الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، بينما عضد اليهودَ لصوصُ المستنقعات وبعض الفلاحين . ويؤيد هذا الظن ما نعرف حقا من أنه بعد ثورة اليهود بفترة قصيرة جدا واجه هادريان ، ومن بعده أنطونينوس پيوس ، ثورة جديدة فى مصر . وفى هذه المرة لم يشعل أوراها اليهود . كانت هذه أمور تافهة بالقياس الى امبراطورية قوية . ولكنها كانت دلائل

ونماذج من شعور الفلاحين المصريين . وقد هبت ثورة أكثر خطورة ، كما هو معروف ، فى زمن ماركوس أورليوس ، قام بها رعاة البقر (βουκόλοι) ، ولم يكن من السهل اخمادها [٨٩] .

هل شذت مصر ؟ أكانت الطبقات العاملة فى المناطق الريفية الأخرى فى الامبراطورية الرومانية أحسن حالا منها فى مصر ؟ من المحال أن نرد ردا شافيا على هذا السؤال . فخطب ديو فم الذهب ، والشواهد التى اقتطفناها فيما سبق عن العداء الذى نشب بين الجيران (πάροικοι) فى الريف المصاقب لبعض مدن آسيا الصغرى وبين الملاك فى تلك المدن ، والصورة التى ترسمها الأناجيل والمصادر الأخرى المعاصرة لحياة الفلاحين فى فلسطين ، وهى صور لم تكن قط زاهية ، بل انها لتدل على انتشار الفاقة والعسف ، وثورة الفلاحين بزعامة ماريكّوس (Mariccus) فى بلاد الغال فى القرن الأول ، وثورة مماثلة للفلاحين الأصليين فى داكيا ودالماتيا أثناء حروب ماركوس أورليوس — كل هذا يدل على أنه فى البلاد التى عاش فيها الفلاحون فى شبه رق ، كما فى تلك البلاد التى كان أكثر فلاحيها أحرارا طلقاء ، لم تكن الحال فيها بأحسن منها فى مصر [٩٠] . غير أن أمثال هذه الاشارات شىء نادر . فالأثر الذى تتركه النقوش القليلة التى وجدت فى القرى يشهد بازدياد الرخاء ، أو على الأقل بخلود الفلاحين الى السكينة . وكقاعدة عامة بقيت القرى صامتة فى القرنين الأول والثانى . فان نطقت ، سبحت بمجد الامبراطورية . غير أنه يجب ألا ننسى أن أولئك الذين تكلموا كانوا هم الطبقة الأرستقراطية فى القرى ، ولم يكونوا من بين جموع الفلاحين الزاخرة .

بعد هذه النظرة التى ألقيناها على الولايات الرومانية يمكننا العودة الى السؤال الذى طال بحثه عن أسباب ضعف الصناعة الرومانية

اذا قيست الى التجارة والزراعة . لم لم تصل الصناعة فى العصر القديم الى ذروة التطور الذى بلغته فى العالم الحديث ؟ لم وقف تطور الصناعة فى العالم القديم ، ولم عجزت الامبراطورية الرومانية أن تبتدع أشكال الرأسمالية الصناعية التى تميز أيامنا هذه ؟

يجيب كبار علماء الاقتصاد المحدثين ، أمثال ك . بيشر (K. Bücher) و ج . سالڤيولى (G. Salvioli) و م . ويبر (M. Weber) [٩١] ، على هـذا السؤال بأن الصناعة لم تتطور لأن العالم القديم لم يتعد قط أشكال اقتصاديات المنزل (Oikenwirtschaft) فى أطوارها الأولى : فلم يصل مطلقا الى الأطوار العليا للتطور الاقتصادى ، ذلك التطور الذى بلغه فى الأزمنة الحديثة — أطوار اقتصاديات المدينة واقتصاديات الدولة . ولو فرضنا صحة أوجه التطور الاقتصادى التى يقول بها بيشر (أعنى اقتصاديات المنزل واقتصاديات المدينة واقتصاديات الدولة واقتصاديات العالم) — رغم ما يلح عليها من شك — فانى أرى أن تحليل علماء الاقتصاد ، كما يطبق على العالم القديم ، بعيد عن الصواب. والحق أنه تخلفت فى ذلك العالم القديم وعلى الخصوص فى الامبراطورية الرومانية بقايا من اقتصاديات المنزل أكثر مما نجد فى بعض الدول الحديثة فى القرنين التاسع عشر والعشرين فى كل من ادارة الضياع الكبيرة التى لا يقيم أصحابها فيها وفى وسائل الزراعة التى يتبعها الفلاحون ، ولكن من البين أن معالم اقتصاديات المنزل هذه لم تكن الا بقايا . فالانتاج المنزلى فى ايطاليا كما فى الولايات انحصر فى قدر محدود من الغزل والنسج . أما ما عدا ذلك ، فقد أتى به كله من السوق : فالأدوات الزراعية والمنزلية والخزف والمصابيح وأدوات الزينة والحلى والملابس وما الى ذلك لم تكن من المنتجات المنزلية حتى فى القرى . وتؤيد الحفريات التى أجريت فى مقابر الريف الفقيرة هذا الرأى تأييدا

قاطعا . وعلى ذلك فلم يكن هناك شىء يمكن أن يسمى انتشار اقتصاديات المنزل فى جميع أرجاء العالم القديم فى كل أدوار تطوره . ولم يعرف المنزل اقتصاديات لا تشوبها شائبة حتى فى الأيام الأولى للملكيات الشرقية . وبتقدم الحضارة الشرقية والمدنية الرومانية اليونانية توارت هذه الاقتصاديات بالتدريج من مناطق واسعة من أوربا وآسيا وأفريقية . أما المشكلة فهى : لم تخلفت هذه البقايا من اقتصاديات المنزل حتى بعد أن تطور الاقتصاد تطورا كبيرا فى عصر الامبراطورية الرومانية ، ولم لم تستول الصناعة الرأسمالية تماما على حقل بدأت تغزوه أولا فى الشرق ، ثم بعد ذلك فى بلاد اليونان ، وأخيرا فى الامبراطورية الرومانية سائرة فى التوسع التدريجى بنفس الخطى التى تقدمت بها الحضارة اليونانية الشرقية ؟ لم لم يكن للصناعة من القوة ما يقضى على هذه البقايا ، ولم أصبحت البقايا يوما بعد يوم المميز الاقتصادى الهام فى العالم القديم ؟ وجد بعض الباحثين المحدثين أن سبب ضعف الصناعة القديمة يرجع الى استخدام الأرقاء فى الصناعة وهم يعللون ذلك بأن رخص الأيدى العاملة من الرقيق ، وأخلاق العبيد اللينة ، ووفرة عددهم وفرة لا حد لها سمحت بزيادة عدد العمال زيادة مستمرة ، كل ذلك حال دون اختراع الآلات التى توفر الجهد وجعل من المحال انشاء المصانع . وللرد على هذه النظرية أود أن أشير الى أن الصناعة القديمة بلغت أوجها فى العصر الهيلينستى حينما كانت الصناعة تعتمد اعتمادا كليا على الأيدى العاملة من الرقيق . ولكنها بدأت فى الاضمحلال فى زمن الامبراطورية الرومانية حينما استبدل العبيد بالتدريج حتى فى مجال الصناعة بعدد مطرد الزيادة من العمال الأحرار . ومن ناحية أخرى لقد بولغ مبالغة شديدة فى الاستدلال بوفرة الأيدى العاملة وفرة غير محدودة وفى نعت هذه الأيدى العاملة بالوداعة . فعمل الرقيق ، كما هو ذائع معروف ، لم يكن قط رخيصا ، ولم يكن

العبيد على شيء من حسن الخلق (كما برهنت على ذلك ثورات الرقيق). وكانت الأثمان التى تدفع فى شرائهم غالية جدا . واذا كان امتناعهم عن العمل قليل الحدوث ، فذلك يرجع الى انحطاط مستوى الصناعة ، لا الى مزاج العمال الطيع ، ولا الى استخدام الرقيق . لِمَ يلزم اذن أن يحول استخدام الرقيق بين صاحب متجر نشيط وبين استخدام مخترعات جديدة ، وهى طريقة حسنة لجعل بضائعه أرخص وأفضل ؟ انها حقيقة تثير الدهش ، وهى أن الصناعة بدأت تنحط فى الوقت عينه الذى وقف فيه تقدم الطرق الفنية . وقد حدث ذلك فى نفس الوقت الذى وقف فيه تقدم البحث العلمى المحض ، وهذا أمر لا يمكن تعليله باستخدام الرقيق . ومن أجل ذلك يجب أن نبحث عن تفسير آخر لاضمحلال الصناعة فى الامبراطورية الرومانية .

ويلوح لى أنه يجب البحث عن تعليل فى أحوال الامبراطورية العامة من اجتماعية وسياسية ، اذ يظهر أن نقطة الضعف فى تطور الصناعة فى العصر الامبراطورى كانت انعدام المنافسة الحقة وهذا الانعدام كان نتيجة حتمية لطباع المستهلكين وعددهم وقدرتهم على الشراء . ويرجع التقدم الذى حدث فى العصور اليونانية والهيلينستية فى مجال الصناعة سواء فى طرق الانتاج العلمية ، وتقسيم العمل ، والانتاج الغزير لسوق غير محدودة ، الى اطراد الزيادة فى طلب المصنوعات . ففضلا عن حاجات المدن اليونانية نفسها أجابت المراكز القليلة للانتاج الصناعى فى اليونان فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد طلبات أسواق يونانية وغير يونانية مطردة الاتساع فى ايطاليا وبلاد الغال وأسبانيا وعلى شواطىء البحر الأسود وفى أقطار أخرى . كان المشترون ، اذا أغضينا عن المستعمرات اليونانية ، هم أنصاف البرابرة ، وعددهم يجل عن الحصر ، الذين يسكنون هذه الأقطار وقد وقعوا تدريجا تحت التأثير اليونانى

فطبع أذواقهم وعاداتهم : فقبور أهل ايطاليا وجنوب روسـيا مملوءة بمنتجات الصـناعة الاثينية والهيلينستية . وفى العصر الهيلينستى ازداد بسرعة عدد المراكز الصناعية وعدد المستهلكين . وفتح الشرق للصناعة والتجارة اليونانية ، وبوساطة قرطاجنة اتصلت المراكز الصناعية اليونانية بأفريقية وأسبانيا وبريطانيا والأقطار الشمالية على وجه العموم . وعرف الصناع اليونانيون كيف يرقبون احتياجات المستهلكين الجدد ، وكيف يجذبون المشترين . وقامت منافسة حادة بين مراكز الصناعة المختلفة . وزاد عدد المستهلكين من ذوى القوة الشرائية الكبيرة زيادة مطردة فى الوقت الذى اتصلت فيه رومة بالعالم الهيلينستى . ولم تكن أعمـال التخريب التى قام بها الرومان فى الشرق بذات أهمية ، وان هى سببت مؤقتا أضرارا بالغة ونتائج هامة ، فاطرد نقص القوة الشرائية لعـدد كبير من السكان الذين كانوا يتمتعون بالرخاء . وأهم من ذلك بكثير نجاح رومة فى خلق امبراطورية موحدة من العالم القديم بأسره ، وضمها فى دولة واحدة كلّ سـكان حوض البحر الأبيض المتوسط وكانوا يكوّنون الفئة الغنية المتحضرة ، زادت هذه الحضارة أو قلت . وبعد انقضاء فترة الغزو والحروب الأهلية ومرورها على عجل ، وهى فترة دمرت وخربت أكثر ممـا أنتجت ، أعاد النصر الذى أحرزه أغسطس السلام والحياة العادية . ثم جاءت نهضة اقتصادية فى أثر السـلام . واستيقظت المراكز الصناعية لتحظى بحياة جديدة ، وزاد عدد المستهلكين. ولكن لنا أن تتساءل : الى أى مدى والى متى استمرت هذه النهضة ؟

أصبحت سوق الصناعات اليونانية الرومانية وهى تكاد تنحصر كلية فى سكان الامبراطورية . لقد أكدنا فى الفصل الخامس أن حجم تجارة رومة الخارجية يجب ألا يقدر بأقل من حقيقته ، ولكن يجب ألا نغضى عن صفة هذه التجارة . لم يكن البرابرة وسكان أوربا الشمالية على فقرهم

يستطيعون أن يشتروا كميات هائلة من المنتجات الصناعية . وقد وصلت الأحوال السياسية الى درجة من الاضطراب لم تصبح التجارة معه قط عادية بل بقيت نوعا من المجازفة ، قل فيها الخطر أو كثر . كان الشرق الأقصى لايزال طبعا آمنا ومطمئنا ، ولكن كانت له صناعته الخاصة التى بلغت شأوا كبيرا من التقــدم ؛ واستمر طلبه للمنتجات التى تصنع فى الامبراطورية الرومانية قاصرا على سلع معينة ، ودام هذا الطلب طالما لم يتعلم صناعه كيف يقلدون صنع هذه السلع . فالمستهلكون الوحيدون الذين تبقوا هم سكان الامبراطورية . وطالما ظلت المدنية الرومانية تنتشر وتتقدم ، ازدهرت الصناعة ونمت . لقد تحدثنا عن نشر الصناعة تدريجا فى الولايات . ولكن ابتداء من عصر هادريان وقف التوسع ، فلم تضم أقطار جديدة . وفى عصر هادريان بلغ صبغ الولايات بالصبغة الرومانية مداه ، والاكثار من بناء المدن فيها على صورة جزئية ذروته . فاقتصرت سوق المصنوعات الآن على المدن والمنــاطق الريفية فى الامبراطورية ، واعتمد مستقبل الصــناعة القديمة على قوتهم الشرائية . وبينما كانت القوة الشرائية لطبقة البورجوازى فى المدن كبيرة ، كان عددهم محدودا ؛ أما الطغام فى المدن فقد زاد فقرهم على مر الأيام . ولقد رأينا أن أحوال سكان الريف المادية تقدمت بخطى ثقيلة ، أو لم تتقدم البتة ولذلك قام بناء الصناعة الرومانية على أساس واه جدا ؛ ولم يك من المستطاع قيام صناعة رأسمالية على مثل هذا الأساس .

الفصل الثامن

سياسة الفلاڤيين والانطونيين الاقتصادية والاجتماعية

بعد أن أنهى أغسطس حروبه العظيمة على نهرى الرين والدانوب ، وأتم اخضاع اسبانيا وأفريقية ، لم تقم حروب خارجية لها من الأهمية ما يثير الاضطراب فى الامبراطورية نحو قرن من الزمان . فلم يكن ضم كلوديوس لبريطانيا وموريتانيا وتراقيا ، ومشروعات نيرون ومطامعه فى الشرق ، وحرب اليهود فى زمن ڤيسپاسيان الا حروبا « استعمارية » محلية لم تؤثر فى الامبراطورية عامة . وقد بقى جيرانها ومنافسوها الذين يخشى بأسهم . وهم الألمان والسرماتيون فى الشمال والشمال الشرقى ، والبارثيون فى الجنوب الشرقى ، هادئين ، طال هذا الهدوء أم قصر . والهزة الوحيدة العنيفة تلقتها الامبراطورية من الحرب الأهلية التى نشبت فى ايطاليا فى عام ٦٩ بعد الميلاد ، ثم تلتها اضطرابات على حدود الرين . فلا عجب أن برز نسيج الامبراطورية الرومانية فى هذه الظروف متينا خالدا ، ولا غرابة أن تقدمت الحياة الاقتصادية تقدما مطردا على الرغم من اسراف بعض الأباطرة ونزقهم . ويجب ألا يغرب عن بالنا أن الحروب الاستعمارية التى مر ذكرها آنفا كان من نتائجها ضم أراض غنية نسبيا ومتحضرة بعض التحضر ، فأعانت على زيادة الرخاء فى الامبراطورية بفتح أسواق جديدة للتجارة والصناعة الرومانية ، وباضافة بقاع جديدة ممتازة ، ان نظرنا الى ناحية التجنيد .

وعلى كل ، فقد حدث أن انتاب الامبراطورية فى تلك الأثناء تغيير تدريجى . تعلم الألمان الذين عاشوا فى اتصال وثيق بالامبراطورية اتقان فنون القتـال وتحسين عدتهم الحربية ، وكشفوا أن الحدود (limes) الرومانية ليست عقبة كأداء لا يمكن تخطيها ، وأدركوا شدة حاجتهم فى تدبير شئونهم الداخلية الى نظم أفضل . أضف الى ذلك أن أولئـك الذين كانوا جيران رومة الأقربين رأوا أمام أعينهم ثروة ورخاء عم مدن الولايات ، فتاقت نفوسهم الى الاشتراك فى حياة الامبراطورية ومدنيتها . وأوجد تزايد أعداء القبائل الألمانية تزايدا مستمرا حافزا آخر يدفعهم الى التقدم والاندفاع الى الأمام ومحاولة الحصول على أرض جديدة . لقد غير الحاجز الرومانى سير بعض القبائل الألمانية فدفعها نحو الجنـوب الشرقى ، الى منطقة الدنيبر ، ولكن هذا المخرج لم يكن من السعة ، ولم يكن من الأمن بدرجة تكفى لارضائهم نظرا لقوة القبائل السرماتية التى كانت تسيطر على سهول روسيا . والقبائل السرماتية أيضا خامرها ميل شديد ورغبة ظاهرة فى الهجرة نحو الغرب . كانت أسلحتهم جيدة ونظامهم حسنا ، وكانوا يعيشون فى نزاع دائم بينهم وبين جيرانهم الذين ألحوا عليهم من ورائهم — الألمان من الشمال وقبائل سرماتية أخرى من الشرق — ولذا تاقت القبائل السرماتية فى الغـرب ، أى قبائل اليازيجيين (Jazyges) والروكسالانيين (Roxalani) الى الاستقرار على شواطىء الدانوب فى المنطقة المجاورة للحدود (limes) الرومانية . وأخـيرا ، لم يتنازل البارثيون قط عن مطالبتهم بسوريا وأرمينيا ولم تنزل بهم ضربة قاصمة تكسر شوكتهم على الدوام ، بل على العكس كانوا يعلمون علم اليقين أن كتائب رومة فى سوريا لا تستطيع أن تحول بينهم وبين محاولة أخرى لغزو الممتلكات القديمة للامبراطورية الفارسية .

ليس هنا موضع بحث السياسة الخارجية للامبراطورية الرومانية .

ويكفينا حتما أن نذكر أن فى رومة فى زمن دومتيان وتراجان شعر ذوو النظر الثاقب من ساسة وقواد ممن كانت لهم دراية بما يجرى على الحدود أنه لابد من بعث سياسة أغسطس والبدء فى شن غزو جديد مظفر على بلاد أعدائهم ان لم ترد رومة أن تجابه بعبء الدفاع عن امبراطوريتها ضد هجوم من الشمال والشرق والجنوب . أدرك دومتيان ادراكا تاما هذه الضرورة ، رغم أن غزواته لم يحالفها التوفيق الكامل ، بل أدت الى بعض نكبات فادحة . ثم جدد تراجان محاولات دومتيان بثبات أكبر ونجاح أعظم . وقام تراجان بغزوتين ، ضم بعدهما آخر دولة شبه متمدينة ، حسنة النظام من أمم الدانوب ، وكانت تقف كحائل بين الامبراطورية الرومانية وبين القبائل الألمانية والايرانية — وأعنى بها داكيا ، تلك المملكة التراقية التى كان يحكمها ديكيبالوس (Decebalus) . ومنذ تلك اللحظة أضحت الامبراطورية الرومانية تواجه موجتين من الغزاة ، موجة الألمان الآتين من الشمال ، وموجة الايرانيين القادمين من الشرق . ولا تسمح لنا معرفتنا الضئيلة بالأحوال التى سادت الدانوب الأدنى ، وعلمنا القليل بالعلاقات بين رومة وبين مملكة داكيا بالحكم ان كان لهجوم تراجان ما يسوغه من سياسة ديكيبالوس (Decebalus) وان كان حتما من الأسهل مقابلة الألمان والسرماتيين وجها لوجه . ولكن من الواضح أن ضم داكيا دعا الى احتلال أراضى الدانوب احتلالا واسعا ، وأصبحت الحدود الرومانية أقل بساطة من ذى قبل . زد على ذلك أنه كان على الامبراطورية أن تأتى بسكان جدد للأراضى التى فتحتها ليكون عملهم الخاص الاكثار من بناء المدن فى داكيا . وقد اتبع تراجان سياسة الضم هذه فى الجنوب والجنوب الشرقى : فى بارثيا ، وبلاد العرب ، وأفريقية . وقد جنت أفريقية وسوريا ربحا عظيما . وبدىء من جديد فى استغلال الأراضى الجيدة وفى انشاء المدن فى مناطق واسعة كانت قبل بلقعا . ولكن الى أى حد كان ضم ما بين النهرين ربحا حقيقيا من

وجهتى النظر الحربية والسياسية ، ذلك الضم الذى ألهب الشعور الوطنى بين الأهلين فى الشرق وأحدث انفجارا قويا وخطرا ، فهو سؤال لا يزال ميدانا للتساجل [١] .

لقد دفعت الامبراطورية كلها ثمن انتصارات تراجان بما تحملت من جهد وما قاست من شدائد . فقد تطلبت العمليات الحربية جنودا اثر جنود ، ووقع عبء ذلك كله تقريبا على المناطق الرومانية أو التى تأثرت بالمدنية الرومانية ، بما ذلك مدن ايطاليا ، التى أمدته بالحرس البريتورى والضباط . ولم يعد الرجال الذين ذهبوا الى الأقطار الجديدة فى الشرق والجنوب الى أوطانهم الا نادرا : قتل منهم كثيرون ، واستخدم عدد كبير فى استعمار الولايات التى فتحت حديثا وفى بناء المدن بها . لقد ذكرنا آنفا الجهد المضنى الذى بذله تراجان فى الاكثار من بناء المدن فى أراضى الدانوب لكى يخلق غاليا جديدة وراء حدود (limes) الدانوب . ونحن نعرف أيضا أنه أنشأ مستعمرات كثيرة فى أفريقية ، وأنه فى أثناء حكمه كان بناء المدن فى بعض مناطق سوريا يجرى بسرعة وقد أتى بأحسن النتائج . كل هذا حدث على حساب أقدم الولايات وأكثرها تأثرا بالمدنية الرومانية (أو اليونانية) — اسبانيا وغاليا ودالماتيا وآسيا الصغرى . فلا عجب أن دب الذعر الى مدن اسبانيا ودوت صرخاتها احتجاجا على هذا التجنيد الذى لا ينقطع [٢] .

لقد مضى الوقت الذى كانت فيه حروب رومة تكفل نفقاتها ولقد ولى الزمن الذى كانت فيه الانتصارات تملأ جيوب الفاتحين . فأسلاب حرب داكيا وحرب الجزيرة لم تكن تكفى لدفع النفقات الباهظة لعمليات حربية دامت بانتظام سنة بعد أخرى واشتركت فيها جيوش جرارة حاربت فى ميادين قاصية . فسير الجنود الذى لا ينقطع الى ميادين القتال والذى أبدع المصورون فى رسمه على عمود تراجان تطلب اصلاح الطرق القديمة

وبناء طرق جديدة وسفن جديدة والاستيلاء على عدد كبير من دواب الحمل وتسخير عدد كبير من سائقيها واعداد أماكن ينزل بها الجنود أثناء مرورهم بالمدن واختزان كميات هائلة من المواد الغذائية فى مواضع معينة (وقد تطلب هذا أيضا طرقا جيدة ووسائل نقل عديدة سهلة) وحشد مدد وعتاد من الأسلحة وعدد الحرب التى لا تحصر ، ومن الأكسية والأحذية . أولئك الذين علمتهم التجارب الصعوبات التى تثيرها هذه المشاكل فى الحرب الحديثة مع وجود السكك الحديدية والسيارات والمصانع الضخمة هم وحدهم الذين يستطيعون ادراك عناء الامبراطورية الرومانية فى حرب حقيقية (لا حرب استعمارية) دامت سنين عديدة .

ولدينا أدلة قليلة جدا عن النهج الذى اتبع فى اشباع حاجات الجيش. ولكن هناك من الأدلة ما يكفى للبرهنة على أن الأسلوب الذى استخدم هو عين الطريقة المتبعة فى الزمن الحديث ، ألا وهى طريقة الالزام ، أى العمل القسرى سواء فى ايطاليا أم فى الولايات . وحتى تلك النتف من الأخبار التى بين أيدينا تدل على أن بناء الطرق واصلاحها واطعام الجنود واسكانهم أثقل كاهل ولايات الدانوب وتراقيا ومقدونيا وبيثينيا ، وهى الولايات التى مرت بها أهم الطرق الممتدة من ايطاليا الى الدانوب ، والممتدة من الدانوب الى ميدان القتال فى بارثيا . وتطلعنا النقوش على بعض الحقائق التى تبعث على الدهش . فها هو ذا تراجان يصر على اصلاح طريق فى منطقة هيراقليا لينكيستيس (Heraclea Lynkestis) كانت المدينة والقبائل الملحقة بها مسئولة عن اصلاحه ، وهناك مواطنون أثرياء فى بيرويا (Beroea) من أعمال مقدونيا يخفون الى نجدة بلدتهم ومعاونتها على حمل عبئها الثقيل ، وقد أصبح دفع الضرائب ، وجمع كمية من الحبوب تكفى لاطعام السكان عملا شاقا على المدن فى مقدونيا

وهى ولاية من أغنى البلاد المنتجة للحبوب . فلا غرو أن تفاقمت الأزمة وازدادت حدة فى بدء حكم هادريان ، بعد أن أصاب الاعيــاء موارد الدولة [٣] . وفى بيثينيا نقابل عين الحال . فلم يكن اتفاقا أن أرســل تراجان فى عام ١١١ بعد الميلاد وقبل الحرب البارثية بسنين قليلة الى هنالك رجلا من أحسن رجاله ، هو پلينى الأصغر ، لينظم مالية المــدن البيثينية ، وليشرف على الادارة العامة فى الولاية ، وعلى علاقاتها مع مملكة البسفور الخاضعة لرومة ، وكانت مملكة البسفور من المراكز الهامة فى تموين جيوش المشرق . ولم يكن اتفاقا أيضا أن بعثت مدينتا (بيزنطه ويوليوبوليس) الواقعتان على الطريق الرئيسى الممتد الى الشرق بشكوى مريرة مما يصيب مواردهما من نضوب مستمر بسبب تنقلات الجنود [٤] . وكما حدث فى مقدونيا ، خف رجال أثرياء لمعونة ولايتهم : فيذكر أعضاء من البيت المالك السابق فى جالاتيا ، ويردد أپراموآس (Opramoas) الثرى الشهير ، وهو من أهل ليكيا ، الدور الذى قاموا به فى مد تراجان وهادريان وجنودهما بالمعونة قبل موت تراجان وبعده [٥]. ولا يحتاج المرء الى أكثر من أن ينظر فيما دبجه يراع پلينى من وصف ذاع واشتهر لما تتطلبه رحلة الامبراطور من الولايات حتى يتبين ثقل العبء ، حتى فى عصر امبراطور متنور كتراجان ، وعلى الخصوص فى زمن الحرب ، عندما اضطرته الحاجة الماسة الى أن يلجأ الى الوسائل التى تتخذ عند نزول الطوارىء أكثر مما كان يود . ولدينا أخبار أكثر تفصيلا عن الفترة المتأخرة التى سندرسها فى الفصل التالى ، ولكن ما من ريب أن الوسائل التى اتبعت لم تك بجديدة .

غير أنه مما يبعث على الدهش أن يتكشف لنا مدى الخراب الشامل الذى جلبته حروب تراجان على الامبراطورية بوجه عام . وقد شغل تراجان نفسه بمشروعاته الحربية وانهمك فيها انهماكا كليا فلم يتبين تماما أن غزواته

كادت تطوح بالامبراطورية الى شفا الخراب . ولكنه شعر حقا بانحلال ايطاليا السريع وعمل على اصلاحه ، مقتفيا فى ذلك أثر الخطوات التى رسمها قبله نرقا والفلاقيون . وكانت المعالم المخوفة لهذا الانحلال هى اقفار شبه الجزيرة من السكان ، وما رافق ذلك من انحطاط الزراعة فى ايطاليا . لقد رأينا كيف حاول دومتيان أن ينقذ ايطاليا فحــرم غرس الكروم فى الولايات . وحاول ترقا أن يزيد فى عــدد السكان باحياء سياسة توزيع الأراضى على أكثر المواطنين فقرا . وحرم تراجان الهجرة من ايطاليا ، وأقطع قدماء الجنود من الرومانيين أرضا تقع على مقربة من رومة ، بل تجاورها . وأجبر أعضاء مجلس الشيوخ على اقتناء أرض فى الوطن الأصيل . وساعد الملاك من الايطاليين على وجه عام ، كبيرهم وصغيرهم ، على تحسين أحوال معاشهم ، فأعطاهم قروضا بربح يسير . ومن الواضح أن الوسيلة الأخيرة كانت وثيقة الصلة بالوسائل الثــلاث الأولى ، وكانت تهدف الى الوصــــول الى نفس الأغراض التى جعلها نرقا نصب عينيه . لم يكن يكفى أن تمنع الهجرة من ايطاليا ، لأن ذلك يخلق على صورة غير طبيعية جمهورا كبيرا من الرعاع العاطلين عن العمل كان من الضرورى أن توجد لهم أعمال ومساكن . حاول نرقا أن يمنحهم أرضا يمتلكونها . ولكن هذه طريقة نفقاتها طائلة ، ولم يكن من الممكن تنفيذها على نطاق واسع . جرب تراجان نهجا آخر . اجتذب رؤوس الأموال الى ايطاليا بقسر أعضاء مجلس الشيوخ على استثمار أموالهم فى الأراضى الايطالية ، وبمنح الملاك الذين وجدوا فى عهده قروضــا بفائدة مخفضة ، وبهذه الوســيلة استصلحت أراض كانت ستصبح تدريجيا قاحلة . ولما كان استخدام الرقيق الذى شاع فى القرن الأول لم يعد يدر ربحا (كما رأينا فى الفصل السادس) ، وكانت الطريقة السائدة فى زرع الأرض اذ ذاك هو تأجيرها الى مستأجرين يفلحونها ، كان استصلاح الأراضى معناه أن تزداد الحاجة على الدوام الى مستأجرين

أحرار وأن تكثر الفرص أمام أولئك الفقراء الذين لا يملكون أرضا في الحصول على مأوى وآلات زراعية وماشية وقطع من الأرض يزرعونها في ضياع كبار الملاك . ولقد استثمر پليني أمواله في الأراضي الايطالية وأعطى هذه الأراضي الى مستأجرين يزرعونها ، وهو في ذلك كان يعمل وفقا لآراء تراجان ويعاونه على تنفيذ سياسته التى ترمى الى زيادة عدد السكان في ايطاليا . وهناك وجه آخر لهذه السياسة عينها ألا وهو عتق جموع غفيرة من الأرقاء في هذه الفترة وهو أمر صيرته القوانين التى أصدرها الامبراطور سهلا ميسورا . ثم هناك وجه آخر لهذه السياسة وهو انفاق الربح الذى يجنى من القروض التى منحتها الدولة الى الملاك الايطاليين في تعليم أبناء العامة في ايطاليا — مؤسسة التربية (alimenta) التى احتذاها أثرياء الملاك أيضا من أمثال پليني ، والتى امتدت تدريجيا الى الولايات .

وعلى هذا فالهدف الذى كان تراجان يرمى اليه في سياسته الاقتصادية والاجتماعية ، شأنه في ذلك شأن من سبقوه على العرش ، كان انقاذ ايطاليا والمحافظة على مكانتها واعادة السيادة الاقتصادية اليها في الامبراطورية . وقد اختار تراجان موظفيه من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ ليعاونوه في عمله هذا ، وكان عليهم أن يوجهوا الجهود التى تبذلها المدن الايطالية نحو الهدف العام . الا أن محاولاته لم تكلل بنجاح تام . ومن المحتمل أنها حدت مدة وجيزة من انحلال ايطاليا ، ولكن لم يكن من المستطاع وقف هذا الانحلال كلية . وتعتبر تجاريب پليني مع مستأجريه نموذجا للأحوال السائدة في البلاد . فلم تكن ايطاليا ، بل لم يعد من الممكن أن تصبح مركز الامبراطورية من الناحية الاقتصادية [٦] .

وفي أثناء ذلك سارت أحوال الولايات من سيء الى أسوأ يوما بعد

يوم . وليس من الانصاف أن نقول ان تراجان لم يلق بالا الى حاجات الولايات . فلقد أشرنا مرارا فيما سبق الى نشاطه المنظم الذى يضارع نشاط ڤيسپاسيان فى بعد مداه فى تشجيع تطور الحياة فى المدن فى بعض الولايات . ولقد حاول جاهدا أن يقضى على الفساد الذى نشره فى كل مكان حكام لا يرعون للأمانة حرمة : وآية ذلك المحاكمات العديدة التى أبلى فيها پلينى بلاء ملحوظا . وحاول أن ينظم الشئون المالية فى بعض مدن الولايات ، فعين مراقبين مخصوصين للمعاونة فى حسن ادارة الأراضى وفى خفض النفقات التى تبذل لجعل الحياة فى المدن أكثر رفاهية ويسرا . كان خراب المدن يعنى افلاس الدولة ، لأن المدن كانت تسأل عن جباية الضرائب التى تفرض على سكانها والمقيمين فى المناطق الملحقة بها [٧] . ولكن أنصاف الحلول هذه لم تنقذ الموقف . فعندما مات تراجان فى أثناء رجوعه من الجزيرة الى رومة ، كان موقف الامبراطورية حرجا الى أبعد غاية . ولم تفلح انتصاراته فى وقف الهجمات التى كان يوجهها الى الامبراطورية الرومانية أشد جيرانها خطرا . وعاد اليازيجيون (Iazyges) على نهر ثيس (Theiss) والروكسالانيون (Roxalani) على الدانوب الأسفل الى حركاتهم التى هددت الولايات ، تلك الحركات التى شلها بعض الوقت فتح داكيا . فشبت حرب أخرى فى بريطانيا . وقامت ثالثة فى موريتانيا . وأشعل اليهود فى الجزيرة وفلسطين ومصر وبرقة ثورات دامية خطرة ، تركت الأخيرة منها « برقة » وهى تكاد تقفر من السكان . وعجزت مدن ايطاليا والولايات عن احتمال أعباء ذلك العدد من الحروب الجديدة التى تراءت وكأنها لا محالة واقعة [٨] .

يعلل موقف الامبراطورية وقد حفت به الأخطار من كل جانب تلك السياسة التى انتهجها هادريان ، خليفة تراجان على العرش . فمن العبث أن يقال ان هادريان برهن على نقص فى ذكائه ونشاطه ، عندما جلا عن

فتوحات سلفه فى الجزيرة ، وعندما نزل للسرماتيين عن بعض مطالبهم بعد أن انتصر عليهم فى بعض العمليات الحربية ، فقد كان هادريان على جانب كبير من النشاط والذكاء . وأعماله خير دليل على هاتين الصفتين . ولم يكن هناك امبراطور يحبه جنوده أكثر منه ، رغم دقته فى المحافظة على النظام الحربى الصارم . ولم يظهر امبراطور آخر ، كما سنرى ، ادراكا وتقديرا عميقا لحاجات الامبراطورية مثل ما أظهر . فان كان قد هجر سياسة تراجان الهجومية ، فذلك لأنه تبين أن مثـل هـذه السياسة من المحال السير وراءها ، وأن موارد الامبراطورية لم تكن من السعة بحيث تحتمل فتوحات أخرى . وأول عمل للحاكم الحازم هو أن يضع أسسا قوية صادقة قبل أن يبدأ فى فتوحات حربية ذات آثار بعيدة . وقد كانت هـذه هى سياسة هادريان . فلم يحجم عن اخضاع السرماتيين ، اذ كان ذلك ضرورة بينة ، ولكنه امتنع عن ضم مناطق جديدة ، وكفاه أن يرضوا بأن يقوموا بالدفاع عن التخـوم الرومانية فى مقابل منحة سنوية . وهو فى سياسته هذه يسير على النهج الذى استنه تراجان فى علاقاته مع مملكة البسفور . ولقد قضى على ثورة اليهود فى الشرق ، وعمر برقة بارسال المستعمرات اليها ، وحالفه النصر فى موريتانيا وفى بريطانيا وأدخل تحسينات حربية هـامة على طرق الدفاع عن هاتين الولايتين . وأقام فى الجـزيرة دويلات عـلى التخوم لترد — وكأنها حوائل — أى هجوم تشنه بارثيا . واحتفظ ببلاد العرب الحجرية (Arabia Petraea) وما جاورها من بلاد ، ثم أعاد تنظيمها . وأدخل تدريجا نظم التجنيـد المحلى ، فنفث فى فرق الجيش قوى جديدة ، لها دراية تامة بحاجات الولايات التى تقيم فيها . وقوى تحصين التخـوم (limes) الرومانية . وبدلا من أن تجعل هذه الحصون من الامبراطورية بلادا كبلاد الصين لا تعتمد الا على حوائطها سهلت هذه الحصون عبء الدفاع عن الولايات ، وان استمر أساس

الدفاع عنها يعتمد على روح الجندى الرومانى وعلى دقة نظام الجيش الرومانى . وهذه الصفات لم تصل قط الى مستوى أرفع مما وصلت اليه فى زمن هادريان (٩) .

ولكن أهم أعمال هادريان هى تقوية الأسس التى قامت عليها الامبراطورية الرومانية . بدأ هادريان أعماله بالتنازل عن ضريبة التتويج المعتادة (aurum coronarium) فى ايطاليا ، وبخفضها فى الولايات وأتبع ذلك بالغاء عام لديون الخزانة (fiscus) فى ايطاليا ، وبرفع جزء من المتأخر فى الولايات ، ثم مد يد المساعدة الكريمة (وهذه لا تقل فى الأهمية عما سبق) الى مدن الامبراطورية . وكل هذه الحقائق تدل على أن الحالة العامة بلغت ذروة الخطر وأنها دعت الى ترفيه عاجل . وكان من بين أسباب البلاء اهدار موظفى الامبراطورية للقوانين وفساد ذممهم . وقد شجعهم على ذلك أن الحرب فى ابان عصر تراجان لم يكن يخمد أوارها . ولقد رأينا أن تراجان لم يكن يجهل هذا البلاء وأنه شن عليه حربا . أما علاج هادريان لهذا الداء فكان تنظيم الادارة البيروقراطية وتحسينها والانتفاع فى هذا الغرض بجهود أقدر طبقة فى الامبراطورية وأكثرها ذكاء ، أعنى طبقة الفرسان ، اما كموظفين وعمال للدولة ، واما كملتزمين(conductores) يراقبهم عن كثب موظفو الامبراطورية ويخضعونهم لسلطانهم . وقد احتفظ هادريان بنظام مراقبى المدن وزاد فى عددهم ، لأن تجاريب الامبراطور الواسعة دلته على أنه لا توجد طريقة أخرى لحفظ التوازن فى مالية المدن . والحق الذى لا مراء فيه أن كل هذه الاصلاحات زادت فى أعباء دافعى الضرائب ولكن هادريان اعتقد — وكان على حق تام فى اعتقاده — أن هذا الشر أخف وطأة من حرب تستعر أبدا (١٠) .

ومع ذلك فقد كان هادريان أول من أدرك أن أمثال كل هذه

الوسائل ان هى الا مهدئات لا تستطيع وحدها انقاذ الامبراطورية . ولم يكن أسوأ معالمها سوء الادارة أو تبذير الأموال فى المدن ، بل لم يكن حتى ضرورة الدفاع عن التخوم بشن حروب هجومية ، ولكنه كان وهن الأسس ، ولا سيما الأسس الاقتصادية ، التى قام عليها بناء الامبراطورية كله . لم تكن الامبراطورية قد أخذت من الحضارة بنصيب واف ، أعنى أن حياتها الاقتصادية لم تكن تنمو وتتطور بسرعة تكفى لتحمل العبء الثقيل ، وهو كفالة نفسها كوحدة سياسية واحدة . وهذا هو السبب الذى من أجله نبذ هادريان فى النهاية — على الرغم من مساعدته ايطاليا وحمايتها — فكرة ارجاع سيادتها على بقية الامبراطورية ، ووهب حياته للولايات . فلم يكن حب الاستطلاع وحده هو الذى دفعه الى القيام برحلات عديدة وزيارة أقصى أركان الامبراطورية . ولقد أعانه شغفه بالعلوم والفنون على تحمل ، بل على التمتع بحياة السياحة المتواصلة . ولكن هوى النظر الى العاديات لم يكن رائده فى تجواله . لقد تاق الى معرفة الامبراطورية التى يحكمها وأن يراها رأى العين ، وأراد الوقوف على كل صغيرة وكبيرة فيها . وأدرك تماما أنه يحكم امبراطورية يونانية رومانية ، وأن من العبث أن يفضل جزءا على الآخر . وهذا سر حبه لليونان ، ذاك الحب الذى أورى زنده من ناحية أخرى شغفه بالعلوم والفنون .

كانت هناك وسيلة ، ووسيلة وحيدة ، على الأقل فى نظر المفكرين القدماء ، لتحسين الحياة فى الولايات ورفعها الى مستوى أعلى ، وهى الاكثار من بناء المدن وانشاء مراكز جديدة كل يوم للحياة المتحضرة التقدمية . وقد حمل هذا الاعتقاد ، وكذا الرغبة فى جعل الجيش يعتمد على هذه العناصر المتمدينة ، الامبراطور هادريان على أن يستهدف دائما سياسة لا يحيد عنها ، وهى تحبيذ الحياة فى المدن فى جميع ولايات

الامبراطورية ، ومن المحال أن نعرف كم أنشأ من مدن أثناء رحلاته ، فأدلتنا ضئيلة جدا . ولكن يمكن أن نقرر فى اطمئنان أنه بعد أغسطس وكلوديوس وڤيسپاسيان وتراجان كان هادريان هو الامبراطور الذى فعل أكثر من سواه للاكثار من المدن فى الامبراطورية . وكان نشاطه موجها قبل كل شىء آخر الى الأراضى التى قدر لها بسبب موقعها أن تكون هى المراكز التى يعتمد عليها أهم التخوم الحربية . كانت تخوم الرين طبعا فى أمان ، لأن من ورائها ، كما هو بين ، غاليا واسبانيا . ولكن لم تكن هناك غاليا أو اسبانيا تحمى ظهر الدانوب والفرات والتخوم (limes) الأفريقية . فعلى الرغم من جهود كلوديوس والفلاڤيين وتراجان بقيت الحياة فى المدن فى أطوارها الأولى فى أكثر ولايات الدانوب ، وعلى الخصوص فى اقليم تراقيا . وكانت مناطق كبيرة من آسيا الصغرى لا تزال تحيا حياتها البدائية الريفية القديمة . وهذا أيضا ينطبق على مساحات شاسعة من أفريقية . ولقد تكلمنا فى الفصلين السابقين عن نشاط هادريان فى هذه الولايات ، فالبلديات الأيلية (municipa Aelia) كثر عديدها فى أراضى الدانوب كما كثر عدد المدن التى تحمل اسم مدينة هادريان (Hadrianopolis) أو أسماء مشابهة فى الأجزاء التى تتكلم اليونانية من شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى . وفضلا عن تأسيسه لمدينة أنتينوبوليس فى مصر ، وهو أمر ذاع واشتهر ، فمن أمثلة المحاولات المعروفة التى بذلها هادريان بناء مدينة هادريانوثيرا (Hadrianuthera) وستراتونيكيا (Stratonicea) فى آسيا الصغرى ، وكانتا من قبل قريتين . وهناك كثير من الأماكن فى أفريقية كان هادريان أول من حولها الى مدن . وقد منح هادريان هيئات قروية لم تنضج بعد لحياة المدن امتيازات قيمة جعلت الحياة فيها لا تختلف عن الحياة فى المدن الحقيقية (١١) .

ولكن بقيت هناك مساحات شاسعة لم تتأثر بحياة المدن ، ومن أمثلة ذلك حقول مصر وأملاك الأباطرة الواسعة فى أفريقية وآسيا . عرف هادريان معرفة جيـدة طراز الحياة على هـذه الضياع . وأدرك أن الامبراطورية تعتمد الى حد كبير على الدخل الذى تغله منها ، وأن من الخطر تحويلها الى مناطق مدن ، وبذلك يتسرب جزء كبير من منتجاتها ليسد حاجات المدن . وليس هناك من ريب فى أنه كان يعلم علم اليقين أن الأحوال الاقتصادية السائدة فى ضياع الأباطرة بعيدة كل البعد عن الأحوال العادية . فقد ضج الفلاحون فى مصر بالشكوى ، ولا سـيما بعد حرب اليهود ، من فداحة الضرائب . وفضل الملتزمون(conductores) فى ضياع الأباطرة فى أفريقية المراعى على الحقول والحدائق ، وتركوا حقولا تنبت الحب والكرم ينتابها التـلف والجدب . وهم بذلك قد أنقصوا من مساحة الأراضى التى كان من الممكن أن تقيم أود عائلات من المزارعين . أما مثل هادريان الأعلى ، كما يمكن الحكم عليه من بعض ما تبقى من قوانينه ، فأن تكون على ضياعه سلالة قوية من ملاك الأراضى الناجحين الذين يمكنهم أن يدخلوا أنواعـا سامية من المدنيـة ، وأن يرسلوا الى الجيش جنودا أشداء ، وأن يدفعوا الضرائب بانتظام الى الدولة . ولم يكن يرغب فى أن يكون له مستأجرون رقيقو الحـال يعملون فى خمول فى اقطاعياتهم الصغيرة ، ويجأرون بالشـكوى من سيئات رئيس الضيعة وموظفى الامبراطورية ، ناعين أعباءهم الفادحة من أجرة وسخرة . ود لو يكون له بستانيون نشيطون وخبراء فى تشذيب الكروم ورجال يضعون أيديهم على الأراضى (possessores) بدلا من مجرد استئجارها . وقد كانت أعماله تتفق ومثله العليا .

ويدل بعض الوثائق التى عثر عليها فى مصر على أن هادريان حول بعض الأراضى الملكية الى قطع صـغيرة تشبه الملكيات الفردية . وقد

أطلق على هذا النوع الجديد من الأراضى اسم الأرض الملكية التى رتب عليها حق للأفراد (βασιλικὴ γῆ ἰδιωτικῷ δικαίῳ ἐπικρατουμένη) أو الأرض الملكية المسجلة فى مرتبة ملكية فردية (βασιλικὴ γῆ ἐν τάξει ἰδιοκτήτου ἀναγραφομένη) . وقد دعا الى هـذا التغيير الذى نفـذ منذ عام ١١٧ بعد الميلاد انحلال الزراعة انحلالا خطيرا فى بعض أنحاء مصر . وقد كانت الحرب اليهودية سببا من أسبابه . وكان الامبراطور يرمى بانقاص الأجرة وضمان استيلاء طويل يشبه الملكية الى أن يبعث بذلك النشاط فى نفوس المستأجرين منه وأن يدفعهم الى اظهار كفاية أكبر فى أعمالهم الزراعية . وليس هنـاك ما يدل على المدى الذى ذهب اليه هادريان فى تنفيذ اصلاحه ، وان كانت رقاع التماس تخفيض الضرائب قد اقتصرت على حكمه ، ذلك الالتماس الذى ربما عنى طلب تحويل قطع من أراضى الامبراطور التى اضمحل انتاجها الى النوع الجديد من الأراضى الملكية الخاصة ، وندرة ظهور هذا النوع الجديد عند مسح الأراضى فى العصور المتأخرة ، كل هـذا قد يدل على أنه فى هذا القطر ذى التراث التليد لم يطل أمد اصـلاحات هادريان ولم يكن لها من نتائج دائمة (١٢) .

ويجدر بنا أن نذكر هنا وثيقة أخرى تدل على مبلغ اهتمام هادريان بحاجات واضعى اليد فى مصر وتشرح منهاجه فى اسداء العون اليهم . نجد فى ورقتين برديتين عثر عليهما حديثا ، وقد كتب على كل منهما عين النص ، قرارا صـدر بعد مضى زمن طويل على محاولات الامبراطور الأولى لتحسين الحالة الزراعية فى مصر (١٣٥/١٣٦ بعد الميلاد) . لقد تقدمت بالامبراطور السن ، وأمعن على ما يظهر فى الرجعية ، وهو قد زار مصر فى سنة ١٣٠ ، واطلع على طرائف الحياة فيها ، ولم يعد لديه استعداد أن يقوم باصلاحات انقلابية . ولقد حملت عـدة من السنين العجـاف الفـلاحين المصريين (γεωργοί) على أن يلتمسـوا تخفيض

ما طلب اليهم دفعه ، ولكن الامبراطور شجعته سنة طيبة جاءت بعــد سنوات القحط على أن يجيب على هذا الرجاء بطريقته الخاصة وهى مزيج من التقوى والتهكم . رفض رفضا باتا أن يحدث تخفيضا عاما : فالنيل المقدس ، وسنن الكون كفيلة بمعاونة المزارعين المجدين ؛ ولكنه لم يتعنت ، بل قبل رجاءهم وسمح بتقسيط المتأخر من الدفعات السابقة على خمس أو أربع أو ثلاث سنوات تبعا لموقع الأرض . وقد قادنى ذكر دفعات نقدية ، وذلك التعبير الشاذ (προσοδικά) الذى استعمل للاشارة الى هــذه الدفعات بوجه عــام ، الى الظن بأن زارعى الأرض الذين التمسوا التخفيض لم يكونوا فلاحين ، بل ملاكا ، وربما كانوا من جماعة أنصاف المستأجرين وأنصاف الملاك الذين أوجدهم هادريان بوســائله الخاصة [١٣] .

وأشد مما سبق تبيانا لخصائص سياسة هادريان بعض الوثائق التى عثر عليها فى أفريقية ، والتى تشير الى ادارة أراضى الأباطرة . فقد حاول الفلاڤيون ، كما حاول تراجان ، عنــد اعادة تنظيم المراعى (saltus) الملكية ، بعد مصادرات نيرون العظيمة ، العثور على مستأجرين يوثق بهم لمدد طويلة تربطهم بالأرض روابط وثيقة من المصالح الاقتصادية . وجريا وراء هذا الهدف نشر رجل يدعى مانكيا ، وربما كان مبعوثا خاصا لأحد الفلاڤيين ، قرارا عــرف فيما بعد بقــانون مانكيا (Lex Manciana) أطلق فيه يد الراغبين فى البذر أو الغرس فى أرض لم تزرع من قبل فى أملاك الأباطرة أو الدولة . ويبقى لمن يضع يده على هذه الأرض حقه فى وضع يده عليها ما دام يواظب على زراعتهــا . وكان لهم حــق الزراعة (ius colendi) دون عقــد خاص ، بشروط حــددها القــانون ؛ فان غرسوا الأرض بأشجار الفاكهة (أو الزيتون) كان لهم حق رهنها والوصية بها الى ورثتهم . أما اذا تركوا زراعتها مدة معينة ، رجعت الأرض الى

مالكها ثانية ، وافترض أن رئيس الضيعة أو متعهدها كان يقوم على زراعتها . وكان عليهم أيضا أن يقيموا على الضيعة ، وبهذا يستقرون بها على الدوام . وهم من هذا الوجه يختلفون عن سكان القرى الأصلية الذين استأجروا قطعا من الضيعة ، وكذلك عن المستأجرين الذين أقاموا فى بيوت أنشأها لهم المالك والذين زرعوا الأرض ، وربما بعقد لمدة قصيرة.

وبينما حافظ هادريان على أحكام قانون مانكيا (Lex Manciana) ، فانه ذهب الى أبعد منه فى قانون أو قانونين أصدرهما لتنظيم الأرض التى لم تزرع والأرض القاحلة فى ضياع الامبراطور فى أفريقيــة . كان يريد مســتأجرين لهم صــفة الدوام ليســتقروا عــلى الأرض الأميرية ، وكان يرغب فى أن يدخل هؤلاء أنواعا عالية من الزراعة ، وأن يغرسوا أشجار الزيتون والتين ، وأن يصبحوا مزارعين حقا تربطهــم روابط وثيقة باقطاعياتهم التى حولتها جهودهم الخاصة الى حــدائق وبساتين من الزيتون . وعلى ذلك فهو يسمح لمن يقيمون على هذه الأراضى بأن يبذروا ويغرسوا لا فى الأراضى التى لم تزرع من قبل فحسب ، بل وفى الأراضى التى لم يزرعها المتعهد طوال عشر سنين ؛ وهو يسمح لهم أيضا بغرس أشجار الزيتون والفاكهة فى الأراضى القاحلة . زد على ذلك أنه منح المقيمين على هذه الأراضى حق واضعى اليد (possessores) وهو حق أشبه بحق الملكية الفردية . فهم يتمتعون آنئذ لا بحق الزرع (ius colendi) وحده ، ولكن بحق الانتفاع الشخصى (usus proprius) أيضا فى الأراضى الخصيبة والحدائق ، ولهم حق توريثها ورثتهم على شرط أن يقوم الورثة بزرعها ، وتأدية ما يجب عليهم نحو المالك ومتعهد الضيعة . ولا ريب أن الغرض الأول لهادريان كان خلق فئة من الملاك الأحرار على الضياع المملوكة للامبراطور ، وعلى هذا النحو تتحسن طرق الزراعة وتمهد السبل لتطور بعيد فى حياة المدن فى أفريقية . وكان

من الممكن أن يؤسس جماعة من واضعى اليد (possesscres) قرية فى الضيعة ، كتلك القرى التى مر ذكرها فى الفصل السابع . وكان من المحتمل أن تنمو هذه القرية ، وأن تصبح فى النهاية مركزا من مراكز الحيـــاة الحضرية . ومن المرجح أن جهود هادريان والأباطرة الآخرين فى القرن الثانى حالفها نجاح حسن . وانى موقن بأن سرعة انتشار غرس أشجار الزيتون فى جميع أنحاء أفريقية مرجعها الى حد كبير الى تلك الامتيازات التى منحها هادريان الى من يودون أن يزرعوا زيتونا (١٤) .

انتهج الامبراطور عين السياسة فى الولايات الأخرى ، ولا سيما فى بلاد اليونان وآسيا الصغرى ولقد ذكرنا فى الفصل السادس جهوده العظيمة فى مسح الأراضى فى ولاية مقدونيا . ويحتمل جدا أن هادريان حاول بهذه الوسيلة أن ينظم على أسس ثابتة الحياة الزراعية البدائية فى تلك الولاية (١٥) . وفى أتيكا بيعت تلك الأراضى التى كان يملكها هيبارخوس الشهير ، أحد ضحايا دومتيان ، الى صغار المستأجرين . وفى آسيا الصغرى رعى هادريان مصالح صغار واضعى اليد فى الضيعة التى يملكها معبد زوس فى ايزانى (Aezani) . ويشـــهد نقش ، عثر عليـــه حديثا ، بجهود الامبراطور فى استصلاح الأراضى بالقرب من بحيرة كوپايس (Kopais) فى بويوتيا (Boeotia) (١٦) . زد على ذلك أن هادريان (كما بينا آنفا فى الفصل السابق) هو الذى شجع على تأجير آبار مفردة من المناجم التى يملكها الامبراطور والدولة الرومانية الى صغار رجال الأعمال أو واضعى اليد عليها ، بدلا من استخدام العبيد والسجناء فى استخراج المعادن منها . وهنا أيضا سار هادريان على سياسته فى خلق جماعات قوية من الرجال المجدين الذين قد يصبحون فى المستقبل نواة لهيئة ، أولا كقرية ثم بعد ذلك كمدينة (١٧) .

لم يكن هناك من جديد فى هذه الجهود ، فلقد رأينا أن بعث صغار

الملك كان بندا هاما فى منهاج الملكية المستنيرة ، دافع عنه بأبلغ عبارة ديو فم الذهب فى كتابه « يوبويكوس » (Εὐβοικός) . ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر الجهود الجبارة التى بذلها هادريان ولا حرية الفكر التى أظهرها فى اتباع هذه السياسة عينها فى جميع أرجاء الامبراطورية ، دون أن يخص ايطاليا بأى تفضيل [١٨] .

وقد عمل هادريان فى نواحى الحياة الاقتصادية الأخرى متبعا نفس السبيل دون أن يحيد عنه. فرعى حقا تلك السياسة التى بدأها نرقا وتراجان ، وسار على آثارهما جميع الأباطرة فى القرن الثانى ، وربما حتى (بل قل لاسيما) فى القرن الثالث — سياسة الدفاع عن الضعيف ضد القوى ، والفقير ضد الغنى ، والوضيع (humiliores) ضد النبيل (honestiores) . وقد تردد صدى هذه السياسة فى كثير من القوانين التى صدرت فى القرنين الثانى والثالث ، كالتشريع الخاص بالموالى والأرقاء ، وذلك التشريع الذى يحمى جمعيات المساكين (collegia tenuiorum) وذلك القانون الذى يستحدث مبادىء جديدة فى القضاء لحماية الفقراء (tenuiores) فى نضالهم ضد الأقوياء (potentiores) وهناك تفسيرات فى محيط الالتزامات تشف عن الميل نفسه [١٩] . وتصور لنا وثائق عثر عليها فى الجزء الشرقى من الامبراطورية نشاط هادريان فى هذا الأمر . ومع أن هذه الوثائق تحوى تفاصيل ليست بذات أهمية ، الا أنها لا تقل عن أى شىء آخر فى تبيان ميوله واتجاه أفكاره فى الناحية الاقتصادية . وكما فعل سولون من قبل ، نظم هادريان نفسه تجارة الزيت فى مدينة أثينة ، فحرم بقرار صارم اطلاق حرية تصدير الزيت دون قيد ، وأصر على وجوب بيعه فى أثينة . وهناك قرار من الطراز عينه ، لذكريات الماضى أيضا أثرها البين فيه ، يبرق ويرعد ضد تجار التجزئة الذين يجعلون أثمان الأسماك فوق مقدرة الطبقة الفقيرة : « يجب أن يبيع السمك كله صيادوه أنفسهم أو من اشتروا منهم مباشرة ، لأن شراء فئة ثالثة لنفس السلع بقصد بيعها

ثانية يزيد فى سعرها » . وبنفس هذه الروح يتدخل الامبراطور ، أو الحاكم المعين من قبله ، فى نزاع بين أصحاب المصارف وتجار التجزئة فى برجامون ليحمى مصالح أضعف الجانبين [٢٠] .

لا نستطيع هنا أن نسهب فى بحث حكم هادريان ولا فى بيان أهميته لتاريخ الامبراطورية الرومانية . ولكن من الواضح أن هادريان بذل أقصى جهده لتوسيع رقعة الامبراطورية وتقوية أساسها . وقد ألم بالمشاكل الرئيسية ، وعمل جاهدا فى حلها بطريقة مرضية . فالامبراطورية تدين له بتلك الفترة القصيرة من الهدوء والرواج التى أعقبت سنوات تراجان وشدتها . ولكن يجب ألا يعزب عن بالنا أن توطيد أركان السلام لم يكن نتيجة لنجاح سياسته فقط ، ولكن كان أولا وقبل كل شىء آخر نتيجة لانتصارات تراجان الباهرة التى جعلت نشاط خلفه السياسى ممكنا ، ومكنته من الاعتماد على ولاء الجيش الرومانى ودقة نظامه .

وفى حكم أنطونينوس پيوس على هدوئه وتعهده للبذور التى بذرها هادريان نرى بعض معالم تثير الاهتمام . اذ يظهر أن محاولات هادريان ليعيد الرخاء الى الامبراطورية لم يحالفها النجاح التام. فلم تسترجع الولايات رخاءها السابق الا ببطء ، عاقها عن القيام من كبوتها رحلات الامبراطور العديدة ، وتطور البيروقراطية على يديه تطورا بعيدا ، ونشاطه فى البناء فى جميع أرجاء الامبراطورية ، كل ذلك تطلب الكثير من المال . فجهد أنطونينوس فى أن يخفض حتى من أمثال هذه النفقات الى أبعد حد ممكن . وكان هادريان محبا لتشييد المبانى فى رومة كما فى الولايات . فلزم أنطونينوس جادة الاقتصاد الدقيق فى هذه الناحية . وأحجم عامدا عن أن يثقل خزانة المدن فى الولايات بذاك العبء الذى تسببه الزيارات الملكية للولايات . ولم يزد فى عدد موظفى الدولة : بل أنقص من عددهم . ووضع ايطاليا ثانية تحت رعاية مجلس الشيوخ ،

اجابة لرغبات أعضائه . ولقد ذهب الى حد بيع الأمتعة التى تزيد عن حاجة القصر الامبراطورى ، وبيع بعض ضياعه . كل هذا يبرهن على أنه يجب ألا نبالغ فى تقدير ثروة الامبراطورية : كانت هناك عوامل تقوض أساسها فى الخفاء حتى فى أزمنة السلم الشامل [٢١] .

ولما اعتلى ماركوس أورليوس العرش ، بدأت فترة أخرى حرجة فى تاريخ الامبراطورية . ولا حاجة بنا الى ترديد الوقائع هنا . فلقد بلغ التوتر فى العلاقات بين بارثيا وروما مبلغا تطلبت معه مصالح الامبراطورية ، على الرغم من رقة شمائل هذا الامبراطور العظيم وحبه للسلم ، مهاجمة الدولة الشرقية على نسق لا يقل عن غزوات تراجان . وعندما وضعت الحرب أوزارها ، بدأ الطاعون يفتك بجيش المشرق ، ثم امتد الداء الى ايطاليا ، والى أجزاء أخرى من الامبراطورية . وقد انتهز الألمان والسرماتيون فرصة غياب أحسن الفرق من حدود الدانوب ، فأغاروا على ولايات الدانوب وتقدموا حتى بلغوا أكويليا (Aquileia) . وقد عاقت سير الحرب التى نشبت محاولة عقيمة قام بها أوڤيديوس كاسيوس ، بطل حرب بارثيا العظيم ، للقبض على زمام الامبراطورية . فلما أخمدت هذه الثورة ، بدأت الحرب مرة ثانية . وأصبح من البين لماركوس نفسه ، ولجميع رجال زمانه ممن لهم الصدارة أنه لابد من جهد حربى قوى ثان لتوطيد أركان السلام فى الامبراطورية فترة أخرى ، مجهود يبرهن لجيران روما أنها ما زالت تلك القوة عينها التى كثيرا ما احتفلت بالنصر على منافسيها وأعدائها . وقد أظهرت الامبراطورية جلدا وصبرا على هذا الابتلاء العسكرى فى الحروب الدامية التى شبت فى هذا العهد . وأظهر الجنود من حسن الدربة ودقة النظام ما أظهروه فى زمن تراجان وهادريان . ولم يكن هناك مطعن فى كفاية القواد أو نقص فى عددهم . ولولا أن المنية عاجلته ، لختم ماركوس الحرب بضم جزء كبير من ألمانيا ، رغم الوباء والثورة [٢٢] .

ولكن ان كان الجيش قد ثبت للاختبار ، فان مالية الامبراطورية لم تستطع . أضحت الخزانة خاوية . وعارض ماركوس فى فرض أى ضرائب جديدة : فضل أن يبيع أثمن أمتعته فى (مزاد) عام امتد شهرين . ومع كل ذلك لم يستطع أن يتجنب فرض ضرائب جديدة . ونحن نسمع عرضا أنه اضطر تحت ضغط غارة بحرية شنتها بعض قبائل الألمان والكلتيين الى جباية ضريبة خاصة فى آسيا الصغرى ، كان رائده فى جبايتها ما كان متبعا فى العصر الهيلينستى ، وأنه استقرض أغنى المدن البحرية الواقعة على سواحل الامبراطورية قروضا اجبارية ، ولم تستطع بعض المدن من دفعها قبل أن تبيع أراضيها (٢٣) . فمن الواضح أن الامبراطورية التى ورثها عن أبيه بالتبنى لم تكن من الرخاء والازدهار كما كان ينتظر. ولولا ذلك لما أحيا ماركوس من أول حكمه وسائل هادريان ، فألغى ديون خزانة الامبراطور (fiscus) وديون الخزانة العامة (aerarium) ومن المحتمل أنه تنازل عن المتأخر ، ولم يكن ليواجه طيلة حكمه سيلا من رجاء المدن يتجدد كل يوم تلتمس منه الهبات أو الاعفاء من الضرائب (٢٤) .

ولما طلب منه الجنود زيادة العطاء بعد انتصارات عظيمة فى حرب الماركومانيين رد عليهم بحزم ردا ملؤه المرارة : « أى شىء تأخذون فوق مرتبكم العادى وزيادة عليه ، لابد من نزفه من دماء آبائكم وأقاربكم . أما فيما يخص العرش الامبراطورى فمصيره فى يد الاله وحده » . والظاهر أن الرفض كان من المحتمل أن يؤدى الى تعريض مركز الامبراطور الشجاع للخطر ، وهو حاكم وهب نفسه جسدا وروحا لواجبه ولخير الامبراطورية التى وكل الاله اليه أمرها . ومثل هذا الرد لم يكن ليفوه به الا رجل أدرك ادراكا تاما حرج مركز دافعى الضرائب فى جميع أنحاء الامبراطورية (٢٥) .

وقد زاد السخط ونما جنبا الى جنب مع الازدياد المطرد فى طلب الدولة للرجال والأموال ، واتخذ القلق أشكالا خطرة فى أنحاء الولايات . فامتنعت أسبانيا ثانية عن ارسال جنود الى الجيش ، واضطر الامبراطور الى الاذعان والتسليم (٢٦) . وغصت غاليا وأسبانيا بالروافض الذين عاثوا فى الأرض يسلبون ويسرقون ، وكثر عددهم حتى تمكن رجل يدعى ماترنوس (Maternus) من أن يشعل فى زمن كومودوس حربا منتظمة ضد الحكومة (٢٧) . وزاد عدد أولئك الذين فروا من القرى المصرية ولجأوا الى مستنقعات الدلتا هربا من أعباء التجنيد والسخرة والضرائب ، وقد تكاثر جمعهم حتى استطاع المشردون (وكانوا يدعون برعاة البقر οὐκόλοι) أن يرفعوا علم العصيان تحت زعامة أحد الكهنة ضد الحكومة الامبراطورية(٢٨) . فلا ينبغى أن يأخذنا العجب ان قرر كومودوس بن ماركوس أورليوس الذى ورث سلطان أبيه ، ولم يرث نشاطه وقوة ارادته وشعوره بواجبه ونفوذه على جنده ، على الرغم من احتجاج مجلس الشيوخ الصامت وغضبه المتأجج اذ أنه أدرك خطورة هذه الخطوة ، أن يترك تحت ضغط هذه الظروف محاربة الألمان وأن ينهى الحرب بمعاهدة دمغتها المعارضة السناتورية بأنها « عار وشنار » . وكان رد كومودوس هو بعث عهد جديد من الرعب والفزع . فتجددت مآسى حكم دومتيان — وسنتكلم عن ذلك فى الفصل التالى .

ورغم ضغط الحرب والطاعون والفقر والثورة ، وضحت فى حكم ماركوس أورليوس الخصائص عينها التى ميزت حكومة أسلافه . لقد اضطر الى الالتجاء الى وسائل قاسية فى أوقات الطوارىء . وهذه الوسائل أيقظت برما متزايدا . ولكنه بذل ما فى وسعه لتخفيف نتائجها. وخف الى مساعدة المظلومين . وأعظم ما يثير الاهتمام من خصائص

حكمه ، التفاته الى مركز العبيد والموالى ، وما اتخذ من وسائل ليجعل حياتهم أخف وطأة وأكثر قربا من الرحمة ؛ وللاحاطة بهذه الوسائل يجب على القارىء أن يرجع الى المؤلفات الخاصة فى هذا الموضوع[٢٩].

ويتضح من النظرة التى ألقيناها على سياسة الأباطرة الاقتصادية والاجتماعية ، وحال الامبراطورية من الوجهة الاقتصادية فى القرن الثانى وهن الأسس التى قام عليها رخاء الدولة ، ذاك الرخاء الذى أشبه السراب . وقد دفعت كل حرب جديدة ذات خطر ببناء الامبراطورية أجمعه الى شفا الخراب ؛ وهذا يدل على أن الوسائل التى استخدمها الأباطرة لتقوية تلك الأسس لم تؤت ثمارها ، أو على الأقل لم تقو على صد العوامل الأخرى التى دأبت على دك هذه الأسس دكا خفيا . ويرى بعض الباحثين المحدثين أن هناك سببا أساسيا واحدا للانحطاط الاقتصادى الذى أصاب الامبراطورية تدريجيا ، وأن هذه العلة كانت أقوى من أى جهود بشرية . فخيل الى أوتو سيك (Otto Seeck) أن السر يكمن فى نقص عدد السكان بالتدريج فى الامبراطورية ؛ وظنه ج . ليبج (J. Liebig) وأتباعه نهك التربة يوما اثر يوم[٣٠] . ولكنى لا أرى ما يدعو الى قبول هذه التعليلات .

أما عن الرأى الأول ، فقد أورد سيك أدلة قوية ليبرهن على أن نقص عدد السكان اطرد فى بلاد اليونان وفى ايطاليا يوما بعد يوم . والحق أن عدد السكان فى كلا القطرين انخفض على مر الأيام . ولكن هل نحن على حق فى التعميم والقول بأن شيئا كهذا حدث فى الأجزاء الأخرى من الامبراطورية ؟ ليس لدينا طبعا أدلة قاطعة فى هذا الموضوع . وليس لدينا احصاء يبين أن عدد السكان فى الولايات لم يكن فى الحقيقة فى نقص مستمر . ولكن هناك بعض الحقائق التى تجعل هذا الرأى بعيد الاحتمال الى حد كبير . فحال بلاد اليونان شاذة ، اذ كانت

اليونان من أفقر بلاد العالم القديم كله . وكانت ايطاليا أشبه حالا ببلاد اليونان ، قبل ذلك الشبه أو كثر . وكان لدى كل مواطن رومانى يجد فى طلب الرزق نهز حسنة فى الولايات . ولذا فقدت ايطاليا على الدوام أفضل رجالها . وكان الفراغ يسده العبيد ، فلما تعذر جلب عدد كبير من الأرقاء ، بدأت ايطاليا بدورها فى الانحطاط . لأن سيل الهجرة لم ينقطع أبدا ، كلما فتحت أرض بعد أخرى أمام المهاجرين .

سار الأمر على غير ذلك فىالأجزاء الأخرى من الامبراطورية . فأضيفت طوال القرنين الأول والثانى بلاد جديدة فى الشرق والغرب يمكن للمدنية اليونانية الرومانية أن تنتشر فيها ، أرض كانت من قبل أحراشا وغابات ومستنقعات ومراعيا ، فأضحت حقولا وحدائق . وقامت مدينة بعد أخرى تمتعت بالرخاء فترة ما . واذا نظرنا الى هذه الحقائق ، لا نستطيع أن نعتقد اعتقادا جديا فى سداد الرأى القائل بنقص السكان فيما يتعلق بمصر وآسيا الصغرى وسوريا فى الجنوب والجنوب الشرقى، وأفريقية وأسبانيا وبريطانيا وألمانيا وبلاد الغالفىالجنوب والغرب،وأراضى الدانوب فى الشمال الشرقى . نمت مدينة ثموجادى (تمجاد) فى أفريقية وأسرع بها التطور ، كما يمكن أن نستنتج من أطلالها ، من مستعمرة حربية صغيرة بها قليل من المبانى وعدد من السكان لا يزيد عن الألفين ، فأضحت مدينة كبيرة نسبيا وأصبح عدد سكانها نحو ثلاثة أمثال عددهم فيما مضى . وهذا النمو يرجع ، كما هو واضح ، الى زيادة عامة فى عدد سكان منطقتنها . وبغير هذا الفرض يستحيل أن نعلل لمنفتحت الحوانيت والأسواق فى المدينة ، ولمن بنيت الحمامات العديدة وشيد المسرح الكبير . وقد كشفت الحفريات التى أجريت حديثا عن الأحياء التجارية ، وتاريخ انشائها متأخر نسبيا . وفى تلك الأحياء حوانيت كبيرة يكاد بعضها يكون مصانع حقيقية صغيرة . وتحيط تلك الأحياء بالمدينة الأصلية ، وترجع هذه الأحياء الى وقت كان سكان المدينة وما يجاورها من القرى

فى ازدياد مستمر . ولما كانت ثموجادى قد بنيت فى زمن تراجان ، فقد كان هذا النماء مستمرا خلال القرنين الثانى والثالث ، وحتى بعدهما . وهناك مدن أخرى كثيرة فى أفريقية والولايات الأخرى لها تاريخ مماثل . فلم ينزل الركود بواحدة منها ، بل نمت واطرد نماؤها حتى القرن الرابع على الأقـل .

وليست النظرية القائلة بضعف التربة أكثر اقناعا من سابقتها . فهنا أيضا قد يصدق هذا الرأى على بعض أجزاء اليونان وايطاليا . ويرجع ما انتاب بعض جهات ايطاليا من جدب الى قطع الغابات بجهالة والى اهمال الصرف وقنواته التى شقت فى أجزاء كثيرة من الريف فى وقت تكاثف فيه عدد كبير من السكان فى منطقة ضيقة جدا . وهذه الجهات هى لاتيوم وبعض أجزاء اتروريا وبعض مناطق المدن اليونانية فى جنوب ايطاليا . ففى كل هذه الجهات ليست التربة جيدة ، وانما تحتاج الى جهد متواصل ، والتفات تام لتعطى محصولا حسنا . وكان من الطبعى أن تكون هذه الأراضى أول ما يهجر عندما فتحت بلاد جديدة أفضل منها : فلا عجب أن تركت كمپانا الرومانية للمراعى ولبناء الدور الخلوية ، فأصبحت مباءة للحمى المتقطعة . ومع ذلك فلم يزل للأرض الجيدة فى اتروريا من الخصوبة والجاذبية ما يحمل الملاك فى رومة على اغلاء ثمنها. ومما يثير الدهش أن پلينى لايذكر قط ضعف التربة كسبب عام ، بينما يردد الشكوى من نقص المحاصيل . وعندما أراد نرقا أن يقطع أرضا لأولئك الفقراء الذين لا يملكون منها شيئا اضطر الى شراء هـذه الاقطاعيات . وهذه حقيقة تدل — واستنتاجنا تسنده جداول التغذية — على أنه فى بدء القرن الثانى لم تكن هناك أرض مجدبة ، وبالتالى لم يكن هناك انهاك فى الأراضى الايطالية ، اذا صرفنا النظر عن بعض البقاع فى أقاليم سبق ذكرها . ولا يمكن أن يكون هناك تساؤل بأى

حال عن خصوبة أراض مثل أراضى كمپانيا ووادى نهر الپو أو ماأشبهها.
ولا يحتاج المرء الى أكثر من أن يلقى نظرة على وصف هيروديان لمنطقة
أكويليا ثم يقارن هذا الوصف بحالها الآن ليدرك أن القول بنهك التربة
فى ايطاليا فى القرنين الثانى والثالث تعميم لايمكن قبوله .

وليس من الممكن البتة أن تتحدث عن ضعف التربة فى الولايات .
والدليل الوحيد (سوى شواهد من عصر متأخر) الذى قدم ليسند هذه
النظرية عند تطبيقها على افريقية هو ما ورد فى قوانين هادريان من أن
بعض أجزاء فى الضياع الملكية تركت دون أن يقوم الملتزم بزراعتها .
ولكن يجب ألا ننسى أن غرض الأباطرة الأول هو زراعة أراض جديدة
فى أفريقية وانقاص مساحة المراعى وزيادة الحقول والحدائق . أما الأرض
التى أهمل الملتزم زرعها فتأتى فى المرتبة الثانية . ومن المحتمل أن الملتزم
فضل أن يتركها للرعى والصيد ، ولكن ذاك لم يحظ بقبول من
الامبراطور . وعلى أى حال ، فليس هناك أدنى اشارة الى نهك عام
أصاب التربة . ونحن لانجد أى شكوى من مثل هذا الانهاك فى أفريقية .
أما ما أقلق بال الأباطرة فهو وجود كثير من الأرض التى لم تزرع قط ،
وقلة الأيدى العاملة ، وندرة الأمطار ؛ وقلة المطر هذه جعلت الاكثار من
أعمال الرى أمرا لازما . وقد بقيت الأراضى المزروعة فى أفريقية القنصلية
حتى القرن الرابع جد متسعة ، كما يتبين من الاحصاء الرسمى [٣١] .

واذا ضربنا صفحا عن نقص السكان أو ضعف التربة ، فما هى
أسباب عدم الاستقرار الاقتصادى فى هذه الامبراطورية الضخمة المتحضرة
التى كان لديها مختلف الموارد الطبيعية العديدة وكان بها من السكان عدد
كبير ؟ انى أرى أن انحطاط قوى الامبراطورية الحيوية شيئا فشيئا
يمكن تعليله بمجموعتين من الظواهر الطبيعية ، وكل مجموعة منهما

مرتبطة بخاصية بارزة فى حياة الدول القديمة على العموم — وهى غلبة مصلحة الدولة على مصالح الأفراد ، وهى فكرة عتيقة ، وتقليد عاصر الدهر وهدم الى حد كبير أسس الرخاء فى ممالك الشرق وفى حكومات المدن المستقلة فى بلاد اليونان ، وكان من أهم أسباب الضعف فى الممالك الهيلينستية ، وهى التى سبقت الامبراطورية الرومانية مباشرة . وعندما أصبحت هذه الغلبة حقيقة لا ريب فيها ونجحت فى أن تجعل مصالح الأفراد والجماعات فى المرتبة الثانية ، كان لزاما أن تعجل ببعث الكآبة والسأم الى نفوس الجماهير وأن تدفعهم الى عدم الاهتمام بما يقومون به من عمل . ولكن ضغط الدولة على الأهلين لم يبلغ قط مثل ذاك الثقل الذى شعر به الناس فى زمن الامبراطورية الرومانية . وكان أوضح خاصية تميز الحياة الاجتماعية والاقتصادية منذ القرن الثانى بعد الميلاد هو الشعور بهذا الضغط شعورا حادا ، وقد زاد هذا الشعور ، واطرد ثقله بعد ذلك (٣٢) . وقد قامت سيطرة الدولة فى ممالك الشرق على أساس من الدين ، وكانت أمرا لا يقبل جدلا أو نقاشا فهى مقدسة فى نظرهم . ولكن هذه السيطرة لم تبلغ قط ذروة التطور فى حكومات المدن المستقلة فى بلاد اليونان ، وكانت دائما تقابل بمعارضة شديدة من أكثر الجماعات نفوذا فى الأمة . وقد خفف من حدة الشعور بثقلها فى الممالك الهيلينستية أنها ثقلت على كاهل الطبقات الدنيا الذين درجوا عليها من أزمنة سحيقة ونظروا اليها على أنها ضرورة لا مفر منها وشرط فى مقومات حياتهم الأساسية . وقد حدثت فى عصر الامبراطورية الرومانية تطورات خطيرة . وعلينا أن نتتبع آثار هذه التطورات فى ايجاز .

قلنا فيما سبق ان هناك مجموعتين من الظواهر الطبعية تنجتا من ازدياد سيطرة الدولة وتجاوبت فيهما أصداؤها . وترتبط المجموعة

الأولى ارتباطا وثيقا بكثرة بناء المدن فى الامبراطورية يوما اثر يوم . ولقد بينا فى الفصل الأول ، وكذا عند الكلام على الولايات فى الشرق ، كيف اتخذت المدن اليونانية المستقلة فى سوريا وفى آسيا الصغرى فى العصر الهيلينستى شكل طابق علوى يرتكز على قاعدة من الجماهير الكثيرة التى كدت فى زرع الأرض فى الريف ، وكدحت كعمال أحرار وأرقاء فى المدن . وأصبحت المدن اليونانية تدريجا ، أو بالأحرى أضحت الطبقات العليا فيها ، وهى تتألف من اليونانيين والشرقيين المتأغرقين ، حكاما وسادة على السكان الأصليين الذين أشبهوا الرقيق. وقد وجدت هذه الظاهرة عينها فى مصر ، مع تغيير ملائم . وكان اليونانيون الذين استوطنوا فى البلاد والمصريون المتأغرقون ، على الرغم من أنهم لم ينتظموا فى مدن مستقلة ، سادة على بقية السكان . وقد أوقف الفتح الرومانى زمنا ما تطور هذه العملية تطورا طبيعيا . وفى أوائل أيام سيادتهم لم يشجع الرومان على الاكثار من بناء المدن فى آسيا الصغرى وفى سوريا ، ولكنهم قنعوا بالأحوال السائدة . ولكن فى أثناء الحروب الأهلية وفى زمن أغسطس وخلفائه ، بعد أن التأم الحلف الرومانى المؤلف من المدن الايطالية والذى كان يملك بعض الأراضى خارج ايطاليا ، وكون على مر الأيام دولة موحدة ، عاد زعماء الحروب الأهلية وأباطرة الرومان دون قصد أو عمد الى سياسة العصر الهيلينستى فى الاكثار من بناء المدن . وقد أوجدوا بذلك فى جميع أرجاء الامبراطورية طبقتين من السكان — أولئك الذين نالوا قسطا من الحضارة وهم لذلك حكام وسادة ، والهمج البرابرة وهم لذلك رعية . ومضت مدة كانت فيها الطبقة الحاكمة من المواطنين الرومان ، أما البقية فكانوا رعايا (peregrini) . والحق أن هذا التمييز استمر على الدوام نظريا فقط ، ولا سيما فى الشرق . قد يكون سكان المدن

اليونانية فى نظر القانون أجانب (peregrini) من اليونانيين أو المتأغرقين، ولكن هؤلاء الأجانب استمروا من الناحية الاجتماعية والاقتصادية يكونون الطبقة الحاكمة فى الولايات الشرقية .

وعلى مر الأيام ، تبين أن القاعدة التى تقوم على المواطنين الرومانيين فى ايطاليا وعلى المستعمرات الرومانية واللاتينية القليلة فى الولايات من الضعف بحيث لا تقوى على حمل بناء الامبراطورية السياسى ، وعلى الخصوص سلطان الأباطرة . وأقبل الأباطرة على سياسة تشجيع الحياة فى المدن ، وهى السياسة التى اتبعوها فى الشرق والغرب على السواء بنشاط يزداد على الدوام . وكانت هذه السياسة من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية تعنى التدرج فى خلق مراكز جديدة يقطنها فئة ممتازة من السكان تتألف من أغنى الناس وأكثرهم حضارة ومدنية — من أولئك الذين يملكون الأراضى أو السفن ، وكان على بقية السكان أن يطلبوا العمل عندهم . ولم تكن الطبقة الجديدة مصدرا جديدا من مصادر القوى التى تسند عرش الأباطرة فحسب ، ولكنها مدت الامبراطورية أيضا بعدد من أحسن الموظفين الاداريين فيها . وكان كل مواطن جديد فى مدينة جديدة موظفا فى الدولة ، وان لم يقبض أجرا .

لقد أتينا على ذكر بناء المدن فى الفصول السالفة ، وبينا هناك أنها شطرت سكان الامبراطورية الى طبقتين كبيرتين : حكام ومحكومين ، بورجوازى ترتع فى الامتيازات وأيد عاملة كادحة ، ملاك وفلاحين ، أصحاب حوانيت وأرقاء . وكلما ازداد عدد المدن التى بنيت ازدادت الفجوة بين الطبقتين اتساعا . وكل ازدياد فى عدد الطبقة الممتازة يعنى حملا أثقل يقع على كاهل الطبقة التى حرمت من كل امتياز . وهناك قسم من بين المقيمين فى المدن ، أعنى رجال الأعمال ، لا يعرفون حقا

الكسل ، فقد عاونوا بنشاطهم ومهارتهم فى نشر الرخـاء بين ربوع الامبراطورية . ولكن على مر الأيام أصبح المثل الذائع لساكنى المدن هو الرجل الذى يعيش من دخل يستمده من أرضه أو من حوانيته . وأضحت القوة المحركة فى الحياة الاقتصادية تتألف الآن من الوسطاء والسماسرة، وأكثرهم من الأرقاء والموالى ، الذين أخذوا مكانهم بين الملاك والعمال .

وتقسيم السكان الى طبقتين ، ذلك التقسيم الذى تبلور على مر الزمان فى شيء يشبه أن يكون طائفتين ، لم يكن أحد يشعر بأنه شر خطير ما دامت الامبراطورية تتسع كل يوم ، وما دامت هنالك مناطق جديدة يمكن فيها بعد ضمها الى الامبراطورية تشجيع بناء المدن ومنح السيادة ومقاليد الحكم الى أنشط العناصر بين السكان . ولكن على مر الأيام أربى التوسع على نهايته : كان هادريان آخر امبراطور انتفع من نشاط سلفه وجهوده الحربية . ولم ينقطع قط بناء المدن ، ولكن بعد زمن هادريان لازمه البطء الشديد . وكانت نتيجة ذلك أن أولئك الذين تمتعوا بامتيازات دامت لهم امتيازاتهم ، أما أولئك الذين حرموا منها ، فلم يكن لهم الا بصيص من الأمل فى تسلق الدرجات العليا من السلم الاجتماعى . فوجود طائفتين ، احداهما يزداد اضـطهادها كل يوم ، والأخرى تزداد كسلا وانغماسا فى الحياة الهينة ، حياة المترفين ذوى الثراء ، كتم أنفاس الامبراطورية وحال دون تطورها الاقتصادى . وقد ذهبت سدى كل جهود الأباطرة لرفع الطبقات الدنيا الى مرتبة طبقة وسطى ، طبقة عاملة نشيطة . وكانت الطبقات الممتازة هى الدعامة التى يرتكز عليها سلطان الامبراطور ، وكان من المحتوم أن تسـفل تلك الطبقات فى وقت قصير جدا الى حضيض الخمول . فبناء مدن جديدة كان فى الحقيقة بمثابة بناء خلايا جديدة لليعاسيب (٣٣) . ومع ذلك كان من الضرورى مواجهة المشاكل الهامة فى حياة امبراطورية ضخمة . وطالما

امتنعت الدولة الرومانية عن الاعتداء والهجوم وتوقفت عن الاتساع، هوجمت واضطرت اما الى استئناف سياستها الهجومية أو تركيز جهودها فى دفاع مجيد . وتطلبت ادارة الامبراطورية الشاسعة اهتماما والتفاتا متزايدا . وكانت الطريقة الوحيدة لصد أنانية الطبقات الحاكمة هى زيادة دائمة فى نمو البيروقراطية التى ابتلعت جزءا كبيرا من موارد الدولة زيادة على ما استنزفته الطبقات الحاكمة فى المدن . وفى أوقات الطوارىء عندما لا تكفى الضرائب العادية لدفع النفقات الضرورية ، لم يكن أمام الدولة سوى الالتجاء الى نظرية سيادتها على الفرد وأن تترجم تلك الفكرة الى أساليب عملية . وقد درست هذه الوسائل من قبل فى سالف تاريخ الدول القديمة. فكل عضو فى جماعة قديمة ، سواء أكانت مملكة أم مدينة مستقلة ، كان ينتظر منه أن يضحى بمصالحه الخاصة فى سبيل صالح الجماعة : ومن هنا نشأ نظام « الخدمات العامة » أو الأحمال العامة (λειτουργίαι) بما اشتملت عليه من سخرة ومسئولية ألقيت على كاهل الطبقات الممتازة والثرية عن اعالة الفقراء .

عاصر نظام الخدمات العامة نشوء الدولة فى قديم الزمان . وكان من المبادىء الأساسية التى قام عليها نظام الملكية فى الشرق أن من واجب الرعايا اعانة الدولة بأعمالهم وأموالهم ، وأن موظفى الدولة مسئولون عن أداء واجباتهم على النحو الأكمل ، وهذه المبادىء ورثتها الحكومات الهيلينستية . فلم تقتصر مسئولية موظفى الحكومة على أجسامهم فقط — اذ كان الموظف عرضة للعقاب البدنى — ولكنه كان يسأل أيضا فى ماله ، اذ كان عليه أن يعوض الحكومة من ماله الخاص عن الخسائر التى لحقتها بسبب خيانته ، أو اهماله . تلقى الرومان هذه المبادىء ، لا فى مصر وحدها حيث عثروا عليها فى أنقى أشكالها ، ولكن فى الولايات الأخرى . وفى مصر لم يرفع الرومان التزاما واحدا أناخ عادة على الأهالى . فبقى العمل

القسرى أهم قوة محركة فى النظام الاقتصادى · ولم تتنازل الحكومة قط عن حقها فى أن تطلب الى الأهلين فى أزمنة الطوارىء ، ولا سيما فى وقت الحرب ، غذاء لجنودها وضباطها ، وعلفا للماشية ، فضلا عن الضرائب المعتادة . ومن أحسن الأمثلة المشهود بصحتها ما يعرف باسم انجاريياى (angareiae) ، وهو لفظ فارسى أو أرامى يدل على قسر الأهالى على تقديم الدواب والسواقين ، وكذلك السفن التى تنقل الرجال والسلع لحساب الدولة · لم يبطل الرومان أبدا هذا النظام ، وانما حاولوا أن يضعوا له قواعد ونظما ثابتة ، ولكن دون جدوى ، اذ طالما بقى هذا النظام فى الوجود ، كان لزاما أن يأتى بنتائج وخيمة · أصدر الحكام أمرا اثر أمر ، وجهدوا مخلصين أن يصلحوا نظاما لازمه بطبيعته الاضطهاد وارضاء الأهواء . ومما هو جدير بالذكر أن أول عمل لجرمانيكوس فى مصر هو نشر قرار خاص بهذا النظام . ولكن بقى لهذا النظام عسفه وظلمه · وينطبق عين هذا القول على طلب الأغذية الاضافية والأشياء الأخرى التى تحتاجها الدولة فقد كان ذلك استيلاء بحتا . وان اتخذ شكل شراء قسرى ، وان أشرف عليه كبار الضباط · ولكن طبيعة النظام جعلت منه عبئا لا يطاق · (٣٤)

وكذلك لم يختف مبدأ مسئولية الموظفين المالية فى مصر فى عصر الرومان . كان أكثر موظفى البطالمة من عمالهم الخصوصيين الذين يتقاضون أجورا · فان امتدت أيديهم الى السرقة والاختلاس ، أمكن أن يحاكموا وأن تصادر أملاكهم ، ولكن عملهم من ناحية المبدأ كان خدمات شخصية مأجورة · الا أن مبدأ الزام كل فرد خدمة الدولة ، ان احتاجت اليه ، وان لم يقبض أجرا ، لم يمت قط فى مصر . ومن الممكن أن صغار الموظفين الذين جندوا من بين صفوف المصريين لم يقبضوا أجورا ما حتى فى عصر البطالمة · ومهما يكن ، فقد احتفظ الرومان فى بادىء الأمر بما

كان سائدا فى عصر البطالمة ، ثم وجدوا تدريجا أنه أقل نفقة وأكثر ملاءمة، فأنقصوا من عدد الموظفين ذوى الرواتب ، وأكثروا من أولئك الذين طلبوا اليهم أن يقدموا خدماتهم للدولة دون أجر . وبهذا أدخلوا نوعا من العمل القسرى وقع على كاهل الطبقات العليا والفنية التى أعفيت من أعمال السخرة اليدوية التى أجبرت الطبقات الدنيا على القيام بها . ولقد أظهر البحث الدقيق الذى قام به أويرتل (Oertel) سرعة تطور هذا النظام الذى سار بازاء نمو الطبقة الوسطى فى مصر (وهو ما تحدثنا عنه فى الفصل السابق) . ولم ينته النصف الأول من القرن الثانى بعد الميلاد الا وهذا النظام قد تم تطوره فأصبحت كل الوظائف فى مصر على وجه التقريب « خدمات » ، أعنى أن من يتربعون فى دستها لا يقبضون أجورا، ولكنهم مسئولون عن تأدية أعمالهم بدقة ، ومعنى ذلك فى الادارة المالية أن الموظف يسأل عن الخسارة التى تلحق الدولة . فاذا لم تدفع ضريبة ، أو استحال استخلاصها ممن يجب عليه اداؤها ، أجبر الموظف على دفعها. فان لم يستطع ، صودرت أملاكه وبيعت . ومن المحتمل أن يكون لهذا النظام اتصال بتطور « الالتزام » عندما حل موظفو الدولة تدريجا محل « الملتزمين » ، وورثوا عنهم مسئوليتهم عن قيمة الضرائب كاملة ، تلك الضرائب التى كان على الأهالى أداؤها (٣٥) .

سار تطور نظام الخدمات فى مصر على هذا النحو . وكان أساسه السخرة والمسئولية عن الخسارة التى تصيب الدولة . وفى تاريخ قديم جدا نلحظ امتداد هذين المبدأين الى الولايات الأخرى المتأغرقة . أما السخرة فقد أخذها الرومان عن أسلافهم فى أرجاء الشرق ، ولم يدر بخلدهم قط أن يبطلوها ، بل على العكس نقلوها الى بلاد اليونان والى الغرب . ويتضح النظام الذى كان متبعا فى المشرق مثلا من تلك القصة الشهيرة التى جاء ذكرها فى الانجيل من تسخير سيمون (من أهالى

برقة) فى حمل صليب المسيح فى طريقه إلى جاجثه (Golgotha) . وقد استعملت الأناجيل للتعبير عن هذا العمل القسرى لفظ انجارويين (angareuein): أجبر سيمون على القيام بخدمة (انجاريا angareia). وعندما نجد أن لفظ انجاريا هذا استعمل فى المصادر القانونية فى أرجاء الامبراطورية فى العصر المتأخر ليدل على تكليف الأهالى بتقديم الدواب والسائقين لنقل أمتعة الدولة ، يتضح لنا أن هذه الكلمة وهذا النظام الذى تدل عليه ورثهما الرومانيون ولم يبتدعوهما [٣٦] .

وعلى هذا فليس من ريب فى أن نظام العمل القسرى من أجل الدولة كان ذائعا فى جميع أنحاء آسيا الصغرى وسوريا قبل العصر الرومانى بوقت طويل . وفى الأيام الأولى من حكم الرومان — اذا أغضينا عن فترة الحروب الأهلية — لا نسمع الشىء الكثير عن تطبيق هذا النظام . الا أن من المحقق أن هذا النظام بقى ، ولا سيما فى وسائل النقل ، والتجأت الحكومة الرومانية اليه كلما أصبح من الضرورى نقل عدد كبير من الرجال والأمتعة فى ايطاليا والولايات . وليس الأمر مجرد اتفاق أن أحد قرارات الامبراطور كلوديوس(*) يبحث فى أعباء النقل الثقيلة التى ألقيت على كاهل ايطاليا والولايات ، وهو ينهج عين السبيل الذى سار عليه حكام مصر فى قراراتهم ، فيحاول أن ينظمها وأن يخفف من آثارها السيئة على رخاء الامبراطورية . ويظهر من قرار كلوديوس أن هذا النظام الشرقى نقل الى بلاد اليونان والى أجزاء الامبراطورية فى المغرب بما فيها ايطاليا ؛ وربما حدث ذلك أثناء الحروب الأهلية . وفى وصف پلينى لرحلات دومتيان نجد مثلا حسنا لوقع هذا النظام على أهالى الامبراطورية الوادعين . وتدل الشواهد المتفرقة التى أوردناها فى هذا

(*) أشرنا إليه فى الفصل الثالث ، هامش ٢ .

الفصل فيما يتصل بحروب تراجان وهادريان ورحلاتهما على أن هذين الامبراطورين استخدما هذا النظام عينه فى أوقات الطوارىء . وتشهد بعض الاشارات الأخرى على استخدام القسر والاستيلاء فى اطعام الجيش ، وفى مد الجنود والضباط بالمأوى والمؤنة .

ألقى عبء العمل القسرى والاستيلاء فى آسيا الصغرى وسوريا ، كما فى بلاد اليونان والغرب ، بعد أن أكثر الأباطرة من بناء المدن فى أكثر هذه البلاد ، لا على الأفراد ولا على الجماعات كنقابات المهن ، كما كانت الحال فى مصر ، ولكن على الوحدات الادارية فى الامبراطورية ، أى على المدن . وأصبح حكام البلديات ومجالس المدن هى الهيئات المسئولة ، وكان عليها أن توزع العبء بين سكان المدينة ومنطقتها . وكان مغزى ذلك أن من حملوا العبء حقا ، لم يكونوا من الطبقات الحاكمة ، ولكن ممن يفلحون الأرض فى أنحاء الريف ومن العمال فى المدن ، ولا سيما من الصنف الأول : لم يقم قط ملاك الأراضى وأصحاب الحوانيت بأداء الواجبات القذرة (sordida munera) . وكما كانت الحال فى روسيا فى العهد القديم — وفيها نجد أحسن مثل حديث لهذا الجانب من الحياة فى العالم القديم — عرفت الطبقات الممتازة كيف تهرب من أمثال هذه الأعباء وكيف تلقى بها على أكتاف الفلاحين ، حتى عندما يكون الالزام ، كما هى الحال فى تشييد الطرق ، واقعا لا على الأفراد بصفتهم أفرادا ، وانما على أملاكهم العقارية . ومن الطبعى أن يحتمل الأسخياء النفقات فى بعض الأحيان ، ولكن أمثال هذه الحالات كانت نادرة ، ولندرتها ورد ذكرها فى النقوش بين الفينة والفينة . ومن السهل أن ندرك ثقل هذه الأعباء الاضافية على الأهالى . كانت الضرائب على فداحتها فروضا منظمة يمكن معرفتها وعمل حساب لها . ولكن الناس لم يكونوا يعرفون متى يجىء حاكم رومانى أو أحد موظفى المدينة فيطلب من القرية رجالا

ودوابا أو يتخذ من دورهم مأوى وسكنا . وكانت تنقلات الجيوش الجرارة ورحلات الأباطرة وما يحيط بهم من حاشية كبيرة من المآسى الحقيقية . وكانت تساق الدواب ، وهى المصدر الأساسى لأرزاق الفلاحين ، استثمروا فيها كل ما ادخروا تقريبا وهو ثمرة كدهم سنوات طويلة ، فتلقى معاملة سيئة وعلفا قليلا ، ثم ترد — ان ردت على الاطلاق — مع سائقيها فى وقت ربما كانت حاجة المالك اليها قد فاتت .

شعر الأباطرة بسيئات هذا النظام : وقد اقتطفنا فيما مر قرار كلوديوس وما يشابهه من الوثائق التى عثر عليها فى مصر . كان النقل طبعا أمرا حيويا جدا ، وطالما اعتمد على نظام الاستيلاء ، كان لزاما أن يضحى سرطانا فى نظام الامبراطورية الاقتصادى . غير أن الأباطرة لم يفكروا قط تفكيرا جديا فى ابطال هذه السنة الشرقية . وفيما يتصل بالنقل البحرى ، لجأوا الى ما وجدوا من سفن الأسطول التجارى ، وعالجوا الأمر بطريقة عملية خالصة . كانت جمعيات التجار وأصحاب السفن أو أفراد من هذه الجمعيات يعملون للدولة على نفس النهج كما لو كانوا يعملون لأى زبون آخر وفقا لعقود خاصة . ولكن ان مست حاجة الى خدمات أصحاب السفن على نطاق واسع ، كما فى زمن الحرب مثلا ، طبق عليهم نظام الاستيلاء والعمل القسرى دون رحمة أو شفقة كما كان يطبق على النقل البرى . والحق أن الأباطرة منذ زمن هادريان كثيرا ما منحوا امتيازات الى جمعيات التجار وأصحاب السفن ، مما يدل على أن أمثال هذه الامتيازات كان الغرض منها تعويضهم عن العمل الجبرى الذى أدته الجمعيات للدولة (٣٧) . لكن لم يكن هناك وجود لجمعيات من نفس هذا الطراز فى النقل البرى . كانت هناك حقا فى مصر رابطات خاصة لأصحاب دواب الحمل ، ويمكننا أن نفترض أنها كانت تعمل للدولة كما كانت تشتغل لأى عميل آخر . وقد وجدت منظمات من

هذا الطراز عينه فى بعض المدن فى الامبراطورية الرومانية . ولكن هذه المؤسسات لم ترق الى شيء يمكن مقارنته حتى بجمعيات التجار البحريين وأصحاب السفن ، بله شركات النقل الحديثة . وعلى هذا ، قام النقل البرى دائما فى مصر كما فى الولايات الأخرى على العمل القسرى. وقد واجه نرفا وهادريان ، ومن بعدهما أنطونينوس پيوس واسكندر سيڤيروس ، طرفا من هذه المشكلة — أعنى نقل الرسائل الحكومية وموظفى الدولة ، وهو ما يعرف بالبريد العام (cursus publicus). كانت الفكرة هى أن تستولى الدولة على المنظمة ، وأن تجعل منها مصلحة حكومية . وربما حدث بعض التقدم فى السير بهذا الفرع من الادارة فى طريق الرقى على نهج بيروقراطى . ولكن ليس من المحقق ، على ما يظهر ، أن ادارة حكومية نظمت حقا فى يوم من الأيام وضمت جمعا غفيرا من الرجال وعددا كبيرا من الدواب استخدم فى هذا الغرض ، وفى هذا الغرض وحده . وقد بقى أس هذا النظام ، كما استمر فى روسيا أجيالا عديدة ، هو قسر الأهالى الذين يعيشون بالقرب من الطرق على هذه الخدمة الجبرية . وحتى لو سلمنا بأن البريد (cursus publicus) كانت تديره الدولة ، فنقل الأمتعة وتقديم الوسائل لنقل الجيوش بقيا فعلا يرتكزان كلية على السخرة (٣٨) .

ولكن هذا وجه واحد من الصورة فقط . فلم تكن فكرة الخدمات غريبة عن أنظمة المدن المستقلة . وكانت تنتظر من مواطنيها ، كما هو معروف ، أن يقدموا لها العون فى الأوقات الحرجة من مواردهم المالية وأعمالهم الجثمانية . ولكن السخرة بقيت نظاما شاذا فى حياة المدن المستقلة ، تلجأ اليها فى أوقات الطوارىء وحدها . ولقد سرى فيها عرف أشد رسوخا وتأصلا من السخرة ، وهو مطالبة أغنى المواطنين أن يقدموا تبرعات اضافية ، عرفت باسم الخدمات ، لسد حاجات الدولة الحيوية —

تبرعات لاطعام السكان فى زمن القحط ، وقروض اجبارية لسداد الديون الحربية وما شاكلها ، وأموال لبناء السفن أو لتدريب الجوقات فى الألعاب وما أشبه . لقد حدث تطور عظيم فى حياة البلديات فى العصور الهيلينستية والرومانية . وكلما أصبح الدور الرئيسى فى الحياة السياسية فى المدينة امتيازا من امتيازات الطبقات التى تملك العقار ، انتظر الناس منهم أن يدفعوا من أموالهم الخاصة ما يسد حاجة المدينة . وقد اختفى تدريجا الفرق بين المناصب (ἀρχαί) والخدمات (λειτουργίαι) والفرق بينها كالفرق بين (honores) و (munera) فى الغرب . وأصبح ينتظر من كل حاكم فى مدينة ما أن يدفع ثمن الشرف الذى أسبغ عليه ، بغض النظر عن قيامه بخدمات حقيقية ، اتخذت تدريجيا شكل الوظائف العامة . كان العبء ثقيلا ، ولكنه طالما لم يزد عن حده ، احتملته الطبقات الغنية عن طيب نفس وبروح وطنية تستأهل الاعجاب . غير أنه منذ أواخر القرن الأول أصبح من الصعب يوما بعد يوم — حتى فى الولايات الغنية فى الشرق — أن يوجد رجال على استعداد أن يخدموا مدينتهم دون أجر ، بل بتضحية مادية . وفى الغرب ، فى أسبانيا مثلا ، من أول لحظة وطدت فيها أركان الأنظمة البلدية فى الأجزاء الفقيرة من البلاد ، اتخذ من الوسائل ما يكفل اختيار العدد الضرورى من الحكام وأعضاء مجالس المدن قسرا ، ان دعت الحاجة (٣٩) .

وقد زاد من سوء الأحوال ذلك الدور الذى كان فرضا على المدن أن تقوم به فى نظام الامبراطورية المالى . سارع الأباطرة الى الغاء النظام الجمهورى الذى يعطى حق جباية الضرائب المباشرة — ضريبة الأرض والجزية — الى شركات من الجباة الملتزمين (publicani) . وأول من رمى هذا النظام بسهم أصماه هو يوليوس قيصر ، ثم تبعه أغسطس وتيبريوس ، فسارا على نفس المنهاج . فاختفت تدريجا شركات الجباة فى الولايات

فيما يتصل بالضرائب المباشرة . وأخذ مكانها فى المدن الحكام ومجالس الشيوخ . وقد ابتهجت المدائن بالخلاص من ظلم الجباة الملتزمين (publicani). فقد نالت نصيبها من الآلام كاملا فى معاملاتها مع هذه الحيتان المفترسة. ولهذا تاقت الى معاونة الدولة فى جباية الضرائب من منطقتها . ولسنا ندرى ان كانت هذه المعاونة جرت معها من أول لحظة مسئولية عن أى نقص فى حصيلة الضرائب التى تدفع الى الخزانة . وقد يكون هـذا محتملا أشد الاحتمال ، لأن الدولة كان لابد لها من ضمان دخلها ، وقد اعتادت أن تجد مثل هذا الضمان فى شركات الجباة . ولما كانت الضرائب المباشرة عادلة ، فلم يكن عبء جبايتها ثقيلا على الطبقة الوسطى فى المدينة، بل على العكس من ذلك ربما جنوا من جبايتها فائدة ولو يسيرة . وكان تقدير الضرائب من عمل الحكومة المركزية دائما ، ولكن القيام بذلك العمل لم يكن من المستطاع دون معاونة من المدن . ومن المحتمل أنه قد أتيحت فرص للرؤساء والعظماء أن يحصلوا على بعض التخفيض فى تقدير أملاكهم [٤٠] .

ولكن مسئولية الرأسماليين فى البلديات امتدت تدريجا الى الميادين الأخرى . استمرت جباية الضرائب غير المباشرة فترة فى أيدى شركات الجباة . ولكن الأباطرة راقبوهم بعين ساهرة . وكان هناك المراقبون المعينون من قبل الأباطرة يدفعون الحيف عن دافعى الضرائب ، كما يرعون صالح الخزانة . وقد اطرد التوسع فى اختصاصاتهم فى هذا السبيل ، حتى منحوا قدرا معينا من الاختصاص القضائى ، ولا سيما فى عهد الامبراطور كلوديوس . ومع ذلك فقد بقيت جباية الضرائب غير المباشرة نقطة الضعف فى الادارة المالية فى الامبراطورية . ويظهر أن شكوى الجمهور منها لم تنقطع . وهذا هو السبب فى أن نيرون فكر ، عندما تملكته عاطفة البر ساعة من زمان ، كما كانت عادته ، فى ابطال الضرائب غير المباشرة . ولكنها

بقيت ، وبقى معها أيضا نظام جبايتها . والتغيير الوحيد الذى حدث — ويحتمل أنه أدخل لأول مرة فى زمن ڤيسپاسيان ، وكان أبوه من الجباة ، ثم كمل تطوره بعد ذلك فى زمن هادريان — هو ابعاد الشركات ، وكانت على أى حال فى طريقها الى البوار ، واستبدالها برجال أثرياء يحتلون مركزا وسطا بين الجابى والمراقب . وأهم ما يميز مركز هؤلاء الجباة الجدد ، هؤلاء المتعهدين (conductores) هى مسئوليتهم عن أداء الضريبة كاملة . ولما كان المنصب فى نفسه لايدر أى كسب ، وكانت مسئوليته جد ثقيلة ، لاقت الحكومة صعوبة تزداد يوما بعد يوم فى الحصول على رجال يقبلون هذا المنصب ، فلجأت تدريجيا الى القسر والى اعتبار جباية الضرائب عبئا أو خدمة أو واجبا (munus) . ولم يكن هذا النظام جديدا من جميع وجوهه ، لأن البطالمة سبقوا الرومان الى استخدامه . ولكن الرومان طبقوه دون تخاذل أو تردد ، كما لم يطبق من قبل . وانى أميل الى الظن بأنه فى عين هذا الوقت — بعد عصر ڤيسپاسيان ، ولا سيما فى زمن هادريان — استقر نظام تأجير الضياع الملكية الشاسعة الى متعهدين (conductores) اذ أن هؤلاء نظر اليهم على أنهم مندوبون يقبضون الأجرة (بما فى ذلك ضريبة الأرض) من المستأجر نيابة عن الامبراطور [٤١].

وكانت مسئولية الأفراد عن تحصيل الضرائب وقيام صغار المستأجرين بالأعمال الجبرية — وهذا الزام وقع على المتعهدين فى الضياع الملكية — من الخواص الجديدة التى ميزت العلاقات بين الدولة والطبقة البورجوازية . وربما كان الأخذ بهذا المبدأ يعود الى تجاريب الأباطرة فى مصر ، فقد ساد فيها من أقدم الأزمنة مبدأ مسئولية الأغنياء مسئولية فردية عن أولئك الذين كانوا أضعف منهم من الناحية الاقتصادية . وقد أخذ الأباطرة الى حد ما بهذا المبدأ من أول سيطرتهم على مصر . وامتد هذا النظام شيئا فشيئا الى علاقات الدولة والمدن . ولسنا ندرى الا القليل التافه عن تطور

هذا النوع الجـديد من العلاقات . غير أنه فى القرن الثالث والقرون التالية أصبحت السيادة للمبدأ الجديد . ولم يعد الحكام ومجلس المدينة يسألون بالتضامن عن جباية الضرائب وعن الأتاوات الاضافية وعن قيام الأهالى بالأعمال القسرية . وحمل المسئولية الآن أفراد من الأغنيـاء حقيقة ، أو الأثرياء فرضا ، وكان عليهم أن يدفعـوا ما تأخر أداؤه والا فقدوا أملاكهم التى اما أن تصادرها الدولة ، أو ينزل عنها مالكها طوعا أو يتنازل عن جزء منها [٤٢] . والظاهر أن فى مدن الغرب كان هناك جماعة من أعضاء مجالس الشيوخ ، هم العشرة الأوائل (decemprimi) يسألون قبل غيرهم عن جباية الضرائب العادية ، أما تحصيل الضرائب الاضافية (annona) والقيام بالأعمال الجبرية فيسأل عنها رجال عينوا خصيصا لحمل هذا العبء . وفى جميع أرجاء الشرق نجـد أدلة كثيرة مستقاة من المصادر الفقهية ومن النقوش أيضا وهى تبرهن على أن مسئولية جباية الضرائب العادية وقعت على كاهل جماعة خاصة من أغنى الرجال هم العشرة الأوائل (δεκάπρωτοι) . وقد حل محلهم فى بعض الأماكن العشرون الأوائل (εἰκοσάπρωτοι) . وهؤلاء الرجال ومراقبو المدن ، أو المحاسبون (λογισταί) كما كانوا يسمون فى المشرق ، قد أصـبحت مناصبهم تدريجيا من أعباء البلديات العامة ، وكانوا هم الرجال المبرزين، وكانوا أكثر الناس احتمالا للأذى فى جميع الهيئات فى المشرق ، لا نستثنى من ذلك مصر التى نشأت فيها البلديات فى وقت متأخر(*) [٤٤] .

يكتنف الغموض أصل هذا النظام . وتبرهن الأدلة التى ترجع الى الأزمنة الأولى ، وهى قليلة ، على أنه قد جرت العادة فى بعض الأماكن سواء فى الشرق والغرب أن يعطى لقب العشرة الأوائل الى أعظم الأعضاء

(*) أنظر الفصل التالى .

فى مجلس المدينة أو الى أعظم المواطنين على وجه عام . ولسنا نعرف شيئا عن تطور هذا النظام فى الغرب . أما فى الشرق ، ولا سيما فى آسيا الصغرى ، فقد بدأ لقب أحد العشرة الأول (δεκάπρωτος) فى الظهور فى النقوش فى أوائل القرن الثانى بعد الميلاد واستعمل أولا للدلالة على خدمة من نوع متواضع واقترن كثيرا بذكر الخدمات المقدمة للامبراطور (κυριακαὶ ὑπηρεσίαι) وهو تعبير يشير لا إلى خدمات قدمت إلى الدولة ، وانما الى خدمات قدمت الى الامبراطور من أحد حكام المدينة أو من منعم (λειτουργός) فى داخل المدينة ، وربما ارتبطت هذه الخدمات بمنصب أحد العشرة الأول (δεκάπρωτος) . وفى بعض النقوش يذكر الواجب لا على أنه يأتى كل سنة ، ولكن على أنه يأتى كل خمسة أعوام . وفى نقش يرجع الى زمن ماركوس أورليوس نص على أن هذا الواجب هو جباية ضريبة خاصة فرضها الامبراطور عندما أغار الباستارنيون (Bastarnai) على آسيا الصغرى . والظاهر أن العشرة الأوائل كانوا هم أهل البر (leitourgoi) فى البلديات ، وكان عليهم أن يقوموا بما تطلبه الحكومة . وكان من واجبهم أصلا مراقبة الأعباء غير العادية التى تفرض على المدينة وعليهم تقع مسئوليتها . ومن المحتمل أيضا ، على ما يظهر ، أن انشاء هذا النظام عاصر تعيين مراقبى المدن ، وكان وثيق الصلة بتلك الأوقات الحرجة أثناء حروب تراجان وبعدها. وقد زادت أهميته فى العصور المتأخرة وامتد الى أجزاء المشرق الأخرى فأصبح حملة اللقب على رأس « أهل البر » (leitourgoi) فى المدن ، وعليهم تقع مسئولية جباية الضرائب العادية نيابة عن الحكومة [٤٥] .

فالظاهر اذن أن الانتقال من مبدأ المسئولية التضامنية الى المسئولية الفردية تم فى القرن الثانى ، وأنه ارتبط بالتغيير العام فى سياسة الأباطرة نحو المدن ، ذاك التغيير الذى يظهر بوضوح ، مثلا ، فى تعيين مراقبين

خصوصيين (curatores) للمدن ، ومراقبين خصوصيين لرءوس أموالها المستثمرة(curatores kalendarii).ولقد لاحظنا أن المدن لم تستطع القيام بواجبها نحو الدولة فى زمن تراجان وما مر به من أزمات ، وفى عهد ماركوس أورليوس أيضا . وكثيرا ما طالبوا بالاعفاء من المتأخر وبتخفيض الضرائب . وعندما قبل هادريان وماركوس أورليوس منح الاعفاء والتخفيض كانا يحاولان بعث تحسين دائم فى مركز المدن . واتخذ السبيل الذى سلكاه شكل رقابة جدية على ادارة الأمور المالية ، واستحدثا تدريجا مبدأ المسئولية الفردية . وفى القرن الثالث وطد القانون أركان هذا التجديد ، فصار الأساس الذى قامت عليه سياسة الامبراطورية من وجهة النظر الاقتصادية .

وقد كانت الطريقة التى سلكها الأباطرة لتحسين الادارة المالية فى الامبراطورية قاتلة لا محالة ، اذ حاولوا أن يوجدوا باحدى يديهم طبقة وسطى سليمة ، وأن ينشئوا مراكز جديدة للحياة المتحضرة ، ثم قضوا باليد الأخرى على عملهم بالابقاء على نظام مهلك من سخرة واستيلاء وكلف اضافية وتطبيق مبدأ مسئولية الغنى عن الفقير تطبيقا عمليا هدم الروح المعنوية وقضى على الرخاء المادى لأكثر العناصر نشاطا فى مدن ايطاليا والولايات . ولما كان دخل الدولة العادى غير كاف لسد حاجاتها فى أوقات الطوارىء ، لجأ الأباطرة ، بدلا من زيادة الضرائب بطريقة حكيمة — اذ أنهم كرهوا زيادتها — الى وسائل أشد فتكا ، فهاجموا رأس المال بدلا من الدخل ، وهو ما كانوا يفعلون من قبل . فكانت النتيجة وبالا . فمنذ زمن تراجان لم يكن فى بيثينيا الا عدد قليل من الرجال الراغبين فى تحمل الأعباء الثقيلة فى خدمة البلديات . وهذا القول عينه ينطبق أيضا على ايطاليا . وقد يمكن البحث عن تفسير لذلك فى الدور الذى وقع على ايطاليا ، ولا سيما ميناء أكويليا والذى لعبته بيثينيا فى حروب تراجان .

ولكن بعد ذلك بوقت قصير وفى عهد أنطونينوس توسلت مدينة ترجيستى (Tergeste) ، وهى ترزح تحت أعباء الخدمات ، الى الامبراطور أن يمنح حق التوظف (ius honorum) الى أفراد القبائل الملحقة وهى كارنى (Carni) وكاتالى (Catali) . ولما أجاب الامبراطور التماسهم قدموا له فروض الشكر فى خشوع وذلة . وقد حدث كذلك فى القرن الثانى عينه ان ابتدعت بعض الوسائل العامة كان القصد منها ، على ما يظهر ، جعل الخدمات العامة أكثر جاذبية ، ومن أمثلة ذلك نظام لاتيوم الأكبر (Latium maius) . وفى زمن ماركوس أورليوس كان المرض قد استفحل الى درجة أن بعث ترفيه عديم الأهمية منحه الامبراطوران الى البلديات فى الغرب فى شأن حلبات المصارعة تعبيرات تكاد تكون جنونية على لسان أحد أعضاء مجلس الشيوخ ، وكان أصله من الولايات . فقال فى خطبته فى مجلس الشيوخ : « انى أقترح اذن أن نرفع شكرنا الخاص الى الامبراطورين اللذين لم يلتفتا الى صالح الخزانة الخاصة وبوسائل شافية أعادا العافية الى المدن التى أصابها الضنى ، وأقالا حظوظ وجوه الرجال التى وقفت ترتعد على شفا الخراب الشامل » (٤٦) .

اننا لا نستطيع أن نتحدث عن شعور الطبقات الدنيا . ولكن ما قلنا عن الثورات فى عصر ماركوس أورليوس يدل بوضوح على أن السخط كان ينمو ويتزايد . وفى العصور المتأخرة وفى وسط الجو الذى ساد القرن الثالث عندما أخذ أولئك الذين يرفعون ضراعاتهم يوقنون بأنهم سيحظون بأذن صاغية من الامبراطور دون حاجة الى وساطة موظفى المدن والدولة ، بدأوا يرسلون الى رومة وابلا من الشكايات عما يلقون من معاملة سيئة لا مثيل لها . وسنتكلم عن هذه الشكاوى فى الفصول التالية .

الفصل التاسع

الملكية العسكرية

قام حكم الأنطونينيين الصالح ، كما رأينا ، على معونة المثقفين من الطبقات العليا فى جميع أرجاء العالم الرومانى ، وكان يستهدف تقوية هذا الأساس ، ما أمكنه ذلك ، بدعم هذه الطبقات ، ورفع مستوى الحياة بين الطبقات الدنيا ، ونشر حضارة المدن فى جميع أنحاء الولايات . وكان لذلك نتائج هامة بعيدة المدى . فزادت قوة مجلس الشيوخ فى رومة زيادة عظيمة ، وهو بحكم تكوينه يمثل خلاصـة الطبقات المثقفة فى الامبراطورية . الا أن قوته هذه لم تكن قوة سياسية : فقد قبض الأباطرة على ناصية الادارة والتشريع ولم يخطر ببال أحدهم أن يمنح مجلس الشيوخ نصيبا فيهما . ولكن قوته المعنوية ، أعنى نفوذه بين الطبقات المثقفة استمر فى الزيادة : وقام مركزه على أن مجلس الشيوخ هو خير من يمثل أمانى الطبقات المثقفة ، وكان نهج مجلس الشيوخ متفقا مع تلك الأمانى . وكل من يقرأ رسائل پلينى يدرك رفعة المستوى والمطالب التى كان على أعضـاء المجلس أن يضـعوها نصب أعينهم وألا يحيدوا عنها كى يبقوا على مقام مجلسهم . ولن نستطيع أن ننكر أن عددا كبيرا من أعضاء مجلس الشيوخ ارتقوا الى هذا المستوى ، وأن المجلس كان هيئة تشعر بما لها من مكانة وما عليها من واجب نحو الامبراطورية .

ولما اعتلى كومودوس عرش الأباطرة بعد موت ماركوس أورليوس، رنا مجلس الشيوخ نحو الامبراطور الجديد بعين لا تعرف العطف والرضا . وذلك لأن ماركوس عندما أشرك معه ابنه فى السلطان وترك له وراثة العرش من بعده خرج بذلك على تقليد وطيد الأركان سار عليه الأباطرة ما يقرب من قرن . وكان كل امرىء يعرف أن كومودوس خلف ماركوس على سرير الملك ، لا لأنه أصلح رجل بين أعضاء طبقة مجلس الشيوخ ، ولكن لأنه ابن ماركوس . وهذا يعلل لم عجل أفيديوس كاسيوس فى محاولته الاستيلاء على العرش عندما حملت اليه الشائعات نبأ (ظهر كذبه فيما بعد) أن ماركوس قد مات . وطالما ظل ماركوس على قيد الحياة ، كان له من سمو نفوذه ما لا يسمح بأى معارضة له . ولم يكن لكومودوس ما يعدل مركز أبيه ، ثم ان أعماله الأولى أثارت عليه السخط فى مجلس الشيوخ . فقد أسرع فى عقد صلح — مخالفا آراء أحسن قواد عصره ، وبالرغم من أن خطط أبيه كانت واضحة محددة ، بل فى أثناء عمليات حربية لم تكن قد أنتجت بعد نتائج دائمة — وأظهر استعداده أن يشرى سلما مشينا ، ان دعت الى ذلك ضرورة ، وأقام مهرجانا باهرا للنصر بعد سلام كهذا ، وأغدق هباته على جنوده ، بينما كانت مالية الامبراطورية فى أحرج حال ، وعاش فى مرح ولهو قبل النصر وبعده وفى أثنائه ، كل ذلك لم يكن من شأنه أن يوجد علاقات حسنة بين الامبراطور وبين مجلس الشيوخ [1] .

اننا نمسك عن التحدث مرة ثانية عن كل ما حدث أثناء حكم كومودوس . لم يكن لديه حقا أدنى رغبة فى أن يسلك طريقا يقربه من التفاهم مع مجلس الشيوخ ، بل أظهر فور توليته عنفا وقسوة ، وبدأ حكما يزخر بالمحاباة . وكان رد مجلس الشيوخ هو تدبير مؤامرة ضده . ولما لم تنجح هذه المؤامرة ، أضحى فشلها مبدأ لفترة ارهاب

دمغت السنين التالية من حكمه . بدأ كومودوس ، كما فعل دومتيان من قبل ، بشن حرب شعواء على مجلس الشيوخ . وكان لابد له فى عمله هذا من أن يبحث لنفسه عن أعوان فى جهة أخرى ، فوجه وجهه طبعا شطر جنود الحرس البريتورى وجيــوش الولايات . وأحسن ما يوضح جهاده ليكسب انضمام الحرس البريتورى الى جانبه هو قتله لكثيرين من رؤسائهم وعزل عدد كبير من ضـــباطهم من القيادة ، وقد اتخذ ذلك بالتدريج صفة الرقص على البارود (danse macabre)— قتل پاترونوس وپيرينيس وعددا كبيرا من قادتهم بين پيرينيس وكلياندر، ثم كلياندر نفسه ويوليانوس وريجيلوس ولايتوس ، وكل هؤلاء ماعدا الأخير راحوا ضحية ظنون الامبراطور وارتيابه . ولكى يحظى بولاء الحــرس البريتورى وجيــوش الولايات أكثر من منحهم الهبــات (congiaria) ، ورفع مرتبات الجنود فى آخر حكمه دون أن تكون هناك ضرورة تدعوه الى ذلك [٢] . وكان من نتيجة الارهاب طبعا تدبير عدة مؤامرات زادت الحال سوءا . ولسنا نعرف بالتأكيد الى أى حد كانت الاضطرابات الخطرة التى قامت فى اسبانيا وبلاد الغال وافريقية ترجع الى دعاية سياسية . ومن المرجح أنها نتجت عما أصاب الولايات من استنزاف عام لمواردها ومن ثقــل الضرائب عليها ومن التجنيــد الاجبارى ومن التهاون فى النظــام الحــربى بين الجنــود وضباط الامبراطورية عــلى الســواء [٣] . وهنــاك ما يدعــو الى الظن بأن الاضطرابات التى شبت فى أفريقية كان لها ارتباط بالحالة الشاذة التى سادت فى مصر والتى هددت بحرمان رومة من موردها الذى تعتمد عليه فى الحصول على الحبوب ، وما قابل ذلك من ازدياد الضــغط على أفريقية لتعويض النقص . وقصــة كلياندر وپاپريوس ديونيسيوس ، رئيس المؤن (praefectus annonæ) ، تبين بجــلاء أن جلب المــؤن

لم ينتج من الاضطراب . ويجب أن نلتفت الى أن كومودوس نظم فى أواخر حكمه أسطول أفريقية الذى كان ينقل الحبوب فجعله على نسق أسطول الاسكندرية ، وقد كان من أثر ذلك أن تدخلت الدولة فى شئون هذا الأسطول الى أكبر حد [٤] .

الا أن دعاية قوية بثت حقا ضد الامبراطور لا فى العاصمة وحدها بل وفى أكبر مدن الولايات . وكانت كلمة السر هى بعينها التى جرت على أفواه الناس فى زمن الفلاڤيين . قورن بين طغيان كومودوس وعدل أبيه فى ملكه ، ودمغ كومودوس بأنه المثال النموذجى للطاغية وبأنه خلف منحط لآباء عظام . وهناك ما يشير الى أن الفلاسفة نشطوا مرة أخرى يلعبون دورهم فى بث هذه الدعاية . فبعد مصرع كومودوس قتل الحرس البريتورى أحد الفلاسفة شر قتلة . وقد لجأ أعداء كومودوس فى الاسكندرية الى اذاعة النشرات السياسية التى تكلمنا عنها فى فصل سابق (*) . وللمرة الثانية قدم بعض نبلاء الاسكندرية للمحاكمة أمام الامبراطور فى رومة . ومن الممكن أن يكون لهذه الاضطرابات صلة بالارهاب الذى شاع فى العاصمة وفى الولايات على السواء ، وربما كان لها ارتباط بمحو سلالة أڤيديوس كاسيوس من الوجود . وقد أفعمت الرواية التى تزعم أنها تصف هذه المحاكمة بموضوعات الفلسفة الكلبية أكثر من غيرها . فالنغمة السائدة فيها هى : « كومودوس الطاغية » و « ماركوس الملك الحكيم » . ويظهر فيها مجلس الشيوخ وله شرعا الفصل فى المسائل الجنائية ، وتقارن عدالته باتباع كومودوس لما تملى عليه أهواؤه [٥] .

اعتمد كومودوس فى نضاله ضد معارضيه ، كما قدمنا ، على جنوده ، ولا سيما على الحرس البريتورى . ومن جهة أخرى حاول

(*) أنظر الفصل الرابع ، هامش ٣١ .

جاهدا توكيد قدسية سلطانه . وكان هرقل الهه الذى أغرم بعبادته ، وهرقل هو المثل الأعلى لاحتمال النصب والألم فى سبيل اسعاد البشر ، وهو المحارب الأعظم ، وأكبر من صبر على البلاء فى نظر الرواقيين والكلبيين . ولم تكن الصلة بين عبادة هرقل وبين الملكية المتنورة بالشيء الجديد : فقد خص جميع الأنطونينيين هذا الاله بالتبجيل والتعظيم . ولا جدال فى أن كومودوس اختار هرقل الهه وحاميه ، لا لأن كومودوس أغرم بحرفة المجالدين ولكن للرابطة الوثيقة بين هذا الاله وبين الأنطونينيين ، ولأن هرقل كان الاله الذى تمثلت فيه أهم أفكار الملكية المتنورة . وطالما لم يضرب نضال الامبراطور المرير ضد أعدائه حجابا على قلبه ، ظل هرقل يحتل مكان الصدارة ، وأصبح تدريجيا أهم معبود له ، وأضحى حاميه ورفيقه ودليله . ولكن فى اللحظة الأخيرة التى فقد فيها توازنه الذهنى أكد فى الحاح أن الاله حل فيه وأن أى معارضة له تعتبر لذلك اعتداء على ألوهيته . ولا حاجة بنا الى ترديد جميع الوقائع المعروفة عن هذا النهج الذى سلكه كومودوس . ولكن هناك أمرا واحدا لابد من توكيده وهو أن كل أعماله تلك حدثت فى السنين الأخيرة من حكمه ، والأخيرة فقط ، وأن قوله بأنه هو هرقل كان على العموم تعبيرا عن نفس الاتجاه الى تقديس سلطان الأباطرة الذى مال اليه كاليجولا ونيرون ودومتيان . ويجدر بنا أن نذكر أيضا أن عبادة هرقل خصت بالصدارة فى دين الجيش الرومانى ، وأن عبادته قرنت هناك بعبادة الآلهة الأصلية فى الولاية التى حدث فيها ذلك ، وهى منة ربما كان كومودوس أول من سمح بها لجيوش الولايات . ولكن يجب أن نذكر أن أكثر جيوش الولايات تألف فى ذاك الوقت من رجال جندوا فى تلك الولايات التى كانت الجيوش تعسكر فيها . وكان جل

هؤلاء الرجـال من طبقة الفلاحين الذين تعلقـوا على الدوام بدينهم المحلى (٦) .

واذا استثنينا النزاع الذى نشـب بين كومودوس وبين مجـلس الشيوخ وميل كومودوس البين الى الاستعانة بالجنود فى هذا النضال ، فاننا لا ندرى الا القليل عن سياسة هذا الامبراطور . كان من الطبعى أن تنظر الولايات الى السلام على أنه رحمة ، على الرغم مما كدره من الثورات المحلية ، ولكنا لانعرف مبلغ ما أدى الامبراطور الى الولايات . ومما هو جدير بالذكر أن كومودوس سار على النهج الذى بدأه هادريان فى ميله الى الطبقات الدنيا . وقد نظرت اليه هذه الطبقات نظرتها الى حاميها البار بها . وعلى أى حال ، فقد كان هذا هو رأى الفلاحين فى ضياع الامبراطور فى أفريقية ، وقد رزحوا تحت أعباء السخرة وطال بينهم وبين رئيس الضيعة النزاع ، فتقدموا يرفعون شكاياتهم المريرة الى الامبراطور نفسه . وقد حفظت لنا الأيام احدى هـذه الشكايات كاملة تقريبا ، وبقيت لدينا قطعة من شكاية أخرى ؛ ففى الشكاية الأولى نجـد قصة النضـال تسرد من أولها ؛ لقـد حاول مستأجرو البرارى البورونية (Saltus Burunitanus) أن يرفعوا إلى مسامع الإمبراطور شكايتهم ، ولكن شكواهم الأولى لم تصل اليه . والظاهر أن رسالتهم الأولى التى امتلأت بالاتهامات الفظيعة بعثت فى عهد ماركوس أوريليوس اذ أن الوثيقة التى بين أيدينا يرجع تاريخها الى ١٨٣/١٨٥ بعد الميلاد . وربما أتبعوا محاولتهم الأولى بالتوقف عن العمل ، فجر عليهم اضرابهم هذا انتقاما لا رحمة فيه وجردت لهم حملة عسكرية لتأديبهم . أما المحاولة الثانية فقد حالفها حظ أفضل . ومن المحتمل أن نجاح المستأجرين يرجع الى شخصية الرجل الذى وقع عليه اختيارهم ليكون سفيرهم ، وهو لوريوس لوكولوس . ويدل اسمه على أنه مواطن رومانى . ويشهد اهتمامه بأمر

مستأجرى البرارى (Saltus) ، على أنه هو نفسه كان واحـدا منهم ـ
تسلم لوكولوس قرارا ملكيا اجابة على التماسه ، وهذا يبرهن عـلى
عظم نفوذه الشخصى لدى الامبراطور . وانى جد واثق بأن لوريوس
لوكولوس كان جنديا ، وربما كان من الجنود الذين عسكروا فى رومة ،
ولم يكن من بين الحرس البريتورى (لأنه نشأ فى احدى الولايات) ،
ولكنه كان فارسا ممتازا (eques singularis) ، وربما كان من جنـود
التموين (frumentarius) . ونحن نعلم أهمية جنود التموين ونفوذهم ،
وهم الشرطة الحربية السرية فى عصر كومودوس (٧) . ويتبين من اللهجة
التى كتب بها الالتماس روح التذمر التى سرت فى الطبقات الدنيـا .
انهم يضعون ثقتهم فى الامبراطور ، ولكن قلوبهم مفعمة بالكراهية لمن
ظلموهم ، وأعنى بهم رؤساء الضياع والمراقبين . وهم ينادون : « أعنا ،
فنحن قوم ريفيون ، وأناس فقراء لا يكادون يكسبون ما يسد رمقهم
بكد أيديهم وعرق جبينهم . ولذا لا نستطيع أمـام مراقبيك أن نثبت
لرئيس الضيعة ، وهو يتمتع بينهم بعطف كبير لما يمنحهم من الرشـا
الكثيرة ، ولأنه معروف لهم لطول بقائه فى الضيعة ولما لمنصبه من مكانة .
اعطف علينا اذن ، وتفضل بالأمر فى قرارك المقدس » الخ . وفى القطعة
الباقية التى ربما كانت جزءا من الالتماس عينه (الرسالة الأولى) ينذر
المستأجرون باضراب ، هو فرار (ἀναχώρησις) من النوع المصرى حقا .
فهم يقولون : « سنهرب الى مكان يمكن أن نحيا فيه حياة حرة » .
وروح التمرد هذه خاصية تدعو الى الدهش . انهم يطلبون الحماية التى
يمنحها لهم قانون هادريان (Lex Hadriana) ويلحفون فى المطالبة بحقوقهم .
ومن المحتمل أن حقوقهم تلك اعتدى عليها لعسف الحكومة ومطالبها
الجائرة . أخمدت قوة عسكرية اضراب مستأجرى البرارى البورونية ،
وهذا الاضراب لم يكن بالأمر التافه . فان عددا من أمثال هذه الاضرابات

المحلية يمكن أن يقيم ثورة حقيقية ، ربما تطلب القضاء عليها قتالا عنيفا .
وانى لأخال أن ثورة ماترنوس فى غاليا واسبانيا كانت من طراز مشابه ،
وانى لأخال كذلك أن الثورات (Seditiones) التى أخضعها پيرتناكس فى
أفريقية كانت مرتبطة بانفجار السخط والتذمر ، كذلك الذى تشهد به
نقوش البرارى البورونية . أما سلوك كومودوس فليس بأقل مما سبق
اثارة للاهتمام . فهو يجيب على الالتماس اجابة مباشرة . وهو لا يطلب
دليلا آخر ، ولا يبعث بالقضية الى السلطات المحلية ، ولكنه يفصـــل فى
هذا الأمر التافه ، ويصدر قرارا فى جانب الشاكين [٨] .

لم يكن سقوط كومودوس محض اتفاق ، فالمؤامرات العديدة تدل
على أن الطبقات العليا قررت نهائيا التخلص منه . وقد استمدت العون
فى محاولتها هذه من جيوش الولايات . ولقد ارتكب كومودوس عين
الخطأ الذى ارتكبه نيرون ، فأسرف فى الاعتماد على الحرس البريتورى
ورجال الشرطة فى العاصمة ، وأهمل العلاقات الشخصية مع جيوش
الولايات ، فتركها فى أيدى قوادها ، وأكثرهم ضباط محنكون حاربوا
أعداء الامبراطورية من سارماتيين وبريطانيين وعرب وظفروا بهم . فتكرار
الأعطية لحامية العاصمة ، والمنح الأخرى التى نثرها عليهم كومودوس
أغضبت جيوش الولايات ، وأشعلت غيرتهم . وكما حدث فى زمن نيرون ،
بعث ذلك فيهم استعدادا للاصغاء الى قوادهم المقيمين بينهم ورشف
الدعاية التى بثت ضد كومودوس . وقد قامت فى بريطانيا أول ثورة
عســكرية ، ولكننا لا ندرى عنها الا القليل . غير ان اخضاعها لم يكن
بهين على الامبراطور . وأدرك كومودوس الخطر الذى يهدده ، ولكنه
لم يقم بأى جهد لاعادة نفوذه بزيارات شخصية للجيوش التى تعسكر
على الحدود ، اما لشغفه بحياة العاصمة الماجنة ، واما لخوفه من ترك
رومة وشأنها . ففضل أن يمنح الجنود بعض الامتيازات ، بل لقد لجأ فى

اللحظة الأخيرة الى زيادة الأعطيات زيادة عامة ، ولكن دون جدوى ، فالشائعات عن حياته ومجونه وسلوكه الشائن وحبه لسائقى العربات والمجالدين ، تلك الاشاعات التى جهد الضباط فى نشرها ، مكنت قواد أهم الجيوش وهى التى تعسكر فى بريطانيا وپانونيا وسوريا من اعداد الجنود للاشتراك معهم فى اعلان ثورة عسكرية . ولسنا ندرى ان كانت هناك مؤامرة عسكرية حقيقية دبرها القادة العسكريون بالاشتراك مع من يعضد كلا منهم فى رومة ، واشترك فيها كذلك ضباطهم وزملاؤهم . ولكن من المحقق أن الجيش كان على أهبة القيام بثورة عسكرية ، عجلت الحوادث فى رومة فى اشعالها . وحالف النجاح اتفاقا ومصادفة احدى مؤامرات البلاط الكثيرة والتى لم يشترك فيها جنود العاصمة ، وأفلح المتآمرون فى قتل الامبراطور . وارضاء للحرس البريتورى عين من خلف كومودوس لا فى الولايات وانما فى رومة ، ووقع الاختيار على قائد قوى الشكيمة وعضو بارز فى مجلس الشيوخ هو پوبليوس هيلڤديوس پيرتناكس . ولكن كان حكمه قصيرا . فلم يكن مرشح الحرس البريتورى فتخلص منه الحرس بأسرع ما يمكن . ولما لم يكن للحرس مرشح خاص، اختاروا أفضل من يليه ، وهو الرجل الذى عرض عليهم أعلى ثمن لمعونتهم ، وهو ديديوس يوليانوس . ولقد أثارت هذه (المزايدة) الشائنة عاصفة من الغضب والسخط فى جيوش الولايات ، وأعلن جيش بعد آخر قائده امبراطورا : لوكيوس سيپتميوس فى پانونيا ، وجايوس پيسكينيوس نيجر فى سوريا ، وديكيوس كلوديوس ألبينوس فى بريطانيا .

وقد لا يكون هنا الموضع الملائم لسرد القصة الكاملة للنزاع الذى نشب حول العرش الامبراطورى بعد مقتل پيرتناكس وارتقاء ديديوس يوليانوس . ولكن يمكن أن نوكد أن النزاع كان أطول وأشد مرارة

من ذلك النضال الذى أعقب موت نيرون . لقد كان له لون سياسى ، اذ أن كل جيش حاول جاهدا أن يرفع قائده الى العرش الامبراطورى . غير أنه لم تكن هناك ميول انفصالية واضحة . والحق أن الجيوش الثلاثة التى جندت فى أجزاء الامبراطورية الأساسية الثلاثة — فجيش ألبينوس كلتى رومانى ، وجيش سيفيروس جند فى ايليريا وتراقية ، وجيش نيجر أسيوى (سورى وعربى) ومصرى — كان لكل منهم طابعه الخاص وأمانيه الخاصة . وقد انعكست شدة هذا الاختلاف فى مرارة النضال ، واصبحت نذيرا بما حدث فى العصور المتأخرة من تقسيم الامبراطورية الى جزء كلتى ألمانى ، وآخر سلافى ، وثالث شرقى . ومن الخواص الأخرى الهامة فى حروب التطاحن على العرش ضعف ايطاليا ضعفا أذهب كل رجاء . فالحرس البريتورى الذى قاتل قتال الأبطال فى سبيل أوتو ، لم تعد له قوة أو رغبة فى القتال من أجل مرشحه ، أيا كان ذلك المرشح . لقد أذعنوا لجيوش الولايات ، وطلبوا الرحمة . وفضلا عن ذلك ، فمما هو جدير بالذكر من غرائب تلك الحروب التى أعقبت موت كومودوس أنها لم تؤثر على ايطاليا وحدها ، ولكنها أثرت على الامبراطورية كلها ، فخربت أكثر أجزائها رخاء ، وأعنى بذلك بلاد الغال وآسيا الصغرى . وأخيرا ، لم يكن محض اتفاق أن انتصر الفلاحون الأحرار من أبناء ألمانيا وتراقية وايليريا ، وهم سكان أحدث الولايات الرومانية . ولقد برهنوا على أن تعضيدهم لقادتهم كان أقوى وأفضل من العون الذى بذله المستأجرون فى بلاد الغال ، أو أرقاء الأرض والفلاحون فى آسيا وفى مصر . (٩)

لحكم سيبتميوس سيفيروس ، وزوجه الشرقية ، وأبنائه أنصاف الشرقيين أهمية كبرى فى تاريخ الامبراطورية الرومانية . أما عن طراز هذا الحكم وأهميته التاريخية ، فهناك رأيان مختلفان . فكبار العلماء

المبرزين يقررون أن سيبتميوس سـيفيروس كان أول من خرج على تقاليد الأنطونيين وسياستهم وسـار عـلى نهج يصبغ الامبراطورية الرومانية كلهـا بصبغة بربرية . ويميـل البعض الآخر الى الظن بأن سيبتميوس سيفيروس كان « حاكما محبا لوطنه بلا تعصب ، وكان يتوق الى نشر الثقافة ومنح الامتيازات التى تتمتع بها ايطاليا وتسود فى أقدم الولايات الى تلك الولايات القائمة على تخوم الامبراطورية » . والظاهر أن فى كلا الرأيين طرفا من الحقيقة . فحكم سيبتميوس سيفيروس وخلفائه الذين أتوا بعده مباشرة كان فى نفس الوقت آخر حلقة فى سلسلة التطور الذى بدأه الأنطونيون وأول خطوة فى التطور الجديد الذى انتهى بعد التجاريب الفظيعة التى حدثت فى النصف الثانى من القرن الثالث الى تغيير شامل فى الحـكومة الرومانيـة عـلى نمـوذج شرقى . فلنبحث الوقائع [١٠] .

اغتصب سيبتميوس سيفيروس العرش بقوة السلاح . وهبه جيشه هذا السلطان ، واحتفظ به طالما رغب الجنود فى معونته . وأكره مجلس الشـيوخ على قبوله ،فوافق المجلس على الاعتراف بسلطانه واعطائه الصفة الشرعية تحت ضغط القوة الحربية . ومن هذه الناحية كان مركزه أشد حرجا من مركز كومودوس بن ماركوس أورليوس ، ووارثه الشرعى . ومن هنا نشأت جهوده لشراء ولاء مجلس الشيوخ وحكم الارهاب الوحشى — بعد أن شعر أن حبهم له أقل بكثير من ميلهم الى منافسيه پيسكينيوس وألبينوس ، وبعد أن نجح فى القضاء على منافسيه الواحد بعد الآخر — الذى أعقب انتصاراته وانتهى بالقضاء على علية أعضاء المجلس . وقد أدرك من بادىء الأمر ادراكا تاما أن سياسته التى اختطها لأسرته ، وعقده العزم على أن يُوَرِّث أبناءه سلطنه ، كان خليقا أن يثير احتجاجا ومعارضة فى مجلس الشيوخ ، لما فى ذلك من خروج على تقاليد الأنطونيين ،

خروج من عين الطراز الذى حمل تلك الهيئة على شن حرب على كومودوس ، آخر الأنطونينيين ، بكل الوسائل التى كانت فى مقدورها . وما دام سيبتميوس يزعم أن قصده هو الابقاء على نظام التبنى ، أى طالما بقى معترفا بألبينوس كشريك له ، لم يحرك الشيوخ ساكنا . ولكن على أثر قطعه العلاقات بينه وبين ألبينوس — وذلك بعد هزيمة پيسكينيوس — واشراكه ابنه كراكلا معه فى الحكم ، شبت الحرب علانية بينه وبين مجلس الشيوخ ، ودامت حتى قضى قضاء مبرما على كل معارضة فى هذا المجلس . ولا يمكن أن تكون الصعوبات المالية التى صادفته هى التعليل الوحيد لتلك الحقيقة المعروفة وهى أن ارهابه بعد انتصاره لم يقتصر على رومة ، وانما اتسع نطاقه وامتد الى الولايات ولا سيما فى الشرق وبلاد الغال ، حيث وجدمنافساه تعضيدا من طبقاتها الأرستقراطية . كان على علم بأن الطبقات الأرستقراطية فى الولايات وهى تسكن أكبر مدن الامبراطورية وأكثرها غنى تدين بالولاء لأسرة الأنطونينيين وأنها لن ترضى دون احتجاج عن حكم جديد بنى على انكار المبادىء التى وجهت سياسة الملكية المتنورة ، وقد حاول جاهدا اسكات هذه المعارضة كما أسكتها فى رومة وفى ايطاليا (١١) .

ولما عاداه مجلس الشيوخ وقسم كبير من الطبقة الأرستقراطية فى الولايات ، اضطر سيبتميوس أن يذعن لمطالب الجيش مرة بعد مرة . انى لا أشير الى الهبات والرشا التى منحها الجنود فى جيوش الولايات أثناء نضاله ضد منافسيه ، ولا الى تسريح الحرس البريتورى ، وادخال نظام جديد فى تجنيد ذاك الحرس ، ولا الى انزاله فرقة على مقربة من رومة . فهذه وسائل حافظ بها على طمأنينته ، ولم تملها اعتبارات حربية — ولا رغبة فى أن يكون بين يديه جيش مجهز يقوده ضد أعداء على تخوم الامبراطورية — وانما أملتها ضرورة وجود أكثر من فرقة واحدة

فى ايطاليا يمكنه الاعتماد عليها فى أشد أزره وليحارب بعضها بعضا ان دعت لذلك ضرورة . حشد الجنود الألبانيين (Ἀλβάνιοι) ليقفوا بالمرصاد للحرس البريتورى ، وعساكر التموين (frumentarii) للفرسان الممتازين (equites singulares)، وكانت الكتائب التى تنزل فى المدن وحدات عسكرية متفرقة وقوية يمكن الانتفاع بها ، ان حاول الحرس البريتورى أو فرقة الألبانيين أن يفرضوا مرة أخرى رغباتهم على الامبراطور أو يسعوا الى اسقاطه عن العرش . وكانت الامتيازات الهامة التى منحها سيپتميوس للجيش هى أكثر اصلاحاته العسكرية دواما . وانها لمبالغة أن يقال انه ملأ فريق الضباط بالبرابرة : فلم يزل الضباط ينتمون ، كما هى العادة ، الى طبقة أعضاء مجلس الشيوخ والى الطبقة الأرستقراطية فى بلديات الامبراطورية . ولكن من الواضح أن صفوف الطبقة الأرستقراطية هذه اكتظت يوما بعد يوم بأحسن الجنود العاديين ، أى بضباط لا رتب لهم أضحوا الآن كلهم (وكذلك أبناؤهم) أعضاء فى طبقة الفرسان . وعندما منح امتياز الخاتم الذهبى للجنود العاديين أكد سيپتميوس أن كل جندى ، ان كان شجاعا ومخلصا للامبراطور ، يمكنه أن يرقى الى رتبة ضابط مقنب (centurio) ، فيصبح بذلك عضوا فى الطبقات التى تتمتع بالامتيازات . أما تأثر الطبقات العليا بالطابع العسكرى فلم يجعل منها حقا فى التو واللحظة طبقات همجية . لأن صغار الضباط قد اصطبغوا الى درجة كبيرة أو صغيرة بالمدنية الرومانية كنتيجة لاندماجهم فى سلك الجيش . وعلى الرغم من أننا لو نظرنا الى تكوين الجيش الرومانى فى أواخر القرن الثانى (وهو ما تحدثنا عنه فى الفصل الرابع) ، أمكننا القول فى اطمئنان ان تأثير المدنية الرومانية على أكثرهم كان ضئيلا جدا . ويتسم عمل آخر من أعمال الامبراطور بنفس الطابع وهو اكثاره من العسكريين فى الوظائف الادارية ، بافساح مجال التوظف أمام طبقة الفرسان ،

وتوسيع اختصاصات الموظفين من هذه الطبقة . ومن أمثلة ذلك تعيين أحد الفرسان حاكما على ما بين النهرين ، وتعيين قواد من طبقة الفرسان للكتائب البارثية فى ألبانو (Albano) وفيما بين النهرين ، واعطاء أهمية أكبر لمنصب قائد الحرس البريتورى ، واحلال المراقبين فى الولايات القنصلية محل القناصل السابقين ولو الى أجل ، والدور الذى لعبه الفرسان الآن فى حاشية الامبراطور (comites Augusti) ، كل هذا يدل على أن سيبتميوس كان يقصد الى افساح الطريق بالتدريج أمام الجنود العاديين حتى يصلوا الى أعلى المناصب فى ادارة الامبراطورية .

أما زيادة مرتبات الجنود ، والامتيازات التى منحت لقدماء المحاربين (كاعفائهم من الخدمات فى البلديات) ، وحماية الأندية فى القلاع والحصون ، ولا يقل عما سبق فى الأهمية الاعتراف بشرعية الزواج الذى يعقده الجنود — وكان من نتائجه أن هجر الجنود المتزوجون تدريجا ثكناتهم الى الأكواخ الحقيرة (canabae) ، كل هذه المنح الخطيرة كان لزاما أن تقوض الروح الحربية وأن تخلق طائفة عسكرية تتمتع بنفوذ كبير فى داخل الامبراطورية . ومن البين أن أمثال هذه المنح قد أعطيت تحت ضغط الضرورة . وما علينا الا أن نتذكر الثورات العسكرية الكثيرة التى شبت لاسيما فى أوائل حكمه لنقدر الصعوبة التى واجهها سيبتيميوس فى دعمه نفوذه بين الجنود . وتدل الوقائع الثابتة كذلك الاخفاق الذى يدمى الأفئدة الذى منى به الجيش الرومانى فى كل محاولة للاستيلاء على هاترا (Hatra) فى الحملة البارثية الثانية — وكان سر الاخفاق فى الاستيلاء عليها هو انعدام النظام بين جنود الكتائب البارثية — على أن السياسة التى سار عليها سيبتميوس قوضت حقا أركان النظام العسكرى، وعلى أنه اتبع سياسته هذه كرها لاطوعا .وكانت كلماته الأخيرة لأبنائه : « أوصيكم بالاتحاد ، وازجاء الغنى الى الجنود ، وازدراء البقية » .

وهذه الوصية ، حتى ان لم تصح نسبتها اليه — وليس هناك من سبب يدحض صحة نسبتها اليه — تطابق مطابقة كاملة سياسته العامة . وليس من ريب فى أن سيپتميوس هو أول من أقام على الدوام دعائم سلطانه على قوة الجيش . ومع أن كثيرين من أسلافه فى القرن الأول وعلى الخصوص دومتيان سلكوا عين الطريق ، الا أنه بعد حكم الأنطونينيين وبعد استبعاد كل نفوذ لمجلس الشيوخ فى ادارة الامبراطورية بدت سياسة سيپتميوس العسكرية وكأنها ظاهرة جديدة . ولم يكن سيپتميوس يهدف الى اقامة طغيان عسكرى ، وانما الى تشييد ملكية وراثية عسكرية (١٢).

ومع ذلكم فمن العبث التحدث عن اقامة سيپتميوس لطغيان عسكرى على النسق الشرقى . فلم يكن ملكه العسكرى شرقيا ، بل كان رومانيا خالصا فى جوهره . صبغ سيپتميوس رياسة أغسطس بصبغة عسكرية شاملة ، ونقل التوكيد الى لقبه كامبراطور (imperator) ، أى قائد أعلى للجيش الرومانى . ولكن الامبراطور استمر كذلك الحاكم الأعلى للامبراطورية الرومانية . وبقى الجيش جيشا رومانيا ، يتألف من مواطنين رومانيين . واذا كانت الامبراطورية الآن تشمل جميع الولايات الرومانية، واذا كانت سيادة العنصر الايطالى التى حافظ عليها تراجان ولم يرفضها علنا حتى هادريان قد ذهبت بلا رجعة ، فلم يكن فى ذلك تغيير أساسى جديد . كان ذلك تطورا عاديا ، أوجدته الحروب الأهلية فى بادىء الأمر ، ونماه تدريجيا أباطرة الرومان الواحد اثر الآخر . وخطا سيپتميوس خطوات حاسمة فى اشاعة الديمقراطية بين صفوف الجيش ، وفى تجنيد عسكره فى الولايات ، وفى فتح أبواب المناصب الادارية أمام عدد أكبر من أبناء الولايات . ولكنه كان يسير من ناحية المبدأ على سياسة انتهجها منذ وقت طويل حكام الامبراطورية . فلم يكن هناك أى انقلاب ثورى فى سياسته هذه . ووجه الخطر فى سياسته هو فى جعل رياسته رياسة

عسكرية ، لا فى صبغ الجيش بالصبغة الديمقراطية ، وكانت سياسته هذه نتيجة لازمة لاغتصابه السلطة ، وانشائه ملكية وراثية .

كان سيپتميوس اذن مقيما حقا على مبادئه ، عندما أكد احترامه للملك الأنطونينيين الصالح . ولقد رغب فى أن ينظر اليه على أنه وارث كومودوس الشرعى ، وسارع فى القاء نقاب المنتقم لمرشح مجلس الشيوخ وأعنى به پيرتناكس . وعندما أعلن أنه أخو كومودوس ، وعندما قدس ذكراه ، وعندما زور وثيقة تزعم بأن ماركوس أورليوس تبناه ، كان يدرك تمام الادراك أن هذا السخف البالغ لن يخدع أحدا ، ولكنه كان يستهدف توكيد ولائه لآخر الأباطرة العظام ورغبته فى تنفيذ سياسته . وهناك سبب آخر هو طبعا حاجته الماسة الى أن يسبغ صفة الشرعية على مركز اغتصبه اغتصابا . لقد انتزعت الموافقة القانونية قسرا من مجلس الشيوخ ، ولكن سلطان الأباطرة لم يعتمد فقط على قرار يصدره مجلس الشيوخ ، وانما قام أولا على تأليه الامبراطور ، وقد أضحت هذه العبادة الآن وبعد قرن من التطور السلمى وثيقة الارتباط باسم الأنطونينيين وتقاليدهم . فلا غرو أن رغب سيپتميوس فى أن ينظر اليه على أنه ابن ماركوس الصديق ، ولهذا الغرض وضع تماثيل نفسه فى معابد البلدية وأضرحة الكتائب ، وسمح لأبنائه بأن يتخذوا اسم أنطونينوس ، لا ليرثوا الاسم فقط ، ولكن ليحظوا بالاجلال الذى اقترن بهذا الاسم . ولم يحدث قط أن كانت الرابطة بين عبادة الامبراطور وبين الجالس على العرش وأسرته أوثق منها فى هذا الوقت ، اذا استثنينا عصرى دومتيان وكراكلا . ومن العوارض التى لها دلالة خاصة أن صور سيپتميوس وابنيه ، الأنطونينيين الجدد ، وضعت على تيجان الكهنة (flamines) فى البلديات بدلا من صور آلهة الكابتول الثلاثة [١٣] .

ولا مفر من الاعتراف بأن سياسة سيپتميوس من بعض نواحيها

كانت حقا استمرارا لا زيف فيه لسياسة هادريان والأنطونينيين . فأطلقت الحرية لأعظم فقهاء القانون فى ذاك الوقت ، وهم پاپنيان وآلپيان وبولس فى اظهار حدبهم على الانسانية وتحقيق أفكارهم التى تعلقوا بأهدابها من مساواة أمام القانون بين الجميع ومن وجوب حماية الحياة البشرية على العموم ، والضعيف والفقير على الخصوص . وعلى أبواب الثورة الاجتماعية الكبرى التى مهدت لها السبل السيطرة الحربية فى البلاد ، ظهر القانون الرومانى لآخر مرة فى أنبل مظاهره وأكثرها بهاء . ولا حاجة بنا الى الاسهاب فى هذا الموضوع الذى ذاع واشتهر (١٤) . ولكن من البين أن سياسة سيپتميوس الاجتماعية على ما فيها من بر وكرم كانت تهدف أولا وقبل كل شىء الى دعم سلطانه وسلطان أسرته . وكما فعل كومودوس ، عزم سيپتميوس على اقامة سلطته على الطبقات التى يجند منها عسكره : ومن هنا بزغت تشريعاته التى تتسم بالبر والتسامح وخططه التى وضعها لحماية الفلاحين وغوغاء المدن من عسف الطبقات الحاكمة والادارة الامبراطورية . ويجب أن نذكر أنه أعاد نظام التغذية (alimenta) الذى أبطله كومودوس . أما فى افريقية فقد أبقى سيپتميوس على سياسة الفلاڤيين وتراجان وهادريان . وليس من عبث الحظ أن النسخة التى بين آيدينا من قانون مانكيا (Lex Manciana) قد ترجع الى عصر سيپتميوس سيڤيروس ، وأن المذبح الذى نقش عليه قانون هادريان (ara legis Hadrianæ) يرجع إلى تلك الفترة عينها . والظاهر أن سيپتميوس رغب فى الاكثار من عدد الملاك الأحرار على ضياعه ، وطالب المتعهدين والمراقبين باتباع الأوامر التى أصدرها أسلافه وعدم الحيدة عنها . وبعد أن فرغ من اضطهاد أتباع پيسكينيوس فى مصر ، ذلك الاضطهاد الذى أودى برخاء البلاد الاقتصادى ، وزاد فى عدد الذين فروا من قراهم ، نشر بمناسبة الاحصاء المعتاد اعلانا خاصا حض الفلاحين فيه على أن

يعودوا الى حقولهم وقراهم . وعلى هذا الاعلان بنى قرار سوباتيانوس أكويلا (Subatianus Aquila) حاكم مصر ، والى هذه الوثائق استند مثلا فلاحو قرية سوكنوپايو نيسوس(ديمى) (Nesos Soknopaiu) (من أعمال الفيوم). حينما يقولون فى التماسهم الذى رفعوه ضد بعض الأغنياء الذين اغتنموا فرصة غيابهم فاحتلوا أرضا درجوا هم على زراعتها : « رغب مولانا سيڤيروس ومولانا أنطونينوس وهما أكثر الأباطرة قدسية وغلبة ، أثناء اقامتهما فى قطرهما مصر ، زيادة على ما أسديا من نعم كثيرة أخرى ، فى أن يعود الى دياره كل من فرمن مسكنه . وقد اجتثا أعمال القسر وقضيا على انتهاك حرمات القانون » (١٥) .

وقد أظهر فلاحو الضياع الملكية فى آسيا الصغرى الثقة عينها فى الامبراطور نفسه والولاء لشخصه ،ولم يخلطوا بينه وبين عماله وموظفيه. وبين أيدينا ثلاثة التماسات أو أربعة يرجع تاريخها الى زمن سيپتميوس ، وجدت كلها منذ وقت قريب فى ليديا . فبعد أن شكا الفلاحون الى كبار الموظفين وبعد أن خاب فألهم ، لجأوا الى الامبراطور مباشرة مرددين أكثر الألفاظ تبيانا للتفانى والولاء . ففى احدى رقاعهم يقول ممثلهم : « انا نضرع اليك يا أعظم الأباطرة وأكثرهم قدسية أن تذكر قوانينك وقوانين أجدادك وعدالتك التى نشرت السلام بين الجميع وكراهتك لمن أبغضت دائما وأبغض جميع أجدادك الذين سبقوك على العرش فتأمر .. الخ » . وفى التماس آخر تؤكد جماعة أخرى من الفلاحين ولاءهم المتوارث لسادتهم من بيت الملك ، قائلين : « سنضرب على الرغم منا فى الضياع الملكية التى فيها ولدنا ، وعليها ربينا ، وقد قمنا بفلاحة أرضها من عهد أجدادنا ولم ننس مواثيقنا قبل الخزانة الامبراطورية (fiscus) » . وكما فعل مستأجرو البرارى البورونية ، رفع ممثل ينوب عن فلاحى منديكورا (Mendechora) التماسا الى الامبراطور ؛ ومما يبعث الأسى

أننا لا ندرى اسم هذا السفير ، الا أنه قد جرت العادة فى الأزمنة المتأخرة على أن يرفع الجنود أمثال هذه الالتماسات الى الامبراطور . فمن الممكن أن فلاحى منديكورا قد رفعوا التماسهم على يد أحدهم ، وربما كان جنديا أو ضابطا فى جيش الامبراطور (١٦) .

وعلى هذا النهج ، كان سبتميوس يسوس الوضيع : يحميه ويغمره بالمنح . أما نحو المدن فقد سلك طريقا آخر . والحق أنه لم يكن يعادى المدن ، لأنها مدن ، فقد أظهر عطفا وفهما لحاجات تلك المدن التى عضدته بكل ما أوتيت من قوة ، ولا سيما مدن أفريقية بلاده الأصلية ، ومدن سوريا ، وطن زوجه ، ومدن ولايات الدانوب التى حشد فيها جنوده . ففى زمن حكمه عم الرخاء والازدهار مدن هذه الأقطار ، ورفع كثير من هذه المدن الى مركز أعلى درجة بين البلديات ، وحظى كثير منها بالهبات وباقامة المبانى تشريفا وتكريما . وأنشئت مستعمرات من قدماء المحاربين الرومانيين فى البعض الآخر (مثل صور فى فينيقية والسامرة فى فلسطين) وكان من الطبعى أن تهلل هذه المدن ، الواحدة بعد الأخرى ، لحكم الامبراطور الرحيم ، وأن تقيم له ولزوجه ولابنيه التماثيل وأقواس النصر . غير أننا نجانب الحقيقة ان عممنا وقلنا ان سبتميوس لم يحد عن سياسة أسلافه فى علاقاته مع المدن . فلسنا بمستطيعين أن ننسى مصيرليون فى بلاد الغال وبيزنطة ، ولم تقم الأولى أبدا من كبوتها بعد العقاب الغشوم الذى صب عليها . وقد أوقع أيضا أشد نكال بأنطاكية ، وأجبر عددا كبيرا من المدن على دفع تبرعات ضخمة ، لأنها اضطرت قبل ذلك الى أن تقدم الأموال الى پيسكينيوس نيجر . ولقد تكلمنا فيما مر عن مصادرة أملاك كثيرين من أعضاء الطبقة الأرستقراطية فى الولايات(١٧) .

وأكثر أهمية من هذه الوسائل التأديبية المؤقتة هى السياسة العامة التى انتهجها سبتميوس نحو الطبقات العليا من بين سكان المدن . فعند

بحث نظام الخدمات فى الفصل السابق قلت مؤكدا ان سيپتميوس كان أول الأباطرة الذين طالبوا بالحاح أن يكون حكام المدن مسئولين مسئولية فردية . وكان أيضا أول من ساعد على تطور نظام الخدمات الظالم ، وجعل منه بمساعدة فقهاء القانون فى عصره نظاما دائما وقانونا منظما تنفذه الدولة . والفقهاء الذين عملوا أكثر من غيرهم فى تنسيق نظام الخدمات (munera) ونظرياته هم پاپنيان وكاليستراتوس من معاصرى سيپتميوس وألپيان مستشار اسكندر سيڤيروس (١٨) . ويظهر التطور واضحا فى حالة العشرة الأوائل (ديكاپروتيا decaprotia) والعشرين الأوائل (ايكوسابروتيا eikosaprotia) . وتبدأ الاشارة الى هذا العبء فى الديجست من القرن الثالث . وأول من يذكر تحوله الى أحد الأعباء (munera) البلدية الهامة هما هيرنيوس مودستينوس وألپيان ، ثم من بعدهما أركاديوس خارسيوس وهيرموجنيان . ولا يظهر لهذا التغيير أثر فى نقوش آسيا الصغرى قبل حكم كراكلا . وبعد أن انقضى من القرن الثالث بضع سنوات ، أدخل نظام العشرة الأوائل فى حياة البلديات الجديدة التى استحدثت فى مصر ، وحوالى منتصف هذا القرن أضحى نظام العشرة الأوائل أحد النظم الهامة جدا فى حياة البلاد الاقتصادية (١٩) .

ومن المحقق أيضا أن سيپتميوس وخلفاءه ساروا فى ضغطهم على الجمعيات والرابطات التى خدمت الدولة على نهج أكثر دقة . وقد أعطى كاليستراتوس ، عند تحدثه عن تنظيم الخدمات (munera) فى البلديات ، الى الرابطات عناية وافرة ، وهذا يبرهن على أن سيپتميوس اقتفى آثار أسلافه ولاسيما هادريان وماركوس أورليوس وكومودوس ، فنظم بكل دقة العلاقات بين الرابطات وبين المدن . وكان لأصحاب السفن أو ربابنتها (navicularii) والتجار أهمية فريدة . ولهذا فان الجزء الأكبر مما اقتطف فى الديجست

من آراء كاليستراتوس خاص بهم . ومن الأمور التى تشهد بعلو مركز هذه الرابطات أن كاليستراتوس يؤكد المعونة التى يقوم بها التجار والخدمات التى يؤديها أصحاب السفن ، وهو يلح فى أن كليهما يقومان بخدمة عامة (munus publicum) . وهذا يعلل جمعه لكل القواعد التى وضعت من قبل لتنظيم نشاط هذه الرابطات ، واستنباطه قواعد جديدة أضافها الى القواعد القديمة [٢٠] . ولقد بينا فى الفصل السابق أن سبتميوس منح جمعيات التجار وأصحاب السفن رعاية خاصة ، ربما أملتها عليه شكايات تلك الرابطات المنهمرة بسبب استخدامها دائماً فى الحروب الأهلية والشرقية . فأصحاب السفن أو ربابنتها (navicularii) فى بلدة أريلاتى (Arelate) الذين يحتمل أنهم نقلوا الرجال والمؤن من بلاد الغال الى الشرق فى الحملة البارثية الثانية وأثناء اقامة سبتميوس وكراكلا فى المشرق يشكون مر الشكوى فى التماس رفعوه عام ٢٠١ بعد الميلاد ، وقد وجدت منه نسخة فى بيروت منذ وقت قصير ، من العقبات التى كدرت حياتهم والأموال التى ابتزت منهم وهم يعملون فى خدمة الدولة . ومن المحتمل أن الجافهم فى الشكاية ، فضلا عن تهديدهم بالاضراب ، حمل سبتميوس على أن يعيد النظر فى بعض الامتيازات التى منحت لهم من قبـل وأن يكمل نقصها ، بل وأن يزيد فى نطاقها . ومن أهم هذه الامتيازات اعفاؤهم من أعباء البلديات [٢١] .

وقد منحت امتيازات خاصة مماثلة ، ولا سيما امتياز الاعفاء من الخدمات البلدية ، الى جماعات أخرى من بين سكان المدن فى الامبراطورية ومن أهم هذه الجماعات فئة أولئك الذين يجبون الضرائب ، وفئـة أولئك الذين استأجروا ضياع الامبراطور وضياع الدولة . وقد سوى التشريع الامبراطورى بين الفريقين الأول والثانى . فمن وجهـة نظر الحكومة لم يكن هناك فرق كبير بين هذين الفريقين من تلك الجماعة ،

لأن كليهما قاما على وجه العموم بأداء عين الخدمة العامة وهى نيابتهما عن الدولة فى تحصيل أموال مستحقة للدولة . ولقد وصفنا فى الفصل السابق الدور الهام الذى لعبه الجباة فى حياة الولايات فى القرن الثانى وأوائل القرن الثالث . فجباة المكوس فى ولايات الدانوب وفى أفريقية كانوا رجالا مبرزين ذوى نفوذ عظيم (٢٢) . وأكبر من أولئك نفوذا ملتزمو الضياع الامبراطورية ، وعلى الخصوص فى ولايات أفريقية وآسيا وما يماثلها ، ولا سيما فى حكم سيپتميوس الذى صادر مساحات شاسعة من أراضى أولئك الذين زعم أنهم أعداؤه . وقد تكلمنا عن هؤلاء المتعهدين(conductores) فى الفصل السابع . وأقدم اشارة الى رابطة منظمة تجمع شملهم يعود تاريخها الى زمن الفلاڤيين وتراجان . ولقد بسط عليهم هادريان حمايته ، ومنحهم ماركوس أورليوس امتياز الاعفاء من الخدمة فى البلديات ، واحتفظ لهم سيپتميوس سيڤيروس بكل هذه الامتيازات ، ويتبين ذلك بوضوح من تسجيل كاليستراتوس لها بدقة (٢٣) .

ولكن بينما كان سيپتميوس يساعد على هذا النحو بعض أفراد من الطبقات الممتازة الذين كانت الدولة فى حاجة الى خدماتهم ، أو بالأحرى بينما كان يحاول أن يخفف الى حد ما من شدة ضغط الأعباء الملقاة على كاهلهم ، فانه لم يغفل قط عن صالح الطبقات المتواضعة والفقيرة . ومن المحتمل أنه هو الذى مد امتياز الاعفاء من الخدمات البلدية فجعله يشمل مستأجرى الضياع الملكية . ومن المحتمل جدا أن ما دفعه الى ذلك هى شكايتهم المتكررة من الطريقة الغاشمة التى أرغمهم بها الحكام فى البلديات وضباط الامبراطورية على أن يشتركوا فى حمل الأعباء البلدية ، على الرغم من أنهم لا يسكنون المدن . ففى الالتماس الذى عثر عليه فى اجا بك (Aga Bey) من أعمال ليديا يؤكد الفلاحون بالحاح هذا الأمر

ويهددون الامبراطور باضراب عام يتخذ شـكل الفرار (ἀναχώρησις) .
وقد أذعن سبتميوس لطلباتهم جريا على سياسته العامة وأعفى المستأجرين
من أعباء الخدمات البلدية ، ولكنه احتفظ للدولة بحقها فى أن تكلفهم
بأعمال جبرية وبأداء الخدمات (munera) الأخرى التى تتطلبها منهم (٢٤) .

وهناك جماعة أخرى هامة من سكان البلديات أعفيت من الأعبـاء
البلدية لنفس الحجة ، أعنى لأنهم يخدمون الدولة فى ناحية أخـرى .
وهذه الجماعة تتألف من رابطات أولئك الذين « يقومون بأعمال يدوية
لا غنى عنها للصالح العام »(*) ومن أمثلة ذلك على الخصوص رابطة
الصـناع (fabri) ورابطة تجـار الخـرق (centonarii) ، وكانوا
يقومون بأعمال رجال المطافىء فى المدن . ومن الواضح الآن أن تلك
الآراء التى أبداها كاليستراتوس عن هذه الجمعيات (collegia) فى نبذة
معروفة ذائعة لم تكن الاصدى لأفكار سبتميوس . وقد كشف حديثا
فى بلدة سولفا (Solva) من أعمال پانونيا قرار أصدره سبتميوس
وكراكلا يحوى الأوامر نفسها وقد صيغت فى عين الألفاظ تقريبا . والمبدأ
الأساسى الذى ارتكزت عليه سياسة سبتميوس نحو تجار الخـرق
(centonarii) ونحـو الصـناع (fabri) ، هو عينه الذى اهتـدى
بهديه فيما عامل به التجار وأصحاب السفن ، فهو يمنح أعضاء هـذه
الرابطات اعفاء من أعباء البلدية ، ولكنه يحرص على ألا يتمتع بهـذا
الاعفاء من لا يقوم فعلا بأداء واجباته كعضو فى هذه الرابطات . والنوع
الأخير يشمل أكثر الأعضاء ثروة . وهؤلاء لا يتمتعون بأى اعفاء . ولكن
الاعفاء الكامل احتفظ به للفقراء (tenuiores) الذين يساعدون حقـا
فى اطفاء الحرائق . وهو لا يضع حدا على عدد أمثال هؤلاء (٢٥) .

(*) الديجست ، ٥٠ ، ٦ ، ٦ ، بند ١٢ .

ومن الواضح أن كل هذه الاعفاءات بينما خففت العبء عن البعض ، وكان فيها بعض العون للطبقات الفقيرة ، أضافت الى أثقال أولئك الذين استمروا وحدهم يحملون الخدمات البلدية دون معونة . ولما أعفى على هذا النحو بعض كبار الأثرياء ، بقى أصحاب الأراضى والحوانيت ، وجلهم من الطبقة الوسطى ، يحملون وحدهم أعباء الخدمات . فلا غرابة أن حاولوا بوسائل شيطانية مختلفة أن يهربوا من تلك الأعباء التى قوضت أركان رخائهم الاقتصادى . ويجب النظر أيضا الى ادخال نظام البلديات في مصر من وجهة النظر هذه . فنحن نعلم أنه فى عام ١٩٩ بعـد الميلاد منحت الاسكندرية مجلسا بلديا . وليس هناك ما يحول دون الظن أن هذه المنحة امتدت بالتدريج الى عواصم (metropoleis) القطر . وكان مغزى ذلك أن مصر ، موطن النظام الأصلى ، خضعت لنظام الخدمات ، كما خضع باقى أجزاء الامبراطورية . ومن ناحية مصر لم يجلب التغيير امتيـازا ، بل ربما لم يجلب عبئا جـديدا : فقد اعتـاد أفراد الطبقة البورجوازية على أى حال فى مصر أن يحملوا المسئولية عن بقية السكان ولكنه عنى التنسيق وتغيير الترتيب . فالخدمات التى فرضت قبـل ذلك على طبقة البورجوازى ، رتبت الآن تدريجيا ، ولم يحدث ذلك دون أن ينالها التغيير . ثم تكدست كلها على أعضاء المجالس البلدية الجديدة وأكتافهم الشقية (٢٦) . وهـذه الدوافع نفسها تعلل محاولات سبيتميوس أن يسوى فى العبء بين سكان الريف والمدن ، بين المواطنين الذين يتمتعون بالرعوية كاملة والمواطنين من الدرجة الثانية فى بعض المدن فى آسيا الصغرى ، كبلدة پروسياس (Prusias) مثلا . وقد أضحى سكان الريف وعليهم من الآن أن يحملوا نصيبهم لا من الأعمال الجبرية ومن الضرائب ومن الأتاوى غير العادية فقط ، ولكن من المسئولية أيضا التى حملها من قبل المواطنون الكاملون وحدهم (٢٧) .

وهذه الوسائل الراديكالية الغاشمة التى اتبعها سبتميوس قد ترجع الى الحالة المالية الحرجة فى الامبراطورية التى أوجدها اسراف كومودوس والحرب الأهلية فى بدء حكم سبتميوس وما أعقبها من حروب خارجية خطيرة ذهب فيها الكثير من المال . فلم يكن حكم سبتميوس عصر سلام : اذ لم يزد عدد السنين التى خلت من الحروب عن ست من ثمانى عشرة . حقا لقد جمع سبتميوس فى يديه بهذه الوسائل التى لا هوادة فيها ثروة طائلة لا سيما من العقار أنشأ لادارته مصلحة خاصة عرفت بالحساب الخاص (ratio privata) وملأ خزانة الدولة الرومانية الخاوية . ولكن من البين أن عمل الامبراطور كان تنمية لمصالحه وارضاء لمطامعه الشخصية . وقد سخا بالمال الذى جمعه من المصادرة والأتاوات فى رشوة الجنود ورعاع الرومان . ولقد عاد الى مالية الدولة توازنها ، ولكن على حساب الشعب . وليس هناك من أساس قط للقول بأن الامبراطورية عمها الرخاء والسعادة فى زمن سبتميوس . واذا استثنينا أفريقية التى لم تمسها الحرب الأهلية كما مست بقية الامبراطورية وولايات الدانوب التى استمد منها عونه الأساسى وسوريا التى حمتها جوليا دومنا حماية خاصة ، فايطاليا والولايات كانت بعيدة كل البعد عن الازدهار . وفى خلال الحرب الأهلية وبعدها امتلأت الامبراطورية بأناس مشردين لا مأوى لهم طاردهم عمال الامبراطور وشرطته من عسكر التموين (frumentarii) وجنود الثكنات (stationarii) . وبينما كان المشردون يهيمون على وجوههم فى يأس وقنوط ، ألفوا عصابات من اللصوص وعاثوا فى الأرض فسادا . ونحن نسمع أن جيشا من هذه العصابات تحت قيادة بولا (Bulla) أشاع الرعب فى ايطاليا ردحا طويلا ، وكان لابد من قوة حربية للقضاء عليه وعلى أتباعه . ويظهر أن هناك شواهد متفرقة أخرى

تدل على أن أحوالا مشابهة سادت ألمانيا وبلاد الغال وبعض ولايات أخرى [٢٨] .

أما أسباب ازدياد السرقة ، وعلى الخصوص فى تلك الولايات التى مستها الحرب الأهلية وكانت على مقربة من مسارح الحروب الخارجية ، فهى قريبة المنال من الباحثين . فمصادرة الأراضى الزراعية مصادرة جزافية (en masse) عصفت بالحياة الاقتصادية الى درجة يجب ألا ننقص من أهميتها . فرأس المال الخاص والابتكار الفردى استبعدا على هذا النحو من أماكن كبيرة مزدهرة ، وحل محلها نظام ادارى جديد ، بيروقراطى لا حياة فيه ولا حراك . ثم ان الاضطهاد السياسى الذى اتسع نطاقه أفزع ألوفا من الناس منهم البرىء ، ومنهم المجرم وأجبرهم على الفرار من ديارهم . ولكن رأس الفساد هم العدد الغفير من عمال الحكومة وأكثرهم من الجنود الذين يقومون بواجب الشرطة — عسكر التموين (frumentarii) وجنود الثكنات (stationarii) والشرطة الحربية (colletiones) — الذين دخلوا كل مدينة وقرية فى تعقبهم « للمجرمين » السياسيين وفتشوا المنازل الخاصة ولم يكونوا طبعا فوق مد الأيدى للرشا . وأشد من ذلك خطرا ابتزاز هؤلاء العمال أنفسهم للأموال قسرا فى كل ما يرتبط بغزوات الامبراطور الحربية الكثيرة . وفى أزمنة الحرب الأهلية ، لم يلق أحد بالا الى مصالح الشعب . حشدت جموع من المجندين الجدد قسرا ، واغتصبت وسائل النقل ، وقهر الرجال على خدمة الجيوش وهى فى طريقها الى ميادين القتال وكان على الأهلين أن يقدموا الطعام والمواد « الحربية » أيضا وأن يفتحوا أبوابهم لايواء الجنود والضباط . وتذكر النقوش كثيرا من الرجال البارزين الذين كانوا يقومون على الخزانة الحربية ، أعنى كان عليهم أن يجمعوا التبرعات من الأموال والمؤن الحربية من المدن والأفراد . ولم يكن هؤلاء طبعا

يستطيعون أن يؤدوا واجبهم دون الاستعانة بعدد كبير من صغار الموظفين والجنود الذين انقضوا على المدن والقرى كأسراب الجراد يلتهمون الأموال ويلقون الفزع فى القلوب وقد ضاق بهم جميع طبقات السكان (٢٩) .

ومن المعالم الأخرى الهامة لهذه الفترة كثرة عدد الفارين من الجيش . ولقد لاحظنا الظاهرة نفسها فى زمن كومودوس عندما أرسل سيپتميوس سيڤيروس الى بلاد الغال ليقضى على العصابات المؤلفة من أمثال هؤلاء الروافض . ومن الواضح أن الحال لم تتحسن أثناء الحرب الأهلية . ويتبين ذلك من مجموعة القواعد التى نجدها فى الديجست عن هذا الموضوع . وقد جمع أكثرها وعلق عليها فقهاء عصر آل سيڤيروس ، وعلى الخصوص أريوس ميناندر ، أحد أعضاء المجلس الامبراطورى فى زمن سيڤيروس وكراكلا — وهذه حقيقة تدل على اندلاع الشر وانتشاره ، وقد سبب ذلك اضطرابا خطيرا فى الامبراطورية من نهاية القرن الثانى الى أواخر القرن الثالث . ومن الواضح (كما بينا فى الفصل الرابع) أن التجنيد كله قد أصبح الآن اجباريا تقريبا . وأن هذا التجنيد الاجبارى ، ولا سيما والحروب الأهلية يشب أوارها ، اعتبره الأهلون فى المدن كما فى القرى عبئا ثقيلا . وأقدم وثيقة تشهد بوجود التجنيد الاجبارى هو نقش عثر عليه فى ليديا — ويجب أن يؤرخ على أرجح الآراء فى زمن آل سيڤيروس — وربما كان من عهد كراكلا أو ايلاجابال أو اسكندر (٣٠) .

ولقد أوضحنا فيما سلف العلاقة بين سيپتميوس وبين الطبقات الدنيا فى الامبراطورية وذكرنا بعض الالتماسات التى وجدت حديثا والتى رفعها فلاحو ليديا الى الامبراطور نفسه . وكان هؤلاء القوم يؤمنون بحسن نوايا الامبراطور وعطفه عليهم ، ولكنهم ملئوا كراهية وبغضا

لصغار موظفى الحكومة الامبراطورية من الشرطة الحربية (colletiones) ، وعسكر التموين (frumentarii) وجنود الثكنات (stationarii) . والعبء الذى يشكون منه ونغمة الشكوى واحدة فى كل الشكايات الأربع . فهم يقولون فى احدى الشكايات: « (ان هؤلاء الرجال يأتون القرى) .. لا يفعلون خيرا البتة ، وانما يعصرون القرى عصر النواة باستيلاء لا يطاق على البضائع وبالغرامات حتى ان القرية ، وقد أنهكتها النفقات الطائلة التى يتطلبها هؤلاء الضيوف والعدد الكبير من الشرطة الحربية (colletiones) ، اضطرت الى أن تتنازل حتى عن حمامها العام وقد حرمت من وسائل العيش الضرورية » . وتشير الالتماسات الأخرى الى عدم احترام هؤلاء الموظفين أنفسهم للقوانين ووحشيتهم فى القبض على رجال القرية البارزين وسجنهم وحتى قتلهم ان لم يرغبوا أو لم يستطيعوا رشوتهم . فاذا أدخلنا فى حكمنا القسوة فى تنفيذ العقوبات البدنية كما حددها القانون ، وكما طبقت على نسق واسع لا سيما اذا كان الأمر يمس وضيعا (humilior) أو رجلا لا يملك عقارا أمكننا أن ندرك آلام الفلاحين وشعورهم . يقول فلاحو القرية (قرية أجا بك الحديثة) فى التماسهم ، وهو أكثر الالتماسات الأربعة نجاة من العطب : « اننا نستجير بملكك المقدس العالى ، ياأكثر الأباطرة قدسية ، وقد عاقنا عن الالتفات إلى أعمالنا الزراعية تهديد الشرطة الحربية (colletiones) وممثليهم بأن يلقوا بحياتنا الى الخطر نحن الذين نجونا الى الآن من شرهم . ولما كنا بسبب تلك العقبات التى توضع فى طريقنا لمنعنا من القيام بأعمالنا الزراعية لا نستطيع أداء ما يجب علينا دفعه الى الامبراطور ، ولا نقدر على الوفاء بالتزاماتنا الأخرى فى المستقبل ، فاننا نضرع اليك » الخ [٣١] .

لا نستطيع اذن أن نقول عن عصر سيبتميوس انه عصر سلم ورخاء . فلم يكن هناك سلام ، ولهذا لم يكن هناك رخاء . تحسنت الحال بعض

الشيء فى السنوات الست الأخيرة من حكمه ، ولم تقف الحرب الاستعمارية التى شبت فى بريطانيا عقبة فى سبيل هذا التحسن . وفقد الأمبراطور وقد تقدمت به السن نشاطه الوحشى ، ووجد طريقا وسطا للاتفاق مع مجلس الشيوخ الذى أفزعته المذابح الوحشية فى السنوات الأولى من حكمه . وتحسنت الحالة الاقتصادية بعض التحسن ، وانشرحت الصدور اذ حظى الناس أخيرا ببعض الراحة . وهذا الشعور وذاك العطف الذى أظهره سبيتميوس نحو الجنود والطبقات الدنيا حببه وأبناءه الى قلوب الشعب الذى طحنته حقا سنون طويلة من حروب داخلية وخارجية . ولكن الطبقات العليا ، أعنى الطبقات الأرستقراطية فى ايطاليا وفى الولايات ، لم ترض عن نظام الحكم العسكرى الأوتقراطى الجديد . وفى سنوات السلام القليلة التى تمتعت بها الطبقات العليا قويت معارضتها ونمت نموا مطردا . وشعر الكل بأن النضال بين الملكية العسكرية وحكم الأنطونينيين الصالح لم ينته بعد . وكانت طبقة البورجوازى فى المدن أعظم قوة من أن تترك مركزها ونفوذها دون بذل أى جهد آخر . وقد أدرك كراكلا ، أكبر أنجال سبيتميوس ، وهو الذى شب رفيقا وشريكا لأبيه الذى رباه كما ربته أمه لينشأ مشاطرا لهما فى آرائهما وأمانيهما ، وهو الذى قضى منذ طفولته وقته بين أعضاء أعلى الطبقات الأرستقراطية فى رومة ، أدرك كراكلا ادراكا تاما أن آراء أبيه وخططه كانت بغيضة الى الطبقات المثقفة فى الامبراطورية . وقد أظهر كراكلا من أول لحظة فى حكمه أنه سيسير على سياسة أبيه ، وأنه عازم على ألا يتراجع أو يمنح الطبقات العليا أى امتياز . وقد أوجد النزاع الذى دب بينه وبين أخيه جيتا والذى ملأ الشهور الأولى من حكمهما المشترك فرصة طيبة لاختبار ولاء مجلس الشيوخ ومن يناصرونه . وعلى الرغم من أن مجلس الشيوخ كان يعلم علما تاما أن جيتا من شاكلة أخيه ، الا أن أكثر القادة انحازوا اليه فى

هذا النزاع وكشفوا لكراكلا عن عداء سافر . وكانت النتيجة اغتيال جيتا غدرا ونشر الارهاب فى رومة وفى الولايات على السواء ، ذلك الارهاب الذى أعاد أردأ سنى سبتميوس (٣٢) .

ولدينا معلومات تكفى لتكوين رأى عادل عن سياسة كراكلا العامة. حقا ان الصورة المفصلة التى رسمها ديوكاسيوس ، أحد الذين عاصروا كراكلا ، وأحد الأعضاء المبرزين فى طبقة أعضاء مجلس الشيوخ ، والتى رسمها هيروديان وهو معاصر آخر من جماعة المفكرين الذين ينحدرون من أصل يونانى ، والتى رسمها أيضا مؤرخ من سلالة رومانية ، كان المصدر الأول الذى استقى منه من كتب حياة الامبراطور فى مجموعة السير اللاتينية التى ألفها من يدعون بمؤرخى سير الأباطرة (Scriptores Historiae Augustae) كل هذه الصـــور لم ترسمها ريشـــة محايدة ، وانما تمثل على وجه عام رأى الطبقات العليا والمثقفة فى الامبراطورية التى عادت كراكلا عداء ظاهرا ، واعتبرته أسوأ طاغية فى تاريخ رومة(٣٣) . وليس من شك فى أن ديو وهيروديان وعضو مجلس الشيوخ المجهول لم يفتروا الكذب ولم يضعوا شيئا من الوقائع ، ولكنهم عبروا أحسن تعبير عن الآراء التى شاعت وانتشرت بين أكثر سكان الامبراطورية اطلاعا على الحقائق ، وأعظمهم ذكاء . وعداء هؤلاء النفر للامبراطور أمر له نفسه من الأهمية مالا يجب اغفاله . أما سبب هذا العداء فقد فاضت مصادرنا فى تبيانه .

أعلن كراكلا سياسته فى وضوح وصراحة وهى أنه صمم على أن يبنى ملكه لا على الطبقات العليا — بورجوازى المدن والطبقة الأرستقراطية الايطالية — ولكن على الطبقات الدنيا وعلى ممثليها وهم الجنود . ومن الذائع المعروف أنه حابى العساكر وحاول جاهدا أن يظهر كواحد منهم، دعك من زيادته لمرتباتهم وما ينالون بعد تسريحهم وهباته السخية لهم .

وقد يمكن تفسير ذلك بأنه طريقة لشراء ولائهم وتعضيدهم بعد مقتل جيتا . ومن ناحية أخرى أظهر كراكلا علانية ازدراءه وعداءه لطبقات الملاك والمفكرين . ولا يخامر ديو أى ريب فى هذه الناحية . وقول ديو هنا متفق وميول كراكلا المعروفة من أنه كان يقرن نفسه فى صف واحد بأحط جنوده . ولا يمكننا أن نرفض أن ننسب اليه كلمة أحبها كثيرا ورددها كثيرا ، وقد ورد ذكرها فى كتاب ديو أيضا ، وهى : « ليس لأحد سواى الحق فى اقتناء الأموال ، وانما أقتنيها لكى أمنحها جنودى » . فسلوكه وسياسته أيضا تطابق ذاك الميل الذى تعبر عنه هذه الكلمة (٣٤).

وقد احتاج كراكلا الى أموال طائلة لرشوة الجنود ؛ وسرعان ما نفذ أكثر المال الذى جمعه سبتميوس . ولكى يملأ خزائنه ، اضطر كراكلا الى أن يلجأ الى وسائل غير عادية ؛ وقد عدد ديو مصادر دخله ولم يترك منها شيئا . وقد استمد كراكلا أكثر دخله من نزف منظم لثروة الملاك . فلم يرفع ضريبة الأراضى ، ولا جزية الرؤوس — وهما أهم الضرائب التى تدفعها الطبقات الدنيا — ولكن ضريبة التتويج (aurum coronarium) وهى ضريبة اضافية استثنائية تقع على الدخل ويحتملها على وجه عام أغنى الطبقات ، طلبت مرارا وتكرارا . وكانت الأتاوات النوعية أعباء ثقيلة ، وعلى الرغم من أنه كان على كل فرد أن يقدم أمثال تلك التبرعات التى استخدمت فى تموين الجنود ، فقد كان كبار الملاك هم أكثر من حملها لأنهم دائما يختزنون كميات كبيرة من المواد الغذائية ، بينما لم يكن لدى الفلاحين أقل فائض . ويؤكد ديو أن كراكلا لم يدفع ثمنا لهذه التبرعات ، وأن الطبقات الغنية كثيرا ما اشترت تلك المواد الغذائية التى أجبرت على تقديمها . وأخيرا كان له مورد غزير من الدخل فى الهبات القسرية التى انتزعها من الأثرياء ، ومن المدن على السواء ؛ وقد كانت تلك الهبات ضريبة ثقيلة تعسفية تقع على رأس المال وهى أشبه

ما يكون بالسرقة الخالصة . والضريبتان الوحيدتان العاديتان اللتان زيد فى قيمتهما (بمضاعفتهما) كانتا ضريبتى الأيلولة والعتق ، وهما ضريبتان ظلت الصلة بينهما وثيقة على الدوام . ومن البين أن هاتين الضريبتين حملهما على وجه عام طبقة الأثرياء (٣٥) .

وأوضح شاهد على العداء المتبادل بين كراكلا وبين الطبقات العليا فى المدن هى تلك القصة الرهيبة ، لكنها غامضة ، قصة المذابح التى ارتكبت فى الاسكندرية قبل قيام الأمبراطور بحملته ضد بارثيا . قتل كراكلا غدرا وسرا ودون أى مسوغ شباب الجيل الجديد من مواطنى الاسكندرية ؛ وأتم فعلته بتقتيل ماحق لكل من وجد فى تلك الدور التى آوت جنوده وضباطه . ولا تعطينا مصادرنا أى تعليل لهذا العمل الغشوم . ولايستطيع أحد طبعا أن يصـــدق أن كراكلا ارتكب جريمته لأنه غضب على أهل الاسكندرية الذين اتخذوه هدفا لسخريتهم . وانى لا أستطيع أن أغالب الظن بأن استعداده الحربى لغزو بارثيا وقع أكثره على كاهل مصر . فقد ظهر كراكلا فى معاملته لأنطاكية مثلا بمظهر الحامى والمنعم ، لا الجبار المنتقم ، وأعفيت سوريا وطن أمه ، وألقى العبء كله على عاتق مصر . فلا عجب أن غضبت مصر — ولا سيما مدينة الاسكندرية — غضبا شديدا لمثل تلك المعاملة . ولهذا يحتمل كثيرا أن الاسكندرية لم تكن تشعر بأقل ود نحو كراكلا . ومن المحتمل أيضا أن المجموعة المعروفة « بأعمال الشهداء الوثنيين » جمعت فى كتيب واحد ونشرت فى جميع أنحاء القطر فى هذا الوقت . وشعر كراكلا بما هو حادث فانتابه الرعب خشية أن تثور مصر فى أثناء غيابه فى بارثيا وتقطع عنه المؤن . وربما اعتقد أن مؤامرة تدبر له فى الاسكندرية . فكانت أعماله على هذا النحو مظهر جبنه ونذالته . ومهما يكن ذلك الأمر ، فالحادث يدل بوضوح على

شعور كراكلا الحقيقى نحو الطبقة البورجوازية فى المدن ، وعلى استعداد الجيش لتعضيده فى أى عنف يرتكبه ضد المدن (٣٦) .

وانى على يقين أن عين هذه الروح المعادية للطبقات العليا هى التى أملت « دستور أنطونينوس » (constitutio Antoniniana) المشهور الذي صدر عام ٢١٢ بعد الميلاد ، والذى منح الرعوية الرومانية الى جميع الأجانب (peregrini) . ولا يزال قرار كراكلا هذا سرا غامضا حتى بعد العثور على بقايا منه فى مصر . ومن العسير أن نحدد أغراضه ومقاصده ، فالنص الأصلى لهذا القرار ، كما اكتشف فى مصر ، يحرم من هذه المنحة ، كما هو ظاهر ، من يسمون بالمستسلمين (dediticii) . كم من الأجانب فى عصر كراكلا كانوا يعرفون بالمستسلمين؟ أكان الفلاحون الأحرار فى القرى (فى تراقيا وسوريا مثلا) يدخلون فى هذه الفئة ؟ ما حكم سكان الريف فى المناطق الملحقة بالمدن ؟ أكان جميع المستأجرين من الأباطرة مستسلمين أم لا ؟ طالما لم يبق أمامنا الا الحدس والتخمين فى كل هذه المسائل الهامة ، فلا حول لنا ولا قدرة على تقرير أهمية دستور كراكلا من الناحية التاريخية ، أو معرفة الهدف الذى رمى اليه الامبراطور فى اصدار هذا القرار فى أول حكمه . فان كان حقا قد حرم جميع العناصر الريفية من المنحة ، وكان خاصا بالمدن فحسب ، وان كان حقا أنه طبق فى المدن على المواطنين الذين يتمتعون بالرعوية الكاملة (honestiores) ولم يطبق على الطبقات الوضيعة (humiliores) ، فلا يمكن اعتباره خطوة كبيرة نحو المساواة السياسية ونحو جعل جموع السكان فى جميع أرجاء الامبراطورية سواسية ، ويصبح بذلك وسيلة جزئية أكثرت من عدد المواطنين الرومانيين فى المدن ، ولا سيما مدن الشرق .

زد على ذلك ، أنه حتى اذا كانت المنحة لم تقتصر على مثل هذا العدد الضئيل ، بل كان لها تطبيق أوسع ، فالحق أنها كانت منحة

خاصة بالأفراد ، ولم تؤثر فى المركز القانونى للمدن ، فبقيت المدينة « الأجنبية » على حالها ، حتى بعد أن أصبح جميع سكانها من رعايا رومة (cives Romani) ؛ وهذا ينقص من أهمية هذا القرار إلى حد كبير جدا ، ويقـودنا الى الاعتقـاد بأنه اذا استثنينـا أثره على الضرائب ، وهو ما يؤكده ديو ، كان لقرار كراكلا هدفان خاصان . منح كراكلا الرعوية الرومانية الطبقات التى تحمل أعباء البلدية ، والطبقة العليـا من بين سكان القرى (فأثر بذلك فى توحيد (συνοικισμός) سكان الريف والمدن)، كما منحها بعض أفراد من الطبقات الدنيا ، فأكثر بذلك من عدد أولئك الذين ألزموا حمل أعباء الخدمات فى المدن . ولما أصبح لهم الآن حقوق سياسية مساوية ، لم يكن لهؤلاء الرعايا الرومانيين الجدد عذر فى الهرب من هذا الثقل الفادح . زد على ذلك أنه عندما منح كراكلا الرعوية الرومانية الى هؤلاء المنبوذين من قبل ، أراد بذلك أن يطريهم وأن يكسب ولاءهم . ولكن غرضه الأول لم يكن رفع الطبقات الدنيا بقدر ما كان وضع الطبقات العليا لا فى رومة وايطاليا فحسب ، بل فى الولايات أيضا . وهو بذلك يغض من كبرياء الطبقة الحاكمة فى المدن ، وينقص من ثقتهم بأنفسهم ، ومنهم تتألف الطبقة الأرستقراطية فى الامبراطورية والبلديات . أصبحت الرعوية الرومانية الآن شيئا عاديا وشرفا لا قيمة له، ففقدت قدرها ، وأمكن منحها حتى لطبقة المستسلمين (dediticii) دون الحاق ضرر بأحد . والحق أن منحة كراكلا لم تقدم عونا لأحد ، ولم يكن لها أهمية حقيقية ، اجتماعية كانت أم اقتصادية . وبقى عبء الخدمات والضرائب على حاله ، واتسعت الشقة بين سكان المدن والفلاحين ، كما اتسعت الهوة بين الرعاع والطبقة الوسطى فى المدن ، وخضع رعايا رومة الجدد للقانون الرومانى . وفى هذه الفترة التى ساد فيها قانون امبراطورى موحد ، لم يكن لهذا الأمر من مغزى كبير . وهذا كل ما هنالك .

ومهما قلت أهمية دستور كراكلا من الناحية العملية ، فهو من وجهة النظر التاريخية قد أنهى فترة ، وبدأ أخرى . اذ يتمثل فيه موت الدولة الرومانية التى تقوم على مجلس الشيوخ والأمة الرومانية (Senatus Populusque Romanus) ، والتى كانت لا تزال المثـــل الأعلى للملكية المستنيرة . وأصبح كل فرد الآن رعية رومانية ، ومعنى ذلك بلا مواربة أنه لم يعد هناك رعايا رومانيون بعد ذاك . وحالما أصبحت الرعوية الرومانية مجرد لفظ ، ومجرد لقب ، فقدت كل أهميتها ولم يبق لها من ذلك شيء . كان لتمتع المرء بالرعوية الرومانية مغزى كبير الى عصر متأخر كزمن تراجان وهادريان . فالمواطنون الرومانيون ، وان لم يكونوا بعد سادة العالم وحكامه ، فقد كونوا الطبقة العليا من بين سكان المدن ، وكانوا جماعة هامة ذات نفوذ من الوجهة الاجتماعية ، ان لم يكن من الوجهة القانونية والسياسية . وكان الرعايا الرومانيون فى نظر أريستيديس هم أعلى الطبقات وأفضلها . فلما منحت الرعوية لكل فرد دون تفرقة ، أصبحت الرعوية الرومانية مجرد اسم : أصبحت تعنى فقط أن حامل هذا اللقب يقطن باحدى مدن الامبراطورية . وفى العصر المتأخر أصبحت تعادل فى المعنى أن المرء من سكان الامبراطورية الرومانية على العموم ، أى انه رعية لامبراطور رومة الذى تقمص الدولة الآن. وعندما ظهر سلطان الأباطرة ، فقدت الرعوية الرومانية قيمتها السياسية . أما الآن فقد فقدت قيمتها الاجتماعية أيضا . وليس من اليسير أن نقرر ان كان كراكلا قد أدرك ذلك عندما أذاع قراره (٣٧) .

لا حاجة بنا هنا الى ترديد أهم الوقائع الخاصة بما حدث فى حكم كراكلا القصير ، سياسية كانت أو حربية . فبعد أن أصاب الامبراطور بعض النجاح الحربى فى ألمانيا ، وبعد أن قضى فترة قصيرة على تخوم الدانوب ، بدأ حملة عظيمة ضد بارثيا . ومن البين أن مشكلة بارثيا لم

يجد لهاسيپتميوس حلا ، ولكن عظم النكبة التى نزلت بالأسرة المالكة فى بارثيا مهد لكراكلا فرصة مواتية ليحصل على نتائج دائمة . غير أن علمنا بهذه الغزوة سيء جدا . وقبل أن يتم شيء ذو بال ، قتل الامبراطور ، قتله أحد ضباطه بايعاز من رئيس الحرس ، ماركوس أوپليوس ماكرينوس (M. Opellius Macrinus). وقدشبت حرب أهلية قصيرة عقب إعلان ماكرينوس امبراطورا . ولم يكن الجيش بعد رفه العيش فى زمن كراكلا ، وبعد أن ملئت قلوب الجنود ثقة فى بر أسرة سيڤيروس ، ليرغب فى الاعتراف برجل ليس من هذه الأسرة عاهلا على رومة ، وأن يبقى على ولائه له . فعندما ظهر منافس فى شخص ابن أخ لكراكلا وهو شاب يدعى باسيانوس ولقبه ايلاجابال (أو هليوجابالوس) كان رئيسا لكهنة اله حمص (ايميسا)، فضله الجنود فورا على ماكرينوس الذى لا يعرفون عنه شيئا ، والذى لم تحظ أولى خطواته بموافقتهم ، ولم تحز اتصالاته بمجلس الشيوخ رضا فى أعين الجند[٣٨] . كان حكم ايلاجابال قصيرا ومليئا بالحوادث . فتجاريبه الدينية ذائعة مشهورة . ومحاولته خلق دين عالمى على أساس هذه التجاريب ، دين يقبله كل انسان ، وتقديس سلطان الامبراطور بوصفه ممثل الاله على الأرض ، لم تؤت ثمارها . ولكنه على أى حال نجح فى اشعال غضب كل رومانى نبيل فى جميع أنحاء الامبراطورية ، وفى اثارة بعض الجنود . وكانت نتيجة ذلك أن اثنتين من النساء الثلاث السوريات الماكرات اللائى رفعنه الى العرش وحكمن باسمه ، وهما جوليا مايسا وجوليا ماميا ، استبدلتاه ، رغم أنف أمه ، جوليا سويايمياس ، بشاب آخر اسمه باسيانوس وهو ابن خالته الذى اتخذ اسم سيڤيروس اسكندر [٣٩] .

ولا حاجة بنا الى الافاضة فى شرح الناحية السياسية من حكم اسكندر . لقد أثنى عليه ديو ، ومدحه الى حد ما هيروديان وكأن عهده يمثل

عودة تامة تقريبا الى مبادىء الملكية المستنيرة . وربما كان هناك بعض الصدق فى هذا الرأى فيما يمس نوايا الامبراطور على الأقل . ولكنه لم يكن حراً طليقا . فوراءه وقف الجيش ، ذاك الجمع المتراص من الجنود الذين أفسدهم آل سيفيروس وعودوهم طرائق سياسية تحول دون أى رجوع حقيقى الى مبادىء الانطونينيين . فلم يكن الجنود يسمحون بعودة السلطان حقا الى رجال من أعضاء مجلس الشيوخ ومن الفرسان . ولم يكونوا يحتملون أن يصبح رجل قوى ذو عزيمة مستشارا للامبراطور الصغير . وهم قد عارضوا أشد معارضة أى تخفيض فى مرتباتهم وأى رجوع للنظام الحربى الدقيق . فبعث مبادىء الأنطونينيين فى هذه الظروف كان حلما . اذ كان الامبراطور أداة فى يد الجنود وعبدا خاضعا لهم . وكان عليه أن يطأطىء الرأس أمام تلك الضرورة المرة (٤٠) . ولقد أصبح الجيش على مر الأيام غير صالح كأداة لحماية الامبراطورية . ولقد منيت الحرب ضد الحكام الجدد فى الشرق ، وأعنى بهم الفرس ، باخفاق يكاد يكون تاما . ولم تختم هذه الحرب بكارثة ، لأنه كان لدى الفرس مشاكلهم التى تتطلب منهم حلا . أما الاضطرابات الخطيرة التى قامت على التخوم الألمانية فقد دعت الى محاولة من جانب الامبراطور أن يشرى سلما ، وقد أدى ذلك الى اغتياله غدرا بأيدى جنوده أنفسهم (٤١).

قدر البقاء للأساس الذى قام عليه بناء الدولة الجديد الذى وضعه سبتميوس ، ووطد قواعده كراكلا . فمن الناحية الخارجية ، لم يكن هناك تغيير . وكما كانت الحال من قبل ، حكم الامبراطور بوصفه الرئيس الأعلى للأمة الرومانية ؛ وكما كانت الحال من قبل ، كانت السلطة العليا فى الدولة فى قبضة مجلس الشيوخ الذى يسلمها الى الامبراطور ؛ وكما كانت الحال من قبل ، أنجبت الطبقات السناتورية وطبقة الفرسان الضباط الذين احتاجهم الامبراطور لقيادة الجيش وادارة الامبراطورية ؛ وكما

كانت الحال من قبل ، كانت الطبقة الأرستقراطية فى المدن تحكم هذه المدن ، واستمر الجيش جيشا رومانيا مؤلفا من مواطنين رومانيين . ولكن الحق والواقع أنه لم يبق من الحكومة القديمة الا اسمها . وكان لزاما أن تذهب سدى أى محاولة لتغيير هذه الأحوال . وصمم الجنود على أن يبقوا حكام الامبراطورية وسادتها ، وألا يسمحوا للطبقات العليا ، وكانت لا تزال قوية وفيرة العدد ، أن ترقى ثانية الى مراكز السلطة . ولقد واجهت الامبراطورية الرومانية أزمة من أكبر الأزمات فى تاريخها .

خيم بؤس عظيم على ربوع الامبراطورية خلال حكم كراكلا وايلاجابال واسكندر . لم تكن هناك حقا حروب أهلية سالت فيها الدماء زمنا طويلا ، اذا استثنينا الحرب الوحيدة التى نشبت بين ماكرينوس وايلاجابال ، وكانت محلية فى صبغتها ، ولم تؤثر فى الأجزاء الأخرى من الامبراطورية . ولكن جسم الامبراطورية أصابه الانحلال الى حد لم يكن يقدر معه على الصبر على ضغط الحروب الخارجية الخطيرة التى كانت تهدده . أما اسراف رجل كايلاجابال — واليه ينسب خراب مالية الامبراطورية فى مصادرنا — فلم يكن أمرا ذا أهمية عظيمة . فالمشكلة الأساسية كانت كيف تجد الامبراطورية نفقات حملات عظيمة كان لابد من القيام بها ، والا أصبحت الامبراطورية نهبا لغزوات لا تنقطع يشنها الايرانيون فى الشرق ، والايرانيون والألمان فى الشمال الشرقى . كان لابد من مجهود عظيم ، وكان لابد منه فى التو . وكان هذا معروفا على وجه العموم فى جميع أنحاء الامبراطورية . أدرك ذلك سيپتميوس سيڤيروس ، وكذا كراكلا واسكندر سيڤيروس . وقد كانوا جميعا يعبرون فى هذا الأمر عن الرأى العام . وكان كراكلا يحلم بأنه سيكون الاسكندر الأكبر الثانى ، وأنه سيحقق غرض الملك المقدونى العظيم بأن يجمع فى أمة واحدة ، وتحت حكومة واحدة الجنسين

الحربيين المثقفين فى العالم ، وهما الايرانيون والرومان ، حتى يقف تيار الهمجية الذى هدد بابتلاع الامبراطورية الرومانية ومملكة بارثيا . فهذا حلم لم يكون عبثا ، وان أطلعنا على الأمانى الرومانتيكية التى رددت فى تلك الأوقات العصيبة . غير أنه من العبث أن ننظر الى هذا الحلم الرومانتيكى على أنه فكرة سياسية خطيرة حالت جريمة ماكرينوس دون تحقيقها . فهذا الحلم الذى بعد عن الحقيقة المرة بعدا يسترعى النظر يحمل طابع الظروف التى أحدقت بالامبراطورية وهى فى دور الانحلال . والحق أن اتخاذ باسيانوس الثانى اسم الاسكندر يدل على أن هذه الفكرة المستحيلة نبتت فى خيال الملكات السوريات الذى لاحد له ، وعنهن نقلها الامبراطوران اللذان يحملان اسم باسيانوس .

ولقد خابت تجربة كراكلا واسكندر لا لانحلال الجيش وفساد نظامه يوما بعد يوم ، ولكن أولا وقبل كل شىء لأن الامبراطورية كانت من الفقر بحيث لا تستطيع أن تجد النفقات الباهظة التى يتطلبها هذا المشروع الضخم . نهب كراكلا الامبراطورية ، كما نهبها اسكندر ، كى يقوما بمشروعهما الذى خاب ولم يؤد الى نتيجة . ولقد وضح بعد فترة قصيرة أن مصادرات كومودوس وسبتميوس سيفيروس والزيادة الهائلة فى موارد الدولة المالية على حساب الثروات الخاصة لم يجلب للامبراطورية الغنى ، وانما جر عليها الفقر . واضطر پيرتناكس وهو نفسه ممن أغرموا بالاكثار من الأراضى (agrarius mergus) لكى يحد من ازدياد الأرض البور الى الالتجاء الى وسيلة عامة كانت الى حد ما رجوعا على مدى واسع للوسائل التى اتبعها هادريان . أهاب بسكان الامبراطورية أن يحتلوا الأرض البور ، وأن يصبحوا بذلك ملاكا بدلا من مستأجرين . وعلى ما نعلم ، خاب هذا الرجاء . واضطر اسكندر الى الالتجاء الى الطريقة التى استحدثها ماركوس أورليوس كى يضمن زراعة الأراضى

البور أن يسكن عليها أسرى أتى بهم من وراء الحدود . ونحن نسمع عرضا أن فى زمانه حدث أيضا نقص فظيع فى عدد المواشى فى ايطاليا ، وأن أسواق اللحوم فى رومة باتت خاوية (٤٣) .

ويتبين من ذلك أنه كان فى جسم الدولة الرومانية داء عضال امتدت جذوره ، فأصبح من المستحيل شفاؤه بالوسائل المهدئة — لقد دأبت الدولة على نزف رأس المال ، وهو دم الحياة الذى يجرى فى شرايين الامبراطورية . وكانت كل الطرق التى رسمت لاعادة توازن المالية العامة مجرد محاولات تكررت للاستيلاء على أموال أكثر ، سواء أكانت هذه الوسائل عنيفة كمصادرات سبيتميوس ، أم كانت أدق تنظيما ، وان لم تكن أقل ضررا . قامت حروب سبيتميوس سيڤيروس وكراكلا واسكندر ، كما قامت حروب تراجان وماركوس أورليوس ، وان تكن أوسع مدى ، على نظام الخدمات ، على تسخير الفقراء (humiliores) والقاء المسئولية الاجبارية على عاتق الطبقات العليا (honestiores) . ففى وثائق هذه الفترة يقابلنا باستمرار ذكر لمثل هذا الابتزاز . وقد بلغ نظام التسليم الجبرى فى مصر ، على ما يظهر ، من الدقة حدا لايقارن ، فى زمن كراكلا كما فى زمن اسكندر . وحتى قبل ذلك فى زمن سبيتميوس أصبح نظام الخدمات حملا ثقيلا مما دعا مواطنا من ذوى المروءة فى البهنسا أن يلتمس الاذن فى انشاء مؤسسة خاصة تهون العبء على أهالى بعض القرى فى المديرية (نوم) . ضرب نظام الاستيلاء أطنابه . كان لابد من تسليم الحبوب ، والجلود ، والخشب اللازم للحراب ، ودواب الحمل . أما دفع أثمانها فكان يسير على غير هدى ، وكان حقا معضلة (٤٤) .

سادت الأحوال نفسها فى آسيا الصغرى وفى سوريا . وتشهد نقوش كثيرة على ثقل عبء التشييع (παραπομπή أو prosecutio) ، ونعنى به المسئولية عن نقل الجنود والمؤن (annona) للجيش بانتظام . وقد وقع

هذا العبء الأليم على كاهل أفراد الطبقة الأرستقراطية فى البلـديات .. وسار بازائه داء عضال آخر هو ابتزاز عمال الامبراطور وموظفى البلديات الذين كانوا يطلبون فى أسفارهم المأوى والطعام من أهل المدن والقرى على السواء . كان ايواء الجنود مأساة حقيقية : فاعتبر أهالى سوريا أن احتلال البارثيين أخف وطأة اذا قيس باقامة جنود الرومان زمنا طويلا . ولقد انقضى الزمن الذى كان الأثرياء فى الولاية يتقدمون طواعية لحمل أمثال هـذه الأعباء . فان ذكر سكان الولايات فى نقوشهم بين الحين والآخر أنهم قاموا بأداء هذه الخدمات ، فهم يفعلون ذلك ليدللوا على أنهم قاموا بأداء واجبهم ، وأن هذا الواجب لم يكن هينا . فطراز المحسنين الأثرياء فى المدن أخذ فى الانقراض ؛ واحتل مكانهم أعضاء من الطبقة البورجوازية فى المدن ، أثقلتهم أعباء الخدمات ، ولكنهم كانوا لا يزالون قادرين على حملها (٤٥) .

وكانت سياسة كراكلا واسكندر نحو الطبقات الدنيا ونحو الطبقات العليا هى عين سياسة سيبتميوس . ولقـد حابى التشريع الامبراطورى الطبقات الدنيا : ومن أهم شواهدنا الخلابة التشريع الخاص بالمدارس الذى تكلمنا عنه فى الفصل الرابع(*) . ويمثل القرن الثالث الذروة فى نشر التعليم الابتدائى فى جميع أرجاء الامبراطورية . ونحن مدينـون للمدارس التى وجدت فى قرى مصر الصغيرة والتى ربما كانت مرتبطة بالمعابد بأكثر أوراق البردى الأدبية التى عثر عليها حديثا ، والتى كانت تستخدم كنصوص مقررة على التلاميذ . وفى القرن الثالث ، فى عهـد اسكندر سيفيروس نسمع لأول مرة عن مدرسى المدارس الأولية فى القرى كطبقة . وفى الكتاب الثالث من مؤلفه الذى أطلق عليه اسـم

(*) أنظر على الخصوص هامش ٣٢ .

« فتاوى » (Opiniones) يتكلم أ لبيان عن هؤلاء المدرسين ، وهو واثق أنهم يوجدون فى المدن والقرى على السواء (٤٦) .

وأكثر من ذلك أهمية الوقائع الخاصة بالعلاقة بين الامبراطور وبين أهل الريف ، وعلى الخصوص مستأجرى الضياع الملكية . فليس هناك من ريب أنه بعد زمن ماركوس أورليوس وكومودوس أصبح الجيش مؤلفا حقا من الفلاحين المجندين فى القرى القائمة فى مناطق المدن وعلى ضياع الأباطرة . وأضحت الآن هذه القرى العضد الأول فى دعم سلطان الأباطرة ، بعد أن ظهر العداء بين المدن وبين الملكية الحربية التى أقامها سيپتميوس وخلفاؤه . وقد أدرك الأباطرة ذلك وساروا على وحيه . ولقد أكدنا من قبل الولاء والثقة التى وضعها أهل الريف عامة ومستأجرو الضياع الملكية خاصة فى سيپتميوس وأهل بيته — وهم الوارثون الشرعيون للأنطونيين المقدسين ؛ ولقد دللنا على أن هذا الشعور ، وهو وليد الجهود الصادقة التى بذلها سيپتميوس لتحسين مركز هذه الطبقة على العموم أو مركز المستأجرين للضياع الملكية على الخصوص برفعهم الى مركز الملاك على أوسع نطاق ممكن ، يتفق اتفاقا تاما وسياسة هادريان.

ومظهر آخر من هذه السياسة عينها تفصح عنه بعض النقوش التى وجدت حديثا فى منطقة سيتيفيس (Sitifis) وقد شرحها وكشف غامضها ج . كاركوپينو (J. Carcopino) فى مقالين خاصين . كانت منطقة سيتيفيس ، أو أصبحت فى زمن سيپتميوس ، ضيعة واحدة شاسعة يملكها الامبراطور ، ويزرعها مستأجرون وقع بعضهم تحت تأثير الحضارة الرومانية ، وكان البعض الآخر من السكان الأصليين . وفى عام ٢٠٢ بعد الميلاد فى زمن سيپتميوس حرمت هذه المنطقة من حاميتها من الجنود الرومانيين ، وربما حدث ذلك تحت ضغط ضرورات حربية عاجلة . وبدأت عملية تركيز السكان من المزارعين فى قلاع (castella) محصنة . وهو عمل بدأه

وشجع عليه الأباطرة . وكان هذا التركيز يعنى تمدين أهـل الريف والنهوض بمستوى حياتهم الى درجة كبيرة . ويتضمن هذا أيضا قدرا ، ربما كان كبيرا ، من الحكم الذاتى فى شكل نظام بلدى غير متكامل ، عليه مسحة حربية قوية ؛ وقد كان ذلك طبيعيا اذ أن الغرض من هذا التركيز كان حربيا محضا . فمنح حقا مستأجرو هـذه القرى المحصنة امتيازات كثيرة ، فضلا عن نظام يشبه نظم البلديات . وأصبحوا ، كما أصبح أهل القرى الحرة فى تراقيا وسوريا ، المورد الذى يعتمد عليه جيش آل سيفيروس . وربما يكونون نتيجة لذلك قد عوملوا من وجهة النظر الاقتصادية كملاك ، لا كمستأجرين . ولقد زاد عددهم بلا ريب بايفاد مستوطنين جدد من وقت الى آخر منحوا أرضا من مخصصات الامبراطور (defensiones و definitiones)(*) ، وعلى الرغـم من أنهم كانوا اسميا مستأجرين (coloni) فقـد كانوا من الناحية العملية من صـغار الملاك الحربيين [٤٨] . اسـتمر كراكلا وكذلك اسـكندر فى تنفيذ السياسة التى وضعها سيپتميوس . فزاد عدد القلاع (castella) زيادة مطردة ، واسـتبدلت حيطانها التى كانت من الطـين بتحصينات من الحجـر ، وأنشئت فيها مبـان عامة ، وما اليهـا . وتدل نقوش عديدة على تنفيـذ سياسة آل سيفيروس هـذه فى تخوم أفريقية . وهذه السياسة ، كما أشرنا من قبل ، انطوت على حماية خاصة لهذا القسم من السكان ، وهم البقية الباقية من العناصر الحربية فى الامبراطورية . وقد كانت هذه الظاهرة من الوضوح حتى أن مصادرنا الأدبية لم تغفل ذكرها . فسيرة اسكندر التى كتبت باللغة اللاتينية تذكر صراحة جهوده فى هذا السبيل [٤٩] . كان آل سيفيروس على علم بشجاعة فلاحى الدانوب والبلاد السورية ، وكانوا يعجبون اعجابا شديدا بمقدرتهم الحربيـة وقوتهم العضلية ، ولهذا حاولوا أن يوجدوا طبقة مماثلة فى أفريقية . ولذلك

(*) أنظر ص ٣٩٢ .

أضحت التخوم فى زمن آل سيڤيروس أكثر أجزاء الامبراطورية رخاء .
ولقد أظهروا عرفانهم بجميل الأباطرة بأن أولوهم فى نقوشهم ثناء حارا .

ولم تقتصر الحركة على أفريقية . ومن الممكن اقتفاء آثار سياسة مشابهة لتمدين الفلاحين ، سواء أكانوا ملاكا أم مستأجرين ، وتدريبهم تدريبا عسكريا فى الأراضى التراقية . وتشهد وثيقة كشفت حديثا هناك بنشاط سپتميوس فى هذا السبيل ، وهى وثيقة تخبر عن تشييد سوق (ἐμπόριον) بنى منذ وقت قريب ويدعى پيزوس (Pizus) . وقد ألحق بهذه الوثيقة ثبت بأسماء المستوطنين الجدد ورسالة من حاكم الولاية . ولم يكن پيزوس الا مؤسسة من منشآت عديدة مماثلة بناها سپتميوس ، وهذه الحقيقة ذكرها الحاكم فى رسالته بوضوح . وأمثال هذه الأسواق (ἐμπόρια) لم تكن مدنا ولا قرى . وعند التحدث عنها أسماها الحاكم محطات (σταθμοί) و (stationes) . وهذه التسمية تؤكد صفتها الحربية . غير أنها لم تكن اقطاعيات منحت للجنود أو لقدماء المحاربين . فلقد أتى بمن استقر فيها من القرى المجاورة . ولهذا فانى واثق أن هذه الأسواق (ἐμπόρια) فى تراقيا نظير للقلاع (castella) فى أفريقية ، وأنها أنشئت لنفس الغرض . وينبغى أن نذكر أنها لم تحظ بحكم ذاتى حقيقى ، وان كان لها نظام شبيه بنظام المدن فى شكله الخارجى . فرؤساؤها الذين يدعون (τόπαρχοι βουλευταί) و praefecti) يعينهم الحاكم ويمنحهم قدرا معلوما من الاختصاص . وعلى ذلك فأحسن مثل لهؤلاء الرؤساء هم حكام (praefecti) المستعمرات الرومانية القديمة والبلديات (municipia) فى ايطاليا (٥٠) .

اتبع سپتميوس وخلفاؤه من بعده سياسة مماثلة فى ولايات ألمانيا العليا . غير أن الأمر لم يكن هنا حشد الفلاحين جنودا فى الجيش ، وانما حمل الجنود على أن يفلحوا الأرض . ومن الذائع المعروف أنه فى زمن سپتميوس عسكر فى ألمانيا فى الحصون (castella) الجديدة التى كانت

تحرس التخوم اما جنود من الرومان أو نفر (numeri) جندوا من بين السكان الأصليين . وقد ألحقت بهذه الحصون قطع من الأرض كان يزرعها جنود الحامية ، لكل فرد منهم قطعة يقوم بأداء أجرتها من دخله الى ملتزم خاص كان هو أيضا من الجنود . ويمكن أن نقارن أمثال هذه الحصون (castella) بالبروج (burgi) المشيدة على تخوم الدانوب . زد على ذلك أنه وراء خطوط هذه القلاع (castella) المحصنة التى يسكنها جنود يفلحون الأرض ارتقت بعض القرى الصغيرة (vici) وبعض الأكواخ (canabae) التى أحاطت بحصون سابقة الى مصاف المدن ونظر اليها على أنها مهاد لتنشئة جنود جيش الاحتلال فى ألمانيا وعوملت على هذا الأساس [٥١] .

وأخيرا ، يمكننا أن نذكر هنا ما يسمى بمستعمرات (κολωνίαι) قدماء المحاربين الرومانيين فى مصر . فهذه الاقطاعات التى توجد فى أنحاء متفرقة من مصر ، ولا سيما فى الفيوم ، يرجع تاريخها على الأقل الى أوائل القرن الثانى بعد الميلاد . وهى تتألف من الجنود المسرحين الذين اشتروا قطعا من أراضى الدولة بثمن اسمى . وكونوا فى منطقة قرية ما جماعة من المواطنين الرومان لهم حكومة ذاتية الى حد ما (على منوال الهيئات السياسية (πολιτεύματα) القديمة فى عصر البطالمة) . وقد أنشئت فى زمن سبتميوس مستعمرات (κολωνίαι) كثيرة جديدة من هذا الطراز عينه . وأعطى كل من استقر بها قطعة من الأرض كمنحة من الامبراطور ، وربما تمتع ساكنوها بقسط أكبر من الحكم الذاتى . لم تعمر هذه المؤسسات طويلا ، ومن المحتمل أنها أدمجت فى البلديات فى مصر عندما بدأ ذاك التطور الذى أعقب منح الرعوية الرومانية لجميع الطبقات الممتازة من بين السكان فى عام ٢١٢ بعد الميلاد . غير أننا لا نستطيع أن ننكر أن سبتميوس ، فضلا عن أنه أحيا سياسة الأباطرة الأول بارسال عدة

مستعمرات من قدماء المحاربين الرومان الى مختلف المدن القائمة (كصور وسامرية فى فينيقية وفلسطين وأخى الكبرى وقاجا فى أفريقية) ، فانه حاول أن يحصل على نفس النتائج التى حصل عليها فى أفريقية وتراقيا وألمانيا بانشاء مستعمرات (κολωνίαι) جديدة فى مصر . لقد حاول أن يخلق من تلك الجماعات الكثيرة من المستوطنين الجدد الذين استقروا فى جميع أرجاء مصر مراكز لتنشئة جنود لجيشه ، وعددا مماثلا من خلايا الملتفين حول عرشه ، الأوفياء لنظام حكمه ، وهو نظـام وراثى حربى مطلق [٥٢] .

ولقد بينا فى الفصل السادس أن الصلة كانت وثيقة بين انشـاء الحصون (castella) وتحضير القرى والأكواخ (canabae) فى جميع أرجاء الامبراطورية وبين انتشار جمعيات الشـباب التى أطلق عليها اسـم (collegia iuvenum) فى أنصاف المدن وأنصاف القرى هذه ، وقد كانت تلك الجمعيات حقا رابطات خاصة لتدريب جنود المستقبل وضباطه وتلقينهم الروح الملائم . أليس مما يثير الدهش أن نرى هذه الجمعيات التى أنشأها أغسطس وأراد منها أن تكون الأساس الذى يرتكز عليه نظام الامبراطورية الحربى ويقوم عليـه طراز الحكومة الجـديد تختفى من ايطاليـا والولايات المتمدينة وتهاجر الى تخوم الامبراطورية ؟ وهذه الهجرة من المعالم المميزة لذلك الوقت — فالطبقات الوحيدة التى أصبح فى استطاعة الامبراطورية أن تعتمد عليها الآن تتكون من السكان الذين لم تمسهم المدنية الا قليلا ، والذين يقيمون ببلاد تصاقب الأقطار التى يسكنها أعداء رومة [٥٣] . فغرام كراكلا بالألمان ذوى الشعور الذهبية وبالفرس المحبين للقتال شعور غريزى بالحقيقة المرة ، وهى أن على الامبراطورية الرومانية أن تعتمد الآن على هذه العناصر . فلم يكن هناك سبيل آخر للنجاة[٥٤] . ومن الممكن أن جمعيات مماثلة من الشبان نمت فى الحصون (castella)

الأفريقية الجديدة (٥٥) . وهذه الحقائق تتفق والعادة التى ذكرنا آنفا وهى اسكان البرابرة فى داخل الامبراطورية الرومانية .

ورغم الجهود العديدة التى بذلت لتحسين مركز الطبقات الدنيا ، فان حال هذه الطبقات ، وحال الطبقات العليا كذلك ، اذا استثنينا فئات قليلة ، كانت سيئة جدا ، ولا سيما من وجهة النظر الاقتصادية . فكلما ازداد ضغط الدولة على الطبقات العليا ، أضحى مركز الطبقات الدنيا أشد ثقلا . ولم يكن للقانون وللادارة حول أو قوة لتحسين هذه الحال . رأى اسكندر سيفيروس ، أو بالأحرى رأى وزراؤه ، وهم أعظم فقهاء هذا العصر ، أن الأمبراطورية فى خطر ، وحاولوا انقاذها . فأبطلت بعض الضرائب ابطالا جزئيا ، كضريبة التتويج (aurum coronarium) الثقيلة التى جباها ايلاجابال دون رحمة أو شفقة . ونالت الطبقات العليا والمدن بعض التخفيض وحظيت ببعض الامتيازات . ولكن أمثال هذه الوسائل لم تحدث النتيجة المقصودة (٥٦) . فقد لجأ اسكندر مرارا وتكرارا الى نظام السخرة والخدمات . فهذا هو المغزى الذى يجب أن نستنتجه من ابتداعه وسائل جديدة تمس جمعيات التجار وأرباب الصناعة . فلكى يجتذب التجار ولا سيما الى العاصمة أبطل الضريبة التى كانوا يقومون بأدائها ، واستبدلها بضريبة جديدة فرضها على الصناع المنتجين . وجلب فى نفس الوقت من مصر كميات كبيرة من المنتجات الصناعية التى قدمها اليه فلاحو ذلك القطر وصناعه كضريبة نوعية (anabolicum) . وهذه الوسيلة تبين شدة النقص فى انتاج الصناعات المحلية فى رومة وثقل الضرائب والسخرة على التجارة البحرية والتجارة بوجه عام . ومن ناحية أخرى أكثر سيبتميوس من عدد تلك الجمعيات التى ظن أنها نافعة للدولة، ومنها كانت الدولة تطلب الخدمة الاجبارية . ولقد رأينا أن رابطات أصحاب السفن والتجار كانت تخضع الى قدر كبير من الاشراف الحكومى

منذ أوائل القرن الثانى . وذكرنا الامتيازات التى منحها لهم عدد من الأباطرة كتعويض عما يقومون به من عمل قسرى . وأكدنا أهمية الخطوات التى اتخذها كومودوس لتنظيم أسطول أفريقية التجارى على غرار أسطول الاسكندرية . وقد نظمت الآن على هذا الأساس عينه رابطات أخرى ، وربما حدث ذلك فى مدينة رومة . لم ينظر اليها الآن على أنها جمعيات قانونية فحسب ، وانما على أنها رابطات تخدم الدولة . وتذكر مصادرنا تجار النبيذ والبقل وصانعى الأحذية ، ولكنها تذكر هذه الأسماء على أنها أمثلة (exempli gratia) . وهى تشير إلى أن لقرار اسكندر صبغة أعم ، وأنه أثر فى كل رابطة تقريبا . وعلى أى حال ، فاتجاه هذا الاصلاح واضح بين : لم يكن للحكومة حول أو قوة ، ان لم تستخدم القسر وان لم تتدخل للاشراف ، كوسيلة أخيرة . التهم الجيش موارد الدولة ، وحرم الناس ، حتى فى رومة ، يوما بعد يوم المؤنة الضرورية . وفى هذا المأزق الفظيع ، لجأت الحكومة الى القسر والى السرقة المنظمة . وكانت احدى وسائلها القاتلة ، كما هو معروف ، سوء استعمالها لضرب العملة وسوء استغلالها لهذا الاحتكار . تلفتت الحكومة حولها تبحث عن موارد جديدة ، فلم تأنف من التزوير المحض بخفض قيمة عملتها التى قلل استعمال الأخلاط باطراد من قيمتها يوما بعد يوم . وقد ارتفعت الأثمان نتيجة لذلك ارتفاعا باهظا ، وأصيبت الأعمال التجارية السليمة بكساد ماحق (٥٧) .

انتجت حالة الامبراطورية والسياسة التى انتهجها الأباطرة ما كان يمكن أن يرتقب . فاختفى التحسن الطفيف الذى شعر به الناس فى أواخر حكم سيپتميوس . وملأ اللصوص ثانية البر والبحر خلال حكم اسكندر . فاتخذت وسائل صارمة ولا سيما ضد القرصنة ؛ وكأن الامبراطورية الرومانية قد رجعت الى حالتها المحزنة فى القرن الأول قبل الميلاد ، حينما

جعل القراصنة التجارة مستحيلة من الوجهة العمليـــة . فلا عجب ان امتلأت قلوب الكتاب من أمثال كيبريان بالتشاؤم وهم يصفون أحوال الامبراطورية فى أواخر تلك الفترة . فهم يتحدثون عن الانهاك التـــام لقوى الطبيعة وقـــوى البشر ســـواء بســـواء . ويمكننا أن نقـــول ان كيبريان كان مسيحيا وانه جعـــل الألوان فى صـــورة أحلك من الحقيقة ، ولكنا لا نستطيع أن نصدق أنه كان يستطيع أن يضرب على هذه الوتيرة الا اذا كانت الصورة التى رسمها جد مألوفة عند قرائه (٥٨) .

الفصل العاشر
الفوضى العسكرية

تعتبر السنوات التى تفصل بين موت اسكندر سيڤيروس وارتقاء دقلديانوس من أحلك الفترات فى تاريخ الامبراطورية الرومانية . فطالما كان لدينا مؤلف هيروديان وبقايا كتاب كاسيوس ديو التى تمكننا من التحقق من أخبار كتاب سير الأباطرة الذى وضع باللغة اللاتينية ، وطالما اعتمدت هذه السير على مصدر جدير بالثقة ، قلت هذه الثقة أم كثرت ، حافل بالمعلومات القليلة أو الكثيرة ، كان فى استطاعتنا لا أن نتتبع الخطوط العامة للتطور السياسى فى الامبراطورية فحسب ، بل وأن نتعرف بمعونة المصادر القانونية والوثائق الأثرية على المعالم الأساسية لتطورها الاجتماعى والاقتصادى . ينتهى تاريخ كاسيوس ديو بانتهاء عصر اسكندر سيڤيروس ، وأما المؤرخ الذى أتمه والذى نعرفه بما بقى له من شذرات فلم يكن يلم بالحوادث الماما عضو مجلس الشيوخ العظيم الذى عاصر آل سيڤيروس . ويقص هيروديان الحوادث الى عصر ماكسيمينوس وآل جورديان ، وهو يعطينا فى كتابه السابع صورة رائعة لهذه السنين المضطربة التى يختم عندها تاريخه . وليس لدينا لتأريخ الفترة التالية ما يشبه هذه المؤلفات التى اكتظت بالمعلومات وامتازت بحسن الصياغة .

أما المصادر الأدبية الوحيدة لتأريخ النصف الثانى من القرن الثالث ، وهى فترة الانقلاب الاجتماعى الكبير واعادة بناء الامبراطورية على نهج شامل ، فهى من ناحية سِيَرُ الأباطرة التى وضعت باللغة اللاتينية أعنى القسم الثانى من ذاك المؤلف الذى أطلق عليه اسم مؤرخى الأباطرة

(Scriptores Historiae Augustae) (وينقصه تاريخ السـنوات التى تمتد بين عامى ٢٤٤ و٢٥٣ أى سنى حكم آل دكيوس وحكم هوستليانوس وجالوس وڤولوسيانوس وايميليانوس ، وبدء حكم آل ڤاليريانوس ، وبه نقص ثان عند نهايتـه يمتد طوال حكم كارينوس) ، ومن ناحيـة أخرى الموجزات والتواريخ السنوية القصيرة العجاف سواء فى اللاتينية أو اليونانية . فالتى باللاتينية هى تلك التواريخ الموجزة المقتضبة التى ألفها يوتروپيوس وأورليوس ڤكتور ، وذاك المؤلف الذى كتب ما يسمى مختصر تاريخ القياصرة (Epitome de Caesaribus) والذى ينسب خطأ الى أورليوس ڤكتور : وكل هذه الكتب يرجع تأليفها الى النصف الثانى من القرن الرابـع . واذا استثنينا ما بقى لنا من السفسطائى المشـهور يوناپيوس الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع ، فان التواريخ السـنوية التى كتبت باليونانيـة والتى ألفها زوسـيموس وزوناراس وكيدرينوس وسينكيلوس وآخرون يرجع تاريخها الى العصر البيزنطى . فالأخبار التى تنقلهـا التواريخ اللاتينية القصيرة والتواريخ السـنوية اليونانية ضئيلة الى أبعد حد ، وليس بها شىء عن الأحوال الاجتماعيـة والاقتصادية . فهى ليست بتواريخ ، وانما هياكل عظمية عارية لتواريخ . والمصدر الوحيد اذن الذى يبـدو فى شكل تاريخ هو مجموعة سـير الأباطرة التى وضعت باللغة اللاتينية [١] .

وعلى هذا ، تصبح مسألة تحديد قيمة هذا المصدر فى هذه الفترة التى هى موضوع بحثنا أكبر أهمية منها فى الفترة السـابقة ، وفى عين الوقت تقل وسائل تحديد هذه القيمة عنها فيما مضى . فلا غرو أن نجد أن هناك اختلافا كبيرا فى الرأى ، وهذا الاختلاف يتسع كثيرا فيما يمس أصل هذه السير ، والعصر الذى جمعت فيه ، ويقل فيما يخص قيمة هذا المصدر . والى الأبحاث الدقيقة التى قام بها انمان (Enmann) وديساو (Dessau) وعلماء كثيرون آخرون يرجع الفضل فى أننا نعلم الآن أن أهم مصدر للسير اللاتينية والموجزات اللاتينية على السواء هو تاريخ عام

لأباطرة رومة ، من الممكن أنه اتخذ شكل سير قصيرة على النهج الذى اتبعه سويتونيوس (Suetonius) وقد وضع حوالى عصر دقلديانوس . وهناك مصدر مشابه ، ولكنه ألف باللغة اليونانية واستخدمته التواريخ الحولية اليونانية ، ومن الممكن أن من هـذا المصدر استمد فى بعض الأحيان مؤلف السير اللاتينية أو مؤلفوها الذين كتبوا عن أباطرة القرن الثالث . والى هنا نجد اتفاقا لا بأس به بين الباحثين المحدثين . وأصعب من ذلك بكثير تحـديد صفة هـذا التاريخ المزعوم الذى حوى سـير الأباطرة . أكان ذاك المصدر جافا أعجف كمؤلفات يوتروپيوس وأورليوس ڤكتور ، وكالموجز (Epitome) ؟ أكان يحوى هيكلا فقط ، وان يكن هيكلا يعتمد عليه فى تأريخ القرن الثالث ، أو هل كان كثير الشبه بمؤلف سويتونيوس ، أى أنه يقص تاريخ حيـاة الأباطرة ، ثم يسرد بعض الوقائع فضـلا عن حروبهم الداخليـة المدمرة وطرفا من حروبهـم الخارجية ؟ وبعبارة أخرى ، هل أخذ مؤلف السير اللاتينية أو مؤلفوها كل ما هو موثوق به من أخبارهم من مصدر كثير الشبه شكلا بالموجزات اللاتينية ، بينما انتحـلوا ما عدا ذلك ، أم هل أخـذ أو أخذوا من هذا المصـدر أكثر مما اسـتقت المختصرات وملأوا الفراغ من آن الى آخر بالرجوع الى مؤلفات أخرى، بعضها باليونانية والبعض الآخر باللاتينية، وربما رجعوا كذلك الى بعض الوثائق ؟

لو آمنا بما قال عن هذا الموضوع المؤلف أو المؤلفون للسـير التى وضعت باللغة اللاتينية لوجب أن نقرر أن الفرض الثانى هو الصحيح ، وهذا الفرض ربما وجد ما يعضده فى أن من كتب سـير آل ماكسيمين وسـيرة پوپينوس وبالبينوس وسير آل جورديان اعتمـد على كتاب هيروديان كمصدره الأسـاسى . ولكن التحليل الدقيـق للوثائق التى أدمجها كتاب السير أظهر بطريق لا يقبل جدلا أنها كلها موضوعة — من رسائل وقرارات لمجلس الشيوخ وخطب الأباطرة وخطب الآخرين ، وما أشبه . زد على ذلك أن جميع المؤلفين تقريبا الذين تقتطف منهم هـذه

السير ، اذا استثنينا قلة قليلة ، لا يعرف عنهم شيء البتة ، وهذا مما يرجح الميل الى اعتبار هذه المقتطفات محض افتراء . وهذا كله مما يزلزل ثقتنا فى صدق الأخبار التى ترويها السير اذا لم تتفق مع ما ورد فى الموجزات اللاتينيــة والتواريخ الحولية اليونانية . هذه طبعا ريب ، ولكنها ريب بنيت على تمحيص دقيق للأخبار القليلة التى يمكن تحقيقها ، وعلى ما هو محتمل على وجه العموم . فالسير اللاتينية اذن لا يمكن الاستعانة بهـا الا فى عمل رســم تخطيطى لتاريخ الأباطرة بعــد زمن آل جورديان . ولا يمكن أن نقبل أخبارها الهزيلة عن الحياة الاجتماعية والاقتصــادية الا عندما يشد أزرها خبر موثوق به جــاء ذكره اما فى الموجزات أو فى المصادر القانونية أو فى الوثائق كأوراق البردى والنقوش أو على النقود . والحق أن مثل هذا الاتفاق نادر الحدوث لا لخصائص مصدرنا هــذا فحسب ، ولكن لطبيعة هذه المصادر الاضافية أيضا : واذا ضربنا صفحا عن النقود وما بها من أدلة قليلة جدا ، فتلك الشواهد التى نستقيها من الوثائق ليست بكثيرة ، كمــا هو طبعى فى عصر اضطرابات وحروب وثورات لا حصر لهــا . وما وصل الينا منها يندر أن يشــير الى وقائع وحوادث استهوت لب المؤرخين القدامى ووجدت مكانا فى كتبهم .

وهناك مشكلة أخرى تمس كتاب سير الأباطرة (Scriptores Historiae Augustae) ولا تقل فى أهميتها عن موضوع مصادر هذه السير وهى مسألة العصر الذى جمعت فيه هذه السير ونشرت ثم شخصية مؤلفيها أو مؤلفهــا . ومن السير نفسها واشاراتها بعضها الى بعض وعناوينها يتضح أن عدد من جمعوا هــذه الســير ستة ، ثلاثة منهم هم : أيليوس كاپتولينوس وتريبيليوس پوليو وفلاڤيوس ڤوپيسكوس سيراكوسيوس مسئولون عن سير الأباطرة بعد اسكندر . ومن أقوالهم عينها ومن اهدائهم السير الى الأباطرة يظهر أنهم جميعا عاشوا فى عصر دقلديانوس وقسطنطين . فان كان هذا حقا ، وان كان المؤلفون حقــا عاصروا الحوادث التى جرت فى القرن الثالث ، فلنــا أن نرتقب أن نجد فى كتبهم ، مهما نضب معينهــا ،

أخبارا موثوقا بها لم تستق من المصادر الأدبية ، ولا سيما أخبارهم التى تتحدث عن نهـاية هذا القرن . ثم كان لنا ، وهـذا أهم ، أن ننتظر أن تتنفس عند قراءة هذه السير جوتلك الفترة وفى هذه الحال يكون لنا أن نرفض الاعتقاد فى صحة نسبة الوثائق والخطب ، ويكون لنـا أن ننظر الى القصص على أنه ريطوريقى ، وريطوريقى كالمعتاد أيضا ، ويكون لنا أن ندمغ أقوال الأباطرة وتصريحاتهم بأنها مفتراة ، ولكن يكون من الواجب علينا أن نفترض أننا نصغى عند قراءة هذه السير التى ألفت فى القرن الثالث الى رجال ولدوا ونشأوا أثناء الاضطرابات التى بعثتها الحروب الأهلية وأنه على الرغم من رداءة أسلوبهم فقد عبروا عن شعور العصر ومزاجه .

والى زمن قريب جدا لم يتطرق الشك الى أحد فى أن هؤلاء المؤلفين الستة الذين مر ذكرهم عاصروا حقا دقلديانوس وقسطنطين . فآخر هؤلاء المؤلفين مثلا ، وأعنى به ڤوپيسكوس ، يروى فى اسهاب قصصا عن حياته نفسه وعن حياة رجال عرفهم تتفق تماما مع نصوص موثوق بها كل الثقة . وقد كانت هذه الملحوظة وملحوظات أخرى من نفس النوع هى التى دعت بعض الباحثين المحدثين المبرزين فى مدرسة النقد الذين درسوا هذا الموضوع بدقة ، أمثال هـ . پيتر (H. Peter) و ش . ليكريڤـان (Ch. Lecrivain) و ج . دى سانكتيس (G. de Sanctis) و ج . تروپيا (G. Tropea) و ت. مومسين (Th. Mommsen) و ديل (Diehl) — دعك من ذكر باحثين آخرين أصغر سنا من هؤلاء فى انجلترا وأمريكا — يصرون على الاعتقاد فى أن هؤلاء المؤلفين الستة اشتركوا فى وضع هذه السير ، وأنهم عاشوا حقا وأنهم رووا بدقة أخبار العصر الذى عاشوا فيه ، على الرغم من أدلة قوية كثيرة قدمها جماعة من الباحثين نظروا الى الأسـماء كلها والى التواريخ المزعومة جميعها على أنها محض افتراء . كان هـ . ديساو أول من بين فى مقالين دبجهما أن هذه السير لا يمكن أن تكون قد وضعت فى عصر دقلديانوس وقسطنطين وأنها تتنفس جوا متأخرا جدا

هو زمن ثيودوسيوس ، ولهذا فكل أسماء المؤلفين وجميع الأخبار التى تتحدث عن حياتهم تزوير شائن ، وأما المؤلف الحقيقى فمعاصر لثيودوسيوس ومن أصدقاء آل سيماخوس وآل نيقوماخوس . كان لهجوم ديساو أثر قوى عميق . فأسرع أ . سيك (O.Seeck) توًّا الى تعضيد نظريته بأدلة جديدة كثيرة ، ولكنه وضع تاريخ التزوير فى وقت أكثر تأخرا (فى القرن الخامس) ، ودخل ا . فون دوماسزيوسكى (A. von Domaszewski) نفسه الحلبة وحمل عددا من تلاميذه على أن يوقفوا جهودهم على بحث هذه المشكلة بحثا دقيقا واضعين نصب أعينهم البرهنة على صدق نظرية ديساو من ناحيتها العامة . وقد عضد دوماسزيوسكى هذا الرأى ، على الرغم من أنه يختلف مع ديساو فى تأريخ التزوير ، فهو يرى أنه حدث فى عصر جريجورى التورى (فى أواخر القرن السادس) . وقد تقبل رأى ديساو مؤرخون آخرون مبرزون ، أمثال أ. هيرشفيلد (O. Hirschfeld) و ا. كورنيمان (E. Kornemann) ، وأذاعه تلاميذهم .

ولم تكن الأدلة التى قدمها ديساو وأتباعه قاطعة مفحمة ولكنها كانت دون ريب قوية مقنعة الى أبعد حد ، وقد جعلت كثيرين من الباحثين المبرزين فى المدرسة المعارضة يقبلون حلا وسطا . وعلى هذا أظهر مومسين استعداده بأن يعترف أن مجموعة سير الأباطرة التى جمعت فى زمن دقلديانوس وقسطنطين تناولها وراجعها أحد معاصرى ثيودوسيوس وهو المسئول عن أكثر ما تحوى من أباطيل ، وعن اعطائها طابع عصر ثيودوسيوس الذى تحمله هذه السير . وقد رفض أكثر مؤرخى الألمان هذا الحل الوسط الذى عرضه مومسين والذى قبله بعض الباحثين واستمروا فى اصرارهم على المطالبة بقبول تام للمبادىء الأساسية التى قامت عليها نظرية ديساو . أما المشكلة العويصة الخاصة بالأسباب التى حملت المنتحل على أن يضع كتابه فقد أبرزها منذ وقت قصير جيفكين (Geffcken) وهول (Hohl) اللذان يظنان أن المنتحل رمى الى أن يقدم

الى القراء فى زمانه تاريخ أباطرة الرومان من وجهة نظر آخر الوثنيين أمثال سيماخوس مناديا بالتسامح نحو الوثنيين وموجها طعنات خفية ضد المسيحية ، وربما كان له قصد آخر هو تمجيد مجلس الشيوخ وعرض تاريخ الأباطرة من وجهة النظر السناتورية . والحق أن وجهة النظر هذه واضحة قوية فى هذه السير التى تفصل بين خيار الأباطرة الذين انحازوا الى مجلس الشيوخ وبين شرارهم ، بين الملكية المستنيرة والطغيان العسكرى ، بين أولئك الذين اعتنقوا مبدأ التبنى وبين الذين قالوا بوراثة العرش . ولما اتخذ أصدقاء سيماخوس هذا الموقف لم يجرأ أحد منهم على التحدث باسمه ، ولكنهم زعموا أنهم ينشرون كتابا وضعه مؤلفون عاشوا فى عصر متقدم نسبيا ووقت سبق انتصار المسيحية وتوطيد أركان الطغيان الشرقى توطيدا نهائيا .ولقد خيم الجهل على تلك الفترة فلم يفكر أحد قط فى تمحيص الأخبار الموضوعة والتدليل على أن هذه السير جميعها لم تكن الا محض افتراء وغش .

هذه وما أشبهها هى الخطوط الرئيسية للنظرية التى يقف دونها أنصار ديساو . ولا يمكن القول بأن الأدلة التى تسندها قاطعة مفحمة . فهناك أمور كثيرة لا زالت تفتقر الى شرح وايضاح ، ولا زال هناك بون شاسع بيننا وبين اقامة الدليل على أن المنتحل أو المنتحلين أجادوا الاجادة كلها فى تشييد أكوام من الأباطيل على نبذ تاريخية قصيرة . ومع ذلكم فان كان لب النظرية سليما — ومن الصعب البرهنة على أنه ليس كذلك — فمؤرخو سير القياصرة (Scriptores Historiae Augustae) يجب أن يستبعدوا وألا يقبلوا فى سلسلة المصادر التاريخية الجديرة بالثقة التى تحدثنا عن الحياة فى القرن الثالث . فهم يمثلون وجهة نظر سادت فى آخر القرن الرابع ، ووجهة النظر هذه كانت تختلف من وجوه كثيرة عن وجهة نظر أولئك الذين عاشوا فى القرن الثالث . اذ لا يمكن لعصر ركود واستسلام أن يحسن فهم مزاج أزمنة الثورات ، ولا يستطيع الا بمشقة أن يعطى صورة صحيحة لذلك العصر ، ولا سيما ان كان قصد الكاتب

التدليل على آراء خاصة يحتضنها زعماء عصره . فيجب اذن الحذر والالتفات عند الاستعانة بأى حدث نجده مذكورا فى تاريخ القياصرة (Historia Augusta) ، فان لم تؤيده مصادر أخرى أجدر بالثقة ، فالطريق القويم هو اهماله والامتناع عن بناء أى نتيجة عليه على الاطلاق [٢] .

وعلى ذلك يحق لنا عند بحث العصر الذى أعقب اسكندر سيڤيروس أن نعتمد الاعتماد كله على هيروديان ، وهو يعلم علما تاما أحوال عصر ماكسيمين وآل جورديان ، ويمكننا أن نستعين (كما سنبين فيما بعد) بالخطبة المعاصرة « الى الامبراطور » التى ألفها أحد معلمى البلاغة أو السفسطة فى القرن الثالث ، ويجب أن نعيد رسم الخطوط التاريخية الرئيسية على هدى الموجزات والتواريخ الحولية والنصوص الأثرية التى تمدنا بها النقود والنقوش وأوراق البردى . ولما كانت كل هذه المصادر ، عدا النقوش وأوراق البردى ، لاتمدنا الا بأشياء قليلة جدا عن التطور الاجتماعى والاقتصادى ، وجب أن يقوم تاريخنا لهذه الفترة ، كلما أمكن ، على هذه الوثائق . وعلى الرغم من ضآلة ما لدينا من أدلة ، وعلى الرغم من أنها بقايا متناثرة ، فالعمل نفسه لا يمكن بأى طريقة أن يعد محالا لا أمل فيه . فقد أمدتنا بعض أجزاء الامبراطورية الرومانية منذ وقت قريب بأخبار كثيرة قيمة لم تستخدم من قبل فى رسم الخطوط الأساسية للصورة الكاملة .

وقبل محاولة الكشف عن المعالم الأساسية للتطور الاجتماعى والاقتصادى فى الامبراطورية بعد موت اسكندر وقبل اعتلاء دقلديانوس ، من الأفضل القاء نظرة قصيرة على الحوادث السياسية التى جرت فى هذه الفترة المضطربة وعلى الحروب الداخلية والخارجية التى خربت الامبراطورية [٣] . فبعد أن قتل اسكندر غدرا (عام ٢٣٥ بعد الميلاد) ، نادى الجنود بأحد قادتهم امبراطورا . وكان رجلا من أصل وضيع ،

كان فلاحا من تراقيا ، وضابطا لا يحتل مركزا عاليا ، ولكنه كان جنديا شجاعا قديرا قويا عرف جيشه وأدرك ميول الجندى العادى وأمانيه ، وذلك الرجل هو جايوس يوليوس ڤيروس ماكسيمينوس (C. Julius Verus Maximinus)

كان حكمه القصير فترة لم تنقطع من الحروب الخارجية والنزاع الداخلى . ومن المحتمل أن ماكسيمينوس لم يطلب قط من مجلس الشيوخ أن يوليه ثقته ، ولم يظهر أبدا فى رومة . كان حقا من أباطرة الجنود . وكان قائدا حسنا ورجلا يخضع له الجيش ، فأصاب بعض النجاح الهام على تخوم الرين والدانوب (عام ٢٣٦ بعد الميلاد) ، ولكن دحرته مقاومة قوية لقيها على الخصوص فى ايطاليا ، وكذلك فى أفريقية ، مقاومة لتلك المبادىء التى قام عليها حكمه (عام ٢٣٨ بعد الميلاد) . وسنتكلم عن هذا الموضوع فيما بعد . نودى فى أفريقية بعضو هرم من أعضاء مجلس الشيوخ كان اذ ذاك يحكم أفريقية القنصلية ، هو ماركوس أنطونيوس جورديانوس (M. Antonius Gordianus) . وقد التفت حوله الطبقات العليا من السكان . غير أنه وابنه هلكا فى نضال ضد جيش أفريقية النظامى الذى كان يقوده كاپيليانوس ، نائب نوميديا . وبعد موتهما وقع اختيار مجلس الشيوخ الذى كان قد اعترف بجورديان على اثنين من بين أعضائه هما ماركوس كلوديوس پوپينوس ماكسيموس (M. Clodius Pupienus Maximus) ودكيوس كايليوس كالڤينوس بالبينوس (D. Caelius Calvinus Balbinus) وقد قاما بتنظيم الدفاع عن ايطاليا ضد ماكسيمينوس تساعدهما فى ذلك لجنة مؤلفة من عشرين عضوا من أعضاء مجلس الشيوخ . ولم يتمكن ماكسيمينوس ، على عكس ما كان هو نفسه ينتظر وعلى عكس ما كان يرتقب الناس جميعا ، من أن يدخل ايطاليا ، فهلك تحت جدران أكويليا التى سدت طريقه الى رومة .

وبعد مضى شهر تقريبا على موته تخلص الحرس البريتورى من الامبراطورين اللذين اختارهما مجلس الشيوخ من بين أعضائه بضربة قوية (coup de main) ، واعترف بحفيد جورديان الأكبر ، أعنى جورديان الثالث ، امبراطورا وحيدا ، وهــو صبى صغير ، اضطر پوپينوس وبالبينوس الى اشراكه معهما فى الحكم قبل المأساة الختامية (عام ٢٣٨ بعد الميلاد) . وقد تساوى حكم جورديان الثالث فى الاضطراب مع حكم سلفه وتحرجت الحال فى الشمال الشرقى والشرق على السواء . ففى الشمال الشرقى غزا القوط (الذين كانوا قد ألفوا حكومة قوية فى النصف الثانى من القرن الثانى فى مراعى روسيا الجنوبيــة) ولايات الدانوب بعد أن عقدوا حلفا مع بعض القبائل الايرانية ومع الكارپيين (Carpi) فى تراقيا . وفى الشرق استولى شابور الأول ، ملك الفرس الجديد ، على ممتلكات رومة فى سوريا . وقد صدت الخطر عن الدانوب يد قوية هى يد توليوس مينوفيلوس حامى أكويليا . وفى الشرق دفع الامبراطور نفسه الخطر بارشاد حميه جايوس فوريوس سابينيوس أكويلا تيميسيثوس (C. Furius Sabinius Aquila Timesitheus) ، فهزم الفرس وحرر سوريا . وبينما كان الجيش على أهبة الدخول فى أرض الأعداء توفى تيميسيثوس ، وقتل الجنود جورديان الثالث فى فتنة شبت بسبب قلة الخبز ، وذلك لنقص فى المؤن (عام ٢٤٤ بعد الميلاد) ، وربما كان قتله بتحريض من ماركوس يوليوس فيليبوس الذى خلف تيميسيثوس فى رياسة الحرس الامبراطورى . وفيليبوس هذا هو ابن شيخ عربى من أهالى حوران (٤) .

سارع فيليبوس الى انهاء الحرب الفارسية بالتنازل للفرس عن أرض واسعة وبالجلاء عن الجزيرة وهرول الى رومة . وفى طريقه الى رومة هزم بعض القبائل الألمانية وكاد يفنى قبائل الكارپيين فى تراقيا على نهر

الدانوب . وبينما هو مقيم فى رومة ، احتفل (عام ٢٤٨ بعد الميلاد) بمرور ألف سنة على بناء مدينة رومة ؛ ولكن فى أثناء ذلك ثارت الكتائب التى تعسكر على الدانوب بعد أن تعرضت مويسيا (Moesia) لغزو خطر قام به عدد قليل جدا من القوط ، ونادوا بأحد ضباطهم الصغار امبراطورا ، وهو تيبريوس كلوديوس مارينوس پاكاتيانوس . ثم قام مدع آخر فى الشرق اسمه يوتاپيانوس . فأرسل فيليب ضد پاكاتيانوس أحسن قواده واسمه جايوس ميسيوس كوتنوس ترايانوس دكيوس وهو من أهل پانونيا وكان فى ذاك الوقت حاكما على مويسيا . لكن مارينوس قتل (عام ٢٤٩ بعد الميلاد) بأيدى جنوده أنفسهم . الا أن دكيوس أجبره عسكره (الذين هددوه بالقتل ان رفض) على المناداة بنفسه امبراطورا ، وعلى السير لمهاجمة فيليبيوس . وقد سار لملاقاته وهزمه بالقرب من ڤيرونا (عام ٢٤٩ بعد الميلاد) (٥) . ولما تربع دكيوس وحده على العرش ، أسرع الى الدانوب لصد غزوة كبيرة جديدة شنها القوط بعد أن اخترقوا مويسيا وانتشروا فى تراقيا وحاصروا فيليپوبوليس ، حاضرة تراقيا . وهزموا الامبراطور الذى ذهب لنجدة تلك المدينة الغنية الزاهرة . وسقطت مدينة فيليپوبوليس بسبب خيانة پريسكوس قائد حاميتها الذى تطلع الى ارتقاء العرش بمعونة الأعداء . وقد أعمل القوط فيها السلب والنهب . ولما كر القوط راجعين اعترض دكيوس طريقهم بجيش جديد ، ولكنه دحر مرة أخرى ، وسقط هو وابنه فى ميدان القتال (عام ٢٥١ بعد الميلاد) (٦) . أما القوط فعادوا سالمين الى أوطانهم يحملون الأسلاب . ونادى الجنود الرومانيون بجايوس ڤيبيوس تريبونيانوس جالوس امبراطورا . وعندما انتشر طاعون خطر فى ولايات الدانوب ، شرى جالوس من البرابرة سلاما ، ثم رحل الى رومة . وبعد مغادرة الامبراطور ، نجح ماركوس ايميليوس ايميليانوس ، حاكم مويسيا السفلى ، وهو مراكشى ولد فى موريتانيا ، فى هزيمة القوط ، فنادى به جنوده امبراطورا (عام ٢٥٣ بعد

الميلاد) . وفى أثناء النضال الذى تشب بين الامبراطورين ، أعنى جالوس وايميليانوس ، قتل الأول فى معركة بالقرب من انترامنا ، من أعمال ايطاليا ، وأما الثانى فقد قتله جنوده فى سبوليتيوم . فنودى بپوبليوس ليكنيوس ڤاليريانوس حاكم رايتا (Raetia) ، وكان قد سار من الرين الى ايطاليا لنجدة جالوس . واعترف به مجلس الشيوخ .

وعندما وصل ڤاليريان الى رومة ، أشرك معه توا ابنه پوبليوس ليكنيوس اجناتيوس جالّينوس (٧) . لقد كاد السيل يبلغ الزبى على تخوم الرين والدانوب والحدود الفارسية . واخترق الفرانك والأليمانيون تخوم الرين وغزوا بلاد الغال . وعلى الرغم من أن القوط أوقفوا على تخوم الدانوب ، عندما صدهم بعض القواد الأكفاء فى جيوش الدانوب ، فانهم والبورانيين استخدموا موارد مملكة البسفور الغنية والخاضعة لهم ، فجمعوا أسطولا من السفن اليونانية ، عبروا به البحر الأسود الى شاطىء القوقاز والى تراپيزوس (تريبيزوند) ثم ساروا على مقربة من الساحل يقصدون ولاية بيثينيا الغنية . ولم يكن هناك فى ذلك الوقت أسطول رومانى يستحق الذكر . وقد عمت القرصنة جميع البحار . ولذا كان لدى القوط كل نهزة ليقوموا بنجاح بهجوم جرىء . وكانت الحال فى المشرق أسوأ منها فى المغرب . فقد غزا الفرس سوريا ، وهددوا آسيا الصغرى . فسار ڤاليريان لصدهم . وبالقرب من اديسا (الرّها) هُزم هزيمة نكراء ، ووقع فى أيدى أعدائه (عام ٢٦٠ بعد الميلاد) . ونجت آسيا الصغرى وسوريا من قبضة فارس ، أنقذ الأولى كاليستوس أحد قواد الرومان الذى طرد الفرس ، وأنقذ الأخرى آوديناثوس شيخ تدمر الذى أنزل الهزيمة بالغزاة عندما حاولوا عبور الفرات فى عودتهم الى فارس .

وفى هذه اللحظة الخطرة أنقذ جالّينوس الامبراطورية الرومانية

بنشاطه ومثابرته . اضطر الى اخلاء جزء من بلاد الغال . ولكنه نجح فى انقاذ ايطاليا من غزوة ألمانية مستعينا بجنوده من الألمان والبريطانيين . ثم دحـر على الدانوب اثنين من مغتصبى العرش ، همـا انجنـوس وريجاليانوس ، وقد نودى بهما امبراطورين الواحد تلو الآخر (عام ٢٥٨ بعد الميلاد) . ومن جهة أخرى أدركت الولايات ، على ما يظهر ، الخطر العظيم الذى كان يهددها ، فاتخذت العدة لانقاذ نفسها . ففى بلاد الغال نادى الجنود وسكان البلاد بماركوس كاسيانيوس لاتينيوس پوستوموس ، محيي الولايات الغالية (restitutor Galliarum) ومؤسس الامبراطورية الغالية (imperium Galliarum) ونجحوا فى طرد الألمان من الولاية (عام ٢٥٩ بعد الميلاد) . وعلى الفرات أصاب اوديناثوس التدمرى توفيقا مماثلا ضد الفرس وضد اثنين من الرومان اغتصبا العرش هما باليستا وماكريانوس اللذان — بعد أن ساعدا فى طرد الفرس من آسيا الصغرى — أقاما فى سوريا حكما مشتركا بين ابنى ماكريانوس وهما ماكريانوس وكويتوس . واعترف جالّينوس باوديناثوس الذى استمر يحكم سوريا وجزءا من آسيا الصغرى وبقى يحمل لقب امبراطور (imperator) حتى قتل سنة ٢٦٦/٢٦٧ بعد الميلاد ، فخلفه على العرش ابنه ڤابالاثوس ، وقد قامت أمه الملكة زينوبيا بأعباء الحكم نيابة عنه [٨] .

وكان جالّينوس فى أثناء ذلك لا يزال منهمكا فى مغالبة المغتصبين للعرش ومحاربة البرابرة ، وفى محاولة الدفاع عن أفريقية (ضد ملك من المور يدعى فاراكسين) وفى حماية غاليا وايطاليا وبلاد الدانوب . وبالرغم من أنه أصاب بعض النجاح ضد پوستوموس ، اضطر فى النهاية الى الاعتراف به حاكما فعليا (de facto) على الولايات الغالية ، وقد عاق نشاط جالّينوس قيام القوط بغزوة كبيرة برا وبحرا ومحاولة كثيرين اغتصاب العرش . ولقد انتشر الطاعون أيضا فى الامبراطورية . وهدم زلزال شديد مدنا كثيرة

زاخرة فى آسيا الصغرى (عام ٢٦٢ بعد الميلاد) . فضلا عن أن تمرد الجنود سبب أضرارا بالغة : فأعملت حامية بيزنطة مثلا السلب والنهب فى المدينة . وخربت غزوة جديدة للقوط بلاد البلقان وبلاد اليونان مرة أخرى . وعندما كان التخريب على أشده ، حول أوريولوس (Aureolus) أسلحته ضد مولاه . وقد كان أوريولوس هذا من أحسن قواد جالّينوس ، وكان الامبراطور قد عهد اليه بقيادة فرقة قوية من الفرسان أعدها لمحاربة پوستوموس . فأسرع جالّينوس من الدانوب الى ايطاليا وهزم أوريولوس ، وحاصره فى ميلان . ولكن جالّينوس قتل بأيدى جنوده الذين نادوا (عام ٢٦٣ بعد الميلاد) بماركوس أورليوس كلوديوس وهو ضابط فى جيش الدانوب وممن ولدوا فى ايليريا . وبارتقاء كلوديوس العرش يبدأ جمع من أباطرة الرومان أكثرهم من ضباط الجيش الشجعان يرجع أصلهم الى ولايات الدانوب ، وقد حاولوا أن يعيدوا الى الامبراطورية وحدتها ، وأن يقفوا سدا يحول بين جيرانها وبين اغراقها بجموعهم من الشمال والشرق . وكان عليهم طبعا ، كما كان على أسلافهم ، أن يواجهوا تمرد الجيش وميله الى الغدر ، وقد راح أكثرهم أيضا كما ذهب أسلافهم ضحية لمؤامرات عسكرية ، وبرز فى أثناء حكم كل واحد منهم من يطالبون بالعرش فى أجزاء الامبراطورية المختلفة . ولكن بينما أضحى مثل هذا السلوك ، على ما يظهر ، تقليدا أو عادة راسخة من عادات الجيش ، نجد علامات تدل على رد فعل سليم ضد تمزيق الامبراطورية وضد سير الجنود حسب أهوائهم . ومن وجهة النظر الحربية الخالصة درب الجنود جميعا ، لا جنود الدانوب فحسب ، أحسن تدريب . وامتازوا بروح حربية عالية . وكان الجنود على العموم صادقين فى ولائهم لأباطرتهم : حقا لقد سقط أكثر الأباطرة ضحية مؤامرات غادرة ، ولكن ذلك كان من عمل شراذم صغيرة ، ولم تشترك فيها أبدا جموع الجيش الزاخرة .

يجب أن نقنع بالقاء نظرة سريعة خاطفة على تاريخ السنين الثلاثين التى ختمت القرن الثالث على ما فيها من الارتباك والمآسى . لقد تميز حكم كلوديوس [٩] بانتصارات فى ألمانيا وعلى ضفاف الدانوب حيث سحق نهائيا قوات القوط وأوقف تقدمهم نحو ايطاليا أكثر من قرن . ولقد استأهل حقا لقب (القوطى) الذى عرف به فى التاريخ ، الا أنه لم يجد الوقت ليضم الامبراطورية الغالية المستقلة الى الامبراطورية الرومانية ، رغم أن هذه الامبراطورية الغالية كان قد انتابها انحلال داخلى ، فخلف امبراطور امبراطورا آخر بسرعة فائقة بعد موت پوستوموس (أليپيوس كورنليوس ليليانوس وماركوس أورليوس ماريوس وماركوس پياڤونيوس ڤكتورينوس) . وكانت امبراطورية تدمر فى الشرق أكثر رخاء وأشد تماسكا تحت حكم زينوبيا وابنها ڤابالاثوس ، وقد لاحت بالتدريج لزينوبيا فكرة انشاء امبراطورية رومانية شرقية مستقلة يحكمها أغسطس مستقل .

لاقى كلوديوس حتفه على ضفاف الدانوب عام ٢٧٠ ، وقد ذهب ضحية لطاعون عصف مرة ثانية بصفوف الرومان والبرابرة على السواء . فنودى فى الغرب بأخيه ماركوس أورليوس كونتيلّوس (Quintilius) ، وأولاه مجلس الشيوخ اعترافه ، غير أنه لم يستطع أن يحتفظ بمركزه عندما ناوأه لوكيوس دوميتيوس أورليانوس ، أكثر قواد كلوديوس كفاية ، وهو فلاح من ولايات الدانوب كماكسيمينوس وجندى خلق لنفسه مستقبلا رائعا بمقدرته الشخصية [١٠] . اكتنفت الامبراطورية فى حكم أورليان على قصره أخطار شديدة . ولكن حكمه كان أيضا عصر انتصارات باهرة للجيش الرومانى ، لا تقل عن انتصارات تراجان وماركوس أورليوس . وكان أول عمل واجهه هو أن يدفع عن ايطاليا غارة كبيرة شنتها قبائل الألمان من الجوثونجيين والأليمانيين . فبعد أن أصاب بعض النجح فى

حربه مع الجوثونجيين فى راتيبا ، ومع الفاندال فى پانونيا ، كان على أورليان أن يواجه غارة هائلة على ايطاليا شنتها قوات الجوثونجيين والأليمانيين مجتمعة . وعلى الرغم من هزيمته عند ميلان ، وشبوب ثورة فى رومة وفى بعض الولايات ، وتهديد القوط بالقيام بغزوة أخرى ، وخروج امبرطورية تدمر عن ولائها خروجا ظاهرا ، فقد حصن أورليان مدن ايطاليا بما فيها رومة ، واستنهض شباب ايطاليا الى الحرب ، ونجح فى النهاية فى طرد البرابرة من ايطاليا ، وفى اعادة سلطانه فى رومة وفى الولايات على السواء . وبعد أن هزم القوط ، سار الى الملكة زينوبيا ، واستطاع بعد حملة اكتنفتها الصعاب من كل جانب أن يعيد سيادة رومة على الشرق ، وأن يفتح مصر مرة ثانية ، وأن يستولى على مدينة تدمر ، ويأسر حكام الامبراطورية التدمرية ، رغم المدد الذى جاءهم من الفرس. وبعد أن عاد الى أوربا ، حيث كان عليه أن ينازل الكارپيين على الدانوب الأدنى ، دعى مرة ثانية الى المشرق على حين غرة لشبوب ثورة فى تدمر وفى الاسكندرية . وكان زعيم الثورة الأخيرة تاجر ثرى من أهل الاسكندرية ومن ملوك الصناعة فيها اسمه فيرموس . حطم أورليان الثورتين بسرعة ، وبقى عليه أن يتم وحدة الامبراطورية باخضاع الامبراطورية الغالية . وقد برهنت الأيام على أن العمل سهل جدا ، لأن آخر أباطرة بلاد الغال وهو جايوس پيوس ايسوفيوس تيتريكوس ، أحد أعضاء مجلس الشيوخ الرومانى ، غدر بجيشه وانضم فى اللحظة الحرجة الى صف أورليان . وبعد احتفال رائع بالنصر فى رومة (عام ٢٧٤ بعد الميلاد) ، ذهب أورليان ثانية الى الولايات ليعيد السلام الى نصابه فى غاليا ، وليعد حملة ضد فارس . وبينما كان الاستعداد قائما على قدم وساق ، قتلته عصبة من المتآمرين بالقرب من پيرينثوس من أعمال تراقيا (عام ٢٧٥ بعد الميلاد) .

ولم يكن للمتآمرين مرشح من أنفسهم ، أما الجنود فقد رفعوا أمر انتخاب امبراطور جديد الى مجلس الشيوخ . ويتبين من ذلك أنه على الرغم من أن الجيش كان قد اعتاد المناداة بالأباطرة واسقاطهم ، الا أنه كان لا يزال يؤمن بأن شرعية أى امبراطور مآلها فى النهاية الى مجلس الشيوخ . فانتخب مجلس الشيوخ رئيسه (princeps) وأول اسم فى ثبت الأعضاء وهو ماركوس كلوديوس تاكيتوس ، وكان آخر امبراطور حاول أن يعيد التعاون بين الامبراطور ومجلس الشيوخ وأن يسوى بينهما . دعته غزوة قام بها القوط الى آسيا الصغرى ، فنازلهم تاكيتوس وبدد شملهم ، ولكنه سقط فى ساعة النصر بأيدى متآمرين [١١] . فانتخب جيش المشرق ماركوس أورليوس پروبوس ليخلفه على العرش ، واعترف الغرب بأخى تاكيتوس امبراطورا وهو ماركوس أنيوس فلوريانوس . وبذا نشبت حرب أهلية جديدة . وتقابل المتنافسان بالقرب من طرسوس ولكن فلوريانوس قتله جنوده قبل أن يلتحم الجيشان . وتظهر فى حكم پروبوس المعالم نفسها التى ميزت كل حكم فى النصف الأخير من القرن الثالث . فلم يكن عليه أن يحمل العبء الفادح ، عبء محاربة البرابرة فى سوريا وفى بلاد الغال وقد انتشر الألمان فى هذه الولاية عام ٢٧٦ ، وخربوا دون شفقة مدن الولاية الزاهرة وحقولها الخصيبة ، بل كان عليه أيضا أن يحارب منافسيه ، أى مغتصبى العرش : بونوسوس وپركولوس فى بلاد الغال وساتورنينوس فى سوريا . وبينما كان يعد العدة لشن غارة على فارس ، قتله جنوده فى عام ٢٨٢ بعد الميلاد فى سيرميوم وهى مسقط رأسه [١٢] . فخلفه ماركوس أورليوس كاروس وهو من الدانوب أيضا [١٣] . وكان أهم عمل أتاه قيامه بحملة موفقة ضد الفرس ، بينما بقى ابنه كارينوس يحكم الغرب . ومات كاروس أثناء الحملة الفارسية ، وقتل ابنه الثانى ، نوميريانوس ، فى آسيا الصغرى أثناء عودته من

المشرق ، قتله حموه أريوس أبير الذى كان يؤمل أن يخلفه على العرش. ولكن أبير لم ينتخب امبراطورا . ونادى ضباط الجيش بجايوس أورليوس ڤاليريوس دقلديانوس الذى اعترف به المشرق لساعته . وفى الحرب الأهلية التى نشبت بين كارينوس ودقلديانوس، هزم كارينوس، ثم قتل . وتربع دقلديانوس على العرش وحده (١٤). وقد استطاع دقلديانوس ، على عكس ما كان منتظرا ، أن يحتفظ بمركزه كامبراطور دون معارض أو منازع طول مدة حكمه . ولم يكن دقلديانوس أسوأ ممن سبقوه على العرش ، ولم يكن بأحسن منهم . وهو ان نجح فيما أخفق فيه الآخرون ، فان سبب ذلك راجع الى أن الوقت قد حان ، وأن كأس الألم قد اترعت . وكانت الامبراطورية الرومانية فى حاجة ماسة الى سلم وكانت على استعداد أن تتقبله من الامبراطور بأى ثمن .

وقبل أن نتصدى لهذا العمل الشاق فنحلل ونشرح الثورة الاجتماعية والسياسية العظيمة التى رسمنا خطوطها الرئيسية وهى ثورة امتدت أكثر من خمسين عاما قبل أن يخبو أوارها ، يجب علينا أن نبحث السياسة التى انتهجها أباطرة الرومان أثناء هذه الأزمة . وقد يستطيع حتى القارىء الذى يلقى نظرة سطحية على المصادر التى تشير الى هذه الفترة المضطربة أن يرى بسهولة فى الوسائل التى اتخذها الأباطرة وعلى الخصوص ما جروا عليه فى أعمالهم الادارية اليومية تلك المبادىء الأساسية التى وضعها لتبقى على الدوام آل سيڤيروس والتى قامت بعض أجزائها على المبادىء التى وضعت فى عهد الملكية المستنيرة . وكان أكثر الأباطرة الذين خلفوا اسكندر أتباعا أوفياء لسبتميوس ، ولم يكونوا يقلون فى ولائهم له عن آل بيته . واننا لنشاهد بين الفينة والفينة رد فعل قوى ضد تلك السياسة فى محاولات يائسة للرجوع الى عصر الانطونيين المجيد وأيامهم المباركة ؛ ولكن هذه المحاولات زادت حقا فى اهراق

الدماء ، وتنج عنها ولاء أكبر وتعلق من جانب الأباطرة الذين أتوا بعدها بتلك المبادىء الأساسية التى قامت عليها سياسة سيپتميوس .

لقد تكلمنا فيما سبق عن تلك المبادىء ، وقد بينا أصولها وقد يكون من المفيد ايجازها فى كلمات قليلة . فمن وجهة النظر السياسية بدأ سيپتميوس يصبغ الحكومة بصبغة عسكرية منظمة ، بعد أن كانت بيروقراطية خالصة فى عهد سلفه . وكانت كلمة النداء هى بيروقراطية عسكرية ، على رأسها ملك ذو سلطة أوتوقراطية ، والملك وراثى فى أسرته ، ويقوم سلطانه على ولاء الجيش وموظفى الدولة له وعلى عبادة شخص الامبراطور . كان صبغ البيروقراطية بصبغة عسكرية يساوى اشاعة الهمجية فيها ، لأن الجيش فى هذا الوقت كان يتألف كله تقريبا من الفلاحين الذين يعيشون فى أقل أجزاء الامبراطورية حضارة ، ومن أبناء الجنود والمحاربين القدامى الذين استقروا فى اقطاعياتهم . ولبلوغ هذه الأغراض — صبغ الحكومة بصبغة عسكرية وتأمين سلطان الامبرطور — أبعدت الطبقات العليا القديمة تدريجا من مراكز القيادة فى الجيش ومن المناصب الادارية فى الولايات واستبدلوا بأرستقراطية عسكرية جديدة ، برزت ، مثل الأباطرة أنفسهم ، من بين صفوف الجيش الرومانى ، وكانت ، كالأباطرة ، دائمة التغير : ففى كل يوم يبرز رجال جدد من جميع الرتب والصفوف فى الجيش ليأخذوا أمكنة من رقوا الى مناصب الفرسان أو الى أرائك مجلس الشيوخ .

وكانت الأوامر فى نظام الادارة البيروقراطى العسكرى هذا تجىء على العموم من أعلى . وكان سمته نتيجة طبعية لعدم استقرار السلطة الامبراطورية وعدم بقائها على حال واحدة . ومن الممكن أن يحد بأنه نظام ارهابى مستمر ، اتخذ بين الحين والحين مظهرا حادا . وقد لعب أهم الأدوار فى هذه الادارة ألوف لا حصر لها من رجال الشرطة من

مختلف الأجناس . كانوا جميعا عمالا عسكريين وشخصيين يخـدمون الامبراطور . وكان واجبهم هو مراقبة الأهالى عن كثب مراقبة دقيقة فى المدن والقرى على السواء والقاء القبض على أولئك الذين يعتبرون خطرا على الامبراطور . وربما استخدموا أيضا للقضاء على أى اضطراب أو اضراب يحدث نتيجة لثقل ضغط الحكومة على الأهلين فى موضـوع الضرائب ، وأعمال السخرة . ومن المحتمل أنهم استعملوا لتوقيع القسر البدنى على من يتخلف عن دفع الضرائب أو عن القيام بالأعباء العامة التى كلف بها .

ومن المعالم البارزة فى هذا النظام الارهابى المنظم تطور مبدأ القسر تطورا بعيدا فى كل معاملات الحكومة مع الأهلين ، وعلى الخصوص فى محيط الضرائب والسخرة . فبازاء الضرائب ، وان كان أكثر منها عسفا ولا يقل عنها دقة فى تطبيقه ، سار نظام الاستيلاء على المواد الغذائيـة والمواد الخام والمصنوعات والأموال والسفن ودواب الحمل وتكليف الرجال فى أغراض النقل ، وما أشبه . ويكمل نظام الاستيلاء هذا مطالبة الأهالى بأعمال فردية . وعلى أساس هذا التكليف قام نظام كنظام التجنيد وكذلك الاستعداد لمواجهة كل عمل طارىء تطلبه الدولة . وسيطر أيضا نظام القسر عينه سيطرة تامة على تنظيم نشاط الدولة الاقتصادى . وحمل أغنى الأفراد فى أى هيئة المسئولية عن زرع الأراضى التى تملكها الدولة، وعن تحصيل الضرائب وجمع البضائع والأموال التى تستولى عليها ، ونقل الأمتعة والرجال باسم الدولة . وبما أن نجاح هـذا النظام كان يتوقف على تمكنه من الوصول فى سهولة الى كل فرد يجـوز قسره، وإجباره على أن يبقى على مقربة ليلبى النداء متى دعى ، كان هناك ميل طبعى الى ربط كل فرد بمكان اقامته وبالجماعة الخاصة التى ينتسب اليها مولدا ومهنة . فزارع الأرض عليه ألا يغادر محل اقامته وأن يستمر

فى عمله دون نظر الى رغباته وميوله . والجندى عليه أن يقيم فى معسكره، وعلى أبنائه أن يسارعوا الى الاندماج فى الجيش متى بلغوا سنا معينة . والعضو فى الطبقة العليا فى البلديات يلزمه ألا يبرح مدينته حتى يتسنى له القيام بواجبه الذى يفرضه عليه مركزه . وقد كلف صاحب السفن بأن يستمر عضوا فى رابطته ، مادام قادرا على أداء عمله ، وهكذا .

ليس هناك من جديد فى مثل هذا النظام . ولكن فى ظلال الثورة الدائمة اكتسب من الضخامة ما فاق كل حد . ولما لم يستخدم كمورد ثانوى من موارد الدولة بل كموردها الأساسى ، أضحى داء حقيقيا هد رخاء الامبراطورية ، وطوح بروح سكانها المعنوية . لم يصبح مجموعة من قوانين الطوارىء تنفذ فى الأوقات العسيرة وتبطل فورا متى عادت الأمــور الى مجاريها ، كما كان فى زمن الأنطونيين وحتى فى عهـد آل سيفيروس . ولما غدت الأحوال الشاذة هى القاعدة ، لا الاستثناء ، أضحت الأوامر التى نظر اليها من قبل على أنها وسائل مؤقتة دعت اليها الطوارىء هى نظام الادارة العادى أى الأساس الذى يقوم عليه بنـاء الحكومة كله .

وليس من السهل أن نرسم الخطوط الرئيسية لتطور هذا النظام فى الأزمنة المضطربة خلال الفوضى العسكرية ؛ فمعلوماتنا قليلة ، والثقة بها ضئيلة . ولكن هناك لحظة واحدة فى بدء هذا العصر نعثر فيها على معلومات كثيرة جيدة يمكننا الاعتماد عليها اعتمادا تاما — وهى الفترة التى تلت موت اسكندر وامتدت طيلة حكم ماكسيمينوس على قصره وأثناء رد الفعل الذى أعقب موته ، ولكنها لا تشمل حكم جورديان الثالث ، ولا السنوات الست التى حكمها فيليب والتى لا يكاد يوجد لدينا عليها دليل. وفيما يخص حكم ماكسيمينوس ، لدينا تاريخ مثير مفعم بالوقائع كتبه معاصر هو هيروديان ، وقد رددته سير أباطرة ذاك الوقت

التى كتبت باللغة اللاتينية مع بعض اضافات استقتها من مؤرخ يونانى آخر عاش فى القرن الثالث ، وربما كان ديكسيپوس . وفيما يتعلق بحكم فيليب ، لدينا خطبة عنوانها « الى الملك » (Eἰς βασιλέα) دبجها يراع أحد المعاصرين ، وهو رجل على جانب كبير من الثقافة يحتل مكانا رفيعا ، ويحيط احاطة تامة بأحوال زمانه ، لا سيما فى الشرق (١٥) . قد تكون هناك مبالغات عديدة فى وصفه لفيليب ، وقد أضفى دون ريب على أخلاقه شيئا من المثالية . ولكن حتى لهـذا الجزء من الخطبة أهمية تسترعى الانتباه ، اذ أنه يبرز آراء الطبقات العليا ومثلها فى ذاك الوقت وان لم يظهر أفكار فيليب ومثله . ومن هذه الناحية يمكن مقارنة هذه الخطبة بالخطب التى نجدها فى كتاب ديو وببعض خطب أريستيديس . ومن جهة أخرى يعطينا الجزء السلبى من الخطبة ، وهو الذى قصد منه إبراز المفارقة بينه وبين محاولات فيليب وبينه وبين أمانى الطبقات المثقفة ، صورة صحيحة يمكن الاعتماد عليها اعتمادا تاما فى تعرف الأحوال التى سادت فى الامبراطورية قبل ارتقاء فيليب . وهذه الصورة تتفق فى كل تفاصيلها مع تلك التى نجدها فى مؤلفات هيروديان وديكسيپوس .

هل حاول ماكسيمينوس بعد مقتل اسكندر أن يحصل من مجلس الشيوخ على تأييد سلطته ؟ سؤال ليس بذى أهمية كبيرة (١٦) . وأهم من ذلك بكثير فى الدلالة على ميوله الحقيقية وأمانيه أعماله بعد ارتقائه العرش ، وبعد انتصاراته الأولى على الألمان عندما كان فى مسيس الحاجة الى المال ، وقد أفعم قلبه بالكراهية لأعلى الطبقات بين السكان . فكان الارهاب بدء حكمه وختامه . ويقول هيروديان : « أى نفع جنينا من افناء البرابرة — اشارة الى انتصارات ماكسيمينوس الحربية فى ألمانيا — ان حدثت مذابح أكبر فى رومة نفسها وفى الولايات ؟ » . ويقول مؤرخ السيرة التى كتبت باللغة اللاتينية فى وضوح أكثر : « سمع الناس فى رومة

أن رجالا صلبوا وآخرين خيطوا فى جلود حيوانات ذبحت حديثا ، وأن رجالا ألقى بهم الى الحيوانات المفترسة وآخرين ضربوا بالعصى السميكة ، وأن كل ذلك قد حدث دون أدنى تمييز بين مراتبهم » . ولنا أن نصدق أو نكذب الخبر الذى يقول انه قضى دون شفقة أو رحمة على كل موظفى اسكندر سيڤيروس من ذوى المناصب الرفيعة ، ولكن ليس هناك أدنى ريب فى أن حكمه افتتح بالقضاء على جميع أعدائه دون رحمة ، وأنه لم يضع قط حدا لهذا التقتيل (١٧) . وهذه حقيقة لا يرددها هيروديان ومؤرخ السير فقط ، ولكنها ذكرت صراحة فى خطبة « الى الملك » . اذ يقول مؤلفها عند الكلام على ارتقاء فيليب العرش : « بدأ أولئك الآخرون حكمهم — وهو يشير طبعا الى ماكسيمينوس خاصة — بحروب وتقتيل كثير وهلاك لعدد من الموظفين وجلب كثير من المصائب الأخرى التى لا دواء لها ، فخرب كثير من مدن الولايات ، وأجدب كثير من الأراضى وهلك كثير من الخلق » (١٨) . ولما أخمد كاپيليانوس نائب الامبراطور بمعونة جيش أفريقية الثورة التى شبت فى هذه البلاد ضد ماكسيمينوس، دارت رحى التقتيل جملة فى جميع أرجاء القطر . ولا يقتصر ما لدينا من أدلة على ما يقرره هيروديان ومؤرخ السيرة التى كتبت باللاتينية ، ولكن هناك نقش مؤثر وجد فى أفريقية ، جاء فيه : « مقدس لذكرى لوكيوس ايميليوس سيڤيرينوس الذى يدعى أيضا فيليريو عاش ستا وستين سنة تقريبا ، ولقى حتفه بسبب حبه للرومان عندما وقع أسيرا فى قبضة ذلك (الوغد) كاپيليانوس . أقام (هذا) ڤيكتورينوس الذى يسمى أيضا ڤيروتا تذكارا للصداقة ووفاء بواجب البر » . وسيلاحظ القارىء حتما المقابلة بين الرومان وبين البرابرة الذين يقودهم ماكسيمينوس وكاپيليانوس . وسنعود الى هذا المظهر فيما بعد (١٩) .

لم يكن مثل هذا النظام الارهابى بجديد : لقد رأينا أن عين هذه

الطريقة التى تستخدم فى دعم السلطة الامبراطورية ورثها الطغاة العسكريون فى القرن الأول بعد الميلاد من قادة الحروب الأهلية فى القرن الأول قبل المسيح ، وأن دومتيان أعادها سيرتها ، وأن سبتميوس وآل بيته تشبثوا بها . أما الجديد فيها فهو قسوة الجندى التراقى التى لم يسبق لها مثيل . ثم ان هذا النهج ما كاد يبدأ حتى سلكه خلفاء مكسيمينوس أكثر من خمسين سنة . وهناك مظهر جديد آخر هو أن ضحايا الارهاب لم يكونوا ، كما كان الأمر فى زمن سبتميوس ، من أعلى فئة بين الطبقات الارستقراطية فى الامبراطورية ومن فريق من الطبقة العليا فى البلديات ، ولكنه شمل كل الطبقة المثقفة وطبقة البورجوازى . وقد سار مع هذا التقتيل ، كما حدث فى زمن سبتميوس ، استبدال الضحايا برجال ، كالامبراطور نفسه ، ينتسبون الى الطبقات السفلى ، وأكثرهم من الجنود العاديين الذين أصبحوا حديثا أعضاء فى طبقة الفرسان الجديدة . وفى هذه المرة أيضا لا يشوب مصادرنا غموض البتة فى هذه النقطة : فمؤرخ السيرة المكتوبة باللغة اللاتينية مثلا يقول : « لم يكن يرضى عن وجود رجل من أصل نبيل بين حاشيته » [٢٠] .

واذا كان ارهاب مكسيمينوس لم يقتصر على أشراف الامبراطورية ، فأهم سبب لذلك هو شدة حاجته الى المال ، تلك الحاجة التى قادته الى مهاجمة بورجوازى الامبراطورية عامة ، والطبقة الوسطى فى المدن خاصة ، وأن يسلبهم وينهبهم كأنهم رعايا حكومة أجنبية مقهورة ، وليسوا مواطنين رومانيين يدين أكثرهم بالرعوية الرومانية الى منحة كراكلا التى لم يمض عليها غير سنوات قلائل . ويمكننا أن نقتطف مرة ثانية كلمات هيروديان المريرة ، ولكن لا مراء فى أنها صادقة ، وقد كان هيروديان نفسه عضوا فى الطبقة المضطهدة : « فى كل وقت يستطيع المرء أن يرى أغنى الناس بالأمس شحاذين اليوم . هذا مثل لجشع الطغيان الذى يعتذر بأنه فى حاجة دائمة الى مال يدفعه الى الجنود » .

ثم يتابع قوله فيضيف : « طالما وقعت هذه النوائب على الأفراد ، وطالما ظلت قاصرة على أقرب الطبقات من العرش ، لم يعرها الناس فى المدن وفى الولايات كبير التفات • اذ لا يعنى الجمهور بما ينزل بالأغنياء أو أولئك الذين يظنهم أحسن حالا منه ، بل قد تنشرح فى بعض الأحيان صدور الذين ساءت نواياهم وانحط معـدنهم ، لأنهم يحسـدون من هم أفضل منهم ان واتاهم الحظ الحسن • ولكن عندما وجد ماكسيمينوس ، بعد أن دفع أكثر البيوتات البارزة الى هاوية الفقر ، أن الأسلاب قليلة تافهة لا تكفى بأى حال أغراضه ، اتجه الى مهاجمة الأموال العامة • واستخدم فى صوالحه الخاصة كل الأموال التى جمعتها المدن لاطعام أهليها أو توزيعها بينهم أو حبستها على المسارح أو الأعياد الدينية • فصهرت جميع القرابين والنـذور القائمة فى المعابد ، كما صهرت تماثيل الآلهة والهدايا المقدمة الى الأبطال وكل ما يزين المبانى العامة ، وكل ما يستعمل فى تجميل المدن ، وحتى المعدن الذى يمكن أن يسك نقودا • واشتد غم الناس فى المدن لهذا السلوك ••• حتى الجنود لم يرضوا عن أفعاله ، لأن أقاربهم وذويهم أنبوهم وحملوا لهم غلا ، اذ من أجلهم ارتكب مكسيمينوس هذه الجرائم »(٢١)

ومن المستحيل أن نقرر مدى صدق هيروديان فى تعميمه عند وصفه لسلوك مكسيمينوس ، وفى تحدثه عن سلب المدن جملة فى كل أرجاء الامبراطورية . والحق أن ندرة تلك النقوش بعد عصره ، وقد كانت كثيرة فى القرن الثانى وفى السنوات الأولى من القرن الثالث والتى تذكر هبات كثيرة قدمها مواطنون أثرياء الى مدنهم ومؤسسات أنشأوها لعين الأغراض التى عددها هيروديان ، تدل على انزعاج الطبقة الغنية من مصادرات مكسيمينوس واحتمال اتباع خلفه عين النهج . وليس من المستطاع أن يعتقد المرء أن الغنى الذى كدسته أجيال فى المدن يمكن أن يختفى فى التو ، ولكن الطرق الغاشمة التى سلكها مكسيمينوس وخلفاؤه الذين اتبعوا سبيله أصابت ، كما هو ظاهر ، الروح الوطنية للطبقات العليا بضربة مميتة ، وحملتهم على اخفاء ثرواتهم والتظاهر بالفقر المدقع . زد على ذلك أن نظام الخدمات حول كل ما كانت تنفقه المدن فيما مضى ، أو ينفقه المواطنون الأثرياء نيابة عنها ، الى خزانة الدولة والى جيوب عمال الحكومة الذين يشرفون على أموالها . وعلى هـذا

سددت هجمات عنيفة الى رأس المال المتكدس فى الامبراطورية ، والذى لم يكن ، كما رأينا ، كبيرا . ولم يتمكن من القيام من كبوته بعد الضربات القاتلة التى وجهها اليه سيپتميوس سيڤيروس والأباطرة الذين حكموا أثناء الفوضى العسكرية [٢٢] .

وقد اعتمد نظام الارهاب ، كما كان الأمر فى زمن سيپتميوس ، على جيش من العيون والشرطة الحربية . ففى الخطبة المسماة (الى الملك) يقول الكاتب عن فيليب :

« أما عن عدله فليكن ما قلت كافيا . أى بر أعظم أو أوضح من هذا ؟ روع الفزع كل الولايات واستعبدها كثيرا الخوف من الجواسيس الذين كانوا يطوفون بجميع المدن يستمعون الى ما يقول الناس . واستحالت حرية الفكر والكلام عندما قضى على كل حرية للكلام المعتدل العادل ، وعندما ارتجف كل انسان خوفا من ظله . وقد أطلق فيليب من هذا الرعب سراح أفئدة الخلق جميعا ، ومنحهم حريتهم بردها عليهم تامة كاملة » .

واذا قارنا بين هذا القول وبين نقوش عصر سيپتميوس التى أشرنا اليها فى الفصل السابق أدركنا أنه لا توجد هناك مبالغة فى كلمات الخطيب ، وأن ارهاب مكسيمينوس كان نتيجة حتمية للنظام الذى وضعه أولا هادريان والذى تطور فيما بعد تطورا عبقريا على يد سيپتميوس . ومن الممكن أن نثق بأنه لم يكن هناك تغيير من هذه الناحية فى الفترة التى أعقبت زمن مكسيمينوس الا أن تكون الحال قد ازدادت سوءا [٢٣] .

ولكن جميع الوسائل التى اتبعها الأباطرة لتأمين سلطانهم وملءخزائنهم ذهبت أدراج الرياح . هذه نقطة يؤكدها المؤلف عينه اذ يلح فى التحدث عن أعباء الضرائب الفادحة ، وعن خواء الخزانة[٢٤] . وتؤيد الوثائق قوله هذا ، وتضع أمام أعيننا خفايا هذا النظام ونتائجه كلها . وسنتكلم عن

ذلك فيما بعد عند وصف الأحوال الاقتصادية فى الامبراطورية فى القرن الثالث . رأى كل انسان طبعا أن الجيش مصدر الشر ، أعنى تلك الطوائف من الجنود الجشعين المستهترين الذين كانوا حقا سادة الأباطرة والذين كرهوا العمل والقتال ونعموا بسرقة مواطنيهم أنفسهم وسلبهم . وهذا أمر نجـده مذكورا دون مواربة ، يذكره مؤلف خطبة « الى الملك » ويؤيده فى ذلك هيروديان ومؤرخ السيرة التى كتبت باللاتينية . فمؤلف الخطبة يقول عن فيليب :

« كثيرون (من الأباطرة السابقين) أظهروا شجاعة فى وجه العدو ، ولكن جنودهم كانوا حكامهم وسادتهم . أما هو فقد أخضعهم بسهولة ، وأعادهم الى حظيرة النظام العسكرى حتى ان رغباتهم الجشعة لم تزد على الرغم من أنهم كثيرا ما قبضوا أموالا طائلة وكان من الممكن أن ينشروا الاضطراب والفزع ان لم يقبضوا هذا القدر أو أكثر منه » (٢٥) .

وتحت ضغط نظام الارهاب الذى لم ينفذ من قبل بمثل هذه الدقة أو بمثل هذه القسوة ، كما نفذ فى زمن مكسيمينوس ، ازداد التوتر زيادة كبيرة ، وانتاب السكان ، لا سيما أهل المدن ، حنق شديد ، حتى انه ، على الرغم من الارهاب ، اندلعت الثورات ، الواحدة تلو الأخرى فى أفريقية أولا ، ثم فى ايطاليا بعد ذلك . يخطىء الباحثون المحدثون عادة فى تفهم الحوادث التى وقعت فى أفريقية ، عندما يصرون عـلى التحدث عن ثورة قام بها الفلاحون ، رغم وضوح أقوال هيروديان ، أحسن مرجع لدينا ، وقد أساء فهمه مؤرخ سيرة مكسيمينوس المكتوبة باللاتينية ، وأساء ترجمته . أما ما حدث حقا فكان الآتى : بعد أن ارتقى مكسيمينوس العرش تلقى مراقب (procurator) افريقية أمرا بأن يجمع الأموال عنوة للامبراطور . وأما القول بأنه عين حاكما على الولاية بدلا من البروقنصل الهرم ماركوس أنطونيوس جورديانوس الذى انسحب الى مدينة ثيسدروس (Thysdrus) ، فهو فرض جذاب من آراء فون

دوماسزيوسكى ، وأقدم المراقب على عمله يعاونه فى تردد صرافه (quaestor) ومساعدوه سائرا فى الطريق الغاشم المعتاد وهاجم على الخصوص ملاك الولاية الأثرياء الذين كانوا ، كما نعلم ، أكثر السكان نفوذا فى مدن أفريقية . تآمر بعض هؤلاء الرجال ويصفهم هيروديان « بكرم المحتد والغنى » عندما هددوا بفقد « ضياعهم التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم » . ولكى يضمنوا نجاح المؤامرة نجاحا تاما ، أمروا بعض أتباعهم (οἰκέται) (من العبيد أو المستأجرين ، والأول أرجح) أن يأتوا من الضياع الى المدينة مسلحين بالفئوس والعصى . ولم يكن مثل هذا العدد الغفير من الفلاحين ليثير الريبة فى قلب المراقب الذى اعتاد آن يتلقى من الفلاحين شكايات ضد الملاك . وبعد أن قتل هؤلاء المراقب ، نادى رؤساء المؤامرة وهم فريق من الملاك فى أفريقية ازداد عددهم بانضمام آخرين اليهم من نفس الطبقة بجورديان امبراطورا . ولكن جورديان لم ينجح فى كسب أى تعضيد من قبل الجيش الأفريقى . وكانت قوات جورديان خليطا من قليل من الجنود (من المحتمل أن تكون فرقة مدينة قرطاجنة cohors urbana) ومن ميليشيا تتألف من رجال يسكنون المدن ، ويحتمل أنهم كانوا أعضاء فى منظمات الشباب (curiae iuniorum) ، أغراهم وعد جورديان بنفى جميع الجواسيس وبرد الضياع المصادرة . وقد جهز هؤلاء الجنود أردأ تجهيز ، ونظموا أسوأ تنظيم . ولم تكن لديهم أسلحة ، بل استعملوا ما يوجد عادة فى دور البورجوازى فى أفريقية — سيوف وفئوس وحراب صيد (وتمكن رؤية عدة الصيادين فى صور عديدة من الفسيفساء فى أفريقية) [٢٩] . ويبعد أن يكون فلاحون كثيرون ومستأجرون عديدون قد انضموا الى لوائه . فلا غرو أن قهر جيشه بسهولة ، قهره جنود أفريقية النظاميون ، يقودهم عدوه اللدود ، كاپيليانوس ، نائب نوميديا . وتلا هذا النصر تقتيل جنونى ،

ومصادرات جنونية . قتل كاپيليانوس أولا كل أفراد الطبقة الأرستقراطية فى قرطاجنة ، وصادر أملاكهم الخاصة ، والأمـوال المملوكة للمدينة والمعابد . ثم تابع النهج عينه فى المدن الأخرى . فكان يقتل المبرزين من الرجال ، وينفى المواطنين العاديين ، ويأمر الجند باحراق الضياع والقرى ونهبها [٣٠] .

وفى أثناء ذلك اعترفت رومة بجورديان ، وثبت الرومانيون حتى بعد موته فى ثورتهم ضـد ماكسيمينوس . وانتشرت الثورة بسرعة فى جميع أنحاء ايطاليا ، واتخذت عين الشكل الذى اتخذته فى أفريقية : كان نضال طبقة البورجوازى فى المدن ضد الجنود وقائدهم ، الجندى الامبراطور ، قتال اليائس المستميت . وكان عمل مجلس الشيوخ أن ينظم طبقة البورجوازى هذه وأن يقودها . وجمع پوپينوس جيشا من مقترعين حشدوا فى رومة وايطاليا ، وقد أمده بالمؤن والمعونة سكان المدن فى جميع أنحاء شبه الجزيرة . ويدل سلوك أهل بلدة ايمونا (Emona) على أن الأباطرة الذين انتخبهم مجلس الشيوخ حظوا بتعضيد كامل من المدن . فقد خربوا منطقتهم تخريبا شاملا لكى يحرموا ماكسيمينوس من المؤن . ومن الأدلة على ذلك أيضا مقاومة مدينة أكويليا مقاومة الأبطال ، تلك المقاومة التى قررت مصير مكسيمينوس . وعلى ذلك كان انتصار پوپينوس وباليينوس انتصارا مؤقتا لطبقة البورجوازى .

وفى محاربة مكسيمينوس ، قاتلت المدن ضد نظام الادارة الجـديد الذى استحدثه سيپتميوس . كانوا يعادون الملكية العسكرية ، وكان مثلهم الأعلى ملك الأنطونينيين المتنور الذى يقوم على الطبقة البورجوازية فى المدن . وآية ذلك أنه بعد موت مكسيمينوس لم تبذل أى محـاولة لاعادة نظام الحكم الجمهورى . وأكد انتخاب پوپينوس وباليينوس وجهة نظر مجلس الشيوخ ، وهى أن الامبراطور يجب أن يكون أفضل

ممثل لطبقة أعضاء مجلس الشيوخ ، وألا يعينه الجنود . وهذا الرأى عينه ، وهو وجوب انتخاب أحسن رجل امبراطورا ، يملأ الخطبة التى كتبت لتبجيل فيليب ، والتى تكلمنا عنها فى كثير من المواضع . وتلوح فى الأفكار الأساسية لهذه الخطبة صورة مثالية للامبراطور كتلك التى نجدها فى خطب ديو ، وليس من قبيل الاتفاق أن تعطى مدحة (ἐγκώμιον) فيليب هذا العنوان ، «الى الملك» (Εἰς βασιλέα)، ويعنى المؤلف طبعا بكلمة « ملك » (βασιλεύς) القابض على زمام السلطة العليا طبقا للرواقيين . وهناك اتفاق عجيب يمكن أن نلحظه بين هذه الخطبة وبين قرار اسكندر سيفيروس حول ضريبة التتويج (aurum coronarium) الذى أشرنا اليه فى الفصل السابق وهو يحوى موجزا لمنهاج الحاكم الجديد . وفى هذا القرار أكد اسكندر سيفيروس ، أو بالأحرى مستشاروه ، أن الامبراطور ينوى أن يحذو حذو تراجان وماركوس وأن يقيم حكمه على الحكمة (σωφροσύνη) ، وحب الخير (φιλανθρωπία) والبر (εὐεργεσία) ، وحسن الخلق (κοσμιότης) ، وضبط النفس (ἐγκράτεια) ، أى كل الفضائل الرواقية (٣٢) . وأشد من ذلك وضوحا خطبة « الى الملك » (Εἰς βασιλέα) . فانها مرفوعة الى الملك المحب للخير (φιλάνθρωπος βασιλεύς) . وقد أزجى الثناء أولا وقبل كل شىء الى « الملك » الذى اعتلى العرش الامبراطورى ، لا كما فعل الآخرون باخضاع العدالة للقوة ، ولا « للمحافظة على وراثة الملك وبقائه فى أسرة واحدة » ، ولكن باجماع الرأى العام وموافقة جميع سكان الامبراطورية الرومانية . ويمضى الخطيب فى شرح المعالم الأساسية لحكم فيليب ، فيمدح الامبراطور ويصفه بأنه ورع (ὅσιος) وتقى (εὐσεβής) ، وكذلك بأنه وديع (πρᾶος) لايتردد (ἄοκνος) وخاصة بأنه حكيم (σώφρων) وعادل (δίκαιος) وقادر على ضبط نفسه (ἐγκρατής) ومحب للخير (φιλάνθρωπος) . فسياسته فى كل مجال

ونشاط ضد لسياسة الملكية العسكرية . فهو لا يثق فى الجواسيس والوشاة ، ولا ينهب رعيته ، وهو قائد قدير ، ولكنه سياسى ودبلوماسى موفق أكثر من أى رجل آخر ، وما هو بعبد لجنوده ولكنه سيدهم . أليس هذا وصفا دقيقا لمثل الرواقيين الأعلى ، الملك العادل العاقل الذى ضربه ديولتراجان ؟ وليس بذى أهمية أن تبتعد الصورة عن الحقيقة فلا تكاد تتفق معها أو أن يكون هناك فارق كبير بين فيليب وتراجان . فالخطيب يصف الامبراطور كما يجب أن يكون — وسيلحظ القارىء مهاجمة وراثة العرش رغم أن فيليب أشرك معه ابنه فى الحكم — وهو يحاول أن يدمج فى صورته المثالية خصائص الامبراطور الحقيقية طالما كانت هذه الخصائص تتفق وصورته المثالية .

لم يعمر الانقلاب على الملكية العسكرية طويلا ، ولم تكلل بنجاح محاولات الطبقة البورجوازية فى المدن لاعادة ملكية الأنطونيين المستنيرة . اننا لا نعرف الا قليلا عن حكم جورديان الثالث . ولكن يظهر أن طرائق حميه تيميسيثوس لم تختلف عن سياسة الملكية العسكرية[٣٣]. أما فيليب ومن بعده دكيوس فكانا على استعداد أن يقتفيا خطوات ماركوس. ففيليب مثلا قام ببعض محاولات لاعادة النظام والعدل الى نصابه ولاعادة تنظيم الجيش ولاسداء بعض العون الى المدن ، وارجاع نفوذ مجلس الشيوخ . وربما كانت هذه المحاولات الضعيفة سببا فى كراهية الجنود له وسقوطه على أيديهم . وكان الجيش ، وهذه هى الحقيقة المرة ، سيد الموقف . وكان من العبث الحلم باقامة حكم تدعمه العناصر المحبة للسلام من بين السكان كما تتمثل فى الطبقة البورجوازية فى المدن . أدرك خلفاء فيليب حقيقة الأمر ، بل لقد أدركه فيليب نفسه من بعض نواحيه ، ووفقوا بين أعمالهم وبين هذه الحقيقة [٣٤] .

وهكذا انتصرت سياسة الملكية العسكرية على المحاولة الأخيرة التى

قام بها بورجوازى المدن لاعادة السيادة الى الطبقات المثقفة والتى تمتلك العقار فى الامبراطورية الرومانية . ولكن الجيش فاز على حساب أمن الامبراطورية ورخائها . وأطلق المنتصرون حقا لشهواتهم العنان وانحطوا بالامبراطورية الى حال بقى معها مجرد كيانها ووجودها حينا من الوقت فى خطر . لقد تحدثنا عن هجمات البرابرة المرعبة ، وعن تفكك الامبراطورية تدريجا تحت هذا الضغط . أما السبب الأول فى هجماتهم المتتالية هذه فكان طبعا النزاع الداخلى الذى لم يضع قط أوزاره فى داخل الامبراطورية . فانتصار الجيش كان نصرا لنظام الحكومة العسكرية الأوتوقراطية . أدرك هذه الحقيقة أولئك الأباطرة الذين حملوا الآن وفى ظروف صعبة جدا عبء انقاذ الدولة واعادة الوحدة اليها بأى ثمن . فلا غرو أن ضرب أولئك الأباطرة عرض الأفق بحلم اعادة نظام الأنطونيين ، وبدأوا ينشئون وينظمون الحكومة العسكرية التى كانت تسندها القوة الحقيقية الوحيدة فى الامبراطورية ، أعنى الجيش . فبعد تجاريب حكم مكسيمينوس وخلفائه الذين جاءوا بعده مباشرة أصبح من الواضح أن ضعفا شديدا قد استبد بطبقة البورجوازى وأن النظام قد انعدم بين صفوفها فلا تستطيع أن تكون عونا فعالا للسلطة المركزية .

وأول من أدرك هذه الحقيقة المؤلمة ادراكا تاما هو الامبراطور جالّينوس وهو نفسه عضو فى الطبقة الأرستقراطية التى تتألف من أعضاء مجلس الشيوخ ، يميل الى العلوم والفنون وقد نال قسطا كبيرا من التعليم . ولذلك بدأ يشيد بناء الحكومة العسكرية التى تقوم على الجيش . ومن الواضح أنه كان من غير المستطاع عمل هذا كله دفعة واحدة : فكان لزاما على جالّينوس وخلفائه أن يمنحوا المعسكر المضاد بعض ترضيات تافهة ، وأن يدخلوا النظام الجديد شيئا فشيئا . ولكن يوم التهادن ، حينما كان من الممكن أن تقوم محاولات للمحافظة

على الأنظمة الأساسية لعهد الأنطونينيين ، كما حدث في زمن آل سيڤيروس ، كان قد مضى وانقضى . فمنذ هذا الوقت ازداد النظر الى هذه النظم على أنها بقايا ، واحتلت الأنظمة العسكرية التى استحدثها سپتميوس الصف الأول . وحتى تلك الأخبار القليلة التى وصلت الينا تسمح لنا بأن نرى أن جالّينوس هو أول من أدرك النتائج التى تنطوى عليها سياسة صبغ الامبراطورية الرومانية تماما بصبغة عسكرية . فهو الذى حرم نهائيا طبقة أعضاء مجلس الشيوخ من مناصب القيادة فى الجيش ، وهو الذى خطا الخطوة الحاسمة فعين دائما أفراداً من طبقة الفرسان حكاما على الولايات ، أعنى من الجنود السابقين .ومع أنه هو نفسه ينتسب الى طبقة أعضاء مجلس الشيوخ فقد اضطر جالّينوس أن يسدد الضربة التى قضت على أمانى الطبقات العليا ، وأن ينشىء الطبقة الأرستقراطية العسكرية الجديدة فى الامبراطورية . فلم يسمح بعد عصره لأى فرد من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ أن يرقى الى منصب قائد لكتيبة ، أو أن يكون على رأس فصيلة خاصة تعمل فى أغراض حربية (vexillatio) . وفى تلك الولايات التى لازال يرسل اليها حكام من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ ، من المحتمل أن سلطان هؤلاء الحكام لم يمتد الى قواد الكتائب الذين كانوا يختارون من طبقة الفرسان ؛ وليس من شك فى أن رجال الجيش حكموا حكما مطلقا فى كل مكان سواء فى الولايات أو فى البلاط الامبراطورى . والحق أن المجال الذى فتح أمام أفراد طبقة الفرسان كان مجالا حربيا خالصا ، لأن الوظائف المدنية لم تلعب غير دور صغير فى ادارة الامبراطورية التى اصطبغت بالصبغة العسكرية (٣٥) .

ويظهر أن حكم أورليان ، على قصره ، لم يكن الا مرحلة أخرى فى العملية نفسها . فتظهر الامبراطورية أمام أعيننا وكأنها قطر محارب تسود فيه حالة حصار ، وقد أضحت كل مدينة ان هى الا قلعة على أتم أهبة لصد

هجمات العدو . وينطبق نفس هذا الوصف على كثير من القرى ، وعلى الدور الريفية الكبيرةوهى مراكز الضياع الخاصة الشاسعة . ومن سوء البخت أنأدلتنا عنحكم أورليان ،على أهميته، قليلةجدا ، وأن المعلومات الضئيلة التى وصلت الينا تشير غالبا الى أمور ثانوية والى وسائل محلية قليلة الأهمية . ويفترض العلماء عادة أن أورليان خطا الخطوة الحاسمة والأخيرة فى قلب السلطــة الامبراطورية أوتوقراطية عسكرية خالصة ، تستند الى دعامة منالدين. فالامبراطور الآنتبعا لهذا الرأى ملك «بفضل الله » ، والله هو الشمس القاهرة أعظم آلهة الكتائب الايليرية . وليس هناك من ريب فى أن الشمس (Sol) كانت معبود أورليان الذى تعلق به وأحبه ، وأن عبادة الشمس فى زمنه لعبت دورا فى مدينة رومة يشبه الدور الذى لعبته عبادة الاله ايلاجابال السورى طيلة حكم كاهنه الأعظم. ومن المحقق أيضا أن نوعا من الوحدانية التى تتصل بعبادة الشمس قد ساد بين كتائب الدانوب قبل حكم أورليان وفى أثنائه (٣٦) . غير أننا لا نعلم بوضــوح الى أى حد يمكن الاعتمــاد على رواية (پيتروس پاتكريكيوس) الذى أتم تاريخ كاسيوس ديو وهو يقرر أن أورليان أكد عندما ثار عليه جنوده ذات مرة أن الله هو الذى وهبه الرداء الأرجوانى لا الجنود . ومما هو جدير بالذكر أن القول عينه نسبه كاسيوس ديو الى ماركوس أورليوس فى ظروف مماثلة (٣٧) . ومن جهة أخرى ، اذا أغضينا النظر عن تعلق أورليــان بعبــادة الشمس (Sol) وهرقل (٣٨) الذى عده الأنطونينيون أعظم الآلهة ، فأدلتنا عن ميول أورليان الدينية جد قليلة . والواقع أن أورليان أشبه فى أوتوقراطيته كثيرين من أسلافه . كان أورليان ذا شخصية قوية ، وكان لايغفل عمــا يظنه واجبه ، ولذا حــكم الامبراطورية الموحدة بيد حازمة ، وحكمها وحده . ولكن عينذلك ينطبق على كثيرين ممن سبقوه . وفيما يتعلق بنظرته الى مجلس الشيوخ والى

الطبقة البورجوازية فى المدن ، سار فى أوائل حكمه على سياسة الارهاب ولكنه خفف من حدتها بعد انتصاراته على زينوبيا عندما استطاع أن يملأ مؤقتا خزائنه بأسلاب جزء من الامبراطورية .

ومن المحال أن نحدد الى أى مدى ساعد أورليان على صبغ ادارة الامبراطورية بصبغة عسكرية . ولقد عرف بحسن الادارة وحفظ النظام بين ضباطه العسكريين والمدنيين ، وبين جنوده ، ولكننا لا نستطيع بسهولة أن نعول على تفاصيل يوردها فى هذا الباب مؤرخ سيرته التى كتبت باللغة اللاتينية . وليس هناك غير قرارين اثنين ينسبان قطعا الى أورليان وفيهما محاولتان حقيقيتان لتركيز مقومات حياة الدولة فى يد الامبراطور. ولذا فقد يمكن اعتبارهما خطوة أخرى فى تطور السياسة التى سار عليها أسلافه من الأوتوقراطيين العسكريين . وأولى هاتين المحاولتين هى الجهود التى بذلها فى تنظيم العملة المتداولة فى الامبراطورية التى لم تعرف التنظيم قط ، وتوحيدها ، والغاء جميع السكك المحلية التى كانت تتمتع بشبه استقلال ، بما فيها سكة مجلس الشيوخ فى رومة . وكانت هذه احدى الضربات الأخيرة التى وجهت الى استقلال المدن فى الامبراطورية والى امتيازات مجلس الشيوخ .

وانصب القرار الثانى على الجمعيات التى كانت تعمل فى خدمة الدولة . ولقد تتبعنا المراحل المتتالية فى تطور هذه الجمعيات . لقد دأبت الحكومة على القبض يوما بعد يوم على زمام أكثر هذه الجمعيات أهمية ، ولا سيما الجمعيات التى أنشأها أصحاب السفن أو ربابنتها وتجار (الجملة) الذين يتجرون فى المواد الغذائية . وقد سار جنبا الى جنب مع اخضاع هذه الجمعيات لاشراف الحكومة تأميم جمعيات العمال الذين يشتغلون فى أى عمل خاص مرتبط بالتجارة والنقل فى المدن الكبرى وأمثال تلك الرابطات التى كان لعملها اتصال بتأمين الحياة فى مدن ايطاليا والولايات ، ولا سيما

فرق المطافىء المحلية التى عرفت باسم (collegia dendrophorum et centonariorum) . ووضع أيضاً أولئك الذين يعملون فى ضرب النقود فى سكك الامبراطورية تحت اشراف الدولة التام وأخضعهم لنظام يشبه الأنظمة العسكرية . وفى كل حالة لم يقتصر الأمر على اشراف عمال الدولة على الرابطات اشرافا دقيقا فحسب ، ولكن ربط الأفراد بحرفهم وأمكنة اقامتهم أيضا . ووجد ميل عام الى قلب الالتزام الفردى الى واجب (munus) وراثى . لقد رأينا كيف بسط اسكندر سيفيروس اشراف الدولة على تلك الجمعيات التى كانت هامة ، اذ أن على جهودها يقوم ضمان وصول المواد الغذائية بانتظام الى العاصمة . ويظهر أن أورليان خطا خطوة حاسمة فى هذا الأمر . ولسنا نشير الى صبغه كل الجمعيات القائمة فى رومة بصبغة عسكرية مؤقتة وذلك بقصد بناء أسوار المدينة . فربما اتخذت قرارات مماثلة فى مدن الامبراطورية الأخرى التى حولت الى قلاع حصينة . وانى لا أستطيع أن أصدق بأن هذا القرار الذى تضمن تسجيل كل عضو فى جمعيات البناء تسجيلا دقيقا ومنح لقب الأورليانيين (Aureliani) (ويمكننا أن نقرن بينه وبين خطوات مماثلة اتخذها كومودوس فيما يخص أصحاب السفن أو ربابنتها navicularii) الى الأعضاء فى هذه الجمعيات، كان له صفة الدوام والبقاء ، وأن علينا اعتباره مبدأ لعهد جديد فى حياة جمعيات العاصمة كلها. ومن جهة أخرى يرجح أنه عند اعادة تنظيم تموين مدينة رومة ، نظم أورليان ثانية تلك الجمعيات التى كانت تعمل فى تجارة الأغذية وفى نقل المواد الغذائية وجعل من هذه الجمعيات أداة حكومية حقا وديوانا من دواوين الادارة الامبراطورية تخضع لرقابة شديدة واشراف دقيق يقوم به ضباط الحامية الرومانية . وكان مغزى ذلك من وجهة نظر الجمعيات أن أعضاءها ارتبطوا نهائيا بها وأن من الممكن دعمها بقسر أعضاء جدد على

الانضمام اليها . فان ثبت أن مثل هذا القرار قد اتخذه أورليان من أجل العاصمة ، والحق أن هذا مجرد فرض لا أكثر ، فمما لا ريب فيه أنه امتد الى مدينتى الاسكندرية وقرطاجنة على الأقل ، ومن الراجح أن النظام عينه فرض تدريجيا وبقرارات فردية على الرابطات المحلية فى جميع أرجاء الامبراطورية (٣٩) .

انتهى ذاك الحكم القوى الذى سار على وتيرة واحدة ، حكم أورليان — محيى الامبراطورية الرومانية العظيم الذى ركز مرة أخرى وبكفاية أكبر من ذى قبل حكومة الامبراطورية فى مدينة رومة وظهر على رأس بيروقراطية اصطبغت تماما بالصبغة العسكرية وكانت سياسته قائمة على قسر جميع طبقات السكان فى الامبراطورية على الاشتراك فى أعمال الادارة ، وهو الذى أمد الامبراطورية بمقومات حياتها وبعدد من الأيدى العاملة — انتهى هذا الحكم بما أذهل الناس جميعا ، وبما تراءى وكأنه رجوع مؤقت الى سيادة مجلس الشيوخ على الامبراطورية . ولم يكن ذلك نتيجة انقلاب ورد فعل ، كما كان الحال فى الفترة التى أعقبت حكم مكسيمينوس ، أو نضال مرير بين المدن والجيش ، بل كان نتيجة لقرار اتخذه الجيش . فاختار مجلس الشيوخ رئيسه (princeps senatus) وهو تاكيتوس ، امبراطورا ، ليخلف وحده أورليان . ومن الواضح أن امكان حدوث مثل هذا الأمر يطوى بين دفتيه اشارة الى اختفاء العداء الشديد الذى تأجج خلال حكم مكسيمينوس بين الجيش وبين مجلس الشيوخ كممثل لطبقة البورجوازى فى المدن . وانى لا أرى الا تعليلا واحدا فقط لهذا الحادث المدهش فى تاريخ رومة ، وهو أن مجلس الشيوخ لم يعد يمثل بورجوازى المدن فى الامبراطورية ، وأن الوفاق كان تاما فيما يمس مشاكل الامبراطورية الحيوية بين مجلس الشيوخ وبين الامبراطور ، القائد الأعلى للجيش. شعر مجلس الشيوخ شعورا قويا مماثلا

لشعور الأباطرة بما بدأ يضحى حقيقة ملموسة فى صفوف الجيش ، أعنى شدة الحاجة الى اعادة النظام الى نصابه ، ان كانت هناك بقية من أمل فى انقاذ الامبراطورية والحضارة الرومانية . ومن أجل ذلك أغضى مجلس الشيوخ ، أو على الأقـل أكثر أعضائه ، عن الحلم الذهبى ، حلم اعادة الأحوال التى سادت فى عصر الانطونينيـين . بقيت الكلمات القديمـة والعبارات القديمة تردد على الأفواه فى تمجيد العهد الجديد مثلا الذى انبثق فجره على الامبراطورية عندما ارتقى العرش تاكيتوس ، أول أعضاء مجلس الشيوخ . ولكنها كانت مجرد ألفاظ ، ولم تعن أى عمل أو تغيير فى السياسة .

والحق أنه بعد سنوات مكسيمينوس العصيبة ، بل وأكثر من ذلك بعد اصلاحات جالّينوس ، لم يعد مجلس الشيوخ يمثل طبقات السكان عينها التى كان يمثلها من قبل ، بل أصبح أكثر أعضاء مجلس الشيوخ من قواد الجيش السابقين الذين ارتقوا من أدنى المراتب العسـكرية فى الجيش ، ومن ضباط حربيين سابقين ، ومن عمال الادارة فى الامبراطورية . فاذا نظرنا اليهم كوحدة واحدة ، بدت لنا هنا طبقة أرستقراطية جديدة ، كانت أيضا أرستقراطية من كبار الملاك . وسنرى فى الفصل التالى كيف قامت على أنقاض الأرستقراطية القديمة التى كانت تملك الأراضى فى الامبراطورية والبلديات طبقة جديدة من الملاك أكثرها من قدماء الجنود والضباط . وقد وقف بازائهم بعض الملاك القدامى الذين لم ينجوا من الثورة وعواصفها فحسب ، بل لقد نجحـوا أيضا فى زيادة ضـياعهم باغتصاب أرض جديدة . كان مجلس الشيوخ الآن يمثل هؤلاء الرجال الجدد ، ولم يعد يمثل طبقة البورجوازى فى المدن الذين كانوا يرزحون تحت نير الاستعباد ، وقد أناخ عليهم الفقر فكاد يقضى عليهم . فمن الطبعى أن توجه مثل هذه الطبقة الأرستقراطية اهتماما بالغا الى اعادة

النظام . فلم يكن يعنيها ماضى المدن المجيد ، ولكنها كانت على أهبة الاستعداد لشد أزر الامبراطور والجيش فى محاولاتهم احياء مجد الامبراطورية . وكانت تتوق الى رؤية النظام الاجتماعى الجديد يقوى ويشتد، ذاك النظام الذى تمخضت عنه الاضطرابات فى عصر الثورات (٤٠) .

لم تسترجع طبقة البورجوازى فى المدن أبدا مركز الرياسة والهيمنة فى الامبراطورية . هشمت قواها مذابح مكسيمينوس الهمجية ومصادراته الوحشية ، وقضى عليها أكثر من أى شىء آخر نظام الخدمات الذى أكمل الخراب الذى بدأه الارهاب وهزاته العنيفة . واننا لا نستطيع القول ان كانت طبقة البورجوازى قد تلقت بعد عصر سبتميوس ومكسيمينوس هجمات جديدة من النوع نفسه ، وليس لدينا أدلة مباشرة على حدوث شىء من ذلك ، غير أن تتمة الدمار لم تكن بحاجة الى هجمات جديدة . فالأحوال الاقتصادية العامة التى سنتكلم عنها فى الفصل التالى وبوار التجارة والصناعة وغزوات البرابرة للولايات وما جلبت معها من نوائب — وخصوصا فى بلاد الغال وولايات الدانوب وبلاد اليونان وآسيا الصغرى والى حد ما فى أفريقية ، وحتى فى مصر (البليميين (Blemmyes)) — تلك الغزوات التى محت المراكز الزاهرة لحياة الطبقة البورجوازية ونضوب معين الثروة عند هذه الطبقة لما ابتزته الدولة من جبايات متعددة وبسبب نظام الخدمات ، كل هذه عوامل تكفى لتعليل انحطاط المدن وما فيها من طبقة البورجوازى يوما بعد يوم . انى لا أقول ان هذه الطبقة اختفت : فلو ادعيت ذلك لكان زعما واهيا . فليس من السهل حتى بوسائل عنيفة افناء موارد تكدست فى قرون . بقيت الطبقة المتوسطة ، وبقى لبعض المواطنين ثراؤهم فى مدن ايطاليا والولايات ، ولكنها كانت طبقة بورجوازية جديدة من طراز دنىء مستعبد ، لجأت الى الخداع ومختلف الحيل لتفلت من

الالتزامات التى فرضتها الدولة . كانت طبقة بورجوازية قام رخاؤها على الاستغلال والمضاربة ، ولكنها مع كل ذلك سارت دون توقف فى طريق الانحلال والتدهور . وعلى وجه عام عاشت هذه الطبقة على الماضى ، ولم تضف كثيرا الى الموارد التى تكدست فى سالف الأزمنة . وسنعود ثانية الى هذا الموضوع فى الفصل التالى .

ولنوجز الآن ما سبق ذكره . فى الفترة التى أعقبت اسكندر سيفيروس نرى الأباطرة تحت ضغط الجيش المتواصل يتمون ما بدأ سيبتميوس . لقد انقضى الحكم الثنائى الحقيقى الذى ساد فى عصر الملكية المستنيرة ، وأعنى بهذا الحكم الثنائى الحكومة المركزية وحكومات المدن المستقلة استقلالا ذاتيا . وفقدت طبقة أعضاء مجلس الشيوخ وطبقة الفرسان القديمة ، اللتان مثلتا طبقة البورجوازى فى البلديات ، بالتدريج امتيازاتهما الاجتماعية والسياسية ، ثم اختفتا . وبقى أعضاء الطبقة الأرستقراطية فى البلديات يعملون فى خدمة الدولة واحتفظوا ببعض امتيازاتهم الاجتماعية ، ولكن هذه الطبقة كانت ذليلة مستعبدة : لم تعد تتمتع بميزة الابتكار والحرية . عمل أفرادها نيابة عن الدولة فى وظيفة الخدم الذين كثيرا ما أشبهوا العبيد . وقام نظام الحكومة الجديد على الامبراطورية ، وعلى البيروقراطية العسكرية الجديدة ، يسندهما الجيش . وكان هذا هو الدور الأخير فى تطور الفوضى العسكرية خلال سنين طويلة ، وتتيجتها الأساسية .

أكان هذا التطور مثل الأباطرة الأعلى فى القرن الثالث ؟ لقد حاولنا أن نبين أن تلك السياسة فرضت كرها على سيبتميوس لأنه اغتصب العرش . أما مثله الأعلى حقا فكان ملكية الأنطونيين المستنيرة . وكلما أتاحت الظروف للأباطرة أن يظهروا لونهم الحقيقى ، فانهم ارتدوا لباس أعوان النظام القديم . واذا استثنينا مكسيمينوس الذى أبغض النظام

القديم من كل قلبه ، ساروا جميعا متخاذلين بلا حماسة فى طريق قادهم خلال تطورات البيروقراطية العسكرية الى هدم الأساس القديم الذى قامت عليه الامبراطورية الرومانية . ومن الواضح أنهم فعلوا ذلك مكرهين ، ولأنهم رأوا أن المثل العليا التى سادت فى القرن الثانى أضحت على مر الأيام بقايا حزينة مهلهلة لا توافق عصرهم . وكان الجيش سيد الحكومة ، وكان على الأباطرة أن يوفقوا بين هذه الحقيقة المرة وبين منصبهم ونظام الدولة التى يرأسونها . ولقد أظهر الجيش بكل جلاء ووضوح أنه لا يستطيع أن يحتمل هيمنة الطبقات الممتازة القديمة . ولم يكن لدى الأباطرة مفر سوى الرضوخ لهذا المطلب . وهم عندما أجابوا رغبة الجيش بالتدريج وبدون افراط ، كلما أمكن ذلك ، أظهروا فهما صحيحا للموقف ووطنية حقة . ولم يكن غرضهم الأول هدم النظام الاجتماعى القديم ، واقامة دكتاتورية عسكرية ، بل كانوا يستهدفون تعديل دستور الدولة ونظام ادارتها تعديلا يمكنهم فى الأحوال المضطربة التى تمخضت عنها الفوضى التى ضربت أطنابها أن يحفظوا بناء الدولة الرومانية متينا سليما فى مأمن من التمزيق ومن غارات الأعداء الرابضين على تخومها .

وأصبح هناك تدريجا مسألة واحدة هامة ، هى معرفة السبيل الى المحافظة على الامبراطورية الرومانية . ولحل هذه المشكلة حشدت كل القوى الموجودة ، وركزت فى عمل واحد هو الاحتفاظ بجيش قوى قادر على منازلة الأعداء . وقد تطلب هذا العمل اخضاع مصالح الأهلين لمصالح الدولة . ويرجع اضطراب الوسيلة التى تم بها ذلك العمل تدريجا الى الفوضى العسكرية التى كانت فى النهاية نتيجة لمحاولة طبقة البورجوازى فى المدن استعادة سيادتها التى ذهبت . وحالما انتهى النضال ، وقهرت طبقة البورجوازى نهائيا ، وجه الأباطرة همهم كله الى

اعادة الوحدة والقوة الى الامبراطورية . ولم تعد العقبة الأساسية التى تقف فى طريقهم هى الحرب الأهلية بين طبقة البورجوازى والجيش . ولكن أصبح الجيش هو العقبة الكأداء ، فلم يكن له من الكفاية الا القليل ، وكان له من الاباحية وسوء الخلق قسط كبير . فحبست جهود الأباطرة منذ زمن جالّينوس وخلفائه على عمل واحد هو اصلاح الجيش حتى يصبح أداة حربية لها كفايتها ، وحتى يلتزم الحيدة فى الأمور السياسية ، ما أمكنه ذلك . وكان هذا نفس الشىء الذى أتم أغسطس فعله بعد الحروب الأهلية .

ولدينا أخبار قليلة عن الاصلاحات الحربية التى قام بها جالّينوس وخلفاؤه ، وهذه الأخبار التى بين أيدينا الثقة بها ضعيفة . غير أن من الواضح أنه من وجهة النظر الحربية كان أهم عمل هو انشاء جيش قوى سريع الحركة على أهبة دائمة لأن ينقل الى التخوم المهددة ، ولذلك حشد فى أقرب مكان مجاور لمسكن الامبراطور . وهذا هو السبب فى تأليف جيش قوى من الفرسان تحت قيادة الامبراطور نفسه أو أعظم من يثق به من قواده . وقد كان ذلك أيضا من الأسباب التى أدت الى اضمحلال جيوش الولايات التى أصبحت تدريجا وحدات فى جيش صغير (ميليشيا) ذى صبغة محلية . ومن هنا نشأت طبقة أرستقراطية عسكرية خاصة من « الحماة » (protectores) ترتبط بشخص الامبراطور برباط الولاء الشخصى البحت . ولكن هذا وجه واحد من المسألة فقط . فعدم كفاية الجيش لم تكن ترجع الى تجنيده فى الولايات — أى الى عدم تركيزه — فحسب ، بل أيضا الى تكوينه : لقد أصبح جيشا سريع الحركة مؤلفا من الفلاحين الذين جندوا قسرا ولم ينتخبوا من بين أحسن العناصر من السكان الرومانيين . وتكوينه هذا ، كما سنوضح فى الفصل التالى ، يعلل لنا أيضا روح التمرد التى سادت فى هذا الجيش . وكان

الاستغناء عن هذا الجيش المؤلف من فقراء الفلاحين حملا ثقيلا آخر ألقى على عاتق أباطرة القرن الثالث ، كما كان أهم عمل واجه أغسطس وڤيسپاسيان . وقد وجد الحل تدريجيا فى احلال المرتزقة محل المجندين قسرا . ولم تستخدم جماهير السكان بعد ذلك فى الجيش . واستبدلت الخدمة الفعلية بالبدل النقدى الذى سمى (aurum tironicum) ، وأنفق هذا المال فى كراء مرتزقة شجعان . ولا يمكننا تتبع الأدوار المتتالية فى هذا العمل الرئيسى . ولقد رأينا أن هذا النظام الجديد استحدث منذ زمن آل سيڤيروس . أما نتائجه الختامية فربما استنبطها جالّينوس وكبار القواد فى جيشه فى النصف الأخير من القرن الثالث . وقد انتخب المرتزقة بعناية ، فوقع الاختيار على بعضهم من بين أقل القبائل حضارة فى الامبراطورية — من الايليريين والتراقيين والعرب والمور والبريطانيين — وجاء البعض الآخر من بين الألمان والسرماتيين . أما السرماتيون فقد أغراهم الأجر الكبير ، أو كانوا أسرى اندمجوا فى سلك الجيش الرومانى أفرادا أو جماعات . وقصر التجنيد الجبرى ، ما أمكن ذلك ، على أبناء الجنود الذين استقروا فى اقطاعياتهم ، وكان أكثرهم أسرى من أصل بربرى ، وعلى أكثر القبائل حبا فى القتال . وهؤلاء الجنود استخدموا فى حصون التخوم ولسد النقص فى جيوش الولايات . وبهذا تمكن الأباطرة من أن يعتمدوا على صفوة جنودهم الذين شعروا بأنهم يقفون ويسقطون معهم ، لأنهم كانوا غرباء قطعا عن السكان . وكان للأباطرة الحرية فى استخدام هؤلاء الجنود حتى ضد جيوش الولايات ، ان دعت ضرورة .

ثم دعم الجيش بوسيلة راديكالية يائسة حقا . فلم يعد الجيش الرومانى الجديد جيشا رومانيا ، بل كان جيش الامبراطور الرومانى أو الدولة الرومانية ، ولكنه لم يكن جيش الرومان ، حتى فى أوسع

معانى الكلمة . لم يكوّن جزءا من السكان الرومانيين ، ولم يكن يمثل مصالح هؤلاء السكان . كان طائفة خاصة يقوم السكان بدفع نفقات الاحتفاظ بها لكى تحارب أعداءهم من الأجانب . وقد أمدت هـذه الطائفة الامبراطورية برجال الادارة والقسم الأكبر من الطبقة الحاكمة والأباطرة أنفسهم . ولم يكن من المستطاع صبغ هذا الجيش تماما بصبغة رومانية ، وادماجه فى السكان . دخلت طبعا عناصره التى تأثرت بالحضارة الرومانية فى جموع الأهلين ، ولكن اكتظت صفوف الجيش على الدوام بعناصر جديدة آتية من بلاد أجنبية ، وعلى ذلك بقى الجيش يكوّن طائفة عسكرية أجنبية . وقد تألفت الآن الطبقة الحاكمة فى الامبراطورية الرومانية من ذوى المناصب العليا فى الجيش . وهؤلاء بدورهم حالما تأثروا بالحضارة الرومانية استبدلوا بغيرهم من العناصر الجديدة ، أى بأقوى جنود هذه الطائفة العسكرية الأجنبية وأكثرهم كفاية (٤١) .

الفصل الحادى عشر

الامبراطورية الرومانية طوال عصر الفوضى العسكرية

ليس لدينا وصف عام للامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث يمكن أن يقارن بذلك الذى دبجه أيليوس أريستيديس ، ولكن بؤس تلك الأيام كثيرا ماصوره المعاصرون وكثيرا ما نجده منعكسا فى كل وثائق العصر . فان أمعن امرؤ فى النظر فى خطبة «الى الملك» التى كثيرا ما أشرنا اليها فى الفصل السابق وقارنها بخطب ديو وپلينى من جهة وخطب أريستيديس من جهة أخرى ، فسيدرك الفرق الشاسع لا فى الظروف والأحوال ، ولكن فى مزاج السكان عامة ، والطبقات العليا خاصة . ولا تقل اللهجة التى كتبت بها سير الأباطرة فى القرن الثالث ، اذا قورنت بسير أباطرة القرن الثانى ، عما سبق فى شدة التأثير . ولنا أن نعتقد أن هذه السير كتبت فى القرن الرابع ، وأنها تعكس مصالح الطبقات العليا ووجهات نظرهم فى عصر ثيودوسيوس ، ولكنا لا نستطيع أن ننكر أن المؤلف (أو المؤلفين) فى القرن الرابع ، وقد كانت أمامه مصادر معاصرة ، وصف دون أن يدرك ليس شعوره فقط ، ولكن الشعور الذى انبثق من مصادره أيضا .

وقد حوى الحلم المشهور الذى رآه الامبراطور پروبوس كلمات تخلب اللب وتعبر عن أفكار عامة . وانى لا أستطيع أن أغالب الاعتقاد أن الصيحات الجوفاء التى أرسلها مؤرخ سيرته أطلقتها قولة صحت نسبتها الى الامبراطور وتداولتها ألسنة معاصريه وأضحت مشهورة فى أيامه . وانى على يقين أنه حتى التعبيرات التى استعملها مؤرخ السيرة عينه والتى تقرب من الهذيان تمثل بدقة أمانى وآمال القرن الثالث التى لم

تختلف كثيرا عن أماني القرن الرابع حينما أضحت الأحوال أكثر استقرارا ولكنها ما زالت قلقة ولم تحز الرضا . ولهذا ساقتطف من سيرة پروبوس النصوص التي لها صلة بهذا الحلم . وسنجد في بعض تعبيراتها سفسطة لا قيمة لها ، ولكن هناك ألفاظا (ولا سيما تلك التي وضعنا تحتها خطا) كان من المحال وضعها في وصف يصور العصر الذهبي — دعنا نقول — في القرن الأول أو الثاني بعد الميلاد . يقول مؤرخ السيرة : قال (پروبوس) « عما قريب لن تصبح بنا حاجة الى جنود » ، ثم يضيف :

« أليس معنى هذا أنه لن يكون هناك بعد اليوم جنود رومانيون ؟ سيمتد حكم الدولة الرومانية الى كل مكان ، وسنملك كل شيء في أمان تام . سوف لا يصنع العالم أسلحة ، وسوف لا يسلم مؤنا اجبارية ، وستستخدم الثيران في حرث الأرض ، ويولد الحصان في سلم . لن تكون هناك حروب ، ولا أسرى ، بل سيكون هناك سلام في كل مكان ، وفي كل مكان ستنتشر قوانين رومة ، وفي كل مكان سيجلس قضاة منا » . وبالايجاز كانت أماني مؤرخ السيرة هي الطمأنينة (securitas) والسلام (pax) والرخاء (abundantia) والعدالة (iustitia) . وهو يصبح أكثر دقة عندما يفصل الكلام في هذا الموضوع نفسه :

« سوف لا تسلم الولايات مؤنا اجبارية ، وسوف لا يدفع أجر الى الجنود من هبات قسرية . وسيكون لدى الدولة الرومانية خزائن لا تنفد . لن ينفق الامبراطور شيئا ، ولن يدفع المالك شيئا . كان حقا عصرا ذهبيا ذاك الذي وعد به . سوف لا تكون هناك حصون ، ولن يسمع للبوق الحربي صوت في أي مكان . ولن تكون هناك حاجة الى صنع الأسلحة . وهذا الجمع من الجنود الذي يثقل كاهل الامبراطورية الآن بحروب أهلية سيفلح الأرض ، وينفق وقته في الدرس وتحصيل الفنون ، والسفر على متون البحار . ولن يقتل أحد في الحروب . أيتها الآلهة الأخيار ، أي

اثم عظيم ارتكبته الدولة الرومانية فى حقكم حتى سلبتموها مثل هــذا الامبراطور ؟ » [1] .

ومن أكثر الأمور صعوبة أن نرسم صورة لحالة الامبراطورية العامة فى القرن الثالث لا سيما بعــد عصر اسكندر ســيڤيروس ، ولكن بعض الحقائق البــارزة التى ثبتت ثبوتا كافيــا تشرح لنــا ذاك الخــراب الاقتصادى السريع الذى حل بها ، وما تبعه من انحلال فى الحضارة فى جميع أرجاء البحر الأبيض المتوسط . كان انخفاض قيمة العملة بسرعة وارتفاع الأسعار ارتفاعا أكثر سرعة احدى الظواهر العجيبة التى تلفت الأنظار فى الحياة الاقتصادية . وكان حكم كراكلا الذى أبدل الدينــار (denarius) بالأنطونينى (Antoninianus) نقطة الابتداء فى الانخفاض التدرجى فى قيمة العملة الفضية ، واختفاء النقود الذهبية من السوق . فمنذ عهده اطرد نقص القوة الشرائية للعملة الامبراطورية . فالدينار الذى كان يساوى فى القرن الأول حوالى ثمانية عشر بنسا ، والذى لم ينقص الا قليلا فى القرن الثانى ، أصبح فى منتصف القرن الثالث تقريبا يساوى أقل من ربع بنس .وهذا الانخفاض لم يقف حتى بعد اصلاحات كلوديوس الثــانى وأورليــان (الذى أدخل العمــلة الجــديدة (καινὸν νόμισμα) ، كما كانت تسمى فى مصر) ، على الرغم من أن هذين المصلحين هجــرا قطعا العرف القديم وهو اصدار نقود حقيقية لهــا قيمة تجارية حقيقية تتناسب مع مقدار المعدن ونقاء جوهره ، واستحدثا نظاما جديدا من العملة التى تعتمد على الثقة والتى لم يكن لها أى قيمة حقيقية تقريبا ، ولكنها قبلت وتداولها الناس لاعتراف الدولة بها [2] .

وكان انخفاض قيمــة العملة مرتبطا ارتباطا وثيقا بارتفاع أســعار المنتجات الضرورية التى لاغنى للناس عنها . ليس لدينا احصاء ، ولكن فحص ألوف من أوراق البردى يظهر بجلاء كم جلب ارتفاع الأسعار من خراب ، على الأقل فى مصر ، فى القرن الثالث ، وكم تأرجحت الأسعار طوال هذا القرن ، ولا سيما فى النصف الثانى منه ، اذا قارناها بالأسعار

التى كانت ثابتة الى حد ما فى القرن الثانى. ويكفى أن نشير على القارىء بالرجوع الى الحقائق التى عرضها حديثا ف . ايرتل (F. Oertel) ، وهو يريد أن يذيع فى القريب العاجل بحثا كاملا للأدلة الخاصة بهذا الموضوع والتى نجدها فى أوراق البردى ، والى الثبت القيم ، وان يك ناقصا ، الذى نشره ا . سيجرى (A. Segré) . ولكننا هنا نستطيع أن نضرب مثلا أو مثلين . كان سعر القمح فى مصر ثابتا ثبوتا يدعو الى العجب فى القرنين الأول والثانى ، وعلى الخصوص فى القرن الثانى : فبلغ ثمن الأردب الواحد سبعة دراهم أو ثمانية . وفى الأوقات العصيبة التى جاءت فى آخر القرن الثانى تراوح ثمن الأردب بين ثمانية عشر درهما وعشرين درهما ، وهو ثمن لا يدفع الا فى أزمنة القحط تقريبا . وفى النصف الأول للقرن الثالث اختلف السعر بين اثنى عشر درهما وعشرين درهما . ولقد استمرت قيمة العملة فى انخفاض والأثمان فى ارتفاع ، وكانت نتيجة ذلك أن بلغ ثمن الأردب فى زمن دقلديانوس عشرين تالنت أى مائة وعشرين ألف درهم . كانت طبعا النقود المتداولة اذ ذاك عملة ائتمانية ، ولكن ارتفاع الأسعار الى هذا الحد يحير الألباب . ومن سوء الحظ أنه لا توجد لدينا أخبار عن الفترة التى انقضت بين جالّينوس ودقلديانوس . ولقد حدث تأرجح مماثل فى الأجور . كان أجر الرجل الذى لم يصب قدرا من التدريب الفنى فى القرنين الأول والثانى بعد الميلاد يتراوح بين أربعة وستة أوبول فى اليوم ، وهو مبلغ يوازى أخذ أردبين أو ثلاثة من الحبوب فى الشهر . وهذا أجر لا يكاد يكفى لسد رمق أسرته . ولكن يجب أن لا يغيب عن بالنا أننا لا نستطيع أن نفترض وجود طبقة خاصة من الأجراء فى مصر . فأكثر أولئك الذين كانوا يؤجرون ، لم يعملوا كأجراء الا فى القليل من الأحيان ، وكان لهم عمل آخر دائم (كان أكثرهم فلاحين) ، زد على ذلك أن النساء والأطفال كانوا يعملون الى جانب الرجال . أما مركز العمال فى الصناعات فقد خيم عليه الجهل . وارتفعت الأجور فى النصف الأول من القرن الثالث

فتراوحت بين درهمين أو ثلاثة أو خمسة دراهم ، ولكن لما كان ثمن الحبوب قد تضاعف أو كاد وقد استمر كذلك فى الازدياد ، فقد بقيت حال العمال سيئة ، كما كانت من قبل . ولما كثر تداول العملة الائتمانية ، أصبحت الأجور غير مستقرة البتة ، وحدث تغيير رئيسى فى مشكلة العمال كلها (٣) .

فلا غرو أن أصبحت المضاربة الجنونية فى مثل هذه الظروف من المميزات الواضحة فى الحياة الاقتصادية ، ولا سيما المضاربة فى سعر القطع . ولدينا وثيقتان نموذجيتان تشيران الى النتائج الخطيرة لمثل تلك المضاربة . ففى زمن سبتيميوس سيفيروس وبين عامى ٢٠٩ و ٢١١ بعد الميلاد على وجه التقريب صح عزم مدينة ميلاسا (Mylasa) من أعمال كاريا على أن تحمى أصحاب المصارف الذين منحتهم تصريحا ضد استبدال النقود فى الخفاء الذى انتشر فى المدينة وسبب خسارة فادحة لا لأصحاب المصارف وحدهم الذين كانوا يتمتعون باحتكار هذا الاستبدال ، ولكن للمدينة عامة . وتدل خاتمة الوثيقة على أن النقص فى دخل المدينة ليس هو الشىء الوحيد الذى حمل مجلس المدينة على أن يتخذ أمثال تلك الوسائل الشديدة . تقول الوثيقة : « ان الاضطراب قد شاع حقا وصدقا فى المدينة لخداع فئة قليلة من الناس وخبثهم ، فهم يعتدون على المدينة ويسرقون أهلها ، ولقد دخلت المضاربة فى سعر القطع أسواقنا بسببهم ، فحرمت المدينة من الحصول على حاجياتها الضرورية ، حتى ان كثيرا من المواطنين ، بل السوق بأجمعها ، قد حل بها الضر من القحط . ومن أجل ذلك تأخر دفع الضرائب الى الأباطرة عن وقتها المحدد » . فالشر ، كما ترى ، لم يقتصر على تحطيم الاحتكار. قامت مضاربة جنونية على قدم وساق ، وربما كانت خزنا للفضة النقية قام به جماعة يجرون وراء الكسب الحرام ، وقد حصلوا عليها

بدفع سعر قطع حسن . وقد أشير الى هذا فى صيحات أعضاء المجلس (succlamatio) التى ألحقت بهـذا القرار[٤] . وبعد نصف قرن تقريباً (فى عام ٢٦٠ بعد الميلاد) وفى بلدة البهنسا وخلال الفترة القصـيرة التى حكمها ماكريانوس وكويتوس أدى انخفاض قيمة العملة انخفاضا كبيرا الى اضراب مديرى المصارف التى تشتغل بالقطع (κολλυβιστικαὶ τράπεζαι) . أوصدوا أبوابهم وامتنعوا عن قبول العملة الامبراطورية (τὸ θεῖον τῶν Σεβαστῶν νόμισμα) واسـتبدالها ، فلجـأت الادارة الى القسر والتهـديد . وأصـدر القائد (strategus) أمرا الى أصحاب المصارف والى من يعملون فى مبادلة النقود من الآخرين « أن يفتحوا مصارفهم وأن يقبلوا ويستبدلوا كل نقد عدا ما ثبت زيفه وتقليده » . لم يكن الشر جديدا ، لأن القائد يشير الى « العقوبات التى أمر بهـا فيما مضى رفعة الحاكم العام » . وجدير بالذكر أنه فى كثير من العقود التى كتبت فى هذه الفترة عينها كان النقد المعين فيها ليس العمـلة المتداولة التى أصدرها الأباطرة ، ولكن نقود البطالمة الفضية القديمة ، وربما كانت هناك مقادير كبيرة منها مخبأة فى جميع أنحاء مصر [٥] .

أدى عدم الاستقرار العام فى الحياة المالية الى تأرجح فى سـعر الفائدة الذى ثبت فى القرن الثانى ثبوت الأسـعار . ومن الطبعى أن أدلتنا عن هذا الأمر قليلة ، ولا تسمح لنا باستنتاجات واسعة لهـا صبغة عامة . ولكن ان صح ظن بيليتر (Billeter) أن سعر الفائدة انحط انحطاطا كبـيرا فى الفترة التى مرت بين كراكلا واسـكندر سيفيروس ، فهذه حقيقة يمكن تعليلها بالقلق الذى استولى على الحياة المالية عامة وبالركود الذى بعثه فقدان الطمأنينة فى كل مكان . فأحجم الناس عن اقتراض الأموال ، وزاد العرض عن الطلب فى الأسواق [٦] . واننا لا ندرى ما حدث بعد ذلك . اذ تقتصر أدلتنا فيما يمس القـرن

الثانى وعشرات السنين من أوائل القرن الثالث فى أكثر الأحيان على وثائق خاصة باستثمار أموال الهبات والمؤسسات . ولقد رأينا أنه بعد زمن آل سيفيروس حدث نقص هائل فى عدد الهبات يمكن استنتاجه باطمئنان حتى من مصادرنا الضئيلة (٧) . وهناك ظاهرة من الطراز عينه ترجع على الراجح الى تدهور قيمة العملة ، والى ذهاب الابتكار من جانب رجال الأعمال . لقد وقفت العلاقات التجارية بين الهند وبين الامبراطورية الرومانية ، ولا سيما مصر ، وقوفا يكاد يكون تاما . فلم يعثر على نقود من القرن الثالث فى الهند . ولم تبدأ العلاقات التجارية ثانية قبل أن يعود النظام الى نصابه وتصك نقود ذهبية ثابتة القيمة فى العصر البيزنطى (٨) .

كان هذا التدهور الهائل فى النشاط المالى راجعا الى حد كبير الى الخطر الدائم الذى استمر يهدد أكثر الولايات تقدما وثروة . ولقد تحدثنا عن الغزوات التى شنها الألمان على بلاد الغال ، ولا سيما عن المأساة التى حدثت عام ٢٧٦ بعد الميلاد ، عندما نهبت ودمرت أغنى أجزاء بلاد الغال ، وفقدت أكثر المدن قدرتها على النهوض ثانية . وقد حل ببلاد الدانوب مرات عديدة خراب مماثل . ولقد ذكرنا استيلاء القوط والسرماتيين على أكبر المدن وأغناها : ويعتبر مصير فيليبوبوليس نموذجا . ولقد تخلى جالّينوس أو أورليان نهائيا عن ولاية داكيا الغنية المزدهرة واضطر سكانها الى الهجرة الى ولايات الدانوب الأخرى. وحتى فى تلك المدائن التى لم ينهبها ويدمرها القوط ، تلاحظ انحلالا سريعا ينذر بالخطر . وأحسن مثل لذلك مدينة پانتيكاپايوم من أعمال القرم ، وقد خضعت للقوط من منتصف القرن الثالث . لم ينلها التخريب كما أصاب أولبيا ، ولكن ظروف الحياة فيها ، كما يتبين من الحفريات ومن نقودها ، تغيرت تغيرا مفاجئا : شاع فيها الفقر والظلم بلا رقيب(٩).

ولم تكن الحال بأحسن منها فى آسيا الصغرى وسوريا . فبينما أوقف أمراء تدمر تقدم الفرس ، رزئت آسيا الصغرى بغارات كثيرة شـنها القوط بحرا ، ورجعت القبائل الأصلية ، مثل الاسوريين ، الى عوائدها القديمة من النهب والتخريب : فاضطر پروبوس حقا الى أن يشن عليهم حربا منظمة (١٠) . وفى سوريا لم تساعد جهود التدمريين البلاد غير فترة يسيرة : فانتصارات أورليان الباهرة على زينوبيا أعادت الوحدة الى الامبراطورية ولكنها هدمت القوى الحيوية لهذه المدينة الزاهرة ، فلم تقم لها قط قائمة بعد ضرباته . وكانت مصر أهدأ حالا ، ولكنها رزئت أيضا بغارات البليمـيين (Blemmyes) المتكررة ، ولا سـيما فى زمن پروبوس (١١) . وأخيرا واجهت بلاد أفريقية التى عمها الرخاء هجمات لها أهميتها شنتها قبائل ليبيا والمور . وتوالت الأحداث بعضها فى اثر بعض ، فثورة فى عام ٢٥٣ ، وغزو الباڤاريين (Bavares) الكونكوجنتانيين (Quinquegentanei) يعضدهم فاراكسين بين عامى ٢٥٨ و٢٦٠ ، والحرب مع الباكواتيين (Baquates) ومليكهم نوفوسيس (Nuffusis) . وعلى الرغم من أن الحرب الأخيرة لم يرد لها ذكر فى مصادرنا الأدبية ، الا أنها كان لها من الأهمية ما شغل بال الامبراطور پروبوس الذى يحتمل أنه منح نوفوسيس ترضيات هامة (١٢) . ولا ريب أن الحال فى اسـبانيا كانت سيئة كذلك . والقطر الوحيد الذى خرج عن هذا التوافق هو بريطانيا ، اذ يظهر أن القرن الثالث كان فيها وقت سلام ورخاء (١٣) .

وأكثر من ذلك تدميرا الحروب الدائمة التى كانت تدور بين الأباطرة الذين يتنازعون التاج . ولم يكن الشر الحقيقى هو خسارة ألوف من الأرواح فى ميادين القتال ، فهذه خسارة يمكن أن تعوض بسهولة ، ولكن كان الشر كل الشر فى استحالة قيام ما يشبه الادارة الشرعية المنظمة استحالة مطلقة فى مثل هذه الأحوال . وكان جيش كل مدع

وكل امبراطور فى حاجة أولا وقبل كل شىء الى المال والطعام والملابس والأسلحة وغيرها . ولم يكن لدى أحد منهم الوقت أو الرغبة فى أن يسلك طريقا شرعيا فيقصر نفسه على دخل الدولة المعتاد . ولذا كانت سياسة الأباطرة جميعا ، مع بعض استثناءات قليلة لم تعمر طويلا ، تشبه ، ان قليلا وان كثيرا ، سياسة مكسيمينوس — تجنيد جبرى ، وتبرعات قسرية من الأموال والأغذية ، وسخرة . ولم يكن أقل الشرور سلوك الجنود والضباط والموظفين الذى خرج على كل شريعة ، مهما كان مثل هذا السلوك أمرا عاديا فى مثل هذه الظروف . فلقد تخطى الجنود كل حد . وهناك فى مصادرنا الأدبية على فقرها وضآلتها اشارات عديدة الى هذا الشطط . وسترد على ذهن القارىء تلك الخطبة « الى الملك » ، وتلك الخطرات التى واتت مؤلف سيرة پروبوس والتى أشرنا اليها . وفى سيرة أورليان أخبار أخرى من القبيل عينه . فكثيرا ما أشير الى ذاك العقاب المزعوم الذى صب على جندى اعتدى على امرأة مضيفه . وفى خطاب منحول يعدد أورليان الجرائم التى اعتاد الجنود ارتكابها :

فهو يقول : « اذا كنت تريد أن تصبح تريبونا ،كلا ، ان أردت أن تبقى على قيد الحياة ، فضع حدا لشراسة الجنود . لاتسمح لأحد منهم أن يسرق دجاجة أو أن يأخذ بيضة . لا تسمح لأحد منهم أن يسلب عنبا أو يدرس حبا أو يطلب زيت زيتون وملحا وخشبا . ليقنع كل منهم بمؤنته (annona) . عليهم أن يعيشوا على أسلاب العدو ، لا على دموع سكان الولايات » .

ولو لم يجد الكاتب فى مصادره اشارات لا حصر لها الى شطط الجنود وسلوكهم الشائن الذى لم يختلف فى عصر ثيودوسيوس عنه فى عصر جالّينوس ، لاستحال حتى على مؤلف فى القرن الرابع أن يدون مثل هذا القول [١٤] . وعندما نتعرض لوصف الحياة فى بعض الولايات فى القرن الثالث ، سنقتطف وقائع معينة يتضح منها أن مؤرخ سيرة أورليان لم يحد عن جادة الصدق فى حديثه عن شراسة الجنود . ويمكننا هنا أن

تؤكد أنه على الرغم من أن أخبارنا تقتصر على بعض الولايات فلنا الحق فى التعميم والقول بأنها تنطبق على الولايات الأخرى . ويجب علينا أن تتذكر أن كل جزء من الامبراطورية الرومانية ، عدا بريطانيا وأسبانيا ، أخرج واحدا أو أكثر من المدعين والأباطرة الذين اعترف بهم . فلم يكن هذا بأى حال من الأحوال امتيازا لبلاد الدانوب . فقد أدلت سوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ومصر وبلاد الغال وأفريقية بدلوها وساهمت كلها فى خلق أباطرة الرومان .

وفى ظروف « حالة الحصار » التى سادت على الدوام فى الامبراطورية سارت البيروقراطية العسكرية ، سواء فى ذلك عمال الحكومة وموظفو البلديات ، على نفس النهج الذى اختطه الجنود . وكان الأولون مسئولين برؤوسهم أمام الامبراطور ، وأنذر الآخرون بالهوان والخراب والقتل ان عجزوا عن تنفيذ أوامر رؤساء البيروقراطية فى الامبراطورية . وعلى هذا رزحت كل طبقات السكان تحت ثقل الحروب الخارجية والداخلية سواء بسواء . فلم تكن سرقات الجنود ترجع كلها الى الجشع بل كثيرا ما أجبر فقر الولايات وسوء نظام التموين والنقل الجنود على ارتكاب أعمال وحشية لا لشىء الا لانقاذ أرواحهم . وعملت الطبقات العليا فى المدن ، وقد كانت مسئولة عن أولئك الذين يعيشون فى مناطق تلك المدن ، كل ما فى وسعها لحماية البقية الباقية من ثروتها ، فظلمت الطبقات السفلى . وكانت الطبقات الدنيا عرضة للاضطهاد والسلب على يد كل انسان . أضف الى ذلك الأوبئة الكثيرة التى كانت ترجع فى أكثر الأحيان الى اختلال نظام الحياة عامة والى الفقر وسوء التغذية والى الأحوال السائدة فى المدن والتى كانت لا تتفق وقواعد علم الصحة ، والى ما ماثل ذلك (١٥) .

فلا غرو أن كان نقص عدد السكان فى مثل هذه الظروف هو أوضح

المعالم الاقتصادية والاجتماعية فى هذه الفترة . لقدأهلكت الأوبئة الفتاكة والغارات والحروب الأهلية والخارجية كثيرا من السكان . وأشد من ذلك خطرا عدم استقرار الحياة عامة والاضطهاد الدائم الذى صبته الدولة على رعاياها . وتحت ضغط هذه الظروف التى تراءت وكأنها لن تنتهى ، هجر الناس أماكن اقامتهم وفضلوا على تلك الحياة التى لا تحتمل فى المدن والقرى حياة المخاطرات والسلب فى الغابات والمستنقعات [١٦] . وكان اختلال النظام اختلالا تاما فى القوات البحرية سببا فى عودة القرصنة ، فأضحت البحار ثانية غير مأمونة ، كما كانت فى القرن الأول قبل الميلاد . وفى بعض الأماكن كصقلية (على عهد جالّينوس) وغاليا (وهى مسرح لثورات الباجوديين Bagaudae كما كانوا يسمون) أشعلت الطبقات الدنيا من بين السكان ثورات منظمة أخمدت بوسائل عسكرية [١٧] . وأخيرا هناك كل الأسباب التى تحملنا على الاعتقاد بأن عائلات قليلة جدا أعارت انجاب الأطفال اهتماما . فأصبح النقص فى عدد السكان الذى كان فى العهد الأول للامبراطورية مقصورا على مساحات قليلة كبلاد اليونان ، والى حد ما ايطاليا ، وكان مرجعه الهجرة الى أجزاء أخرى من الامبراطورية ، أصبح الآن من المعالم البارزة فى حياة الامبراطورية [١٨] .

وكنتيجة لهذه الأحوال ضعفت باطراد مقدرة الامبراطورية على الانتاج بوجه عام . فازدادت مساحة الأراضى المجدبة كل يوم . وأهملت أعمال الرى والصرف ، مما أدى لا الى نقص مستمر فى مساحة الأراضى التى تزرع فحسب ، ولكن ربما أيضا الى انتشار الحمى الملارية التى أصبحت تدريجا أفظع سوط عذاب صب على البشرية [١٩] . وزاد نظام تبادل السلع اختلالا ، وعظم اعتماد الأجزاء المختلفة فى الامبراطورية على ما تنتجه هى نفسها . ومن هنا تكرر حدوث القحط ، ومن هنا أيضا

نشأ انحلال الصناعة التى أنتجت لجماعات محلية قليلة من المستهلكين ، كانوا يطلبون فقط أرخص البضائع وأسهلها صنعا [٢٠] . ومن الطبعى أن كل دار كبرت أم صغرت حاولت جاهدة أن تصبح قادرة على انتاج ما تحتاج اليه . فازدهر الانتاج المنزلى ازدهارا لم يره قط قبل ذلك . ولم تستطع وسائل جزئية أن تقف هذا الانحلال المطرد . فأسكنت جماعات من الأسرى فى البلاد التى نقص عدد سكانها . وصدرت قرارات تجعل المدن مسئولة عن الأراضى المجدبة . واعتبر فرار الانسان من محل اقامته جريمة . ولكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح : فلم يوقف سير الانحطاط بمثل هذه الحيل ، بل اطرد ضعف الامبراطورية وقدرتها على الانتاج ، ووجدت الحكومة نفسها مضطرة الى أن تلجأ الى القسوة والقسر بجهود متزايدة [٢١] .

هذه صورة رسمناها بخطوط عريضة للأحوال العامة فى الامبراطورية. فاذا بدأنا ننقب عن أدلة خاصة بكل ولاية على حدتها ، وجدنا أنها جد قليلة . ومع ذلكم فمن المستطاع رسم صورة أكثر تبيانا وتفصيلا لآسيا الصغرى ومصر على الأقل . ففى آسيا الصغرى ، كما فى سوريا ، كانت العودة تدريجا الى نظام الاقطاع من أهم المعالم الرئيسية فى حياتها . ولقد وصفنا فيما سلف كيف أصبح أمراء تدمر مدة من الزمن حكاما على الجزء الشرقى من الامبراطورية . ولقد تكلمنا كذلك عن نهضة عائلة السامپسيجراميين (Sampsigerami) فى حمص (إميسا)[٢٢]. وأن ما أطلق عليه اسم ثورة الاسوريين (Isaurians) فى آسيا الصغرى ان هو الا عرض آخر للميل نفسه نحو انشاء دويلات تكاد تكون مستقلة فى داخل الامبراطورية [٢٣] . وأكثر من ذلك تبيانا للخواص المميزة للأحوال التى سادت فى القرن الثالث نقش عثر عليه فى تيرميسوس (Termessus) من أعمال ليكيا يرجع تاريخه الى عصر ڤاليريان (٢٥٣ بعد الميلاد) .

ففى هذا النقش نجد رجلا يحمل اسما رومانيا لا شية فيه ، هو ڤاليريوس ستاتليوس كاستوس (Valerius Statilius Castus) ، ومع ذلك فهو يحمل لقبا غريبا هو حليف الأباطرة العظيم (κράτιστος σύμμαχος τῶν Σεβαστῶν) ، ويقابل ذلك فى اللغة اللاتينية (egregius socius Augustorum) . انه يقود الفيالق المحلية . وهذه الفيالق بلا ريب جيش (ميليشيا) محلى ، ولقد كيل له الثناء لأنه نشر السلم فى البر والبحر . ولقد لعب دورا نشيطا فى حياة البلدة ، رغم أنه لم يقم بها ، وأظهر احترامه وولاءه للأباطرة . ومن البين أننا نقابل هنا ما وجدنا فى تدمر وحمص ، أعنى مثلا من أمثلة دفاع ولاية رومانية عن نفسها ضد غارات عصابات من الفرس وضد القراصنة الذين كانوا من سكان البلاد الأصليين ، كما كانوا من القوط . وهذا الدفاع يؤدى هنا أيضا الى قيام دويلة تابعة تكاد تكون مستقلة تحت زعامة رجل قوى ، ربما كان سليل أسرة عريقة محلية تأثرت بالحضارة الرومانية وكانت تحكم البلاد فيما مضى . وأحسن مثل يضرب لهؤلاء الليكيين والسوريين هو پروكولوس (Proculus) الذى اغتصب الملك ، وهو رجل من أصل ليجورى وأحد رؤساء قبيلة الانجونيين (Ingauni) (البينجا (Albenga) الحديثة على مقربة من جنوة) ، وقد تخصص فى النهب والسرقة ، فأصبح غنيا ذا نفوذ ، ثم جمع جيشا مؤلفا من ألفى رجل ، وبمعونة هذا الجيش صبا الى ارتقاء عرش الامبراطورية الرومانية [٢٥] .

وهناك جانب آخر من الحياة فى آسيا الصغرى تصوره وثيقة ذائعة تسجل التماسا رفعه رجل اسمه أورليوس اكليكتوس (Aurelius Eclectus) نيابة عن جماعة من مستأجرى الامبراطور . وقام بتقديم الالتماس الى الامبراطور فيليب وسيط اسمه ديديموس كان يحتل

منصبا رفيعا (centenarius) فى الشرطة الحربية (frumentarius) .
وتجـرى شكوى الفلاحين كما يلى :

« وبينما يعيش جميع الناس فى عهد حكمك السعيد ، يا أتقى وأطهر ملك عاش قط ، حياة هادئة لا يعكرصفوها شىء بعد أن قضيت قضـاء مبرما على الشر والابتزاز ، حلت بنا وحدنا مصائب لاتتفق وأيامك السعيدة . ونحن لذلك نتقدم اليك بضراعتنا هذه . نحن ضيعتك ، يا أقدس الأباطرة ، أمة كاملة . وبهذه الصفة نضرع اليك ونتقدم بشكايتنا الى جلالتكم ، اننا نضطهد اضـطهادا وحشيا ، يعصرنا أولئك الذين من واجبهم حماية الأهلين ... هؤلاء الرجال ـ من ضباط وجنود وأشراف فى المدينـة بيدهـم زمام السلطة (حكام) وصغار موظفيك ـ ... يأتون الى قريتنا ويأخذوننا من أعمالنا ويستولون على ثيران الحرث ويبتزون منا ماليس من حقهم . فنحن نرزح تحت ظلم وسلب لا مثيل لهما » . (٢٦)

نحن نرى أن الحال قد ازدادت سوءا بدلا من أن تتحسن منـذ عصر سيپتميوس . للفلاحين فى أراجوى (Arague) أن يمدحوا زمان فيليب السعيد ، ولكن حالهم هم أنفسهم لم تكن بأحسن مما كانت عليه . والحق أن أكثر المعتـدين هم أنفسهم الذين كانوا يعتـدون فى زمن سيپتميوس . وكذلك بقيت وسائل العسف هى بعينها . وهناك شكاية معاصرة ومماثلة تقريبا ، رفعت الى جورديان الثالث (٢٣٨ بعد الميلاد) ، قدمها الى الامبراطور جنـدى اسـمه پيروس (Pyrrhus) ، وأضيف اليها دفاع محام (؟) هو ديوجينيس الصورى ، (حامى القرية ؟) وهى تصف عين الأحـوال على أنها سائدة فى سكاپتوپارى (Skaptoparê) وهى قرية من قرى تراقيا تقع فى منطقة پاوتاليا (Pautalia) . ولم يكن رافعو الشكوى من مستأجرى الامبراطور ، ولكنهم كانوا أصحاب أراض ومنازل (οἰκοδέσποται) . انهم يشكون أيضا من ظلم الجنود وسلبهم وكذلك من ظلم صغار عمال الامبراطور وأناس آخرين . ومن مصائب هذه القرية أنها كانت على مقربة من مكان ينتجعه الناس طلبا للصحة ،

وكان يوجد غير بعيد منها سوق هام يقام فيه فى فصل من فصـــول السنة حفل كبير . فلو أن الأحوال كانت عادية ، لعاد هذا بالخير على أهل القرية ، وهذا ما حدث حقبة طويلة من الزمان ، ولكنه انقلب فى القرن الثالث طاعونا حقيقيا يفتك بأهل القرية . استعمل الزوار الكثيرون الذين أتوا الى المكان طلبا للصحة ولرؤية الحفل ومسافرون آخرون القرية مكانا للراحة فى طريقهم وكمورد للمؤن . طلبوا سكنا وغذاء دون أن يدفعوا ثمنا ، وصيروا المكان تدريجيا محلة فقـــر وبؤس ، فاطرد النقص فى عدد سكانها . وطالب القرويون بالمعونة وهددوا بأنهم ان لم يحصلوا عليها ، هجروا ديار آبائهم وأجدادهم . وهم بذلك يحرمون خزانة الامبراطور مما يدفعون ومن خدمات أخرى (٢٧) .

فلنول وجوهنـــا شـــطر مصر . نقص عـــدد ورق البردى بعـــد زمن اسكندر ســيفيروس نقصا ذريعا ، اذا قارناه بأوراق البردى التى ترجع الى القرن الثانى والى السنوات الثلاثين الأولى من القرن الثالث . ومع ذلك فهى تعطينا صورة جيدة ، وان تكن ناقصة ، للأحوال التى سادت فى القرن الثالث . ونحن نستطيع مستعينين بثبت يحوى أسئلة قدمت الى مهبط وحى أن نلقى نظرة خاطفة على أهم ما كان يشغل بال رجل عادى من ساكنى مصر من بين الطبقات المختلفة . وربما كانت هذه الأسئلة تمثل نماذج اعتاد الناس أن يسألوا عنها ، وضع لها رجل ثبتا ، اما لأنه أراد أن يسأل عن بعضها ، واما — وهذا أكثر احتمالا — لأنه كان عليه أن يجيب عليها . ويقف بعض هذه الأسئلة موقف المحايد ، كالأسئلة التى اعتاد الناس توجيهها فى القرن الثانى : هل أتزوج ؟ أو : هل مستقبل الأعمال المالية حسن ؟ ولكن من بين واحد وعشرين سؤالا نجدها فى ورقة البردى ثمانية أسئلة على الأقل تحمل طابع ذاك الوقت بالذات (أواخر القرن الثالث) ، وتنعكس فيها مشاغله الخاصة به :

« أيباع كل ما أملك ؟ » وهو سؤال يشير بجلاء الى مصادرة الأموال . وقد صيغ عين السؤال فى صورة أخرى : « أتباع أملاكى بيعا جبريا علنيا ؟ » . وهناك أسئلة أخرى نموذجية منها : « أأصبح شحاذا ؟ » ، « أأهرب ؟ » ، « أأصبح سفيرا ؟ » ، « هل انتخب عضوا فى المجلس البلدى ؟ » ، « ألفرارى نهاية ؟ » ، « هل أقبض مرتبى ؟ » ، وهلم جرا [٢٨] . يستطيع المرء أن يرى ما هى تلك الأخطار العظيمة التى كانت تهدد مستقبل الانسان . ولقد جاءت هذه الأخطار من تدخل الدولة فى حياة الأفراد . وكان من الأحـداث اليومية أن تباع أملاك الانسان أو يصبح شحاذا أو يفر من مكان اقامته أو ما هو أسوأ يصبح عضوا فى المجلس البلدى أو يوفد بوصفه سفيرا الى العاصمة نيابة عن مدينته ، ومن الطبعى أن يضطر عندئذ الى تحمل نفقة كبيرة . ويعطينا خطاب أرسله وكيل الى مولاه معددا ما أنفق فى فترة معينة لمحة أخرى فى أحوال دار كبيرة ربما كانت لرجل عظيم فى مدينة هيرموبوليس . وأكثر فقرات هذا الخطاب تتعلق بالاستيلاء والرشا والدفعات العادية التى قدمت الى الجنـود ، فمثلا « ثمن نبيـذ كنيـدى للجندى الذى نزل ببيت ديميتريوس ، نساج الأقمشة الطرسوسية (tarsicarius) » (سطر ١٢) ؛ « لبلوتيون جندى الحاكم العام المعفى من الأعمال اليدوية (beneficiarius) عندما طالب براتبه (annona) ، مقداران من النبيذ » (سطر ١٥) ؛ « لخادمه لئلا يخبر الجندى عن وجود القائد (praepositus) هنا » (سطر ١٨) ؛ « ثمن خشب للتدفئة لقائد (praepositus) الكتيبة » (سطر ٢٧) ؛ وهكذا . وينم ذيل الخطاب عن نغمة يأس وقنوط : يطلب المدير ردا سريعا وارشادات [٢٩] .

كانت معالم الحياة البارزة فى مصر فى القرن الثالث هى نقص عدد السكان تدريجا فى القطر وفساد نظام الرى وزيادة الأراضى المجدبة والتى لا تنتج . وتدل ورقة بردية وجدت فى ثيادلفيا مثلا وهى تحوى رسائل

رجل اســـمه ساكاون (Sakaon) وترجع الى تاريخ بين عامى ٢٨٠ و ٣٤٢ بعد الميلاد على أن الأراضى المحيطة بهذه القرية المزدهرة فيما مضى أصبحت فى حالة يرثى لها . وفى أوائل القرن الرابع كانت مساحة الأراضى القابلة للزراعة والتى يمكن لذلك فرض ضريبة عليها لا تتجاوز خمسمائة أرورا (arourae) ، ولم يزرع منها الا مائتان فقط . ولم تكن الحـال بأحسن منها فى فيلادلفيا وهى قرية أخرى كبيرة زاهرة . وقد شكا ثلاثة من أصحاب الأراضى الموسرين الذين يملكون قطعا كثيرة فى منطقتها الى العشرة الأوائل (decaprotoi) أن محاسب (πραγματικός) القرية بالغ كثيرا فى تقدير مساحة الأرض التى يملكونها وفى جودتها . وربما كانت هذه المبالغة فى التقدير راجعة الى أن تلك القطع قد دونت فى دفاتره على أنها أكبر مساحة وأجود خصوبة مما كانت عليه فى الحق والواقع . كان الفرق فى أرض مساحتها ٥/١٢ ٨٠ أرورا ، وهى التى فرضت عليها ضريبة ، هو ٢١/٣٢ ٣٣ أرورا ، وربما كان هذا الفرق أرضا لا تنتج شيئا البتة . زد على ذلك أن بعض الأرض التى يعترف الملاك بأنها جزء من أملاكهم أشاروا اليها على سبيل التخصيص على أنها أرض لا تنتج فى الواقع شيئا ، أو على أنها تحتاج الى جهد جهيد . فهى تتألف من أرض بعضها لا يروى ، ولكن أكثرها غرس أشجارا ، وهو اما أرض مجدبة ، أو أن الأشجار التى عليها قد قطع بعضها أو كلها (٣١) .

وهذه حال لم تقتصر على الفيوم . ففى وثيقة من عصر جالّينوس (٢٦٥ — ٢٦٦ بعد الميلاد) رفعت لجنة تقريرا الى مجلس هيرموبوليس الكبرى عن حالة بعض الضـياع المخصصة لمعبد سرابيس فى البلدة والمؤجرة الى اثنين من كبار موظفى البلدية . ويقول التقرير ان اثنين وعشرين أرورا من الكروم لا تحوى الا « عددا قليلا من أشجار الكرم لا تزال تعطى ثمارا ، وهذه الأشجار فى حالة يرثى لها من الاهمال ،

وقد غطاها نبات السمار ، بينما أحاط بالضيعة كثير من الأراضى البور ومن نبات السمار » ، ومعاصر النبيذ وأحواضه فى حالة سيئة جدا ، وحال أكثر القطع الأخرى ليست بأحسن من سواها . ومن البين أن الأرض التى فحصتها اللجنة كانت قد صودرت من أصحابها السابقين فى دين عليهم للدولة غرموه بوصفهم موظفين للمدينة أو للدولة ، وأن تلف الأرض يرجع الى انعدام الابتكار الفردى والادارة الحازمة [٣٢] . أرض مجدبة وأرض أميرية أصبحتا على مر الأيام لفظين مترادفين . وكان فى طوق الدولة أن تمنح الأرض للهيئات أو للملاك الأثرياء أو تثقل كاهلهم بها (النظام المشهور المسمى ἐπιβολή) أو تبيعها بثمن اسمى الى أناس يرغبون فى تجربة حظهم ، الا أن النتيجة كانت فى أكثر الأحوال محزنة . تركت الكروم وبساتين الزيتون التى كانت زاهرة فى يوم من الأيام دون أن يعنى بها أحد ، وأصبح من العسير اعادة خصوبتها الغابرة . ومن الطبعى أن الأراضى التى لقيت هذا المصير كان أكثرها فيما مضى ملكا للأفراد ، فأصبحت الآن أرضا لا تروى ، وكانت فى أيام سعادتها الأولى قد جعلت صالحة للزراعة بجهود ملاكها وبوسائل الرى الصناعية . أما أراضى التاج التى كان يغمرها الفيضان بسهولة فلم تزل خصبة ووجدت على الدوام كثيرين يقومون بزرعها . وليس لتلف الأراضى من سبب عدا نظام الخدمات المهلك الذى جلب الخراب على الأملاك ذات المساحة المتوسطة والصغيرة التى كانت فى حوزة الموسرين من طبقة البورجوازى . أما الفلاحون فقد نجوا ، وكذلك نجا ، كما سنرى فيما بعد ، كبار الملاك .

أما السبب المباشر فى جدب الأرض فهو طبعا الاهمال ، وما نجم عنه من خلل فى شباك الجسور والترع فى جميع أنحاء القطر . ولقد أضر ذلك لا بالملاك من الأفراد وحدهم ولكن بفلاحى الدولة أيضا .

وكان مرجعه الى الحروب والثورات العديدة والى الادارة السيئة فى توزيع العمل بين السكان ، والى الكسب الحرام والرشا التى أقبل عليها موظفو الدولة . حاولت الحكومة أن تصلح من نظام الرى ما أمكنها ذلك ، ولكنها جرت على طريقها المعتاد من قسوة وقسر . وأعظم جهد بذل فى هذا السبيل هو ما قام به الامبراطور پروبوس ، ولقد ذاع واشتهر أمره حتى ذكره مؤرخ سيرته التى كتبت باللغة اللاتينية (٣٣) .

وترينا ورقة بردية ترجع الى عام ٢٧٨ بعد الميلاد بأى طريقة وبأى وسيلة نفذ الاصلاح . عبىء جميع ملاك الأراضى ، ولم يقبل من أحد منهم عذر ، ولم يؤذن لأحد منهم أن يدفع مالا بدلا من أن يؤدى عملا . وعين مراقبون مخصصون من بين الحكام فى البلدية ، ومن ملاك الأراضى تحت اشراف المراقب العام (dioeketes) والقواد (strategoi) والعشرة الأوائل (decaprotoi) . وكان الجزاء صارما جدا : «اذا تجرأ امرؤ على أن يحاول أى شيء من هذا القبيل (أى أن يقبل مالا بدلا من عمل) أو يغفل عن هذه الأوامر ، فليكن على يقين أنه يغامر لا بأمواله فقط وانما بحياته أيضا من أجل الضرر الذى يلحق الوسائل التى قصد بها انقاذ مصر جميعها »(٣٤).

وتدل وثيقة أخرى كتبت بعد الأولى بعشرين سنة (٢٩٨ بعد الميلاد) على أن الوسائل الدقيقة الحازمة التى اتخذها پروبوس لم ترفع من أخلاق الموظفين فى مصر الذين كان لعملهم اتصال بالجسور والترع ولم تجبرهم على أن يتصفوا بالأمانة . ففى هذه الوثيقة يشكو ممثلو احدى القرى من عسف الموظفين وحيلهم . وتشير التعبيرات التى استعملوها شيئا من الدهش . يقول الفلاحون : « سنجد من الصعب يا مولانا حتى ان أنصفنا فى أوامر خاصة بنا أن نقوم بواجبنا على الوجه الأكمل ، وقد بلغ بنا الوهن حدا لو استخدمنا معه فى أى عمل نافع حال ضعفنا دون القيام به » . لقد كان الأمر حقا تافها — اضافة ظالمة

لعمل قدره مائة وخمسون مقياسا مكعبا قام به فريق وأضيف لحساب فريق آخر — ولكنه يدل على فساد هذا النظام وسوء مغبته بين الأهالى [٣٥] .

وكان فى مقدمة أسباب انحطاط الرخاء الاقتصادى فى مصر ، كما أشرنا آنفا مرارا وتكرارا ،نظام الخدمات القتال الذى قضى على جهود الأباطرة الأول فى نشر نظام الملكية الفردية فى جميع أنحاء القطر ، ولكى تعود أجزاء كبيرة من البلاد الى رخائها السابق . ولقد بينا فى الفصل التاسع أن منح كراكلا للرعوية لم يحدث تغييرا فى نظام الخدمات ، فقد سبق منح الرعوية ادخال أنظمة البلديات فى مصر . ولقد استحدثت حقا أنظمة البلديات فى مصر فى وقت فقدت فيه تلك النظم فى كل مكان معناها الأول فلم يعد استحداثها وسيلة لنشر الحكم الذاتى فى أجزاء من العالم القديم لم يسبق لها التمتع به ، ولكنها كانت وسيلة لربط السكان الى الدولة بروابط الخدمة الشخصية والمسئولية المادية . وكان قصد الحكومة من خلق جموع عديدة من المواطنين ايجاد جماهير جديدة من حملة الأعباء (λειτουργοί) أو (munerarii) الجدد ينتظمون فى جماعات ليصبح من السهل مراقبتهم . وقد ألف الفلاحون والصناع منذ القدم طوائف مهنية ترتبط كل منها بحرفتها ومكان اقامتها . أما ملاك العقار فقد نجوا الى الآن من الالتزام بأى عمل خاص يؤدونه للدولة ، وقد تركوا أحرارا ينمون حياتهم الاقتصادية كما يشاءون . أما الآن فقد نظموا تبعا لمكان اقامتهم فى جماعات تخدم الدولة وتحمل اسما مجيدا هو اسم المواطنين الرومانيين والمواطنين الأحرار فى الهيئات اليونانية . وكان العمل الخاص الذى أسند اليهم هو تحمل مسئولية دفع الضرائب المختلفة المستحقة للدولة ، ومعاونتها على تحصيلها . ووجه آخر من العمل نفسه كان مسئوليتهم عن قيام الأهالى بأعمال السخرة وعن الدخل الذى تغله الدولة من أراضيها ، وفوق كل ما تقدم مسئوليتهم عن الأرض المجدبة والمهجورة .

لقد أصبح الآن ما كان فى القرن الثانى لا يزال مسئولية فردية تقع على عاتق بعض أعضاء الطبقات الممتازة مسئولية جماعية تقع على كل فرد من فريق منظم معين ، يأخذ كل عضو فيه مكان أخيه ان لم يقم هـذا بالوفاء . وهذه الجماعات أطلق عليها اسم مجالس المدن ، وخصص لكل منها جزء من أرض مصر بمن يقيم عليه من فلاحين وصناع .

ولم تكن الأعباء التى أثقلت كاهل السكان والتى وقعت مسئوليتها على المدن وممثليها من كبراء وأعضـاء فى مجالسها فى يوم من الأيام بأثقل منها فى القرن الثالث . وأفدح هذه الأعباء لم تكن تلك التى اعتادها الناس منذ القدم كالضرائب والسخرة العادية ، ولكن أعبـاء الطوارىء — من دفعات استثنائية واستيلاء غـير عادى (annona) ونقل . فلا عجب أن وجدنا فى محاضر جلسات مجالس المدن فى النصف الثانى من هذا القرن فيما وصل الينا من بقاياها (من مدينتى البهنسا وهيرموبوليس) أن أعضـاء المجالس والموظفين لا يتناقشـون الا فى الخدمات — كيف توزع بين أغنى الأثرياء فى المدينة ، ومن يقع عليه الاختيار ليكون الضحية التالية التى كتب عليها الخراب والفرار . فبين عامى ٢٧٠ و ٢٧٥ بعد الميلاد وفى عهد أورليان احتدمت المناقشة فى مجلس بلدة البهنسا حول الأموال التى تنفق فى شراء تيجان تقدم الى الأمبراطور احتفاء بذكرى انتصاره القريب(٣٦). ولما كان النصف الثانى من القرن الثالث يعج بالحروب وتنقلات الجنود ، فأشد ما أقلق راحة مجالس المـدن هو جمع المواد الغذائيـة (annona) وتسليمها الى الجنود . ففى عام ٢٦٥ بعد الميلاد اتخذ رئيس المجلس الوسائل لجمع مقادير من الحبوب التى تحتاجها الكتائب (٣٧) . وفى عين السنة سلمت مواد غذائية الى الجنود الذين كانوا فى معية الحاكم العام كلوديوس فيرموس (٣٨) . وفى عام ٢٨١ بعد الميلاد قدم الخبز الى « الجنود والبحارة

وهم على سفر » (τοῖς χωρήσασι στρατιώταις καὶ ναύταις) [٣٩] . وفى سنة ٢٩٩ أعطى تبن « ليسلم الى الجنود الأماجد المارين بالمدينة » [٤٠] . والى حكم دقلديانوس يرجع تقرير طويل عن تسليم اضافى من المواد الغذائية (species annonariae ، εἴδη εὐθηνιακά) كان مصيرها الى الجنود [٤١] . وبينما كانت المؤن (annona) فى القرن الثانى تعتبر اضافة طارئة على ما يجبى من ضرائب ، وكان المفروض أن الحكومة تقوم بدفع ثمن ما يسلم اليها من مؤن ، غدت المؤن فى القرن الثالث محض استيلاء وضريبة اضافية تفرض على الملاك ومستأجرى أراضى الدولة والامبراطور . ووقعت مسئولية تسليمها على مجالس المدن التى كانت تعين أعضاء منها للاشراف على جمع هذه المواد الغذائية والعلف ونقلها الى الموانى أو الى المدن وتسليمها الى ممثلى الفرق [٤٢] . ويتبين من رسالة خاصة من أواخر القرن الثالث ما كانت تشيعه المؤن (annona) من رعب فى قلوب جامعيها وفى أفئدة دافعى الضرائب على السواء . يقول كاتبها ان رسالته ان هى الا التماس يطلب فيه المساعدة ويبعث به اجابة لرغبة عريف (γνωστήρ) وهو رجل كان من واجبه أن يقترح أسماء من ينبغى أن يقع عليهم الاختيار لحمل أعباء الخدمات وقد وجد نفسه تكتنفه الصعوبات . ثم يمضى فى القول : "انه (العريف γνωστήρ) يقول : « لقد منحته عونا كبيرا فى موضوع المؤن(annona) » . وهو يقول أيضا ان المؤن قد حان حينها . فان استطعت أن تخلصه بنفسك ، فخير ، والا فمر بما تود أن يُعد . لا تهمل هـذا الأمر فانهم (جامعى المؤن annona ؟) لم يذهبوا بعـد . ان كان لك من النفوذ والسلطان ما يمكنك من انقاذه ، فسيكون ذلك عملا عظيما ، اذ ليس لدينا ماشية أو خنازير" [٤٣] .

وهناك مسألة شاقة أخرى واجهت مجالس المدن وهى نقل المؤن

(annona) والضرائب العينية الى موانى النيل والى الاسكندرية .
كانت تقوم بالنقل البرى ، تحت اشراف نواب مخصوصين يختارهم
المجلس (καταπομποί أو παραπομποί و prosecutores) ، رابطات
أصحاب دواب الحمل ، وكان يسأل عنهم العشرة الأوائل (decaprotoi)
فى البلديات وكبار أصحاب الأملاك أو الملتزم العام فى أراضى
الامبراطور . أما النقل النهرى فكان فى يد جماعات خاصة من أصحاب
السفن أو مستأجرى السفن التى تملكها الدولة [٤٤] . وهنا أيضا
كان من واجب وكلاء معينين من قبل مجالس المدن أن يراقبوا السفن
وهى تجرى على النيل وكانوا يسألون عن سلامة البضائع التى تنقل
بحرا . وكان المفروض أنهم يسافرون مع قوافل السفن النهرية وأنهم
يشهدون تسليم الحمولة فى الاسكندرية . كانت الخدمة المسماة بتوديع
المؤن (prosecutio annonae) من أفدح الخدمات وأشدها خطراً . فلا عجب
أن فر اثنان من أبناء أعضاء فى مجلس الشيوخ واختفيا فى زمن دقلديانوس
عندما وقع عليهما الاختيار "ليبحرا شمالا ويرسلا" نبيذا وشعيرا .
وشغل أعضاء المجلس بالبحث عمن يحل محل الهاربين . وفى احدى
جلسات المجلس ، قال الأعضاء : « لا تلحفوا فى هذا الأمر لئلا يهربا »
(يقصدون من حلا محلهما) . وفى أثناء ذلك صودرت الضمانات التى
قدمها الهاربان [٤٥] . وتصف ورقة بردية من القرن الرابع ما يلقى مشيع
المؤن (prosecutor annonae) من عقبات . وليس من ريب فإن تجاريب القرن
الثالث لم تكن جد مختلفة . والظاهر (رغم أن الأمر لا يزال فى حاجة
الى تبيان) أن المشيع (prosecutor أو καταπομπός) المسكين طرد من
السفينة التى كان يبحر عليها ، ثم غشه وضربه وآذاه رجل يقال له
أورليوس كلوديانوس وقائد الأسطول أى أمير البحر [٤٦] .

وكان لنظام الاستيلاء والمسئولية الملقاة على عاتق المدن وأعضاء

مجالسها ومواطنيها الموسرين عامة أثر على تنظيم الصناعة فعادت ثانية تلك الأحوال التى كانت سائدة طيلة عصر البطالمة . وخضعت الصناعة مرة ثانية الى مراقبة الدولة التى سارت على المنهاج عينه الذى ميز عصر البطالمة ، بعد أن كانت قد نالت قدرا من التحرر فى القرن الثانى . وكان سبب العودة الى هذه الرقابة على صناعة الملابس حاجة الدولة الملحة الى ملابس الجنود . وتعطينا ورقة بردية لمحة فى تنظيم هذا الفرع من الصناعة ، وقد دون فى هذه البردية ما دار فى اجتماع مجلس البهنسا بين عامى ٢٧٠ و ٢٧٥ بعد الميلاد . وكان الموضوع المطروح على بساط البحث هو تسليم ملابس من الكتان الى المعبد . ويتبين من المناقشة أن الصنع والتسليم نظما على منهاج البطالمة . كانت المدينة تجمع الغزل من الفلاحين وتعطيه النساجين ، فان وجد نقص فى الغزل ، اشترته المدينة من الأسواق . وكان على النساجين أن يعملوا للمدينة بأجرة محددة ، وأن يسلموها ما تطلب من ملابس . ومن المحتمل أن الفائض كان يباع الى التجار والمستهلكين من الأفراد (٤٧) .

ونحن نرى أنهم رجعوا أيضا الى نظام البطالمة فى تنظيم بعض فروع الصناعة وتجارة التجزئة التى مست الحاجة اليها فى تموين المدن كصنع الزيت وبيعه مثلا . اننا نجد رجالا رخص لهم فى احتكار تجارة التجزئة ، ونراهم أيضا مستأجرين لمعاصر الزيت التابعة للمعابد . وجدير بالذكر أن عين التطور واضح فى تنظيم تموين مدينة رومة الذى ابتدعه اسكندر سيفيروس وأورليان . وقد أتينا على صفته فيما سلف (٤٨) .

وعلى ذلك رزحت طبقة البورجوازى فى بلديات مصر التى نظمت لأول مرة فى زمن سيبتميوس تحت شر كالذى كانت تعانيه طبقة البورجوازى فى الأجزاء الأخرى من العالم الرومانى . ففى كل يوم كانوا مهددين لا بالخراب وفقد أملاكهم فحسب ، ولكن بالهوان أيضا .

ومعنى ذلك أنهم سيوضعون فى صفوف الطبقات الوضيعة (humiliores) وأنهم لم يصبحوا من طبقة الأخيار (honestiores) . ومغزى ذلك أنهم كانوا عرضة للحبس والعقوبات البدنية على أيدى موظفى الحكومة . وكان ذلك أمرا عاديا فى حياة القرن الرابع ، كما نعرف من ليبانيوس . وفى بدء القرن الثالث أعفى حقا أولئك الذين تنازلوا عن أملاكهم من العقوبات البدنية تنفيذا لأوامر الأباطرة . وقد ورد ذكر ذلك بجلاء فى قرار أصدره سيڤيروس : « لكن رعويتك لن يمسها من أجل ذلك سوء ، ولن تصبح عرضة للعقوبات البدنية » . وهذه القرارات استمرت نافذة حتى سنة ٢٥٠ بعد الميلاد . ففى وثيقة من هذه الفترة يشير رجل يقال له هيرموفيلوس الى هذه الأوامر عند تنازله عن أملاكه . ولكن العادة جرت على خلاف ذلك . والا لما تضرع أورليوس هيرمياس الى المراقب (procurator) عند تنازله عن أملاكه ليكف يده عن العقوبات البدنية . فيقول هيرمياس : « ومن الضرورى أن ألقى بنفسى عند قدميك .. وأن أضرع اليك ألا ينزل ببدنى اهانة قاسية حتى أستطيع تحت ظل مرحمتك أن أبقى هادئا فى وطنى » [٤٩] . ومن الواضح أن العقوبات البدنية جاءت غالبا فى أعقاب الخراب المالى ، والطريق الوحيد للنجاة من ذلك أن يفر المرء من مكان اقامته . وهذه الهجرة كانت أمرا عاديا يحدث كل يوم فى مصر فى القرن الثالث . وسيتذكر القارىء الأسئلة التى وجهت الى مهبط الوحى والتى أشرنا اليها فى أول هذا الفصل . ويمكننا أيضا أن نقتطف خطابا خاصا من بلدة البهنسا يخلب اللب ، كتبه خارموس الى أخيه سوپاتروس : « أرسل الحاكم العام عفوا الى هنا ، ولم يعد هناك أدنى خوف على الاطلاق ، وعليه تعال دون وجل ، ان أردت ، لأننا لا نستطيع أن نبقى داخل دورنا أكثر من ذلك . ولأن أنوى (Annoë) أصابها الاعياء والكلال من رحلتها ، ونحن فى انتظار

حضورك حتى لا تترك المكان دون مسوغ ، لأنها تظن أنها تدبر المنزل هنا وحدها » . هذه الجمل التى تشبه الطلاسم والتى يدرك مرماها من أرسل الخطاب اليه تذكرنى بالرسائل الكثيرة التى تصل الىّ من روسيا السوفيتية . فنظام الارهاب ينبت عين الظواهر فى كل مكان وفى كل زمان [٥٠] .

كان الجنود هم أداة الظلم والسلب ، تبعا لما جرى عليه نظام الادارة فى القرن الثـالث . فأدخلوا رعبا حقيقيا فى أفئـدة النـاس ، وكثر استخدامهم فى أغراض جد مختلفة . فبعد انتهاء عام ٢٤٢ بعد الميـلاد بوقت قصير ، أمر ضابط مقنب (centurio) جنديا من جنود الحراسة (stationarius) أن يبحث عن ورثة أحـد الرجال العشرة الذى ساء حظه وكان مسئولا عن الوفاء بأجـرة ضيعة من ضياع الامبراطور ، وقد أصبح عجزه عن الوفاء يهدد نجاح الامبولى (ἐμβολή) أى شحن الغلال الى الاسكندرية (وروما) أو الى جنـود جيش الاحتلال فى مصر ، وأن يقبض عليهم ويرسلهم اليه [٥١]. وقد غدت الأوامر التى تصدر الى الجنود ليقبضوا على أعضاء المجالس ويبعثوا بهم الى كبار الضباط العسكريين شيئا عاديا فى مصر فى القـرنين الثالث والرابع [٥٢] . وفى رسـائل هيرونينوس التى سنتحدث عنهـا توا يلعب الجنود دورا هاما جدا . فعندما وقع أحد كبار الأثرياء الذين كان هيرونينوس يعمل فى خدمتهم فى حيرة تامة ، ولم يدر كيف يفرض أمره على مدير (φροντιστής) متوان أو تابع آخر من أتباعه ، لجأ دائما الى التهديد بارسال الجنود . ويقول آليبيوس (Alypius) : « افعل ذلك فى التو ، وإلا أجبرك جندى على فعله » ، « لا تهمل هذا الأمر ، والا بعثت بجندى اليهم » (أعنى أولئك الذين لم يدفعوا ما بقى عليهم) ثم يضيف « كان جندى على وشك أن يرسل اليهم وأنا الذى منعته » . ويستطيع المرء أن يفهم مغزى ارسال جندى

الى أهل قرية . والواقع أن الجنود أصبحوا الآن سادة الموقف فى مصر . وحتى فى النزاع الذى ينشب بين بعضهم البعض ، لجأ الفلاحون والملاك لا الى رجل الادارة العادى ، وانما الى قائد المقنب (centurio) . وهو القادر على كل شىء [٥٣] .

ففى ظروف كهذه لا يأخذنا عجب ان نحن رأينا الحياة فى مصر أبعد ما تكون عن الطمأنينة وأن البلاد أضحت فريسة للصوص . كان لزاما على أولئك الفارين (anachorets) ، كما كانوا يسمون ، أن يحترفوا السرقة دفعا للموت جوعا . ومن هنا كثر فى القرن الثالث ذكر رجال عينتهم القرى خصيصا ليقبضوا على اللصوص ، وقد أطلق عليهم اسم صيادى اللصوص (ληστοπιασταί) . وكما هو منتظر ، كانت هذه الخدمة بلا مقابل ، ولم يبد القائمون بها كفاية كبيرة . وليس من قبيل الاتفاق ، والاتفاق فقط ، أن كل الوثائق التى تشير الى البحث عن اللصوص التى جمعها فيلكن فى منتخباته ترجع الى القرن الثالث أو الرابع . ومما يميز أيضا ذلك الزمن وأحواله عجز رجال الشرطة وعدم قدرتهم على القضاء على السرقة . فكان لزاما أن يُضم اليهم أمثال هؤلاء المساعدين . وتثير احدى هذه الوثائق دهشا عظيما . كتب القائد (strategos) : « لقد نبه على صيادى اللصوص (ληστοπιασταί) الذين ذكرت أسماؤهم فيما يلى أن ينضموا الى رجال الشرطة فى القرية ، وأن ينقبوا عن المجرمين الذين تبحث عنهم الشرطة . فان أهملوا القيام بذلك ، فليرسلوا فى الأغلال الى رفعة الحاكم العام » . كان الرجال الخمسة الذين ورد ذكرهم فى الثبت من أهل البلاد الأصليين . ومن المحقق أنهم لم يدربوا قط على هذا العمل ، وهو البحث عن اللصوص والقبض عليهم . ويتبين من وثيقة يرجع تاريخها الى عصر جورديان كثرة عدد الهائمين على وجوههم بلا مأوى والذين كان رجال الادارة يبحثون

عنهم ، ففى هذه الوثيقة يقسم رئيس الشرطة (ἀρχέφοδος) فى احدى القرى أمام اثنين من رؤساء الشرطة فى البلدية (εἰρηνάρχαι) فى مديرية (نوم) هيرموبوليس — وهى وظيفة جديدة بلا مرتب جاءت الى مصر من آسيا الصغرى مع نظام البلديات على العموم — أن أربعة رجال من قرية أخرى كان رجال الادارة يبحثون عنهم لم يكونوا مختبئين فى قريته [٥٤] .

ومن الطبعى أن أعظم الضرر الذى نتج عن نظام الاستيلاء والمسئولية الاجبارية وقع على طبقة الموسرين الذين لم يتسنموا ذرى الثراء ، وعلى أولئك الذين اتسموا بالأمانة . فأمثال هؤلاء الرجال فقدوا أملاكهم وأنزلوا من شاهق عليائهم وولوا الأدبار فارين ، وعاشوا مختبئين فى جميع أنحاء القطر [٥٥] . وأحسن حالا من هؤلاء أولئك الأثرياء الذين ماتت ضمائرهم وكان لهم من الوسائل والحيل ما يمكنهم من رشوة الحكام وبناء رخائهم على مصائب اخوانهم الذين كانوا أقل منهم غنى وأكثر أمانة . ففى هذه الظروف ليس بعجيب أن نجد ضياعا كبيرة قد ازدهرت ثانية ، وأن اقطاعيات (οὐσίαι) تكونت . فقد كثرت الأراضى المصادرة يوما بعد يوم . وأثقل كاهل المدن بمثل هذه الأراضى التى حملت المدن عنها مسئولية جماعية . وكانت الأراضى المصادرة فى الكثير الغالب لا تروى ، وتحتاج الى عناية خاصة [٥٦] . وهذا عينه ينطبق على قطع من الأرض تدخل تحت النوع المسمى (γῆ οὐσιακή) (أى أرض الامبراطور) . وقد حاولت الدولة جاهدة أن تجد لها من يصلح لتأجيرها . وقد لجأت الدولة والمدن الى شتى الأساليب لانقاذ الأرض المجدبة من الاهمال الكامل ، فبعث من جديد ذلك النظام القديم ، نظام بيعها الى الجنود وقدماء المحاربين بثمن اسمى . وقد جرب بعض قدماء المحاربين حظهم فى هذه الأراضى ، ومن هؤلاء جندى ممتاز

وثلاثة من حرس الحاكم العام فى سنة ٢٤٦ بعد الميلاد (beneficiarius)
من المزارعين فى فيلادلفيا ورد ذكرهم فى بردية وسكونسين (Wisconsin)
التى أشرنا اليها فيما مضى . ويظهر أن فيليب أبدى نشاطا خاصا فى تجربة
طريقة البيع بثمن اسمى لاعادة الرخاء الى مصر ، وقد أصدر حاكمها
من قبله ، كما أصدر مدير حساباته (καθολικός و rationalis)
أمرا خاصا لهذا الغرض . غير أن تجاريب المزارعين الثلاثة فى فيلادلفيا
ثبطت العزائم . وحاولت الادارة أن تجبر الملاك الجدد على أن يدفعوا
فى شراء الأرض أكثر مما كان فى نيتهم وذلك باستخدام حيلة عرفت
باسم (ἐπιβολή) ، أى اضافة أرض غير منتجة الى أرض جيدة ،
أو بالتطفيف فى القياس واستعمال مقاييس زائفة . وربما كانت نتيجة
ذلك فى أكثر الأحوال افلاس الملاك الجدد [٥٧] . وليس من الاتفاق
المحض أن فى السنة عينها ، أى فى سنة ٢٤٦ بعد الميلاد ، شخص رئيس
مجلس البهنسا سفيرا الى الاسكندرية ليلتمس رفع (ἐπιβολή τοῦ ἱεροῦ
ἀποτάκτου) أعنى زيادة فى أجرة أرض تملكها الدولة فرضت على المديرية
(نوم) وكان لزاما على الملاك فى هذه المديرية أن يقوموا طبعا بأدائها [٥٨] .

وكانت هناك وسيلة أخرى لضمان زراعة أرض الامبراطور والأراضى
التى تسأل عنها المدن وهى العثور على مستأجرين أثرياء واعطاؤهم
الأرض بشروط مغرية . وأحسن طريقة لذلك هى البحث عن رجل يرغب
فى القيام بهذا العمل. ولكن يظهر أن بين حين وآخر ، ولا سيما فيما يخص
المدن ، استعمل القسر فى شكل أو فى آخر . وفى القرن الثالث كثيرا
ما نقابل أمثال هؤلاء المديرين لمساحات شاسعة من الأراضى ، من الرجال
والنساء من طبقة الأثرياء . لقد كانوا فى عين الوقت يملكون قطعا من
الأرض ويستأجرون أرض الامبراطور . ومن المحتمل أنهم اشتروا من
الدولة ما يملكون من أرض . وأحسن مثل يضرب لهذا الفريق هو

أليپيوس . وقد عثر على رسائله الى هيرونينوس ، مدير (φροντιστής) أراضيه فى قرية ثراسو عندما اكتشفت أجزاء من دفاتر الأخير وسجلاته بين أطلال ثيادلفيا . وقد راسل هيرونينوس أناس آخرون ، منهم ملاك أثرياء لضياع شاسعة يتمتعون بنفوذ مماثل ، وعلى الخصوص أپيان (Appian) وهو مستشار (exegetes) سابق فى الاسكندرية . ومن البين أن كل أولئك كانوا يستأجرون قطعا واسعة من أراضى الامبراطور وقد نظموا مشاريعهم على نطاق كبير جدا ، ومن المحتمل أنهم استثمروا مبالغ ضخمة فى تلك الأراضى . ومن سوء الطالع أننا لا نعرف الا القليل التافه عن علاقتهم مع الحكومة ، بل نحن نجهل حتى واجبات المدير (φροντιστής) وطبيعة وظيفته . ويخيل الينا أنه لم يكن موظفا خاصا لدى كبار الملاك ولكنه كان منتدبا من قبل الدولة ، ومع ذلك كان يخضع للمالك الوفير الذى كان يسأل أمام الادارة الامبراطورية عما منح من أرض . واننا لا ندرى كم سنة بقى هؤلاء الملاك وأشباه الموظفين فى أراضيهم أو فى مناصبهم . ومن الممكن أن وضع يدهم كان نوعا من الحكر (emphyteusis) ومن الإيجار الذى لا يعين له أجل محدد (locatio perpetua) وأنهم أصبحوا تدريجا ملاكا فى الواقع لهذه الضياع (οὐσίαι) الشاسعة التى تردد ذكرها فى مصر طيلة القرن الرابع [٥٩] .

وفى الحق والواقع كان كل من أليپيوس وأپيان من ذوى النفوذ البالغ ، توثقت الصلة بينهما وبين ادارة المديرية (نوم) وبينهما وبين ادارة الولاية : وقد رأينا أن قوة عسكرية كانت طوع بنانيهما . ومن ناحية أخرى تدل الرسائل التى بعثا بها الى من هم تحت امرتهما أنهما تعودا على اصدار الأوامر وتلقى السمع والطاعة . ويجب الالتفات الى أن أكثر الأراضى التى كانا يزرعانها هى من النوع الذى يملكه الأفراد : غرست الى حد كبير جدا بكروم كانت فى الماضى ملكا لأناس عاديين .

ارتكزت اقتصاديات كبار ملاك الأراضى كلها تقريبا على النبيذ . ومن المعالم الواضحة فى هذا الوقت أن النبيذ غدا العملة السائرة فى ضيعة أليبيوس . أما النقود فلم تستعمل الا قليلا جدا . فعادت بلاد كمصر ، واقتصادياتها تقدمية ، بالتدريج الى مميزات الاقتصاد الطبعى . وأصبحت الضياع الواسعة الأخرى تسير فى القرن الثالث ، على ما يظهر ، على عين النهج ، كما تدل على ذلك مثلا أوراق البردى العديدة التى وجدت فى البهنسا والتى تخص أجزاء منفصلة من ضيعة شاسعة يملكها رجل اسمه أورليوس سيرينوس ، ويدعى أيضا سرابيون ؛ ويظهر أنه ازدهر بين عامى ٢٧٠ و ٢٨٠ بعد الميلاد . اننا لا ندرى ان كان سرابيون هذا قد استأجر أرضا مما يطلق عليه (γῆ οὐσιακή) ، ولكنه استكثر فعلا من العقار بشراء أرض من الدولة بثمن اسمى (٦٠) . ويظهر أن أهم ما كان يشغله هو غرس الكروم وحدائق الفاكهة . وهناك نساء كثيرات كن أيضا مالكات لهذا النوع نفسه ، مثل كلوديا ايزيدورا الذائعة الصيت (ἡ ἀξιολογωτάτη) وكانت تحمل أيضا اسم أپيا (حوالى ٢٢٣ بعد الميلاد) ؛ وأوريليا ثرموثاريون التى كانت تسمى أيضا هيرايس (حوالى ٢٦١ بعد الميلاد) (٦١) . واضح اذن أن القرن الثالث فى مصر كان فرصة سانحة لابراز بعض المواهب التى ساعدت رجالا قلائل لا على الاحتفاظ بثرواتهم فحسب ، ولكن على تنميتها أيضا ، بينما نزلت بآخرين متاعب جد عظيمة . وبجانب بعض ملوك المال فى الاسكندرية نجد كثيرين من أعضاء البيروقراطية العسكرية ينتهزون الفرصة ليحصلوا ويستكثروا من الأراضى وبذا يحتلون مكانا ساميا فى الطبقة الأرستقراطية فى الولايات . وقد مر آنفا ذكر كثيرين من أمثال هؤلاء الجنود السابقين : ويمكن أن نضيف الى الثبت رجلا اسمه پوبليوس ڤيبيوس ، كان جنديا وحاجبا (officialis) للحاكم العام فى مصر ، ثم أصبح بعد ذلك عضوا فى مجلس الاسكندرية

وذا أرض واسعة ، وأشرف على أعماله بعد موته وكيل أو وصى (πραγματευτής أو actor) نيابة عن ورثته (٢٦٦/٢٦٨ بعد الميلاد)[٦٢] .

وعلى الرغم مما يعترى الصورة التى رسمناها من نقص ، فانها تدل بوضوح تام على الفوضى والبؤس الذى خيم على جميع ربوع الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث ، ولا سيما فى النصف الثانى منه ، ولقد حاولنا أن نبين كيف وصلت الامبراطورية تدريجا الى هذه الحال التى تبعث على الأسى والشفقة . ومرجع هذه الحال الى خليط من الحرب الأهلية الدائمة وهجمات الأعداء الوحشية . وقد زاد الموقف سوءا سياسة الارهاب والقسر التى جرت عليها الحكومة فى معاملتها للشعب ، وقد استعملت الجيش كأداة اضطهاد . فمفتاح الموقف اذن ينحصر فى النزاع الداخلى الذى حرض الأعداء المجاورين على شن هجماتهم ومكنهم من ذلك ، وأضعف قوى المقاومة فى الامبراطورية ، واضطر الأباطرة فى معاملتهم للأهالى أن يلجأوا دائما الى طرق الارهاب والجبروت التى تطورت تدريجا فأصبحت نظاما اداريا منظما تنظيما منطقيا ، قل فيه المنطق أو كثر . اننا لم نستطع أن نكشف عن نهج منظم فى سياسة الأباطرة ، وهى تتلخص فى رضوخ تدريجى لأمانى الجيش ، والى ضرورة الاحتفاظ بكيان الامبراطورية والمحافظة على وحدتها . وأكثر الأباطرة فى هذه الفترة المضطربة لم يتصفوا بالطموح ولم يكونوا على استعداد بأن يضحوا بمصالح الأمة فى سبيل تحقيق أمانيهم الشخصية : فلم يبحثوا عن السلطة لذاتها . وأفضل هؤلاء الأباطرة أجبروا على تحمل أعباء السلطان ، وقد قبلوا ذلك بدافع من شعور طبعى للمحافظة على أرواحهم ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كتضحية ارادية بحياتهم أنفسهم فى سبيل عمل نبيل كالاحتفاظ بالامبراطورية وتأمين سلامتها . فان تكن الدولة قد حورت على أيدى الأباطرة على النسق الذى أتينا على وصفه فيما مضى

أى على نسق يستهدف تسوية عامة بالقضاء على الدور الذى لعبته الطبقات المثقفة والممتازة فى حياة الامبراطورية ، وباخضاع الناس الى نظام ادارى جاهل قاس بنى على الارهاب والجبروت ، وبخلق طبقة أرستقراطية جديدة برزت من بين صفوف الجيش ، واذا كانت هذه السياسة قد تمخضت عن أمة من العبيد تحكمها أقلية صغيرة على رأسها ملك مطلق يقود جيشا من المرتزقة وفرقا محلية (ميليشيا) حشدت قسرا ، فهذا لم يحدث لأنه كان مثل الأباطرة الأعلى ، ولكنه تم لأنه كان أمنية الجيش الصامتة وكان على الأباطرة أن يرضخوا لها والا حل الدمار بالدولة وطال النزاع الداخلى أمدا غير محدود .

واذا لم تكن مطامع الأباطرة هى التى قذفت بالدولة الى أعماق الحضيض ومهاوى الخراب وهددت بتقويض الأسس ذاتها التى قامت عليها الامبراطورية ، فما هو السبب الدفين الذى حمل الجيش على تبديل مستمر فى أباطرته وذبح أولئك الذين نادى بهم منذ لحظة وشن حرب شعواء جنونية على اخوته ، حرب لا نكاد نجد لها مثيلا فى تاريخ البشرية ؟ هل استولى « جنون الجماهير » على الجنود فساقهم الى الأمام فى طريق البوار ؟ ألا يكون غريبا أن يستمر هذا المرض العقلى نصف قرن على الأقل ؟ يفترض التعليل المعتاد الذى يدلى به الباحثون المحدثون أن الاضطرابات العصبية فى القرن الثالث كانت أعراضا طبعية حتمية صاحبت تحول الدولة الرومانية الى ملكية مطلقة . فالأزمة ، على زعمهم ، أزمة سياسية ، بعثتها محاولة الأباطرة ابعاد مجلس الشيوخ عن السياسة ، واستبدال نظام الحكم الثنائى الذى وضعه أغسطس بملكية خالصة . ولقد اعتمد الأباطرة فى جهادهم للوصول الى هذا الهدف على الجيش فأفسدوه ، وأشاعوا الفوضى التى نراها فى دور الانتقال الذى تمخض عن قيام استبداد شرقى فى القرن الرابع . ولكنا حاولنا أن ندلل

على أن مثل هذا التعليل لا يقوى على مجابهة الوقائع . فلم يكن لمجلس الشيوخ بوصفه هذا أى أهمية سياسية فى عصر الملكية المستنيرة . كان مركز المجلس من الناحية الاجتماعية ساميا ، لأنه كان يمثل الطبقات المثقفة ، والتى تملك العقار فى الامبراطورية ، ولكنه لم يشترك فى الأمور السياسية وأعمال الدولة اشتراكا مباشرا الا فى القليل التافه . فلكى يقوم حكم أوتوقراطى لم يكن هناك داع أو ضرورة للمرور خلال فترة تخريب وفوضى . ولقد رفع الأنطونينيون فى واقع الأمر دعائم الملكية دون اهراق قطرة من دم . فلم يقم هناك نضال حقيقى بين الامبراطور وبين مجلس الشيوخ . وانما اشتعل النزاع بين الجيش وبين الطبقات الممتازة ، بين الجنود وبين الطبقة الأرستقراطية أو طبقة البورجوازى فى المدن . وقد أوضحنا ذلك متخذين من عصر مكسيمينوس مثالا حسنا ، وبعد أن حللنا بعض معالم الحكم فى زمن آل سيفيروس . أما الأباطرة فلم ينحازوا دائما الى جانب الجيش . ولقد حاول كثيرون منهم أن ينقذوا طبقة البورجوازى وأن يحافظوا على أنظمة الحكم التى عرفت فى عصر الملكية المستنيرة . ولكن هذه المحاولات لم تأت بفائدة ، لأن طبقة البورجوازى ، وقد وقف لها الجيش بالمرصاد ، لم تستطع أن تمنح الأباطرة أى عون حقيقى ، ولأن الجيش وهو القوة الوحيدة المنظمة فى الامبراطورية صمم على التخلص الى الأبد من حكم الطبقات الممتازة .

ومثل هذا هو المغزى الحقيقى للحرب التى اشتعلت فى القرن الثالث . شن الجيش حربا على الطبقات الممتازة ، ولم تقف رحى هذه الحرب حتى فقدت هذه الطبقات كل نفوذ اجتماعى لها ورقدت ممدة لا حول لها ولا قوة تحت أقدام الجنود من أنصاف البرابرة . ولكن هل نستطيع أن نقول ان الجنود اشتبكوا فى هذا القتال لمجرد الرغبة فيه ، وكان هدفهم المحدد هو ايجاد نوع من الطغيان أو الدكتاتورية العسكرية

للتحكم فى بقية السكان ؟ ليس هناك أدنى دليل على مثل هذا الرأى . لقد ثار زلزال عنيف ، ثم أخذ فى التطور . وربما كان هدفه النهائى واضحا لنا الآن ولكن لم يكن ليدركه حتى من عاصره ، دعك من المشتركين فى تمثيل هذه المأساة الفظيعة . كانت القوة المحركة هى الحسد والكراهية ، ولم يكن لدى أولئك الذين حاولوا القضاء على طبقة البورجوازى منهاج ايجابى محدد . فقام الأباطرة تدريجا بالعمل الانشائى ، فبنوا على أنقاض نظام اجتماعى كأحسن أو كأسوأ ما استطاعوا ، ولكنهم كانوا أبعد الناس عن روح التدمير والتخريب . فاحتلت طبقة ممتازة أخرى مكان الطبقة القديمة ، وبدلا من أن تصبح الجماهير الغفيرة أحسن حالا مما كانت من قبل غدت أشد فقرا وأعظم بؤسا . والفارق الوحيد هو تضخم صفوف التاعسين ، وذهاب حضارة الامبراطورية ومدنيتها القديمة ذهابا لا رجعة بعده .

واذا كان الجيش قد سعى فى تدمير النظام الاجتماعى القائم ، فلم تكن علة ذلك كراهية الجيش ، بوصفه جيشا ، لذلك النظام . فمكانة الجيش لم تكن سيئة حتى من وجهة النظر الاجتماعية ، اذ كان المورد الطبعى الذى يغذى طبقة البورجوازى فى البلديات .كان الجيش ،كعامل مدمر قوى، يهدف الى التسوية ، لأنه مثّل فى أواخر القرن الثانى وطوال القرن الثالث تلك الجموع الغفيرة من السكان التى لم يكن لها حظ فى حياة الامبراطورية الزاهية المتحضرة . ولقد أوضحنا أن جيش ماركوس اوريليوس وكومودوس كان يتألف جميعه من الفلاحين ، وهم طبقة محرومة من مزايا المدنية السائدة فى الحواضر ، وقد بينا أن هذه الطبقة الريفية كانت تكوّن أكثر سكان الامبراطورية . وكان بعض هؤلاء الفلاحين من صغار الملاك ، وكان بعضهم مستأجرين أو أرقاء لكبار الملاك أو للدولة . وكانت جموعهم تعتبر فى حكم الرعية ، بينما عد

أفراد الطبقة الأرستقراطية فى المدن حكاما . لقد كونوا الطبقة الوضيعة (humiliores) ، اذا قورنوا بالطبقة الرفيعة (honestiores) فى المدن ، وطبقة المستسلمين (dediticii) اذا قورنوا بالمواطنين فى المدن . وبالايجاز ، كانوا طائفة خاصة تفصل بينها وبين الطبقات الممتازة فجوة عميقة ، طائفة واجبها أن تعول حضارة المدن الرفيعة بكدها وكدحها وبما تدفع من ضرائب وايجار . أما محاولات الملكية المستنيرة وآل سيفيروس لاعلاء شأن هذه الطبقة ، ورفعها الى مصاف طبقة بورجوازية تسكن القرى ، وادماج أكبر عدد ممكن منها فى صفوف الطبقات الممتازة ، ومعاملة البقية الباقية أحسن معاملة فقد أيقظت فى أذهان الطبقة الوضيعة(humiliores)شعورا بحقارة مركزها ، وقوت من ولائها للأباطرة. ولكنها عجزت عن أن تصل الى هدفها الرئيسى . والحق أن الملكية المستنيرة استمدت قوتها من بورجوازى المدن ، ولم تكن هذه الطبقة ترمى الى توسيع صفوفها الى غير حد وأن تشرك فى امتيازاتها عددا كبيرا من الأعضاء الجدد .

وقد نتج عن ذلك أن سيماء الذلة والغباء التى اختص بها مزاج الطبقة الوضيعة (humiliores) قرونا تحولت الى شعور حاد بالعداء والحسد ضد الطبقات الممتازة . وقد انعكس هذا الشعور طبعا فى صفوف الجيش الذى أصبح الآن يتألف من الفلاحين وحدهم . وبعد أن اغتصب سبتميوس التاج ، أدرك الجيش قوته ونفوذه لدى الأباطرة . وحينما أكد أباطرة أسرة سبتميوس مرارا موالاتهم للجيش وعطفهم على الفلاحين وقسوا فى معاملتهم لطبقة البورجوازى فى المدن ، استكان الجيش تدريجا الى شعوره هذا ، وبدأ يضغط على الأباطرة دون أن يدرك تماما كنه ما يفعل ، مبديا أشد السخط والغضب ان حاول بعض الأباطرة منح ترضيات الى الطبقة البغيضة . وحاولت طبقة البورجوازى

أن توطد نفوذها وتنقذ امتيازاتها ، فكانت النتيجة حربا علنية بين حين وآخر وفناء الطبقات الممتازة دون رحمة أو شفقة . حدثت ثورات عنيفة بعد زمن اسكندر الذى كانت مثله العليا هى مثل الملكية المستنيرة ، وعلى الخصوص بعد انقضاء تلك الفترة القصيرة التى أعقبت ثورة ماكسيمينوس ، وعاد فيها الى طبقة البورجوازى ماضى عزها . وقد كانت عودة النفوذ الى طبقة البورجوازى هى التى أدت فى النهاية الى تجاريب حكم جالّينوس المرعبة . ونتيجة لذلك هجرت السياسة التى سار عليها الامبراطور وأكثر خلفائه نهائيا منهاج اعادة الحكم الى المدن ، واستجابوا لرغبات جيش مؤلف من الفلاحين . وهذه السياسة ، على الرغم من أنها سياسة يأس وقنوط ، الا أنها على الأقل أبقت على بناء الامبراطورية . وعلى هذا تم انتصار الفلاحين على طبقة البورجوازى فى المدن ، وبان للناس أن سيادة المدن على القرى انقضى زمانها . وأنشئت دولة جديدة ترتكز على أساس جديد شيدها خلفاء جالّينوس وتخللها بين حين وآخر عودة الى مثل الملكية المستنيرة .

وليس من الهين طبعا البرهنة على رأينا ، وهو أن النزاع الذى استحكم بين الريف والحضر كان القوة المحركة الرئيسية وراء الثورة الاجتماعية فى القرن الثالث (٦٣) . ولكن القارىء سيذكر الصورة التى رسمناها لسياسة مكسيمينوس وقضاءه على طبقة البورجوازى فى المدن والعون الذى تلقاه ضد أصحاب الأملاك فى المدن من جيش أفريقية المؤلف من الفلاحين ، وهو سيذكر انتشار الفوضى وتمرد الجنود بعد حكم پوپينوس وبالبينوس ، وجورديان الثالث ، وفيليب ؛ وهناك حقائق أخرى كثيرة تشهد بقيام العداء نفسه بين الريف والمدن . ومن العجيب أنه أصبح من الهين تحريض الجنود على النهب والتقتيل فى مدن الامبراطورية الرومانية ؛ ولقد تحدثنا فيما مضى عن تخريب الجنود

لمدينة ليون بعـــد أن انتصر سيبتميوس على ألبينوس ، وعن مذابح الاسكندرية التى اوتكبها كراكلا ، وعن الحاح الجنود على ايلاجابال ليسمح لهم بنهب مدينة أنطاكية . ولقد أشرنا الى تكرار شبوب حروب أهلية بين الجنود وبين سكان رومة . ومن الأمثلة التى تعد نموذجية مصير بيزنطة التى نهبها جنود حاميتها فىزمن جالّينوس ، وأكثر مما سبق تبيانا لمزاج الجنود والفلاحين على السواء تدمير بلدة أغسطودونوم (أوتان) أثناء حكم تيتريكوس وكلوديوس فى عام ٢٦٩ بعد الميلاد . فعندما اعترفت أوتان بكلوديوس امبراطورا ، أرسل تيتريكوس فرقة من جيشه ضد « الثوار » ، وانحاز الى هذه الفرقة عصبة من اللصوص والفلاحين قطعوا الماء عن تلك المدينة الزاهرة ، واستولوا فى النهاية عليها ، ودمروها تدميرا تاما ، فلم تقم لها بعد ذلك قائمة . وقد حـــل الخراب بأعظم بلدتين بنيتا فى فترة بناء المدن فى غاليـــا — وهما ليون وأوتان — على هذا النسق على أيدى جنود وفلاحين غضبى [٦٤] . وقد أحدق الخطر بمدينة تيانا وهى من أغنى المدن فى آسيا الصغرى ، وكاد يحل بها نفس المصير فى زمن أورليان . وقد أنقذها الامبراطور مستعملا ألفاظا تسترعى الانتباه فى مراودة الجنود على عدم تدميرها : « اننـــا نخوض غمار هذه الحروب لنحرر هذه المدن . فان نحن نهبناها ، فلن يثقوا بنا بعد ذلك . فلنبحث عن أسلاب بين البرابرة ولنصفح عن هؤلاء فانهم أهلونا » . ومن الواضح أنه أصبح من الصعب اقناع الجنود بأن المدن الامبراطورية ليست أشد الناس عداوة لهم [٦٥] . ولم يختلف رأى الجنود فى ساكنى المدن عن رأى القوط الذين كان همهم السلب والنهب كما يصفه بتروس باتريكيوس . وقد عبرت كلماته حقا عن شعور كثيرين من جنود الرومان . " هزأ السكيثيون بأولئك الذين كانوا يحبسون أنفسهم فى المدن قائلين : انهم لا يعيشون عيش الرجال وانما عيشة

الطيور التى تجلس فى أوكارها فوق المرتفعات ؛ فهم يهجرون الأرض التى تطعمهم ، ويختارون المدن المجدبة ؛ ويضعون ثقتهم فى أشـياء لا حياة فيها أكثر من اعتمادهم على أنفسهم "(٦٦) .

وقد لاحظنا مرارا تلك العلاقات الوثيقة بين الفلاحين والجنود . فقد رفع الفلاحون ضراعتهم الى الأباطرة عن طريق الجنـود فى زمن كومودوس وسبتميوس ، وكذلك فى حكم فيليب وجورديان . والحق أنه لم يكن لأكثر الجنود معرفة بالمدن ولا فهم لحياتها ، ولكنهم احتفظوا بعلاقاتهم مع قراهم الأصلية . وقد نظر الفلاحون الى الجنود نظرتهم الى سادتهم وحمـاتهم الطبيعيين ، ونظـروا الى الامبراطور عـلى أنه امبراطورهم لا امبراطور المـدن . وقد وصفنا فى الفصلين السادس والسابع الدور الهام الذى لعبه الجنود وقدماء المحاربين فى القرن الثالث فى حياة القرى فى شبه جزيرة البلقان وفى سوريا ، أى فى بلاد أرباب العقار (possessores) من الفلاحين الأحرار ، اذا قيست بأرض أكثر سكانها من المستأجرين (coloni) . وقد بينا أن قدماء المحاربين كونوا الطبقة الأرستقراطية الحقيقية فى القرى ، وعملوا كوسطاء بين القرى وبين السلطات الادارية . ولقد أوضحنا كثرة تسرب الجنود القدامى الى الأجزاء الريفية من أفريقية فى نفس هذا القرن . وعنـدما وصفنا أحوال مصر فى تلك الفترة ، لفتنا الأنظار مرارا الى الدور الكبير الذى لعبه فى حياة البلاد الاقتصادية الجنود العاملون والمتقاعدون . وكل هذا يدل على أن الروابط لم تنفصم قط بين القرى وبين الجيش ، وأنه كان من الطبعى أن يشاطر الجيش القرويين أمانيهم ، وأن ينظر الى ساكنى المدن نظرته الى الأجانب والأعداء .

وبالرغم من تغير الأحوال فى آخر القرن الرابع بقيت العلاقات بين الجيش وبين القرى على ما كانت عليه فى القرن الثالث . كانت المـدن لا تزال قائمة ، والحكومة ما فتئت تستخدم الطبقة الأرستقراطية فى

البلديات في تحصيل الضرائب وقسر سكان القرى على القيام بأعمـال السخرة . فلا عجب ان لم يطرأ على شعور الفلاحين نحو المدن تغيير حتى بعد أن كادت المدن تفقد كل نفوذها السياسى والاجتماعى . فمن وجهة نظر القرويين كانت المدن لا تزال مصدر العسف والاستغلال . وفى بعض الأحيان يصرح كتاب القرن الرابع بمثل هذا الشعور ، سواء فى الغرب (لا سيما فى أفريقية) أو الشرق ، وعلى الخصوص فى المشرق. ولدينا أخبار كثيرة عن سوريا ، ولا سيما عن المنطقة المجاورة لمدينـة أنطاكية ، وهذا على خلاف ما تعودناه ، ويرجع الفضـل فى ذلك الى ليبانيوس ويوحنا فم الذهب . فأحد الموضوعات الرئيسية فى هذين الكاتبين هو العداء بين الحضر والريف . ولم يكن للحكومة سياسة محددة فى معالجة هذا النزاع الدائم . ولكن الجنود انحازوا الى جانب الفلاحين ضد عظماء الرجال فى المدن . ويظهر عطف الجنود على الفلاحين واضحا بينا من نص شهير فى خطبة ليبانيوس المسماة « عن الحماة » (de patrociniis) وفيها يصف العون الذى منحه الجنود لقرى كبيرة يسكنها فلاحون أحرار ، ويصور شطط القرويين ، وحال الطبقة الأرستقراطية فى المدينة من التعس ، فلم يكن فى مقدورها جباية أى ضريبة من الفلاحين . وكان يسىء اليها الجنود والقرويون على السواء . كان ليبانيوس نفسه من المدنيين ، وكان من كبار الملاك ، وقد خبر كل المتاعب التى نجمت عن الوفاق والوئام بين الجنود والقرويين . تمرد المستأجرون فى احـدى ضياعه . وربما كانت فى يهوذا (جودايا Judaea) بعد أن عاشوا أجيالا أربعة لم يظهروا فيها أى علامة على التمرد ، وحاولوا بمساعدة ضابط كبير كان حاميهم أن يملوا على صاحب الضيعة الشروط التى يرتضونها للعمل على ضيعته . فكان من الطبعى أن يغلى قلب ليبانيوس غيظا وحقدا ضد الجنود والضباط . ومن جهة أخرى لا يمكن تعليل العون الذى

منحه الجنود الى القرويين بالجشع وحده . فالجنود فى الولايات كانوا هم أنفسهم لا يزالون يجندون من بين الفلاحين ، وكان ضباطهم يمتون الى عين المهد والأصل ، وعلى ذلك كان عطفهم على الفلاحين حقيقة لا ريب فيها وكانوا على استعداد لاسداء العون لهم ضد ساكنى المدن المحقرين (٦٧) .

ويمكننا أن نجد أيضا أدلة مبعثرة هنا وهناك على قيام نزاع حاد فى مصر بين الفلاحين وبين الملاك فى المدن . ففى وثيقة نموذجية ترجع الى عام ٣٢٠ بعد الميلاد بعث أورليوس أدلفيوس وهو أحد ملوك المال فى مدينة هيرموبوليس ورئيس الألعاب الرياضية فيها وعضو فى مجلسها البلدى بشكاية الى قائد (strategus) المديرية (نوم) . فقد كان لأورليوس حكر (ἐμφυτευτής) (*) وراثى على أرض تملكها الدولة (γῆ οὐσιακή) وقد زرع هذه الأرض طول حياته وتلقى حكره عن أبيه ، واستثمر فى هذه الأرض أمواله ، وأدخل على زراعتها تحسينات . ولما حان موعد الحصاد ، حاول فلاحو القرية القائمة فى المنطقة التى بها ضيعته "بوقاحة القرويين المعتادة" (κωμητικῇ αὐθαδίᾳ χρησάμενοι) منعه من جمع محصوله . ويدل التعبير الذى اقتطفناه على تأصل العداوة بين المدن وبين القرى . وهو يدل أيضا على أن الفلاحين فى محاولتهم التدخل فى أعمال المالك قد اعتمدوا على عون خارجى . وقد يكون لسلوكهم ما يبرره : فربما كان المالك ممن يأخذون الأرض اغتصابا ، وقد حرمهم من قطع اعتادوا زراعتها ، ولكن المغزى الذى يهمنا هو العداء المتبادل الذى رسخت جذوره بين الفلاحين والملاك والذى يبين لنا من ثنايا القصة (٦٨) .

(*) أنظر ص ٥٨٦ و ٦٣٦ .

ولذلك لا يتطرق الى ريب فى أن أزمة القرن الثالث لم تكن ذات صبغة سياسية ، وانما كانت قطعا ذات صبغة اجتماعية . حلت طبقة البورجوازى فى المدن بالتدريج محل الطبقة الأرستقراطية القديمة المؤلفة من مواطنين رومانيين ، أعنى طبقة أعضاء مجلس الشيوخ والفرسان . وقد هاجمتها الآن بدورها جموع الفلاحين .وفى كلتا الحالين تم ذلك على يد الجيش تحت قيادة الأباطرة . ولقد ختم الفصل الأول بثورة قصيرة ولكنها دموية ، وهى التى شبت فى عام ٦٩/٧٠ بعد الميلاد ،غير أنها لم تؤثر فى الأسس التى قام عليها رخاء الامبراطورية . اذ لم يكن التغيير أساسيا . أما الفصل الثانى فكان مداه أوسع بكثير ، ولذا أوجد أزمة القرن الثالث التى استمرت مدة طويلة والتى جلبت النوائب والنكبات . هل انتهت الأزمة بنصر حاسم أحرزه الفلاحون على بورجوازى المدن وبايجاد دولة جديدة كل الجدة ؟ ليس هناك من ريب فى أن طبقة البورجوازى ، بوصفها هذه ، قد قضى عليها ، وذهب ريحها ، وفقدت سلطانها فى ادارة أمور الدولة ، ذلك السلطان الذى استخدمته بطريق غير مباشر على أيدى أعضاء مجلس الشيوخ فى القرن الثانى . ولكنها لم تختف . اذ عقدت طبقة البيروقراطية الحاكمة الجديدة بسرعة عظيمة مع البقية الباقية منها أواصر صلات اجتماعية وثيقة ، وبقى أقوى أقسام طبقة البورجوازى وأغناها يكوّن عنصرا هاما فى الطبقة الأرستقراطية فى الامبراطورية . أما الطبقة التى كانت آخذة فى الاختفاء فهى الطبقة الوسطى ، طبقة المواطنين النشيطين المقتصدين التى كوّنت حلقة الاتصال بين الطبقات العليا والسفلى فى ألوف من مدن الامبراطورية . اننا لا نسمع الا القليل عن هذه الطبقة بعد نوائب القرن الثالث الا فيما يخص الدور الذى لعبه أعضاء المجالس البلدية (curiales) فى المدن فى جباية الحكومة الامبراطورية للضرائب . ولقد رزحت هذه الطبقة

الوسطى على مر الأيام تحت النير ، وتناقص عددها باطراد . أما أولئك الذين نجوا ، فقد علمتهم التجارب المريرة كيف ينقلون العبء الى كاهل الطبقات السفلى .

وبينما حل بطبقة البورجوازى ذاك التغيير الذى وصفناه ، هل يمكن أن يقال ان مركز الفلاحين قد تحسن نتيجة لانتصارهم المؤقت ؟ ليس هناك ظل من الريب فى أنه لم يكن هناك فى النهاية منتصرون فى الحرب الشعواء التى شبت بين الطبقات فى هذا القرن . فان كان البلاء قد نزل بطبقة البورجوازى ، فالفلاحون لم ينالوا شيئا . ولو اطلع أى انسان على شكاوى الفلاحين فى آسيا الصغرى وتراقيا ، وقد أشرنا اليها فيما سبق ، أو على خطب ليبانيوس وعظات يوحنا فم الذهب وسالفيان ، أو حتى على « القرارات » فى مجموعتى ثيودوسيوس وجستنيان ، فسيدرك أن الفلاحين فى القرن الرابع كانوا أسوأ حالا منهم فى القرن الثانى . هذه الحركة التى بدأها الحقد والحسد ، وغذاها التقتيل والتدمير ، انتهت بمثل هـذا الانحلال الذريع فى الروح المعنـوية ، بان معه للناس أن استقرار الأحوال أيا كانت أفضل من فوضى لا نهاية لها . وهم لذلك تقبلوا عن طيب نفس ذاك الاستقرار الذى وطد أركانه دقلديانوس ، دون أن يلتفتوا الى أنه لم يأت بأى تحسين فى أحوال جماهير السكان فى الامبراطورية الرومانية .

الفصل الثانى عشر

الاستبداد الشرقى ومشكلة انحلال المدنية القديمة

فى نهاية القرن الثالث ، بعد حرب دامية طاحنة ، أهلية واجتماعية ، استمرت عشرات من السنين ، كانت الحال العامة تماثل ما كانت عليه عندما وقفت رحى الحرب الأهلية التى دارت فى القرن الأول قبل الميلاد . أضحى الناس ، ومنهم قسم كبير من الجنـود ، مكدودين مشمئزين يتوقون الى السلام والنظام ، وقد ذهبت الرغبة فى النضال من جماعات كبيرة من السكان ، وكان كل امرىء على استعداد أن يقبل أو يخضع الى أى ظروف تضمن له الطمأنينة فى حياته وتمكنه من العودة الى عمله اليومى دون أن يخشى كل يوم هزة جديدة وموجة جديدة من الحرب والتدمير . ولكن الامبراطورية الرومانية فى القرن الثالث بعد الميلاد اختلفت اختلافا كبيرا عن الامبراطورية الرومانية فى القرن الأول قبل الميلاد . فالحرب الأهلية فى القرن الأول كانت فى النهاية نضالا ضـد سلطان فريق قليل من الأسر ومحاولة لاعادة بناء الدولة على هدى ظروف حياتها التى انتابها التغيير ، وللتوفيق بين دستور رومة كدويلة مستقلة وبين احتياجات الامبراطورية الرومانية . فبعد فترة انتقال بدأت باصلاحات أغسطس — فترة وصل فيها النضال الى ختامه ضد طبقة أعضـاء مجلس الشيوخ القديمـة التى تمثـل الأسر القديمـة الحاكمة فى رومة . ودُعم بناء الدولة الجديد تدريجا وتقبله الأهلون (كما وضح فى أزمة سنة ٦٩) — قامت الامبراطورية الرومانية ودستورها على المدن وعلى

طبقة البورجوازى فى المدن وتمتعت بفترة من الهدوء والتطور السلمى . ولم تؤثر الحرب الأهلية وما أعقبها من استبداد عسكرى فى أهم القوى الحيوية فى الامبراطورية وفى العالم القديم على وجه عام . لقد مرت الحرب دون أن تمس أهم نظام فى العالم القديم ، قامت معه الحضارة القديمة وسقطت معه — الدويلة المستقلة . وقد خيل للناس أنهم وجدوا بعد جهود طويلة قاعدة دستورية تجعل من دويلة المدينة المستقلة أساسا للامبراطورية العالمية . وقد انصب ذاك الوفاق على الملكية الدستورية المستنيرة يساعدها جماعة من الخبراء من ذوى النفوذ الذين أحسن تدريبهم ، ويشد أزرها مجلس الشيوخ فى رومة وطبقة الفرسان الرومانية ،وألوف من الهيئات المشابهة فى جميع أرجاء الامبراطورية هى مجالس البلديات .

وطالما لم تواجه الامبراطورية أخطارا خارجية شديدة ، وطالما استمر الرعب يملأ أفئدة جيران رومة من بأسها الحربى ومن الأنظمة الرومانية والحضارة القديمة ، ظل بناء الدولة الجديدة ثابت الأركان . ولكن لما زال تدريجا الشعور بالرهبة ، وبدأ جيران رومة يجددون هجماتهم ، أظهر بناء الدولة علامات خطرة على التداعى والسقوط ، وأصبح من البين أن الامبراطورية وقد قامت على الطبقات التى تملك العقار وعلى هذه الطبقات وحدها لا تستطيع أن تحتمل مشقة الحروب الخارجية ، وأن من الضرورى دعم الأساس وجعله أكبر لكى يبقى البناء قائما متين القواعد . وأبدت طبقة البورجوازى فى المدن ، وقد ارتكزت حياتها الاقتصادية قرونا على عمل الطبقات الدنيا وكدحها ، ولا سيما تلك الطبقة التى تفلح الأرض ، ميلا قليلا وقدرة ضئيلة على احتمال عبء الدفاع عن الامبراطورية ضد أعدائها من الأجانب . وذهبت هباء محاولات جميع أباطرة أسرة الأنطونينيين وآل سيفيروس ، وكثيرا ما هى ، وكثيرا

ما كررت ، لبعث طبقة البورجوازى ، وزيادة عددها ، واعادة روحها الحربية . واضــطر الأباطرة فى دفاعهم عن الدولة أن يلجأوا الى من يفلحون الأرض ، الى الذين قام عــلى أكتافهم رخــاء الامبراطورية الاقتصادى ، والذين لم يتح لهم كدهم وتعبهم قط أى نصيب فى حياة المدن وحضارتها أو فى ادارة الشئون المحلية . وأصبح الجيش الرومانى تدريجا يتألف من الفلاحين ، تحت قيــادة ورياسة أفراد من الطبقات الحاكمة . وتألف الجيش حقا من أفقر الفلاحين ومن غوغاء القرويين اذ أنهم هم وحدهم الذين تطوعوا أو أرسلتهم الهيئات القروية ان أمرت بتجنيد اجبارى . وعلى هذا لم يكن هناك اختلاف بين الجيش فى النصف الثانى من القرن الثانى فيما يخص مركز الجنود الاجتماعى (وان اختلفوا من الوجهة العنصرية والسياسية) وبين جيوش كل من ماريوس وسلا ، وكل من بومبى وقيصر ، وكل من أنطونيوس وأوكتاڤيان .

كان من الطبعى اذن أن يسعى هذا الجيش فى النهاية الى تحقيق ما ترنو اليه الطبقات الدنيا فى الامبراطورية ، كما أفصحت جيوش القرن الأول قبل الميلاد عن رغبات أفقر المواطنين الرومانيين فى ايطاليا . وكان قادة الجيش ، أى الأباطرة ، الذين عينهم الجيش وشد أزرهم هم طبعا الأداة التى حاول الجيش بوســاطتها تحقيق مآربه . ولما كانت أمانى الجيش لم تدون قط فى صيغة بينة وكان منهــاج الجيش سلبيا أكثر منه ايجابيا ، ضربت الفوضى أطنابها عند التنفيذ . زد على ذلك أن طبقة البورجوازى أدركت تدريجا الخطر الذى يهددها ، وعملت جاهدة فى كرات متعددة وبمعونة نفس القادة العسكريين ، أى الأباطرة ، كى تنقذ مركزها الممتاز وتحول دون هدم بناء الدولة كما عرف فى القرن الثانى . وهذا هو السبب فى تجدد نشوب الحروب الأهلية التى اشتعل أوارها فى جميع أرجاء الامبراطورية وأوردت الامبراطورية شفا الخراب

والدمار . كانت كلمة السر التى تناقلها الجنود هى « القضاء على امتيازات الطبقات العليا » . وكان هدف الجيش أن ينال نصيبا مساويا فى ادارة الامبراطورية ، أعنى تسوية تامة كاملة . وقد كلل نضال الجيش بالنجاح فيما يخص هذا الجانب السلبى من منهاجه . استولى الذعر على طبقة البورجوازى ، وهلك عدد كبير منها ، ووردت المدن شفا الخراب . وجاء أكثر الحكام الجدد من أباطرة وموظفين سواء بسواء من بين طبقة الفلاحين .

ولكن أصبح من الواضح شيئا فشيئا ، كما حدث فى القرن الأول قبل الميلاد ، أن الحرب الأهلية وبال على الدولة بأجمعها وأن نتيجتها الأولى هى خراب الامبراطورية سياسيا واقتصاديا . ومن ناحية أخرى ، كما قلنا فيما سبق ، غدت جموع الأهلين وقد أصابها الاعياء من هذا النزاع وتاقت الى السلم بأى ثمن . وأضحى من البين أيضا أن أهم عمل فى تلك اللحظة هو اعادة بناء الدولة ، أى المحافظة على الامبراطورية . وحالما تم هذا العمل بالجهود الجبارة التى بذلها الجيش نفسه وجهود قواده العظام ، أضحت اعادة تنظيم الدولة على هدى الظروف المتبدلة وأصبح ارساء قواعدها وتنظيمها ضرورة ملحة وأمرا لا يقبل التأجيل . ولقدكان هذا عين الموقف الذى وجد فى زمن أغسطس، وهنا أيضا أملت الظروف الاجتماعية والاقتصادية طريقة رسم الخطوط الأساسية التى تتبع فى اعادة تنظيم الامبراطورية ، والتى حددها مادرج عليه القادة فى الحرب الأهلية ، وما قاموا به من اصلاحات جزئية .فنشاط ماريوس وسلا وبومبى وقيصر يقابله نشاط سيپتميوس وجالّينوس وأورليان ؛ والجهد العظيم الذى بذله أغسطس وڤيسپاسيان والأنطونينيون كان قرينا لاعادة تنظيم الدولة فى زمن دقلديانوس وقسطنطين وخلفائهم. وكان أهم اصلاح مست الحاجة اليه هو ذاك الذى يوطد قبل كل شيء أركان الدولة وينظمها على وجه يتفق مع التغيير الذى طرأ على أحوالها

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسية . كانت التسوية والمساواة هما أساس الاصلاح الذى فرضته رغبة الأهالى الملحة . وأصبح من الواضح أنه لم يعد هناك مكان فى الدولة لدور الرياسة الذى لعبته المدن وطبقة البورجوازى فى المدن فى حكومة أغسطس والأنطونينيين . وأصبح لزاما أن تقوم الدولة الآن على الريف وفلاحيه . ومن ناحية أخرى كان تبسيط نظام الدولة نتيجة حتمية لما طرأ من تغيير على أحوالها الاقتصادية والثقافية .

وعلى هذا النحو نشأت حكومة دقلديانوس وقسطنطين ، ولم تطلق يد الأباطرة فى تنظيمها . فقد تسلموا تركة مثقلة من القرن الثالث ، وكان عليهم أن يهتدوا بهديها . وفى هذه التركة لم يكد يوجد شيء ثابت ، سوى أن الامبراطورية قائمة حقا بكل ما فيها من موارد طبيعية . أما سكانها من الناس فقد فقدوا توازنهم تماما . ساد الحقد والحسد فى كل مكان : كره الفلاحون الملاك والموظفين ، وكره رعاع المدن طبقة البورجوازى فيها ، وكان الجيش بغيضا الى كل امرىء حتى الى الفلاحين ، وأبغض الوثنيون المسيحيين واضطهدوهم ، لأنهم نظروا اليهم على أنهم عصبة من الأشرار صح عزمهم على تدمير الدولة . اختل نظام العمل ، وكان الانتاج فى اضمحلال ، وقضى انعدام الطمأنينة فى البحر والبر على التجارة ، ولم يكن فى استطاعة الصناعة أن تزدهر لأن سوق المنتجات الصناعية كانت فى انكماش مطرد ، وقدرة الأهلين على الشراء فى انخفاض ، ومرت الزراعة بأزمة شديدة ، لأن انحلال الصناعة والتجارة حرمها من رأس المال الذى تحتاجه ، كما حرمتها مطالب الدولة الثقيلة من الأيدى العاملة ، ومن أكبر جزء من انتاجها . وقد استمر ارتفاع الأسعار . وانخفضت قيمة العملة بسرعة لا مثيل لها . وحطم النظام القديم للضرائب ، ولم يبتدع نظام جديد . وقامت العلاقات بين الدولة

ودافع الضريبة على السرقة المنظمة ، قل ذاك التنظيم أو كثر : فالعمل الاجبارى والاستيلاء القسرى والسلف أو الهبات الجبرية كانت هى الأمور المعتادة فى كل يوم . وكان عمال الادارة فسدة سفلة . وكثر عدد موظفى الحكومة الجدد واختلطت جموعهم ودبت الفوضى بين صفوفهم وتكدسوا فوق موظفى الادارة السابقين أو حلوا محلهم . كان الموظفون القدامى لا يزالون فى كراسيهم ولكنهم أبصروا مآلهم المحتوم ، فجدوا لئلا يفوتهم اغتنام أى فرصة من فرصهم الأخيرة . أما طبقة البورجوازى فقد نقب عنها وصب عليها الاضطهاد ونصبت لها شباك الخداع ولقيت أسوأ معاملة . أما الطبقة العليا فى البلديات فقد أفناها الاضطهاد ، وحل بها الدمار من جراء المصادرات العديدة والمسئولية الملقاة عليها لكى تكفل نجاح الغارات المنظمة التى تشنها الحكومة على الأهالى . وعلى هذا النحو بسط أفظع أنواع الفوضى جناحه على جميع أنحاء الامبراطورية المتداعية . وفى مثل هذه الأحوال ينحصر عمل أى مصلح فى الحد من الفوضى وايجاد نوع ثابت من النظام والاستقرار . وكلما كانت الوسائل أبسط وأقرب الى الفطرة ، كانت أفضل . أما النظام الذى كثر تنميقه والذى ساد فى العصور الخالية فقد قضى عليه قضاء مبرما وأصبح من المحال بعثه . كانت الطرائق الوحشية التى عرفت فى القرن الثالث ، على ما هى عليه من فظاظة وقسوة ، هى العرف المتبع . وكان هذا العرف الى حد ما وليد الحوادث ، وكان أسهل طريقة للخروج من الفوضى أن يثبت وأن يدعم وأن يصير نظاما . وأن يجعل هذا النظام أبسط مايمكن وأقرب مايمكن الى الفطرة . كان الاصلاح الذى قام به دقلديانوس وقسطنطين الابن الشرعى للثورة الاجتماعية فى القرن الثالث ، وكان من الضرورى أن يسير هذا الاصلاح فى نقطه الرئيسية على نفس النهج . ولم يكن لهذين الامبراطورين من الحرية فى عملهما

الا مثل ماكان لأغسطس . كان هدف كليهما احياء الدولة . وقد نجح أغسطس لما أوتى من عبقرية لا فى بعث الدولة فحسب ، ولكن فى اعادة الرخاء أيضا الى الأهالى . ولقد ضحى دقلديانوس وقسطنطين على الرغم منهما بلا ريب بمصالح الأهلين فى سبيل المحافظة على الدولة وانقاذها .

لقد كان غرضنا الأساسى من وضع هذا المجلد هو البحث فى الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى الامبراطورية الرومانية فى العصور الأولى وتتبع التطور الذى أدى شيئا فشيئا الى القضاء على الدور الرئيسى الذى لعبته المدن فى تاريخ العالم القديم . كانت الدولة الجديدة التى تقوم على الفلاحين وعلى الريف ظاهرة جديدة فى التاريخ ويحتاج بحث تطورها وتقدمها بحثا دقيقا الى دراسة كالتى حاولنا أن نقوم بها فى تأريخ نشأتها . ولهذا فلن ينتظر القارىء أى تحليل مفصل لنموها فى هذا الكتاب . ولابد من مجلد آخر له نفس الحجم ويكتب من نفس وجهة النظر هذه لدراسة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية فى الامبراطورية الرومانية فى العصور المتأخرة . ومثل هذا الكتاب لم يوضع بعد . غير أنه قد يكون من المستحسن أن نلقى هنا نظرة قصيرة على الخطوط الرئيسية التى سارت عليها اصلاحات دقلديانوس وقسطنطين ، وأن نرسم صورة عامة للأحوال الاجتماعية والاقتصادية لاعطاء فكرة عن النظام الجديد وعلاقته بعالم الامبراطورية الرومانية فى العصور الأولى [1] .

كانت المشاكل التى اضطر دقلديانوس وخلفاؤه الى مواجهتها مختلفة متعددة . ومن أهم هذه المشاكل مشكلة تتعلق بالسلطة المركزية ، أى بسلطان الامبراطور . لم يطرأ على ذهن بشر أن يقضى على هذا السلطان . فان كان هناك شىء واحد يمسك بناء الامبراطورية أن يزول ، ويكفل وجود الامبراطورية ، وان كان هناك نظام محبوب لدى جموع الشعب ، فهو سلطان الأباطرة ، وشخصية الامبراطور الجالس على

العرش . أما كل شيء آخر فقد صار الى الابتذال . وعلى الرغم من الرجات التى هزت الامبراطورية ، بقيت فكرة سلطان الأباطرة دون أن يمسها أذى . ان قدر للامبراطورية أن تنجو — ساد بين الناس جميعا مثل هذا الاعتقاد — فيجب أن يأتى ذلك من أعلى . وكان هناك شعور امتدت جذوره الى أعماق القلوب فى جميع السكان بأن رومة لن تعيش ولن تستطيع البقاء بدون امبراطور . وقد أثبتت حقائق القرن الثالث المريرة صدق هذا الاعتقاد . والمسألة الوحيدة كانت كيف تدعم السلطة العليا وكيف تنظم حتى لا يصبح الامبراطور بعد ذلك ألعوبة فى أيدى الجنود . ولقد دقت الفكرة التى تكونت عن سلطان الأباطرة فى القرنين الأول والثانى وتعقدت ولطفت فلم تعد جموع الفلاحين التى ارتكز عليها هذا السلطان بقادرة على أن تدرك كنهه . كانت فكرة من ابداع الثقافة العليا للطبقات الممتازة . وقد نقص عدد هذه الطبقات نقصا فاحشا وتولاها الانحلال ، وعملت حتى فى مستواها الثقافى عوامل الانحطاط فأصبحت ثقافتها سهلة بسيطة. فالنظرية التى تجعل من الامبراطور أكبر حاكم بين المواطنين الرومانيين ، يقوم سلطانه على أدائه لواجبه ، وما أسبغت عليه القوة الالهية العظمى التى تتحكم فى هذا العالم من اجلال وتقديس لم ترق الى ، بل لم تفهمها الجموع من أنصاف البرابرة والبرابرة الذين تألفت منهم الآن هيئة الموظفين والجيش والطبقة التى ينتسب اليها كل من الموظفين والجيش — أعنى الفلاحين من بين سكان الامبراطورية . مست الحاجة الى فكرة أبسط ، الى فكرة أوسع وأوضح لكى يفهمها كل انسان . بقى دقلديانوس نفسه متعلقا بأهداب الفكرة القديمة وهى أن الامبراطور هو الحاكم الأعلى ، وأن سلطته الامبراطورية يجب أن تسند الى أحسن رجل أو الى أحسن الرجال — الرئيس (princeps) أو الرؤساء (principes) . غير أنه أكد أن سلطته علوية قدسية ، وهذا

هو مغزى القول بأن الامبراطور هو الله ، وما استحدث من مراسم شرقية فى البلاط . فعبادة الامبراطورية التى كانت لا شخصية فى القرن الثانى ، أصبحت مرتبطة بشخص الامبراطور الذى حلت روح الله فيه على أرضنا هذه . لم يكن هذا الاعتقاد الذى أدخله دقلديانوس جديدا . فقد بذلت محاولات كثـيرة لتثبيته — من كاليجولا ونيرون ، ومن دومتيان وكومودوس ، ومن ايلاجابال وأورليان . غير أنهم باءوا جميعا بالخيبة ، لأن هذا الاعتقاد كان اما غير محدد تحديدا كافيا لقسم من السكان ، واما محددا تحديدا بالغا لقسم آخر . فلم يستطع أپولون وهرقل أن يحظيا بجاذبية عامة ، لأن الأفكار السائدة عنهما كانت مائعة غامضة . وأما الشمس (Sol) السورية ، أعنى ميثرا ، فهو خليط من جوبتر ودونار ولم يستهو الا قلة قليلة ، ولكن الجموع الزاخرة لم تجد فيه كفايتها الروحية . ولقد كان المميز الظاهر فى الحيـــاة الروحية فى الامبراطورية هو كثرة التدين ، فكاد الدين يصبح تدريجيا ذا أهمية قصوى عند كل انسان . وكلما كثر التدين فى أمة ، كلما بعدت الشقة بين جماعاتها المختلفة ، فالمؤمن بميثرا لم يكن ليتقبل امبراطورا حلت فيه روح دونار الألمانى ، والسائر على هدى العقائد المصرية لم يكن ليهب روحه الى من حل فيه اله غامض كهرقل الرواقيين ، وهكذا . فضلا عن أن المسيحيين كان من شأنهم أن يرفضوهم جميعا دون تردد وأن يأبوا الايمان بأن روح الله الخالدة حلت فى بشر هالك . ولم يُجد اضطهادهم : فكل اضطهاد زاد فى تماسكهم وجعــل نظام كنيستهم أشــد صلابة . وحظيت الكنيسة فى القرن الثالث بقوة هائلة . فكدولة داخل دولة ، ازداد نظام الكنيسة تحسنا كلما انحل عقد الدولة . وكان شعار الدولة: الظلم والقسر والاضطهاد ، أما الكنيسة فقد سلكت سبيل المحبة والرحمة والمواساة . وانفردت الكنيسة من بين الهيئات الدينية الأخرى من الناحية

الآتية : فلم تكن تهب العون الروحى فحسب ، ولكنها وعدت وأسدت المساعدة الفعلية لتخفيف البؤس فى هذه الحياة الدنيا ، بينما ظلمت الدولة من يبذل العون واضطهدته .

ولكن المسيحيين لما كثر عددهم وقويت شوكتهم ثقل على نفوسهم أن يبقوا مشردين وأن يشتبكوا فى نزاع مع الدولة . لقد حان وقت الوفاق بين الدولة والكنيسة ، فكل منهما فى حاجة الى الأخرى . وانه لدليل على عبقرية قسطنطين أن يفطن الى ذلك وأن يسير على هديه . وقد عرض قسطنطين السلام على الكنيسة على شريطة أن تعترف بالدولة وأن تشد أزر السلطة الامبراطورية . وقبلت الكنيسة هذا العرض — الذى أضر بها فى رأى كثير من الباحثين . ولأول مرة أصبح سلطان الأباطرة وطيد الدعائم ، راسخ الأساس ، ولكنه فقد — أو كاد — سوى بعض عبارات ناشزة ، البقية الباقية من صفته الدستورية كحكومة عليا لسكان الامبراطورية . أشبهت السلطة الامبراطورية الآن ملكية الساسانيين فى فارس ، وملك أسلافها فى المشرق ، كالملكيات الشرقية التى قامت فى بابل واشور ومصر وغيرها . قامت ، فى نفس الوقت ، على القوة والقسر ، وعلى الدين . فالأباطرة كأفراد يمكن أن يقعوا فريسة للمؤامرات العسكرية ولدسائس البلاط ، ولكن سلطان الأباطرة كان أبديا كالكنيسة التى تسنده ، وكان قوة عالمية ، كما كانت الكنيسة كنيسة عالمية . وعلى هذا النحو تمت عملية التبسيط ، ولقيت السلطة العليا الجديدة قبولا على الأقل عند ذاك الجزء من السكان الذى كان على استعداد أن يرفض دون تردد أى حل آخر . وأصبحت الأقلية المسيحية تدريجا وبمعونة الدولة أكثرية قوية ، وفرضت نفسها على أولئك الذين لم يستطيعوا قط ولم يظهروا قط استعدادا للدفاع عن عقائدهم الدينية وبذل التضحية فى سبيلها . وقد حملت المسيحية على العموم حتى الى هؤلاء حلا مرضيا لأمانيهم الدينية (٢) .

والمشكلة التى تلى فى الأهمية مشكلة سلطان الامبراطور وتتصل به اتصالا وثيقا هى مسألة اعادة تنظيم الجيش الامبراطورى . ولقد أوضحنا فى الفصل السابق شدة خطر هذه المسألة على الامبراطورية . اذ كان من الضرورى نظرا للحروب الخارجية الخطيرة والغارات المتكررة التى تشنها القبائل المصاقبة لتخوم الامبراطورية أن يزاد فى عدد الجيش وأن يحتفظ له بنظامه وتدريبه فى المستوى الذى بلغه فى زمن تراجان وهادريان وماركوس أورليوس . غير أن أى جيش يجند ، كما حشد الجيش العامل قسرا من بين صفوف الفلاحين — كأنه قوة حربية محلية (ميليشيا) تتألف من أفقر الفلاحين الذين يبقون فى الجندية أمدا طويلا — يصبح أداة انعدمت كفايتها الحربية ، واشتد خطرها . وكانت الطريقة الوحيدة للتخلص من هذه المعضلة هى الرجوع الى نظام حربى أبسط وأقرب الى الفطرة ، كالنظام الحربى الذى اتبعته الملكيات الشرقية والهيلينستية .

وقد خطا دقلديانوس الخطوات الأولى نحو اعادة تنظيم الجيش لأنه أدرك ، كما لم يفعل امبراطور آخر من قبل ، ضرورة تجنيد احتياطى دائم لجيوش التخوم فى الولايات . فزاد فى القوات الحربية على نهج واسع . ولكنه بينما أكثر من عدد الجنود العاملين ، فانه لم يستحدث طرقا جديدة فى التجنيد ، ولم يغير من النظام العسكرى . وبقيت الاصلاحات فى طى الغيب وكأن القدر قد احتفظ بها حتى يقوم بها قسطنطين . رأى قسطنطين أن القوات الحربية الأساسية فى الامبراطورية لا يمكن أن تكون الا حرسا خاصا كبيرا ، جيشا قويا من الخيل والرجل يعسكر بالقرب من قصر الامبراطور ، أو قصور الأباطرة الجالسين سويا على العرش ، ويكون على أهبة دائمة للسير ضد العدو . وجيش الميدان هذا ، مثله مثل جيوش الملوك الهيلينستيين (اذا استثنيا الانتجونيين فى مقدونيا) كان لزاما أن

يتألف من مرتزقة ، أكثرهم من البرابرة الذين يجندون من القبائل الألمانية والسرماتية الحليفة والخاضعة لسلطان الأباطرة ، ومن تلك القبائل التى تنتمى الى الجنس عينه ولكنها استقرت داخل حدود الامبراطورية . كان يتألف من فرق متعددة ، يتبع بعضها حرس الامبراطور الخاص دون سواه . أما أهمها فكانت فرق الپالاتينيين (palatini) والكوميتاتيين (comitatenses) التى كونت حقا جيش ميدان حسن التدريب والتنظيم . أما الجيوش التى عسكرت فى الولايات كحاميات والتى كان من واجبها اخماد الثورات التى تشب داخل حدود الولايات ومواجهة الهجمات الأولى التى يشنها أعداء من الأجانب ، فقد نظمت على نسق احتياطى الملوك الهيلينستيين . فحشد العسكر فى جيوش الولايات من بين أولئك الذين استقروا على التخوم ، وكانت الخدمة العسكرية الوراثية احدى واجباتهم . وكان أكثر أولئك المتوطنين العسكريين الذى استقروا على الحدود من البرابرة ، من الألمان والسرماتيين ، وكان بعضهم من سلالة الجنود العاملين وقدماء المحاربين الذين منحهم أباطرة القرن الثالث اقطاعيات فى أقاليم الحدود . فان دعت الحاجة الى مزيد من الجنود ، فالسبيل الى ذلك هو حشد المتطوعين والتجنيد الاجبارى لبعض سكان الامبراطورية ، ولا سيما سكان الريف فى أكثر الولايات حبا فى القتال كتراقيا وسوريا وبريطانيا وولايتى موريتانيا . وألقى التوكيد على الفرق المساعدة (auxilia) ، على الوحدات البربرية ، بينما لعبت الكتائب وهى فرق المواطنين الرومانيين دورا ثانويا . ولم تهمل الفكرة التى سادت فى زمن الجمهورية والعصور الأولى من الامبراطورية ، ألا وهى فرض خدمة عسكرية اجبارية على جميع السكان فى الامبراطورية . ولكن جرى العرف الذى اتبع على استبدال الخدمة العسكرية المفروضة بضريبة ، أى ببدل نقدى (aurum tironicum) ، جبيت من أصحاب الأراضى

وخصصت لدفع جزء من نفقات جيش من المرتزقة والعثور على عـدد كاف من المجندين من بين أولئك الذين لا تربطهم رابطة بحرفة خاصة أو بقطعة من الأرض فى داخل الامبراطورية (vagi) . ولم تأت هيئة الضباط الذين يقودون هذه الصفوف من الجنود فى أى حالة من طبقة خاصة . فقد أوصدت أبواب الخدمة العسكرية أمام أعضاء طبقة مجلس الشيوخ ، أما الفرسان فقد اختفوا من الوجود . وكان لكل رجل أوتى كفاية حربية أن يؤمل فى الرقى تدريجا من وظيفة ضابط صف الى رتبة ضابط (tribunus) يقود فصيلة أو كتيبة أو فرقة مساعدة ، ثم بعد ذلك يعلو الى مرتبة قائد (dux) لأحد الجيوش ، أو حتى الى مركز القائد العـام للخيل (magister equitum) أو الرجل (magister peditum) . هكذا كان الأمر من الوجهة النظرية على الأقل ، وفى بعض الأحيان لم يكن هنـاك اختلاف بينها وبين العرف المتبع . ومن الطبعى أن أسر كبار الضباط أصبحت على مر الأيام هى المورد الأول فى تخـريج الضباط على العموم . وعلى هذا النحو تكونت طبقة أرستقراطية عسـكرية جديدة ، ولكنها لم تصبح قط طائفة موصدة الأبواب [٣] .

وعند اعادة تنظيم الادارة فى الامبراطورية هدفت سياسة الأباطرة فى القرنين الرابع والخامس الى زيادة عدد الموظفين وتبسيط واجباتهم وجعلها تسير على وتيرة واحـدة وتصل الى مستوى واحد ، وصبغ طبقاتهم الى حد ما بصبغة تشبه النظام العسكرى . ولقد زاد عدد موظفى الدولة ، فى العاصمة كما فى الولايات ، وعلت أهميتهم ، بينما فقدت الهيئات الحاكمة فى المدن ، أعنى المجالس البلدية ، الواحد بعد الآخر ، كل حقوق الحكم الذاتى تقريبا ، ووضع أعضاء المجالس فى مرتبة عمال الدولة الذين لا يقبضون أجورا ، وألقيت على كواهلهم مسئولية توزيع الضرائب وجبايتها ، وكذا تقسيم أعمال السخرة والأعباء الأخرى التى

تقع على سكان المدن والمناطق الملحقة بالمدن . وفى العصور الأولى للامبراطورية بدأ النظام البيروقراطى يحل ببطء فى العاصمة محل نظام حكومة المدينة ، ولكنه عدل ، ان قليلا وان كثيرا ، وجعل مطابقا لمبدأ الحكومة الذاتية المحلية فى الولايات وفى ايطاليا . أما الآن فقد تطور تطورا منظما وامتد الى كل ركن من أركان الادارة . اننا لا نستطيع هنا أن نتتبع نمو نظام البيروقراطية ، ذى السطوة والجبروت ، بالتدريج فى الامبراطورية الرومانية فى العصور المتأخرة ، ولا ما اعتراه من تغيير متلاحق . فلقد كان وجها من أوجه النشاط ، حاول كل امبراطور تقريبا أن يدخل عليه بعض التغيير وبعض التحسين — وهذه خاصية عامة فى جميع الحكومات البيروقراطية . فالاصلاح هنا سهل ميسور ، ومفيد فى ظاهره . ويكفينا أن نقول انه منذ زمن دقلديانوس وقسطنطين أصبح هدف الحكومة المركزية خلق أداة بيروقراطية قوية منظمة تنظيما جيدا ، تستطيع تحت اشراف الحكومة المركزية وتوجيهها أن تقوم بجميع أعباء الادارة فى دولة ترامت أطرافها ، واذا قارنا بينه وبين نظام الامبراطورية فى عصورها الأولى ، ذلك النظام الدقيق المعقد الذى وضع فيه التوكيد على حكومات المدن الذاتية فاحتلت المكان الأول بينما كانت النظم البيروقراطية أداة ثانوية ، أداة للمراقبة ، فنظام الامبراطورية فى عصورها المتأخرة على الرغم من تعقيده الظاهرى أبسط وأقرب الى الفطرة وأبلغ ما يكون فى الوحشية . ولما أصبح للبيروقراطية الكلمة العليا وكان لها من القوة ما لا حد له ، ولم يكن لأولئك الذين هم قلب الدولة النابض بدم الحياة أى سلطان عليها ، من جهة أو من أخرى ، دب فيها تدريجيا فساد بالغ ، وتفشت فيها السرقة والخيانة ، وفى عين الوقت نبت عنها الكفاية نبوا نسبيا ، على الرغم من أن أعضاءها حظوا بقسط كبير من التدريب والتمرين المهنى . عمت الرشوة ، وأصبح

الكسب الحرام هو الطريق الأمثل ، وأضحى من العبث محاولة القضاء على الفساد بنظام متشعب من التجسس ، وبمراقبة متبادلة يشرف فيها بعض الموظفين على بعض . فكل اضافة الى جيش الموظفين العرمرم ، وكل زيادة فى عدد المراقبين الضخم ، أكثرت من عدد أولئك الذين عاشوا على الرشوة والفساد . وكانت أسوأ فئة هى التى ضمت الألوف من رجال الشرطة السرية (المشتغلين بالأعمال agentes in rebus) الذين خلفوا عسكر التموين (frumentarii) ، وكان من واجبهم أن يكونوا عيونا على السكان وجموع الموظفين فى الامبراطورية . فالفساد واضمحلال الكفايات هما مصير كل بيروقراطية لا توقفها عند حدها سلطات واسعة من الحكم الذاتى الممنوح للشعب ، سواء أنشئت البيروقراطية باسم حكم أوتوقراطى أو باسم حكم شيوعى . ومن الواضح أن نظاما بيروقراطيا قد بلغ الذروة من التطور لا يتفق ووضع الحكومة المدنية والعسكرية فى يد كبار الموظفين ، وقد فصل فصلا حادا بين قسمى الحكومة هذين ، وكان هناك دائما ميل الى ادارة كل منهما على حدة ، وجعل لكل منهما اختصاص مستقل . ومن الواضح أيضا أن جموع الموظفين لابد من اختيارهم لا من طبقة خاصة ، ولكن من بين أولئك الذين كانوا على ما يظهر ، أكثر الناس صلاحية لتلك الوظائف . ولكن نظرا للامتيازات التى تحف بمركز الموظف فى الدولة ، فان الوظائف الحكومية أخذت طبعا تميل الى أن تصبح امتيازا وراثيا لطائفة خاصة . ومنح الأباطرة أنفسهم أعلى الوظائف للمرشحين لها ، وعلى هذا النهج تسلق المناصب العليا كثير من الرجال الجدد . ولكن الظروف وما لها من سلطان أوجدت طبقة أرستقراطية جديدة من البيروقراطيين ، وهذه الطبقة احتكرت تقريبا جميع المناصب العليا فى الامبراطورية . ومن السهل أن نفهم لم خلق الأباطرة النظام الادارى الجديد ليحل محل النظام

القديم . فلقد وجهت الثورة الاجتماعية فى القرن الثالث ضد المدن وضد حكومات المدن الذاتية التى كادت تتجمع فى يد طبقة البورجوازى فى المدن . وكان من الأسهل والأضمن للحكومة المركزية بدلا من أن تعيد تنظيم الحكومة الذاتية فى البلديات على نهج جديد أكثر ملائمة للنظم الديمقراطية — وهذا جهد يتطلب قدرا كبيرا من الابتداع والابتكار — أن تتقبل الأحوال السائدة وأن تمحو فكرة الحكومة الذاتية كلها بجعل كل عضو فى هيئات المدن مسئولا أمام الدولة واثقال كواهلهم بالواجبات دون منحهم أى حقوق مقابل ذلك . ولما قضى على الحكومة الذاتية للمدن على هذا النحو ، أصبح لزاما أن يقوم شخص آخر بوظيفة المراقبة ووجب اختيار مراقبين ليشرفوا على المجالس البلدية ويقسروها . وكان المرشحون لهذا المنصب هم طبعا عمال الحكومة المركزية الذين لم يلعبوا الى الآن الا دورا متواضعا فى حياة الولايات . ومن الهراء أن نزعم أن هذا الاصلاح نشأ بالتدريج فى عصور الامبراطورية الأولى وتطور تطورا منظما كنتيجة لافلاس المدن التى برهنت على عجز تام فى ادارة شئونها البلدية ادارة حسنة . لقد كانت المبادىء التى سارت على هديها البيروقراطية فى زمن الامبراطورية الأولى تختلف عنها فى عصورها المتأخرة . تولت البيروقراطية ، كما كان طبعيا ، ادارة شئون الدولة ولم تتدخل الا قليلا فى أعمال المدن . فان هى تدخلت ، فذلك لمعـونة المدن على تدبير شئونها الخاصة بكفاية أكبر . أما هذا الانقلاب فقد أوجدته ثورة القرن الثالث . لقد قضى الجيش باسم الطبقات الدنيـا على الحكومة الذاتية فى المدن . وبدلا من أن تعيد الحكومة الامبراطورية فى عصورها المتأخرة تنظيم الحكومات الذاتية فى المدن على نهج جديد ، تركت الأمور على ما هى عليه ووضعت المدن لا تحت مراقبة عمـال الحكومة المركزية ولكن تحت امرتهم ، وقصرت الدور الذى لعبته المدن

على ما منحت فى زمن الملكيات المشرقية ، فيما عدا مسئوليتها عن جباية الضرائب . ولم ينفذ هذا الاصلاح سعيا وراء صالح الشعب ، وانما رغبة فى تسهيل أعمال الحكومة . فضحى بمصالح الشعب من أجل ما تراءى أنه صالح الدولة . فجرثومة الحكومة الذاتية التى نمت فى الهيئات القروية فى القرن الثانى ، وحتى فى القرن الثالث ، احتواها الخراب الشامل واختفت (٤) .

ويرتبط اصلاح الضرائب ، على ما له من أهمية وما جر معه من دمار ، ارتباطا وثيقا باصلاح نظام الادارة .لقدأكدنا مرارا وتكرارا أن الضرائب فى العصور الامبراطورية الأولى لم تكن فادحة على الرغم من كثرة تعدادها وقيامها على العادات السائدة فى أجزاء الامبراطورية المختلفة . ولقد وقع العبء على الضرائب غير المباشرة ، وعلى الدخل الذى تغله الدولة والامبراطور من الأراضى وغيرها من أملاكهما العقارية . أما الضرائب المباشرة — ضريبة الأراضى والجزية — فقد قامت الولايات المختلفة بأدائها طبقا لعوائدها الخاصة . ولسنا ندرى شيئا عن قيمتها الا فى ولاية مصر . ولكننا نعرف أن أجزاء كثيرة فى الامبراطورية أعفيت من هذه الضريبة جزئيا أو كليا (كما كانت الحال فى ايطاليا) ، وأن هذا الاعفاء زاد ولم ينقص. فان ضجت الولايات بالشكوى من أعبائها فلم يكن ذلك بسبب الضرائب. أما ما أثقل كاهلها فقد كان الدفعات غير العادية ، وتموين الجيوش والموظفين عن طريق التسليم الجبرى ، والاستيلاء للأغراض الحربية ،والمصادرات من آن الى آخر ، وأعمال السخرة . ولم تشك الطبقة الأرستقراطية فى البلديات من مسئولية تقدير الضرائب وجبايتها كعبء فادح جدا . ولكنها شكت من مسئوليتها عن الأعباء الفادحة غير العادية التى تفرض على الأهالى ، ومن الدفعات الجبرية كضريبة التتويج . ولقد كانت الطريقة الفوضوية التى اتبعت فى قسر الناس على القيام

بالدفعات غيرالعادية هيالتى جلبت فىالمدن الخراب لطبقات البورجوازى والعمال على السواء . ففى فترات الاضطرابات فى أثنــاء القرن الثالث أصبحت الدفعات غير العادية هى المورد الأساسى لدخل الدولة ، فلم تكن الدولة تعيش من دخلها العادى ، وانما تعيش على نظام يشبه . ان قليلا وان كثيرا ، السرقة المنظمة .

ولم يكن للحكومة الرومانية قــط ميزانية منظمة . فان واجهتهــا صعاب مالية ، لم تجد رصيدا احتيــاطيا ثــابتا تنفق منه . وبين الحين والآخر ، جمع الأباطرة المقتصدون بعض المال ،ولكن المبذرين منالأباطرة الذين ارتقوا العرش اتفاقا بددوا ذلك بسهولة . ولم يمثل هذا المال قط رأس مال حسنت ادارته واستثماره فى صكوك مأمونة . فان نزل بهم اذن طارىء ، لم يجد الأباطرة رصيدا احتياطيا يلجأون اليه . ولم يحاولوا أبدا زيادة دخلهم العادى بزيادة تدريجية للضرائب . فالطريق العادى لجمع الأموال تطبيقا لمبادىء دويلة المدينة المستقلة هو مطالبة الأهلين بتقديمها عنطريق الضرائبغير العاديةأو عنطريق الاستيلاء والمصادرات . فليس مما يثير الدهش أنه فى الأوقات العصيبة التى رآها القرن الثالث أهملت الضرائب العادية الى حد ما وأضحت الأهمية للضرائب غــير العادية (وخصوصا ضريبة التتويج) ، وللاستيلاء على المواد الغذائية والمواد الخام والمصنوعات استيلاء غير عادى . وقد جر ذلك ، كما جر انعدام الطمأنينة عامة فى تلكالأوقات ، الىاختلالنظام التجارة والصناعة. وكان من نتيجة ذلك أن نقصت حصيلة الضرائب غير العادية نقصــا فاحشا . فسياسة الأباطرة الجنونية فىتخفيض قيمة العملة تخفيضا منظما، والأحوال الاقتصادية العامة ، وكذا نظام السلب المنظم (الخدمات) ، كل ذلك أحدث ذبذبة شديدة فى الأسعار ، سارت على غير هدى ، بل لم تجار الانخفاض المطرد فى قيمة العملة . وهذه الأحوال وأمثالها هى

ما ورث أباطرة القرن الرابع من أسلافهم . وما دامت هذه الأحوال باقية ، لم يكن هناك أمل فى عودة الاستقرار الاقتصادى ، وفى وضع العملة على أساس متين . ولقد ذهبت هباء كل محاولة فى هذا السبيل . وأكبر فشل وأكثره ذيوعا هو ما منى به دقلديانوس سواء فى تنظيم العملة وفى تثبيت الأسعار . ولم يأت بجديد قراره الذى أصدره عام ٣٠١ وحدد فيه أثمان المنتجات المختلفة ، وهو القرار الذى ذاع واشتهر . فقد كثر الالتجاء الى هذه الوسيلة عينها من قبله ومن بعده . فهى كوسيلة مؤقتة قد تعود ببعض النفع فى وقت عصيب . ولكنها كوسيلة عامة يراد لها البقاء والدوام ، فمن المحقق أنها تنتج أضرارا عظيمة وتدعو الى سفك دم غزير ، دون أن تأتى بأى عون . ولقد شارك دقلديانوس فى ذاك الاعتقاد الفتاك الذى ساد فى العالم القديم فى قدرة الدولة على كل شىء ، وهو اعتقاد لا يزال كثيرون من أصحاب الآراء الحديثة يؤمنون به كما آمن به دقلديانوس والعالم القديم .

وبعد أن هدأت الحرب الأهلية قليلا ، أصبح من الواضح لكل امرىء أن الوقت قد حان لحسم هذه المشكلة الملتهبة حول طرائق فرض الضرائب . وكان هناك طريقان أمام دقلديانوس . كان يمكنه أن يعود ثانية الى أنظمة الأنطونينيين وأن يبطل كل وسائل الطوارىء التى تجمعت، وفى هذه الحالة كان يمكنه أن يلتفت الى خواص الحياة الاقتصادية فى الولايات المختلفة . وكان هذا طبعا أصعب الطريقين وأكثرهما ايلاما . فعودة الرخاء الى الامبراطورية كانت تتطلب سنين من التطور الهادىء — سنين من السلام والحكم المنظم لا تنقص عن السنوات التى منحها أغسطس الى الامبراطورية الرومانية ، وقد واجه أغسطس عين الصعوبات على وجه التقريب بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها . ولم تكن لدى دقلديانوس الرغبة فى الانتظار ، وربما لم يكن ذلك فى استطاعته .

ولم تكن الظروف مما يسمح له أن يصبر وأن يقود الامبراطورية ثانية الى الأحوال العادية . فعلى التخوم وقف الأعداء على أهبة الهجوم . وكانت الحال فى الداخل أبعد ما يكون عن الهدوء . وقد استنفد الجيش الذى زيد فى عدده وأعيد تنظيمه مبالغ طائلة من الأموال . وعلى ذلك لم يدر قط بخلد دقلديانوس وخلفائه أن يعيدوا نظام الضرائب القديم ، وقد كان نظاما معقدا فرديا . فاتبعوا الطريق الآخر الذى كان ممهدا أمامهم : وهو أن يتقبلوا ما جرى عليه العرف فى القرن الثالث ، وأن يجعلوا من وسائل الطوارىء نظاما ، وأن يبسطوا ذاك النظام ويعمموه ، ما أمكن ذلك ، بتطبيقه فى جميع الولايات دون نظر الى مميزات حياتها الاقتصادية ونظامها الاجتماعى . ولما كانت قيمة العملة فى تدهور وتقلب لم يكن من المستطاع أن يقوم نظام الضرائب على النقد . فبدلا من الضرائب النقدية ، ابتدع أباطرة القرن الثالث أو أحيوا النظام البدائى ، نظام الضرائب العينية على شكل جمع متكرر للمواد الغذائية فى أزمنة الطوارىء من أجل الجيش ، ومدينة رومة ، وعمال الدولة . أضف الى ذلك أيضا جمع المواد الخام والمصنوعة بنفس الطريق . وهذا هو نظام المؤن (annona) الذى ذاع واشتهر . فأى شىء أسهل من جعل هذا الاستيلاء من أجل الطوارىء ضريبة منظمة ؟ وبذلك يمكن مد الجيش بما يحتاج اليه ، وكذا العواصم ، والبلاط ، وعمال الحكومة . ويمكن للدولة أن تسد نفقاتها الأخرى ، كما كانت تفعل من قبل ، من الضرائب القديمة التى لم تبطل ، ومن الدفعات الاستثنائية التى عرفت فى القرن الثالث والتى مسها التنظيم كذلك . غير أنه لم يكن من السهل التنبؤ بما ستحتاجه الدولة فى المستقبل فربما زادت حاجتها أو نقصت تبعا للظروف . وهذا هو السر فى احتفاظ المؤن (annona) بمظهرها كاستيلاء دعت اليه الطوارىء . ففى كل عام كان الامبراطور يحدد القدر الذى

ينبغى دفعه فى السنة الحالية . وعلى ذلك ثبتت المؤن (annona) ؛ ولكنها ثبتت على أسوأ شكل ممكن . ففى القرن الثالث كان الأمل لا يزال يداعب خيال الناس فى أن فجر يوم سيطلع عليهم تصبح فيه الضرائب منظمة وثابتة . ولكن تنظيم دقلديانوس للضرائب قلب ذلك الأمل سرابا . فلم يكن فى استطاعة أحد أن يعرف سلفا ما يلزمه دفعه فى العام التالى . وأضحى كل حساب محالا قبل أن تعلن الدولة مقدار ما تطلبه فى تلك السنة .

اختارت الدولة اذن مرة أخرى أسهل الطرق للوصول الى هدفها دون نظر الى صـــالح الأهلين . وعلى الرغم من جعـــل المؤن (annona) نظاما دائما ، فان مشكلة الضرائب بقيت أبعد ما يكون عن الحل . كانت أهم مسألة هى التقدير العادل الذى لا يظلم أحدا . وفى القرن الثالث اختلف حل هذه المشكلة باختلاف الولايات . ففى مصر بنى التقدير على أساس السجل المفصل للأراضى المزروعة . وفى الولايات التى انتشرت فيها المدن قام التقدير على أساس المعلومات المستقاة من الاحصاء ، وعلى مقدرة المدن المختلفة على الدفع ، وكذا الوحدات الأخرى الكبيرة التى تتخذ مقياسا فى فرض الضرائب (كضياع الأباطرة وأعضـــاء مجلس الشيوخ ، وكأراضى المعابد والأمراء الخاضعين لرومة) . بدا هذا النظام معقدا دقيقا فى نظر دقلديانوس . وكان أساس هـــذا النظام فى أكثر الولايات هو نشاط المدن ، ولم يكن من اليسير أن يلم المرء فى لحظة واحدة بجميع أجزائه . وكان من الأهون والأسهل الاغضاء عن عمـــل القرون واستحداث نظام للتقدير لا تعمل فيه يكون أقرب الى الفطرة من أى نظام آخر عرف فى التاريخ . كان فى امكان أى جندى أن يلم به ، على الرغم من أن أى جاهل كان فى استطاعته أن يرى أن بساطته لم تحقق فى هذه الحالة العدالة أو المساواة . فقسمت الأراضى الزراعية ،

سواء المزروعة أو القابلة للزراعة ، الى فُدُن (iuga) أو أزواج من الثيران . وقد اختلفت مساحة الفدان (iugum) باختلاف موقع الأرض ، أهى فى سهل أم فى سفح جبل ، وتبعا لما تنتجه ، أهو حبوب أم نبيذ أم زيت زيتون . ولم تبذل أية محاولة لادخال أى نوع آخر من التفرقة . ولم يحسب للبيئة المحلية أى حساب. لقد كان هذا من عمل جندى من أنصاف البرابرة حاول حل مشكلة عويصة باغفال مابها من دقة وصعوبة . وربما كان رأينا هذا يبالغ فى وصف اصلاحات دقلديانوس بالبساطة ، ونحن لا نحيط بها تماما . ربما كان نظامه أقل جمودا مما يبدو لنا ، وربما اختلف باختلاف البقاع . ولكن خطوطه الأساسية بينة لايتطرق اليها الشك ، وهى تدل على ميل الى تبسيط مشكلة الضرائب ، حتى ولو أضر ذلك بمن يدفع الضريبة . وربما كان ذلك أيضا راجعا الى الرغبة فى وضع نظام يتفق وذكاء الفلاحين الذين هم عماد الضرائب . وربما عرف دقلديانوس نظام الفُدُن (iugera) من تجاربه الخاصة ، ومن المحتمل أن الفدان استعمل كوحدة فى نظام الضرائب بين أهل ايليريا وتراقيا الذين كانوا لا يزالون يحيون فى ظل نظام اقتصاديات القبيلة .

ولكن التقسيم الى فُدُن (iuga) — iugatio — لم يكن سوى جانب واحد من نظام دقلديانوس . فقطعة الأرض بلا أيد عاملة جماد لا تدب فيه حياة : فالفدان (iugum) يفترض وجود رأس (caput) ، أى رجل يزرعه . وقد تطورت مشكلة العمل فى القرن الثالث وأصبحت أزمة حادة . فقد كثر انتقال السكان من مكان الى آخر يوما بعد يوم . فاذا ما اضطهد الفلاحون فى مكان ما ، بحثوا عن مكان آخر . وقد اقتطفنا من وثائق كثيرة كانت فيها حجة الفلاحين المفحمة والأخيرة هى تهديدهم بالعزم على الفرار والبحث عن موطن آخر ، ان لم تجب رغباتهم .

شب العالم القديم وهو يدين باعتقـاد لا يتزعزع أن الرجل يتبع مكانا خاصا هو أصله (origo أو ἰδία) . ولكن رقيق الأرض فى الملكيات الشرقية القديمة هم وحدهم الذين كانوا يرتبطون بمكان اقامتهم . فمنذ اللحظة التى وحدت فيها الامبراطورية الرومانية العالم المتحضر ، ترك الآخرون أحرارا يغدون ويروحون كما يشاءون . ولكن مثل هذه الحرية كانت مضادة لنجاح نظام التقسيم البدائى الى فدن (iugatio) الذى أدخله دقلديانوس . فقطعة من الأرض قد تزرع سنة وقد تترك مجدبة فى السنة التالية : وقد يهاجر الفلاح ليقيم فى مكان آخر أو قد ينفض عنه غبار حرفته ليندمج فى رعاع احدى المدن . فانتاج الضياع الكبيرة كان يتناسب لا مع عدد ما بها من فدن فحسب ، وانمـا وقبل كل شىء آخر مع عدد ما عليها من الرءوس (capita) . وقد جعل نقص عدد السكان فى الامبراطورية ، ولا سيما نقص عدد الفلاحين الذين يزرعون الأرض ، وحدة الضريبة هى الرأس (caput) أكثر مما هى الفدان (iugum) . ومن هنـا أضحت الوحدة فى الضرائب بعد زمن دقلديانوس خليطا من الاثنين معا. وكان المفروض أن كل من يزرع قطعة من الأرض عليه أن يعلن مساحة أرضه التى يزرعها ، وعدد الرءوس التى تعمل عليها ، بما فى ذلك الماشية . وقد جعل هذا الاقرار الرجل مسئولا عن أرضه وعماله (capita) : فأنى وجد ، عليه أن يدفع الضريبة المفروضة على أرضه . ولما أصبح الرجـل وأرضه وحدة واحدة ، فقد حريته فى الحركة والانتقال ، وارتبط بأرضه وبعمله ارتباطا لا يختلف فى شىء عن ارتباط أسلافه " فلاحى الملك " التابعين لملوك المشرق والملوك الهيلينستيين ، ولم تجـد مصر وبعض أجزاء آسيا الصغرى ، وربما بعض البلاد الكلتية ، جديدا فى هذا النظام . أما الجدة فهى فى احياء هذا النظام وتعميم تطبيقه مع أن الناس فى عصر هادريان كانوا يظنون أن هذا نظام مقضى عليه بالاندثار الى الأبد .

وقد طبق عين هذا النظام البدائى فى تقدير الضرائب الأخرى . ولم يكن شىء منها بجديد . وبينما قام الملاك بتقديم المواد الغذائية وبعض المواد الخام لسد حاجات الدولة ، قدمت المدن وسكانها على الخصوص الأموال والمصنوعات التى مست الحاجة اليها . وكان ينتظر من الصناع والتجار أن يدفعوا ضريبة موحدة . ولكنا لا نعلم شيئا عن الطريقة التى اتبعت فى تقديرها . وكان ينتظر أيضا أن يسلموا بعض المصنوعات الى الدولة أو الى المدينة بثمن معين . وقد دفع كبار ملاك العقار ، أعنى أعضاء مجلس الشيوخ ، عن ضياعهم ضريبة نقدية خاصة (collatio glebalis) . وأخيرا كان على الصناع ، وعلى المدن ، وعلى أعضاء مجلس الشيوخ أن يدفعوا ضريبة التتويج المعتادة (وقد تعددت أسماؤها) مرة كل خمس سنوات ، وأموالا أخرى اضافية كلما اعتلى العرش امبراطور جديد . ولم تأت اعادة تنظيم الضرائب بتحسين فى مسألة الاستيلاء الجبرى فى حالات الطوارىء . ففى زمن الحرب عم الاستيلاء والسرقة كما كان الحال من قبل . وما فتئت تظهر فى الثبت الطويل للالتزامات المفروضة على الأهالى أعمال السخرة وتسليم دواب الحمل لاستخدامها فى النقل (ἀγγαρεῖαι) . وتظهر فداحة العبء الأخير فى وضوح وجلاء من «بنود» قانون ثيودوسيوس ، ومن خطبة ليبانيوس « عن النقل الجبرى » (περὶ τῶν ἀγγαρειῶν) . ففى كل مكان اذن نقابل سياسة التبسيط عينها ، ترافقها سياسة القسر الوحشى التى اعتادها العالم القديم فى أيام القرن الثالث الحالكة .

تحدثنا فيما سلف عن طريقة تحصيل الضرائب . ففى عصور الامبراطورية الأولى استغنى بالتدريج والى حد كبير عن نظام دويلة المدينة المستقلة الذى استعان بجهود الملتزمين . وفى فروع الضرائب التى احتفظ به فيها (كالمكوس وجمع الدفعات العينية والضرائب النقدية

المقدرة عن ضياع الأباطرة) ، أدخل عليه تحسين له نتائج قيمة . ووقع الاختيار على عدد كبير من أفضل الاخصائيين من موظفى الدولة لمنع الملتزمين من محاولة خداع الخزانة ودافعى الضرائب على السواء . الا أن أكثر الضرائب ، اذا استثنينا قلة تجبيها الدولة مباشرة (كضريبة التركات والضرائب المفروضة على العتق والبيع العلنى بالمزايدة والمكوس) ، قامت المدن بتحصيله وقام ممثلو المدن بدفعه الى خـزانة ولايتهم . أما طريقة تحصيل هذه الضرائب فى داخل المدينة فأمر لم تعره الدولة أى اهتمام . واقتصر التعاون بين عمال الدولة — حكام الولايات وموظفيهم والمراقبين المعينـين من قبـل الامبراطور — وبين حكام المـدن على الاشتراك فى تقدير الضرائب التى يجب على المدن دفعها ، وقد بنى التقدير على الاحصاء الذى تقوم به البلدية وعلى احصاء مشابه تقوم به الحكومة المركزية فى الولاية كلها . وعند اطلاق أيدى المدن ، أصر الأباطرة على نقطتين رئيسيتين : أن يكون التقدير حقا وعدلا ، وأن تدفع الضرائب كلها دون نقص . وقد جعلت الادارة البلدية مسئولة عن ذلك . ولكن فى الواقع تكدس المتأخرفى الأوقات العصيبة ، وتنازل الأباطرة عنه كله أو عن جزء منه فى الكثير الغالب . ولكى يسير تحصيل الضرائب على نظام ، ولتأمين الدولة ضد المتأخرات ، عين الأباطرة (زيادة عـلى الحكام والمراقبين) موظفين مخصوصين ذوى مناصب سامية ، لكى يعاونوا المدن فى ادارة شئونها المالية ، وقد حاولوا منذ عهد هادريان أن يحولوا دون تكدس المتأخر بالقاء مسئولية تحصيله على عاتق أغنى الأفراد فى المـدن ، وعلى الخصـوص فى كل ما يرتبط بالاسـتيلاء الجبرى والضرائب الاضافية . وفى القرن الثالث عندما ثقلت أعبـاء تحصيل الضرائب ثقلا بالغا ، وأصبح من العسير الحصول على وسائل النقل التى تطلبها الدولة، وثقلت أعباء المؤن اللازمة للجيش ، زاد باطراد ضغط

الأباطرة على طبقة البورجوازى فى البلديات وأحصيت كل كبيرة وصغيرة فى مسئوليتها أمام الدولة . وقد كثر الالتجاء الى القسر كلما ازداد فقر طبقة البورجوازى ، وكلما قل عددها ، وكلما انخفضت مقدرة دافعي الضرائب على الوفاء . وحد من الحقوق الأساسية لأحرار الرجال وللمواطنين الرومانيين ، وقد كان البورجوازى فى البلديات رومانيين من وجهة النظر القانونية . وأضحت الدولة قاسية ، وفى بعض الأحيان غاشمة . ومع ذلك فقد بقيت طبقة البورجوازى هى الطبقة الممتازة بين سكان الولايات ، وما فتئت تتمتع ببعض امتيازاتها القديمة .

ولم يبذل دقلديانوس أى جهد لكى يغير من الأحوال التى ورثها عن الفوضى العسكرية التى سادت فى القرن الثالث . ولم يدر بخلده قط أن يعيد مجد المدن أو أن ينزل طبقة البورجوازى فى المدن الى مصاف بقية السكان فى مناطق المدن بجعل كل فرد منها مجرد وحدة ضريبية ، بل نقل عن أسلافه تشريعهم الذى اتجه نحو جعل طبقة البورجوازى مجموعة من خدم الدولة الذين يتوارثون خدمتها ولا يقبضون منها أجورا ، ودفعه فى طريق التطور ونفث فيه روحا مماثلا . فالكورياليون (curiales) (وهم الذين يصح انتخابهم أعضاء فى المجلس البلدى ويجوز اختيارهم حكاما) كونوا جماعة من أغنى المواطنين (مع حد احصائى أدنى هو خمسة وعشرون فدانا (iugera) من الأرض) ، وكانوا مسئولين أمام الدولة عن طريق الحكام ومجلس البلدة عن رخاء المدينة واستتباب النظام وذيوع السلام بين ربوعها ، وقيام الأهلين بجميع التزاماتهم قبل الدولة . وكما كانت الحال مع الفلاحين الذين يكدحون فى زراعة الأرض ، كون كل فرد كوريالى (curialis) وحدة واحدة فى الأغراض التى تتعلق بالضرائب ، وكون جميع أفرادها وحدة واحدة كبيرة تمثل ما تفرضه الدولة على سكان المدينة من ضريبة وسخرة .

وكان من الطبعى أن يصبح لزاما أن يلقى كل فرد كوريالى (curialis) وأن تلقى الجماعة كلها عين المعاملة التى يعاملها أولئك الذين يكدحون فى فلاحة الأرض — فلم تكن مسئوليتهم مالية فقط ، وانما كانت شخصية أيضا . وعلى ذلك فرض عليهم الخضوع الدقيق لنظام الموطن الأصلى (origo) وكان عليهم أن يبقوا فى مدينتهم ، وألا يحاولوا الفرار الى مكان آخر ليقيموا به . وعند مماتهم ، لزمهم احلال وحدة مسئولة بدلا عنهم ، يمكن فرض الضريبة عليها فى شخص أبنائهم . وقام من حولهم جيش عرمرم من الموظفين لمراقبتهم عن كثب مراقبة دقيقة ، ولاستعمال القسر والقسوة ان حاول أحدهم أن يفر من الدائرة السحرية التى ضربت حوله . ألا نجد هنا أوضح دليل على عجز دقلديانوس عجزا تاما عن أن يبتدع أنظمة جديدة أو أن يوائم بين الأنظمة القائمة وبين الأحوال السائدة فى عصره حتى يحفظ ، ما أمكنه ذلك ، على الأهلين حقوقهم ورخاءهم ؟ يخيل الى أن اعادة دقلديانوس لتنظيم الحياة فى البلديات ، كبقية اصلاحاته ، دليل يثير الدهش على القحط الفكرى (testimonium paupertatis) وأنموذج لعصر خلا من الابتكار وخضع دون حراك لما جرى عليه العرف الذى يرجع فى نشأته الى فترة ثورة واضطراب . واجه أغسطس نفس المتاعب ، لأن زمن الحروب الأهلية كان فترة عسف وسرقة مشروعة ، ولكنه لم يدر بخلده حتى فى أحلامه أن يصبغ بدوره العسف والسرقة بصبغة شرعية وأن يمنحها صفة الدوام . أما فى نظر دقلديانوس فقد كانت الحكومة ترادف القسر ، والتنظيم يعنى العنف المنظم . وانا لا نستطيع أن نقول ان ارادة الجيش هى التى أكرهته على ذلك . فلقد أبغض الفلاحون والجيش طبقة البورجوازى لأنها كانت تضطهدهم . ولم يدر قط بفكر دقلديانوس أن يزيل العداء المستعر بين المدن والريف بنقل المسئولية عن الضرائب وأعمال السخرة

من المجالس البلدية الى موظفى الدولة . فأبقى دقلديانوس العداء مشتعلا ، وكانت نتيجة ذلك أن الريف فى القرنين الرابع والخامس كره المدن كراهية لا تختلف عما كان يكنه لها فى القرن الثالث : ودليلنا على ذلك سالفيان وهجماته على الطغاة الذين ينتمون الى المدن . لا نستطيع اذن أن نقول ان دقلديانوس لم يجد أمامه طريقا آخر . كان أمامه عديد من الطرق ، ولكنه سار على الدرب القديم الذى يقود مباشرة الى الخراب والعبودية (٥) .

فلا عجب اذن أن اصلاحات دقلديانوس ، وكذا اصلاحات قسطنطين الذى أخرج آراء سلفه الأساسية الى حيز العمل ، لم ترفع شيئا عن كاهل الأهلين فى الامبراطورية ولم تؤد الى أى نهضة فى الحياة الاقتصادية أو عودة للرخاء . فلم يأت بعد الدمار الذى جلبته الحرب الأهلية وأيامها السود عصر ذهبى كعصر أغسطس . ضرائب فادحة ظالمة قامت على استعباد الفلاحين الذين يزرعون الأرض والصناع الذين يسكنون المدن سواء بسواء ، وجمود فى الحياة الاقتصادية وقد عاقتها عن حرية التطور تلك الأغلال التى قيدت كل فرد ، وهلاك قاس مقصود هدف الى القضاء عمدا على أكثر الطبقات نشاطا وثقافة فى الامبراطورية الرومانية أعنى طبقة البورجوازى فى المدن وقد ظهرت نتائجه تدريجيا ، واطراد فى زيادة السرقة والقسوة من جانب موظفى الادارة فى الامبراطورية كبيرهم وصغيرهم ، وعجز من جانب الأباطرة رغم حسن نواياهم عن الحد من الخروج عن سلطة القانون والقضاء على الفساد ، واسراف فى التعلق بأهداب المبادىء الأساسية التى قامت عليها اصلاحات دقلديانوس وقسطنطين — كل هذه عوامل كان لابد وأن تفلح فى ايجاد آثارها الطبيعية . فبقيت الروح المعنوية فى السكان مهيضة ذليلة ، كما كانت فى أزمنة الحرب الأهلية . والفارق الوحيد هو انتشار موجة من الخنوع والاستكانة فى أنحاء الامبراطورية الرومانية . فلم يكن هناك من

فائدة فى النضال ، فالأفضل أن يخضع الانسان وأن يحتمل فى صمت عبء هذه الحياة عسى أن يحظى بحياة أحسن بعد الموت . كان هــذا الشعور طبيعيا ، لأن أحسن جهد يبذله رجل مخلص كان مقضيا عليــه بالفشل . وكلما كثر انتاج المرء ، كلما أخذت الدولة منه أكثر . فان نجح فلاح فى ادخال تحسين على أرضه واضافة شيء اليها ، فهو يعلم أن مصيره الترقى الى منصب عضو فى المجلس البلدى (curialis) ، وفى هذا تكمن العبودية والاضطهاد والخراب فى النهاية . فالأفضل أن ينتج المرء ما يكفى أسرته ، وألا يقوم بجهود غير مجدية لتحسين مركزه . أدرك الجندى ادراكا تاما أنه طالما بقى جنديا وزج بأطفاله فى هذا المصير ، دام له رخاء نسبى . ولكنه عرف أيضا أنه فى اللحظة التى يحاول فيها أن يبطل هذا السحر فمصيره ، أو على الأقل مصير أطفاله ، هو ولوج المجلس البلدى (curia) واستبدال ماهو خير بما هو شر . قنع المستأجر من أحد كبار الملاك بأن يؤدى واجبه وأن يتمتع بحماية سيده وأن يخضع لعسفه . فمصير جاره الفلاح الحر لم يكن من الاغراء بحيث يحمله على أن يبذل جهدا ليصبح مثله . وينطبق عين هذا على الصناع فى المدن ، وعلى أعضاء المجلس البلدى (curiales) البؤساء . وفى لحظات اليأس والقنوط ربما حاول المرء أن يحسن مركزه بوسائل يائسة : ربما حاول المستأجر (colonus) أو الفلاح أن يندمج فى سلك الجيش ، أو يولى وجهه شطر السلب والنهب ، وربما حاول الجندى أن يفر من الجيش ، وربما حاول عضو المجلس البلدى (curialis) أن يحترف أى مهنة — كأن يصبح موظفا أو جنديا أو مستأجرا (colonus) أو فلاحا . ولكن دون جدوى . فان هم نجحوا فى محاولاتهم ، لم يختلف سوء مآلهم ذرة واحدة عما كان عليه حالهم من قبل . وعلى ذلك أصبحت الاستكانة هى المزاج السائد ، والاستكانة لا تؤدى الى رخاء أبدا .

وأبرز خواص الحيـاة الاقتصـادية فى الامبراطورية الرومانية فى عصورها المتأخرة هو تفشى الفقر يوما بعد يوم . فكلما زاد فقر الأهالى ، اقتربت الحياة الاقتصادية فى الامبراطورية من الفطرة . ولقد اضمحلت التجـارة لا بسبب القرصنة وغـزو البرابرة فحسب ، ولكن اختفـاء المشترين كان فى مقدمة أسباب الكساد . كان بورجوازى المدن ، وهم أحسن المستهلكين ، فى نقص مستمر ، وكذلك كانت قوتهم الشرائية فى ضعف مطـرد . وعاش الفلاحون فى فقر مدقع ، وعادوا الى ما يشبه « اقتصاديات المـنزل » الخالصة ، اذ أنتـج كل بيت ما يحتاج اليه . أما البقية الباقية من المستهلكين فكانوا أعضاء الطبقات الممتازة ، أعنى الموظفين والجنود وكبار ملاك العقار ، وقد قام بسداد حاجاتهم فى كل ما يتعلق بضروريات الحياة ، اما الدولة (اذ كانت الأجور تدفع عينا) ، واما منتجات ضياعهم . وعلى ذلك كان أول فرع من فروع التجارة يصيبه الاضمحلال هو أهمها ، وهو التجارة فى المواد الضرورية فى داخـل الولاية وبين الولايات . وما زالت تجـارة التجـزئة المحلية بمنجاة ، أما التجارة فى الكماليات فقد عمها الرخاء . وهذا يفسر مثلا عودة الاتجار مع الشرق ، غير أن طبقة التجار بوصفها هذا ما فتئت خاملة مزدراة . فلم تكن هناك أى فرصة لتطور مشروع تجارى كبير . فمتى شرع انسان فى عمل كهذا ، متى بدأ فى شراء سفن أو خلق علاقات تجارية ، وجد نفسه معينا فى احدى الرابطات ، رابطات أصحاب السفن (navicularii) أو التجار (mercatores)، ثم يجبر على العمل من أجل الدولة ، فى نقل بضائع نيابة عنها ، وبأجر هزيل ، أو يقسر على أن يعرض على الدولة قبل أى انسان آخر ما لديه من سـلع . وعلى ذلك كانت حال التجار وأصحاب السفن لا تختلف فى شرورها عن حال أعضاء المجالس البلدية (curiales) . وقد استخدم القسر فى ربط أعضاء هذه الجماعات كل

بمهنته ، وفى جعل عدد الأعضاء تاما غير ناقص ، وذلك بتعيين أعضاء جدد . وأصبحت التجارة والنقل ، كملكية الأراضى ، عبئا وراثيا لا يستطيع المرء أن يفر منه . وهذا عينه ينطبق على الصناعة . قل عدد المستهلكين ، وانكمشت الأسواق يوما بعد يوم ، وازداد عسف الدولة باطراد . واذا استثنينا انتاج بعض السلع الموحدة التى تستهلكها الجماهير وبعض الكماليات التى يبتاعها الأغنياء القلائل ، فان الصناعة عاشت على ما تطلبه الدولة . الا أن الدولة كانت مستهلكا أنانيا غشوما : حددت الأسعار ، ولكن اذا أدخلنا فى حسابنا مبلغ ما كان الموظفون يجنون من أرباح فان الأسعار المحددة انخفضت بدرجة تجلب الخراب للصناع. فكان طبعيا أن تختفى المصانع الكبيرة شيئا فشيئا . ولما كانت الدولة لا تستطيع الاستغناء عنها ، وعلى الخصوص من أجل الجيش ، ومن أجل البلاط ، ومن أجل الموظفين ، فان كثيرا من المؤسسات الصناعية انقلب مصانع حكومية وسار فى ادارته على النسق المصرى والشرقى ، وربط عمالها بحرفهم ورزحوا فيها تحت عبء وراثى .

ولقد حاولنا فى الفصول السابقة أن ندلل على أن الأزمة الاجتماعية فى القرن الثالث كانت الى حد كبير من عمل الحركة الثورية التى قام بها جموع السكان والتى هدفت الى ايجاد تسوية عامة . فهل أصاب اصلاح دقلديانوس وقسطنطين هدفه ؟ وهل نستطيع أن نقول ان الامبراطورية الرومانية كانت فى عصورها المتأخرة أكثر ديمقراطية منها فى عصر آل يوليوس وكلوديوس ، وفى عهد الفلاقيين والأنطونيين ؟ حقا لقد اختفت احدى الطبقات الممتازة فى الماضى ، وأعنى بها طبقة الفرسان . والحق أن باب الترقى فى الجيش والوظائف العامة المدنية بقى ردحا من الزمن مفتوحا أمام كل انسان ، ولا سيما فى القرن الثالث . ولكن الحق والواقع أن الامبراطورية الرومانية فى عصورها المتأخرة ،

على الرغم من أنها كانت ديمقراطية مؤلفة من عبيد ، الا أنها كانت أقل ديمقراطية من الامبراطورية فى عصورها الأولى . فلم تكن هناك طوائف فى الامبراطورية فى العصور الأولى . كان الرجل النشيط الذكى ، ان استكثر من الأموال ، يستطيع أن يرقى بسهولة من فلاح الى صاحب أرض ، وعندئذ يستطيع أن يندمج فى صفوف الطبقة الأرستقراطية فى البلديات ، وأن يحظى بالرعوية الرومانية ، وأن يصبح فارسا ، وأن يصير فى النهاية عضوا فى الطبقة الأرستقراطية المؤلفة من أعضاء فى مجلس الشيوخ . ولقد رأينا أن مثل هذا الترقى كان يتم بسهولة فى جيلين أو ثلاثة . وحتى فى صفوف الجيش كان الترقى من رتبة الجندى العادى الى المنصب السامى الذى يحتله ضابط المائة (centurio) الأول أمرا عاديا . على الرغم من أن وصول الجندى العادى مراتب الفرسان وأعضاء مجلس الشيوخ فى الجيش كان أمرا نادرا شاذا . وقد سار الحال على هذا المنوال فى الوظائف المدنية . وحتى الأرقاء لم يشذوا عن القاعدة العامة . فلقد كان لدى العبيد المعتقين فرص باهرة ليصبحوا مراقبين ذوى مناصب عالية ، ولم يقم دونهم أو دون أبنائهم ما يمنعهم من الاندماج فى صفوف الطبقة الأرستقراطية فى البلديات .

أصبحت الحال مختلفة بعد اصلاحات دقلديانوس وقسطنطين . فلم يكن هناك طريق شرعى للترقى من مركز مستأجر (colonus) حتى الى مركز فلاح حر أو أحد رعاع المدن ، دعك من الطبقات الأخرى . كان المستأجر (colonus) فى حالات شاذة يستطيع أن يصبح جنديا ، ولكنه كان شذوذا نادر الحدوث . فقد جعل اصلاح دقلديانوس لنظام الضرائب كما جعلت قرارات الأباطرة فى العصر المتأخر من المستأجر (colonus) رقيقا للأرض يرتبط بمكان اقامته وبسيده . ولقد أصبح المستأجر فردا فى طائفة وراثية مغلقة . وعين هذا ينطبق على المالك الحر الصغير الذى

كان عضوا فى هيئة قروية ، فانه ربط الى أرضه والى قريته والى مهنته .
والترقى الوحيد الذى كان ممكنا له هو أن يرقى الى مرتبة عضو فى
المجلس البلدى (curialis) . وقد كان ذلك فى الحقيقة خطوة
الى الوراء . وقد يستطيع البعض دخول الجيش ، ولا سيما ان تصادف
أنه يعيش فى الولايات الحربية ، ولكن هذا لم يرنُ اليه أحد على أنه
امتياز يحسد المرء عليه ، كما يتضح من القوانين التى شرعت ضد الفارين
من الجيش . وقد كان أصحاب الأراضى فى البلديات ، أعنى الكورياليين
(curiales) يرزحون تحت النير عينه : وكان لهم من الحرية أقل مما
لصغار الملاك . وهم قد كونوا طبقة مغلقة منتقاة بدقة . ولقد كانت منتقاة
لأن كل انسان ارتعدت فرائصه فرقا من الاندماج فيها . أما بقية سكان
المدن — أصحاب السفن والتجار والصناع والعمال — فقد شدوا يوما
بعد يوم الى حرفهم والى أماكن اقامتهم . وكانت هناك طبقة واحدة
ممتازة هى طبقة الرعاع العاطلين والشحاذين فى المدن وفى القرى ، وهم
الذين كانت الكنيسة ، على ما يظن ، تحوطهم برعايتها . فهؤلاء على
الأقل كانوا أحرارا — فى أن يموتوا جوعا ، أو أن يثيروا فتنة . وهناك
طبقة أخرى حرة وممتازة ، هى طبقة اللصوص الذين زاد عددهم كل يوم
فى البحر والبر . ولم تكن طبقة الموظفين حقا وراثية ، من وجهة النظر
القانونية على الأقل : فكان دخول المرء فى سلك الموظفين يعتبر امتيازا ،
وكان الامبراطور حرا فى اختيار الموظفين من بين أحسن الرجال فى البلاد.
ولكن حريته فى الاختيار كانت محدودة . فلم يكن فى استطاعة الكوريالى
(curialis) أن يصبح موظفا ، فان استطاع واحد منهم الهرب من هذه
القاعدة ، فمن الجائز والمرتقب أن يعاد فى أى لحظة الى المجلس (curia) .
ولم يكن من الجائز اختيار التجار وأصحاب السفن للوظائف العامة .
أما الفلاحون ورعاع المدن فلم يؤبه بهم ولم يرقوا الى أى اعتبار .

وفصل بين السلكين الحربى والمدنى فصلا بينا ، فلا يجوز اختيار جندى لوظيفة مدنية . وهكذا قضت الظروف القاهرة أن يختار الموظفون من بين أسر الموظفين ، فأصبحت طبقة الموظفين فى الواقع ، لا من الناحية القانونية ، طائفة مقفلة . وعين هذا الوصف ينطبق على الطبقة الأرستقراطية الجديدة المؤلفة من أعضاء مجلس الشيوخ ؛ لقد كان الموظفون هم قوام هذه الطبقة الأرستقراطية ، وكان الامبراطور يمنح حق الانتماء اليها الى كبار الموظفين المدنيين والحربيين ، وكان الاندماج فيها وراثيا . ثم تدرجت فأصبحت تقوم أيضا على المولد وعلى التعليم ، لأنها عضت بالنواجز على مميزاتها الذهنية التقليدية .

فلم تكن هناك اذن تسوية ولا مساواة من وجهة النظر الاجتماعية . ولم يكن المجتمع فى الامبراطورية الرومانية فى العصور المتأخرة مقسما الى طبقات ، وانما الى طوائف حقيقية ، أحكم غلق كل منها ما أمكن الغلق . وقد كان مرجع ذلك فى بعض الأحيان الى الامتيازات الممنوحة الى الطائفة ، وفى أحيان أخرى كان ذلك راجعا الى أعبائها ومتاعبها التى لم تترك لأحد رغبة فى أن ينتمى اليها ، والتى صيرت عضويتها وراثية واجبارية . ولم توجد هناك حتى مساواة فى العبودية المشتركة للدولة . كانت هناك حقا مساواة من نوع سلبى ، فلم يكن يسمح بأى حرية سياسية ، ولم تترك بقية من الحكومة الذاتية ، ولقد صودرت حرية الكلام والفكر والضمير ، ولا سيما بعد انتصار المسيحية . ولكن حتى هذه المساواة فى العبودية كانت سطحية ونسبية . فقد كان الكبار من أرباب العقار عبيدا للامبراطور ، ولكنهم كانوا سادة على المستأجرين من أرقاء الأرض الذين عاشوا على ضياعهم . وكان الكورياليون (curiales) عبيد الادارة التى عاملتهم على هذا الوصف ، ولكنهم كانوا سادة لا على مستأجرى ضياعهم فحسب ولكن على سكان المدينة

ومنطقتها أيضا ، لأنهم كانوا يقدرون الضرائب ويقومـون بتحصيلها والاشراف على أعمال السخرة . وقد نظر اليهم سكان المدينة ومنطقتها نظرتهم الى سادتهم وكرهوهم كما يكره العبد مولاه الذى لم يكن هو نفسه حرا ، ولم يكن فى استطاعته أن يحمى عبده ، وانما كان فى مقدوره أن يخدعه . فلا عجب أن التمس هؤلاء العبيد الحماية من أعضـاء مجلس الشيوخ والموظفين والجنود ، وكانوا على استعداد أن يدفعوا أى ثمن لهذه الحماية وأن يحرموا أنفسهم ذاك المال القليل الباقى لديهم وتلك الحرية الضئيلة التى ما زالوا يتمتعون بها . وقد شاعت هـذه العلاقات نفسها بين طبقة العمال فى المدن وبين أعضاء الرابطات المختلفة من أصحاب السفن والمتاجر والمصانع . وقد أشبهت الطبقة الأخيرة فى الحقيقة فى مصانعها صغار المراقبين الذين ينوبون فى ادارتها عن الدولة أكثر من مشابهتهم لأصحابها الحقيقيين . فلقد كانوا هم أنفسهم يرزحون تحت نير موظفى الحكومة فى المصالح المختلفة وقواد الوحدات الحربية المتعددة . وأخيرا خضع الموظفون والجنود فى مختلف الرتب الى نظام حديدى من طراز استعبادى . وعلى الرغم من أنهم منحوا سلطة هائلة على ألوف الرجال ، فانهم كانوا فى الواقع عبيدا بعضهم لبعض ولرجال الشرطة السرية . كانت العبودية التى طغت على الكل هى حقا الطابع المميز للعصر ولكن بينما كانت هناك درجات مختلفة وألوان متباينة من الرق ، لم تكن هناك مساواة . فلا توافق بين العبودية والمساواة . وهذه حقيقة يجب ألا تغيب عن حماة مبدأ المساواة الذين كثر عددهم فى العصر الحديث (٦) .

وفوق كل شىء ، لم تكن هناك أى مساواة فى توزيع العقار . لقد حل الخراب طبعا بأعضاء مجلس الشيوخ وبالفرسان وبالطبقة الأرستقراطية فى البلديات ، وبصغار طبقة البورجوازى التى تكونت فى الامبراطورية

فى عصورها الأولى ، فنزلوا من شاهق عليائهم . ولقد اختفى الى الأبد جلدهم وابتكارهم الذى أعانهم على جمع ثرواتهم وعلى بناء الحيـاة المتحضرة فى المدن . ولكن حل محل الطبقات القديمة التى كانت تملك العقار طبقات جديدة كانت حتى من وجهة النظر الاقتصادية فى مركز أسوأ بكثير من أسلافها . كانت الثروات فى العصور الأولى للامبراطورية ترجع الى زيادة الرخـاء فى الامبراطورية عامة . وكان مصدر هـذه الثروات التجارة والصناعة ، وكان رأس المال الذى يجمع يستثمر فى الأراضى ، فيدخل عليها تحسينا فى طرق زراعتها وأنواع المحاصيل التى تنتجها . قوضت الحروب فى القرن الثـانى هـذه الثروات ، وأخرت بل أوقفت التطور الاقتصادى . ولكنها لم تجلب افلاسا ، وكان من المستطاع أن تقوم نهضة فى ظروف أكثر قربا من الأحوال العـادية . ولقد وجهت مأساة القرن الثالث ضربة شديدة الى رخاء الامبراطورية ، وأضعفت من نشاط أحسن جزء من السكان ومن قدرتهم على الابتكار . وقد جعلت اصلاحات دقلديانوس وقسطنطين كل نشاط اقتصادى منتج محالا ، عندما منحت صفة الدوام لسياسـة السلب المنظم من جانب الدولة . ولكنها لم تحل دون جمع ثروات طائلة ، بل انها ساعدت على ذلك ، وان تكن قد غيرت من طابعها . فلم يعد أساس الثروات الجديدة نشاط الانسان وانتاجه ، ولا الكشف عن مصـادر جـديدة للثروة واستغلالها ، ولا تحسين المشاريع التجارية والصناعية والزراعية وتنميتها ، ولكنها قامت على العموم على المهارة فى استخدام مركز ممتاز فى الدولة لغش الدولة والأهالى واستغلالهما سواء بسواء . فنمت ثروات موظفى الدولة ، كبيرهم وصغيرهم ، عن طريق الرشوة والفساد . واستثمرت طبقة أعضاء مجلس الشيوخ ، وكانت معفاة من أعباء البلديات ، غنائمها فى الأراضى ، واستخدمت نفوذها ، أعنى نفوذ طائفتها — وكان فى هذه

الناحية أقوى من سلطان الأباطرة ، وأطاح بجميع نواياهم الحسنة — فى نقل أعباء الضرائب الى كاهل غـيرها من الطبقات الأخرى وفى غش الخزانة بطريق مباشر وفى استعباد عدد أكبر من العمال يوما بعد يوم . اننا لا نستطيع أن نبحث هنا كيف استولوا على مساحات شاسعة من الأراضى الخصيبة من أملاك الأفراد والتاج ولا بأى حق استولوا عليها (٧).

ولقد شاهدنا أعمالهم فى مصر فى القرن الثالث . وفى القرن الرابع ساروا شوطا أبعد فى نفس الطريق . واستخدم الشراء والتأجير والولاء والتأجير بلا أجل مسمى والتأجير الوراثى الذى يحمل التزاما بالزراعة (الحكر emphyteusis) لكى تصبح طبقة أعضاء مجلس الشيوخ هى طبقة كبار ملاك العقار بلا مدافع ، ولكى تنشأ ضياع شاسعة متناثرة فى جميع أنحاء الولايات تشبه الامارات الصغيرة . وقد عاش عدد قليل من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ فى العاصمة أو فى المدن . أما الكثرة فقد ابتنوا بيوتا كبيرة جميلة محصنة فى الريف وأقاموا فيها ، تحيط بهم عائلاتهم وعبيدهم وحاشية حقيقية من الأتباع المسلحين وألوف من أرقاء الأرض والتابعين . ونحن نعرف جيدا طرق معاشهم التى وصفها أوسونيوس وپولينوس (من بلدة پيلا) وسيدونيوس أپوليناريس وسالڤيان ، ومن أطلال بيوتهم العديدة ، ومن بعض صور الفسيفساء التى رُسمت على أرض غرفهم جمال قلاعهم فى المدن والريف . وقد كثر عدد هذه الطبقة وعظم نفوذها . وحاول جاهدا كل رجل « جديد » وافاه النجاح أن يصبح عضوا فيها ، وقد حالف التوفيق كثيرين . وكان أفرادها مخلصين فى وطنيتهم ، أفعمت أفئدتهم بحب حقيقى لروما وللامبراطورية ، وكانوا خدما مخلصين للأباطرة ، وقد غالوا فى تقدير الحضارة والثقافة . ولكن أفقهم السياسى كان ضيقا ، وخنوعهم وذلتهم لا حد لهما . غـير أن مظهرهم كان مهيبا ، وقد أثرت كبرياؤهم تأثيرا كبيرا حتى فى نفوس

البرابرة الذين أصبحوا تدريجا سادة الامبراطورية . ولكن الطبقات الأخرى لم تحظ من هذه الطبقة الأرستقراطية بعطف أو فهم . فلقد نظروا الى الطبقات الأخرى نظرتهم الى مخلوقات حقيرة ، وهم أشبهوا من هذه الناحية الطبقة الأرستقراطية فى رومة ، فى القرن الأول قبل الميلاد وفى القرن الأول بعد الميلاد . ولم يكن أعضاء مجلس الشيوخ فى القرن الثانى يشبهونهم عن كثب فى ترفعهم أو فى ثقتهم بأنفسهم . وهكذا انقسم المجتمع الى طبقتين أكثر من انقسامه فى أى وقت سابق : أولئك الذين زادت فاقتهم يوما بعد يوم ، واقتربوا من الفقر المدقع خطوة بعد خطوة ، وأولئك الذين بنوا رخاءهم على أسلاب الامبراطورية الخربة — يعاسيب حقا لم يقدموا شيئا الى الحياة الاقتصادية ، ولكنهم عاشوا على كدح الطبقات الأخرى ونصبها .

ولم يكن فى مقدور ثورة القرن الثالث الاجتماعية التى هدمت أسس الحياة الاقتصادية والاجتماعية والذهنية فى العالم القديم أن تأتى بأعمال ايجابية . فعلى انقاض حكومة ازدهرت وحسن تنظيمها وارتكزت على الحضارة الكلاسيكية التى عاصرت الدهر وعلى حكومات المدن الذاتية ، أقامت الثورة الاجتماعية فى القرن الثالث حكومة شيدت على الجهل المطبق ، وعلى القسر والقسوة ، وعلى العبودية والذلة ، وعلى الرشوة والسرقة . ألنا الحق فى اتهام أباطرة القرن الرابع بأنهم أقاموا مثل هذه الحكومة عمدا وبمحض اختيارهم ، بينما كان فى مقدورهم أن يسلكوا طريقا آخر ، وأن ينشئوا لا دولة الأرقاء التى نجدها فى الامبراطورية فى عصورها المتأخرة ، ولكن حكومة خلت من أخطاء الامبراطورية فى عصورها الأولى ، ومع ذلك فانها لا تأوى الوحشية التى سادت فى فترة الثورة ؟ من العبث أن يوجه أحد مثل هذا السؤال . فقد شب أباطرة القرن الرابع ، وعلى الخصوص دقلديانوس ، فى جو من القسوة

والقسر ولم يروا قط أى شىء آخر ، ولم يعرفوا أبدا أى نهج آخر . وكان تعليمهم ضئيلا ، وتربيتهم حربية خالصة . اهتموا بواجباتهم اهتماما جديا ، واشتعلت قلوبهم بحب عميق لوطنهم وكان هدفهم هو انقاذ الامبراطورية الرومانية . وقد أفلحوا فى بلوغ هذه الغاية . ولكى يصلوا الى هذا الغرض استخدموا بنية حسنة جدا الوسائل التى كانت مألوفة لديهم ، أى القسوة والقسر . ولم يسألوا أنفسهم قط ان كان من المجدى انقاذ الامبراطورية الرومانية لجعلها سجنا يتسع لعشرات الملايين من البشر .

وسينتظر كل قارىء لكتاب خصص للامبراطورية الرومانية من مؤلفه أن يدلى برأيه فيما يسمى على العموم ، منذ جيبون ، بانحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، أو بالأحرى سقوط الحضارة القديمة عامة . ولذا سأذكر رأيى فى هذا الموضوع بايجاز بعد تعريف هذه المشكلة وتحديدها . ولانحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، أعنى سقوط الحضارة القديمة بأسرها وجهان : أولهما سياسى واجتماعى واقتصادى ، وثانيهما ثقافى وروحى . فمن الناحية السياسية نشاهد صبغ الامبراطورية من الداخل بالتدريج بصبغة همجية ، لا سيما فى الغرب . وقد لعبت العناصر الأجنبية — أى الألمانية — الدور الرئيسى فى كل من الحكومة والجيش ، وعند استقرار جموعهم زحزح السكان الرومانيون ، الذين اختفوا من الحقول . وهناك ظاهرة مرتبطة بما سبق ، هى حقا نتيجة حتمية لانتشار هذه الهمجية فى داخل البلاد ، وأعنى بها انحلال الامبراطورية الغربية يوما اثر يوم . اشترك الألمان والسرماتيون أولا ، ثم انفرد الألمان وحدهم باحتلال أمكنة الطبقات الحاكمة فى الولايات الرومانية السابقة ، اما عن طريق التغلغل السلمى ، أو عن طريق الفتح . وفى الشرق نرى صبغ الامبراطورية البيزنطية تدريجا بصبغة شرقية ،

وقد أدى ذلك فى النهاية الى قيام دول قوية نصف شرقية ، أو شرقية خالصة على أنقاض الامبراطورية الرومانية ، كالخلافة فى بلاد العرب والامبراطورتين الفارسية والتركية . ومن وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية نعنى بالانحلال عودة العالم القديم تدريجا الى أشكال بدائية جدا من الحياة الاقتصادية ، أى الى ما يكاد يشبه « اقتصاديات البيت » الخالصة . أما المدن التى كانت قد أنشئت وغذت أشكال الحياة الاقتصادية ، فانها انحطت تدريجيا ، واختفى أكثرها من على وجه الأرض اختفاء يكاد يكون تاما . ولكنّ عددا قليلا منها ، ولا سيما تلك المدن التى كانت مراكز عظيمة للتجارة والصناعة ، كان لا يزال قائما . وقد سار النظام الاجتماعى فى الامبراطورية القديمة ، على تعقيده ودقته ، فى عين الطريق المؤدى الى الانحلال ، وأصبح قاصرا على عناصره البدائية : الملك وبلاطه وحاشيته ، وكبار الملاك الاقطاعيين ، ورجال الدين ، وجموع من أرقاء الأرض ، وجماعات قليلة من الصناع والتجار . هذا مثلا هو وجه المشكلة من الناحية السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

أما الظاهرة الأساسية من وجهة النظر الثقافية والروحية فهى انحلال المدينة القديمة أى حضارة المدن فى العالم اليونانى الرومانى . كانت الحضارة الشرقية أكثر ثباتا : لقد امتزجت ببعض العناصر فى حضارة المدن اليونانية ، فبقيت ، بل شاهدت نهضة باهرة فى زمن الخلافة فى بلاد العرب ، وفى فارس ، لا نقول فى الهند والصين . وهنا أيضا نجد وجهين لهذا التطور ، أولهما نفاد القوى المبتكرة فى الحضارة اليونانية فى ميادينها التى أحرزت فيها انتصاراتها العظيمة ، فى ميادين العالم الخالص ، وفى الصناعة ، وفى الأدب والفن . ولقد بدأ الانحلال يدب منذ القرن الثانى قبل الميلاد . ثم أعقبته نهضة مؤقتة للقوى المبتكرة فى مدن ايطاليا وفى العصر المتأخر فى المدن فى ولايات الامبراطورية فى الشرق والغرب .

وقد وقف التقدم وقوفا يكاد يكون تاما فى القرن الثانى بعد الميلاد ، وبعد فترة من الركود ، دب مرة أخرى انحلال سريع مطرد . وبازاء ذلك نلاحظ ضعفا متزايدا فى مقدرة الحضارة اليونانية الرومانية على الهضم والامتصاص . فلم تعد المدن تمتص — أى أنها لم تعد تصبغ بصبغة يونانية أو رومانية — جموع السكان فى الريف . بل لقد انعكست القضية . وبدأت همجية الريف تطغى على سكان المدن . ولم تبق الا جزر صغيرة من الحياة المتمدينة قائمة ، أعنى الطبقة العليا المؤلفة من أعضاء مجلس الشيوخ فى الامبراطورية فى عصورها المتأخرة ، ثم رجال الدين . ولكن كلتا الطبقتين — اذا استثنينا قسما من رجال الكنيسة — غمرتهما تدريجيا موجة من الهمجية الزاحفة .

وهناك وجه آخر لهذه الظاهرة عينها ، وهو بروز عقلية جديدة بين جموع السكان . لقد كانت هذه العقلية هى عقلية الطبقات السفلى التى ارتكزت على الدين ، والدين وحده ، ولم تعرض عن الثقافة الرفيعة للطبقات العليا فحسب ، ولكنها وقفت أيضا منها موقفا عدائيا . وقد غلب بالتدريج هذا الميل الذهنى على الطبقات العليا أو على الأقل القسم الأكبر منها . ويتضح ذلك من انتشار الديانات المختلفة التى تدعو للزهد والتصوف من بين شرقية ويونانية . وكان انتصار المسيحية بمثابة الوصول الى الذروة . وفى هذا المضمار كانت القوة المبتكرة فى العالم القديم لا تزال حية نشيطة ، كما يتبين من أمثال هذه الأعمال الهائلة الضخمة كتأسيس الكنيسة المسيحية ، والمواءمة بين العقائد المسيحية وبين المستوى الفكرى للطبقات العليا ، وخلق أدب مسيحى قوى ، وفن مسيحى جديد . وكان هدف الجهود الذهنية الجديدة على العموم هو التأثير فى جماهير السكان ، فهى لذلك تمثل انحدارا من المستوى العالى الذى بلغته حضارة المدن على الأقل فى الأساليب الأدبية (٨) .

نستطيع أن نقول اذن ان هناك طابعا واحدا بارزا فى تطور العالم القديم أثناء الامبراطورية الرومانية ، فى مجال السياسة والاجتماع والاقتصاد ، كما فى مجال الثقافة ، وهو امتصاص الطبقات السفلى تدريجيا للطبقات العليا . وقد صاحب ذلك انحطاط وتسوية تدريجية للمستوى . وقد تمت هذه التسوية بطرق شتى . فتسربت الطبقات الدنيا ببطء خلال الطبقات العليا ، ولم تستطع الطبقات العليا أن تهضم وتمتص العناصر الجديدة . واندلعت بشدة نيران الحرب الأهلية : كان للمدن اليونانية السبق فى ذلك ، ثم جاءت الحرب الأهلية فى القرن الأول قبل الميلاد فعمت العالم المتحضر كله . ودام النصر فى هذا النضال بوجه عام للطبقات العليا ولحضارة المدن . وبعد ذلك بقرنين نشبت حرب أهلية جديدة انتهت بانتصار الطبقات الدنيا ، وبعد أن سددت هذه الحرب ضربة قاتلة للحضارة اليونانية الرومانية فى المدن . وفى النهاية طغى طوفان من العناصر الهمجية الآتية من الخارج ، فأغرق تلك الحضارة ، بالتسلل حينا ، وبالفتح حينا آخر . ولم تستطع هذه الحضارة وهى تغالب سكرات الموت أن تمتص حتى جزءا صغيرا من هذه العناصر .

وعلى ذلك فالمشكلة الأساسية التى ينبغى أن نجد لها حلا هى هذه : لِمَ لَمْ تستطع حضارة المدن فى بلاد اليونان وفى ايطاليا أن تؤثر فى جموع السكان ، ولم بقيت حضارة طبقة منتقاة ، ولم استحال عليها أن تخلق جوا يضمن للعالم القديم أن يتابع سيره دون عائق فى نفس الطريق الذى يقطعه العالم الحديث مرة ثانية ؟ اقترحت تعليلات مختلفة ، يزعم كل منها أنه قال الكلمة الأخيرة فى حل هذه المشكلة . فعلينا اذن أن نستعرض أكثر هذه التعليلات أهمية . ويمكننا أن نقسمها الى أربعة أقسام (٩) .

١ — الحل السياسى ويناضل عنه كثيرون من الباحثين الممتازين .

فمن رأى بيلوخ (Beloch) أن انحلال الحضـــارة القديمة يرجع الى امتصاص الامبراطورية الرومانية لدويلات المدن المستقلة وقيام دولة عالمية عطلت قوى اليونان المبتكرة من أن تنمى أعظم ما وصلت اليه الحياة المتحضرة ، وأن تدعمه . وهذا الرأى ينطوى على جانب من الحقيقة . فمن الواضح أن قيام الامبراطورية الرومانية يعد خطوة الى الأمام فى عملية التسوية ، وأنه سهل امتصاص الطبقات العليا فى النهاية . غير أنه يجب علينا أن ندخل فى حسابنا أن حرب الطبقات كانت طابعا عاما فى الحياة اليونانية . وأنه ليس لدينا ما يسوغ لنا أن نفترض أن الهيئات فى المدن اليونانية كان فى وسعها أن تجد حلا لمشاكلها الاجتماعية والاقتصادية التى أشعلت الحروب الأهلية بين الهيئات المختلفة . زد على ذلك ، أن هذا الرأى يفترض أنه لم يكن هناك الا جنس واحد مبتكر فى العالم القديم . وهذا خطأ ظـــاهر . وهناك تعليل آخر ، يأخذ عين الاتجاه ، تقدم به كورنيمان (Kornemann)[١٠] وهو يرى أن السبب الأساسى فى انحلال الامبراطورية الرومانية هو انقاص أغسطس لعدد القوات المحاربة فى الامبراطورية ، وتمسك خلفائه بهذا التخفيض . وهذا الرأى يضع التوكيد كله على الجانب الحربى من المشكلة ، وهو لذلك يعتبر رجوعا الى الفكرة العتيقة التى طالت عليها العصر والتى تقول ان المدنية القديمة دمرها غزو البرابرة ، وهى فكرة أهملها منذ زمن طويل خيار الباحثين ، وليس من المستطاع بعثها من جديد . فضلا عن أن الاحتفاظ بجيش صغير نسبيا كان ضرورة فرضها ضعف الامبراطورية الاقتصادى ، وهذه حقيقة أدركها جميع الأباطرة . وأقل اقناعا من الرأى السابق قول فيريرو (Ferrero) [١١] ان انهيار الامبراطورية يرجع الى حدث جر فى أذياله أشد النكبات ، وحادث كان له أخطر النتائج . فهو يرى أن ماركوس أورليوس قوض سلطة مجلس الشيوخ التى ارتكز

عليها بناء الدولة الرومانية كله ، عندما ورث سلطانه ابنه كومودوس بدلا من رجل ينتخبه مجلس الشيوخ ، وأن مقتل كومودوس جر الى اغتصاب سيپتميوس للعرش والى الحرب الأهلية التى شبت فى القرن الثالث ، وأن الاغتصاب والحرب قضيا على نفوذ مجلس الشيوخ وحرما سلطان الأباطرة من السند الوحيد الذى يجعله شرعيا فى أعين الأهالى ، وقد كان هذا عماد سلطة الأباطرة الأساسى . ونسى فيريرو أنه من وجهة النظر القانونية كان سلطان الأباطرة فى القرن الثالث لا يزال مستمدا من مجلس الشيوخ ومن الأمة الرومانية . وقد بقيت الحال كذلك حتى زمن دقلديانوس ، ثم ان الفكرة نفسها ما فتئت حية فى زمن قسطنطين وخلفائه . وهو ينسى أيضا أن اصطلاحات أغسطس وڤيسپاسيان والأنطونينيين لدقتها لم يكن ليفهمها جمهور السكان فى الامبراطورية ، وأنها كانت من ابتداع الطبقات العليا فمرت فوق رءوس طبقة العامة . وأخيرا أخفق فيريرو فى فهم الوصف الحقيقى للأزمة التى حدثت فى القرن الثالث . فلم ينشب نضال بين مجلس الشيوخ وبين الامبراطور ، وانما اشتد النزاع بين المدن والجيش — أعنى جموع الفلاحين — وذلك واضح من أن السبق فى هذا النضال كان لمدن ولاية أفريقية لا لرومة . وقد عرض هيتلاند (Heitland) [١٢] تفسيرا أكثر عمقا . فهو يظن أن العالم القديم أصابه الانحلال ، لأنه عجز عن أن يعطى الجماهير نصيبا فى الحكم ، بل على العكس حد العالم القديم من عدد الذين اشتركوا فى حياة الدولة فقصرهم فى النهاية على الامبراطور نفسه وبلاطه وموظفى البيروقراطية فى الامبراطورية . ولكنى أعتبر هذه النقطة وجها واحدا من الظاهرة العظيمة التى وصفتها فيما سبق . ألدينا الحق فى أن نفترض أن الأباطرة لم يكونوا ليحاولوا طريقة الحكم النيابى لو عرفوه وآمنوا به ؟ لقد حاولوا وسائل شتى وفشلوا فيها . فان كان

الحكم النيابى أجنبيا عن العالم القديم (والواقع أنه لم يكن كذلك) فلم لم تتطور الفكرة فى العالم القديم وهى ليست من الصعوبة بمكان كبير ؟ زد على ذلك أن هناك سؤالا آخر هو : أنستطيع أن نجزم أن الحكم النيابى هو سبب ارتقاء مدنيتنا ارتقاء يخلب اللب ، وأنه ليس وجها من وجوه هذا الرقى ، كما كان الأمر فى دويلات اليونان المستقلة ؟ ألدينا أقل باعث على الايمان بأن فى الديمقراطية الحديثة ضمانا للتقدم المطرد الذى لا يعوقه شىء ، وأن فى مقدورها أن تمنع الحرب الأهلية من النشوب اذا احتضنها وأشعل أوارها حقد وحسد ؟ يجب ألا ننسى أن أحدث النظريات السياسية والاجتماعية تظن أن الديمقراطية نظام عتيق ، وأنه بال فاسد ، فهو وليد الرأسمالية ، وأن نظام الحكم العادل الوحيد هو دكتاتورية الطغام . ألم يسر فلاحو الامبراطورية الرومانية دون أن يشعروا وراء هذا المبدأ نفسه ؟

٢ — والتعليل الاقتصادى لانحلال العالم القديم يجب رفضه رفضا باتا . ولقد تحدثت عند الكلام على تطور الصناعة فى العالم القديم (١٣) عن نظرية أتباع ماركس لما لاءم بينها وبين مشكلتنا هذه ك . بيشر ، و م . ويبر ، و ج . سالفيولى . فان كانت هذه النظرية قد عجزت عن تفسير حتى هذه النقطة الصغيرة ، فأولى بها ألا تستخدم فى تعليل ظاهرة عامة . وينسى أتباع نظرية ماركس أن العالم القديم مر بأدوار كثيرة من التطور ، وأن فى هذه الأدوار جاءت فترات طويلة من التقدم ، وفترات طويلة أخرى من الرجوع الى أحوال تقرب من الفطرة ، الى طور من الحياة الاقتصادية ينعت عادة بطور « اقتصاديات البيت » . والحق أن العالم القديم لم يصل قط الى الطور الاقتصادى الذى نعيش فى ظله ، وهو طور الرأسمالية الصناعية . ولكن هناك فى تاريخ العالم القـديم فترات عديدة بلغ فيها التطور الاقتصادى مستوى رفيعا : بعض الفترات

فى تاريخ كثير من الملكيات فى الشرق ، ولا سيما فى مصر وبابل وفارس ، والعصر الذى وصلت فيه الدويلات المستقلة الى ذروة التقدم ، وعلى الخصوص فى القرن الرابع قبل الميلاد ، وعصر الملوك الهيلينستيين وقد تسلقوا القمة فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وعهد الجمهورية الرومانية فى عصرها المتأخر والامبراطورية الرومانية فى أيامها الأولى . ففى كل هذه الأزمنة ظهرت أطوار مختلفة من الحياة الاقتصادية وأطوار متباينة من الرأسمالية . ولم يكن لاقتصاديات البيت الغلبة فى أى فترة منها . ويمكننا أن نقارن طور الحياة الاقتصادية الذى ساد أثناء هذه الفترات بالأطوار التى مر بها كثير من الأقطار الأوربية فى زمن النهضة وبعدها ، رغم أن المقارنة لن تكون فى أى حال تامة ، اذ ليس هناك تشابه تام بين التطور الاقتصادى فى العالم الحديث والقديم . وقد اختلفت العلاقات بين اقتصاديات البيت والاقتصاد الرأسمالى تبعا للأحوال الاقتصادية المختلفة فى هذه العهود الكثيرة فى تاريخ العالم القديم . وهى قد اختلفت فى كثير من الأحيان لا فى الفترات المختلفة فقط ، بل أيضا فى الأجزاء المختلفة من العالم القديم فى أثناء الفترة نفسها . فلم يختلف العالم القديم فى هذه الناحية عن العالم الحديث . فالحياة الاقتصادية فى أيامنا هذه فى أقطار أوربا الصناعية كانجلترا وبعض أجزاء ألمانيا وفرنسا لا تتفق بأى حال مع الحياة فى الأقطار الزراعية مثل روسيا وشبه جزيرة البلقان وبقاع شاسعة فى الشرق الأدنى . والحياة الاقتصادية فى الولايات المتحدة لا تتفق فى شىء مع الحياة فى أوربا أو فى أجزاء مختلفة من جنوب أمريكا ، لا نقول فى الصين واليابان والهند . وقد كان هذا هو الحال فى العالم القديم . فبينما كان لمصر وبابل حياة اقتصادية معقدة وصناعة تطورت تطورا كبيرا وعلاقات اقتصادية واسعة ، عاشت أجزاء أخرى من الشرق الأدنى حياة جد مختلفة ، حياة أكثر قربا من الفطرة . وبينما كانت

أثينة وكورنثة ورودس وسرقسطة وصور وصيدا فى القرن الرابع قبل الميلاد مراكز لرأسمالية تجارية متطورة ، عاشت مدن يونانية أخرى فى حياة تكاد تكون زراعية خالصة . وقد كانت الحال هى عينها فى العصور الهيلينستية والرومانية . فالحقيقة الأساسية التى تتطلب تفسيرا هى : لم خضع التطور الرأسمالى الذى بدأ فى أوقات كثيرة وفى أماكن عديدة والذى عم أجزاء شاسعة من العالم القديم مدة طويلة نسبيا ، لم خضع فى النهاية لأشكال من الحياة الاقتصادية تقرب كثيرا من الفطرة . وحتى فى زماننا هذا لم تطرد تماما هذه الأشكال — ومن الواضح أن المسألة لا يمكن حلها بأن نقرر أن العالم القديم أمضى حياته كلها خاضعا لأشكال من اقتصاديات المنزل البدائية . فمن البين أن هذا زعم واه . اذ يمكننا أن نقول عين ذلك تماما عن مساحات شاسعة من العالم الحديث . ولا يمكننا أن نجزم جزما قاطعا أن مأساة فظيعة لا تستطيع أن تعود بعالم الرأسمالية الحديث الى طور اقتصاديات المنزل البدائية ، كما حدث فى روسيا منذ ثورة البلاشفة .

ولنوجز ما ذكرنا آنفا فنقول ان تبسيط الحياة الاقتصادية القديمة لم يكن علة ما نسميه انحلال العالم القديم ولكنه كان وجها من وجوه ظاهرة أكثر عموما ، وهى التى نحاول لها تعليلا . فهنا كما فى ميادين الحياة البشرية الأخرى من سياسية واجتماعية وثقافية ودينية ، لم تذب أشكال الحياة القريبة من الفطرة والسائدة بين جماهير السكان فى أشكال أكثر علوا ، ولكن تغلبت عليها فى النهاية . ويمكننا أن نختار واحدة من هذه الظواهر ، ويمكننا أن نعلن أنها السبب الرئيسى الأول ، ولكن ذلك فرض تعسفى لا يمكن أن يقنع أحدا . وتبقى المشكلة قائمة . لم وقف تقدم الرأسمالية وانتصارها ؟ لماذا لم تخترع الآلات ؟ لم لم تصل نظم ادارة الأعمال الى درجة الكمال ؟ لماذا لم تقهر القوى الأولية

للاقتصاد البدائى ؟ لقد كانت فى طريقها الى الاختفاء تدريجيا ، فلم لم تختف تماما ؟ ان القول بأنها كانت أقوى من ناحية الكم منها فى وقتنا هذا لا يساعدنا فى تفسير الظاهرة الأساسية . هذا هو السبب فى أن كثيرين من علماء الاقتصاد الذين يدركون أن التعليل المعتاد لا يمس الا السطح الخارجى ولا يغوص الى الأعماق يحاولون أن ينقذوا التعليل الاقتصادى والنظرية المادية للتطور التاريخى على العموم بالاشارة الى عامل طبعى قوى على أنه السبب فى ضعف أشكال الحياة الاقتصادية العليا فى العالم القديم . وقد عثر بعض الباحثين المحدثين على مثل هذا العامل فى انهاك التربة فى جميع أنحاء العالم القديم ، فهم يرون أن ضعف التربة هذا قد وصل الى ذروته فى الامبراطورية الرومانية فى عصورها المتأخرة ، فجلب الخراب على العالم القديم . ولقد بحثت هذه النظرية فيما سلف(*). فلم أجد لها سندا فى الوقائع ، بل كل الوقائع التى تخص تطور الاقتصاد فى العالم القديم تهدمها وتضادها . اضمحلت الزراعة فى العالم القديم على نفس النهج ومن عين الأسباب التى أثرت فى بقية فروع الحياة الاقتصادية . وفى الوقت التى تحسنت فيه الأحوال السياسية والاجتماعية فى أجزاء الامبراطورية المختلفة بدأت الحقول والبساتين تؤتى أكلها كما كانت تفعل من قبل . يشهد بذلك ازدهار غاليا فى عهد أوسونيوس ، وفى زمن سيدونيوس أپوليناريس . وآية ذلك أيضا اضمحلال الزراعة فى مصر فى القرنين الثالث والرابع ، كما حدث فى الولايات الأخرى ، مع أن تربة مصر متجددة الخصوبة ، وحتى أجـزاؤها التى لا يعلوها الفيضان يمكن اصلاحها بسهولة كبيرة بطرق قريبة جدا من الفطرة . فمن الواضح أننا لا نحظى من التعليل الاقتصادى بأى معونة ، وأن أبحاث رجال الاقتصاد

(*) أنظر ص ٤٤٤ .

لا توضح سبب الانحلال فى العالم القديم ، ولكنها تبين وجها من وجوه ذلك الانحلال فقط .

٣ — كان للتقدم السريع فى الطب وفى علم الحياة (البيولوجيا) أثره على مشكلة انحلال الحضارة القديمة . فكثيرا ما عرض تعليل بيولوجى لهذه المشكلة ، ولقد طبقت نظريات الانحطاط وانتحار الأجناس على العالم القديم . وتمدنا النظرية البيولوجية بتعليل يظهر لأول وهلة أنه لا يترك شاردة فى تفسير ضعف قوى التمثيل عند الطبقات المتحضرة العليا . لقد انحطت شيئا فشيئا ولم يبق لها من القوة ما يؤثر فى الطبقات الدنيا ، فامتصتها هذه الطبقات . أما سبب انحطاطها والنقص فى أعدادها فهو فى رأى سيك « القضاء على خير العناصر » فى الحروب الخارجية والأهلية . ويرى آخرون ، مثل تنى فرانك ، أن امتزاج دم الطبقات الدنيا بدم الطبقات العليا دنس تلك الطبقات الأخيرة . ويعتقد آخرون أيضا أن الانحطاط عملية طبعية عامة فى جميع الهيئات المتمـدينة : فالطبقات العليا لا يقضى عليها ولا تدنس ، وانما تنتحر بعدم التوالد انتحارا منظما ، وبالسماح للطبقات الدنيا من البشر بالتكاثر دون قيد(١٤) . وليس لدى ما يؤهلنى للحكم على مشكلة الانحطاط من ناحيتها البيولوجية والفسيولوجية . أما من وجهة النظر التاريخية ، فانى أجرأ على أن ألاحظ — ضد رأى سيك — أن الحروب والثورات لا تقضى على خير العناصر فقط . ومن ناحية أخرى لم تمنع الثورات دائما من أن تصبح الفترات اللاحقة لها فترات ازدهار وانتعاش . ويمكننى أن أقول — ضد رأى فرانك — انى لا أرى قاعـدة للتمييز بين الأجناس العليا والسفلى . ولِمَ يُنظر الى اليونانيين واللاتين على أنهم وحدهم هم الأجناس العليا فى الامبراطورية الرومانية ؟ فبعض الأجناس التى « دنست » الأجناس الحاكمة كأجداد الجنس أو الأجناس الهندية الأوربية والسامية فى حوض

البحر الأبيض خلقوا حضارات عظيمة فى الماضى (كحضارة المصريين والمنويين والايبريين والاترسكيين وحضارات آسيا الصغرى) . وهذا القول نفسه ينطبق على الحضارتين السامية والايرانيـة . فَلِمَ كان امتزاج دم هـذه الأجنـاس باليونانيين والرومان مدنسا لهم وسـببا من أسباب انحلالهم ؟ ومن ناحيـة أخرى ينتمى الكلت والألمـان الى الجنس الذى يتبعه اليونانيون والرومان . وقد كان للكلت حضارة مادية عالية خلقوها لأنفسهم . وقدر للألمان أن يوجدوا فيما بعد حياة متمدينة عالية . فَلِمَ كان امتزاج دمهم مفسدا لا مصلحا لدم اخوتهم الآريين من اليونانيين والرومان ؟ نظرية الانحطاط الطبعى للحضارات بانتحار الأجناس تقرر الظاهرة العامة نفسها التى تكلمنا عنها وهى امتصاص الطبقات الدنيا للطبقات العليا شيئا فشيئا ، وضعف القوى التمثيلية فى الطبقات العليا . فهى تقرر ما هو واقع فعلا ولكنها لا تقدم تفسيرا . فالمسألة التى يجب أن تجد لها هذه النظرية حلا هى : لِمَ لَمْ تتكاثر خير العناصر ؟ ويمكننا أن نجيب على هذا السؤال بطرق شتى : فلنا أن نقدم تعليلا اقتصاديا أو فسيولوجيا أو نفسيا . ولكن أى تعليل منها لن يكون مقنعا .

٤ — وكثيرا ما حُملت المسيحية المسئولية عن انحلال المدنية القديمة. وهذا طبعا رأى ضاق أفقه . فلم تكن المسيحية الا جانبا واحدا من التغيير العام الذى طرأ على عقلية العالم القديم. أنستطيع أن نقرر أن هذا التبدل هو السبب الأول فى انحطاط الحضارة القديمة ؟ ليس من السهل أن نفرق بين الأسباب والأعراض . وأحد الأعمال الملحة فى ميدان التاريخ القديم هو بحث هـذا التغيير الذى طرأ على العقلية بحثا أكثر غورا . فلا ريب أن هـذا التبدل كان أحـد العوامل الهامة جدا فى الانحلال التدريجى الذى أصاب حضـارة الدويلات المستقلة وفى نشوء فكرة جديدة عن العالم وفى ظهور حضارة جديدة . ولكن كيف نفسر هذا التغير؟ أهو مشكلة سيكولوجية من مشاكل الفرد والجماهير ؟ (١٥) .

لا تفسر أى نظرية من النظريات المعروفة مشكلة انحلال الحضارة القديمة تفسيرا تاما ، ان استطعنا أن نطلق كلمة « انحلال » على تلك الظاهرة المعقدة التى حاولنا وصفها . ولكن كل نظرية من تلك النظريات قدمت الكثير لتمهيد الطريق ، وساعدتنا على أن ندرك أن الظاهرة الأساسية التى تختبىء تحت عملية الانحلال هى امتصاص العامة للطبقات المثقفة تدريجا ، وقد تتج عن ذلك تبسيط فى كل وظائف الحياة من سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية ، وهذا ما نسميه انتشار الهمجية فى العالم القديم .

ويلقى علينا تطور العالم القديم درسا وانذارا . فلن تدوم حضارتنا الا اذا أصبحت مدنيةَ الشعب ، لامدنية طبقة واحدة . لقدكانتالمدنيات الشرقية أكثر رسوخا ودواما من الحضارة اليونانية الرومانية ، لأنهـا ارتكزت بوجه عام على الدين ، فأضحت بذلك أكثر قربا من الشعب . والدرس الآخر الذى يلقيه تطور العالم القديم علينا هو أن محاولات التسوية عن طريق العنف لم تساعد قط على انتشال العامة . لقد دمرت هذه المحاولات الطبقات العليا ، وبذا ساعدت على الاسراع فى انتشار الهمجية . ولكن المشكلة الأساسية ما فتئت قائمة كشيطان لا يعزب ولا يهدأ : هل من المستطاع أن تمتد حضارة عليا الى الطبقات السفلى دون خفض لمستواها ، ودون مزج يذهب تماما بمميزاتها ؟ أليس من الضرورى أن يدب الانحلال فى التو الى كل حضارة اذا ما بدأت تنتشر بين العامة ؟

التصويب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٧	١٢	γης	γῆς
٢١	٦	عيئها	عبؤها
٢٣	١٠ ، ١٢	الهلينستية	الهيلينستية
٣٠	٢	يسرعوا	يشرعوا
٤٢	٢٤	الريتون	الزيتون
٥٥	١١	اذحازوا	انحازوا
٨٤	١٢	مسنوى	مستوى
٩٢	١	البارتيون	البارثيون
١٠٣	١٦	وليسو	وليسوا
٢٧٤	٩	مانكيوس	مانكيا
٢٩٢	٢٠	الملائمة	اللائمة
٢٩٥	ما قبل الأخير	تشارلزودث	تشارلزورث
٣٠٠	١١	فيما ورائها	فيما وراءها
٣١٤	٣	Illiricum	Illyricum


